عمران سجلماسة

دراسة تاريخية وأثرية

تأليف

الأستاذ لحسن تاوشيخت

الجزء الأول

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الكتـــــاب : عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية
تــألــيــف : الأستاذ لحسن تاوشيخت
منشــورات : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية
الطبعــة : الأولى 1429هـ/2008م

الــطــبــع : مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء
الإيــداع : 2008 MO 1787
ردمــك : 978-9954-0-5441-4


عمران سجلماسة
دراسة تاريخية وأثرية







التمهيـــد



التمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة إماطة اللثام عن التراث العمراني لمدينة مندرسة لا تزال تخبئ معظم أسرارها تحت الأنقاض. وهو تراث يمثل تراكما غنيا يعكس تفاعل المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مع المجال الطبيعي.

ففي مدينة سجلماسة انصهرت عدة عناصر سكانية وامتزجت فيها تيارات مذهبية وفكرية مختلفة. ولما كان الإنسان جزءا لا يتجزأ من المجتمع وجوهر هذا التراث، فإن ذلك يعبر عن مجموعة معقدة من العلاقات أساسها الممارسة الحياتية في جميع الميادين ويكون العمران نتاجها البارز، وهو ما ذهب إليه عبد الرحمن ابن خلدون في قولته المشهورة : "إن الاجتماع البشري ضروري... وهو معنى العمران"[1].

لذلك فالتراث العمراني لمدينة سجلماسة يمثل الذاكرة الظاهرة للأحداث التاريخية، والمكونات المعمارية ما هي إلا التعبير العياني عن منجزات الإنسان وحاجياته اعتمادا على إمكانياته ووسائله المتوفرة. وهو ما يستدعي الاهتمام بهذا التراث من كل زواياه لتدقيق المعرفة التاريخية وفهم تطور الحضارة السجلماسية في مختلف مجالاتها.

---

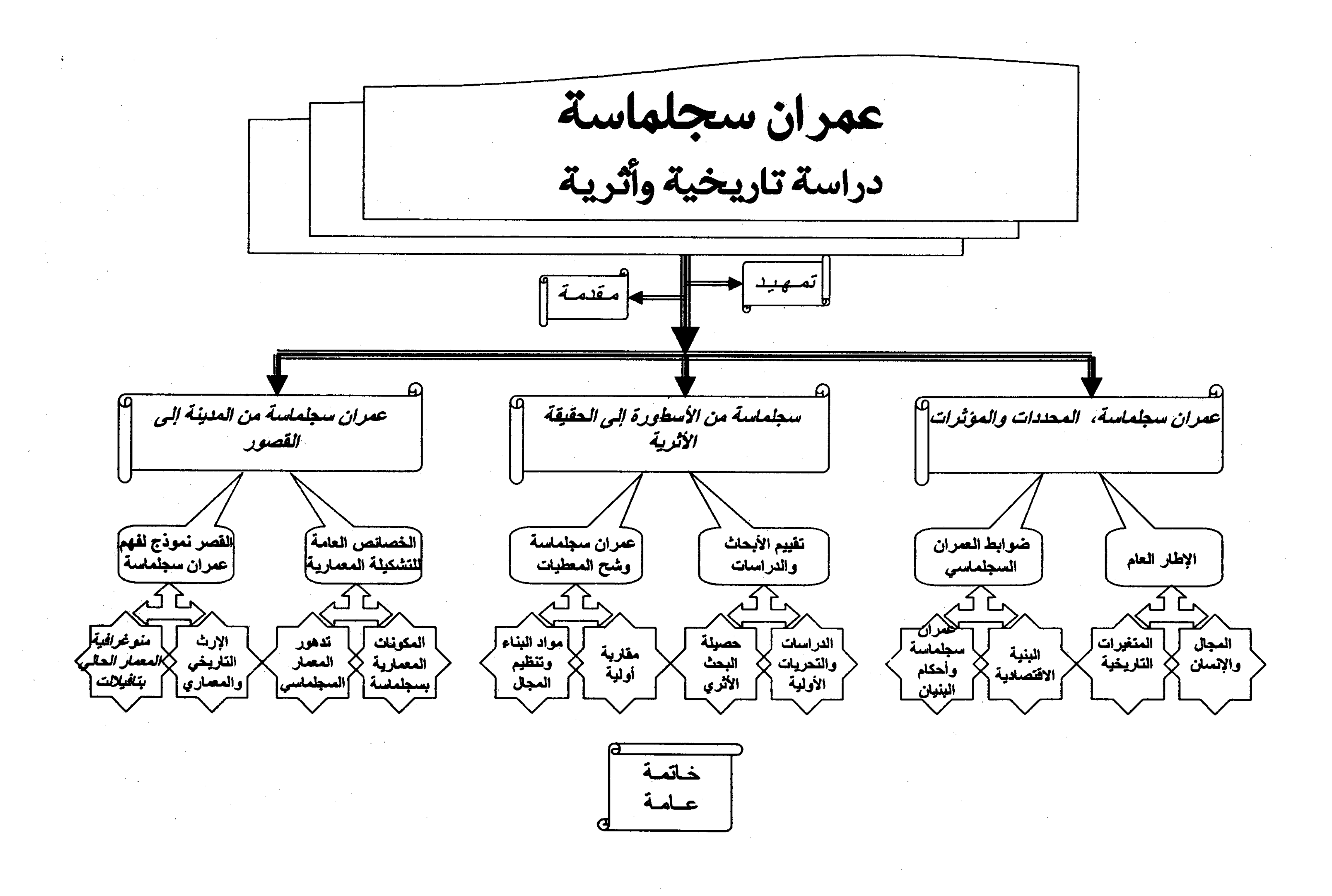
(1) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة. بيروت دار القلم، الطبعة الأولى 1978 (الصفحات 37 و41 و302).

ويرجع اهتمامي بهذا الموضوع إلى الفترة التي شغلت فيها إدارة مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني ما بين سنة 1989 وسنة 1996 ميلادية، إذ قمت بعدة أبحاث وحفريات أثرية بموقع سجلماسة وساهمت في البعثة المغربية الأمريكية المكلفة بإنجاز حفريات في نفس الموقع وذلك ما بين 1992 و1996 ميلادية، مما كان له أبلغ الأثر في بلورة فكرة هذا الموضوع. وبما أن منطقة سجلماسة تزخر بتراث عمراني متنوع ومتجذر في التاريخ لم يستوف بعد حقه من الدراسة والبحث العلمي، فقد شكل ذلك حافزا لخوض غمار الكشف عن خباياه في هذا العمل المتواضع الذي اختير له كعنوان :

« عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية

وأعتقد أن مشروع هذه الدراسة سيقدم قيمة مضافة لمجال البحث الأكاديمي عموما، وسيسد ثغرة كبيرة في حقل الدراسات التاريخية والأركيولوجية المغربية بشكل خاص. فإذا كان موضوع التاريخ هو رواية الوقائع في الزمان والمكان، فإن البحث الأثري هو إحدى الدلائل المادية على حقيقة تلك الوقائع ميدانيا وكرونولوجيا، وضمنها المخلفات المعمارية واللقى الخزفية والمسكوكات والنقوش وغيرها.

فإزالة الغبار عن هذه المعطيات سيساهم في إبراز أهمية التراث العمراني لمدينة سجلماسة، ومكانتها ضمن حواضر المغرب الأقصى. ومن بين الأهداف الأخرى لهذه الدراسة تحديد البقايا الأثرية والمعالم العمرانية، والتحقق من مختلف المعلومات التي أوردتها المصادر التاريخية حول سجلماسة. وسيساعد ذلك على إعادة كتابة تاريخ المنطقة اعتمادا على أسس علمية دقيقة وبالتالي المساهمة في وضع لبنة جديدة في صرح الكتابات التاريخية.



عمران سجلماسة
دراسة تاريخية وأثرية
تمهيد
مقدمة
عمران سجلماسة، المحددات والمؤثرات
سجلماسة من الأسطورة إلى الحقيقة الأثرية
عمران سجلماسة من المدينة إلى القصور
الإطار العام
ضوابط العمران السجلماسي
تقييم الأبحاث والدراسات
عمران سجلماسة وشح المعطيات
الخصائص العامة للتشكيلة المعمارية
القصر نموذج لفهم عمران سجلماسة
المجال والإنسان
المتغيرات التاريخية
البنية الاقتصادية
عمران سجلماسة وأحكام البنيان
الدراسات والتحريات الأولية
حصيلة البحث الأثري
مقاربة أولية
مواد البناء وتنظيم المجال
المكونات المعمارية بسجلماسة
تدهور المعمار السجلماسي
الإرث التاريخي والمعماري
منوغرافية المعمار الحالي بتافيلالت
خاتمة عامة



المقدمــة



المقدمة

إن معرفة دقيقة بتاريخ المغرب عامة والحضارة المغربية بصفة خاصة، تبقى مرهونة بالدراسات والأبحاث ذات الطابع الجهوي والمحلي، ذلك أن البنية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية تختلف من منطقة إلى أخرى وفق خصوصيات كل مجال بيئي وكذا ارتباطا بالظروف المحيطة به. فالأحداث السياسية والاجتماعية إلى جانب المعطيات الاقتصادية والثقافية والدينية التي تميز منطقة سجلماسة ليست بالضرورة هي نفسها التي شهدتها جهات أخرى مثل فاس، أو مراكش، أو سبتة.

وإذا كانت الحواضر المغربية الكبرى تشتهر برسوخ أسس حضارية وتقاليد علمية وفكرية وعرفت أوج عطائها خلال فترات تاريخية معينة، فإن باقي المناطق لم تكن قطعا راكدة ومهمشة، بل كانت أيضا مسرحا تمازجت فيه مختلف المذاهب والتيارات الدينية والثقافية.

ظلت النماذج الأصلية للمدينة الإسلامية مرتبطة بالعواصم الكبرى مثل بغداد أو الفسطاط وفاس والتي تمثل طابعا فريدا لاعتبارات مختلفة، وهي تمثل كذلك مراكز حضرية لا زالت حية وتمت دراستها من الناحية الأثرية بشكل منتظم. أما باقي المدن وخاصة المندثرة منها كسجلماسة، فلا تقل أهمية فهي تعتبر مختبرا مهما لتحليل نموذج المدينة والموقع الأثري الذي ظلت معظم أسراره مدفونة تحت ركام الأنقاض ولا يعرف منها إلا اليسير.

من جهة أخرى يظهر أن معظم الدراسات المهتمة بالتراث العمراني غالبا ما تركز اهتمامها على المدن العتيقة وعلى بعض القصور والقصبات التي لا تزال صامدة، ولا تلتفت إلا نادرا للتشكيلات المعمارية الأخرى وخصوصا المندرسة منها، بالرغم من غنى هذه المكونات بخصوصياتها الهندسية وبثقلها الحضاري وعمقها التاريخي. ويطرح كل هذا إشكالية عامة تستوجب التغلب عليها بتكثيف البحوث وإستفاء الموضوع أحقيته من الدراسة.

وعموما لعبت المدينة أدوارا حيوية في مختلف الجوانب سواء منها السياسية أو الاقتصادية والاجتماعية أو الثقافية والدينية، مما جعل اهتمام الدارسين بهذه المدينة يتوزع حول عدة تخصصات منها التاريخ والجغرافيا بالدرجة الأولى، ثم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، فالأركيولوجيا وأخيرا علم الاقتصاد والآداب.

إن استجلاء عمران سجلماسة تاريخيا وأثريا، تتطلب تحديد الإطارين الجغرافي والزمني للموضوع. فمن الناحية الجغرافية، تقع مدينة سجلماسة وسط واحة، على أبواب الصحراء ووراء جبال الأطلس، وفي مجال يربط بين إفريقيا الشمالية وبلاد السودان.

وقد تجاذبت المدينة عدة موجات بشرية وتفاعلت معها بقوة في إطار حضارة المغرب الأقصى وأكسبها ذلك ثقلا تاريخيا. فقد عرفت منطقة سجلماسة استقرار الإنسان منذ الفترة الممهدة للتاريخ على الأقل، وتوالت دفعات بشرية أخرى وخاصة بعد الفتح الإسلامي وظهور أهمية المنطقة في تجارة القوافل الصحراوية.

أما من الوجهة الزمنية، فتعتبر مدينة سجلماسة من المراكز الحضرية الإسلامية الأولى التي شيدت بالمغرب الأقصى. وبرزت على مستوى الأحداث السياسية انطلاقا من منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن

الميلادي، وتعاقبت على حكمها عدة قوى سياسية ساهمت في الحركة العمرانية للمدينة، وهو ما تشهد عليه البقايا الأثرية الحالية التي تنتمي إلى مختلف الحقب التاريخية التي مرت منها المدينة.

لذلك فإن دراستي لهذا الموضوع تمتد زمنيا من بداية تأسيس سجلماسة في منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى فترة الاندثار في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. ولتعميق المعرفة بالظاهرة العمرانية لمدينة مندرسة، فقد دفعني هذا إلى البحث عن الجذور الأولى. ذلك أن اختيار موقع المدينة وتشييدها في هذا الموضع لم يكن وليد الصدفة، وإنما اعتمد على مرتكزات واقعية ومؤثرات سابقة.

كما أن سجلماسة وإن انتهت كمركز حضري في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فإنها شكلت نواة لمظاهر معمارية أخرى استغلت أنقاضها وأرباضها في فترات لاحقة واستمرت إلى اليوم. وهو ما يبرر الامتداد الزمني للموضوع، في محاولة لتتبع الصيرورة التاريخية والتطورات العمرانية لمدينة سجلماسة.

المقاربة العلمية لهذا الموضوع تطرح عدة إشكاليات، تتعلق بالخلفية المصدرية، وبالمنهج الذي يمكن توظيفه، وبالصعوبات التي تعترض إنجاز هذه الدراسة. أما من الناحية المصدرية، فقد دعت الضرورة إعادة النظر في معظم الكتابات القديمة التي حاولت أن تصف عمران المدينة، كما جاء عند المسعودي، والبكري، وابن حوقل، وابن فضل الله العمري، والإدريسي، والمقدسي، وابن بطوطة، والحسن الوزان وغيرهم.

واتخذت المقاربة منحيين اثنين : فمن جهة، تظل معلومات هذه المصادر قليلة جدا ومبعثرة، ومن جهة ثانية فهي تقدم صورة ضخمة وجذابة عن سجلماسة تفتقد الدقة والتفصيل. يطغى هذا الطابع الوصفي عادة، على الكتاب

العرب القدامى الذين قليلا ما يوثقون بدقة المعالم العمرانية للمدينة كما رأوها، وغالبا ما يروون أخبارهم نقلا عن أناس آخرين وخاصة منهم التجار.

أما الكتابات الأجنبية – التي ترجع إلى بعض الأسرى والرحالة الذين زاروا منطقة سجلماسة أو سمعوا عنها مثل الأسير مويط Mouette، والرحالة غوني كايي René Caillée، والصحفي البريطاني هاريس Harris والمستكشفين الفرنسيين هونرييت Henriet وهنري داستوك Henri Dastugue – فهي لا تخرج عن ترديد ما أوردته المصادر السابقة وأحيانا تقدم وصفا لما تبقى من أطلال مدينة سجلماسة وما شهده موقعها من تغييرات خلال الفترات اللاحقة كبناء القصبة السجلماسية وبعض القصور.

من الناحية الأثرية، أجريت بموقع سجلماسة عدة أبحاث أركيولوجية تحت إشراف بعثات علمية مغربية وأجنبية، حاولت أن تكشف عن الأسرار والخبايات الدفينة لمدينة لعبت أدوارا مهمة في تاريخ الغرب الإسلامي عامة وفي تاريخ العلاقات المغربية – السودانية والمغربية – المشرقية بشكل خاص. إلا أن هذه الأبحاث ظلت ظرفية وجزئية ولم تخضع لبرنامج عملي دقيق وطويل الأمد بل والأكثر من ذلك أن غالبية نتائجها لم تعرف طريقها إلى النشر والتعميم وبقيت حبيسة الرفوف.

الخلفية المنهجية تقتضي الإلمام بالجوانب المختلفة للموضوع ويتجلى ذلك خاصة من خلال التركيز على ثلاث مقاربات منهجية أساسية هي :

أ) المنهج الاستقرائي : ويسعى إلى استنباط كل المعلومات المتعلقة بعمران سجلماسة، من مضانها المتنوعة : كالنصوص المكتوبة، والرواية الشفوية، ونتائج الأبحاث الأثرية، والدراسة الميدانية، والقيام بتصنيفها وفق المحاور المعتمدة.

ب) المنهج المقارن : ويهدف إلى تدقيق المعطيات المكتوبة والأخذ بعين الاعتبار معاصرة المؤلف للأحداث وقربه أو زيارته للمنطقة والمصادر التي اعتمد عليها، وإلى غربلة معلومات الرواية الشفوية وضبط مصداقيتها من الوجهة التاريخية، وإلى دراسة دلالات أسماء الأماكن والمواقع التي تساعد على كشف الغموض عن بعض القضايا المرتبطة بعمران سجلماسة. وأخيرا مقارنة كل هذه المعطيات بالحقائق الميدانية التي أسفرت عنها الحفريات والمسوح الأثرية للمجال المدروس. كما يقتضي المنهج المقارن إيجاد مقاربة بين المآثر السجلماسية الدفينة والمعالم العمرانية الموجودة حاليا بتافيلالت من قصور وقصبات التي أعتقد أنها تمثل نموذجا مصغرا للمدينة الأم أو على الأقل أنها استوحت منها تصميمها المعماري.

ج) المنهج النقدي : ويرمي إلى تطعيم موضوع الأطروحة بعدة تخصصات وخبرات تقنية تشمل ميادين الأركيولوجيا، والجغرافية الطبيعية والبشرية، والهندسة المعمارية، والمعلوميات والتحليلات المخبرية... ففي هذه الخطوة قمت بدراسة نتائج الأبحاث التي أُنجزت منذ الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي وخاصة منذ بداية السبعينيات مع البعثات الإيطالية (1971 - 1972)، والمغربية (1974)، والفرنسية (1984) والأمريكية (1988 - 1998)، فضلا عن الأبحاث الشخصية التي قمت بها منذ سنة 1987. كما حاولت إلى جانب هذا، إعداد مجموعة من التصاميم والرفوعات الهندسية والطبوغرافية، والقيام بتغطية فوتوغرافية شاملة، والاعتماد على المتوفر من الخرائط وصور الأقمار الاصطناعية.

إن الخصوصية التاريخية لمنطقة سجلماسة منذ أواسط القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وإلى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة/التاسع عشر للميلاد، وما تميزت به هذه الخصوصية من الاستقرار البشري المكثف والمتنوع وما نتج عن ذلك من التفاعل والعطاء الحضاريين، كانت من

الحوافز التي دفعتني إلى ضرورة إبراز الجوانب الدقيقة من "عمران سجلماسة". وقد زاد في إنارة الطريق أمامي، النتائج المهمة التي حصلت عليها من خلال مجموعة من التنقيبات والتحريات الأثرية التي أنجزتها منذ عام 1987.

ففي إطار تحضير رسالة الدكتوراه الفرنسية الموحدة في موضوع : "دراسة اثنو-أثرية لخزف تافيلات (سجلماسة)" أجريت عدة مسوح تهم جمع اللقى الخزفية ودراستها، والكشف عن مراكز صنعها والمادة الأولية المستعملة فيها، والتعريف باستعمالاتها اليومية داخل المجتمع السجلماسي من خلال دراسة أشكالها، وتحديد دورها في تجارة القوافل من خلال مقارنتها بالخزف المكتشف في مدن جنوب الصحراء، ووضع كرونولوجيا واضحة لمختلف الأصناف المكتشفة.

أما الصنف الثاني من هذه الأبحاث فيهم إبراز البقايا العمرانية والأثرية بتافيلالت ومنها الكشف عن السور السجلماسي وخاصة الطرف الغربي منه الذي يمر بمحاذاة وادي زيز. ومنها أيضا القيام بدراسة منوغرافية لأهم القصور الموجودة بتافيلالت من خلال إعداد تصميم أولي، وبدراسة مرافقها وتبيان نمط هندستها وأشكالها الزخرفية.

من جهة أخرى ساهمتُ في البعثة المغربية الأمريكية خلال مواسم 1988، و1992 ، و1993 ، و1994 و1996 وذلك في إطار التعاون بين المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث .I.N.S.A.P بالرباط وجامعة ميدل تينيسي Middle Tennessee University بالولايات المتحدة الأمريكية. هذه البعثة التي يرأسها الباحث رونالد ميسيي Ronald A. Messier، قامت بإجاز دراسة خزفية ووضع الخريطة الأثرية والطبوغرافية لموقع سجلماسة بالاعتماد على الصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية، كما أجرت عدة حفريات تجريبية ومسوح جيوفيزيائية وعدة أبحاث ميدانية أخرى.

وبالرغم من هذه المؤهلات العلمية والتجربة الميدانية التي اكتسبتها حول سجلماسة والشغف الكبير بموقعها، فهذه الدراسة لا يمكنها أن تخلو من هفوات، ذلك أن البحث حول تاريخ سجلماسة عامة وحول تطورها العمراني بشكل خاص، يعد من الأهمية بمكان ومن الدراسات البكر، وبالتالي تعترض هذا العمل مجموعة من الصعاب التي تستلزم التوفر على إرادة قوية وعزيمة لا تلين من أجل التغلب عليها. من أهم هذه الصعوبات أخص بالذكر ما يلي :

• قلة النصوص المكتوبة : وتتجلى في أن كل ما وصلنا من المؤلفين القدامى، ارتبط بالمعطى السياسي والكرونولوجي للأحداث بسجلماسة وأغفل الجوانب الأخرى، بل وتضاربت الروايات التاريخية حول تأسيس المدينة ومظاهرها العمرانية والاقتصادية والاجتماعية. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها ما يتعلق بعدم تحري الدقة في مصادر الخبر، ومنها ما نتج عن بُعد المؤلف عن المنطقة زمنيا ومكانيا ومنها ما كان خاضعا لأهداف سياسية وحتى دينية ومذهبية.

• انعدام أي وثيقة تعرف بالمتغيرات العمرانية والاجتماعية : ذلك أن المدينة المغربية على نقيض مثيلاتها العربية التي كانت تحت الحكم العثماني، لم تشهد تقاليد المحافظة العقارية والتوثيق المعماري سواء من الناحية الإدارية أو القضائية. كما أن النوازل والحوالات الحبسية والتراجم والمناقب والرحلات والرسوم العدلية والظهائر السلطانية وبعض الفتاوى، التي يمكن أن تقدم معلومات غنية عن الجوانب المعمارية والتاريخية والاجتماعية للمدينة، نادرة جدا ويصعب الوصول إلى المتوفر منها بسهولة.

• غياب التراكم في نتائج الأبحاث الأثرية : مما يجعل من الصعوبة رسم حدود موقع سجلماسة الأثري. وهو مشكل يرتبط أساسا بقلة المعلومات، وأيضا بطبيعة الموقع نفسه الذي عرف عدة مراحل من البناء والهدم منذ

منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى غاية منتصف القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

المشكل ذاته يطرح بالنسبة لتحديد البقايا الأثرية القديمة ومحاولة تأريخها بدقة وكذا فهم التحقيب الحقيقي للطبقات الأثرية الدفينة التي يصل امتدادها إلى عدة كيلومترات مربعة ويتراوح عمقها ما بين ثلاثة وثمانية أمتار حسب الأماكن، وهذا ما يستوجب إنجاز حفريات واسعة وعميقة من جهة ومنتظمة ودقيقة من جهة ثانية.

• عقبة التحقيب التاريخي : وهي أصعب مشكلة لارتباطها بالمعضلتين السابقتين. فلكي يتم الوصول إلى كرونولوجيا نسبية، أعتمدت إجمالا على جميع الوسائل الممكنة : ومن ذلك تنقيح المعلومات التاريخية، والمعرفة الجيدة بتسلسل الطبقات الأثرية، ودراسة اللقى المكتشفة وخاصة الخزفية والنقدية وأيضا المقارنة العلمية مع مواقع ومكتشفات مشابهة تم تأريخها بدقة ؛ وركزت في هذا الصدد على أبحاث أودغشت على الخصوص.

• قلة الإمكانيات والوسائل اللازمة في مثل هذه الدراسة : والمرتبطة أساسا بإنجاز حفريات أثرية معمقة، وبدراسة شاملة للبقايا الأثرية، وبإجراء تحليلات علمية، وبوضع خرائط ورفوعات وتصاميم هندسية وطبوغرافية في المستوى المطلوب.

ومهما كانت العقبات، فقد استطعتُ، بفضل الله وعونه، أن أصل إلى جني ثمرة ثلاث عشر سنة من البحث والتنقيب، من خلال إنجاز هذا العمل المتواضع الذي وزعته إلى ثلاثة أبواب وكل باب قسم بدوره إلى فصلين وكل فصل يتضمن مبحثين :

* فالباب الأول يعتبر كمدخل ضروري لفهم الظروف العامة المحيطة بظهور وتطور مدينة سجلماسة. وخصص الفصل الأول من هذا الباب لتحديد الإطار العام للمدينة وذلك وفق مبحثين : يتطرق أولهما للمعطيات الطبيعية

والبشرية، بينما يحاول المبحث الثاني أن يستعرض أهم الأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة منذ الفترة الممهدة للتاريخ إلى فترة اندثار مدينة سجلماسة في نهاية العصر المريني.

أما الفصل الثاني فاهتم بالمؤثرات الثابتة في العمران السجلماسي، وقسمته أيضا إلى مبحثين : خصصتُ الأول لتحديد الضوابط الاقتصادية وحجم تأثيرها المباشر على العمارة السجلماسية. وحاولت في المبحث الرابع أن أوفق بين المبادئ العامة للقاعدة الشرعية في البنيان ومدى ملاءمتها لدراسة عمران سجلماسة.

* واستهدف الباب الثاني محاولة إخراج سجلماسة من الأسطورة إلى الحقيقة الأثرية. وهكذا عملت في الفصل الثالث على الكشف عن الأسرار الدفينة لهذه المدينة «العامرة» من خلال تحليل الأبحاث الأركيولوجية التي عرفتها منطقة سجلماسة منذ بداية العقد الثالث من القرن العشرين الميلادي إلى غاية سنة 1418 هجرية/ 1998 ميلادية. فتعرضت في المبحث الخامس للتحريات والدراسات الأولية التي اهتمت بدراسة الآثار القديمة التي تعود إلى الفترة الممهدة للتاريخ «Protohistoire»، وإلى بعض الأبحاث التي أنجزت بمواقع جنوب الصحراء، وإلى أهم الدراسات الجامعية التي اتخذت من سجلماسة موضوعا لها. وركزت في المبحث السادس على الأبحاث الأركيولوجية التي أجريت بموقع سجلماسة خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 1390 هجرية / 1970 ميلادية وسنة 1418 هجرية / 1998 ميلادية، والتي خلصت إلى نتائج مهمة بالرغم من محدوديتها في الزمان والمكان.

أما الفصل الرابع فحاول أن يقارب العمران السجلماسي وتم توزيعه إلى مبحثين اهتم أولهما بتحليل ونقد المعطيات التاريخية أكانت مصادر مكتوبة أو روايات شفوية أو تحريات أثرية. بينما ركز المبحث الثامن على دراسة مواد البناء المستعملة ونوعية التخطيط الحضري المعتمد، وذلك بالتوفيق بين الشذرات القليلة من المعلومات التي تقدمها المصادر التاريخية وبين المعطيات الأثرية.

* الباب الثالث حاول إبراز المكونات المعمارية بمدينة سجلماسة، وتفسير عملية انتقال هذا النمط العمراني من تجمع حضري إلى قصور وقصبات. ويركز الفصل الخامس على الخصائص العامة للتشكيلة المعمارية السجلماسية وضمنه يحاول المبحث التاسع تقديم تحليل دقيق للمعالم المعمارية بمدينة سجلماسة حسب وظيفتها وانتمائها. وفي المبحث العاشر تطرقت إلى التدهور الذي شهده عمران سجلماسة مع الإشارة إلى العوامل التي أدت إلى اندثار مدينة سجلماسة وإلى الأسس التقنية والتنظيمية للقصور.

الفصل السادس والأخير حاول دراسة المعمار القصري الحالي بتافيلالت كنموذج حي لفهم بعض الجوانب الغامضة من عمران سجلماسة بين الثابت منها والمتمثل في مواد البناء وربما التنظيم المعماري وبين المتحول ويرتبط أساسا بالمتغيرات التاريخية. فأهتم المبحث الحادي عشر بتقديم جرد لأهم الأحداث التي شهدتها المنطقة منذ بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، مع ذكر أهم القصور التي ورثت الدور السياسي والاقتصادي عن مدينة سجلماسة. وخصصت المبحث الثاني عشر لمنوغرافيا القصور الفيلالية وركزت خاصة على العمارة العلوية، وعلى المؤسسات الدينية كالمساجد والأضرحة والزوايا، وعلى نموذجين للمعمار الحرفي.

وفي نهاية هذا العمل، حاولتُ الخروج ببعض الاستنتاجات والخلاصات كإبراز المعطيات الجديدة التي تحققت، وتصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها السابقون و تقديم إفادات ضرورية. وقمتُ إضافة إلى ما سبق بتدعيم هذا العمل بمجموعة من الخرائط والصور والرسوم والبيانات والجداول والتصاميم التوضيحية، استوفت مكانها. كما خصصتُ عددا من الملاحق كتلك المتعلقة بالحكام الذين تعاقبوا على حكم مدينة سجلماسة، والوثائق المخزنية الخاصة بالمنطقة، والأعلام الجغرافية والبشرية، والقصور الفيلالية العامرة منها والخالية مع توضيح دلالة اسمائها.

الباب الأول

عمران سجلماسة
المحددات والمؤثرات



الفصل الأول

○○○○○

الإطــار العــام



المبحث الأول :

المجال والإنسان

تقديـــم :

شيدت سجلماسة وسط واحة غنية وفوق ربوة مرتفعة، يحيط بها نهران وفي ملتقى مسالك القوافل التجارية. واستقطبت المدينة عبر تاريخها مجموعات إثنية مختلفة في الأصول واللغة والمعيشة والعادات. وكانت سجلماسة من المدن الإسلامية الأولى التي عُمرت بالمغرب الأقصى، وتميزت الظروف السياسية التي أحاطت بها بعدم الاستقرار، وتأرجحت بين النزوع إلى الاستقلال وبين الرضوخ قسرا للتبعية. فقد بنيت المدينة على الأرجح عام 140 هجرية الموافق لسنة 757 ميلادية من طرف خوارج بني مدرار. وكانت في أول الأمر ما بين 140 و447 هجرية/757-1054 ميلادية عبارة عن إمارة تعاقب على حكمها كل من المدراريين والمغراويين. واستطاع أمراء سجلماسة خلال هذه الفترة الحفاظ على استقلالها، بالرغم من النزاعات الداخلية والمؤامرات الخارجية. وابتداء من منتصف القرن الخامس وإلى نهاية القرن الثامن للهجرة/ الحادي عشر ـ الرابع عشر للميلاد، دخلت سجلماسة تحت سيطرة الحكم المركزي بالمغرب، فتحولت بذلك إلى ولاية أو إقليم تحت سيادة المرابطين ثم الموحدين فالمرينيين. وهكذا أصبحت المدينة تلعب دور الممول الرئيسي لخزينة الدولة المغربية، وكانت أيضا هدفا لكل حركة تطمح في بسط سيطرتها على المغرب الأقصى أو الغرب الإسلامي ككل أو على الأقل التحكم في تجارة القوافل.

I - المميزات المجالية :

1 - سجلماسة، الاسم والموقع :

سجلماسة اسم لمجال ظل طيلة الفترات التاريخية التي مر منها، غير محدد بوضوح وعرف حالات من التوسع والانكماش حسب المتغيرات السياسية ولذلك اختلف الكتاب القدامى في تقديم معلومات مضبوطة عن المدينة وبالتالي في ضبط حدودها. وهكذا اتسمت المعطيات التي جاء بها الجغرافيون العرب الأوائل بالتناقض : فاليعقوبي المتوفى سنة 284 هجرية الموافق لسنة 891 ميلادية، يغلب على مؤلفه "البلدان"[1] الذي انتهى من تأليفه بمصر سنة 278 هجرية/885 ميلادية، الطابع الحدثي ولا يتضمن أخبارا كثيرة عن المغرب الذي لم يزره أبدا.

ابن الفقيه الذي توفي بعد سنة 296 هجرية/903 ميلادية، ترك مؤلفا جغرافيا عن الغرب الإسلامي والسودان، اعتمد فيه على كتاب اليعقوبي وسماه "مختصر البلدان". طبع بليدن سنة 1889 ميلادية وفيه انشغل بالأحداث السياسية أكثر من الظواهر الأخرى. أما ابن خرذادبة المتوفى حوالي سنة 300 هجرية/899 ميلادية، فقد اهتم في كتابه "المسالك والممالك"[2] بالأقاليم الإسلامية، واصفا الطرق التجارية والمسافات بينها. إلا أن معطياته المتعلقة ركزت أكثر على المشرق، وبالمقابل ظلت مضطربة بالنسبة للغرب الإسلامي. المسعودي [المتوفى سنة 345 هجرية/956 ميلادية] الذي قضى 25 سنة وهو يطوف العالم الإسلامي والممالك المجاورة، سجل في كتابه "مروج الذهب"[3] مشاهداته واصفا أحوال الأمم التي زارها وذاكرا عقائدها وتقاليدها.

---

(1) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وحيد الكاتب) : **كتاب البلدان**. ليدن، تحقيق دي كوخ، مطبعة بريل Brill 1967 القاهرة، المطبعة الحيدرية 1957.

(2) ابن خرذادبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) : **المسالك والممالك**. ليدن، تحقيق دي كوخ، مطبعة بريل Brill 1889 القاهرة، المطبعة الحيدرية 1967.

(3) المسعودي (علي بن الحسين) : **أخبار الزمان**. نشره كيوك Cuoq (Jo. M) تحت عنوان :

Recueil des sources arabes concernant l'Afrique Occidentale du XIII au XVI° siècle. Paris, C.N.R.S. 1975 [Sijilmassa : pp. 60-61].

أما الإصطخري [المتوفى سنة 340 هجرية/بعد 951 ميلادية]، فقد تضمن مؤلفه الجغرافي "المسالك والممالك"[4] معلومات مهمة تعرف ببعض المناطق المغربية. المقدسي الذي توفي سنة 387 هجرية/985 ميلادية، اعتمد على أخبار المسافرين وحاول أن يصف كل الممالك الإسلامية في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"[5] والذي كتبه في سنة 375 هجرية/977 ميلادية. ومع ذلك فإن معلوماته عن المغرب يشوبها النقصان والغموض.

وإذا كان هؤلاء الكتاب الأوائل قد وصفوا سجلماسة ومجالها عن بُعد وأضفوا عظمة المدينة بنوع من الأسطورة، فإن الجغرافيين اللاحقين وخاصة منهم الذين أُتيحت لهم فرصة زيارتها "تركوا أوصافا إلى حد ما مفصلة عن سجلماسة خاصة من الناحية السياسية والاقتصادية لكن مع تكرار نفس التفاصيل دائما وبدون تمحيص"[6]. فابن حوقل [توفي سنة 380 هجرية حوالي 978 ميلادية] زار المغرب وقدم عنه معلومات مهمة في كتابه "صورة الأرض"[7] الذي يعتبر مصدرا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنه. ويعد أبو عبيد الله البكري

(4) الإصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي) : **كتاب المسالك والممالك**. تحقيق جابر عبد العالي. القاهرة، دار القلم 1961 نشره كيوك J. Cuoq تحت عنوان :
"Extrait de la géographie de l'Afrique sub-saharienne", *Recueil des Sources Arabes* ; op. cit [Sijilmassa : p. 39 et p. 46].

(5) المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر) : **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. دمشق، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1980. وقام شارل بيلا Charles Pellat بترجمة جزء منه تحت عنوان :
Description de l'Occident Musulman au IV-X° siècles. Leyde, Imprimerie BRILL, 2° édition 1967. Texte arabe et traduction française. [Sijilmassa : p. 219 et p. 231].

(6) El-Mellouki (Mohamed) : *Contribution à l'étude de l'histoire des villes médiévales marocaines : Sigilmassa des origines à 668 (H)/1269(J.C)*. Université Aix-Marseille I, Thèse de 3° cycle en Etudes et Civilisation Islamiques 1985. Figures et cartes dans le texte, X+511 feuilles dactylographiées (p. IV).

(7) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي) : **صورة الأرض**. ليدن، مطبعة بريل Brill 1872. بيروت، مكتبة الحياة، الطبعة الأولى 1979، الطبعة الثانية 1992، 432 صفحة. ترجم إلى الفرنسية من طرف :
J. H. KRAMERS et G. WIET, Paris, édition G. P. Maisonneuve et Larose 1964. Deux volumes, 23 cartes hors texte. Collection U.N.S.C.O. d'œuvres représentatives : série arabe (550 pages).

[المتوفى سنة 487 هجرية/1094 ميلادية] من أبرز المؤلفين الذين كتبوا عن الغرب الإسلامي عامة. فبالرغم من عدم زيارته لمنطقة شمال إفريقيا، فإنه انكب وهو مقيم بالأندلس على القراءة ومساءلة التجار والرحالة مما مكنه من تأليف كتابه المشهور : "المسالك والممالك"[8] والذي وصلنا منه الجزء الخاص بالأندلس والمغرب والسودان والذي اعتمدت فيه على طبعة باريس 1968 وعلى طبعة قرطاج 1992.

من جهته أقام الإدريسي والمتوفى سنة 564 هجرية/1159 ميلادية مدة ليست بالقصيرة في المغرب قبل أن يلتحق بمدينة بالرمو Palermo استجابة لدعوة روجر الثاني Roger II ملك صقلية، حيث ألف كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"[9]. ويعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات الجغرافية فهو يضم أكثر من أربعين خريطة ويتضمن وصفا للأحوال الاقتصادية بالغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

أما ياقوت الحموي[10] [توفي حوالي سنة 626 هجرية/1229 ميلادية]، والقزويني[11] والكاتب المراكشي المجهول [الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي] مؤلف "كتاب الاستبصار في عجائب

(8) البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد) : **كتاب المسالك والممالك**. ترجمه وحققه البارون ذي سلان تحت عنوان : "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" أو «(Description de l'Afrique Septontrionale)»، Alger، 1857 الجزء الخاص بالمغرب والسودان ترجم وطبع بباريس سنة 1968. أخر طبعة من تحقيق أدريان فان ليوقن، أندري فيري، قرطاج، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، جزءان 1992.

(9) الإدريسي (أبو عبد الله بن محمد بن إدريس) : **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**. حقق من طرف دوزي ودي كوخ بعنوان : "المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس"، ليدن، مطبعة بريل Brill 1864. ترجمه محمد الحاج صدوق إلى الفرنسية تحت عنوان :

Le Maghreb au VI° siècle (H)/XII° siècle (J.C). Paris, édition Publisud 1983. 187 pages de texte arabe et 219 pages de texte français.

(10) الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت) : **معجم البلدان**. نشره كيوك J. Cuoq في Recueil des Sources Arabes (pp. 182-187) وطبع ببيروت، دار النشر 1957.

(11) القزويني (زكرياء بن محمد) : **آثار البلاد وأخبار العباد**. بيروت، دار صادر 1969.

الأمصار"(12)، فقد اعتمدوا أساسا على ما أورده البكري. ويقدم لنا المؤلف المجهول بالخصوص، في القسم الأخير من كتابه والمتعلق بالمغرب الأقصى في عهد الدولة الموحدية، معلومات هامة حول المجهودات المعمارية للموحدين وخاصة خلال حكم الخليفة يعقوب المنصور.

وتنطبق نفس الملاحظة على السرخسي [المتوفى سنة 667 هجرية/1255 ميلادية] الذي اعتمد على معلومات التجار والرحالة والكتاب السابقين مثل البكري. أما ابن بطوطة الذي توفي حوالي سنة 778 هجرية/1377 ميلادية، فقد كان شغوفا بالرحلة وقضى معظم حياته في الترحال، فزار ابتداء من عام 725 هجرية/1325 ميلادية، المشرق وروسيا والهند والصين والسودان والأندلس. ودوّن رحلته في كتاب اختار له اسم : "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"(13) الذي طبع أول مرة بباريس سنة 1853 ميلادية.

من جانبه قام محمد بن الحسن الوزان المعروف ب "Jean-Léon l'Africain" بزيارة منطقة سجلماسة في أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وقضى بأحد قصورها حوالي سبعة أشهر، ويورد معلومات غنية وفريدة عن المنطقة في كتابه "وصف إفريقيا"(14).

إلا أن عيب هذه المصادر أنها "تقف عند حدود المنطقة الشمالية وتترك شطره الأكبر أي الجنوبي في منطقة الظل. وأهم ما تلقيناه من معلومات عن الواحات والصحراء المغربية، يرجع فيه الفضل إلى أبي عبيد الله البكري في كتابه المسالك والممالك والذين جاءوا بعده لم يضيفوا شيئا كثيرا اللهم إلا في

---

(12) مجهول : **كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب.** تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1985.

(13) ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) : **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.** تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي. الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث. خمس مجلدات 1997 المجلد الرابع.

(14) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : **وصف إفريقيا.** تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، الطبعة الأولى، جزءان 1982.

نطاق الجزئيات ويجب أن ننتظر ابن بطوطة الرحالة المعروف لنجد في رحلته فقرات يتحدث فيها عما شاهده أثناء رحلته عن الصحراء والصحراويين. وكان الحسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" أكثر إفادة بما أتى به من معلومات"[15].

من حيث الاسم، لم تحظ سجلماسة بأي إشارة أو اهتمام من طرف المؤرخين المشارقة المشهورين أمثال الطبري وابن عبد الحكم والواقيدي. نفس الشيء ينطبق على المؤرخين الإغريق والرومان مثل هيرودوت، وسالوست، وبلين وبوليب. وظهر هذا الاسم أول مرة عند اليعقوبي الذي ذكر أن سجلماسة كانت تضم "قرى تعرف ببني درعة"[16] بينما يشير ياقوت الحموي أن سجلماسة هي "مدينة صغيرة في جنوب المغرب، في اتجاه بلاد السودان، تقع بناحية درن وسط الرمال، يخترقها نهر عظيم"[17]. ويضيف البكري أن سجلماسة "ليس في قبليها ولا في غربيها عمران"[18]. نفس الوصف يورده ابن فضل الله العمري فيقول سجلماسة "تقع جنوب باقي مدن المغرب، بجوار الصحراء الكبرى"[19].

وأورد المقدسي "وأما سجلماسة فهي اسم القصبة أيضا ولها من المدن درعة، تادنفوست، إثرايلا، يلميسن، حصن ابن صالح، النحاسين، حصن السودان، هلال، امصلى، دار الأمير، برارة، الخيامات، تازروت"[20]. ويذكر ابن يحيى الأنصاري الكتبي [توفي حوالي سنة 718 هجرية/1318 ميلادية] "في منطقة صحراوية نجد أيضا سجلماسة بنيت على أرض مسطحة ذات تربة على شكل

---

(15) زنيبر (محمد) : "مساهمة الصحراء في بناء الدولة المغربية"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. الرباط، العدد 21-22/1998 ص 77-95 (ص 78-79).

(16) اليعقوبي)(أحمد بن وحيد) : المصدر السابق (ص 110).

(17) الحموي (أبو عبد الله ياقوت) : المصدر السابق، الجزء الثالث (ص 192).

(18) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق، طبعة 1968 (ص 148).

(19) العمري (ابن فضل الله أحمد بن يحيى) : **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. تحقيق مصطفى أبو ضيف. الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1988 نشره ديمومبين G. DEMOMBYNES تحت عنوان :
L'Afrique moins l'Egypte, Paris, Librairie Orientaliste, édition Paul GEUTHNER 1927 ; LXVIII+284 pages (p. 250).

(20) المقدسي (أبو عبد الله محمد) : المصدر السابق (ص 219).

سبخة ولا وجود لعمران إلى الجنوب منها"[21]. ويربطها القلقشندي [المتوفى حوالي سنة 821 هجرية/1418 ميلادية] دائما بجنوب المغرب في نهاية المناخ الثاني[22].

اعتمادا على رواية ابن حوقل، فإن سجلماسة كانت تمتد لمسيرة خمسة أيام على ثلاثة ويمكن أن يبلغ طولها حوالي 150 كيلومترا من الشمال إلى الجنوب وعرضها 100 كيلومترا من الغرب إلى الشرق[23]. ويذكر محمد بن الحسن الوزان أن "سجلماسة إقليم يستمد اسمه من المدينة الرئيسية فيه ويمتد على طول وادي زيز يبتدئ من الخنك من المضيق القريب من مدينة غارسلوان ونزولا نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلا حتى تخوم صحراء ليبيا"[24].

وحاول ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافي أن يضبط مجال سجلماسة من حيث خطوط الطول والعرض "وفي شرقي درعة مدينة سجلماسة وهي قاعدة ولاية مشهورة حيث الطول ثلاث عشرة درجة واثنان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة"[25]. بينما تحددها دائرة المعارف الإسلامية «على مسيرة نحو 200 ميل جنوبي الجنوب الشرقي لفاس على تخوم الصحراء، وعلى الشاطئ الأيسر لوادي زيز، وعلى خط عرض 80'، 34° شمالا، وخط طول 31'، 7° غربا"[26]. وكانت سجلماسة في القرنين

(21) Cuoq (J) : op. cit. (p. 125).

(22) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي الفزازي) : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. تحقيق محمد قنديل البقلي. القاهرة، المؤسسة المصرية، الجزء الخامس 1972 (ص 163).

(23) Devisse (Jean) : "Sijilmassa : les sources écrites, l'archéologie et le contrôle des espaces", *Colloque Euro-africain Erfoud. 20-25 octobre 1985*. Bergamo (l'Italie), Gruppo Walk Over, 1986. Paris, Publication de l'Institut International d'Anthropologie, Centre International de Recherches Sahariennes et Sahéliennes 1986, pp. 18-25 (p. 22).

(24) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 120).

(25) ابن سعيد (أبو الحسن علي المغربي) : **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**. تطوان، معهد مولاي الحسن 1958 وطبع ببيروت سنة 1970 تحت عنوان : **كتاب الجغرافيا** (ص 124).

(26) مجموعة من المؤلفين : **دائرة المعارف الإسلامية**. القاهرة، الطبعة الأولى (بدون تاريخ) الجزء الحادي عشر (ص 298).

الأولين تحت حكم المدراريين تقع بين خطي عرض 31° و20'، 31° وكانت عبارة عن "إمارة واسعة امتد نفوذها غربا حتى مناطق درعة، ثم عرفت هذه الإمارة اتساعا كبيرا في عهد المغراويين الذين بسطوا نفوذهم على مناطق قريبة من فاس، ثم أصبحت فيما بعد ولاية تابعة لمختلف الدول المغربية الكبيرة كالمرابطين والموحدين والمرينيين"[27].

وبما أن موضوع هذا العمل ينحصر على دراسة العمران السجلماسي في مجاله المحدود جدا، فإن سجلماسة المعنية بالدراسة هي المدينة بالأساس وما يمكن أن يحيط بها من البنيان بالضاحية. تقع هذه المدينة في قلب واحة تافيلالت التي يبلغ أقصى علوها حوالي 765 مترا فوق سطح البحر، وتنخفض باستمرار في اتجاه الجنوب. تبلغ مساحة الواحة الإجمالية حوالي 300 كلم^2 وتخللها بعض المرتفعات الجبلية مثل تينغراس (776 مترا) والجبيل (787 مترا) وريش هارون (790 مترا). يحد تافيلالت من الشمال واحة أولاد الزهراء ومدينة أرفود، ومن الجنوب جبلي أدرار وبومعيز، ومن الشرق وادي أمربوح ومن الغرب وادي غريس.

المؤرخون القدامى والمعاصرون وصفوا سجلماسة كحاضرة استقرار وتمركز سكاني ولكن أيضا كمنطقة لجوء وهجرة : إنها مركز تجاري وثقافي يتوفر على بنايات جميلة وعلى عدة نافورات ومدينة مشهورة على صعيد العالم الإسلامي. "فسجلماسة تعتبر مركز جذب وحركة دينية وتاريخها متخيل أكثر منه مكتوب"[28]، وتقع على مشارف الصحراء الكبرى وراء جبال الأطلس الكبير الشرقي ووسط سهل خصب، وتستمد أهميتها من موقعها على طريق التجارة الصحراوية نحو بلاد السودان.

(27) حافظي علوي (حسن) : **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1997 (ص 23).

(28) Laoust (Ernest) : "L'habitation chez les transhumants du Maroc central : 1, la tente et le douar", *Hespéris*. Tome : X, fascicule II, 1930. 51 figures et 16 planches hors texte, pp. 151-253 (p. 151).

كثيرة هي المؤلفات التي حاولت أن تقدم تفسيرا لمفهوم اسم "سجلماسة"، وهي تفسيرات تتميز بالاختلاف والتضارب. وهكذا يشير مؤلف كتاب وصف إفريقيا إلى أن "مؤسس هذه المدينة حسب بعض مؤلفينا قائد روماني ذهب من موريتانيا فأحتل نوميديا بأسرها ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة فبنى المدينة وسماها سجلوم ميسي لأنها كانت أخر مدن دولة ماسة ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة"[29].

من جهته يذكر صاحب كتاب الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة أن كلمة سجلماسة تتركب من شقين سجل وماسة، وأن لفظ "سجل جاء في القرآن بدون ياء وجاء بالياء أيضا (سجيل) وقد اختلف أهل التفسير في المعنى الذي اتخذته اللفظتين وفي أصالتهما أو تعريبهما فقالوا في الأول (سجل) أن معانيه المكي والكتاب والرجل بلغة الحبشة... وقالوا في الثاني (سجيل) أن معناه الصلب الشديد أو حجارة من طين وعلى هذا المعنى يكون عربيا أصيلا"[30]. وبذلك فإن اسم سجلماسة يتكون من شقين : كلمة سجيل ذات الأصل العربي وهي وليدة الفتوحات الإسلامية بشمال إفريقيا ثم كلمة ماسة وهي اسم مدينة بمنطقة سوس.

وجاء في إحدى الموسوعات[31] أن "سجيل" كلمة من الكلمات القرآنية الغامضة[32] اشتقت من الكلمتين الفارسيتين سنك وكل أي الحجر والطين، ومعناهما حجارة كأنها طين متحجر أو محروق[33]. وثمة تفسيرات أخرى لكلمة سجيل لا يأخذ بها الجميع، كالقول بأن معناها ما دون أو كتب على

(29) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 163).

(30) ماك كوك (دانييل) : **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة.** تعريب وتعليق محمد الحمداوي. الدار البيضاء، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة 1975. 66 صفحة (ص 42).

(31) مجموعة من المؤلفين : **دائرة المعارف الإسلامية.** الجزء الحادي عشر)(ص 302).

(32) القرآن الكريم : سورة هود، الآية 81، وسورة الحجر، الآية 74، وسورة الفيل، الآية 4.

(33) يؤيد هذا المعنى ما ورد في سورة الداريات، الآيتان 33-34 : "لنرسل عليهم حجارة من طين، مسومة عند ربك للمسرفين" ويفسرها الفقهاء بأنها حجارة حرقت في نار جهنم. ويقولون في تفسير الآية "مسومة عند ربك للمسرفين" الواردة في سورة هود، الآية 82 وفي سورة الداريات، الآية 34 : بأنها حجارة نقشت عليها أسماء أولئك الذين كتب عليهم أن يعذبوا بها.

العباد [سجل] والقول بأنها جهنم أو السماء الدنيا [سجين] وكذلك جعل لهذه الكلمة ارتباط بالصفات المشتقة من الأصل س ج ل.

وعكس هذا الاتجاه واعتمادا على تحليل كلمة سجلماسة، يمكن القول إن تركيبها غريب عن اللغة اللاتينية والعربية معا، وإنما اشتق من اللغة الأمازيغية. ذلك أن اسم "سجلماسة يتكون من كلمتين أمازيغيتين ذات جذرين : "سيجي" أو "سيكَي" وتعني الفوق أو يطل من أعلى، ثم إلماس أو "ميس" أو "لميس" جمع "ألمس" وتدل على الماء، وبذلك فيحتمل أن كلمة سجلماسة تعني موضعا يطل على الماء أو يهيمن عليه وهو ما يمكن تبريره من موقع المدينة نفسها التي بنيت فوق ربوة يحيط بها نهران شرقا وغربا"[34].

وأكدت بعض الأبحاث الأركيولوجية والجيولوجية استنادا إلى ما ذكره البكري على أن سجلماسة كانت تحيط بها مياه وادي زيز من كل النواحي، وأن المدينة كانت في الحقيقة مبنية فوق موقع مرتفع يتكون من صخور ترجع إلى العصر الجيولوجي الأول وأن هذا الموقع كان يشرف على واحة كانت تغمرها مياه السيول ومياه وادي زيز، وأن التدني الحالي لموقع سجلماسة يرجع إلى الترسبات التي تركتها السيول في الواحة خلال تعاقب مختلف العصور التاريخية ويصل سمك طبقتها في بعض الأحيان إلى 30 مترا[35].

ومهما يكن فاسم سجلماسة يعتبر من الأسماء المشهورة التي وردت في المصادر العربية القديمة، كما جاء ذكرها عند بعض الكتاب الأوربيين ومنهم مؤلف كتاب إفريقيا الذي يؤكد أن سجلماسة ليست "إلا مدينة واحدة تحمل نفس الاسم وتحكم الإقليم كله"[36]. فهي إذن حاضرة شيدت في موقع

---

(34) Mezzine (Larbi) : "Sijilmassa", *Le Mémorial du Maroc*. Rabat, édition Nord Organisation 1983. Huit volumes, 2° volume, pp. 25-37 (p. 25).

(35) مزين (العربي) : "سجلماسة الاسم"، أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا. الرباط، مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988. ص 9-12 (ص 10).

(36) مارمول (كاريخا) : **إفريقيا**. تعريب محمد حجي، ومحمد زنيبر، ومحمد الأخضر، وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون. الرباط، مكتبة المعارف 1984، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. الجزء الأول : 542 صفحة (ص 43).

استراتيجي بين ضفتي الصحراء "وهذه المدينة متوسطة في الصحراء مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء"[37]، مما أهلها أن تصبح بسرعة مدينة عامرة وأن تلعب دورا مهما في تاريخ وحضارة المغرب. أما واقع مدينة سجلماسة اليوم "فأصبحت عبارة عن خراب يظهر على الصور الجوية ممتدا من الشمال الغربي للواحة إلى الشرق من مجرى وادي زيز على مسافة 3,5 كلم طولا وألف متر عرضا"[38].

2. الطبوغرافية :

أ) التكوين الجيومورفولوجي :

تقع مدينة سجلماسة في قلب واحة غنية بالمياه وهي "مدينة سهلية أرضها سبخة حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة"[39]، وفي منطقة شبه صحراوية "على أرض مستوية وتربتها سبخة"[40]. فالمدينة بنيت في وسط طبيعي خصب فوق ربوة ذات جوانب حادة، مما ساعد على تحصينها والدفاع عنها. تشكل هذه الربوة المتكونة من قاعدة من الصخور الصلبة، طاولة مسطحة وشاسعة تمتد على عدة أمتار (2000 متر طولا وما بين 300 و600 متر في العرض)، وهي بذلك تكون أيضا الأساس الطبيعي لاتقاء الفيضانات، وتوفر موقعا ممتازا لإقامة مدينة محصنة.

ويورد القزويني أن سجلماسة تقع في مقطع جبل درن في وسط الرمال[41]. ويذكر ابن فضل الله العمري أن تربة سجلماسة مالحة[42]. وتجدر الإشارة إلى

(37) المراكشي (عبد الواحد التميمي) : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. الدار البيضاء، دار الكتاب، الطبعة السابعة 1978. 568 صفحة (ص 504).

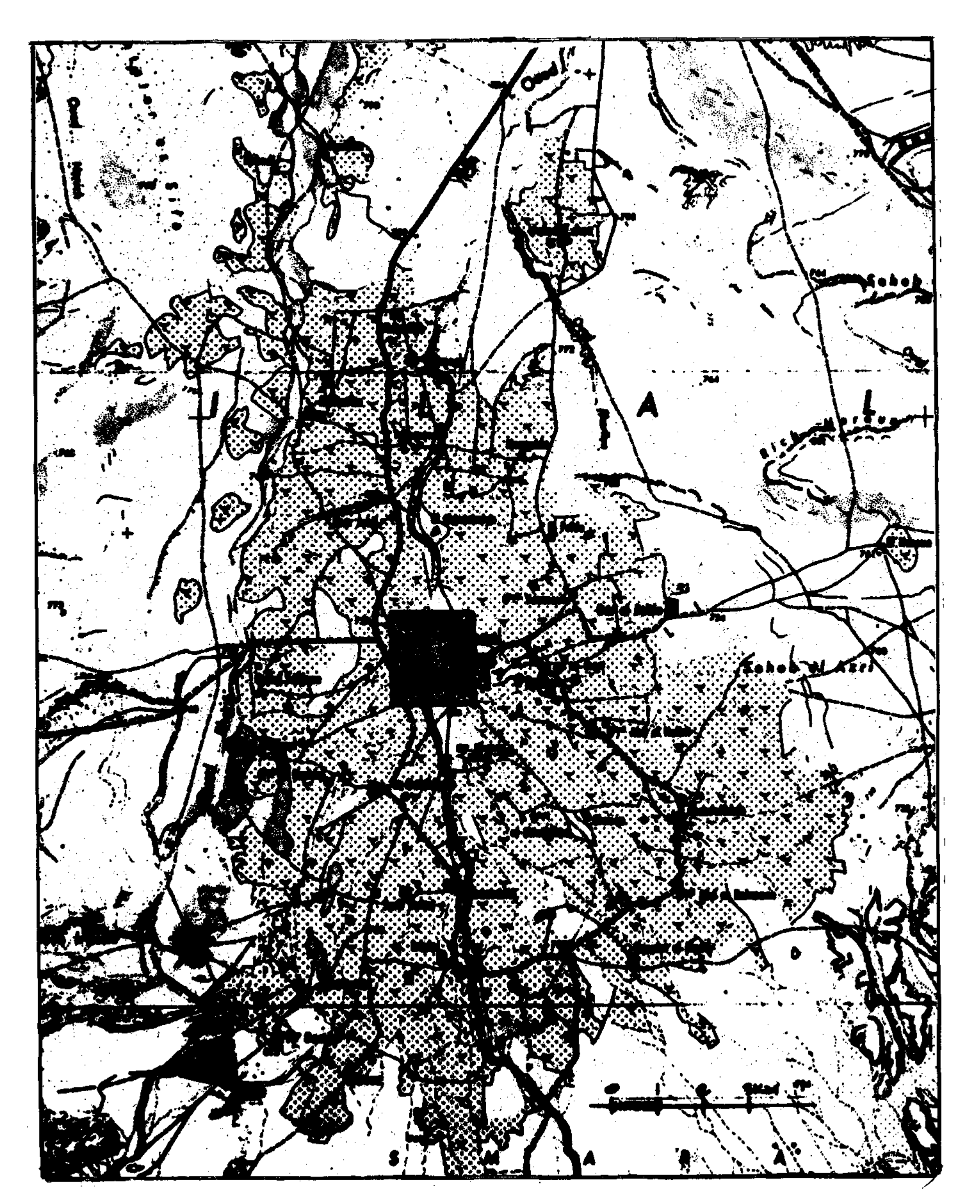
(38) Terrasse (Henri) : "Notes sur les ruines de Sijilmassa", *II^ème Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes, Tlemcen 14-17 avril 1936*. Alger, publication de la Société Historique Algérienne 1936 ; VIII planches hors texte, pp. 581-589 (p. 581).

(39) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 148).

(40) Fagnan (Eugène) : *Extraits Inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire*. Alger 1924 (p. 54).

(41) القزويني (زكريا بن محمد) : المصدر السابق (ص 42).

(42) العمري (ابن فضل الله) : المصدر السابق (ص 200).



الخريطة 1 : موقع سجلماسة في قلب واحة تافيلالت

المرجع : الخريطة الطبوغرافية للمغرب، ورقة أرفود NH-30-XX-2

أن أغلب هذه الأوصاف تنطبق على الواحة ككل، لذلك تبقى مساحة المدينة مع الأسف غير معروفة بدقة. لكن بمعاينة حقل الخراب بالموقع وتحليل الرواية الشفوية، يمكن القول إن مساحة المدينة تتجاوز الربوة التي أنشئت عليها أول مرة وربما وصلت إلى أكثر من 8000 متر مربع أي بطول يتراوح بين 4000 و5000 متر وما بين 1000 و2000 متر في العرض.

وتمثل واحة تافيلالت منخفضا على شكل حوض غمرته ترسبات وادي زيز في الشرق ووادي غريس في الغرب وتشكل منطقة رسوبية تمتد على مسافة 20 كيلومتر طولا و15 كيلومتر عرضا. وحسب الدراسات الجيولوجية والجيومورفولوجية فواحة تافيلالت يتراوح سمك طبقتها السطحية ما بين 5 و30 مترا. وتغطي هذه القشرة على امتداد كبير، طبقات رسوبية ترتكز بدورها على قاعدة صخرية تنتمي إلى "الزمن الجيولوجي الأول والتي تبرز إلى السطح بكثرة في شكل نتوءات ابلاشية، وتتكون من حجر كلسي ديفوني، وعند اتصاله بالصخور غير النافذة ينتج عنه تدفق الماء في شكل عيون"[43].

فمنطقة سجلماسة هي إذن عبارة عن سهل منبسط ينتمي إلى الأخدود الجنوب أطلسي والذي يتشكل من توضعات نهرية ذات تكوين كلسي من النوع الطوريني في السهل ومن صخور المارل اللين المنتمية للكريطاسي الأسفل والسينوماني داخل الوادي. وقد نتجت هذه الصخور بفعل الانكسار الجيولوجي الأطلسي الذي حدث خلال الحقبة التكتونية الثالثة. هذا الانكسار كون منخفضا غمرته فيما بعد الترسبات الجليدية والنهرية خلال العصر الرابع. وهي نفس التوضعات التي لا زالت تتكون إلى اليوم بفعل الأودية التي تخترق الواحة وأهمها وادي زيز ووادي غريس. وتتركز هذه الطبقة الرسوبية فوق قاعدة مكتلة من الشيست الفحمي.

(43) تليوا (مصطفى) : "مقاربة انثربولوجية لساكنة تافيلالت خلال فترة ما قبيل التاريخ"، **مجلة واحة تافيلالت**. العدد الثاني، السنة الأولى 2000 (ص 12).

إنه مجال مورفولوجي جد معقد يتكون أساسا من الرمل، والشيست، والكوارتزيت، والصلصال، والحث والحصى فضلا عن الملح والمواد الجيولوجية المنتمية للعصرين الثالث والرابع. "في المنخفض الرسوبي لتافيلالت توجد طبقة من الزمن الرابع على سمك يمتد من 15 إلى 30 مترا وذات مستوى أعلى مغطى بالطمي بشكل كلي ومستمر... وتصل الرسوبات التي تعاقبت على منخفض تافيلالت منذ 10 إلى 15 قرنا ما بين 6 و8 أمتار أي بمعدل 0,50م إلى 1,00م في كل مائة سنة وهو يتكون من طمي متشابه"(44).

أما التربة فتؤكد بعض الأبحاث أنها من نوع الغرين أو الرجيع ذات اللون الرمادي المفتوح وهي غنية بالصلصال ونتجت عن الترسبات الطينية والرملية بفعل مياه الفيض والسقي والتي قد يصل سمكها في بعض الأماكن إلى حوالي ستة أمتار(45). وتتميز التربة بسهل تافيلالت بالتنوع حسب التوضعات النهرية، فهي بالنسبة لوادي زيز عبارة عن "طمي رمادي مختلط بقليل من الصلصال بينما تتميز توضعات وادي غريس بطمي أحمر تغلب عليه مادة الصلصال والرمل، إذن فتربة هوامش الوادي هي رسوبية طمية رمادية، ثم تربة الحوض رسوبية كلسية طينية ورملية ذات لون ينتقل من الرمادي إلى الأحمر فالأصفر والأبيض، ثم تربة السبخة وهي مالحة"(46).

وحسب الدراسة التي قام بها الفريق الجغرافي للبعثة المغربية الأمريكية في موسمها الرابع، يمكن التمييز بين المجالات التالية :

(44) Joly (Fernand) : *Etudes sur le relief du Sud-Est marocain*. Rabat, imprimerie de l'Agdal, 1962. Travaux de l'Institut Scientifique Chérifien, série géologie et géographie physique, n° : 10. Paris Sorbonne, Thèse du Doctorat d'Etat en Géographie 1962. Cartes, tableaux et figures dans le texte dont 4 hors texte, XII planches hors texte et 4 cartes dépliées ; 578 pages (p. 265).

(45) Office Régional de la Mise en Valeur Agricole du Tafilalet : "étude de la salure des sols", *Rapport ORMVAT*. Juin 1980 (p. 19).

(46) عبد اللوي علوي (أحمد) : **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان 1996. الجزء الأول (ص 60).

– مجال بداية الواحة جنوب غرب أولاد الزهراء ويتكون من طبقة غرينية يبلغ سمكها بين 0,50 و3,50 أمتار تخترقه قنوات مائية وخطارات وتتخلله منخفضات تنتمي إلى العصر الجليدي الثالث.

– مجال محوري يتكون من الموقع الأثري الحالي لمدينة سجلماسة وهو على شكل هضبة صغيرة يصل علوها إلى حوالي متر و40 سم فوق سطح الأرض الأصلية ويعرف هذا المجال انحدارا كلما اتجهنا نحو الجنوب والشرق والغرب لتبلغ أحيانا نصف متر فقط.

– مجال المرتفعات الجبلية في الشمال الغربي "الجبيل"، في الجنوب "بومعيز" وفي الجنوب الغربي "تنغراس"، وهو مجال يرجع أصله إلى الزمن الجيولوجي الثالث.

– مجال السهل ويقع في كل الاتجاهات ويتميز بتربة غرينية بنية تميل إلى البياض ذات تكوينات مختلطة بفعل عمليات السقي والحرث.

– مجال الوديان حيث توجد فرشة رملية مختلطة بالحصى، تنتمي إلى عصر البلايستوسين Pléistocène وتغطيها ترسبات من الحصى والرمل والغرين.

وأما من حيث التكوين الجيومورفولوجي للواحة واعتمادا على المقاطع الستراتيغرافية، فيمكن الإشارة إلى التشكيلات الترابية التالية[47] :

- إلى حدود مترين : غرين بني مفتوح مختلط بالرمل مع بعض القطع العظمية، التربة هشة وناتجة عن مياه الفيض.
- من 2,00 إلى 2,75م : تربة صفراء تميل إلى الاحمرار ذات تكوين رملي كثيف والناتجة عن استغلال قريب لا يتعدى عمقه 2,50م.

(47) تقرير الفريق الطبوغرافي للبعثة المغربية الأمريكية برئاسة الباحث طوني ويلكنسن Tony J. Wilkinson موسم 1994.

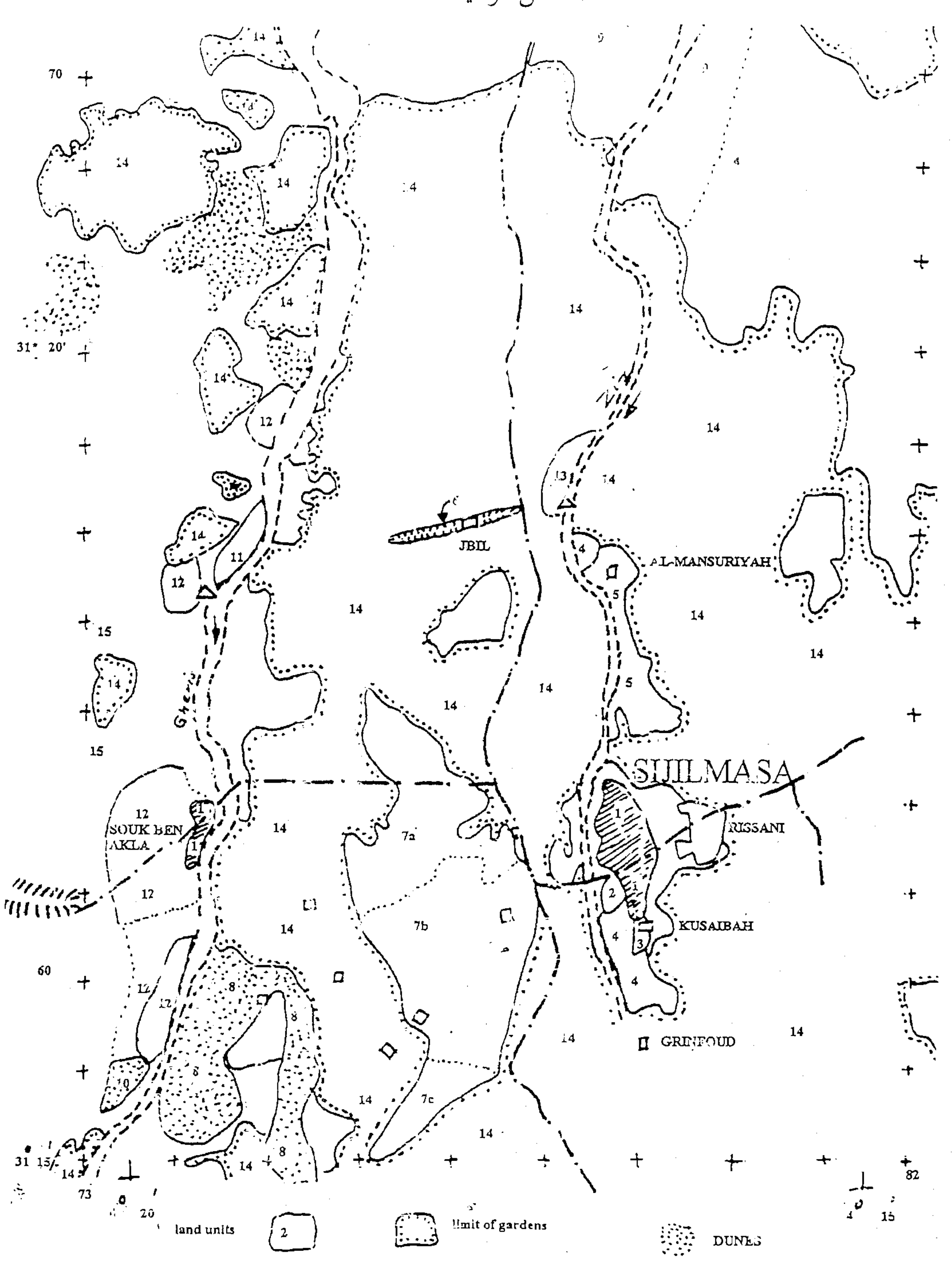
- من 2,75 إلى 3,40 أمتار : تربة رملية بنية اللون مغطاة بالغرين.
- من 3,40 إلى 4,70 أمتار : صلصال بني أخضر مختلط برمل رقيق.
- من 4,70 إلى 5,30 أمتار : طبقة من الرمل الصلب الملتحم بصلصال بني - أخضر.

ب) المناخ :

باعتبار موقعها الشبه الصحراوي فيما وراء جبال الأطلس الكبير وعلى علو منخفض [765 مترا فوق سطح البحر]، فإن سجلماسة كما وصفتها المصادر التاريخية خضعت لمناخ قاري شبه جاف يتميز بتعاقب فصلين أساسيين : شتاء بارد قارس يكون مصحوبا برياح باردة وجافة مع رطوبة جد ضئيلة، ثم فصل صيف حار جدا وجاف يتزامن مع هبوب الرياح الشرقية الحارة. فقد أشار المقدسي "أن سجلماسة شديدة الحر والبرد جميعا صحيحة الهواء"[48]. أما الحميري فقد ذكر أن سجلماسة "بلد مفرط الحر شديد القيظ وأن الماء بها قليل"[49]. بينما يصف ابن الخطيب سجلماسة بأنها "أم البلدان المجاورة لحدود السودان... والجفاف بها شامل، والجو يسفر عن الوجه القطوب، والمطر معدود من الخطوب، لبناء جدرانها بالطوب"[50].

ويقول محمد بن الحسن الوزان "إن الحرارة تشتد في فصل الصيف وكثيرا ما يجف النهر في هذا الفصل من السنة ويقل الماء جدا بحيث لا يجد الناس غير الماء المالح المستخرج من الآبار"[51]. الحرارة إذن تبقى جد متباينة بين فصلي الشتاء والصيف. نفس الشيء يقال بالنسبة لحرارتي الليل والنهار، حيث المدى

(48) المقدسي (أبو عبد الله محمد) : المصدر السابق (ص 231).
(49) الحميري (ابن عبد المنعم) : **الروض المعطار في خبر الأقطار**. بيروت، دار القلم 1984 (ص 306).
(50) ابن الخطيب (لسان الدين محمد السلماني) : **معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار**. تحقيق محمد كمال شبانة. المحمدية، مطبعة فضالة 1976 (ص 181).
(51) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 126).



الخريطة 2 : موقع سجلماسة، أهم أنماط التربة

المرجع : دراسة طوني ويلكنسن 1994 Tony J. Wilkinson

الحراري يظل مرتفعا والمعدل السنوي للحرارة قد يصل إلى أكثر من 19,62 درجة في المتوسط.

أما بالنسبة للتساقطات فهي ضعيفة وغير منتظمة بسبب الموقع الجيو - مناخي وبسبب التبخر الكبير الذي يبلغ 1159 ملم في السنة[52]. الأمطار تبدأ عادة مع بداية فصل الخريف وتستمر بشكل متقطع إلى غاية فصل الربيع. من الممكن أن يبلغ معدل التساقطات 200 مليمترا خلال السنوات الرطبة و100 مليمترا إلى 50 مليمتر فقط في المواسم الجافة.

اعتمادا على معلومات المصادر التاريخية، يمكن القول إن هذه الظروف المناخية لم يطرأ عليها تغيير كبير منذ الفترة المسماة ب"الوسيطية". وهكذا فقد أشار القلقشندي خلال القرن التاسع الهجري الموافق للخامس عشر الميلادي أن سجلماسة "كثيرة العمارة... على نهر كثير الماء... ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة، والمطر عندهم قليل، فإذا كانت السنة كثيرة الأمطار نبت لهم ما حصدوه في العام القادم من غير بذر"[53]. من جهته أكد الحسن الوزان أن "هذا القسم من إفريقيا أشد حرارة من بلاد البربر لأنه يقع جنوب جبال الأطلس لذلك فإنه يكاد يكون مجدبا وينقصه الماء ولو أن بعض الأنهر ترويه بعد خروجها من هذه الجبال"[54].

ج) الغطاء النباتي :

توفر منطقة سجلماسة بساطا أخضرا شبه دائم على شكل واحة غنية بالنباتات والمراعي، ووصفتها المصادر العربية القديمة بأنها مدينة تتوسط سهلا

(52) Margat (Jean) : "Note sur la morphologie du site de Sijilmassa", *Hespéris*. Tome : XLVII, 3° et 4° trimestre 1959. 3 figures dans le texte et une carte du Tafilalet hors texte, pp. 254-260 (p. 256).

(53) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) : المصدر السابق (ص 164).

(54) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 120-128).

"امتاز بالخصب لوفرة مائه، كانت تكتنفها حدائق وبساتين تمتد على طول وادي زيز... وكانت هذه البساتين تجود بمقادير وافرة من أطيب أنواع الكروم والتمر وأحلاها مذاقا... وكانت محصولات الأراضي المجاورة للبلدة تشمل عدا ما قدمنا القطن والكمون والكرويا والحناء، وكلها كانت تصدر"(55).

وعرف المجال الذي أسست عليه سجلماسة "تحولات كبيرة يمكن حصرها خاصة في فترتين : الأولى طويلة ومختلفة في التشكيل وتنتمي إلى عهد سجلماسة والثانية تبدأ منذ القرن السابع عشر الميلادي وخلالها قام السلاطين العلويون بتوفير الاستقرار عبر تنظيم الري وإحياء تجارة القوافل"(56). لذلك فالغطاء النباتي بهذه المنطقة كان ولا يزال في الغالب، ضعيفا وغير منتظم نتيجة الظروف الطبوغرافية حيث التربة مالحة وفقيرة إلى المواد العضوية وكذلك نتيجة العوامل المناخية، حيث التساقطات قليلة ومتقطعة فضلا عن التبخر القوي.

ويتكون هذا الغطاء أساسا من الأشجار التي تتجانس والظروف السالفة الذكر، بل "أن شجرتين فقط استطاعتا أن تتأقلما مع البيئة الصحراوية بالجنوب الشرقي وهما شجرة الأثل التي لا تحتاج إلا لقليل من الماء ويستعمل منتوجها في الدباغة وشجرة النخيل التي لها قدرة على البحث عن الماء في الطبقات الجوفية لأن جذورها تتوغل في أعماق التربة ويمثل منتوجها القاعدة الأساس لغذاء السكان بهذه المناطق"(57).

ويورد الحميري نوعا من التمر الذي ينتج بسجلماسة حيث يقول "وبها أنواع من التمر لا يشبه بعضها بعضا، وفيها الرطب المسمى البرني، وهي

---

(55) مجموعة من المؤلفين : **دائرة المعارف الإسلامية**. الجزء الحادي عشر (ص 300).

(56) Miller (James) et Lightfoot (Dale) : "Sijilmassa, the rise and fall of a walled oasis in medieval Morocco", *Annals of the Association of American Geographers*. 86/1 ; 1996 pp. 78-101 (p. 89).

(57) Mezzine (Larbi) : *Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII° et XVIII° siècles*. Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida 1987. 387 pages (p. 266).

خضراء جدا وحلاوتها تفوق كل حلاوة، ونواتها في غاية الصغر"[58]. ذلك أن النخيل "قديم قدم استقرار الإنسان بالمنطقة تعرض لتعديلات تقنية، طوره العرب عندما استقروا بواحات إقليم سجلماسة. إن الأهمية التي تلعبها هذه الشجرة في حياة السكان، وما توفره لهم من غذاء وحطب، كان له الأثر البالغ في اهتمام سكان هذه الأصقاع بها"[59]. ومن المعلوم أن شجرة النخيل كانت معروفة بالمغرب وإسبانيا منذ عهود قديمة بدليل أنها ضربت على نقود بطليموس بن الملك يوبا الثاني أي منذ ما يزيد عن ألف سنة على الأقل[60].

أما شجرة الأثل أو تاكووت بالأمازيغية فهي من فصيلة tamaris aphylla أو tamaris articulata التي قد يصل علوها إلى عشرة أمتار وهي ذات وظيفتين : "فهي تقوم بتثبيت الرمال بينما يصلح إنتاجها في دباغة الجلود. كما تتواجد بالمنطقة أنواع شجرية أخرى مثل الزيتون، والكرم، واللوز، والسدرة التي وصفها الإدريسي بأنها نبات الشوك المثمر بالنبق"[61]. كما تنمو مع أمطار الخريف الأولى بعض الأعشاب مثل الحرمل والحدج الذي يذكره محمد بن الحسن الوزان في وصفه لبلدة أم الحدج قرب سجلماسة : "ينبت فيها الحدج بكثرة حتى أنها تبدو من بعيد وكأنه ليمون رمي به في الأرض"[62].

صفوة القول إن سكان سجلماسة وفي سبيل تلبية حاجيات الحياة المعيشية من المواد الغذائية والمراعي والحطب، حاولوا جهد المستطاع الحفاظ على اخضرار واحتهم وذلك باستعمال وسائل الري الملائمة، فمن أين يأتي الماء وما هي سبل استغلاله ؟

(58) الحميري (ابن عبد المنعم) : المصدر السابق (ص 305).
(59) عبد اللوي علوي (أحمد) : المرجع السابق (ص 72).
(60) Deverdun (Gaston) : *Marrakech des origines à 1912*. Rabat, édition Techniques Nord Africaines. Deux volumes, 1° volume 1959 (p. 89).
(61) الإدريسي (أبو عبد الله) : المصدر السابق (ص 46).
(62) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 125).

د) الماء وتقنيات الاستغلال :

اعتبارا لموقع منطقة سجلماسة في مقدمة الصحراء، فإن الماء يعتبر من العناصر الحيوية والضرورية للحياة والحاجة إليه تبقى بالتالي من المشاغل الرئيسية لساكنة المنطقة. هذه المنطقة التي تعرف تساقطات ضئيلة طيلة السنة وبالعكس وبشكل فجائي تشهد فيضانات مهولة من حين لآخر تخلف خسائر بشرية ومادية فادحة كما وقع أثناء فيضان سنة 381 هجرية/992 ميلادية[63] وفيضان عام 1071 هجرية/1660 ميلادية[64] وكذا فيضان 1343 هجرية/1928 ميلادية وأخيرا فيضان 1383 هجرية/1965 ميلادية. كما تتميز المنطقة بوفرة العيون، فقد ذكر البكري أن سجلماسة تقع "على نهرين وعنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها"[65].

ويُنقل عن محمد بن إبراهيم بن يحيى الأنصاري الكتبي "أن نهر سجلماسة المسمى زيز يستمد مياهه من عدة منابع"[66]. وتقع هذه العيون بالقرب من مرتفع الجبيل[67]. هذه العيون التي لا تزال الرواية الشفوية المحلية تتذكر منها عين تمدرين[68] التي كانت تمد وادي زيز بمياه جارية غير منقطعة. أمام قلة الماء وكثرة الطلب عليه، شهدت تقنيات استغلال الماء بتافيلالت تطورات كبيرة، ذلك أن الفلاح الفيلالي يحاول دائما البحث عن سبل ووسائل تضمن له ممارسة نشاطه الزراعي بشكل مستمر. فكانت النتيجة أن تعددت طرق

(63) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي) : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط، دار المنصور 1973 (ص 114-115).
(64) الخزانة العامة : **مخطوط الإحياء والانتعاش**. رقم 1433 د (ص 250).
(65) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق، طبعة 1992 (ص 836).
(66) Fagnan (E) : op-cit (p. 54).
(67) Margat (J) : op-cit (p. 257).
(68) وتقع في هضبة إيردي على بعد حوالي 32 كيلومترا شمال موقع سجلماسة، وهو تقريبا نفس المكان الذي اكتشفت فيه عين العاطي.

الاستفادة من المياه الجوفية فضلا عن المياه السطحية. هذه المياه يتم جلبها بواسطة مصدرين أساسيين الأول يتمثل في الجريان الموسمي لواديي زيز وغريس اللذين يتغذيان من منابع جبال الأطلس الكبير ويخترقان الواحة من الغرب وفي الوسط والشرق. "يقطع وادي زيز في مجراه أنواعا مختلفة من الصخور الكلسية المتمثلة في صخور جبال الأطلس الجوراسية والترياسية ثم ترسبات الكريطاسي بهضبة مسكي وبعد ذلك التوضعات الرباعية بسهل تافيلالت"(69).

ويذكر اليعقوبي "أن سجلماسة على نهر يقال له زيز"(70). ويشير ابن حوقل أن سجلماسة "على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد"(71). بينما يشير مارمول أن "زيز نهر كبير أيضا يأتي من نفس الجبال (الأطلس الكبير)... وينحدر نحو الجنوب جاريا بين الجبال الشاهقة ثم هو قرب كرسلوين مخترقا إمارات كنانة ومطغرة والرتب فإقليم سجلماسة ويدخل في مفازات الصحراء حيث يسيل بين النخيل ويخرج منها قرب مدينة سكهيلة (؟) ليتجه ثانيا نحو الجنوب ويكون بحيرة في وسط رمال لا يسكن حولها أحد"(72).

أما وادي غريس فينبع من وادي ملول بالأطلس الكبير الشرقي ويمر عبر عدة مضايق وأحواض وهي أمدغوس بآيت هاني، وأسول (على علو 1600 متر)، وأملاكو، وأمسد، وتاديغوست (على ارتفاع 1200 متر)، ثم منخفض تازوميت، فواحة كولميمة (حوالي 1000 متر من العلو)، ثم يأخذ اتجاه شمال - جنوب/شرق فيمر عبر تلوين، وتورروك، ثم شمال واحات الجرف وفزنة

(69) **مجلة الماء والتنمية**. العدد الثاني يونيو 1986 (ص 111).
(70) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) : المصدر السابق)(ص 110).
(71) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) : المصدر السابق (ص 90).
(72) مارمول (كاريخا) : المصدر السابق (ص 46).

ليصل إلى غرب واحة تافيلالت. ويقترب الواديان كثيرا عند مدينة أرفود "ولا يفصل بينهما إلا مسافة 6,5 كلم وهما يفرغان حمولتهما في قنوات مجاورة ومتباينة، ذلك أن مجرى غريس ينخفض ما بين 5 و12 متر تحت مستوى وادي زيز، ثم يتفرقا ليقتربا من جديد على بعد 45 كلم إلى الجنوب، قرب بلدة الطاوس وليلتقيا أخيرا قرب قصر الرملية على بعد 90 كلم جنوبا"[73]، فيكونا معا واد الدورة.

وقصد الاستغلال المفيد لمياه الواديين، استطاع سكان تافيلالت، خلال العصور التاريخية المتلاحقة من إنجاز شبكة هيدروغرافية مهمة تتمثل في بناء عدة سدود صغيرة والسواقي والناعورات والتي تقوم بتحويل هذه المياه نحو قنوات ذات اتجاهات متعددة وذات أهمية مختلفة وتخترق كل أطراف الواحة. ويمكن القول كذلك إن هؤلاء السكان حققوا معجزة كبيرة تتجلى في تحويل مجرى وادي زيز من شرق الواحة نحو وسطها لكي تستفيد من مياهه بشكل أفضل، ويطلق على هذا الوادي زيز الفيلالي. ومع ذلك فإن هذا التحويل كانت له بعض السلبيات حيث أدى إلى رفع مستوى الواحة بفعل توضعات الوادي، مما جعل الاستفادة من مياه وادي غريس جد محدودة، خاصة وأنه لم تشيد سدود متينة على هذا الوادي الأخير ولم يتم تحصين وترميم ما وجد منها.

وتذكر بعض المصادر العربية أن تقنية بناء السواقي والقنوات المائية تعود إلى فترة تأسيس مدينة سجلماسة، ففي سنة 140 هجرية/757 ميلادية "قام عيسى بن يزيد الأسود بتنظيم مياه وادي زيز وقسمها بالتساوي بين قنوات تخترق الحقول والبساتين"[74]. واستفادت سجلماسة من موقعها المحصورة بين "فرعي نهر زيز فقد توفرت لها المياه لهذا عمل عيسى بن يزيد على تنظيم الإفادة منها

(73) Joly (F) : op-cit (p. 291).

(74) ابن الخطيب (لسان الذين) : **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**. الدار البيضاء، نشر إبراهيم الكتاني 1964 (ص 139).

فشق القنوات وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه واستكثر من غرس النخيل، حتى غدت سجلماسة مدينة النخيل والأعناب والفاكهة وبالتالي الاستقرار"[75].

أما المصدر الثاني للمياه بتافيلالت، فهو جوفي يستمد مياهه من الفرشات الباطنية التي تحتل مساحة شاسعة وتمثل منبعا لا ينضب بفعل تغذيته المستمرة بواسطة مياه الثلوج والأمطار والأنهار الجوفية. يتم استغلال هذه المياه عبر وسيلتين تهم أولاهما الخطارة وهي عبارة عن قناة شبه جوفية تتخللها أبار ارتوازية وتقوم القناة بنقل الماء من مكان مرتفع جوفي نحو مكان سطحي ومنخفض نسبيا.

واعتمادا على الوثائق التاريخية، يمكن القول إن نظام الخطارة "كان موجودا من قبل في الحجاز وإيران وأرمينيا وتوات وتافيلالت. كان الطوارق يسمونه "أفلي" والأمازيغ "أفري"... وكانت الخطارة تطلق في الأندلس على عملية رفع الماء من الوادي بواسطة آلة رافعة أو عجلة أو أرجوحة... ويتراوح طول الخطارة بمراكش بين 500 متر و5 كلم وقد تصل آبارها المفتوحة للترميم والصيانة إلى 300 بئر يبعد الواحد عن الأخر بحوالي 10 إلى 20 م"[76].

الوسيلة الثانية تتمثل في الآبار حيث يجلب منها الماء بواسطة الدلو أو أغرور. ويشير محمد بن الحسن الوزان إلى أنه بسجلماسة "كثيرا ما يجف النهر في هذا الفصل [يقصد فصل الصيف] من السنة ويقل الماء جدا بحيث لا يجدون غير الماء المالح المستخرج من الآبار المحفورة باليد"[77]. ويذكر ابن خلدون أن المناطق التي استوطنها عرب المعقل من أولاد حسين من ذوي منصور، وخاصة منها سجلماسة "كانت تعرف طريقة في استنباط المياه الجارية

(75) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1985. 336 صفحة (ص 118).

(76) جلاب (حسن) : "من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش"، **دعوة الحق**. العدد 265 شوال - ذو القعدة 1407 هـ/يونيو - يوليو 1987. ص 77-85 (ص 78).

(77) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 126).

لا توجد في تلول المغرب حيث تحفر البئر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة"[78]. ويتراوح عمق الآبار المستغلة بواسطة تقنية أغرور بين 10 و20 مترا بينما يصل عرضها إلى حوالي متر ونصف.

وحول جذور هذه التقنية يمكن القول إذا سلمنا بأن الخطارات من صنع قبائل زناتة، إنه من "غير المستبعد أن يكون أغرور كذلك من صنعها، فيكون استعماله بمناطق سجلماسة قد بدأ احتمالا مع قبائل مكناسة الزناتية، ثم تطور مع عرب المعقل الذين استولوا على هذه المجالات وأثروا في أحداثها ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وحتى مشارف العصور الحديثة"[79].

وإذا كانت المصادر التاريخية لا تقدم تفاصيل أكثر عن هذه التقنيات خلال عصر سجلماسة، فإن محمد بن الحسن الوزان ينفرد بذكر "أن سجلماسة كانت مدينة متحضرة جدا دورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع السودان وكان فيها مساجد ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر تأخذه ناعورات من وادي زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة"[80].

II- البنية الاجتماعية :

1- سجلماسة محطة استقطاب وتواصل بشري :

شيدت مدينة سجلماسة سنة 140 هجرية/757 ميلادية من طرف خوارج مكناسة الصفرية في قلب واحة خصبة والتي كانت عبارة عن مراعي يؤمها عدد من الرحل لتبادل منتجاتهم في إطار موسم تجاري سنوي. فأصبحت

(78) ابن خلدون (عبد الرحمن) : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1981 . الجزء السابع (ص 77-78).

(79) حافظي علوي (حسن) : المرجع السابق (ص 80).

(80) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 127).

بسرعة فائقة مركز استقطاب حيوي لساكنة متنوعة ومحطة نشيطة في تجارة الذهب والعبيد. "وقد استمر التركيب السكاني على هذه الحالة من التنوع والتعدد مما جعل ساكنتها خليطا هائلا من حيث أصول المجموعات البشرية، منها من دخلها في مراحل تاريخية يصعب تحديدها بدقة، ومنها من استقر بها خلال المراحل الأولى والوسطى للعصر الإسلامي، ومنها من تزامن زحفه إليها مع مطلع العصور الحديثة"(81). ويورد المقدسي إشارة معبرة عن المدينة فيقول إن سجلماسة تمتد طولا إلى الجنوب وهي تجذب إليها الغرباء من كل النواحي والذين يأتون إليها بأعداد غفيرة(82). وهكذا استوطنت المدينة ساكنة مختلطة والتي بالرغم من اختلافاتها العرقية والمذهبية فقد ساهمت وبطرق شتى في بناء المدينة وفي نموها الاقتصادي والسياسي والثقافي.

المصادر العربية المعاصرة لم تهتم كثيرا بساكنة سجلماسة من حيث تركيبتها الإثنية وأعدادها والأحياء التي استوطنتها. "إن المؤلفين القدامى والمحدثين يبالغون كثيرا في تقدير عدد سكان هذه البلاد... كما أن كتب التراجم والمناقب ورحلات الحجيج المغربي لا تشير قط لا إلى عدد السكان ولا حتى العناصر المكونة للمجتمع"(83). يمكن التمييز داخل هذه الساكنة بين العناصر العرقية التي تختلف في طريقة استقرارها وأقدميته، حسب التسلسل التاريخي وقوة كل مجموعة في فرض سيطرتها على المنطقة، حسب طبيعتها وميولها الاقتصادية بين تعاطي الزراعة أو الترحال وكذلك حسب المتغيرات السياسية والمناخية.

هذا وارتباطا مع التغيرات التي شهدتها الخريطة البشرية بالمغرب ككل والتي "تأثرت كثيرا من جراء حركات الهجرة وعمليات التهجير التي أعقبت مباشرة قيام كل من الدولتين الموحدية والمرينية... ظهور القبائل البدوية

(81) عبد اللوي علوي (أحمد) : المرجع السابق (ص 265).
(82) المقدسي (أبو عبد الله) : المصدر السابق (ص 29).
(83) حافظي علوي (حسن) : المرجع السابق (ص 395-396).

الهلالية ثم القبائل الزناتية بالسهول الغربية بينما توزعت قبائل المعقل العربية عبر الشريط الحزامي الواصل بين سهل سوس وما وراءه وبين أقصى الشمال الشرقي للبلاد"[84]. فمنطقة سجلماسة تحتل مركزا وسطا تاريخيا وجغرافيا وكذا من "حيث الاجتماع ومن حيث الإنسان، فهنا العناصر السودانية الافريقية وهنا العناصر الأمازيغية المتأصلة وهنا القبائل العربية والعنصر العربي مع ما كان من الجميع من تمازج ومصاهرات وهنا جاليات يهودية كثيرة"[85].

ونظرا لكون المجتمع السجلماسي يتميز بهذا الخليط الإثني، فقد شهد العديد من مظاهر التفرقة والتحالفات ضمانا للمصالح المتبادلة أو المشتركة. "وإن الانقسامات الاجتماعية التي يتعذر معها ظهور مجتمع مدني يتسم بالاستمرارية قد حتمت كذلك وجود قوانين تبقى على التوازن في المجتمع القروي، تتخذ أسماء متعددة : عقود الأخوة (تيسا، تاضا، تافركانت، تيغرسي) أحلاف (القبيلة، اللف)، ووجود فئة اجتماعية تسهر على التوازن وتتشخص في السلالات المرابطية أو الشريفة"[86]. وهكذا كانت سجلماسة تحتضن فسيفساء بشرية، يمكن تحديد أهم عناصرها الرئيسية كما يلي :

2- عناصر السكان :

أ) الأمازيغ :

وهم من السكان القدامى بالمنطقة الذين لعبوا دورا هاما في تدشين وتمتين العلاقات التجارية بين بلاد الغرب الإسلامي ومصر من جهة وبينها وبلاد

(84) مجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي تحت إشراف محمد القبلي : **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1998 (ص 85).

(85) بوطالب (إبراهيم) : "مرتبة إقليم تافيلالت في تاريخ المغرب"، **أعمال ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة**. الرباط مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988 (ص 28-29).

(86) مزين (العربي) : "بداية الدولة العلوية بتافيلالت 1631-1664 "، **أعمال ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة**. 1988 (ص 48).

السودان من جهة ثانية. وإلى هذه العناصر يرجع الفضل في توحيد الغرب الإسلامي خلال عصور الدولة المرابطية، والموحدية، والمرينية. ويمكن توزيع العناصر الأمازيغية التي استقرت بسجلماسة إلى المجموعات التالية :

• **زناتة** : وتشمل قبائل مكناسة التي كانت الركيزة البشرية الأساسية في تأسيس سجلماسة وفي خلق أول نواة للاستقرار بالمنطقة بل واستطاعت أن تكون إمارة سياسية لمدة قرنين من الزمان [الإمارة المدرارية 140 هجرية/757 ميلادية - 366 هجرية/976 ميلادية]. "وكانت زعامة مكناسة في بني أبي نزول، ثم انقسمت هذه الزعامة إلى قسمين بعد مجيء الإسلام، وصارت رئاسة بطون مكناسة في مناطق سجلماسة وما إليها لبني واسول بن مصلان بن أبي نزول في حين صارت رئاسة المكناسيين بجهات تازة وتسول وملوية ومليلة لبني أبي العافية بن أبي نائل بن أبي الضحاك بن أبي نزول"[87]. ثم قبائل مغراوة والتي تحكمت في سجلماسة ابتداء من سنة 366 هجرية/976 ميلادية وإلى غاية دخول المرابطين للمدينة بصفة نهائية عام 447 هجرية/1054 ميلادية.

وتأتي أخيرا قبائل بني مرين التي استقرت بالمنطقة منذ بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وإلى هذه القبائل "يعزى إدخال مجموعة من المؤثرات الشرقية إلى الواحات التي شغلتها وهي مؤثرات ذات طابع شرقي ما زالت آثارها واضحة على الخصوص في أساليب الزراعة والري"[88]. ولا زالت بقايا هذه القبائل تعيش حاليا بتافيلالت، إلا أن أغلبها تعرب واندمج كلية في المجتمع الفيلالي.

---

(87) حافظي علوي (حسن) : "بنو واسول"، **معلمة المغرب**. المجلد الخامس (ص 1583).

(88) Jacques-Meunié (D) : *Le Maroc Saharien des Origines à 1670 avec 55 documents photographiques*. Paris, édition C. Klincksieck 1982. Paris Sorbonne, Thèse du Doctorat d'Etat en Histoire 16 juin 1975. Deux volumes ; cartes et figures dans le texte, 991 pages. 1° volume (p. 175).

• **صنهاجة** : كانت تتنقل أول الأمر في المجالات الصحراوية حيث تتعاطى للرعي وللتجارة وكانت في غالب الأحيان تصطدم بقبائل زناتة. ففي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، يذكر اليعقوبي أن ساكنة سجلماسة تتكون من خليط من العناصر تمثل القبائل الصنهاجية الأكثر عددا[89]. وكان لظهور القوة المرابطية على الساحة السياسية بالمغرب مع مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أن بدأ معظمها بالاستقرار في الواحات الجنوبية بل ومثلت العنصر الأكبر كثافة بالمنطقة مع سيطرة المرابطين على سجلماسة بزعامة أبي بكر بن عمر اللمتوني ويوسف بن تاشفين سنة 447 هجرية/1054 ميلادية. وتمثل هذا العنصر منذ القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، قبائل آيت عطا وآيت يافلمان بأفخاذها الكثيرة والتي تصادمت فيما بينها طيلة القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

• **مصمودة** : كانت تستوطن جبال الأطلس الكبير والمناطق المجاورة لها قبل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي و لم يعرف لها أي أثر بالواحات المغربية عامة وبتافيلالت بشكل خاص، إلا مع تحكم الموحدين في سجلماسة ما بين سنة 535 هجرية/1139 ميلادية و655 هجرية/1255 ميلادية وكانت القبائل المصمودية بالرغم من قلة عدد أفرادها تبسط نفوذها على دواليب التجارة والجندية والقضاء والإدارة.

ب) العرب :

ترجع بداية استقرار العناصر العربية بمنطقة سجلماسة إلى فترة الفتوحات الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، حيث شكلوا أهم جنود الفتح على عهد عقبة بن نافع وخلال ولاية موسى بن نصير الذي وصلت حملاته إلى هذه المنطقة. كما لا يستبعد وصول فئات

(89) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) : المصدر السابق (ص 150-151).

أخرى بشكل فردي كالتجار أو العلماء من بغداد والكوفة والبصرة وبلاد الحجاز، أو على شكل جماعات هاربة لأسباب دينية أو سياسية مثل الخوارج بعد فشل ثوراتهم بالمشرق الإسلامي أو بعض العناصر العربية من الأندلس إثر ثورة الربض سنة 202 هجرية/810 ميلادية. هذه الفئة الأولى يعود إليها الفضل في نشر تعاليم الدين الإسلامي بالمنطقة وإن اتخذ مع ظهور إمارة سجلماسة الطابع الخارجي الصفري.

أما الفئة الثانية فتتمثل في قبائل بني هلال التي جاء بها السلطان المنصور الموحدي من إفريقية إلى المغرب خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وقد رافق "هذه القبائل عدد لا يتجاوز المائتين من عرب المعقل الذين نزلوا المنطقة التي تلي ملوية حتى رمال تافيلالت حيث ازداد عددهم وعمروا صحارى المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه وحالف عرب المعقل زناتة"[90].

وكانت القبائل المعقلية في أول الأمر عبارة عن بدو رحل قبل أن تستقر بالمنطقة وتتكيف مع الحياة العامة المحلية. وإلى هذا يشير ابن خلدون بقوله : "لما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن قام هؤلاء [يعني عرب المعقل] وتفردوا بالبيداء وملكوا قصور الصحراء التي اختطتها زناتة بالقفر"[91]. ويبقى أصل بني معقل غير واضح ويختلف حوله المؤرخون فمنهم من يربطهم ببطون بلال ومنهم من يجعلهم من ذرية جعفر بن أبي طالب وحسب ابن خلدون فهم من اليمن والغالب أنهم من بطن مدحج وليس قظاعة[92].

وتتكون قبائل بني معقل من ثلاثة بطون هي ذوي عبيد الله وذوي حسان وذوي منصور. استقر البطن الأول بالمغرب الشمالي الشرقي وكانت مواطنه

---

(90) أبو ضيف (مصطفى أحمد) : **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين**. الدار البيضاء، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى 1986 (ص 147).

(91) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء السادس (ص 78).

(92) بنمنصور (عبد الوهاب) : **قبائل المغرب**. الرباط، المطبعة الملكية، الجزء الأول 1968 (ص 427).

تمتد من تلمسان ووجدة إلى حدود سجلماسة. أما ذوو منصور فكانت مجالاتهم بسجلماسة وما جاورها وحسب ابن خلدون "فهم معظم هؤلاء المعقل وجمهورهم وبطونهم أربعة : أولاد حسين وأولاد أبي الحسين وهما شقيقان والعمارنة : أولاد عمران والمنبات : أولاد منبأ وهما شقيقان أيضا ويقال لهذين البطنين جميعا الأحلاف"(93).

كان هؤلاء الأحلاف في البداية رعاة يتنقلون فوق مجال شاسع، قبل أن يتحكموا في المراكز الأساسية لتجارة القوافل، "مما جعلهم قوة ضغط ضد الدولة الموحدية في أول الأمر بعد أن كانت منظمة تحت لواء الجيوش الموحدية، فهيمنت على منطقة سجلماسة، بل واستطاعت أن تؤسس دويلة لها في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي"(94). فهذا العنصر يعد اليوم من أهم مكونات المجتمع الفيلالي ويعرف بأسماء عرب الصباح بالسيفة، وعرب السفالات، وبني امحمد، وبني حسان، وذوي منيع.

ج) الشرفاء :

الشرفاء أو الأشراف ويمكن التمييز بينهم بين الشرفاء الأدارسة ويتزعمهم المزوار الخاص بهم ويطلق عليهم في غالب الأحيان المرابطين الذين يرجع إليهم الفضل في تأسيس أهم الزوايا بتافيلالت ويسمى شيخ الزاوية المقدم. ثم الشرفاء السعديون وهم أبناء عمومة العلويين وعددهم قليل جدا. وأخيرا الشرفاء العلويون ويدعى ممثلهم بالمزوار أو النقيب.

فالشرفاء العلويون لم يظهروا بالمنطقة حسب أغلب المصادر التاريخية إلا خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي عندما

(93) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء السادس (ص 87).

(94) Dramani-Issifou (Zakari) : *L'Afrique noire dans les relations internationales au XVI^ème^ siècle, analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhai.* Paris, édition Karthala 1982. 257 pages (p. 100).

وصل إلى سجلماسة المولى الحسن الداخل جد الأسرة العلوية سنة 664 هجرية/1265 ميلادية فاستقر بالمدينة وخلف بها ذريته التي استطاعت توحيد المغرب تحت رايتها ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

ويحظى الشرفاء بمكانة متميزة من حيث الدور الروحي الذي يقومون به بين العناصر السكانية الأخرى وخاصة في إصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة. وكانوا يتوفرون على ظهائر التوقير والاحترام من طرف السلاطين العلويين، كما كانوا يتمتعون بالاعفاء من مختلف الكلف كالضرائب والخدمات المخزنية.

د) الأندلسيون :

وينحدرون من أصول متعددة ولا يجمعهم سوى موطنهم "عدوة الأندلس" التي جاءوا منها. وقد استوطنوا سجلماسة منذ نشأتها بل هناك من المصادر التاريخية من تؤكد أنهم ساهموا في تشييد هذه المدينة. و لم يكن عددهم كثيرا إلا عقب فشل ثورة الربض بقرطبة سنة 202 هجرية/810 ميلادية، إذ استقبلت سجلماسة أفواجا من الفارين منهم وكان من بينهم الحرفيون، والعلماء والتجار مثل ابن حيان التوحيدي.

ولاشك أن الأندلسيين قد حاولوا أن ينقلوا إلى سجلماسة، نمط عيشهم وأسس التقدم الحضاري الذي وضعوا لبناته فوق أرض الأندلس، بل ولا يستبعد أن يكونوا قد لعبوا دورا فعالا في الأحداث التي عرفتها المدينة خلال فتراتها المتقلبة بين الازدهار والتدهور.

هـ) الأفارقة :

يرجع أصلهم بدون شك إلى إفريقيا جنوب الصحراء وقد جلبوا إلى المنطقة بطرق مختلفة وبواسطة تجارة القوافل. وربما لعبت كثافة هذا العنصر عند بداية

بناء سجلماسة الدور الحاسم في تعيين أحد أفرادها وهو عيسى بن يزيد الأسود كأول حاكم للمدينة ما بين 140 هجرية/757 ميلادية و155 هجرية/772 ميلادية. "لا يمكن أن يفهم اختيار عيسى بن يزيد الأسود لقيادة الحركة الخارجية الصفرية بسجلماسة إلا في إطار ثقل العنصر الأسود بهذه المناطق وبالتالي تشكيله للسواد الأعظم لمجتمع تافيلالت على الأقل خلال مرحلة القرن الثاني الهجري"(95).

ولا تزال عناصر من الأفارقة الذين يسمون بالعبيد يقطنون قصورا خاصة بهم بالمنطقة ويقتصر وجود بعضهم الآخر على بعض العائلات الشريفة وكذلك الزوايا، كما تم تهجير الكثير منهم بعد تجنيدهم في صفوف جيش عبيد البخاري على عهد السلطان مولاي إسماعيل.

و) اليهود :

هذا العنصر الذي ساهم بشكل جلي في التطور الاقتصادي للمنطقة وخاصة في التجارة وفي الصنائع مثل سك العملة، والنسيج، والحدادة، والبناء والدباغة، يبقى تاريخ استقراره مجهولا. فبعض الروايات التاريخية تقول إن اليهود أتوا من المشرق خلال عهود قديمة قبل الإسلام وبعضها الآخر لا يستبعد أن يكون مجيئهم من بلاد الأندلس أو البرتغال خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أو التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. "إن اليهود استقروا بشمال إفريقيا منذ عهود سحيقة قادمين من فلسطين أفواجا متتالية كما تقاطرت أفواج أخرى من الأندلس بعد استردادها وكانوا يوجدون في كل التجمعات السكنية تقريبا في المغرب، ففيهم من استقروا بالمدن ومن عايشوا سكان الجبال ومن استقروا بالجهات الصحراوية"(96). ويمكن إرجاع تواجد "العنصر اليهودي بالمناطق الجنوبية للمغرب يعود للفترة التي احتكت

---

(95) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : المرجع السابق (ص 216-217).

(96) حركات (إبراهيم) : **السياسة والمجتمع في العهد السعدي**. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1987 (ص 34).

فيها القبائل الأمازيغية بهذه المجالات بعد أن فرت من مناطق نفوذ الهيمنة الرومانية، وقد ساهم كل هؤلاء في تعمير الواحات بما فيها وادي نون ودرعة وسجلماسة وتوات"[97]. وقد أشار صاحب الروض المعطار "أنهم داخلوا المسلمين في سجلماسة"[98] واندمجوا معهم فتعاطوا للتجارة والصنائع، بل وانفردوا ببعضها كما يقول الحميري نقلا عن البكري، ذلك أن عملية البناء كانت مقصترة عليهم "ومن دخل في الكنافين من أصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود"[99]. ومع ذلك فإنهم كانوا يعيشون في أمن تام وحماية شاملة ويؤدون شعائرهم الدينية بكل حرية وكثيرا ما يقطنون أحياء خاصة بهم.

ز) الحراثين (الحراطين) :

وهم فئة ملونة تميل بشرتها إلى السواد، أصلها غير معروف بدقة وربما تكون بقايا الأجناس البشرية الإفريقية القديمة من الجيتول أو النوميديين أو الإثيوبيين. "إن الحاشية الشمالية من الصحراء كانت حتى القرون الأولى للميلاد تمثل الحد الفاصل بين السكان ذوي البشرة البيضاء وبين الإثيوبيين الذين يرجع إليهم الفضل في تأسيس الواحات وتوسيع حقولها على طول الأودية التي تجري بالمناطق الشبه الصحراوية والصحراوية بفعل تعاطيهم لغراسة النخيل واستغلال المياه"[100]. ويرى مؤلف تاريخ إفريقيا الشمالية أن استقرار هذه الفئة بالواحات الجنوبية يمتد "لعصور قديمة وقد كان للضغط الروماني على شمال المغرب أن نزحت مجموعات أمازيغية كبيرة نحو هذه الواحات جاءت بمؤثرات حضارية جديدة الأمر الذي أدى إلى تلاقح حضاري

(97) De la Chapelle (F) : "Esquisse d'une histoire du Sahara occidentale", *Hespéris*, Tome : XI ; 1930 pp. 35-95 (p. 40).

(98) الحميري (ابن عبد المنعم) : المصدر السابق (ص 306).

(99) نفسه ونفس الصفحة.

(100) Gsell (Stéphane) : *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. Paris, édition Hachette 1929. 5° volume (p. 7).

جمع بين الحضارة المتوسطية والصحراوية ذات السمات الإفريقية القحة ومن جهة ثانية دجن الوافدون الجدد سكان الواحات الأولون وأخضعوهم لإرادتهم بما في ذلك استغلال مهارتهم في الأعمال الزراعية"(101).

على كل حال فقد تعاطى الحراطين لعدة مهن وخاصة الفلاحة "الخماسة"، وإلى هذا يشير أحد الأساتذة بقوله إن هؤلاء "الحراطين ظلوا ولقرون طويلة معتمد الواحات وسكانها في الأعمال الزراعية وما يتفرع عنها من صيانة السواقي وآبار الري وتلقيح النخل وتشذيبه، وهذا يدل أن الحراطين كانوا يشكلون القاعدة البشرية الأساسية التي كان يقوم عليها اقتصاد المجتمع"(102).

3. تصنيف المجتمع السجلماسي :

ما عدى التقسيم العرقي لسكان سجلماسة، فإنه من الصعوبة بمكان الخروج بتصنيف طبقي دقيق بفعل تشابك المصالح والخصوصيات وبفعل ندرة المعطيات التاريخية. كما أن سجلماسة يتمازج فيها نمطان مختلفان : الأول يرتبط بالتنقل والترحال ويندرج فيه الرعي والتجارة البعيدة المدى، ثم نمط الاستقرار المرتبط أساسا بالزراعة. "الصورة التي يمكن أن نقدمها لسجلماسة أنها مركز تجاري، إلا أن معظم سكانها كانوا يتعاطون للفلاحة في أغلب الأوقات من خلال الاعتناء بالنخيل، وسقي الأراضي... مجتمع تافيلالت مجتمع طبقي مختلط يلعب فيه الأعيان والمرابطون الذين يتكلمون العربية دورا روحيا متميزا"(103).

(101) أندري جوليان (شارل) : **تاريخ إفريقيا الشمالية**. ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة. تونس، الدار التونسية للنشر، جزءان 1983 الجزء الثاني (ص 219).

(102) البوزيدي (أحمد) : **التاريخ الاجتماعي لدرعة من مطلع القرن 17 إلى مطلع القرن 20م، دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال الوثائق المحلية**. الرباط، جامعة محمد الخامس/كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث، جزءان 1988 الجزء الأول (ص 224).

(103) Miller (James) : "la viabilité de l'environnement dans les oasis du Tafilalet ; de l'ancienne Sijilmassa au Tafilalet d'aujourd'hui", *l'Afrique du Nord face aux menaces écologiques*. Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida, 1995. Publication de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Université Mohamed V Rabat ; n° 50. pp. 3-19 (p. 13).

ويمكن جزافا واعتبارا لما وصلت إليه سجلماسة من رقي حضاري، أن نقترح مبدئيا هذا التصنيف الذي يحاول أن يعرف بمختلف الفئات حسب تعاقب الأزمنة التاريخية :

أ) فئة الأعيان :

وهي طبقة محترمة كانت تستفيد من عدة امتيازات واشتهرت بنمطها المعيشي والثقافي العالي. وتتكون من حكام المدينة، والموظفين السامين، ورؤساء الجند، والقضاة، فضلا عن العلماء ثم الشرفاء وشيوخ الزوايا فيما بعد.

ب) فئة التجار :

تتألف من كبار التجار المحليين أو الوافدين الذين يتعاطون لتجارة القوافل مما جعلهم يكدسون الثروات الضخمة. هذه الطبقة ظلت علاقاتها مع حكام المدينة تتحكم فيها التبعية بفعل احتكار الحكام لفرض الضرائب وسك العملة، وكثيرا ما تشابكت العلاقات بينهما بفعل تبادل المصالح. وكان هؤلاء التجار الكبار يقومون أحيانا بتوظيف أموالهم المدخرة سواء في الزراعة الصناعية والتحويلية، أو في شراء الأراضي الفلاحية والمساكن الفاخرة وربما ساهموا في رأسمال الصنائع المختلفة ذات المردودية الجيدة.

ج) فئة العوام :

تنتمي إليها كل الإثنيات والطوائف وتضم صغار التجار والحرفيين والملاكين الصغار وصغار الموظفين. وهي بالرغم من كثرة عدد أفرادها فإن إمكانياتها وطموحاتها تبقى جد محدودة بفعل العراقيل التي تضعها أمامها الفئتان السالفتان.

د) فئة المحرومين :

وتشتمل على الحراثين وعمال البناء والإماء والممالك الذين يتعاطون للخماسة في الحقول أو العمل كخدم عند العائلات الثرية بينما يظل مستواها الحياتي بسيطا جدا.

إلى جانب هذا التصنيف الخاص بالمستقرين، إن صح وصفهم بذلك، يمكن الكلام كذلك عن فئة أخرى تتمثل في الرحل سواء كانوا عربا أو أمازيغ، والذين كانوا يجوبون المنطقة بحثا عن المراعي. كما تجدر الإشارة إلى أن ساكنة سجلماسة بالرغم من تشكلها الفسيفسائي استطاعت التأقلم فيما بينها وداخل محيطها الجغرافي وذلك من خلال تنظيم محكم يراعي التوازن الطبيعي والاجتماعي وتوفير الاستقرار السياسي والاقتصادي. يتضح هذا التنظيم من خلال ثلاث مستويات أساسية :

- الاستغلال المكثف للأراضي الفلاحية واعتماد سقي محكم.
- تنشيط الحرف والصنائع المختلفة.
- تفعيل تجارة القوافل بتحويل سجلماسة إلى محور الاتصال بين مدن العالم المتوسطي وممالك جنوب الصحراء.

وإذا كانت الأدلة المادية الكثيرة تعبر عن تكيف الإنسان والبيئة بسجلماسة، فإن المنطقة تعرف نمط حياة جماعية تنعكس ليس فقط في عمليات الإنتاج ولكن أيضا في التجمعات السكنية والحفلات المشتركة الدينية منها والدنيوية. إلا أن قلة الأراضي الصالحة للزراعة زبهذا الوسط الإيكولوجي لم تكن كافية لتكوين زعامات مبنية على تراكم رأس المال[104].

(104) مزين (العربي) : **مذكرات من التراث المغربي.** تحت إشراف الأستاذ العربي الصقلي. الرباط 1985 . المجلد الرابع (ص 19).

ينطبق الشيء نفسه على الميدان التجاري الذي استمد نشاطه من محطة مسالكية جعلت من سجلماسة كممر تجاري ليس إلا، "و لم يكن بإمكانها أن تخلق ديناميكية التغيير في الإنتاج ولا أن تخلق فئة اجتماعية قادرة على أن تأخذ بأسباب التغيير. وهكذا كانت الظروف الإقليمية وطبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية تساهم بدورها في خلق فرص مناسبة للتحالف السياسي بين القصور أحيانا وبين المجموعات أو الفئات البشرية"(105).

خلاصة :

إن الخصوصية الطبيعية والعمق التاريخي لمنطقة سجلماسة وما تتميز به هذه الخصوصية من توفير عوامل الاستقرار البشري الكثيف والمتنوع الأجناس والمذاهب، كانت من بين العوامل المساعدة على ذلك التساكن والعطاء الحضاري. وكانت أيضا من عوامل تشكل البنية الاجتماعية المتماسكة والعلاقات المنسجمة التي تربط بين مختلف الفئات السكانية.

وكانت نتيجة هذه العوامل أن شهدت المنطقة بروز حاضرة عمرانية لعبت أدوارا كبيرة في مسار تاريخ المغرب الأقصى بصفة خاصة وتاريخ الغرب الإسلامي في علاقته بالمشرق من جهة أو ببلاد السودان من جهة أخرى بصفة عامة.

(105) عبد اللوي علوي (أحمد) : المرجع السابق (ص 179).

المبحث الثاني :
المتغيرات التاريخية

تقديـــم :

عرفت سجلماسة التي شيدها خوارج الصفرية المكناسيين على مشارف الصحراء وفي موقع إلتقاء المسالك التجارية الكبرى، خلال فترة الإمارة المستقلة، تقدما اقتصاديا مهما، و"استطاعت إلى حد ما وعلى امتداد القرون الإسلامية الأولى، ضمان الأمن والازدهار للواحات"[106]. هذا التقدم بالرغم من فوائده المادية على المستوى المعيشي لساكنة سجلماسة ولصالح الطبقة الحاكمة بشكل خاص، فإنه بالمقابل كان من الأسباب الرئيسية فيما عرفته المدينة من اضطرابات نتجت إما عن خلافات سياسية أو صراعات عسكرية بين حكام المدينة أنفسهم أو بينهم وبين خصومهم من العباسيين والأغالبة والرستميين والفاطميين والزيريين والأمويين.

وهكذا استسلمت سجلماسة في الأخير للحكم المركزي للدول التي تعاقبت على عرش المغرب منذ عهد المرابطين إلى غاية عصر المرينيين ومرورا بفترة الموحدين، قبل أن تنهار وتدمر نهائيا مع أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

---

(106) Terrasse (Henri) : *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français.* Casablanca, édition Atlantide 1950. Deux volumes, 17 cartes dans le texte, 910 pages ; 2° volume (p. 362).

I ـ تأسيس سجلماسة :

1 ـ الجذور الأولى :

أ) منطقة سجلماسة خلال الفترة الممهدة للتاريخ :

كانت منطقة سجلماسة مأهولة بالسكان منذ أزمنة غابرة، فقد عرفت الاستقرار البشري منذ الفترة الممهدة للتاريخ على الأقل. ويدل على ذلك وجود عدة بقايا أثرية بالمنطقة مثل كهف العزيزة قرب بلدة بوذنيب، والنقوش الصخرية بناحية الطاوس وتزارين وألنيف، والمدافن الجنائزية بمواقع أولاد الزهراء والبوية وهارون وغيرها.

وتعبر النقوش الصخرية عن تقاليد الصيد الأولى بالمنطقة وعن أنواع الحيوانات التي كان يتم اصطيادها مثل الأسود، والنمور، والنعامات، والبقرات، والضباء، والأروية، إلى آخره. كما تبرز هذه النقوش المعدات المستعملة من طرف الصيادين كالأحزمة والعصي والفؤوس الحجرية والقبعات الرأسية، فضلا عن القوس الذي كان يمثل السلاح الرئيسي في ذلك العهد. وتحتوي منطقة تافيلالت على عدد كبير من المواقع الأثرية والنقوش الصخرية التي تعود إلى هذه الفترة، فهي "غنية بمواقعها النيوليتية، بل هي أكثر غنى حتى من منطقة الأطلس"(107).

وهكذا توجد بمنطقة سجلماسة بقايا عدة مواقع هي في جزئها تحصينات تتضمن دورا سكنية، وصخورا منقوشة، وحليا، وقطعا من بيض النعام وبعض الأدوات الحجرية. في العصر الحجري الأسفل، عرفت المنطقة كباقي المناطق المغربية، مناخا رطبا رافقه انتشار الغابات والبحيرات وهو ما تعبر عنه ولا شك بقايا العظام المتكلسة التي اكتشفت بالمنطقة.

---

(107) Camps (Gabriel) : *les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara.* Paris, édition Doin 1974 (p. 320).

وكان يعيش بالمنطقة في هذه الفترة إنسان من نوع النياندرطال Neandertal أو أطلانتربوس Atlanthropus أو الموريتاني Mauritanien أو جافا Javas ومن أجل ضمان تغذيته، كان هذا الإنسان يستعمل عصيا من الخشب وأدوات من الحجارة المصقولة. بالنسبة للعصر الباليوليتيك الأوسط والأعلى Paléolithique moyen et supérieur [أي ما بين 24.000 و120.000 سنة]، يمكن القول إن منطقة سجلماسة لم تكن منعزلة عن التأثيرات الحضارية المعاصرة الأشولية، والعطيرية، والإبيرية - الموريسية والكبسية إذ ظلت ظاهرة الكراكير Tumulus ومعها باقي المعتقدات مترسخة طيلة عصور طويلة. وفيما يلي أهم المواقع بتافيلالت والتي تعود إلى الفترة الممهدة للتاريخ :

• **كَارة أولاد الزهراء**(108) وهي عبارة عن تل مرتفع يهيمن على الواحة ويتركز في مفترق واديي زيز وأمربوح. والموقع يتكون من جزأين : فبقايا البنايات توجد بالجزء العلوي من الربوة، وتوجد في أسفل الموقع وعلى كل جنباته حوالي مائة من الكراكير Tumulus.

• **جبل بولكَرون**(109) وهو مرتفع جبلي يقع على مشارف واحة تافيلالت من الناحية الغربية، ويمثل بداية سلسلة أوكَنات. الموقع عبارة عن بنايات مرتفعة في القمة وتوجد في أسفل الجبل وعلى محيطه عدة كراكير منعزلة ومخروطية الشكل. كما توجد على ربوة بالجنوب الشرقي من الموقع، حوالي أربعين كركورا tumulus.

• **جبل بوتشرافين**(110) وهو عبارة عن سلسلة من التلال الصغيرة تقع على بعد ثماني كيلومترات جنوب شرق مدينة أرفود وتتشكل من حوالي عشرين كركوراً منها من ينتمي إلى صنف نادر بالمغرب يطلق عليه كركور bazina.

---

(108) Carte topographique du Maroc : Feuille Erfoud, Echelle : 1/100.000. X=612,2 ; Y=87,3 ; Z=849.

(109) Carte topographique du Maroc : Feuille Erfoud, Echelle : 1/100.000. X=596,8 ; Y=86,6 ; Z=976.

(110) Carte topographique du Maroc : Feuille Erfoud, Echelle : 1/400.000. X=616,8 ; Y=88,5 ; Z=822.

• **جبل البوية**[111] وهو أهم وأكبر هذه المواقع بتافيلالت، يقع على الضفة اليمنى من وادي غريس على بعد عشر كيلومترات غرب شمال مدينة أرفود. يتشكل الموقع من بنايات متعلقة بالحافة العلوية والأكثر حماية من الجبل والمهيمنة على الواحة المجاورة وتجاورها المدافن الجنائزية. الحفريات بهذا الموقع كشفت عن الغنى والتنوع في معالم البوية ومنها معالم ذات المعبد "chapelle".

في سنة 1958 ميلادية أجري أول بحث منظم بالموقع من طرف ماركَات J. Margat وكامو A. Camus حيث تم إحصاء أكثر من 1200 كركورا. وفي سنة 1986 للميلاد أنجز الباحث يوسف بوكبوط[112] تنقيبات بالموقع حيث لاحظ أنه لم يبق منها سوى مائة، بل لم يتجاوز هذا العدد الأربعين عام 1988 ميلادية. أما اليوم فالحال أسوأ بعد أن تعرضت البقية الباقية من الكراكير للنهب والسرقة.

• **جبل بولعقادي** : يقع شمال جبل بولكَرون ويتميز بوجود مجموعتين كبيرتين من الكراكير تجتمع أسفل الجبل وقد تعرضت بدورها للنهب.

• **كَارة المدورة** : تقع على بعد عشر كيلومترات غرب واحة تافيلالت وهي عبارة عن جبل منعزل ذي شكل مستدير يظهر من بعيد كحصن طبيعي تحميه حواف حادة من الجهات الثلاث الشمال، الشرق والغرب، بينما حصنت الجهة الجنوبية بسور عال ومتين يبلغ علوه حوالي خمسة عشر مترا وسمكه ثلاثة أمتار وتحتل البنايات المشيدة من الحجارة أعلى الجبل. بينما تنتشر الكراكير أسفل الجبل من الخارج.

• **تداوت** : في أسفل جبل تداوت قرب بلدة الطاوس على الضفة اليمنى من وادي زيز توجد عدة كراكير، قام الباحثان مونيي J. Meunié وألان Ch. Allain

---

(111) Carte topographique du Maroc : Feuille Erfoud, Echelle : 1/400.000. X=600,6 ; Y=96,2.

(112) بوكبوط (يوسف) : "تحريات أثرية في منطقة تافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى، دجنبر 1989 (ص 393-401).

بحفر اثنين منها سنة 1956 ميلادية. كما توجد بالموقع عدة نقوش صخرية تعرضت للنهب والتخريب.

• **جبل أوفيلال**[113] يقع على بعد 3,5 كيلومترات شمال - شمال - غرب بلدة الطاوس والموقع يضم نقوشا صخرية وكتابات ليبية وكراكير فضلا عن أنقاض حصن يحيط به سور كبير يصل علوه الحالي إلى 3 أمتار وسمكه إلى مترين. بداخل السور توجد عدة بنايات مشيدة من الحجارة تحتل سفح الجبل. في شمال هذا الحصن توجد بناية منعزلة ذات شكل مستدير ومبنية من الحجارة. أهم الأبحاث بالموقع أنجزها مونيي J. Meunié وألان Ch. Allain سنة 1956 ميلادية، إلا أنها لم تقدم أي كرونولوجية محددة.

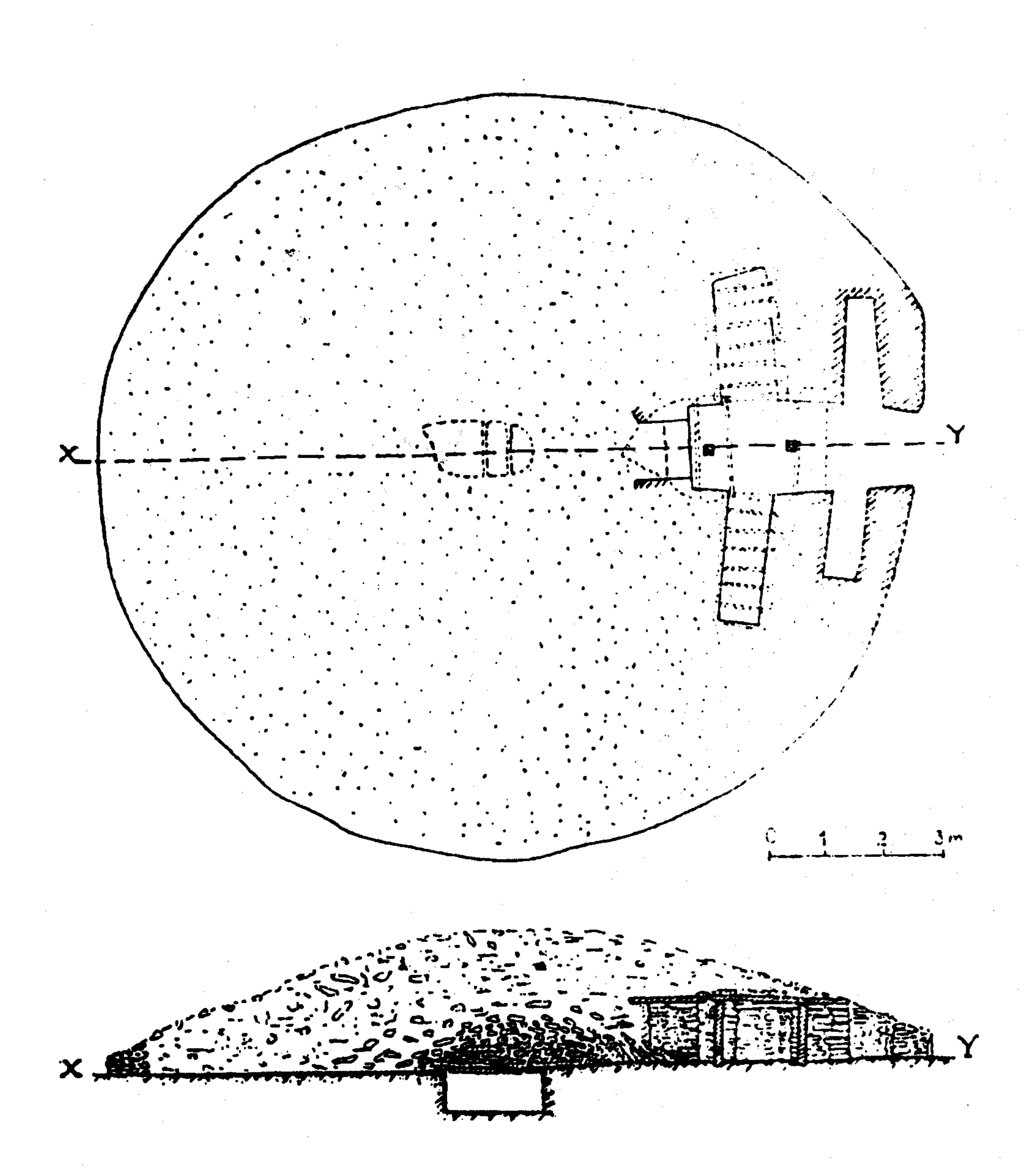
• **حاسي البرابر**[114] يقع أسفل السفح الكبير الذي يمثل بداية حمادة كَير من الناحية الشرقية. هذا الموقع يضم تركزا كبيرا لكراكير تشبه تلك المكتشفة قرب الطاوس وتتخذ شكلا إما مستديرا يبلغ قطر أهمها خمسة عشر مترا وعلوها ثلاثة أمتار ونصف، أو مستطيلا مع وجود ثلاث طوابق من المصاعد.

ب) المنطقة في العصرين القرطاجي والروماني :

قليلة هي المعلومات التي نعرفها عن منطقة سجلماسة خلال هذا العهد ويرجع ذلك ربما إلى أن المنطقة كانت منعزلة و لم تكن لها صلات تجارية مع المراكز الحضرية وخاصة الواقعة على السواحل الشمالية والغربية للمغرب الأقصى. ومن المعلوم كذلك أن القرطاجيين الذين اشتهروا بالملاحة البحرية وبالبحث عن المعادن، قد استقروا بشواطئ المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، و لم يهتموا كثيرا بالمناطق الداخلية وخاصة النائية منها مثل منطقة سجلماسة.

---

(113) Carte topographique du Maroc : feuille Taouz-Ouest, Echelle 1/100.000. X=633 ; Y=436.
(114) Carte topographique du Maroc : Feuille Hassi Beraber, Echelle 1/100.000. X=664 ; Y=89.



التصميم 1 : منطقة سجلماسة : بعض النماذج من المدافن الجنائزية

المرجع : بوكبوط (يوسف) : "تحريات أثرية في منطقة تافيلالت"، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الأولى دجنبر 1989

هذه العوامل وغيرها تجعلنا أمام وضعية خاصة، إذ يبدو أن بعد منطقة سجلماسة فيما وراء جبال الأطلس وبمحاذاة الصحراء الكبرى، جعلها تبقى شبه منعزلة. "فمنطقة تافيلالت يمكن القول إنها ظلت تقاوم سلطة الأمراء الأمازيغ وظلت مجالا رعويا لقبائل الجيتول الرحل"[115]، على الأقل حتى فترة الاحتلال الروماني لموريتانيا الطنجية. وقد أدى هذا الاحتلال إلى هجرة القبائل الأمازيغية للاستقرار بمناطق جبال الأطلس والواحات الشبه الصحراوية ومنها بطبيعة الحال واحة سجلماسة.

ولكن هذا لا يمكن استبعاد إمكانية أن المنطقة كانت عبارة عن نواة محطة تجارية تربط بين ضفتي الصحراء الكبرى، مما ترتب عنه ضرورة وجود علاقات تبادل بشكل أو بآخر مع المراكز القرطاجية الساحلية. بل "إنه ليس من البعيد أن المدينة المغربية القديمة سجلماسة كانت في أيام القرطاجيين أعظم مستودع لتجارة الذهب التي استمرت زمنا طويلا"[116]. هذا الدور الذي ربما اضطلعت به مدينة زيز التي اندثرت مباشرة بعد تشييد سجلماسة، كما جاء عند البكري[117]. فالمنطقة، في اعتقادنا لم تكن بمنأى عن التأثيرات وخاصة الحضارية والثقافية منها مع القرطاجيين. وتعبر عن ذلك بعض اللقى الأثرية كالحلي التي تم العثور عليها ببعض مواقع ما قبيل تاريخية بالمنطقة، فضلا عن العادات والطقوس التي ظلت سائدة إلى وقت قريب بين بعض القبائل المحلية. ومن ذلك تعليق التمائم في مدخل المنازل وتقاليد رمي بقايا عظام أضحية العيد وغيرها كثير.

أما الرومان فيمكن القول بأن اهتمامهم ببلاد المغرب ظل في بداية الأمر على الأقل، مركزا على المناطق الساحلية، فلم يعرف عنهم أي شغف بتجارة

---

(115) El-Mellouki (M) : op-cit. (p. 37).

(116) ماك كوك (دانييل) : المرجع السابق (ص 9).

(117) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق، طبعة 1968 (ص 148).

القوافل الصحراوية وأي اتصال بالمناطق المحاذية للصحراء الكبرى إلا فيما يرتبط بمحاربة الثائرين ضد حكمهم. كل هذا يجعل من الصعوبة تقبل فكرة وصول الرومان إلى منطقة سجلماسة وبالأحرى بناء مستوطنات لهم بها.

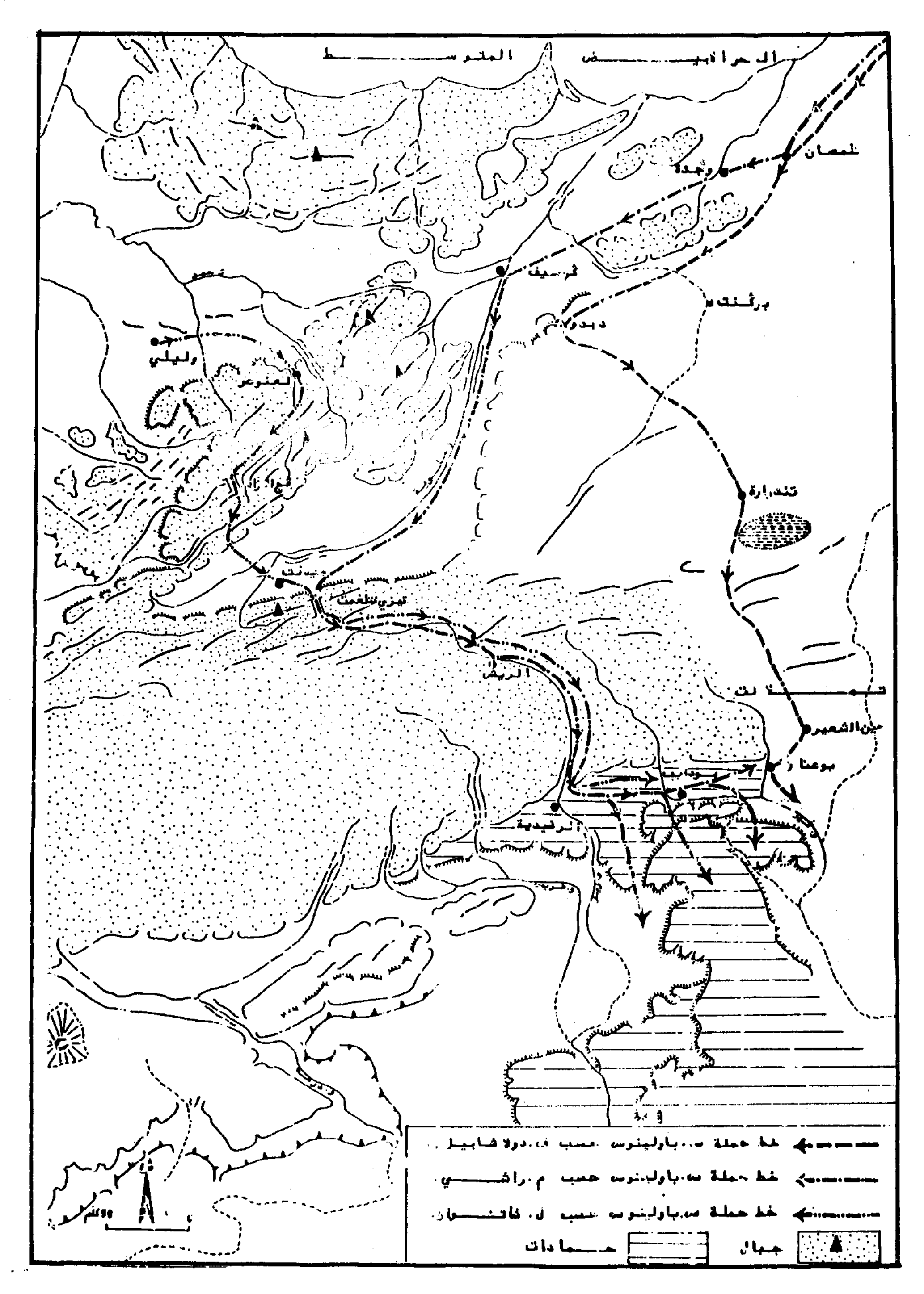
ويعتقد أن "كل الجنوب المغربي بما فيه تافيلالت، ظل خارج هيمنة السلطة الرومانية بالرغم من توفر هذه السلطة على قواعد متقدمة وفي مجالات بعيدة من أجل الحفاظ على العلاقات مع السكان المحليين وتشجيع تجارة محتملة"[118]. وهذا ما يفسر أن تجهيز الحملتين العسكريتين الرومانيتين لما وراء جبال الأطلس ومنطقة كَير أو ما جاورها، كان من باب تأديب القبائل الثائرة. ففي سنة 41 أو 42 ميلادية شنت روما حملة بقيادة الجنرال سويتونيوس باولينوس Suetonius Paulinus لإيقاف ثورات السكان الرحل بالجنوب الشرقي المغربي، "هذه الحملة التي دامت عشرة أيام ووصلت إلى ما وراء جبال الأطلس وحتى وادي كَير"[119].

ومع ذلك لا يستبعد أن تصل هذه الحملة إلى منطقة سجلماسة، خاصة مع انعدام معطيات دقيقة عن المكان الذي انطلقت منه حملة سويتونيوس باولينوس Suetonius Paulinus والجيوش التي قادها والقوات المورية وقائدها والمعارك التي خاضها ضد أعدائه الرحل والمدة التي استغرقتها حملته وحتى النهاية التي كتبت لها. فيما يخص هذا الجانب الأخير، يبدو "أن سويتونيوس باولولينوس فشل في مهمته، ذلك أننا لا نتوفر على أي مصدر يتحدث عن شارات الانتصار التي من الممكن أن يكون الإمبراطور الروماني كلاوديوس قد منحها لسويتونيوس باولينوس بعد عودته من موريتانيا الغربية وأن خلف هذا القائد الروماني واجه مثله نفس الخصوم وفي نفس المناطق"[120].

---

(118) Jacques-Meunié (D) : *Le Maroc Saharien*. op-cit. 1° volume (p. 170).
(119) De la Chapelle (F) : "L'expédition de Suetonius Paulinus dans le Sud-Est du Maroc", *Hespéris*. Tome : XIX, 1939 (p. 108).

(120) مقدون (محمد) وواحيدي (علي) : "سويتونيوس باولينوس والحرب الموريطانية الثانية بمنطقة تافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى، دجنبر 1989 ص 369-378 (ص 378).



الخريطة 3 : منطقة سجلماسة، الحملة الرومانية

المرجع : مقدون (محمد) وواحيدي (علي) : "سويتونيوس باولينوس والحرب الموريطانية الثانية بمنطقة تافيلالت"، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية. الدورة الأولى، دجنبر 1989 (ص 369-378).

هذه الحملة الرومانية الأولى ثم الحملة الثانية سنة 43 ميلادية بقيادة هسيدوس جيتا Hesidus Geta واللتين يظهر أنهما دامتا عدة شهور، كان من أهدافهما ضمان الأمن للطرق الرابطة بين المستوطنات الرومانية بموريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية. كل هذا يوضح إلى أي حد كانت القبائل الرحل صامدة في مقاومتها للاحتلال الروماني وكانت رغبتها الدائمة هي العيش والتنقل بكل حرية وآمان.

من الممكن أن تكون الحملات الرومانية المنظمة قد توقفت بعض الوقت بنفس الموقع الذي شيدت فوقه فيما بعد مدينة سجلماسة. وإذا كان هذا صحيحا، فذلك يؤيد ما ذهب إليه محمد بن الحسن الوزان، اعتمادا على الروايات المحلية بأن الرومان قد شيدوا سجلماسة. قد يكون ذلك ممكنا خاصة إذا أُخذ بعين الاعتبار "أن سجلماسة توجد بمحاذاة الصحراء وتحتل موقعا طبيعيا محصنا وغنيا بالمياه، وهو الموقع الذي ربما اختاره الرومان لإقامة قاعدة أساسية لهم قصد مراقبة المناطق المجاورة بين موريتانيا الغربية وموريتانيا الشرقية وبين التل في الشمال والصحراء في الجنوب"[121]. هذه العمليات الرومانية تركت بعض الإشارات الجغرافية الخاصة بمنطقة الجنوب الشرقي المغربي، إلا أن هذه المعلومات ظلت مبهمة ولا تستطيع أن تقدم حقائق عن تاريخ منطقة سجلماسة. ومن الراجح أن هذه المنطقة لم تخضع للسلطة الرومانية المباشرة وظلت بعيدة إلى حد ما عن أي تأثير حضاري. كما أن المصادر المكتوبة والأبحاث الأثرية لم تقدم لحد الآن أية دلائل واضحة يمكن الاعتماد عليها للبرهنة على وجود أي نوع من العلاقة بين سجلماسة والحضارة الرومانية.

ويبقى أن المنطقة عرفت خلال فترات ما قبل الفتح الإسلامي تطورات حضارية معينة كباقي المناطق المغربية الأخرى، إلا أن هذه التطورات لا تعرف بدقة. ذلك أن المصادر الإغريقية ـ الرومانية مصادر أجنبية ومعظم مؤلفيها

(121) Jacques-Meunié (D) : op-cit. 1° volume (p. 170).

ليست لهم معرفة مباشرة بالمغرب، كما أن الرحالة الرومان والإغريق لم تكن كتاباتهم تميز بين مجال وآخر و"لا نتوفر على مصادر محلية نثبت من خلالها أو ندحض المظاهر والظواهر الموصوفة [وهي أيضا] تنقل إلينا شذرات أو فقرات من مؤلفات أو تقارير ليست بالضرورة إغريقية أو رومانية... حكم المؤلفون أنفسهم على بعض المصادر القديمة [بأنها] ضربا من الأساطير أو تعج بالمبالغات والأخطاء"[122].

وربما كانت مدينة زيز وغيرها قبل تأسيس مدينة سجلماسة "قد مضت عليها قرون وهي تتاجر مع القرطاجيين ومع تجار المقاطعات الرومانية بإفريقيا الشمالية. وربما كانت المسيحية الدوناتية قد دخلت إلى هذه النواحي في هذه الفترة، وحلت محل عبادة الإله الذي يشبه رأسه رأس الكبش، وأعيد بناء المدينة على نمط يقترب من النمط الروماني قليلا أو كثيرا، وربما استمرت تحت احتلال إحدى فرق الجيش الروماني لفترة من الزمان قبل وصول جيش الفتوحات الإسلامية إلى المغرب"[123].

2. البدايات الفعلية لمدينة سجلماسة على مسرح الأحداث :

أ) تشييد المدينة :

إن دراسة تاريخ ظهور المدن الأولى بالغرب الإسلامي عملية جد صعبة ومعقدة، نظرا لمحدودية المعلومات التي أوردتها المصادر المعاصرة، فضلا عن تضاربها واختلافها من حيث المؤسس وسنة التأسيس. وينطبق هذا المشكل، خصوصا على سجلماسة كما يمكن تعميمه على معظم المدن المغربية.

---

(122) بلكامل (البيضاوية) وبلفايدة (عبد العزيز) : "الجنوب المغربي في عصوره القديمة من خلال المصادر الإغريقية ـ الرومانية"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى، دجنبر 1989 ص 343-368 (ص 344).

(123) ماك كوك (دانييل) : المرجع السابق (ص 47).

ويظل التساؤل مشروعا حول العوامل التاريخية المساعدة على بروز سجلماسة في منطقة شبه صحراوية وحول الظروف الاقتصادية والمرتبطة منها خاصة بالتجارة الصحراوية والتي أدت إلى النمو العمراني والحضاري بالمناطق المتواجدة في الضفة الشمالية للصحراء، ومنها خاصة سجلماسة. ذلك أن إشكالية ظهور المدينة ككل هو التطور الكبير الضخم الذي عرفته تجارة الصحراء... لتجعل من المكان الذي توجد فيه سجلماسة المكان الاستراتيجي المهم... وجعل بطبيعة الحال من سجلماسة... عاصمة الضفة الشمالية للصحراء من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر"[124]. إلا أن المصادر التاريخية كما سبق الذكر، تختلف حول التاريخ الحقيقي الذي ظهرت فيه مدينة سجلماسة على مسرح الأحداث بالغرب الإسلامي.

إن حملات الفتوحات الإسلامية بقيادة عقبة بن نافع لمنطقة سجلماسة تبقى غير واضحة ولكن ذلك لا ينفي إمكانية بلوغ الجيوش الإسلامية إلى هذه المنطقة، خاصة وأنها وصلت إلى منطقة درعة الواقعة على بعد خمس مراحل إلى الجنوب ـ الغربي منها. نفس الشيء ينطبق على ولاية موسى بن نصير للمغرب، ذلك أنه بالرغم من خضوع منطقة سجلماسة مبدئيا لنفوذ الخلافة الأموية بدمشق فإن تاريخها في هذه الفترة ظل غامضا. كما أن الرواية الشفوية المحلية لا تتذكر إلا القليل عن البدايات الأولى لسجلماسة، فسكان المنطقة غالبا ما يرجعون أصل مدينتهم إلى الرومان "برتقيز أي البرتغال" ولكن دون أن يقدموا دلائل واضحة[125].

في غياب كامل لتأكيدات من جانب الأبحاث الأثرية والنصوص المكتوبة، فإن هذا الطرح وغيره الذي يرجع تأسيس سجلماسة إلى فترة ما قبل الإسلام ـ كما جاء في كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ـ من الصعب تأكيده. والمهم

(124) ناعمي (مصطفى) : "سجلماسة و نول لمطة من خلال الوثائق التاريخية والحفريات"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط، مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988 (ص 25-62).
(125) تنطبق هذه الرواية على معظم حواضر المغرب القديمة وخاصة المندثرة منها وغير المؤرخة بدقة.

أن موقع المدينة كان معروفا، وربما تحت اسم أخر مثل مدينة زيز التي ذكرها البكري، قبل وصول خوارج مكناسة الصفرية بزعامة سمكَو بن واسول إليها. وقد يكون الأمير الخارجي عيسى بن يزيد الأسود قام ببناء المدينة أو أعاد بناءها في شكل أفضل مما كانت عليه من قبل.

إن الاعتماد على روايات البكري والوزان وابن أبي محلي، تفضي إلى الوقوع "أمام ستة مؤسسين أو ست مراحل للتأسيس، أمام ست روايات للتأسيس، معنى ذلك أن مدينة سجلماسة أقدم مما نعتقد، وهناك إشارات لوصول الرومان واختراقهم لجبال الأطلس... يبدو إذن أن مدينة سجلماسة أقدم من التاريخ المذكور بدليل عدة إشارات... نرجع إذن لنقبل مبدئيا في ظل الواقع العلمي الموجود أن مدينة سجلماسة توسعت في عهد بني مدرار، أو أعيد بناؤها"[126]. وهو نفس الرأي الذي تتفق عليه دائرة المعارف الإسلامية، إذ تشير إلى أن سجلماسة كانت خرابا يبابا عند وصول المسلمين حتى لو صح أنه كان لها وجود من قبل[127].

ودون الخوض في تفاصيل مختلف الروايات المتعلقة بهذا التأسيس والتي تطرق إليها من قبل بعض الدارسين، يمكن القول إنه من الصعب - في ظل انعدام معطيات مصدرية واضحة وأبحاث أثرية دقيقة - إعطاء تاريخ مضبوط لهذا التأسيس. ويبقى المخرج الوحيد من هذه الإشكالية هو الاعتماد على التأريخ المقبول نسبيا والمتفق عليه من طرف أغلب المهتمين، والذي جاء به البكري في كتابه المسالك والممالك إذ يقول : "ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة وبعمارتها خلت مدينة تدغة [أو ترغة] وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا"[128] وهو ما يوافق حوالي 757 ميلادية.

---

(126) السهلي (العربي) : "المدراريون في سجلماسة"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط مطابع الميثاق 1988 (ص 19).

(127) مجموعة من المؤلفين : **دائرة المعارف الإسلامية**. الجزء الحادي عشر (ص 298).

(128) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق. طبعة 1968 (ص 148) موقع مدينتي تدغة وزيز غير معروف، فالأولى ربما تكون هي مدينة تنغير الحالية وقد كانت مشهورة بمناجمها المعدنية وبمعاملها في سك العملة. أما زيز فيمكن أن تكون في نفس موقع سجلماسة أو غير بعيدة عنها وعلى ضفاف وادي زيز الذي لا زال يحمل اسمها [Jacques-Meunié (D) : op-cit, 197 ; note 11].

وكما اختلفت الروايات في ضبط تاريخ تأسيس سجلماسة، تناقضت أيضا حول المؤسس الحقيقي للمدينة. وتعتمد الرواية الأولى على ما ذكره البكري والتي تشير تارة إلى عيسى بن يزيد الأسود الذي شيد المدينة سنة 140 هجرية/757 ميلادية وتارة أخرى تذكر تاريخا آخر "وملك بنو مدرار سجلماسة مائة وستين [778 ميلادية] وكان فيهم أبو القاسم سمجوا بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار، لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه، وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة، فاجتمع إليه قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود وولوه أمرهم، فشرعوا في بنيان سجلماسة وذلك سنة أربع ومائة[129] [723 ميلادية]. وذكر آخرون أن مدرارا كان حدادا من ربضية الأندلس فخرج عند وقعة الربض[130] فنزل منزلا بقرب سجلماسة، وموضع سجلماسة إذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون... فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها ثم تمدنت والأول أصح في عمارتها"[131].

وتحليلا لهذه الروايات يطرح الإشكال التالي : "كيف يعقل أن يبني مدرار هذه المدينة إذا كان جده قد بناها من قبل ؟ أو كان عيسى هو الذي قد بناها أيام جده ؟ وإنه لغريب حقا أن ينسب بناء المدينة إلى الثالث من رجال دولتها الأولى، وقد وضح البكري سلسلة نسب هذه الدولة حين قال إن أبا القاسم سمجو بن واسول المكناسي هو أبو اليسع المذكور وجد مدرار"[132].

(129) من الممكن أن يكون هذا التاريخ ناتج عن خطأ فيما تعرض له كتاب البكري من استنساخ والصحيح ربما هو مائة وأربعين.
(130) ثورة الربض بقرطبة عرفت مرحلتين : الأولى في سنة 198هـ/806م والثانية في عام 202هـ/810م.
(131) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 149).
(132) ماك كوك (دانييل) : المرجع السابق (ص 51).

وتجدر الإشارة إلى أن "إمارة الخوارج الصفرية شهدت في عهد مدرار خلافات مذهبية كبيرة بين الأباضية والصفرية. وربما كان لكل هذه الأحداث أثرها في أن يكون لاسم مدرار صدى واسعا في تاريخ المنطقة، فأصبح اسمه مرتبطا بتأسيس المدينة وتسمية الإمارة... وبما أن أبا القاسم سمكو بن واسول هو الذي خلف عيسى في تسيير شؤون الإمارة بعد تأسيس المدينة بخمس عشرة سنة، فإن دوره في مباشرة النفوذ كان أمرا مؤكدا في مرحلة حكم عيسى"(133).

أما صاحب كتاب الاستبصار(134) فيكرر تقريبا نفس رواية البكري فيقول : "أسسها مدرار بن عبد الله(135) وكان رجلا من أهل الحديث يقال إنه لقي بإفريقية عكرمة مولى بن عباس وسمع منه وكان "صاحب ماشية وكان كثيرا ما ينتجع سجلماسة... فاجتمع إلى مدرار قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم مدرارا وشرعوا في بناء سجلماسة... وذكر آخرون أن رجلا حدادا اسمه مدرار وكان من ربضية قرطبة خرج من الأندلس عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة وموضع سجلماسة إذاك سوق البربر بتلك النواحي فأنشأ بها مدرار خيمة وسكنها فبنى الناس حوله فكان ذلك أصل عمارتها وكان رجلا أسودا وأولاده قد هجوا بذلك"(136).

نفس الرواية ينقلها الحميري(137) والقلقشندي(138)، في الوقت الذي اختلط الأمر على مؤلف الترجمانة الكبرى، إذ يذكر أن مدينة "سجلماسة شيدت على يد بني مدرار قبل الإسلام ولما أسلموا كانوا على مذهب الأباضية"(139). ويمكن

(133) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : المرجع السابق (ص 123).
(134) مجهول : **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**. المصدر السابق (ص 101).
(135) يقصد ربما أبا القاسم سمكو بن واسول الذي تلقى العلم عن عكرمة إلى جانب ميسرة المطغري وطريف البرغواطي.
(136) ربما يقصد عيسى بن يزيد الأسود أو مهنة الحدادة التي كان يزاولها مدرار.
(137) الحميري (ابن عبد المنعم) : المصدر السابق (ص 305-306).
(138) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) : المصدر السابق، الجزء الخامس (ص 163).
(139) الزياني (أبو القاسم) : **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**. المحمدية، مطبعة فضالة 1967 (ص 79).

إرجاع تسمية بناء المدينة وتسمية الإمارة التي قامت بها باسم مدرار "بالأساس إلى عاملين : أولهما أن أغلب ما وصلنا عن أخبار الخوارج الصفرية بسجلماسة كان عن طريق ما دونه البكري في المسالك والممالك... خلافا لابن خلدون الذي ذكرها باسم إمارة بني واسول. وثانيهما : أن الأمير مدرار تمتع بشهرة كبيرة مقارنة مع غيره من أمراء بني واسول حكام سجلماسة. فقد شهدت الإمارة في عهده ازدهارا كبيرا حتى أصبحت لها مكانة متميزة بين مثيلاتها ببلاد المغرب كإمارة الرستميين وإمارة البرغواطيين"[140].

أما محمد بن الحسن الوزان فتضاربت رواياته هو أيضا وحاول أن يربط تأسيس المدينة بالحضارة الإغريقية ـ الرومانية لعله يحظى بعفو البابا، خاصة وأنه كان أسيرا بالديار الإيطالية[141]. فمرة أرجع تأسيس المدينة إلى الاسكندر المقدوني قصد معالجة المرضى والمعطوبين من جنوده، ومرة ثانية ينسبها إلى قائد روماني ذهب من موريتانيا فاحتل نوميديا بأسرها وزحف شطر الغرب حتى ماسة فبنى المدينة"[142].

وقد أعاد ابن سعيد المغربي[143] نفس روايتي الوزان، كما اعتمدهما بعض الباحثين الأوربيين الذين وجدوا فيها، وفي التذكير بحملة القائد الروماني سويتونيوس باولينوس Suetonius Paulinus على منطقة ما وراء جبال الأطلس سنة 41 ميلادية، خير مبرر للتعبير عن فضل الحضارة الرومانية في نقل أسس العمارة والعمران إلى بلاد المغرب ككل ومنطقة سجلماسة المعنية بالبحث بطبيعة الحال. وهكذا يشير أحدهم إلى وجود عدة معالم رومانية بهذه المنطقة ومنها البئر المكتشفة بوادي زيز والتي شيدت من الحجارة المصقولة[144].

---

(140) حافظي علوي (حسن) : "بنو واسول"، **معلمة المغرب**. المرجع السابق (ص 1584).
(141) ماك كوك (دانييل) : المرجع السابق (ص 49).
(142) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 127).

(143) Fagnan (E) : op. cit. (p. 19).
(144) Bassac : "Notes sur le Tafilalet et sur le Ziz", *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord*. N° : 119 ; 3° trimestre, 34° année 1929. pp. 403 - 413 (p. 409).

ويذهب آخر أكثر من ذلك مؤكدا أن "طبيبا في مستشفى أرفود أخبره بالعثور على أطلال من بقايا الرومان"[145].

ويبقى في الأخير ترجيح ما أكده البكري بقوله "والأولى أصح في عمارتها"[146] ويقصد بذلك أن الرواية الأولى التي تشير إلى سنة 140 هجرية هي الأقرب للصواب. ويعتقد بأن الروايات الواردة في أغلب كتب الجغرافيين العرب التي تقول بتأسيس سجلماسة في مرحلة التاريخ الإسلامي تبعث "على الاطمئنان نسبيا لأن نصوصها رغم التضارب الذي يظهر من خلال مقابلتها تتفق على أن المدينة بنيت عام 140 هجرية/757 ميلادية... ولا يعني هذا بتاتا أن مدينة سجلماسة هي أول مركز حضري بالمنطقة لأن بناءها أتى على خراب مدينتين كانتا قائمتين قبلها : واحدة تحمل اسم زيز نجهل مكانها إلى اليوم ويجب البحث عنها على طول امتداد الوادي الذي يحمل نفس الاسم من الشمال إلى الجنوب على مسافة 220 كلم. والثانية تسمى ترغة التي هي ربما تدغة "بالدال" والتي ضربت بها عملات فضية إدريسية [أواخر القرن 2 هجرية/8 ميلادية] وموحدية"[147].

ونعتقد جازمين أن "سجلماسة كانت من الحواضر الإسلامية التي عرفتها بلاد المغرب عموما. كانت أول دولة مغربية استقلت عن الخلافة الإسلامية في المشرق، فلقد أسسها بنو مدرار سنة 140 هجرية كانت مركزا تجاريا مهما ومعبرا تجتازه القوافل التي تنقل منتجات السودان وبلدان البحر الأبيض المتوسط ومنتجات المغرب والأقطار المتوسطية إلى بلاد السودان"[148]. وفيما يلي مقاربة

(145) ماك كوك (دانييل) : المرجع السابق (ص 39).
(146) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 149).
(147) حافظي علوي (حسن) : **سجلماسة وإقليمها**. المرجع السابق (ص 99).
(148) بنمنصور (عبد الوهاب) : "عرض تمهيدي"، **أعمال ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة**. الرباط مطابع الميثاق 1988 (ص 9-10).

بين أهم النصوص المصدرية التي تناولت تاريخ بناء سجلماسة ومؤسسها وأهميتها :

معطيات مصدرية	البكري	الإدريسي	صاحب الاستبصار	محمد بن الحسن الوزان
تاريخ التأسيس	أسست مدينة سجلماسة سنة 140 هجرية	لم يذكر أي سنة للتأسيس	بنيت سنة 140 هجرية	لم يشر إلى أي سنة
المؤسس	يورد روايتين : الأولى تشير إلى عيسى بن يزيد الأسود والثانية تذكر مدرار	لم يذكر اسم أي مؤسس	مدرار بن عبد الله نسبة إلى مدرار قوم الصفرية أو مدرار الحداد من ربض قرطبة	ـ الاسكندر المقدوني، ـ قائد روماني لم يذكر اسمه
الوصف	تقع في موقع استراتيجي	مدينة مهمة	نفس وصف البكري	مدينة جميلة وكبيرة

من خلال هذه المقاربة، يمكن القول إن موقع سجلماسة قبل منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي كان مأهولا بالسكان الذين كانوا يجتمعون بهذا المكان في موسم سنوي لتبادل منتجاتهم. من بين هؤلاء السكان، توجد قبائل مكناسة الزناتية التي كانت تتنقل عبر المراعي الواقعة بين الهضاب العليا ومنطقة سجلماسة. وحسب ابن خلدون [توفي سنة 808 هجرية/1406 ميلادية]، تتكون مكناسة من عدة أفخاذ أهمها "فخذ وارتسيف مدغيس الأبتر وهم من البتر الرحل وأصلهم يرجع إلى مكناس بن وارتسيف بن تامزيت بن داري بن زاحيك بن مغديس وهو جد قبائل مكناسة"(149).

كانت قبائل مكناسة، منذ نهاية القرن الأول الهجري/السابع الميلادي وبداية القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي، تستقر شيئا فشيئا بالمناطق الشرقية للمغرب الأقصى، فأسست عدة مراكز منها جرسيف، ورباط تازة وغيرهما.

(149) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء السادس (ص 123).

ومع تكاثر عددها انقسمت إلى عدة مجموعات منها من اتجه نحو الشمال والسواحل المتوسطية، بل واجتاز بعضها إلى بلاد الأندلس ومنها من قصد مناطق السهول الوسطى والغربية والبعض الأخر توجه إلى الواحات بالجنوب الشرقي المغربي وخاصة منها منطقتي سجلماسة ودرعة حيث وفرة الماء والمراعي. وكان لتحرك هذه القبائل المكناسية، أن اتصلت وتأثرت بالدعوات الدينية المنتشرة آنذاك، فاعتنقت المذهب الخارجي الصفري الذي ظهر أول الأمر بالمشرق على يد عبد الله الصفار في النصف الثاني من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي.

وقد هاجر الكثير من الخوارج الصفرية بعد فشل ثوراتهم ضد أمويي دمشق في نهاية القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، إلى بلاد الغرب الإسلامي، فاعتمدوا الدعوة السرية وبث الدعاة.

وكانت القيروان مركزا للدعوة الصفرية بالمغرب منذ بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. "وتؤكد المصادر الخارجية أن عكرمة مولى ابن عباس وهو من أصل مغربي هو الذي أوصل المذهب الخارجي إلى المغرب وقد اتصل بعكرمة في القيروان رؤساء القبائل منهم خاصة ميسرة المطغري الذي كان يشتغل بالسقاية في سوق القيروان، ثم أبو القاسم سمكَو بن واسول شيخ مكناسة والذي لازم عكرمة حتى موته سنة 105 هجرية/725 ميلادية. فرحل إلى واحة تافيلالت وتظاهر بتربية المواشي وعكف على بث تعاليم المذهب بين الرعاة حتى تحولت خيمته إلى مجمع للخوارج الصفرية في تلك النواحي"[150].

ويعبر اختيارهم للاستقرار في منطقة سجلماسة عن حكمة ودهاء يمكن تحديد دوافعه إلى أحد أو إلى كل الحوافز التالية :

(150) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : المرجع السابق (ص 47-48).

• إقبال سكان المنطقة على اعتناق الدعوة الإسلامية وخاصة في صيغتها الخارجية الصفرية، التي تتوافق وميولاتهم، مما ساعد هذه الحركة في كسب التأييد الشعبي والقوة البشرية اللازمة.

• بُعد المنطقة عن الحكم المركزي للعباسيين والأغالبة وعن الصراعات السياسية والمذهبية وعن الغزوات العسكرية، كما أن أهميتها في تجارة القوافل بدأت تظهر خلال هذه الفترة المبكرة التي كانت فيها الأغلبية للملاحة البحرية.

• الإمكانيات الهائلة التي توفرها هذه المنطقة من الموارد الطبيعية كالماء والمراعي، ومن المنتجات الفلاحية ومن الموارد الأولية وكمحطة تجارية بارزة في مرحلة لاحقة.

وقد شاركت مكناسة بزعامة أبي القاسم سمكَو بن واسول بن مزلان بن أبي إزول بن تافريس بن فراديس بن وارتسيف بن مكناس، في الثورة الخارجية ضد حاكم العباسيين بالقيروان سنة 87 هجرية/705 ميلادية، إلا أن "هزيمتها جعلتها تلتجئ إلى منطقة سجلماسة للاستقرار بعيدا عن الحملات العسكرية العباسية وأتباعهم الأغالبة"[151].

وهكذا قام أبو القاسم سمكَو بتنصيب خيمته في قلب الواحة وبدأ يدرس تعاليم المذهب الخارجي الصفري للسكان الوافدين عليه. وبعد أن جمع حوله عدة أتباع، بايع أبو القاسم عيسى بن يزيد الأسود وأمر باقي أتباعه للقيام بالمثل. فحمل عيسى زمام المسؤولية وبدأ في بناء مدينة سجلماسة سنة 140 هجرية أي ما يوافق حوالي سنة 757 ميلادية.

وتطرح هذه البيعة إشكالية هامة تتجلى في كيف آثر أبو القاسم عيسى بن يزيد عن نفسه وعن أحد أقربائه ؟ وللإجابة عن ذلك يمكن تقديم التفسيرات التالية :

(151) Jacques-Meunié (D) : op-cit, 2° volume (p. 196).

أ ـ قد يكون أبو القاسم قصد من ذلك عدم إثارة الصراع بين مختلف أفخاذ قبيلة مكناسة وبالتالي تفادي هيمنة أي فصيل على الفصائل الأخرى.

ب ـ ربما أن أبا القاسم أراد بهذا العمل تطبيق المبدأ الخارجي في أحقية كل مسلم في تولية الحكم مهما كان لونه أبيضا أو أسودا ومهما كان أصله عربيا أو أعجميا.

ج ـ ربما أن ذلك مرده إلى أن العناصر ذات الأصول الإفريقية كانت تمثل الأغلبية بين سكان سجلماسة في هذه الفترة، مما أضطر معه أبو القاسم إلى تخصيص القيادة لزعيمهم عيسى خاصة وأن معظم قبائل مكناسة لم تستقر بعد بالمنطقة.

د ـ ربما أن أبا القاسم أراد بهذا الاختيار تمهيد أو تمتين العلاقات التجارية مع بلاد السودان.

مهما يكن الأمر، فالمتفق عليه بين الدارسين "أن مؤسس دولة بني مدرار بسجلماسة كان من أصل سوداني، إن كل ذلك يدل على اتصال المغاربة ببلاد السودان منذ وقت مبكر وتزاوجهم مع أهلها"[152]. وقد تم اختيار عيسى بن يزيد وبويع من طرف السكان المحليين ولو إلى حين، حيث دام حكمه 15 سنة [140 هجرية/757 ميلادية ـ 155 هجرية/772 ميلادية] وقام خلال هذه الفترة بتدشين عملية بناء المدينة التي حاول أن يعطيها نموذج العاصمة الجميلة والكبيرة. ومن أهم أعماله تنظيم قنوات المياه، وتشييد الحدائق وتوطين السكان الرحل في أحياء خاصة حسب انتمائهم العرقي.

ومع ذلك فكل هذه الأعمال لم تعجب القبائل المكناسية التي تزايد عددها مع مرور الزمن، فقامت بالتمرد ضد عيسى بن يزيد وتخلصت منه بالإعدام

(152) توفيق الطيبي (أمين) : **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**. طرابلس، الدار العربية للكتاب 1984. 343 صفحة (ص 305).

سنة 155 هجرية/772 ميلادية. بعدها عملت على تنصيب زعيمها الروحي أبي القاسم في مكانه، وبذلك تبدأ فعليا الدولة المدرارية التي حكمت لأكثر من قرنين أي إلى غاية سنة 366 هجرية/976 ميلادية.

ب) الإمارة المدرارية (140هـ/772م ـ 366هـ/976م) :

يعتبر أبو القاسم سمكَو بن واسول أحد مؤسسي المذهب الخارجي الصفري ببلاد الغرب الإسلامي، حيث تلقى المذهب على يد عكرمة مولى ابن عباس بإفريقية وشارك في ثورات الخوارج ضد ولاة بني العباس بالمغرب الأدنى قبل أن يستقر به المقام بمنطقة سجلماسة. وكان أبو القاسم سمكَو "رجلا متفتحا ومحنكا، فقد حافظ على حكمه ضد كل المؤامرات القبلية وتفاديا لتدخلات العباسيين اعترف بهم، ودرءا لخطر أباضية تاهرت قام باعتناق مذهبهم"[153].

هذه السياسة وفرت لمدينة سجلماسة وضعا أمنيا شاملا وربما نهضة اقتصادية طيلة فترة حكم أبي القاسم إلى وفاته سنة 167 هجرية/784 ميلادية. وخلفه ابنه إلياس المكنى بالوزير الذي لم يحكم طويلا وجاء من بعده أخوه اليسع سنة 174 هجرية/790 ميلادية. وفي عهد هذا الأخير عرفت سجلماسة تقدما سياسيا واقتصاديا، وكانت بمثابة العاصمة الحقيقية والمدينة الكبيرة والجميلة. وكانت المدينة تحاط بسور حصين وعال قصد التصدي للهجمات الخارجية. "هذا السور احتضن بداخله أهم المرافق والحقول والنخيل وكان امتداده يتراوح ما بين 70 و80 كلم"[154]. وكان لهذا السور اثنا عشر بابا عرف اسم خمسة منها هي : الباب الغربي، والباب القبلي، وباب موقف زناتة، وباب الزعفران وباب غدير الجزائين أو الجزارين. كما شيد اليسع دار الإمارة والمسجد الجامع والحمامات العمومية وعدة مرافق أخرى. وبرزت قوة هذا الحاكم أيضا في توسيع النفوذ الترابي لسجلماسة مع سيطرته على كل الواحات

(153) El Mellouki (M) : op-cit (p. 112).
(154) El Mellouki (M) : op-cit. (p. 90).

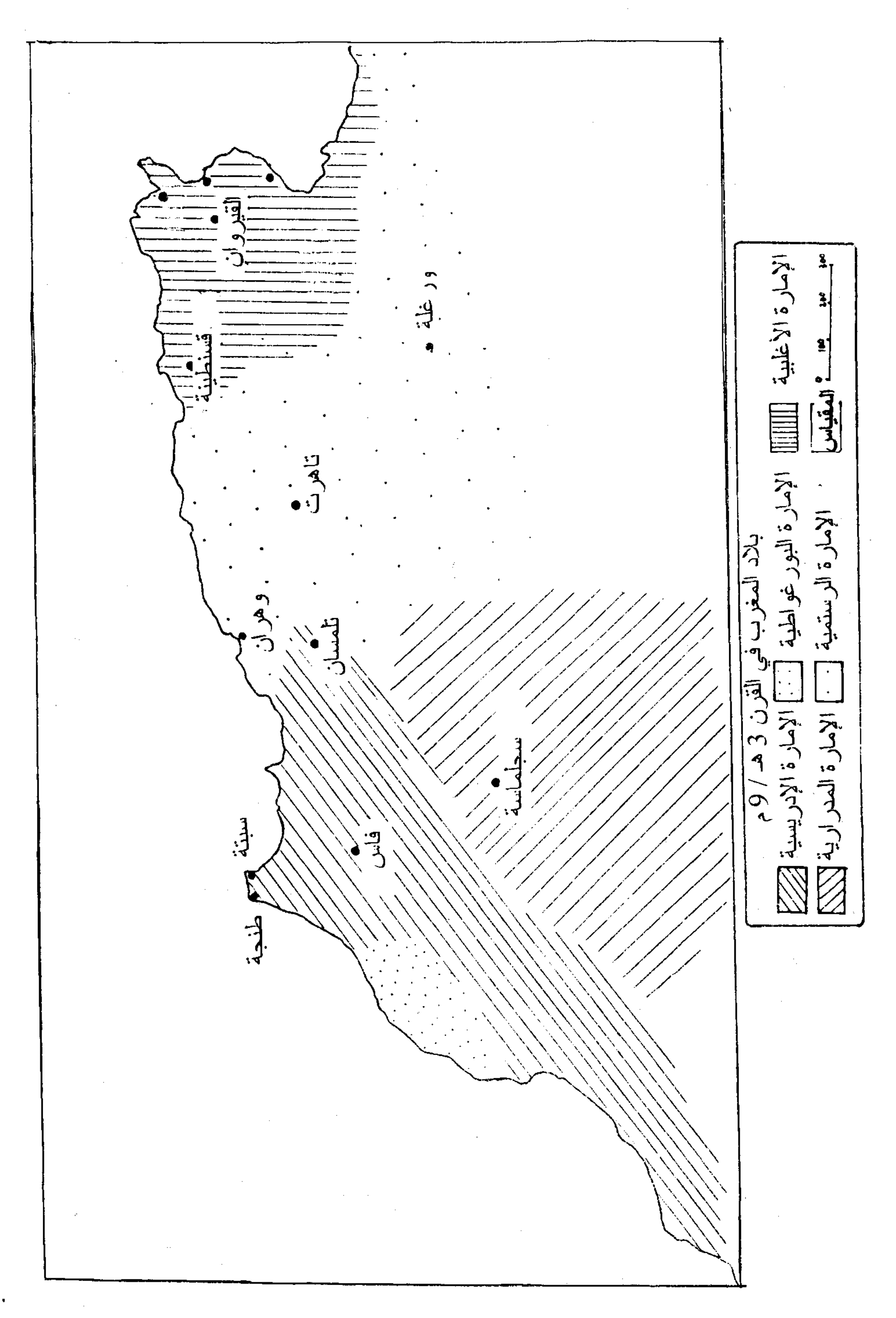
المجاورة، وتحكمه في مسالك تجارة القوافل وفي المعادن المستخرجة من المناجم بدرعة. ومن أجل "أن يعطي لحكمه سمعة أكثر استقرارا فقد تحالف مع عبد الرحمن بن رستم أمير تاهرت عبر عقد قران بين ابنه مدرار وبنت عبد الرحمن المسماة عروة"(155).

إن سياسية اليسع وأعماله الكبيرة واعتبارا لامتداد حكمه لما يزيد عن 33 سنة (ما بين 174 هجرية/790 ميلادية - 208 هجرية/823 ميلادية)، كانت لها تأثيرا إيجابيا على مدينة سجلماسة حيث عرفت خلال هذه الفترة استقرارا سياسيا وأمنيا ونهضة اقتصادية وهذا ما استفاد منه خلفه ابنه مدرار المكنى بالمنتصر الذي حكم ابتداء من سنة 208 هجرية/823 ميلادية. فقد ورث مدرار إمارة شاسعة ومستقرة، ولم يشهد حكمه اضطرابات إلا في السنوات الأخيرة من عهده نتيجة الصراع بينه وبين القبائل المكناسية. ذلك أن مدرارا فضل ابنه ميمون بن عروة الرستمية لتولي الحكم من بعده بينما آثرت القبائل المكناسية ميمون بن التقية المكناسية. هذا الصراع الذي دام ثلاث سنوات (210 هجرية/825 ميلادية - 213 هجرية/828 ميلادية) وانتهى لصالح مكناسة التي ثارت ضد مدرار وابنه فخلعتهما ونصبت ميمون بن التقية المكنى بالأمير. خلال حكم هذا الأخير (213 هجرية/828 ميلادية - 224 هجرية/838 ميلادية) وابنه محمد المسمى بالمنتصر (224 هجرية/838 ميلادية - 231 هجرية/844 ميلادية) عرفت سجلماسة استقرارا سياسيا وازدهارا اقتصاديا.

بعد هذه الفترة المزدهرة، ومع حكم اليسع بن مدرار المنتصر (231 هجرية/844 ميلادية - 255 هجرية/868 ميلادية) الذي حاول جمع شمل خوارج الصفرية بالمغرب، شهدت سجلماسة حدث ظهور الداعية الشيعي أبي عبد الله الفاطمي الذي جاء لإنقاذ زعيمه الإمام عبيد الله المهدي الذي كان مسجونا بالمدينة من طرف اليسع وبإيعاز من أمويي الأندلس.

---

(155) Mezzine (L) : "Sijilmassa", *Le Mémorial du Maroc*, op-cit. (p. 29).



خريطة 4 : الحالة السياسية لبلاد المغرب في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي

وهكذا فبعد أن بسط الداعية سيطرته على إفريقية والقضاء على حكم الأغالبة بها، اتجه نحو سجلماسة لتحرير سراح المهدي سنة 255 هجرية/868 ميلادية. "كانت ذريعة الغزو الفاطمي لسجلماسة هي إفتكاك أسر عبيد الله المهدي بعد أن انتهى به المطاف، لسبب غير واضح، إلى عاصمة المدراريين. إلا أن الدافع الحقيقي لاحتلال سجلماسة يتمثل أيضا في رغبة أبي عبد الله الشيعي في الاستيلاء على ثروات المدينة المشهورة بغناها"[(156)]. وقد تعرضت سجلماسة خلال هذه العملية لحصار قوي من طرف الفاطميين بل وقاموا بإحراقها وقتل عدد من أفراد الأسرة المدرارية. وقبل العودة إلى إفريقية عين الفاطميون حليفهم إبراهيم بن غالب المزاطي حاكما على سجلماسة. إلا أن هذا الحاكم لم يكن يحظى بعطف أهل المدينة الذين ثاروا عليه وقتلوه بعد فترة وجيزة فعينوا عليهم الأمير المدراري الفتح واسول بن ميمون الأمير. هذا الأخير تعرض بدوره للإقالة من طرف أخيه أحمد بن ميمون سنة 299 هجرية/912 ميلادية والذي حاول ما أمكن تجنيب إمارته الخطر الفاطمي لمدة حوالي تسع سنوات ومع ذلك فقد تعرض لانقلاب عسكري من طرف القائد الفاطمي مصالة بن حبوس عام 308 هجرية/921 ميلادية.

ومن أجل الحفاظ على التحكم في سجلماسة وفي تجارتها، عمل الفاطميون على تعيين حكام مدراريين موالين لهم على رأس المدينة ومنهم المعتز الحفيد الأصغر لمدرار سنة 308 هجرية /921 ميلادية ثم ابنه محمد سنة 314 هجرية/927 ميلادية وحفيده المنتصر سمكَو (شهران فقط عام 314 هجرية/927 ميلادية). إلا أن هذه التبعية للسياسية الفاطمية لم تدم طويلا حيث تم إلغاؤها من طرف الأمير المدراري محمد الفتح حفيد ميمون الأمير مع حلول سنة 337 هجرية/950 ميلادية. وعمل هذا الأمير (332 هجرية/945 ميلادية - 341 هجرية/954 ميلادية)

(156) رضوان (مبارك) : "بنو مدرار"، **معلمة المغرب**. المجلد الخامس (ص 1559).

على إعطاء حكمه الشرعية الدينية والسياسية، فلم يعترف بالفاطميين، ولقب نفسه ب"أمير المؤمنين الشاكر لله" وسك عملة ذهبية تدعى "الشاكرية" أو "الدينار الشاكري" ابتداء من سنة 341 هجرية/954 ميلادية، وذلك لتسهيل عملية التداول النقدي في المبادلات التجارية. وقد شهدت سجلماسة وسكانها في عهد هذا الأمير فترة من الاستقرار بالرغم من قصر مدة حكمه ومن تصاعد الصراع الأموي الفاطمي على سجلماسة وتجارة القوافل. كما أن الفاطميين لم يكونوا غافلين عن مجريات الأحداث بسجلماسة، إذ كانت الإجراءات التي أقدم عليها الأمير المدراري تشكل خطرا مذهبيا واقتصاديا عليهم، وكانت بذلك إيذانا للتدخل العسكري الفاطمي بزعامة القائد جوهر الصقلي الذي حاصر المدينة واستولى عليها سنة 345 هجرية/957 ميلادية.

ويورد صاحب روض القرطاس وصفا دقيقا لهذه الوضعية الجديدة التي عرفتها مدينة سجلماسة، إذ يقول : "وانصرف جوهر ـ بعد قتل يعلا ابن محمد اليفرني ـ إلى سجلماسة وكان قد قام بها محمد بن الفتح الخارجي المعروف بواسول بن ميمون بن مدرار الصفري وادعى الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وضرب بها السكة وكتب عليها اسمه وسكته معروفة بالشاكرية وكانت في غاية الطيب. وكان محمد بن الفتح غاية في إظهار العدل وإقامة السنة وكان مالكي المذهب فنزل عليه جوهر وحاصره بها وضيق عليه حتى دخلها عنوة بالسيف وقبض على الشاكر وتفرقت عنه جموعه وقتل رجاله وحماته من الصفرية وأوثقه في الحديد وأتى به أسيرا بين يديه حتى نزل على مدينة فاس وذلك في سنة 349 هجرية"[157] أي ما يوافق حوالي سنة 960 ميلادية.

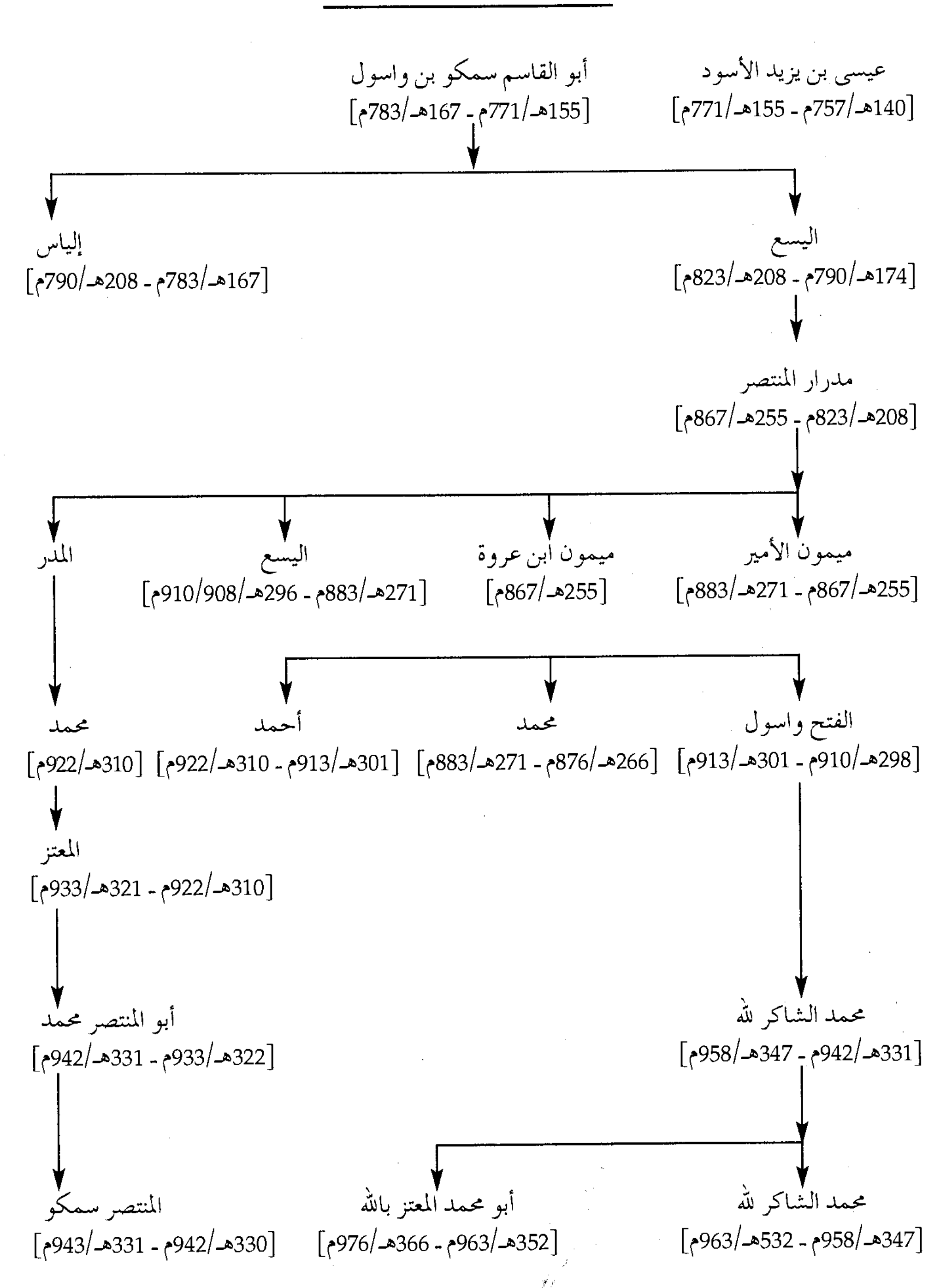
(157) ابن أبي زرع (علي الفاسي) : المصدر السابق (ص 90).

ويتضح من هذا أن مدينة سجلماسة قد استفادت في هذه الفترة الأولى من تحكمها في تجارة القوافل وأصبح لها شأن كبير. "وعندما توجه جوهر الصقلي بجيشه إلى سجلماسة ودخلها بدون مقاومة وفر أميرها الشاكر لله إلى منطقة مدغرة [قصر تاسكدالت]، يظهر أنه كان بهدف توثيق السيطرة على جميع محطات طرق التجارة مع السودان وتأمين الطريق المؤدية من سجلماسة إلى فاس"(158).

ومع توالي الصراع الأموي الفاطمي "استطاع أحد أبناء الشاكر لله والمكنى بالمنتصر بالله من السيطرة على سجلماسة عام 352 هجرية/963 ميلادية، إلا أن حكمه لم يدم طويلا حيث عوضه أخوه المعتز بالله"(159) الذي أعلن الاستقلال النهائي لسجلماسة عن الفاطميين سنة 355 هجرية/965 ميلادية مستغلا بذلك تراجع اهتمام الفاطميين بشمال إفريقيا بعد اتجاه نفوذهم نحو مصر وسوريا والمشرق بصفة عامة. خلال حكم المعتز لسجلماسة عرفت المنطقة هذه المرة ظهور قوة جديدة تطمح التحكم في المدينة بإيعاز من أمويي الأندلس، وهكذا استطاعت قبائل مغراوة الزناتية بقيادة خزرون بن فلفل القضاء نهائيا على الدولة المدرارية سنة 366 هجرية/976 ميلادية.

(158) العلوي القاسمي (هاشم) : **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4هـ/منتصف القرن 11م.** المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1995. الجزء الأول (ص 367).
(159) Mezzine (L) : op. cit. (p. 30).

شجرة أمراء بني مدرار



ج) الإمارة المغراوية (366هـ/976م - 447هـ/1054م) :

ورث المغراويون عن المدراريين إمارة شاسعة الأطراف تتحكم في معظم مسالك التجارة الصحراوية وفي المناجم الغنية بالفضة والنحاس وكانت لها منتجات فلاحية وحرفية كثيرة ومتنوعة. وكان سكان سجلماسة ينعمون بفترة من الاستقرار والرفاه. وحسب ابن خلدون، ينتمي بنو مغراوة الذين يطلق عليهم أيضا بني وانودين أو بني خزرون، وكذا بني يفرن وبني واسين إلى الفخذ الأكبر من قبيلة مغراوة[160].

وكان بنو مغراوة في بداية ظهورهم عبارة عن بدو رحل وكان مجالهم الرعوي في بداية الفتوحات الإسلامية يمتد في الشمال الغربي للمغرب الأوسط وبالضبط بين تلمسان غربا والشليف شرقا. كانوا أول الأمر، موالين للأدارسة وحاول الفاطميون إخضاعهم إلا أنهم انقلبوا عليهم بسرعة، فتحالفوا مع خصومهم أمويي الأندلس. وكان للصراع الذي نشب بين أمراء بني مدرار فرصة سانحة استغلوها بذكاء للانقضاض على سجلماسة بزعامة قائدهم خزرون بن فلفول "الذي استولى على خزائن أمير سجلماسة الغنية بالأموال والأسلحة، فعين نفسه حاكما على المدينة باسم الأمويين وأعطى أوامره بإقامة الصلاة باسم الخليفة هشام"[161] بن عبد الرحمان الداخل. ودام حكم خزرون ثلاث سنوات إلى أن خلفه من بعده ابنه وانودين سنة 369 هجرية/979 ميلادية، وعرف حكم هذا الأخير بداية متعثرة بسبب تمرد قبائل زناتة بمنطقة أشير وبسبب الحملة العسكرية الفاطمية على سجلماسة بقيادة بلقين بن زيري الذي استولى على المدينة وطرد منها وانودين فعين مكانه حاكما مواليا للفاطميين قبل أن يرجع إلى إفريقية، وبذلك "تحكم الفاطميون

(160) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء السابع (ص 124-125).
(161) Jacques-Meunié (D) : op. cit. (p. 206).

على المغرب الأوسط وخاصة محور تاهرت ـ سجلماسة بواسطة الزيريين"[162].
إلا أن الأمويين ردوا على هذه الحملة بالمثل لاسترجاع نفوذهم على سجلماسة وذلك بقيادة عبد المالك المظفر الذي سيطر على المدينة وعين عليها الحاكم حميد بن ياصل المكناسي.

وفي هذه الظروف ومن أجل استرجاع ملكه الضائع استعطف وانودين حكام بني أمية بتولي السلطة بسجلماسة تحت اسمهم، فقبلوا منه ذلك شريطة أن يترك أولاده كرهائن بقرطبة وأن يقدم لهم كل سنة القسط الأوفر من مداخيل المدينة. إلا أن وانودين وفي الوقت الذي أصبح فيه من جديد الحاكم الفعلي لسجلماسة سنة 382 هجرية/999 ميلادية، لم يتردد في إعلان استقلاله بالمدينة مستغلا في ذلك ظروف انقسام الخلافة الأموية بالأندلس إلى ملوك الطوائف سنة 407 هجرية/1016-1017 ميلادية وابتعاد خطر الفاطميين بعد استقرارهم نهائيا بمصر. "فأصبح وانودين قويا، إذ امتد نفوذه إلى مدينة صفرو وشمال الأطلس المتوسط على بعد 300 كلم شمال سجلماسة وحوالي 30 كلم من فاس وقام بتعيين أفراد عائلته كحكام على مراكز ملوية"[163]. كما مد حكمه نحو الغرب فاحتل درعة، المنطقة الغنية بالمناجم والمراعي. وأصبحت سجلماسة بالفعل عاصمة لإمارة مترامية الأطراف ومزدهرة بفضل تحكمها في المسالك والمراكز التجارية وفي الموارد الأولية والفلاحية.

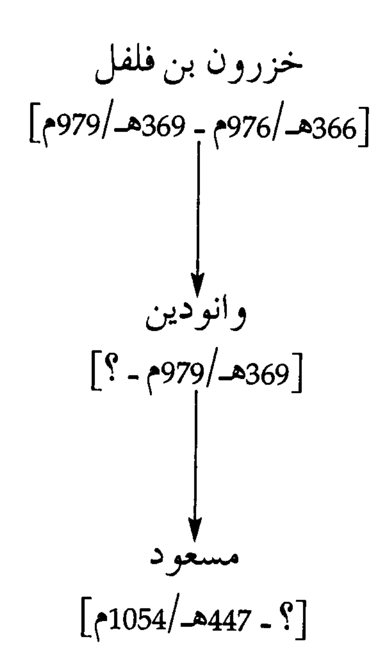
مع موت وانودين انتقل الحكم إلى ابنه مسعود الذي استفاد من إرث أبيه فقام بتمتين دولته وتأمين استقرارها، فسك العملة باسمه واستعمل القوة ضد خصومه كما فرض ضرائب غير شرعية على التجارة وعلى المناجم واستغل مراعي درعة لفائدة قطعانه من الإبل. وقد أثارت سياسة مسعود حفيظة

(162) Maazouzi (Mohamed) : "Le Touat comme carrefour d'échanges culturels religieux et économiques entre le Maroc et le Sahara Méridional avant l'occupation française", *Colloque Euro-africain 1985*, pp. 153-172 (p. 161).
(163) Jacques-Meunié (D) : op. cit. (pp. 206-207).

السجلماسيين وخاصة منهم العلماء "الذين استنجدوا بالداعية المالكي المرابطي عبد الله بن ياسين للقضاء على حكم بني خزرون"[164].

ومهما يكن الأمر، فإن المرابطين استفادوا من انعدام الثقة بين مسعود بن وانودين وسكان سجلماسة، فلم يترددوا في السيطرة على مركز استراتيجي هام في مشروعهم السياسي الذي يهدف إلى بسط نفوذهم على المغرب عامة وعلى تجارة القوافل بشكل خاص. ومع تحكم المرابطين في سجلماسة سنة 447 هجرية/1054 ميلادية، تنتهي فترة الإمارة المستقلة بالمدينة لتبدأ مرحلة تبعيتها للحكم المركزي.

شجرة الحكام المغراويين بسجلماسة



(164) El Mellouki (M) : op. cit., (p. 165).

خلاصة :

عرفت سجلماسة التي شيدها خوارج الصفرية المكناسيين على مشارف الصحراء وفي موقع التقاء المسالك التجارية الكبرى، خلال فترة الإمارة المستقلة، تقدما اقتصاديا مهما، و"استطاعت إلى حد ما وعلى امتداد القرون الإسلامية الأولى، ضمان الأمن والازدهار للواحات"[(165)]. هذا التقدم بالرغم من فوائده المادية على المستوى المعيشي لساكنة سجلماسة، فإنه بالمقابل كان من الأسباب الرئيسية فيما عرفته المدينة من اضطرابات نتجت إما عن خلافات سياسية أو صراعات عسكرية بين حكام المدينة أنفسهم أو بينهم وبين خصومهم من العباسيين والأغالبة والرستميين والفاطميين والزيريين والأمويين.

وهكذا استسلمت سجلماسة في الأخير للحكم المركزي للدول الكبرى التي تعاقبت على عرش المغرب من المرابطين إلى المرينيين ومرورا بالموحدين، قبل أن تنهار وتدمر نهائيا مع أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

II - سجلماسة من العصر المرابطي إلى نهاية العصر المريني (447 هجرية / 1054 ميلادية - نهاية القرن 8 الهجري / 14 الميلادي)

1 - في عصر المرابطين (447هـ/1054م - 539هـ/1145م) :

يرجع أصل المرابطين إلى لمتونة إحدى أهم قبائل صنهاجة، كانوا في أول الأمر عبارة عن رحل يتنقلون في المناطق الصحراوية جنوب المغرب، قبل أن ينتظموا دينيا وسياسيا تحت زعامة الداعية عبد الله بن ياسين. وبعد نجاحهم في

(165) Terrasse (Henri) : Histoire du Maroc des Origines à l'établissement du protectorat français. Casablanca, édition Atlantide 1950. Deux volumes, 17 cartes dans texte, 910 pages, 2° volume (p. 362).

السيطرة على جنوب بلاد المغرب وخاصة على المسالك التجارية المتجهة نحو بلاد السودان، قاموا ببسط نقودهم على سجلماسة وبالتالي التحكم في موارد جد مهمة ساعدتهم كثيرا على بناء إمبراطوريتهم.

ويرجع تدخلهم في سجلماسة حسب ابن خلدون : "أن وكَاك أو وجاج اللمتوني طلب من المرابطين باسم سكان سجلماسة التدخل لوضع حد نهائي لاستبداد وفساد بني وانودين وألح عليهم بتوفير الأمن لإخوانه المسلمين"(166). نفس التبرير تقريبا يقدمه صاحب كتاب الأنيس المطرب حيث يقول : "اجتمع فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور وعرفوهم بما هم فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي. فلما وصل الكتاب وشاورهم في الأمر فقالوا له أيها الشيخ الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله تعالى"(167). ولم يتردد الزعيم المرابطي عبد الله بن ياسين في تلبية هذا الطلب، فجمع رجاله في جيش عظيم وخرج بهم في 20 صفر سنة 447 هجرية/21 مايو 1054 ميلادية ورحلوا عن الصحراء، فاستولوا على درعة وعلى قطيع الإبل التابعة لمسعود بن وانودين. ولما استشعر هذا الأخير الخطر القادم، قام يستنفر قواته لرد هجوم المرابطين، إلا أنه انهزم وقتل فدخل المرابطون سجلماسة.

قام المرابطون بإعادة الأمن إلى المدينة وألغوا كل المكوس غير الشرعية وعينوا عاملا عليها قبل أن يلتحقوا من جديد بالصحراء. "ترك المرابطون حامية صغيرة بالمدينة بينما توجهت معظم قواتهم لمواجهة تمرد السودانيين، في

(166) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء الثالث (ص 375).
(167) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 127).

هذا الوقت بالذات استغل بقايا مغراوة الزناتيين الفرصة للانقضاض على السلطة المرابطية وقتلوا كل أفراد الحامية العسكرية"[168]. ولم يتأخر رد فعل المرابطين إذ قاموا بمهاجمة المدينة سنة 451 هجرية/1058 ميلادية بقوات تتكون من 200 فارس تحت قيادة أبي بكر بن عمر، فاسترجعوا المدينة وأعادوا تنظيم إدارتها وتم تعيين يوسف بن تاشفين حاكما عليها قبل أن يرجع المرابطون تحت زعامة أبي بكر إلى الصحراء حيث قتل فخلفه يوسف بن تاشفين في قيادة القوات المرابطية.

خرج ابن تاشفين من سجلماسة سنة 455 هجرية/1061 ميلادية، فقام ببناء مدينة مراكش سنة 456 هجرية/1062 ميلادية، كما قام بتعيين خلفه إبراهيم بن أبي بكر عاملا على سجلماسة، إلا أن هذا الأخير حاول أن يثأر لمقتل أبيه وأن يسترجع العرش لصالحه، فأعلن استقلاله بسجلماسة وقام بسك العملة باسمه ما بين 462 هجرية/1069 ميلادية و467 هجرية/1074 ميلادية، والأكثر من ذلك قاد حملة عسكرية ضد أغمات في محاولة للسيطرة على العاصمة المرابطية [مراكش]. فأرسل إليه يوسف بن تاشفين صهره المزدالي للتصالح وإقناعه بالتراجع عن مقصده. وقد توصلا ربما إلى حل وسط، خاصة إذا علمنا أنه في "سنة 467 هجرية [1074 ميلادية] نصب يوسف بن تاشفين داوود بن عائشة بسجلماسة ودرعة..."[169].

بعد هذا الحدث الأخير، عرفت المدينة سكونا غير مألوف ويجهل عنها أي جديد في هذه الفترة. ويرجع ذلك ربما إلى أن المرابطين "في الوقت الذي استقروا فيه بشمال جبال الأطلس، وأغمات ومراكش، لم يعد اهتمامهم كبيرا بالمناطق الصحراوية وبسجلماسة"[170]. وهذا ما يفسر كذلك صمت المصادر

(168) الجمل (إبراهيم محمد حسن) : **الإمام عبد الله بن ياسين، الفقيه المفكر والداعية والقائد المجاهد**. المدينة المنورة، دار الكتاب، بدون تاريخ. 261 صفحة (ص 104).

(169) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 142).

(170) Jacques-Meunié (D) : op. cit. (p. 242).

المكتوبة المعاصرة عن ذكر أحداث المدينة التي تحولت من الناحية السياسية إلى مجرد عاصمة إقليم من الأقاليم الخمسة المكونة للدولة المرابطية، بينما بالمقابل ظلت محتفظة بدورها الأساسي في تجارة القوافل وفي سك العملة. فمثلا من بين 77 دينارا مرابطيا المعروضة بالمكتبة الوطنية بباريس والآتية من مختلف المدن المغربية، تنتمي 31 منها لدار السكة بسجلماسة. نفس الشيء يقال عن النقود المكتشفة بموقع العقبة بالأردن من طرف أحد الباحثين الأمريكيين، إذ أتضح أن أغلبها ضرب في دار المسكوكات السجلماسية.

إن إغفال هذه المصادر عن ذكر سجلماسة في هذه الفترة، يمكن تفسيره أيضا بالهدوء الذي عاشته المدينة خاصة وأن اهتمام المرابطين ظل منصبا أساسا على بلاد الأندلس من جهة ومن جهة أخرى على مواجهة قوة الموحدين الصاعدة. "مع بداية تدهور الدولة المرابطية، ظهرت سجلماسة من جديد على الساحة السياسية وكانت محط أطماع القوة الجديدة بزعامة المهدي بن تومرت باعتبار أهميتها الاقتصادية ودورها في القضاء على المرابطين وفي توسعهم لبسط سيطرتهم على المغرب"[171]. وبذلك انتقلت مدينة سجلماسة إلى التبعية لنمط حكم مركزي آخر بكل ما يحمله هذا النمط من أصناف الهيمنة والاستغلال.

2 - في عصر الموحدين (535هـ/1139م - 655هـ/1255م) :

كان لدور سجلماسة الاقتصادي الهام وخاصة منه التجاري، وتوفرها على معامل نشيطة في ضرب العملة وعلى موارد طبيعية ضرورية للخزينة المركزية، أن جلبت إليها أطماع الموحدين الذين حاولوا السيطرة عليها منذ المرحلة الأولى لظهور حركتهم السياسية ما بين سنة 535 هجرية/1139 ميلادية، تاريخ خروج عبد المؤمن بن علي من تنمل وسنة 540 هجرية/1145 ميلادية، تاريخ

(171) Jacques-Meunié (D) : op. cit. (pp. 242-243).

التحكم في تلمسان. إلا أن هذه المدينة لم تظهر على مسرح الأحداث الموحدية إلا بعد السيطرة على العاصمة المرابطية، مراكش سنة 542 هجرية/1147 ميلادية.

في سنة 541 هجرية/1146 ميلادية ونظرا للضعف الذي أصاب السلطة المرابطية، استطاع سكان سجلماسة العيش ولو مؤقتا في شبه استقلال بعيدا عن سطوة الحكم المركزي بمراكش وذلك تحت قيادة الثائر محمد بن هود الهادي الذي حاول التوسع في منطقتي درعة وسوس. إلا أن الموحدين سرعان ما تدخلوا لجعل حد لهذه الحركة الاستقلالية والسيطرة على سجلماسة وربطها بالعاصمة الموحدية وبتجارة القوافل. "ثم دخلت سنة 543 هجرية [1148 ميلادية] فيها ارتحل عبد المؤمن إلى سجلماسة فدخلها وأمن أهلها ثم رجع إلى مراكش فأقام بها أياما"[172].

ورافق احتلال سجلماسة من طرف الموحدين أن أصبحت مواردها تذهب مباشرة نحو الخزينة الموحدية، مما أثر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمدينة وبالتالي أثار حساسية السجلماسيين الذين ثاروا ضد عامل الموحدين بالمنطقة. وهذا ما جعل الموحدون يبذلون كل قواهم لتهدئة الوضع بقيادة أبي حفص الذي نجح في استرجاع المدينة وتنظيم أمنها من جديد.

من أجل بسط نفوذهم النهائي على سجلماسة، عمل السلاطين الموحدون على إعطائها أهمية بالغة نظرا لمكانتها المتميزة في تجارة القوافل وفي سك العملة وجعلوا منها أحد الأقاليم الأساسية المكونة لدولتهم. وكانت مكونات السلطة الحاكمة بالمدينة جد معبرة ومنظمة وتتكون من حاكم عام، ومن مستشارين، ومن كتاب، ومن محصلي الضرائب، ومن قاضي الجماعة ومن موظفين آخرين. "خلال حكم يعقوب المنصور [580-595 هجرية/1184-1199

(172) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 190).

ميلادية] وابنه الناصر [596-610 هجرية/1199-1213 ميلادية] كان يحكم سجلماسة أبو الربيع سليمان"[173] بن عبد الله بن عبد المؤمن إلى غاية وفاته سنة 600 هجرية/1203 ميلادية. وحاول هذا الحاكم أن يستقل بتسيير شؤون سجلماسة وبالتحكم في مواردها التجارية. ويدل على ذلك الرسالة التي بعثها إلى "ملك غانة يشير فيها إلى التاريخ الحافل للعلاقات بين سجلماسة وغانة وعلى ضرورة ضمان حرية تنقل الأشخاص والبضائع وعلى توفير الظروف المناسبة لاستقرار التجار المغاربة ببلاد السودان"[174]. كما عرف عهد هذا الأمير الشاعر نهضة فكرية وأدبية حيث كانت سجلماسة "كعبة يحج إليها أساطين الفكر وجهابذة اللغة والأدب، من كل حدب وصوب، للمشاركة في المجالس العلمية والأدبية التي كانت تنظم بحضرته، والتي كانت تجري فيها مساجلات ومطارحات طريفة... وكان كبار الأعلام الذين يردون على حضرته مسترفدين، يصدرون عنها وألسنتهم تلهج بالمدح والثناء"[175].

بعد وفاة هذا الحاكم، خلفه ابن عمه أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن والذي خلفه بدوره أبو "محمد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن عبد المؤمن ابن علي وهو يومئذ [618 هجرية/1221 ميلادية] وال على مدينة سجلماسة وأعمالها"[176]. خلال حكم الخليفة المرتضى تعاقب على شؤون سجلماسة الشيخ أبو محمد عبد الحق الجنفسي والقطراني والفقيه القاضي أبو عمر حجاج. وقد "عرفت سجلماسة بعد فترة من الازدهار، تراجعا كبيرا بفعل تحول المسالك التجارية نحو ورغلة بالمغرب الأوسط والتي

(173) El-Mellouki (M) : op-cit. (p. 203).

(174) Temsir Niane (Djibril) : "l'interdépendance des empires soudanais et des états maghrébins aux XI-XIV° siècles", *Colloque Euro-africain 1985*. pp. 125-130 (p. 128).

(175) العلوي البلغيتي (إدريس) : "اعتناء الموحدين بسجلماسة مهد الشرفاء العلويين في عهد الخليفة المرتضى" **دعوة الحق**. العدد 280 محرم - صفر 1411/غشت - شتنبر 1990 (ص 123).

(176) المراكشي (عبد الواحد) : المصدر السابق (ص 467).

ارتبطت ببجاية وإفريقية وبفعل ظهور القبائل العربية المعقلية بنواحي ملوية وتافيلالت وسوس، مما أثر سلبا على تجارة المدينة"[177]. وعرفت سجلماسة فترات من الاستقرار والازدهار، كما شهدت بالمقابل توترات وانقلابات سياسية بين الإخوة الأعداء. من بين هذه الأحداث أذكر :

- ثورة محمد بن عبد العزيز الصنهاجي الذي دعا لنفسه وقتل يوسف بن علي عامل الخليفة الرشيد على سجلماسة،
- ثورة ابن غانية، حليف المرابطين عام 615 هجرية/1208 ميلادية، حيث نهبت المدينة على يديه،
- ثورة يحيى بن الناصر ما بين 624 هجرية/1227 ميلادية و626 هجرية/1229 ميلادية،
- ثورة الرشيد بن عبد المؤمن بين سنوات 632-640 هجرية/1234-1242 ميلادية، والتي كان هدفها التحكم في سجلماسة كخطوة للسيطرة على الحكم الموحدي بمراكش. وإلى ذلك يشير ابن عذاري بلسان متزعمها بقوله : "هذه سجلماسة أمامنا وبها تتم آمالنا وتتسع أحوالنا وننسى ما كابدناه من الأهوال وإذا ملكناها ملكنا كل البلاد وتسير لنا فيما نرومه المراد"[178]،
- ثورة السعيد عام 640 هجرية/1242 ميلادية، إلا أن متزعمها اصطدم بمنافس أخر يتمثل في أبي عبد الله بن زكرياء الخزرجي،
- ثورة الخزرجي [632 هجرية/1234 ميلادية - 644 هجرية/1246 ميلادية] الذي كان حاكما على سجلماسة في عهد السلطان الرشيد. ومع تولي

(177) Devisse (Jean) : "Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la Méditerranée : essai sur le commerce africain médiéval du XI^{ème} au XVI^{ème} siècle", *Revue de l'Histoire Economique et Sociale*. N° : 1 et 3 ; 1972. pp. 42-73 et pp. 357-97 (p. 79).

(178) ابن عذاري (المراكشي) : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. بيروت، دار الثقافة، 1985. قسم الموحدين (ص 324).

السعيد للسلطة الموحدية، رفض الاعتراف به وفي المقابل اعترف بأعدائه الحكام الحفصيين بإفريقية، وحاول الاستقلال بالمدينة، فقام بسك العملة باسمه وأحاط نفسه بعرب المعقل الذين أخذوا يستقرون تدريجيا بالمنطقة.

إلا أن السلطان السعيد لم يتأخر في إخماد هذا التمرد، إذ أرسل إليه أخاه أبا يزيد الذي استطاع القضاء عليه فأعاد النظام إلى سجلماسة ولو إلى حين، فعين عليها محمد القطراني. في هذه الفترة بدأ تدهور الدولة الموحدية وظهرت على الساحة المغربية بالموازاة مع ذلك، قوة سياسية جديدة تتمثل في بني مرين.

3 ـ في عصر بني مرين (655 هـ/1255م ـ نهاية القرن 8 الهجري/14 الميلادي) :

ينتمي المرينيون إلى قبائل زناتة و لم يكونوا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، سوى بدو رحل يتنقلون بالمغرب الشرقي ما بين ملوية شمالا وسجلماسة جنوبا في محاولة ربما لبسط سيطرتهم على مسالك التجارة الصحراوية. "نزحت أواخر القرن الخامس من موطنها الأول ببلاد الزاب بإفريقية بعد دخول القبائل العربية الهلالية وتحت تأثير مدها المباشر. ويبدو أن هذه القبائل المرينية النازحة قد اتجهت في مرحلة أولى صوب تلال الشمال الغربي للمغرب الأوسط فدخلت في صراع مستمر دائر مع قبائل زناتية من بطن بني وادين، ثم أقصيت في مرحلة ثانية إلى القفر جنوب هذه المنطقة غداة دخول عبد المومن بن علي الموحدي مدينة تلمسان سنة 539 هجرية/1145 ميلادية وتسخيره ضدهم لبقية القبائل الزناتية المنافسة ومن بينهم بنو عبد الواد"[179]. وقد انتهزوا ظروف تدهور الدولة الموحدية لفرض ثقلهم الاجتماعي والسياسي، فسيطروا على فاس سنة 650 هجرية/1251 ميلادية ثم بعد ذلك على كل شمال المغرب.

(179) القبلي (محمد) : "بنو مرين"، **معلمة المغرب**. المجلد الخامس (ص 1561).

وكانت الاستراتيجية السياسية المرينية تعتمد على قطع الطريق على إمدادات الموحدين من الموارد الأولية وذلك بالسيطرة على مراكز التجارية الأساسية وعلى سجلماسة بشكل خاص. هذه الأخيرة كان يحكمها عامل الخليفة الموحدي المرتضى، أبو محمد عبد الحق العنفسي الملقب بابن أزكو الذي زكان كثير الثقة بأحد أتباعه المسمى القطراني الذي أقال ابن أزكو وأعلن استقلاله بسجلماسة ومع فشله في تحقيق هدفه هذا بوسائله الذاتية استنجد بالمرينيين سنة 655 هجرية/1256 ميلادية"[180]. وقد استغل الزعيم المريني أبو يحيى بن عبد الحق هذه الفرصة الذهبية، فقاد حملة سريعة ضد المدينة فاحتلها في نفس السنة وعين ابنه أبا حديد مفتاح حاكما عليها. إلا أن سياسية هذا الأخير لم ترض السجلماسيين الذين رفضوه وطلبوا تدخل يغمراسن حاكم تلمسان.

وحسب مؤلف القرطاس فإن يغمراسن حاصر المدينة "من جهة الباب المسماة باب تاخنوست، مما أدى إلى اندلاع حرب كبيرة بين المرينيين وبني عبد الواد والتي انهزم فيها يغمراسن وقواته فرجعوا إلى تلمسان مما سمح لابي يحيى بالسيطرة على سجلماسة ودرعة فأعاد إليها الأمن وعين أبا بكر بن يزكاسن عاملا عليها يساعده أبا يحيى القطراني كقائد للجيش وعبد السلام الأوربي في جباية الضرائب"[181]. إلا أن القطراني لم يتأخر في الإعلان عن استقلاله بالمدينة من جديد سنة 658 هجرية/1259 ميلادية رافضا بذلك الحكم المريني ومعترفا بالمقابل بالمرتضى أخر خلفاء الموحدين والذي بعث على الفور القاضي أبا عمر وبعض الجنود الذين قتلوا القطراني وعينوا مكانه علي بن

(180) Alaoui (Abdelaziz El) : *Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XI° - milieu du XIV° S.) : Contribution à l'histoire économique, sociale et politique du Maroc Médiéval.* Université Bordeaux III, Thèse de 3° cycle en Etudes Arabes et Islamiques 1983. 8 cartes dans le texte, 443 feuilles dactylographiées (p. 385).

(181) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 296).

عمر. وهكذا أصبحت سجلماسة تابعة من جديد لحكم الموحدين على الأقل لمدة ثلاث سنوات.

في سنة 659 للهجرة/1260 للميلاد حاول السلطان المريني أبو يوسف يعقوب استرجاع المدينة، دون نتيجة. وفي سنة 660 هجرية/1261 ميلادية "تحكم عرب المنبات في سجلماسة لأنها كانت في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم"[182]. وعملت هذه القبائل المعقلية المتحالفة مع بني عبد الواد والتي استفادت من موت الحاكم الموحدي على إقناع سكان سجلماسة على مبايعة حكام تلمسان الزيانيين. فاستغل يغمراسن الفرصة فقام بالسيطرة على المدينة وعين ابنه يحيى يغمراسن عاملا عليها يساعده القاضي عبد المالك بن حنيفة ومحتسب. وظلت سجلماسة تحت حكم الزيانيين إلى غاية 672 للهجرة/1273 للميلاد.

في هذه الفترة وبالضبط سنة 664 هجرية/1265 ميلادية وصل إلى المدينة الجد الأول للشرفاء العلويين مولاي الحسن بن القاسم الملقب بالداخل قادما من ينبوع النخيل بالجزيرة العربية رفقة جماعة من الحجاج السجلماسيين برئاسة الشيخ أبي إبراهيم العمراوي. وفي سنة 672 هجرية/1273 ميلادية تدخل المرينيون لاسترجاع سجلماسة من جديد بعد أن سيطروا على مراكش، العاصمة الموحدية سنة 668 هجرية/1269 ميلادية.

وهكذا قام السلطان أبو يوسف يعقوب على رأس قوة كبيرة بحصار المدينة لمدة سنة كاملة "وشرع في قتالها وضيق عليها وبالغ في حربها ونصب عليها المجانيق[183] والرعادات[184] وضاق أهلها من شدة الحصار والقتال فكانوا يصعدون على الأسوار فيسبون ويلعنون بالقبيح فهتك المنجنيق من سورها

(182) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء السابع (ص 77).
(183) المجانيق : مدافع ترمي الحجارة.
(184) الرعادات أو العرادات : نوع من المنجنيق يستعمل لرمي النفط المشتعل.

برجا ومسافة فأنهد البرج والمسافة فدخلها من هنالك عنوة بالسيف وكان فتحها يوم الجمعة ثالث ربيع الأول من سنة 672 للهجرة (7 شتنبر 1273 للميلاد) وقيل كان فتحها أخر يوم من صفر من السنة المذكورة. فأمن أمير المسلمين أهلها وعفا عنهم وأصلح أحوالهم وأقام بها أياما حتى تهدنت أحوازها وأوديتها وتأمنت سبلها وارتحل عنها وترك بها عامله"[185].

ويشير ابن خلدون لدى حديثه عن هذا الحصار بقوله "ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها"[186]. فدخل المرينيون سجلماسة بالقوة وقتلوا الحاكم التلمساني عبد المالك ابن حنيفة وجميع من كان معه من بني عبد الواد وزعماء عرب المنبات. ونظرا لتضررها مما لحق بها من جراء الاضطرابات التي شهدتها، فقد تراجعت تجارتها مع منطقة درعة مما جعل السلطان أبو يوسف يعقوب يخرج إليها من مراكش سنة 685 هجرية/1286 ميلادية على رأس 12 ألف فارس، حيث أعاد الأمور إلى نصابها.

ومع هذه السيطرة، أصبحت سجلماسة إقليما مهما من الأقاليم المكونة للدولة المرينية وعاشت فترة هدوء استمرت لمدة نصف قرن على الأقل. كانت مداخيل الخزينة المرينية تتألف من موارد متعددة مثل الزكاة والخراج والمكوس وحسب ابن فضل الله العمري فإن سجلماسة مع درعة ساهمت بأعلى دخل في عهد السلطان أبي سعيد يبلغ 150 ألف مثقال وهو يساوي ما قدمته كل من فاس ومراكش[187]. ويشير المنوني إلى الأهمية التي كانت تحتلها سجلماسة في العهد المريني وخاصة فيما يخص سك العملة فيقول "ومن المدن التي تضرب

(185) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 312).
(186) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء السابع (ص 188).
(187) العمري (ابن فضل الله) : المصدر السابق (ص 171).

بها النقود المرينية فاس وسجلماسة ومراكش ومنصورة تلمسان وأزمور وسبتة ومكناس... ولا تعدو معلوماتنا القليلة عن دور السكة الأخرى ثلاث مدائن هي سجلماسة وسبتة ومراكش. فقد ورد في الدوحة المشتبكة إشارة عابرة لدار سكة سجلماسة وأمينها وشاهديها"[188].

وفي عام 714 هجرية/1314 ميلادية منح السلطان المريني أبو سعيد عثمان حكم المدينة إلى ابنه وولد عهده أبي علي عمر، فعقد له "على بلاد القبلة ومدينة سجلماسة وبلاد درعة وما والى ذلك إلى الصحراء وفوض له الأمر في خراجها وجميع أمورها"[189]. هذا الأخير استغل بعد السلطة المركزية بفاس وانشغالها بالأحداث المحلية، فأعلن استقلاله بالمدينة وتحكم في تجارتها الصحراوية وفي معاملها لسك العملة. "فأقام بها ملكا، ودون الدواوين واستلحق واستركب، وفرق العطاء، واستخدم ظواعن العرب من المعقل، وافتتح معاقل الصحراء"[190].

ومع شعوره بالقوة ثار ضد أبيه وبسط نفوذه على منطقة درعة والسوس سنة 720 هجرية/ 0231 ميلادية. "إلا أن أمير سجلماسة كان طموحا كثيرا، ففي 720 هجرية /1320 ميلادية أعلن الحرب على أبيه وأحتل مراكش، ثم انهزم فالتجأ إلى عاصمته والتي قام أبو سعيد بحصارها. فتحاور من جديد وطلب العفو من أبيه فاحتفظ به في إمارته"[191] في عام 715 هجرية/1315 ميلادية.

إثر وفاة أبي سعيد عثمان سنة 731 هجرية/1331 ميلادية، خلفه ابنه أبو الحسن الذي قام بإعادة الأمن إلى سجلماسة وحاول القضاء على تمرد أخيه.

(188) المنوني (محمد) : **ورقات عن حضارة المرينيين**. الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رقم 20، 1996 (ص 130-131).

(189) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء السابع (ص 399).

(190) نفسه : نفس المصدر (ص 323).

(191) El-Alaoui (A) : op-cit (p. 394).

هذا الأخير وفي محاولة لأخذ عرش أبيه خاصة وأنه كان وليا للعهد قبل خروجه عنه، قام سنة 732 للهجرة /1332 للميلاد بالسيطرة على درعة وشن هجوما على مراكش مستغلا بذلك انشغال أخيه أبي الحسن في حملته ضد تلمسان.

وكان لوقع هذه الأحداث شديدا على أبي الحسن، فرجع مسرعا وحاصر سجلماسة لمدة سنة كاملة وقطع عنها جميع الإمدادات. وإلى هذا يشير ابن خلدون بقوله "فنزل عليها وأحاطت عساكره بها وأخذ بمخنقها حشد الفعلة والصناع لعمل الآلات لحصارها والبناء بساحتها وأقام يغاديها القتال ويراوحها حولا"(192)، مما أضعف صمود أبي علي الذي أضطر إلى فتح أبواب المدينة في وجه أخيه سنة 733 هجرية/1333 ميلادية وبذلك سيطر أبو الحسن على سجلماسة "فأعتقل أخاه الأمير أبي علي عند باب قصره وسيق إلى السلطان، فأمهله وأعتقله واستولى على ملكه"(193)، وعين حاكما أخر على المدينة. وفي محاولته لتجنيب البلاد مثل هذه التمردات، قام أبو الحسن بتنظيم دولته إداريا حيث قسم المغرب "إلى خمسة أقطار تجب فيها الأعشار من بينها سجلماسة ودرعة وما والاها من البلاد"(194).

وحسب الرواية الشفوية، عرفت سجلماسة منذ هذا التاريخ تدهورا مستمرا بفعل حصارها من طرف أبي الحسن الملقب بالسلطان الأكحل الذي قام بتغوير عين تمدرين الواقعة على بعد ثلاثين كيلومترا شمال المدينة والتي كانت تزودها بما تحتاجه من المياه الوافرة لسقي الحقول الزراعية، مما أدى إلى ضعف الإنتاج الفلاحي وخاصة الحبوب والخضر. وفي رواية أخرى أن أبا الحسن أصدر أوامره إلى جنوده بنهب المدينة وبترهيب سكانها وقام بفرض

(192) ابن خلدون (عبد الرحمن) : نفس المصدر، الجزء السابع (ص 336).
(193) نفسه : نفس المصدر (ص 337).
(194) المنوني (محمد) : المرجع السابق (ص 122).

ضرائب غير شرعية على التجارة والمنتجات وحتى على الحقول غير المحروثة، وفي المقابل أعفاهم من ضريبة الجمون. وهي "ضريبة كان سكان سجلماسة وسائر بلاد القبلة يؤدونها للمخزن المريني على النخل والزرع ويجتمع من جبايتها أحمال من الذهب. أسقطها عنهم أبو الحسن المريني واقتصروا بعدها على الزكاة والعشر كباقي أهل البوادي ببلاد المغرب"[195].

خلاصة :

اعتبارا لموقعها المتميز على مفترق مسالك تجارة القوافل تحكمت سجلماسة في تجارة الذهب والعبيد، كما اشتهرت بغناها إلى مناجم الفضة والنحاس وهيمنتها على المناجم المجاورة، وكانت أيضا نشيطة في سك العملة وعرفت خلال عصر تبعيتها للحكم المركزي وضعين سياسيين واقتصاديين مختلفين :

• الأول يرجع إلى فترة حكم الدول الكبرى الثلاثة المرابطية، والموحدية والمرينية والتي حاولت بسط هيمنتها على المدينة من أجل التحكم في مواردها. هذه الموارد كانت بمثابة الركيزة المادية الأساسية لحكام مراكش أو فاس في توفير الأمن، وفي تقوية السياسة العسكرية والاقتصادية وفي توسيع أو ضمان استمرار نفوذهم على كل الغرب الإسلامي.

• الوضع الثاني يهم الأحداث المحلية، ذلك أن حكام المدينة وبدعم من بعض القبائل كانوا يتمردون باستمرار ضد الحكم المركزي للحصول على حقهم من خيرات المدينة أو للانفراد بها كلية. وبفعل هذه الطموحات شهدت سجلماسة سلسلة من التمردات والفوضى كان من نتائجها في آخر المطاف اندثار المدينة مع نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

---

(195) حافظي علوي (حسن) : "الجمون" **معلمة المغرب**. المجلد التاسع (ص 3094).

جدول خاص بالحكام الذين تعاقبوا على حكم مدينة سجلماسة

الدولة	اسم الحاكم	صفته	تاريخ حكمه
	(1) عيسى بن يزيد الأسود	مؤسس المدينة	140هـ/757م - 155هـ/772م
	(2) أبو القاسم سمكَو بن واسول	الأمير المدراري الأول	155هـ/772م - 167هـ/784م
	(3) إلياس	الأمير الثاني	167هـ/784م - 174هـ/790م
	(4) اليسع	الأمير الثالث	174هـ/790م - 208هـ/823م
	(5) مدرار المنتصر	الأمير الرابع	208هـ/823م - 213هـ/828م
	(6) ميمون ابن عروة	الأمير الخامس	213هـ/828م - ؟
	(7) ميمون ابن التقية الأمير	الأمير السادس	213هـ/828م - 224هـ/838م
	(8) محمد المنتصر	الأمير السابع	224هـ/838م - 231هـ/844م
	(9) اليسع بن مدرار	الأمير الثامن	231هـ/844م - 255هـ/688م
المدرارية	(10) أبو عبيد الله الفاطمي	القائد الفاطمي	255هـ/868م - 296هـ/908م
	(11) الفتح واسول	الأمير التاسع	296هـ/908م - 299هـ/912م
	(12) أحمد بن ميمون الأمير	الأمير العاشر	299هـ/912م - 308هـ/921م
	(13) محمد بن المدر بن مدرار	الأمير الحادي عشر	308هـ/921م - ؟
	(14) المعتز	الأمير الثاني عشر	308هـ/921م - 314هـ/927م
	(15) أبو المنتصر محمد	الأمير الثالث عشر	314هـ/927م - 337هـ/950م
	(16) المنتصر سمكو	الأمير الرابع عشر	337هـ/509م - شهران فقط
	(17) محمد الشاكر لله	الأمير الخامس عشر	337هـ/950م - 345هـ/957م
	(18) المنتصر بالله	الأمير السادس عشر	347هـ/959م - 352هـ/963م
	(19) أبو محمد المعتز بالله	الأمير الأخير	352هـ/963م - 366هـ/976م
	(20) خزرون بن فلفل	المؤسس	366هـ/976م - 369هـ/979م
المغراوية	(21) وانودين	الأمير الأول	369هـ/979م - ؟
	(22) مسعود	الأمير الأخير	؟-447هـ/1054م
	(23) عبد الله بن ياسين	الزعيم الروحي	فترة قليلة عام 447هـ/1054م
	(24) أبو بكر بن عمر	القائد العسكري	فترة قليلة عام
المرابطية	(25) يوسف بن تاشفين	المؤسس الحقيقي	451هـ/1058م - 451هـ/1058م - 455هـ/1061م
	(26) إبراهيم بن أبي بكر	العامل الأول	455هـ/1061م - 467هـ/1074م
	(27) داود بن عائشة	العامل الثاني	467هـ/1074م - ؟
	(28) عبد المؤمن بن علي	المؤسس الحقيقي	535هـ/1139م - 540هـ/1145م
الموحدية	(29) محمد بن هود	ثائر استقل بالمدينة	541هـ/1146م - 543هـ/1148م
	(30) عبد المؤمن بن علي	أعاد السيطرة عليها	543هـ/1148م - ؟
	(31) أبو حفص	القائد العسكري	غير محدد

الموحدية	(32) أبو الربيع سليمان بن عبد الله	عامل	580هـ/1184م - 600هـ/1203م
	(33) أبو الربيع سليمان بن أبي حفص	عامل	600هـ/1203م - ؟
	(34) عبد العزيز بن أبي يعقوب	عامل	كان عاملا سنة 618هـ/1221م
	(35) عبد الحق العنفسي أو العنجسي	عامل	خلال حكم الخليفة المرتضى
	(36) أبو يحيى محمد القطراني	عامل	"
	(37) القاضي أبو عمر حجاج	عامل	"
	(38) يوسف بن علي	عامل	في عهد الخليفة الرشيد
	(39) محمد الصنهاجي	ثائر	"
	(40) ابن غانية	ثائر	615هـ/1208م
	(41) يحيى بن الناصر	ثائر	624هـ/1227م - 626هـ/1229م
	(42) الرشيد بن عبد المؤمن	الأمير الثائر	632هـ/1234م - 640هـ/1242م
	(43) السعيد	الأمير الثائر	عام 640هـ/1242م
	(44) أبو عبد الله الخزرجي	ثائر	632هـ/1234م - 644هـ/1246م
	(45) أبو يزيد	قائد وأخ الخليفة السعيد	644هـ/1246م - ؟
المرينية	(46) أبو يحيى بن عبد الحق	المؤسس الحقيقي	654هـ/1255م
	(47) أبو حديد مفتاح	عامل أباه أبا يحيى	655هـ/1256م - ؟
	(48) يغمراسن	حاكم تلمسان	؟
	(49) أبو بكر بن يزكاسن	عامل	خلال حكم عبد الحق بن يحيى
	(50) محمد القطراني	القائد الثائر	"
	(51) علي بن عمر	عامل الموحدين	في عهد الخليفة المرتضى
	(52) يحيى يغمراسن	عامل بني عبد الواد	660هـ/1263م - 673هـ/1274م
	(53) أبو يوسف يعقوب	السلطان المريني	673هـ/1274م - 674هـ/1275م
	(54) أبو علي عمر	عامل أبيه عثمان	714هـ/1315م - 733هـ/1333م
	(55) أبو الحسن	السلطان المريني	سيطر عليها 733هـ/1333م
	(56) أبو عنان	ثائر بالمدينة ضد أبيه	749هـ/1349م - 750هـ/1350م
	(57) أبو الحسن	السلطان المريني	750هـ/1350م - 751هـ/1351م
	(58) أبو عنان	السلطان المريني	751هـ/1351م - 761هـ/1360م
	(59) عبد الحليم بن أبي علي	ثائر ومستقل بالمدينة	761هـ/1360م - 762هـ/1361م
	(60) عبد المؤمن بن أبي علي	ثائر بالمدينة ضد أخيه	762هـ/1361م - 764هـ/1363م
	(61) مسعود بن عبد الرحمن بن ماسة	قائد الوزير عمر	764هـ/1363م
	(62) علي بن إبراهيم بن عبو بن ماسة	عامل الوزير عمر	764هـ/1363م - 787هـ/1386م
	(63) محمد بن عبد الحليم	ثائر ومستقل بالمدينة	787هـ/1386م - ؟
	(64) أبو العباس أحمد	السلطان المريني	نهاية المدينة [795هـ/1393م]

الفصل الثاني

○○○○○

ضوابط العمران السجلماسي

المبحث الثالث :

البنية الاقتصادية

تقديـــم :

بالرغم من قساوة المناخ، استطاع سكان سجلماسة منذ البداية أن يتأقلموا مع محيطهم وذلك بتنظيم المجال بطريقة تمكنهم من توفير حاجياتهم المعيشية الضرورية. ويتضح تنظيم المجال السجلماسي بشكل خاص في اعتماد زراعة مكثفة ترتكز على نظام ري دقيق، وفي امتهان الأنشطة الحرفية المتنوعة وفي التعاطي للتجارة على نطاق واسع.

I ـ الفلاحة والصنائع :

1 ـ مكونات الفلاحة السجلماسية :

كانت الفلاحة في سجلماسة ولا شك أكثر نموا باعتبار أن المياه كانت متوفرة نسبيا والتي كان يُعتمد في تصريفها على تنظيم محكم، مما مكن من الاستغلال المكثف للأراضي الصالحة للزراعة، هذا إلى جانب وجود اليد الفلاحية النشيطة. ففي الفترة الأولى، "استفاد بنو مدرار من مياه وادي زيز في تحويل البقعة التي أقاموا فيها عاصمتهم إلى سهل فيضي، صيروا فيها الخلجان وشقوا القنوات لتوصيل المياه إلى مساحة واسعة قسموها إلى حياض تشبه حياض البساتين ومهدوها للزراعة. واستكثروا من الغروس، فزرعوا أشجار النخيل والأعناب على مساحة بلغت أربعين ميلا، فاشتهرت سجلماسة لذلك بوفرة كرومها وفاكهتها"[196].

(196) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : مرجع سابق (ص 274).

أما فيما يخص نظام الزراعة فقد عمل السجلماسيون، بفعل محدودية المساحات المسقية والصالحة للزراعة، إلى الاعتماد على التناوب بين ثلاثة أنواع من المنتجات : يشتمل النوع الأول منها على الخضر بكل أنواعها والحبوب من قمح وذرة وشعير. وأورد البكري وصفا دقيقا لعملية زراعة القمح بقوله : "ويزرع بأرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد، وأرضهم متشققة فيرفع ما تناثر منه في تلك الشقوق، فإذا كان في العام الثاني حرث بلا بذر وكذلك في الثالث. وقمحهم رقيق صيني"[(197)]. ويعتمد الصنف الثاني على الغراسة أو الزراعة الشجرية وخاصة النخيل والفواكه. أما النوع الثالث فيضم المنتجات الموجهة للتصنيع أو التجميل مثل القطن، والحناء، والقرنفل والمنتجات العلفية... إلى أخره.

وكان السجلماسيون يقومون بالزراعة في حقول صغيرة الحجم تعتمد على تقنية الفيض وكان "شرب زروعهم من النهر في حياض كحياض البساتين، وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه، وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لا يزبب إلا في الظل ويعرفونه بالظلي، وما أصابته الشمس منه زبب في الشمس"[(198)].

وقد كان لدقة هذا النظام الزراعي أن عرفت سجلماسة إنتاجا وافرا ومتنوعا أمن سكانها من الأزمات الغذائية التي عرفتها معظم المناطق المغربية الأخرى، بل والأكثر من ذلك القيام بتصدير فائض الإنتاج إلى مختلف الجهات. يقول ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : "كانت سجلماسة تتوفر على واحة من النخيل تنتج عددا كبيرا ومتنوعا من التمر الذي يتم تصديره في كل المغرب... كما كانت لها حقول خاصة بالخضر. وبالرغم

(197) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق، طبعة 1992 ، الجزء الثاني (ص 840).
(198) البكري (أبو عبيد الله) : نفس المصدر (ص 836).

من ضعف التربة وعجز السكان فإن القمح كان يعطي سبعة محاصيل خلال سبع سنوات متتالية وباستعمال عملية بذر واحدة فقط"[199]. في حين أُعجب ابن بطوطة خاصة بتمر سجلماسة فقال في حقه "وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيرار منه لا نظير له في البلاد"[200].

كما عرفت سجلماسة تقنيات جد متقدمة في مجال السقي يمكن حصرها في بناء السدود الصغيرة على الأودية قصد تصريف مياهها في السواقي وكذلك في الناعورات التي بنيت على وادي زيز وكانت تقذف بمياهه في قنوات تحمله إلى المدينة كما يذكر ذلك محمد بن الحسن الوزان[201]. ويمكن أن نتكلم أيضا عن تقنية استخراج المياه الباطنية بواسطة الخطارة أو أغرور وغيرهما.

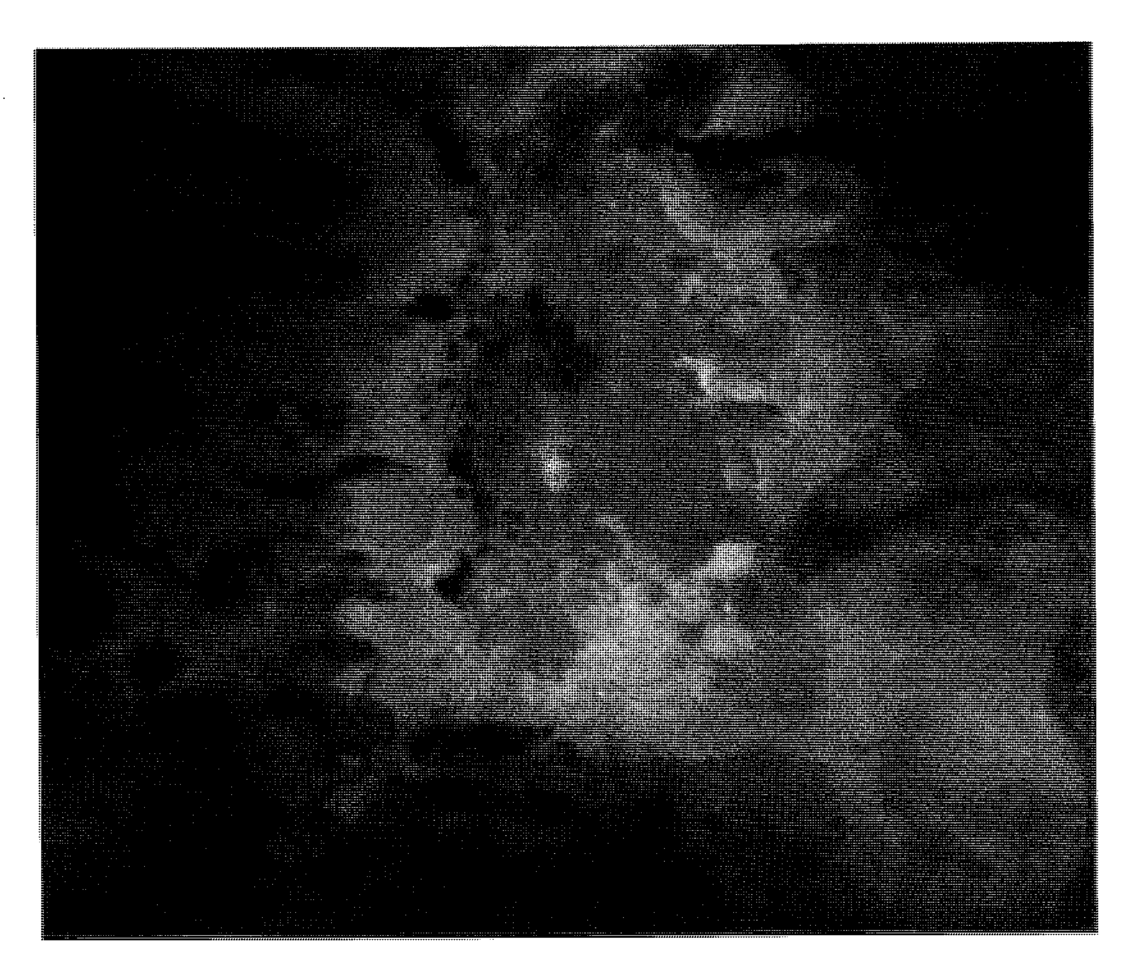
أما فيما يخص تربية الماشية فلا شك أنها كانت ذات أهمية كبرى ذلك أن المصادر التاريخية تتحدث عن وفرة المراعي وبأن الرعاة كانوا يتجمعون مرة كل سنة بمكان معين بالمنطقة في إطار سوق يتبادلون فيها منتجاتهم، ربما قبل أن يتم تشييد مدينة سجلماسة نفسها.

وقد لعبت تربية المواشي دورا مهما في حياة السجلماسيين، لما توفره لهم من المواد الغذائية الأساسية مثل الحليب واللحم، فضلا عن المادة الأولية في صناعة الجلد والملابس الصوفية. ويعتبر البعض منها مثل الإبل على الخصوص، الوسيلة الرئيسية في تجارة القوافل. ويشير البكري إلى الشأن الكبير الذي بلغه هذا القطاع بالمنطقة فيقول : "وهو بلد يحسن فيه الغنم ويقال إن أصول أغنامهم (من قيس) من أرض فارس، وصوفها من أجود الأصواف ويعمل منه

(199) العمري (ابن فضل الله) : مصدر سابق، طبعة 1927 (ص 201).

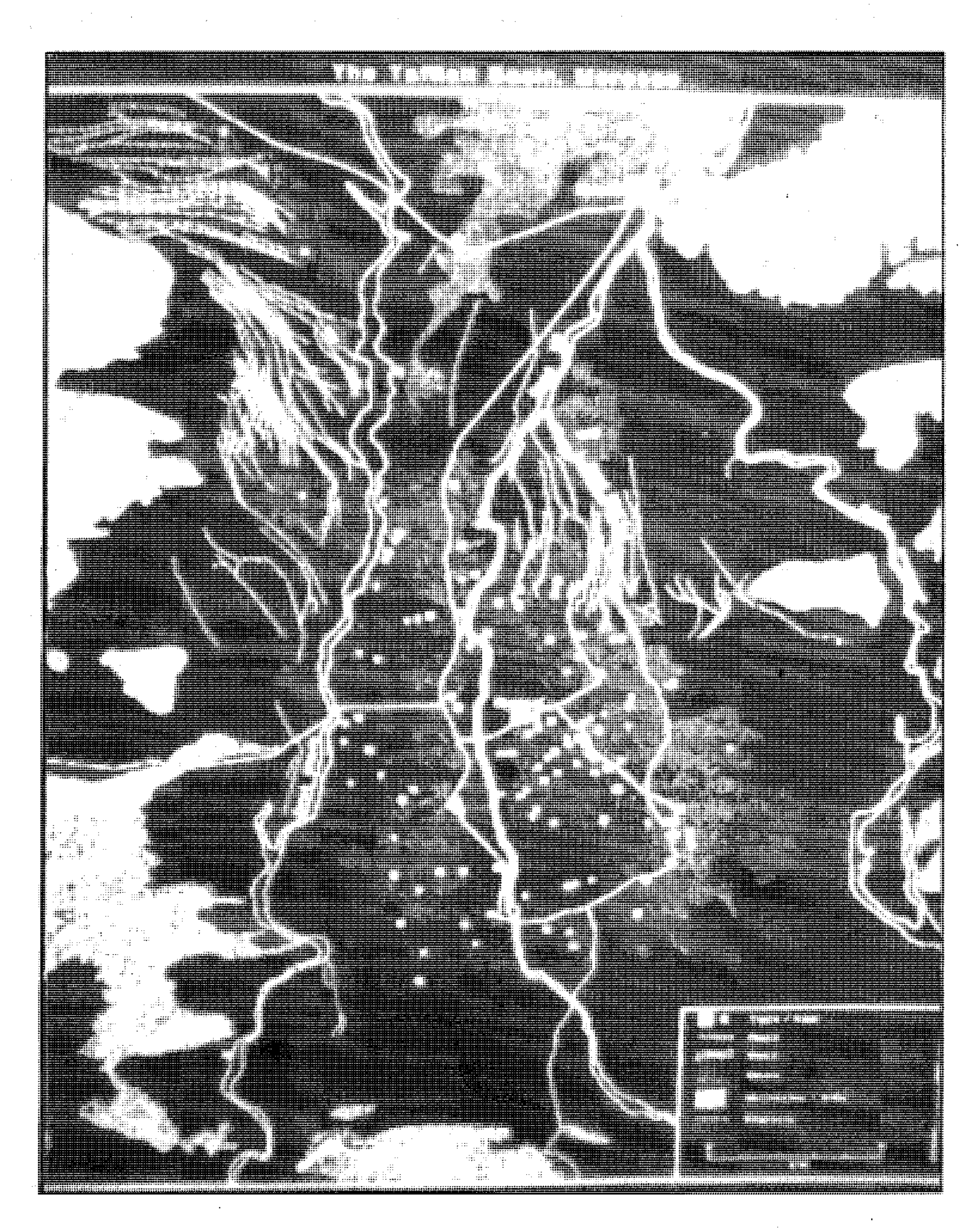
(200) ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) : مصدر سابق، المجلد الرابع (ص 239).

(201) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : مصدر سابق (ص 127).



الصورة 1 : منطقة سجلماسة، المؤهلات الفلاحية

المرجع : صورة بالأقمار الاصطناعية خاصة بالبعثة الأمريكية



الصورة 2 : منطقة سجلماسة، المؤهلات المائية

المرجع : صورة بالأقمار الاصطناعية خاصة بالبعثة الأمريكية

بسجلماسة ثياب يبلغ أزيد من عشرين مثقالا[202]. وقد عرفت سجلماسة تربية أنواع متعددة من الأغنام والأنعام مثل الخرفان، والماعز، والإبل، والحمير والبغال فضلا عن الدواجن.

يتنقل الرعاة بين ضواحي سجلماسة جنوبا ومرتفعات جبال الأطلس شمالا، ويمكن التمييز بين نوعين من تربية الماشية : "نوع يقوم على الترحال ويتكون من قطعان كبيرة من الإبل والماعز، وأحيانا الغنم وهو النشاط الأساسي بالنسبة للرحل. ونوع آخر خاص بالمستقرين ويقوم على تربية بعض رؤوس الأغنام داخل المنازل بالقصور"[203].

وبصفة عامة فإن تربية الماشية كانت الحرفة الأولى التي اشتغل بها السجلماسيون قبل بناء مدينتهم ومع استقرار قبائل الرحل بها ظلت هذه الحرفة من الأنشطة الإنتاجية الأساسية للسكان إلى جانب الزراعة والتجارة والصنائع.

2- أهم الصنائع بسجلماسة :

أ) الصنائع المرتبطة بالفلاحة :

لم تكن سجلماسة واحة زراعية فحسب وإنما كانت أيضا مركزا حرفيا مزدهرا حيث عرفت عدة صنائع بفعل وجود فئة نشيطة عاملة في هذا الميدان وبفعل توفر المواد الأولية من فضة ونحاس وصلصال وجلود وصوف وقطن... وغيرها، فضلا عن الذهب المستورد من بلاد السودان. وتطورت هذه الصنائع بتزامن مع النمو الديموغرافي والعمراني للمدينة ومع تزايد الطلب وارتباطا بالرواج التجاري. وهي صنائع لبت الحاجيات المحلية بل وخلقت فائضا استعمل في المبادلات التجارية مما يجعل "من الصعب الإحاطة بجميع

(202) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 834-835).
(203) عبد اللوي علوي (أحمد) : مرجع سابق (ص 101).

خصائص هذه الحرف بسجلماسة نظرا لقلة المعلومات المتوفرة... فالحرفيون تكاثر عددهم مع نمو المدينة، إلا أن هذه الأنشطة اهتمت أساسا بالسلع التي لها علاقة مباشرة مع تجارة القوافل كالنسيج، والخشب والمعادن"[204].

وعرفت سجلماسة تنوعا في إنتاجها الفلاحي، بل وتخصصت في بعض المنتجات التي تدخل في الصناعة التحويلية ومن ذلك صناعة الجلد التي شهدت نوعا من التوسع في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ويعود الفضل في ذلك إلى توفر المنطقة على شجرة الأثل التي يستعمل منتوجها في دباغة الجلود. كما يمكن أن نتكلم عن الزبيب أو العنب الذي سواء نضج أم لا، يجفف قبل أن يصدر كما أكد ذلك ابن حوقل[205]. هذا إلى جانب نوع آخر من المنتجات التي تدخل ضمن لائحة التوابل أو مواد التجميل مثل الكمون، والكروياء والحناء.

ب) صناعة المعادن :

اشتهرت مدينة سجلماسة بمناجمها الغنية بالنحاس والفضة، كما أنها تحكمت ولفترة طويلة في تجارة الذهب السوداني وفي مناجم درعة وتذغة، مما أهلها أن تصبح مركزا أساسيا في سك النقود وشهدت صناعة معدنية متنوعة سواء منها التي اهتمت بالحلي والسبائك أو الأواني والمعدات الأخرى. وارتبط ازدهار مدينة سجلماسة خاصة مع حكم اليسع المدراري المكناسي [174-208 هجرية 790-823 ميلادية]. ففي عام 199 هجرية/814-815 ميلادية قام هذا الأمير بإحاطة المدينة بسور وأسس المسجد الجامع ومختلف المرافق الأخرى، فسيطر على كل خيرات المنطقة وأخذ الأعشار عن المعادن المستخرجة من مناجم تذغة ودرعة.

مع الأسف لا يُعرف لحد الآن أين كانت تتركز هذه الصناعة والتي ولا شك كانت تحت قبضة السلطة الحاكمة وذلك بسبب شح المعلومات التاريخية

---

(204) El Mellouki (Mohamed) : op-cit (p. 420)

(205) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) : مصدر سابق (ص 70).

والأثرية. لكن يبقى من المعروف أن أهمية سجلماسة في هذا الميدان قد خلق لها عدة متاعب نتيجة الأطماع الخارجية، حيث حاولت معظم الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب مراقبة هذه المدينة لما توفره من موارد ضرورية في إنجاز العمليات العسكرية أو في تحقيق المشاريع الاقتصادية والاجتماعية. فخلال العهد الفاطمي مثلا يقول محمد بن الحسن الوزان[206] بأن منطقة سجلماسة قدمت لخزينة الفاطميين بالقيروان سنة 340 هجرية/951 ميلادية ما قيمته 400 ألف دينار كضريبة سنوية أي بمعدل نصف ما يقدمه الغرب الإسلامي لهذه الخزينة.

أول النقود المكتشفة إلى اليوم والتي ضربت بسجلماسة تعود إلى سنة 334 هجرية/ 945 ميلادية وهي تعرف بالشاكرية نسبة إلى الشاكر لله المدراري، يبلغ قطرها ما بين 19 و30 ملم، ووزنها يتراوح بين 4,05 و2,4 غرام. تحمل في واجهتها الأولى : محمد بن الفتح، وفي الوسط : بسم الله ثم التاريخ "ضرب الدينار سنة أربعة وثلاثين وثلاثمائة". المعامل السجلماسية كانت في هذه الفترة، تضرب دنانير ذهبية وربما دراهم فضية أيضا بفضل تحكمها في تجارة القوافل وفي المناجم المعدنية وبفضل نموها الاقتصادي. "وخلال الحملتين الأوليتين للفاطميين ضد سجلماسة، لم يستطع الفاطميون ضمان استمرار تشغيل دور السكة لصالحهم، لأن صيانتها كانت جد سيئة. ومع سنة 347 هجرية/958 ميلادية سقطت سجلماسة من جديد تحت أيدي الفاطميين حتى سنة 366 هجرية/977 ميلادية وأصبحت معاملها النقدية في خدمتهم وخاصة في ضرب الدينار الذهبي. وبذلك كانت المدينة بكل ثرواتها وعملاتها الذهبية بمثابة المنقذ المالي للفاطميين"[207].

ومع سيطرة المغراويين، حلفاء أمويي الأندلس على سجلماسة، أصبحت هذه الأخيرة تسك العديد من الدنانير الأموية تحت اسم الخليفة هشام من سنة 376 إلى 393 هجرية. أما العملة المغراوية فغير معروفة بدقة، حيث لم يتم العثور إلا على بعض الدنانير والدراهم التي ترجع إلى أخر الأمراء مسعود بن وانودين والتي يتراوح قطرها بين 10 و16 ملم ووزنها بين 2,3 و3,53 غرام. وقد تم العثور

(206) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : المصدر السابق (ص 128).

(207) El-Mellouki (M) : op-cit (p. 403).

بموقع سجلماسة الأثري سنة 1988 ميلادية على ثلاثة دراهم فضية تنتسب إلى مسعود بن وانودين آخر حاكم بني مغراوة للمدينة والتي يمكن تأريخها بالنصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

خلال الفترة المرابطية ومع الرواج الكبير لتجارة الذهب، ظهرت سبعة مراكز لسك العملة كان أهمها يوجد بسجلماسة ويختص في ضرب النقود الذهبية والفضية. وتعود بداية عمل مركز سجلماسة إلى فترة أبي بكر بن عمر [450 هجرية/1058 ميلادية] وبعد وفاته قام يوسف بن تاشفين بضرب العملة باسمه وهذه المرة بسجلماسة وخارجها وهي عملة بلغ وزنها أربع غرامات وقطرها حوالي 24 ملم وتحمل عبارات : "لا إله إلا الله، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين". أما خلفه علي بن يوسف فقد ضرب سنة 511 هجرية/1117 ميلادية، في نفس المركز السجلماسي، دنانير مشابهة في الوزن والشكل والجودة، بينما عرفت هذه السكة تدهورا خلال حكم تاشفين بن علي بن يوسف [1143-1149 ميلادية] ووصل وزن الدينار إلى 4,15 غرام. كما ضربت بدار السكة السجلماسية عملات مرابطية أخرى مثل نصف الدينار، وربع الدينار والدرهم ونصف الدرهم وربع الدرهم وثمن الدرهم، بينما لم يعثر على أي عملة نحاسية.

وكانت سجلماسة أول مركز لسك العملة الموحدية والتي ضربت بالذهب والفضة واتخذت شكلا مربعا ونادرا ما تكون مستديرة ولا تتوفر غالبا على تاريخ ومكان الضرب. الدنانير الذهبية تحمل بعض المرات اسم الخليفة بينما على العكس الدراهم الفضية لا تحمله أبدا، ما عدى بعض دراهم عبد المؤمن بن علي التي نقش في واجهتها : "لا إله إلا الله. الأمر كله لله. لا قوة إلا بالله" وفي الخلف : "الله ربنا. محمد رسولنا. المهدي إمامنا". يتراوح وزن هذه الدنانير بين 4,4 و4,6 غرامات وقطرها يصل إلى 28 ملم. تعرف هذه الدنانير في بلاد الأندلس بالمصمودية وانتشرت ذات الشكل المربع حتى وصلت إلى فرنسا حيث عرفت ب"Millarès"(208).

(208) Eustache (Daniel) : Etude sur le numismatique et l'histoire monétaire du Maroc. Corpus des dirhams idrissites et contemporains ; collection de la Banque du Maroc et autres collections mondiales publiques et privées. Rabat 1970-71 ; XXXIX planches et textes en arabe, XL+394 pages (p. 95).

وارتبط التاريخ السياسي لأغلب الأسر المتعاقبة على عرش المغرب منذ العهد المرابطي، بمدى تحكمها في مراكز[209] مثل سجلماسة، ونول - لمطة وتذغة التي استفادت من ذهب إفريقيا وراء الصحراء، "حيث كانت تنقل أحمال الذهب إلى معامل نول - لمطة وسجلماسة... ولو أن هذه الوضعية لم تستمر بعد نهاية العهد السعدي إلا قليلا نتيجة كون الحكم المركزي لم يقو على السيطرة على المراكز الجنوبية ونتيجة لتحول الطرق التجارية نحو سواحل المحيط بعد تقدم الكشوف الجغرافية"[210].

وظلت دار السكة السجلماسية نشيطة خلال العصر العلوي الأول، "سكة تضرب بسجلماسة عن أمر السلطان مولاي محمد الشريف وهي في غاية الصفاء ووزنها عشر أواق قديمة في المثقال المكي... كما ضربت بها دراهم فضية أو الموزونات في عهد مولاي رشيد والتي كانت تزن 1,2 غرام وكتب عليها : [الله ربنا/محمد رسولنا/الرشيد إمامنا] وعلى الظهر : [لا حول ولا قوة إلا بالله" مع تاريخ ومكان الضرب]، كما ضربت بها الدراهم الفضية والفلوس النحاسية الإسماعيلية"[211].

صفوة القول إن تحكم سجلماسة في المناجم المعدنية ونشاطها في سك العملة وبالتالي محاولات مختلف الدول للسيطرة عليها، تقدم الدليل الكافي على أهمية هذه المدينة من الناحية الاقتصادية والسياسية خلال فترات تاريخية طويلة.

---

(209) Brethes (Joseph Dominique) : *Contribution à l'Histoire du Maroc par les recherches numismatiques.* Casablanca, imprimerie Annales Marocaines 1939 ; XLIII planches dans le texte, 275 pages.

(210) أفا (عمر) : **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر** (سوس 1822-1906). الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1988 (ص 37).

(211) أفا (عمر) : مرجع سابق (ص 154-155) نقلا عن ابن الحاج محمد بن محمد بن حمدون في مخطوط "الدر المنتخب في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن"، خزانة محمد الخامس بتارودانت، رقم 36م (ص 267).

أهم النقود الذهبية التي ضربت بدار السكة السجلماسية(212)

الدولة	اسم الأمير	تاريخ الضرب	الوزن	القطر
المدرارية	الشاكر لله	336 هجرية/947 ميلادية	3,90 غرام	19 ملم
	"	"	1,4 غرام	30 ملم
	"	"	"	20,5 ملم
	"	"	3,90 غرام	19 ملم
	"	"	1,4 غرام	20 ملم
	"	"	4,5 غرام	19,5 ملم
	"	"	6,4 غرام	21 ملم
	"	365 هجرية/948 ميلادية	4,5 غرام	19,5 ملم
	"	بدون تاريخ	2,9 غرام	21 ملم
المغراوية	مسعود بن وانودين	بدون تاريخ	2,9 غرام	21 ملم
	"	"	2,3 غرام	10 ملم
	"	"	2,2 غرام	11 ملم
	"	"	2,5 غرام	15 ملم
	"	"	3,25 غرام	16 ملم
	بدون اسم	"	3,53 غرام	16 ملم
المرابطية	عبد الله بن ياسين	454 هجرية/1063 ميلادية	؟	؟
	أبو بكر بن عمر	455 هجرية/1064م	؟	؟
	"	"	؟	؟
	"	"	؟	؟
	"	457 هجرية/1063 ميلادية	؟	؟
	"	458 هجرية/1066 ميلادية	؟	؟
	إبراهيم بن أبي بكر	467 هجرية/1069 ميلادية	4,1 غرام	25 ملم
	بدون اسم	469 هجرية/1071 ميلادية	؟	؟
	"	474 هجرية/1076 ميلادية	؟	؟
	"	475 هجرية/1077 ميلادية	؟	؟
	"	476 هجرية/1078 ميلادية	؟	؟
	"	477 هجرية/1079 ميلادية	؟	؟
	"	478 هجرية/1080 ميلادية	؟	؟
	"	479 هجرية/1081 ميلادية	؟	؟
	يوسف بن تاشفين	480 هجرية/1082 ميلادية	9,33 غرام	24,5 ملم
	"	481 هجرية/1083 ميلادية	4 غرام	25 ملم
	"	484 هجرية/1086 ميلادية	4,19 غرام	؟
	"	485 هجرية/1087 ميلادية	"	؟
	"	495 هجرية/1101 ميلادية	4 غرام	؟
	"	497 هجرية/1103 ميلادية	"	؟
الموحدية	المرتضى	بدون تاريخ	4,5 غرام	29 ملم
المرينية	بدون اسم	بدون تاريخ	4,63 غرام	30 ملم
	أبو سعيد عثمان	710-731هـ/1311-1331م	4,58 غرام	"
	أبو فارس عبد العزيز	796-811هـ/1393-1408م	4,60 غرام	28 ملم
	"	"	4,63 غرام	30 ملم
	"	"	4,64 غرام	28 ملم

(212) حافظي علوي (حسن) : **سجلماسة وإقليمها**. مرجع سابق (ص 451-452) [بتصرف].

ج) النسيج :

شكلت تربية الماشية وما توفره من الصوف واعتماد زراعة القطن بالمنطقة واستيراد الخصاص منها من جهات أخرى، عاملين رئيسيين في احتضان سجلماسة لصناعة نسيجية متطورة وخاصة منها التي تنتج ما سمي بالحايك الفيلالي. فالقطن كانت سجلماسة من أهم المراكز المنتجة له فضلا عن فاس وتادلة في العهد المرابطي كما جاء عند الإدريسي[213]. كما أن أصواف الأغنام والماعز والإبل تستخدم أيضا في صناعة الأثواب والملابس والخيام وغيرها.

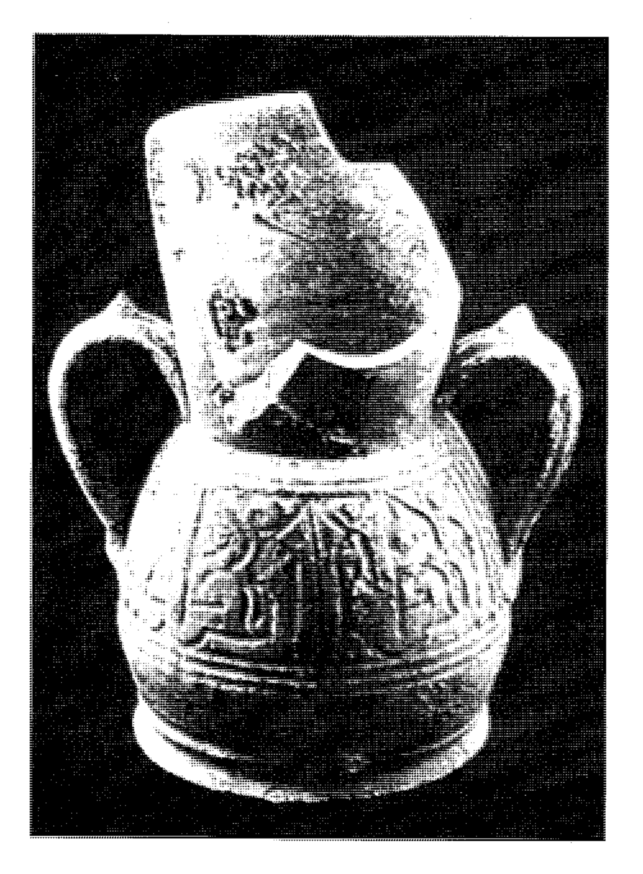
ويشير البكري إلى ذلك بقوله "وصوفها من أجود الأصواف ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ أزيد من عشرين مثقالا"[214]. وكانت هذه الصناعة تعتمد على الصوف الرقيق والطويل والمرن الذي يمر عبر عمليات إنتاجية متنوعة مثل الغسل والغزل والتمشيط والخياطة، ثم الصباغة بواسطة نباتات تجميلية مثل الزعفران، والكروياء والحناء. وكانت هذه الثياب الصوفية السجلماسية تباع بأثمان باهظة. وقد تجاوزت هذه الصناعة الاكتفاء الذاتي لتصدر الفائض منها نحو المناطق البعيدة مثل أودغشت[215]، والتكرور والأندلس ابتداء من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وارتبطت بصناعة النسيج حرفة الدباغة التي اشتهرت بها سجلماسة وكذلك درعة ومراكش وفاس.

د) صناعة الخزف :

لم ترد المصادر التاريخية المكتوبة أي معلومات عن هذه الصناعة، إلا أن الأبحاث الأثرية بموقع سجلماسة وكذلك بعدة مواقع جنوب الصحراء وخاصة بموقع أودغشت أكدت وجود مثل هذه الصناعة والتي تركزت

(213) الإدريسي (أبو عبد الله) : مصدر سابق (ص 75).
(214) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 835).
(215) الإدريسي (أبو عبد الله) : المصدر السابق (ص 90).

بضواحي مدينة سجلماسة. لا نعرف جيدا للأسف، متى بدأت هذه الصناعة ومع ذلك واعتمادا على المكتشفات الخزفية يمكن القول إن القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يعتبر أقدم تاريخ معروف لحد الآن.



الصورة 3 : نموذج من الخزف السجلماسي :
جرة صغيرة ترجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي

تتميز صناعة الخزف السجلماسي بأنها كانت جد متقدمة، ومن خصائصها : تقنيتها الدقيقة من حيث رقة السمك، وخفة الوزن ومن حيث أشكالها المتنوعة وزخرفتها غير المعقدة. ويرجع الفضل لتجارة القوافل في نقل آنية خزفية من سجلماسة إلى مناطق جد بعيدة، إذ اكتشفت لقى منها بعدة مواقع من بلاد السودان مثل أودغشت، وكَاو وغيرها.

هـ) صناعة الخشب :

وهي كذلك من الصنائع التي اشتهرت بها سجلماسة بفعل توفر المواد الأولية (الخشب) سواء المنتجة منها بالمنطقة أو تلك المستوردة من درعة والأطلس. المنتجات الخشبية يمكن حصر أنواعها حسب طبيعة المادة المستعملة : فخشب الأرز المستورد من الأطلس المتوسط مثلا والمتميز بصلابته، يستخدم في البناء والنجارة وفي توفير لوازم القافلة التجارية كالهودج أو الراحلة. أما الخشب المحلي المعروف بالليونة والرقة والذي يستخرج من النخيل والأثل، فيصلح في تشييد سقوف المباني وفي صناعة الأواني المنزلية من أقفال وأقداح وغيرها.

كما يمكن أيضا ذكر صنائع أخرى لا تقل أهمية أيضا مثل الدباغة والخرازة والحدادة وغيرها ذلك "أن الفخارين والحدادين والنجارين والبناءين والذين يعملون لتلبية حاجيات السكان المتنوعة لا يقصرون جهدا في توفير المنتجات سواء الضرورية منها أو الكمالية"[216]. ومع ذلك يبقى من الصعوبة الإلمام بدقة بمكانة الصنائع في الاقتصاد السجلماسي بفعل قلة المعلومات التي وصلتنا من المصادر القديمة. وبالرغم من ذلك يمكن القول إن هذه الصنائع كانت مترسخة ومؤثرة في العمران بسجلماسة ومرتبطة بالقطاعات الإنتاجية الأخرى مثل الفلاحة والتجارة.

II - التجارة السجلماسية :

1 - ظروف ظهور سجلماسة على الساحة التجارية العالمية :

أ) الموقع الإستراتيجي والظروف التاريخية :

شيدت سجلماسة في موقع محوري يربط بين مختلف أجزاء الغرب الإسلامي وبين هذه الأجزاء ومناطق جنوب الصحراء فضلا عن بلاد المشرق، وكان لأهمية هذا الموقع وتنوع البضائع المتبادلة وتركز عدة صنائع، أن استقبلت المدينة أعدادا غفيرة من التجار الوافدين إليها من كل الجهات : من الكوفة والبصرة وبغداد، ومن مدن المغرب والأندلس، ومن أهل الذمة وخاصة اليهود ومن بلاد

(216) Lessard (Jean Michel) : "Sijilmassa, la ville et ses relations commerciales au X^{ème} siècle d'après al-Bakri", *Hespéris-Tamuda* ; volume X, fascicule 1 et 2 ; 1969 ; pp. 5-34 (p. 32).

السودان. وتعتبر التجارة العمود الفقري في اقتصاد سجلماسة التي كانت بحق عاصمة الذهب والقوافل التجارية ببلاد الغرب الإسلامي طيلة عقود طويلة. ففي "القرون الخمس الأولى من التاريخ الإسلامي العام [2 الهجري/8 الميلادي - 6 الهجري/12 الميلادي] اكتمل تشكيل هذه الصلات والروابط بين شمال الصحراء الإفريقية وجنوبها واتضحت معالم الطرق التجارية فكانت الشبكة مكونة من الطرق... وهكذا ربط البحر المتوسط ربطا كليا وشاملا بإفريقيا جنوب الصحراء ولعبت الواحات الجنوبية دور الوسيط الحقيقي في هذه العلاقات التاريخية السلمية والاقتصادية والإنسانية والدينية"[217].

ولم تكن الاختلافات المذهبية والسياسية تشكل حاجزا كبيرا أمام المبادلات بين دول وإمارات المغرب آنذاك : فسجلماسة ذات المذهب الخارجي الصفري، كانت تتبادل مع أباضية تاهرت وأدارسة فاس وبورغواطة تامسنا. كما "قامت علاقات تجارية بين بني صالح وبين دولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة"[218]. وقد لعب سكان سجلماسة دورا مهما في تنشيط التبادل مع بلاد السودان، بل يذهب أحد الأساتذة إلى أن هذه "التجارة شكلت حجر الزاوية في نشاطهم الاقتصادي"[219].

وكان لموقع سجلماسة عند ملتقى عدة مسالك تجارية أن أصبحت منفذا رئيسيا من منافذ المغرب على الصحراء. إذ منها كانت تنطلق القوافل التجارية نحو مناطق جنوب الصحراء، ومنها أيضا تتم عملية توزيع البضائع السودانية على جميع جهات المغرب. فهي تعد "مركزا تجاريا مهما ومعبرا تجتازه القوافل التي تنقل منتجات السودان إلى المغرب وبلدان البحر الأبيض المتوسط ومنتجات المغرب والأقطار المتوسطية إلى بلاد السودان"[220]. وفي هذا المعنى

(217) العلوي القاسمي (هاشم) : **مجتمع المغرب الأقصى**. مرجع سابق (ص 386-387).
(218) رجب (محمد عبد الحليم) : **دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى (125-455هـ/743-1063م)** القاهرة، دار التوثيق النموذجية للطباعة 1991 (ص 64).
(219) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : مرجع سابق (ص 279).
(220) بنمنصور (عبد الوهاب) : "عرض افتتاحي"، **أعمال ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة**. مرجع سابق (ص 9-10).

يقول لسان الدين ابن الخطيب : "إن الركبان كانت تسافر إليها من كل ناحية وصوب، ومنها كانت الأركاب تسافر إلى بلاد السودان للتجارة"(221). ولا عجب في ذلك، فالمدينة كانت مستودعا للذهب الإفريقي، كما أن أسواقها كانت مقصدا للنخاسين لشراء العبيد. بهذه المميزات ذاع صيت سجلماسة حتى غدت "كثيرة العامر مقصدا للوارد والصادر"(222). فكان يخرج أهلها إلى بلاد "السودان بالملح والنحاس والودع، ويرجعون منها بالذهب والرقيق"(223).

ويشير ابن حوقل إلى الدور التجاري الهام الذي قامت به سجلماسة بقوله : "وكانت القوافل تجتاز المغرب إلى سجلماسة... وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين يقطعون ذلك الطريق، فهم وأولادهم وتجارتهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال...ولقد شهدت صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأوداغشت وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار"(224). من جهته يذكر ابن فضل الله العمري أن تجار سجلماسة "كانوا أغنياء ويتاجرون مع بلاد السودان، فهم يصدرون إلى هذه البلاد الملح والنحاس ويستوردون منها بالمقابل الذهب"(225). فكيف كانت وسائل النقل المعتمدة وما هي الطرق المستعملة والمراحل المجتازة ؟

ب) الوسائل المعتمدة والبضائع المتبادلة :

لقد كانت القافلة الوسيلة الملائمة إن لم نقل الوحيدة التي اعتمدت في التجارة الرابطة بين ضفتي الصحراء الكبرى وكانت هذه القافلة تستند إلى عمليات التنظيم مثل أخذ الاحتياطيات الأمنية، والمعرفة الدقيقة بمواقيت

(221) ابن الخطيب [لسان الدين] : **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**. مصدر سابق (ص 181).
(222) الحميري [عبد المنعم] : مصدر سابق (ص 305).
(223) القلقشندي [أحمد بن علي] : مصدر سابق (ص 164).
(224) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) : مصدر سابق (ص 65).
(225) العمري (ابن فضل الله) : المصدر السابق (ص 201-202).

وظروف الرحلة والزاد الكافي من المواد الغذائية اللازمة. و"كان المسؤول عن القافلة في العصر الوسيط يعرف باسم القائد وهو الناطق والمفاوض باسم التجار والمشرف على كل ما يتعلق بتنظيم رحلتهم، وكان له أعوان يساعدونه في مهامه كالدليل والتكشيف، فالأول كان يستأجره التجار بأوفر الشروط ليدلهم على اتجاه المسالك لدرايته بها من كثرة تردده على المفازات. وأما الثاني أي التكشيف فهو اسم لكل رجل يكتريه أهل القافلة ليتقدم بكتبهم إلى أصحابهم بإيولاتن حتى يكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء"[226].

كما يرافق القافلة بعض التجار أو وسطاؤهم وكذلك الخدم وخاصة من العبيد هذا فضلا عن العشرات من حيوانات النقل. ويصف الفلكي أبو حامد الغرناطي (توفي بدمشق سنة 505 هجرية/1169 ميلادية) مسالك هذه التجارة قائلا : "من سجلماسة يأخذ التجار طريقا في الرمال مثل البحر، يساعدهم في ذلك المرشدون الذين يوجهون القافلة وفق مواقع النجوم والجبال"[227].

ويعتبر الجمل الحيوان المفضل في تجارة القوافل باعتباره يصبر على العطش والجوع لمدة طويلة كما أنه يتحمل حمولة أكثر تتراوح ما بين 100 و200 كيلو غرام. ونظرا لقساوة مناخ الصحراء فإن القوافل لا تتحرك بشكل عام إلا مرتين في السنة، الأولى في بداية فصل الخريف والثانية في أواخر فصل الشتاء.

أما فيما يخص البضائع المتبادلة فيمكن القول إن صادرات سجلماسة كانت تشتمل على المواد الغذائية من قمح وتمر وعنب وملح...، ثم على المواد المصنعة من نسيج وحلي وخزف وجلد ومواد خشبية... وكذلك على مواد التجميل والتوابل من حناء وكحول وكمون وقرنفل...

أما الواردات فهي متنوعة وتتحدد أساسا في ذهب غانا، وعبيد بلاد اللملم (Peul)، وجلد اللمط وريش النعام من أودغشت، وحرير المشرق والفخار

---

(226) حافظي علوي (حسن) : "التجارة"، **معلمة المغرب**. المجلد السابع (ص 2273).

(227) Al-Gharnati (Abu Hamid al-Andalusi) : "Tuhfat al-albab wa nuhbat al-a'gab". Texte arabe et traduction partielle par G. Fernand, *Revue Africaine*. N° 206-207 ; 1925 (p. 42).

الأندلسي وخاصة المعروف ب"المالقي" الذي اكتشفت قطع كثيرة منه بموقع سجلماسة. ولإعطاء المعلومات الكافية عن هذه المبادلات، أقدم فيما يلي جدولا يبين أهم هذه السلع خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي[228] :

الصادرات :

مواد مصنوعة	مواد غير مصنوعة	إنتاج فلاحي	المرحلة الزمنية	مصدر المعلومات
الأواني النحاسية ثياب زرقاء حمراء الودع	الملح		القرن 5هـ/11م	البكري ص 159
النحاس الأحمر والملون الخرز الأكسية وثياب الصوف العمائم المازر النظم الزجاجية الأصداف والأحجار الكريمة الأفاويه والعطر آلات الحديد	الصوف الملح	التمر الحناء	القرن 6هـ/12م	الإدريسي ص 4 و42
خرز الزجاج الأسورة والخواتم والحلق النحاسية	خشب الصنوبر خشب الأرز الملح		القرن 6هـ/12م	القزويني ص 19
الودع النحاس المسبوك	الملح	التاكوت	القرن 6هـ/12م	الإستبصار ص 222
الأصداف الأسورة النحاسية	الملح	التمر	القرن 7هـ/13م	نتائج الحفريات الأثرية D.T. Nian. p. 155
النحاس الودع	الملح	التين		أبو الفدا ج 1، ص 96
حلي الزجاج السلع العطرية عطر القرنفل تاسرغينت	الملح	التمر	القرن 8هـ/14م	ابن بطوطة ج 2، ص 779

الواردات :

سلع بلاد السودان	المرحلة الزمنية	مصدر المعلومات
العنبر الذهب الإبريز	القرن 5هـ/11م	البكري ص 159
التبر عبيد لملم	القرن 6هـ/12م	الإدريسي ص 7-5
الذهب الشب	القرن 6هـ/12م	القزويني ص 26-25
الذهب الأسواط التي تسمى بالسراقيات	القرن 6هـ/12م	مؤلف الإستبصار ص 114
التبر عبيد لملم	القرن 7هـ/13م	ابن سعيد المغربي ص 92
الذهب العبيد	القرن 8هـ/14م	ابن فضل الله العمري ص 61
التبر العبيد	القرن 8هـ/14م	ابن بطوطة ج 2، ص 773
الجلد العاج الجوز التبر	القرن 8هـ/14م	ابن الخطيب الإحاطة، ج 2 ص 192

(228) حافظي علوي (حسن) : "التجارة"، المرجع السابق (ص 2274).

ومما شد انتباه الرحالة الذين زاروا مدينتي سجلماسة وتومبوكتو هو وجود نظام مصرفي متقدم، وكذا شيوع استخدام خطابات الضمان التي يستخرجها كبار التجار ويتعاملون بموجبها مع تجار المغرب وغيرها وهي تشبه الشيكات المصرفية[229]. كما وجدت عقود البيع والشراء وكانت تبدأ عادة بالبسملة، كما ذكر البكري "أن الأرباح التجارية كانت تراعى فيها النسبة الشرعية في الربح"[230]. وكانت العمليات التجارية تتم نقدا أو بواسطة المقايضة، كما وجدت الأوزان (المثقال، والقيراط، والأوقية) والمقاييس (الذراع، والشبر، والفرسخ) والمكاييل (الصاع، والقنطار) والودع. ولعبت تجارة الذهب والملح دورا هاما في العلاقات التجارية والسياسية بين السودان الغربي والمغرب لعدة قرون، وكان من أهم محطاتها سجلماسة التي ارتبطت بعدة مراكز سودانية ومغربية عبر مسالك قوافلية متعددة.

2. التجارة السجلماسية بين المسالك والمتغيرات التاريخية :

أ) المسالك القوافلية المستعملة :

تمثل سجلماسة محطة تجارية أساسية، تربط بين جهات مختلفة وخلال فترات تاريخية طويلة، فهي بمثابة نقطة زالتواصل بين نوعين من المسالك والتقارب بين ثلاث مجالات : مدن وموانئ شمال المغرب الأقصى، ومدن وموانئ المغرب الأوسط وإفريقية، ومدن ومراكز التجارة الصحراوية والسودانية (غانة، وأوليل، والتكرور، وتغازة وأودغشت) هو الذي يفسر مدى نجاح مدينة سجلماسة"[231]. وفيما يلي جرد لأهم هذه الطرق مع تحديد المسافة التقريبية لها اعتمادا على مصطلح المرحلة التي كانت تقاس بها في تلك العهود وكانت ترتبط أساسا بالآبار، والتي يمكن توزيعها وفق خمس مناطق رئيسية :

(229) Dubois (Félix) : *Timbuctoo, the mysterious*. Newyork, Translated by Diana White 1890 (p. 264).

(230) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق، طبعة 1968 (ص 173).

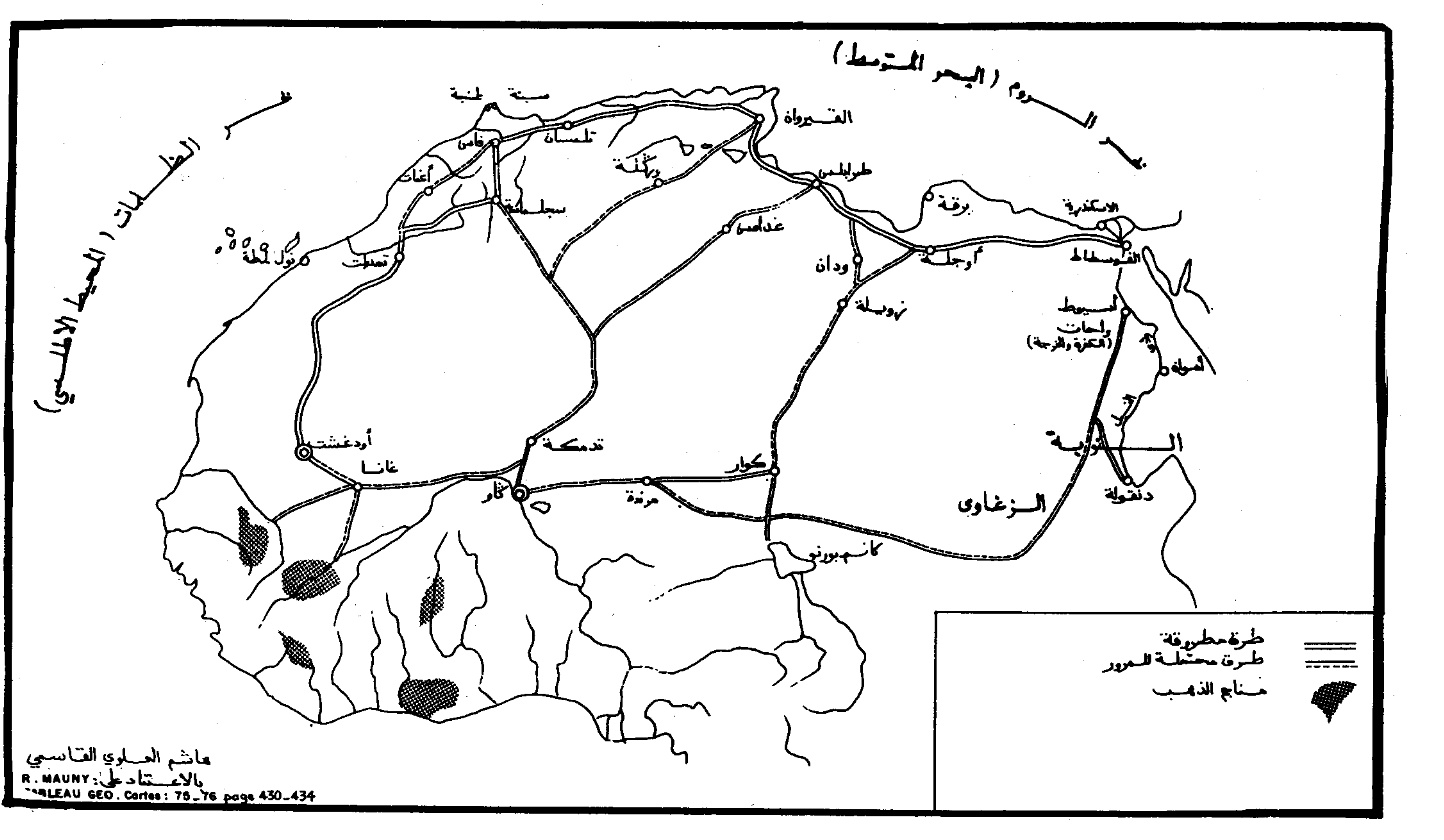
(231) El Mellouki (Mohamed) : op .cit (p. 364).

أ-1) المنطقة الأولى : تتكون من الأسواق المحلية المرتبطة مباشرة بمدينة سجلماسة وخاصة منها إيرارة المعروفة بجودة الصوف والتمر، ثم مراكز الواحات المجاورة التي كانت تابعة لها كمناطق استغلال والغنية بالمراعي والمناجم و الأسواق وهي :

- سجلماسة - درعة : ست مراحل، واشتهرت درعة بالزيتون والفواكه والحناء والمناجم.
- سجلماسة - تامدولت : أحد عشر مرحلة، وكانت تامدولت مركزا حرفيا ومنجميا نشيطا.

أ-2) المنطقة الثانية : وتقع شمال غرب جبال الأطلس وتضم صفرو، وفاس، وفزاز، وتامسنا وموانئ البحر المتوسط مثل نكور، وتبحريت، ومليلية، وسبتة ومنها إلى بلاد الأندلس.

- سجلماسة - فزاز : (سبع مراحل) على الطريق إلى فاس وعرفت بتربية الأغنام والأبقار والخيول وبمناجمها الفضية والنحاسية.
- سجلماسة - فاس : (ما بين ثماني و ثلاث عشر مرحلة) وكانت فاس عاصمة علم وصناعة وتجارة وسياسة والمعبر الإجباري نحو الشمال والأندلس.
- سجلماسة - تامسنا : (عشر مراحل) وكانت تامسنا عاصمة إمارة بورغواطة واشتهرت بتربية المواشي وزراعة الحبوب.
- سجلماسة - سبتة : (خمس عشر مرحلة) وكانت سبتة مركزا تجاريا نشيطا والبوابة الرئيسية نحو الأندلس.
- سجلماسة - النكور ومليلية : (ست عشر مرحلة) وكلاهما تمثلان ميناءين مهمين على البحر الأبيض المتوسط.



الخريطة 5 : تطور شبكة طرق القوافل بين بلاد الغرب الإسلامي وبلاد السودان
ما بين القدن 2 الهجري/8 الميلادي والقرن 9 الهجري/15 الميلادي

المرجع : العلوي القاسمي (هاشم) : مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4هـ/منتصف القرن 11م.
المحمدية، مطبعة فضالة 1995

أ ـ 3) **المنطقة الثالثة** : وتضم داي، وأغمات، ومراكش، ونفيس، وسوس ونول لمطة، وتوجد على الطريق الجنوب ـ الغربي نحو بلاد السودان :

- سجلماسة ـ داي : (أحد عشر مرحلة) وتقع داي بين أغمات وفاس جنوب تادلة وتشتهر بمناجم النحاس والفضة وبالخشب والقطن.
- سجلماسة ـ أغمات/مراكش : (ثلاث عشر مرحلة) وتعد مراكش أحد المراكز التجارية النشيطة وهي تتوفر كذلك على عدة معامل وكانت عاصمة الدولة المرابطية، ثم الموحدية فالسعدية فيما بعد.
- سجلماسة ـ نفيس : (أربع عشر مرحلة) وعرفت نفيس بمناجمها الغنية بالنخاس وبمنتجاتها الصوفية والمعدنية.
- سجلماسة ـ نول لمطة : (حوالي خمس عشر مرحلة) كانت نول ـ لمطة مركزا تجاريا نشيطا وعرفت بصنائعها الجلدية والمعدنية.

أ ـ 4) **المنطقة الرابعة** : وتشمل المراكز الواقعة شمال شرق أو شرق سجلماسة وكذا الموانئ المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وغالبيتها توجد على الطريق نحو بلاد المشرق :

- سجلماسة ـ وجدة : (اثنا عشر مرحلة) وتمثل وجدة ملتقى مسالكي شمال سجلماسة في اتجاه تلمسان وتافرغانت وتبحريت كمركزين للتبادل والتخزين على البحر المتوسط.
- سجلماسة ـ تلمسان : (ست عشر مرحلة) وتعتبر تلمسان كذلك ملتقى طرقي ضروري نحو ميناء هنين على البحر المتوسط أو نحو مدن المغرب الأوسط وإفريقية والمشرق.
- سجلماسة ـ تاهرت : (عشرون مرحلة) بالرغم من كونها عاصمة الإمارة الرستمية الأباضية، فإن تاهرت كانت على صلة تجارية مستمرة مع سجلماسة منذ منتصف القرن الثاني الهجري/نهاية القرن الثامن الميلادي.

- سجلماسة ـ القيروان : (ما بين ثلاثين وخمسين مرحلة) القيروان هي أول مدينة إسلامية بالغرب الإسلامي وتمثل مركزا علميا وحضاريا كبيرا وكهمزة وصل مع المشرق وصقلية وإيطاليا.

أ ـ 5) **المنطقة الخامسة** : وتتكون من الأسواق والمراكز السودانية ويقع أغلبها بضفاف نهري السينغال والنيجر وكانت بمثابة المنفذ الرئيسي لتجارة الذهب والعبيد مقابل الملح والحبوب والفواكه والملابس والنحاس :

- سجلماسة ـ تغازة : (خمس وعشرون مرحلة) تشكل تغازة مركزا تجاريا مهما يشتهر بملاحاته.
- سجلماسة ـ أودغشت : (واحد وخمسين مرحلة) وتعتبر أودغشت مركزا تجاريا كبيرا وتشتهر بصنائعها النسيجية والجلدية والخزفية والمعدنية وبمنتجاتها الفلاحية المهمة.
- سجلماسة ـ أوليل : (ستون مرحلة) وتمثل أوليل سوقا رئيسية للعبيد والعاج.
- سجلماسة ـ غانة/كاو : (واحد وستين مرحلة) وهي مراكز تجارية نشيطة في تبادل الذهب والعبيد.
- سجلماسة ـ بلاد التكرور : (تسعون مرحلة) وتعرف هذه البلاد بتصدير الذهب وجلود اللمط ولحم الزرافة.

ب) المراحل التاريخية لتجارة القوافل بسجلماسة :

مرت سجلماسة في عصور تحكمها المباشر في التجارة القوافلية بأربع محطات رئيسية هي :

ب ـ 1) مرحلة الإمارة السجلماسية [140هـ/757م ـ 447هـ/1054م]

يمكن القول إن الصلات التجارية بين ضفتي الصحراء تعود إلى عهود قديمة جدا، وربما تفسر إقدام الرومان على شن حملتين عسكريتين على المنطقة

خلال القرن الأول للميلاد لمحاولة تدشين أو تأمين هذه الصلات. نفس الاهتمام كان ولاشك وراء ما قام به موسى بن نصير وما أنجزه عبد الرحمان بن حبيب من آبار على طول الطريق الرابطة بين منطقتي سجلماسة وأودغشت خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، مما أهل مدينة سجلماسة لتصبح واسطة العقد في تجارة القوافل بالغرب الإسلامي. ففي القرن الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر الميلاديين، هيمنت طرق القوافل التجارية في بلاد الإسلام، ونشطت خاصة طرق الذهب والعبيد بين ضفتي جنوب الصحراء الكبرى. "وانشغلت القوات السياسية في الغرب الإسلامي بالصراع على هذه الطرق وتحولت المراكز الشمالية من الصحراء الكبرى إلى مكان للتنافس بين القوات المتصارعة عليها، فصارت غدامس، وركلة، تاهرت، سجلماسة، نول ـ لمطة وأودغشت مسرحا للتنافس الساخن بين جميع القوات المغربية"(232).

وكان لموقع سجلماسة الإستراتيجي ولدورها المحوري في تجارة القوافل الأثر الإيجابي على المدينة، إذ تطورت اقتصاديا واجتماعيا وعمرانيا فتحولت إلى قبلة للتجار والعلماء. إلا أنها بالمقابل أصبحت محط أطماع الدول الكبرى المعاصرة وخاصة بين قطبي الصراع بشمال إفريقيا : الأمويون بالأندلس والفاطميون بإفريقية. فالأمويون كانوا يقبلون على "منتجات المغرب خاصة ذهب الصحراء عن طريق سبتة، وفاس وسجلماسة حتى أن الدنانير الذهبية الأندلسية كانت تضرب باسم الأمويين في مدن مغربية مثل نكور وفاس وسجلماسة"(233). في شهر أبريل من سنة 1992 ميلادية، اكتشف أحد الباحثين الأمريكيين بموقع العقبة بالأردن مجموعة مهمة من هذه الدنانير الأموية [حوالي 52 دينارا] والتي يعود تاريخ سكها إلى نهاية القرن الرابع الهجري/نهاية القرن

(232) العلوي القاسمي (هاشم) : المرجع السابق، الجزء الأول (ص 376).
(233) أوستاش (دانييل) : "تاريخ النقود العربية"، **البحث العلمي**. عدد مزدوج 14-15 ، يناير ـ دجنبر 1969 (ص 138).

العاشر الميلادي وبداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. من هذه الدنانير تم فرز 29 منها ضربت بسجلماسة، مما يبرز أهمية هذه المدينة التي تحكمت في محاور طرق القوافل بين الشرق والغرب الإسلاميين. وبما أن سك العملة يدخل ضمن مهام الدولة وأن رواج هذه النقود في التجارة العالمية يدل على الدور المباشر الذي تلعبه الدولة في هذه التجارة البعيدة المدى فإن مراقبة الطرق العابرة لسجلماسة تظل ضرورة ملحة للتحكم في المدينة.

كما تجدر الإشارة إلى أن الفاطميين كانوا يتوصلون بحوالي نصف مداخيلهم الجبائية أي ما يفوق 400 ألف دينار من سجلماسة وحدها. وفي الأخير، يمكن القول كذلك أن صراع خوارج بني مدرار مع باقي الإمارات الخارجية الممتدة من بورغواطية تامسنا غربا إلى مشارف برقة شرقا ومرورا بأباضية تاهرت، لم يكن ليقف حاجزا دون ربط علاقات التبادل التجاري فيما بينها.

ب ـ 2) مرحلة المرابطين [447هـ/1054م ـ 539هـ/1145م] :

في مشروعها السياسي الذي يهدف السيطرة على كل بلاد الغرب الإسلامي، حاولت الزعامة المرابطية منذ البداية التحكم في أهم المراكز التجارية حتى تتمكن من ضمان قوة مادية ثابتة تستطيع بواسطتها تحمل نفقات تحركاتها العسكرية. وكانت سجلماسة بالضرورة من بين المراكز الأولى التي طبقت عليها هذه الخطة الإستراتيجية. "ولعل سقوط سجلماسة بين يدي المرابطين سنة 453 هجرية/1061-1062 ميلادية لم يكن غريبا عن اعتزام بني حماد القيام بغارة في المغرب الأقصى. والجدير بالتذكير أن إحدى طرق الذهب السوداني الرئيسية كانت تمر عبر سجلماسة التي ازدادت أهميتها إثر قطع طرق الجريد وطرابلس من طرف الهلاليين"[234].

(234) روجي إدريس (الهادي) : **الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**. ترجمة حمادي الساحلي. بيروت دار الغرب الإسلامي، السلسلة الجامعية. الطبعة الأولى، جزءان 1992 الجزء الثاني (ص 290).

وقد عرفت المدينة مع السيطرة المرابطية نموا كبيرا ارتبط أساسا بتجارة القوافل التي كان المرابطون يتحكمون في مختلف محطاتها وطرقها، مما نتج عنه استتباب الأمن وتنشيط الحركة التجارية. فتبوأت سجلماسة مكانة عاصمة إقليمية ذات الدور الحاسم في بناء دولة مرابطية مترامية الأطراف، بل وشكلت جزءا أساسيا في شبكة الاقتصاد المالي للدولة خصوصا بعد سيطرتها المباشرة على أهم مراكز جنوب الصحراء مثل تومبوكتو وأودغشت. ومنذ استيلائهم على سجلماسة ولمدة ثلاثين سنة والمرابطون يضربون نقودهم بسجلماسة فقط وتحت اسم أبو بكر وحده، ثم أخذت بعد وفاته تسك بمراكش، وأغمات، وفاس، وتلمسان، والأندلس وطبعا بسجلماسة. فمن بين 77 عملة مرابطية الموجودة بالمكتبة الوطنية بباريس ينتمي 31 دينارا منها إلى دار السكة السجلماسية. "بوقوعها على مفترق المحاور التجارية للإمبراطورية المرابطية، أصبحت سجلماسة مدينة كبيرة، وعامرة ومزدهرة، حيث كانت تصدر القطن والكمون والقرنفل، والحناء إلى بلاد السودان وإلى كل جهات الغرب الإسلامي"[235].

ب ـ 3) مرحلة الموحدين [533/539هـ//1139/1145م 456ـ هـ//1255م] :

بفضل دورها الاقتصادي وبفضل مواردها المادية الضرورية للخزينة المركزية، يمكن القول إن الموحدين وضعوا سجلماسة كهدف أول في مخططهم السياسي ما بين 533 هجرية/1139 ميلادية و539 هجرية/1145 ميلادية وحتى قبل أن يتمكنوا من السيطرة على العاصمة المرابطية نفسها. فاتبعوا بذلك نفس السياسة المرابطية في احتلالهم لسجلماسة باعتبارها مفتاح التحكم في طرق التجارة الصحراوية.

إلا أنه "مع السيطرة الموحدية أصبح التوازن التجاري المحقق بالغرب الإسلامي يعرف ظروفا غير مساعدة لوضعية سجلماسة"[236]. ذلك أن هذه

(235) El Mellouki (Mohamed) : op-cit (p. 307).
(236) El Mellouki (Mohamed) : op-cit (p. 294).

الأخيرة فقدت ثقلها التجاري لفائدة مدن المغرب الأوسط وخاصة تلمسان وبجاية والتي حظيت بالأولوية من طرف عبد المؤمن بن علي وخلفائه من بعده، فضلا عن انشغال الموحدين في إخماد الثورات وخاصة بالأندلس. وكانت نتيجة ذلك أن وقعت سجلماسة فريسة أطماع حكامها أو بعض الثوار الذين يريدون الانفراد بمواردها ومنهم خاصة أبي الربيع سليمان حفيد عبد المؤمن بن علي والذي حاول الحفاظ على علاقات حسنة مع حكام بلاد السودان من أجل ضمان تدفق التجارة الصحراوية ومداخيلها على سجلماسة. كما تشكلت خلال هذه الفترة ممالك قوية ببلاد السودان على طول وادي النيجر والتي عملت على الاستفادة من موارد تجارة القوافل، فتشجع السودانيون أنفسهم على عبور فيافي الصحراء وعلى التعاطي للتجارة في أهم مراكزها بالجنوب الشرقي المغربي.

ب ـ 4) مرحلة المرينيين [654هـ/1255م ـ 795هـ/1393م] :

في هذه الفترة ظلت سجلماسة من كبريات مدن المغرب وأهم ما عرفته التجارة المسالكية في هذه الفترة هي ظهور ما يسمى بالوكالات التجارية ويعرف منها خصوصا تلك المشكلة من طرف الإخوة المقري وهم أولاد عبد الرحمان بن أبي بكر بن علي المقري، الذين "تحكموا في التجارة وهيأوا طريق الصحراء بواسطة حفر الآبار وتوفير الأمن للتجار...أبو بكر ومحمد استقرا بتلمسان، عبد الرحمان استوطن سجلماسة وعبد الواحد وعلي سكنا ولاتة ببلاد السودان"(237).

إلا أن سجلماسة خلال نهاية هذه الفترة، لم تعد تلعب ذلك الدور التجاري الهام، بل إن هذا الدور تقلص بشكل كبير نتيجة عدة عوامل من أهمها بداية تحول الطرق التجارية نحو المحيط الأطلسي، وسيطرة قبائل بني معقل على أهم

(237) Pérès (Henri) : "Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du XII au XIV° siècle", *Extrait des Mélanges E. Gautier*. 1937 ; pp. 409-414 (pp. 412-413).

المحاور والمراكز القوافلية وأيضا إعطاء الأسبقية من طرف الدولة المرينية للطريق الغربي درعة ـ نول لمطة، فضلا عن انشغال حكام بني مرين في مواجهة المشاكل السياسية والعسكرية الناتجة عن الزحف المسيحي نحو الأندلس وعن الصراعات الداخلية المختلفة والكثيرة. وهكذا "تضافرت عوامل كثيرة منها ما هو خارجي كانفتاح مالي على المشرق وإقبالها على التعامل مع تجار مصر وما ترتب عن ذلك من ميل تدريجي للمسالك التجارية مجددا نحو الشرق، ومنها ما هو داخلي ويأتي على رأسه ضعف سلاطين بني مرين بعد منتصف المائة الثامنة وتحكم القبائل القوية في مجالات نفوذها خاصة عرب المعقل الذين سببت ثوراتهم ضد بعض سلاطين بني مرين انقطاع السبل وابتعاد التجار عن السير في صحاري المغرب الأقصى إلى غيرها من صحاري المغربين الأوسط والأدنى وبذلك ضعفت تجارة المغرب عبر الصحراء غير أنها لم تنقطع تماما..."(238).

وكان لهذه العوامل وغيرها مثل الضرائب الثقيلة والمتنوعة فضلا عن النزاعات القبلية، أن تعرضت مدينة سجلماسة للتدهور والاندثار مع نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

خلاصـــة :

يمكن القول إن مدينة سجلماسة ارتبط إشعاعها وأهميتها بمدى تحكمها في تجارة القوافل وكانت أيضا نهايتها المأساوية مع فقدان سيطرتها على هذه التجارة. وهكذا كما أرتبطت إشراقة أنوارها التاريخية ومكانتها السياسية والاقتصادية مع تجارة القوافل وربما منذ سنة 140 هجرية/757 ميلادية، انطفأت مصابيحها ودورها الريادي مع ظهور أهمية الملاحة البحرية في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. فكانت خاتمتها المؤلمة أن غابت نهائيا ليس فقط عن مسرح الحياة بل وأيضا في الكتابات التاريخية.

(238) حافظي علوي (حسن) : "التجارة"، المرجع السابق (ص 2275).

المبحث الرابع :
عمران سجلماسة وأحكام البنيان

تقديــــم :

يسعى هذا المبحث إلى مقاربة ظروف تأسيس المدينة وتطورها العمراني بناء وزخرفة وتصميما ومحتوى، وإلى تحديد مختلف التكزينات المعمارية وتبيان وظيفتها، وأيضا إلى إبراز المكونات المادية لكل صنف من حيث مواد البناء والمرافق المعمارية والأنماط الهندسية، ثم التسلسل الكرونولوجي للأشكال البنائية تبعا للمتغيرات التاريخية.

وقد لعبت أحكام البنيان دورا أساسيا في مجال العمارة الإسلامية بصفة عامة حتى أن الاختلاف في أحوال البناء إنما يكون بسبب التمايز بين مواقع المدن وليس في مواد بنائها ولا الخطة أو طبيعة مرافقها. ورغم ذلك يبقى السؤال مشروعا إلى أي حد طبقت هذه الأحكام في تشييد سجلماسة وفي اختيار موضعها وفي التمييز بين ساكنتها ووفق وظيفة كل مرفق من عمارتها ؟

I ـ المرتكزات العامة في العمران الإسلامي :

1 ـ فقه عمارة المدينة الإسلامية :

لعبت المدينة في التاريخ الإسلامي دورا حيويا في المجالات السياسة والدينية والاقتصادية والحضارية. وانصب انشغال الباحثين حول المدينة الإسلامية على عدة تخصصات : الجغرافية، والاقتصاد، والتاريخ، والأركيولوجيا، وعلم

الاجتماع، والأنثروبولوجيا والآداب. ويمكن تقسيم المصادر التي تناولت العمارة الإسلامية إلى ثلاثة رئيسية : المصدر الأول يطلق عليه اسم "فقه العمارة الإسلامية"، ويعتبر مؤلف عبد الله ابن عبد الحكم (توفي سنة 214 هجرية/829 ميلادية) المسمى "كتاب البنيان" أقدمها، بينما يعد كتاب "الإعلان بأحكام البنيان" للفقيه المالكي ابن الرامي أهم ما كتب في هذا الميدان. ويدخل في هذا الصنف كذلك الفتاوى والنوازل التي اهتمت بموضوع العمران.

المصدر الثاني يتعلق بالوقف الذي عملت الحوالات الحبسية على توثيق وحفظ أملاكه وضبط كيفية التصرف فيها. ويتضمن المصدر الثالث مختلف المصادر التاريخية والجغرافية، ومن أشهرها كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي، ومؤلفي ابن عساكر حول تاريخ دمشق، والخطيب البغدادي حول تاريخ بغداد.

عرف مفهوم العمران والعمارة بشكل خاص تفسيرات متعددة : فمنها من يرتبط بفن البناء على اختلاف أنماطه وأشكاله وهندسته، وإقامة البنيان بصفة عامة. واعتمد التفسير الثاني على المفهوم القرآني الداعي إلى "القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني وفق المنهج الرباني ويهم مختلف الأصعدة : المادية (بمعني الارتقاء والإبداع في وسائل الإنسان(والفكرية الثقافية) أي الارتقاء بخصائص الإنسان"[239]. ويرى أحد الأساتذة أن "مسألة التمدين يمكن معالجتها من زاوية منهجين... من زاوية منهج ديموغرافي جغرافي، وهذا المنهج وصفي تطغى عليه الظاهرة التطورية لمورفولوجية المنشآت المعمارية مع بيان كيفية تطورها ديموغرافيا وعمرانيا [ثم] من زاوية منهج "الفكر التاريخي" بمعنى ربط الظاهرة التمدينية ببقية مظاهر الوجود الإنساني، مثل مشكل

(239) مصطفى عزب (خالد محمد) : **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**. كتاب الأمة رقم 58 الدار البيضاء، منشورات الفرقان 1997 (ص 17).

الحكم، مشكلة تولد وتطور البنية الثقافية، مشكلة الإنتاج الاقتصادي والصراعات الاجتماعية. فالمدينة مكان اجتماعي ومسرح للإنتاج والعمل والسلطة والتمدين هو ظاهرة التفاعل بين العناصر المكونة لمجتمع المكان الصانع للتاريخ في تركيبتها الكلية"[240].

تتحكم في العمارة عدة عوامل، منها ما يرتبط بالضوابط الشرعية، ومنها ما له علاقة بالمستلزمات والروابط الاجتماعية ومنها ما تكون له دوافع ذاتية وفطرية. وتتجلى مظاهر هذه العوامل في تخطيط المدن والشوارع والمرافق العامة وفي نمط العلاقات الإنسانية المؤسسة على التعاون والتضامن وحسن الجوار وغيرها.

وتلعب الظروف الطبيعية والاقتصادية والأمنية تأثيرا كبيرا في تشكيل المرافق المعمارية بالمدينة الإسلامية، وفي امتدادها بما يتوافق وتخطيط المباني من حيث التجاور أو التلاصق أو الارتفاع ومن حيث توزيع وسائل التهوية والإضاءة والإطلال بما يوفر الوقاية ويمنع ضرر كشف حرمات البيوت. وحاولت الأحكام الفقهية مسايرة تطور حركة العمران بالاعتماد على مبدأ منع "ضرر الكشف".

واعتمد في تشيد المدينة الإسلامية على عدة شروط منها اختيار موضع جيد تتوفر فيه "خمسة أشياء وهي : النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها..."[241] كما يتطلب في هذا الموضع دفع المضار بالحماية، وجلب المنافع وتسهيل المرافق، ويفسر ابن خلدون ذلك بقوله : "فأما الحماية من المضار فيراعى فيها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون

(240) العلوي القاسمي (هاشم) : المرجع السابق، الجزء الأول (ص 323).

(241) ابن أبي زرع (علي) : **الأنيس بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. مصدر سابق (ص 33).

وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض"[242].

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد ـ حسب دائما مؤسس علم الاجتماع البشري ـ فيراعى فيه أمور : "منها الماء... فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بد لها من المرعى... ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء..."[243].

ويرى ابن الأزرق[244] أن المضار نوعان : "أرضية ودفعها بإدارة سياج الأسوار على المدينة ووضعها في مكان ممتنع، إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر... حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها. والنوع الثاني من المضار سماوي ودفعه باختيار المواضع الطيبة الهواء. أما جلب المنافع فيراعى فيها عدة أمور منها :

- توفر الماء، كأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة، لأن وجوده كذلك يسهل الحاجة إليه وهي ضرورية.

(242) ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة**. مصدر سابق (ص 615).
(243) نفسه : نفس المصدر (ص 621).
(244) ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد الأندلسي) : **بدائع السلك في طبائع الملك**. تحقيق محمد عبد الكريم. بيروت، الدار العربية للكتاب 1977، الجزء الثاني (ص 764-766).

- طيب المرعى للسائمة وقربه، إذ لابد لذي قرار من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ومتى كان المرعى الضروري لهذا كذلك كان أوفق من معاناة المشقة في بعده.
- قرب المزارع الطيبة، لأن الزرع هو القوت وكونها أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله والشجر للحطب والخشب، فالحطب وقود للنيران والخشب للمباني.
- وقربه من البحر لتسهيل الحاجة القصية من البلاد النائية.

ويوضح ابن أبي الربيع (المتوفى سنة 272 هجرية/990 ميلادية) في كتابه "سلوك المالك في تدبير الممالك"[245] الأسس الواجب اعتمادها عند إنشاء المدن وهي :

- أن يُجلب إليها الماء العذب للشرب، حتى يسهل تناوله من غير عسف.
- أن تُقدر طرقها وشوارعها، حتى تتناسب ولا تضيق.
- أن يُبنى فيها جامع للصلاة في وسطها ليكون قريبا للجميع.
- أن يُقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، وأن يحدد حجم السوق حسب حجم السكان.
- أن يُميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضدادا مختلفة متباينة، مما يسمح بخلق الانسجام الاجتماعي.
- أن يُحيطها بسور من أجل الحماية وحفظ المجتمع الداخلي كأسرة واحدة.
- أن يُنقل إليها من أهل الصنائع بقدر الحاجة لسكانها.

أما الماوردي الذي جاء بعد ابن أبي الربيع بحوالي قرن من الزمان، فيُورد نظرة جديدة لظاهرة التمدين والتخطيط الحضري في العالم الإسلامي، إذ

(245) ابن أبي الربيع (سليمان) : **سلوك المالك في تدبير الممالك**. تحقيق ناجي التكريني. بيروت، دار الأندلس 1981 (ص 192).

صنف وظائف المدن وفرق بينها حسب كل وظيفة، فتكلم عن تركيبتها الداخلية وشروط اختيار مواقعها، بصورة تتلاءم والأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة[246].

وبصفة عامة يتشابه تخطيط المدن الإسلامية إلى حد كبير، ذلك أن كل مدينة كانت تحتوي على المرافق الأساسية كالمسجد الجامع، والسوق، والحمامات، والقنوات المائية والعرصات، وكانت تخضع لعدة مؤثرات أهمها :

- أن مركز المدينة غالبا ما يشتمل على المسجد الجامع، والمؤسسات العامة، والسوق والشوارع الرئيسية.
- أن الأحياء يتم تقسيمها وفق تجانس القاطنين فيها، سواء من حيث الانتماء الإثني أو التقارب المهني.

2- محددات العمارة الإسلامية :

أ) الأحكام الفقهية :

تعتبر المصادر الفقهية من الروافد الأساسية في فهم تطور العمارة الإسلامية ولاسيما تلك المصادر التي تعالج بطريقة مباشرة مسألة التمدين وما يرتبط به من نظريات ومشكلات. وتعطينا هذه المصادر عدة أمثلة عن الصور التي كانت عليها "التشكيلات المعمارية للمركز الحضري والقواعد التي حكمت تخطيطها وهو ما يمكن معه تفسير الطبقات المكتشفة واستقراء البقايا المعمارية من أطلال المباني كما أنها تساعد على فهم العوامل التي تؤدي إلى التغيير والنمو المعماري للمركز الحضري واتجاهاته، ومن جهة أخرى تساعدنا كثيرا

(246) المنيس (وليد) : **التفسير الشرعي للتمدن.** الكويت، جامعة الكويت / كلية الآداب، الجمعية الجغرافية الكويتية، سلسلة رسائل جغرافية رقم 62، 1984 (ص 22).

هذه الأحكام في تحديد الأسس التي كانت تحكم التخطيط المادي للمدينة الإسلامية"[247]. ويعتبر كتاب الماوردي من أهم هذه المؤلفات وفيه صُنفت المدن وفق خمس خصوصيات هي :

- أن يستوطنها أهلها طلبا للسكون والدعة.
- حفظ الأموال فيها من استهلاك وإضاعة.
- صيانة الحريم والحرم من انتهاك ومذلة.
- التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة.
- التعرض للكسب وطلب المادة.

كما يورد الماوردي ستة شروط ضرورية في إنشاء المدينة وهي :

- سعة المياه المستعذبة.
- إمكان الميرة المستمدة.
- اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة.
- قربه مما تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب.
- تحصين منازله من الأعداء والزعار.
- أن يحيط به سواد يعين أهله بمواده[248].

ويقسم الماوردي الأمصار إلى نوعين : مصر مزارع وسواد، ومصر فرصة وتجارة. فأما مصر المزارع والسواد فهو أثبت المصرين أهلا، وأحسنهما حالا، وأولاهما استيطانا لوجود مواده فيه، واقتناء أصولهما منه. ومن شروطه، أن يكون في وسط سواده، وبين جميع أطرافه، حتى تعتدل مواده منها وتتساوى طرقه إليها، وهو موفور العمارة ما كان سواده عامرا... وأما مصر الفرصة

(247) عبد الستار عثمان (محمد) : **المدينة الإسلامية**. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، منشورات أعلام المعرفة غشت 1988. 415 صفحة (ص 5).

(248) الماوردي (أبو الحسن علي) : **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**. تحقيق رضوان السيد. بيروت 1987 (ص 209).

والتجارة فهو من كمال الإقليم، وزينة الملك، لأنه مقصود بتحف البلاد، وطرف الأقاليم، فلا يعوز فيه مطلوب ولا ينقطع عنه مجلوب. والمعتبر فيه ثلاثة شروط، أحدها أن يتوسط أمصار الريف، ويقرب من بلاد المتاجر، فلا يبعد على طالبه، ولا يسبق على قاصده. والثاني أن يكون على جادة تسهل مسالكها، ويمكن نقل الأثقال فيها، إما في نهر، أو على ظهر. فإن توعرت مسالكه، وأجدبت مفاوزه عدل الناس عنه إلا من ضرورة. والثالث : أن يكون مأمون السبل لأهل الطرقات، خفيف الكلف قليل الأثقال، فإنه ليس يأتيه إلا جالب مجتاز يطلب من البلاد أجداها، فإن توعر هجر. وهذا أكثر البلدين طلبا، وأنشرهما في الأقاليم ذكرا. وهو معد لمطالب الملوك، لا لموادهم، فإن استمدوه وتحيفوه بالمكوس والأعشار نفروا عنه..."[249].

ولا يمكن فهم أسرار العمارة الإسلامية بمعزل عن الإسلام وتعاليمه القاطعة التي يطلق عليها مقاصد الشريعة. وقد اعتمد الفقهاء المسلمون في تناولهم لأحكام البنيان على قول الله عز وجل : "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"[250]. ويفسرون العرف بأنه مجموعة القواعد والسلوكات التي تم التدرج والتطبع على إتباعها ولم يعارضها أحد طالما لا تتناقض مع ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. واتخذ العرف المتعلق بالعمران ثلاثة معاني أساسية هي : الأول هو استنباط الأحكام فيما لم يرد فيه نص، اعتمادا على القاعدة الفقهية : "العادة محكمة" أي "أن العادة تعتبر وتحكم، إذا كانت غالبة أو مستمرة". المعنى الثاني هو المتعارف عليه بين الجيران في تحديد الأملاك والحقوق وفق القاعدة القائلة : "من في يده شيء فهو ملكه، لا يحل لأحد الاعتراض عليه ولا يكلف إثباته ببينة". المعنى الأخير يرتبط بالأنماط البنائية، فعندما يتصرف الناس في البناء بطريقة متشابهة، يبرز هناك عرفا بنائيا أو نمطا موحدا.

---

(249) الماوردي (أبو الحسن علي) : نفس المصدر (ص 212-213).
(250) القرآن الكريم : سورة الأعراف، الآية 199.

كما اعتمد الفقهاء في أحكام البنيان على الحديث النبوي الشريف : "لا ضرر ولا ضرار". ويضرب المثل بالضرر على كل عمل مخالف نتج عن فتح كوة أو نافذة، ذلك أن العلاقة بين البنايات المتجاورة ليست جامدة، بل تساهم إلى حد كبير في تحديد سلوك القاطنين بها وما يتطلبه ذلك من ضرورة احترام الآداب العامة.

وترتب عن تطبيق مبدأي "الأخذ بالعرف" و"لا ضرر ولا ضرار" في العمارة الإسلامية، ظهور مبدأ أخر يدعى ؛حيازة الضرر" ويعني : أن من سبق في البناء يحوز العديد من المزايا أهمها حيازة الضرر وتملك الأرض، ويجب على الجيران أن يحترموها ويأخذوها بعين الاعتبار عند قيامهم ببناء بيوتهم. أما الطرق والشوارع فهي ملك عام وحق من حقوق جميع السكان والمارة والمستعملين لها. وتصنف شوارع المدينة الإسلامية إلى ثلاث مستويات :

- الشوارع العامة التي يكون الحق فيها لعامة المسلمين والانتفاع لفائدة كل المارة ويمنع التصرف فيها بما يضر المارة.
- الشوارع العامة ـ الخاصة التي يكون التصرف فيها من طرف الجماعة أقل وسيطرة القاطنين عليها أكثر.
- الشوارع الخاصة وهي ملك لساكنيها فقط ومشتركة الانتفاع بينهم، إذ يمكن لأي ساكن أن يتصرف فيها بعد موافقة باقي القاطنين.

ولضبط نوعية هذه الشوارع ورفع الضرر عنها، بنيت بوابات على مدخل الشوارع في المدينة الإسلامية وكانت بمثابة الإعلام بحدود أهل تلك الشوارع، وضمان الأمن، وسد الذرائع بمنع الجائز لأنه يؤدي إلى المحظور.

وتنوعت الأشكال المعمارية في الحواضر الإسلامية باختلاف الأزمنة والأمكنة، إلا أنها مع ذلك لم تخرج عن خمس متطلبات رئيسية هي : حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل وحفظ المال وذلك وفق الدرجات الثلاثة التالية : الضرورية والحاجية والمستحسنة.

وتشكل هذه المتطلبات أساس الترابط بين مقاصد الشريعة والعمران، والذي يتجسد في تمركز المسجد في قلب المدينة وتجاوره باقي المكونات المعمارية الضرورية الأخرى. كما تجدر الإشارة إلى مسألة صلة الرحم والقربى التي تدخل في المقصد الرابع من مقاصد الشريعة وكان لها الأثر المباشر في تشكيل المدينة الإسلامية عبر مختلف العصور والمناطق.

ب) الحسبة :

كان للقاضي والعلماء والمحتسب دورا متميزا في ضبط عمليات التعمير ومواد البناء وطرق تصنيعها بالاعتماد على أحكام السابقين وما جرى به العرف في مناطق سكناهم. ويذكر ابن خلدون أن أسباب النزاعات في العمران الإسلامي ترجع إلى كثرة الازدحام والتشاحن حتى في الفضاء والهواء الأعلى والأسفل، وإلى الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان، فيمنع الجار جاره من ذلك إلا ما كان فيه حق. وأيضا إلى الاختلاف في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائط خشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع الضرر عن جاره[251]. ويعتمد في حل النزاعات بين المتخاصمين وفي إصدار الأحكام بالاعتماد على مواد البناء من خلال عقد الجدران وحمل الخشب على الجدار وغرزه فيه وطريقة بناء الكوة والقيطان وغلق الباب ووجه الحائط وميل الحيطان واعتدالها. ويختص في معرفة ذلك على "أهل البصيرة العارفين بالبناء وتقنياته، والذين يستشار برأيهم من طرف الحكام فيما هم أبصر به من أحوال البناء ويعتمدون على خبرتهم في إصدار أحكامهم في مختلف القضايا المرتبطة بالارتقاء في المباني ونعني الضرر"[252].

(251) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق (ص 513).
(252) نفسه : نفس المصدر ونفس الصفحة.

وعملت الأحكام الفقهية على منع كل ما يسبب في إتلاف مواد البناء ويعرض المباني للهدم والخراب. ففي بلاد المغرب مثلا جرت العادة في تمليك الحائط ـ حسب المذهب المالكي ـ اعتمادا "على ستة أشياء هي القمط أي العقد والباب يكون في الجدار وغرز الخشب والكوة والبناء على أعلى الحائط ووجه البناء"[253]. بينما تحدد ملكية الحائط في مذهب أبي حنيفة بالعقد وبغلق الباب وبغرز الخشب، ولا يحكم بالعقد في مذهب الشافعي.

والحسبة هي واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم. وإذا كانت مقاصد الشريعة قد اهتمت بالشروط الواجب توفرها في اختيار مواقع ومواضع المدن وتخطيطها العام، فإن مؤلفات الحسبة[254] قد تناولت التركيبة الداخلية للمدن، من حيث تقسيم الشوارع، توزيع المباني على جوانبها، العلاقة بين هذه المنشآت والشروط الواجب توفرها فيها. وتلعب الحسبة دورا فعالا في التنظيم العمراني داخل المجال الحضري للمدينة وفق توزيع الأحياء والأسواق والمرافق.

ويحدث أن يتزامن نمو المدينة وتوسع رقعتها، بانشاء أحياء جديدة، ويتدخل المحتسب للتحكم في إثبات مصدر الضرر ومنع زيادته، ومن ذلك التلوث والزحام ورمي الأزبال... بما يضمن حرية وصحة وسلامة السكان والممتلكات. وإذا كان المحتسب يهتم بالأشكال الخارجية والبارزة للمباني، فإنه يقوم أيضا بمراقبة جودة مواد البناء ومتابعة صنائعها.

---

(253) عبد الستار عثمان (محمد) : **الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، دراسة أثرية معمارية**. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1989. 331 صفحة (ص 16).

(254) وأهمها كتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** لمؤلفه عبد الرحمن ابن نصر بن عبد الله العدوي الشيزري المتوفى سنة 589هـ/1193م، تحقيق د. الباز العريني، بيروت دار الثقافة، الطبعة الثانية 1981 ثم كتاب **آداب الحسبة** لأبي عبد الله ابن محمد بن أبي محمد السقطي المالقي والذي ذكره عبد الرحمان الفاسي في كتابه **خطة الحسبة**. الدار البيضاء، دار الثقافة 1984.

ج) قرابة النسب :

تعتبر قرابة النسب إحدى ركائز العمران الإسلامي التي ساهمت إلى حد كبير في تحديد المكونات المعمارية للمدينة الإسلامية وتخطيطها الداخلي. كما تعتبر القرابة إحدى مقاصد الشريعة الإسلامية و ترتبط بحفظ النسل، وعملت بعض الأحكام الفقهية مثل الإرث والملكية والشفعة وغيرها على تجددها باستمرار داخل مجال المدينة الإسلامية. ويتمثل ذلك خاصة في تدرج الفضاءات، وفي تداخل المباني، وفي موضع الأحياء السكنية والصنائع وفي التنظيم المحكم للتكوينات العمرانية.

ويقترن مفهوم القرابة عند ابن خلدون بمفهوم العصبية التي استعملت في تفسير قوانين الاجتماع البشري أو سنن العمران.

ويستخلص من مفهوم العصبية أنها طاقة اجتماعية تتفاعل مع ما يحيط بها من قوى ومؤثرات، سواء في الاتجاه الإيجابي للعصبية المعتمد على الوازع الديني وتتحكم فيه الضوابط الشرعية، أوفي الاتجاه السلبي حيث يغيب هذا الدافع ويؤدي بالعصبية إلى التنازع لاختلاف الآراء.

وتميزت المدينة الإسلامية كذلك بتركيبتها الاجتماعية التي تعتمد على الانتماء القبلي أو الديني، بحيث استفادت طوائف أهل الذمة من اليهود والنصارى بتعيين المقدم الذي كان مسؤولا عنها، فضلا عن تمتعها بمحكمتها ونظامها الخاصين. ويشير الماوردي في وصفه للبصرة : "أنهم جعلوا المدينة خططا بحسب القبائل، لكل قبيلة خطة...ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم، وتلاصقوا في المنازل"[255]. وغالبا ما تتوفر الأحياء على مقاييس تحدد تبعا لحجم القبيلة التي تنزل فيها وبالتالي فإن توسعها يتم على أساس النمو الداخلي للقبيلة، مما كان يعطي لكل حي هويته

(255) الماوردي (أبو الحسن علي) : المصدر السابق (ص 35).

الاجتماعية بالإضافة إلى وحدته العمرانية والهندسية. إذن فمبدأ "القرابة في النسب كان عاملا أساسيا في نشأة المدن الإسلامية ابتداء، ثم في تنظيمها الفضائي وإدارتها اليومية، وقد تجسد هذا المبدأ في الفضاء الهندسي والحضري في التقارب المكاني بين أفراد الطائفة الواحدة وكذلك في الحدود الإقليمية لكل طائفة"[256].

ويمثل نظام السوق والصنائع كذلك أهم صورة لهذه التشكيلة المعمارية، إذ غالبا ما كان للطائفة الواحدة صنعة مشتركة يتوارثونها أبا عن جد، ذلك أن أهل الصنعة يقومون بتدريب أبنائهم وإكسابهم الخبرة منذ الصغر ليساعدوهم في الحرفة ويقومون مقامهم من بعدهم. وكان لهذا التنظيم الحرفي تأثير مباشر على تصميم المدينة حيث يتركز أهل الصنعة الواحدة في موضع واحد على امتداد شارع غالبا ما يطلق عليه اسم الحرفة مثل الصفارين والعطارين والجزارين... إلى أخره. كما أن تجاور الصنائع في المدينة كان يعتمد فيه على أساس تقاربها وتكاملها. وكان أصحاب الصنائع يترأسهم الأمين الذي كان ينسق مع المحتسب في مراقبة الحرف وحسن سيرها، وينتخب الأمناء مسؤولا أعلى يدعى بأمين الأمناء.

وتعتبر شبكة الطرق بشكلها الهندسي من الصور الجلية لهذا التأثير حيث تتميز بتدرجها الهرمي من الدروب المسدودة إلى الأزقة والشوارع. ويقابل هذا التدرج الهرمي بنظام مفصل من الأبواب والمداخل التي تفصل الفضاءات عن بعضها البعض.

صفوة القول إن المصادر الفقهية في حاجة إلى دراسات قانونية واجتماعية وأثرية للعمارة الإسلامية يمكن من خلالها إثراء معلوماتنا عن حياة المجتمع،

(256) بن حموش (مصطفى أحمد) : "من معالم العمران الإسلامي، قرابة النسب وقرب المكان"، **مجلة الأحمدية**. العدد الثاني، جمادى الثانية 1419 هجرية/غشت 1998 ميلادية. ص 311-336 (ص 325).

والكشف عن الأسباب التي كانت وراء تشييد المدن أو ترميمها أو إعادة بنائها في فترات لاحقة. ذلك أن دراسة العمران يجب أن تكون شاملة تضع في اعتبارها الثابت والمتغير وتتعامل مع العمارة باعتبارها مركز التعايش والتفاعل الإنساني بكل ما يتضمنه من مظاهر الحياة.

II ـ المؤثرات الإسلامية في المعمار السجلماسي :

1 ـ دخول العمارة الإسلامية إلى بلاد المغرب :

مع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، عرفت العمارة نموا كبيرا، إذ أنشئت عدة مراكز حضرية "وكانت تستوعب القصور والمنازل والبيوت والدور ودار الإمارة والشرطة وغير ذلك من المباني خاصة المسجد. وكان الأسلوب المتبع سواء في إنشاء أو تجديد المدن حسب الاختيار في المكان التي تنشأ عليه المدينة وطريقة البناء والشكل حتى أن بعض هذه المدن كانت الأولى من نوعها من حيث التصميم والبناء مثل مدينة بغداد المستديرة"[257].

وكان التصميم المعماري للمدينة المغربية يشتمل على المسجد الجامع وما يرافقه من منشآت مائية ودينية وتعليمية "والساعات لضبط الأوقات والدكاكين والأسواق والمنازل والحمامات، كما يحيط بالمدينة سور وأبراج للدفاع عن سلامة سكانها وحظائر مائية وأجنة وحقول لتموينها"[258]. وتأسست المدن نتيجة التحام حضاري بين عاملين روحي ومدني : يتمثل العامل الروحي "في تكوين المدينة الإسلامية بتشييد المسجد فيها ليكون له أثره الملموس. ويظهر العامل المدني جليا بتخطيط الدور فيها وينشأ من تزاوج

---

(257) محمود وصفي (محمد) : **دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية**. القاهرة، دار الثقافة 1980. 222 صفحة (ص 37).

(258) السائح (الحسن) : **الحضارة الإسلامية في المغرب**. الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الثانية 1986. 443 صفحة (ص 118).

هذين العاملين علاقات وشؤون تحددها وترسم أطرها الشريعة الإسلامية السمحاء وينفذها الحاكم"[259].

ويمكن القول إن المدن الإسلامية الأولى التي عمرها المسلمون اتخذت شكل رباطات تمثل "قواعد عسكرية اقتضتها ظروف الحروب والفتوح التي قاموا بها خلال القرن الأول للهجرة. فالبصرة والكوفة مصرتا بأمر عمر بن الخطاب لتكونا قاعدتين للجيوش التي كانت تتجه شرقا وشمالا في شرق إيران والعراق. وقد أنشئت القيروان في تونس لتكون منطلقا للمقاتلة الموجهين نحو شمال إفريقية.... والقيروان روعي في إنشائها أن تكون على الطريق العام الموصل من الشرق إلى الغرب... هذه المدن... لم تلبث أن أصبحت مراكز تجارة وعلم وحضارة حتى في القرن الأول الهجري"[260].

إلا أن الوجه الحقيقي للعمارة الإسلامية بالمغرب لم يظهر بجلاء حتى بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي لما "استكملت الخلافة الإسلامية مؤسساتها المدنية (الوزارة) والعسكرية (الجيش) وفيه كان النشاط التجاري والمؤسسة الخارجية (مالية الدولة) قد تحددت معالمها الرسمية وفيه نضجت وضبطت المدينة الإسلامية بمعالمها وخططها وتنظيماتها الحضارية والاجتماعية. وتزامن فيه ظهور الحركات الاجتماعية المنطلقة من المدن وضواحيها، وفيه انقسم العالم الإسلامي انقساما سياسيا أكبر على مستوى السيادة العليا : الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر (المهدية ـ القاهرة) والخلافة الأموية الأندلسية في قرطبة"[261].

---

(259) عبد الوهاب خلاف (محمد) : **وثائق في شؤون العمران في الأندلس، المساجد والدور، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهيل الأندلسي**. القاهرة، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى 1983. 176 صفحة (ص 7).

(260) زيادة (نقولا) : "المدينة العربية في العصور الوسطى"، **دعوة الحق**. العدد 9-10، السنة 13، رمضان 1390هـ/نونبر 1970م. ص 63-97 (ص 63).

(261) العلوي القاسمي (هاشم) : "المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، دراسة كتاب مجتمع المغرب الأقصى"، **دعوة الحق**. العدد 323، السنة 37، 1996. ص 49-56 (ص 50).

أما بالنسبة للمغرب الأقصى فقد صاحب عمليات الفتوح، إنجاز أعمال عمرانية جديدة. وإذا كان من غير المعروف أن عقبة بن نافع قد ترك منجزات معمارية في المغرب، فإنه من الصعب كذلك استقصاء "آثار الولاة العمرانية واحدا واحدا. وقد اتجه العرب في البداية إلى الناحية الدينية، فأسسوا مساجد كثيرة... وجهزوا الجوامع بالمنابر، وفي سنة 85 هجرية أسس مسجد بأغمات في عهد موسى بن نصير... وفي سنة 140 هجرية بنيت مدينة سجلماسة قبل حلول الأدارسة بنحو ثلث قرن"[262].

وبالنظر إلى الوضعية العامة للتعمير ببلاد الغرب الإسلامي خلال القرون الخمس الأولى، يمكن القول إنها "امتازت بعدة خصائص اجتماعية أهمها هو ارتباط نشأتها وتطور خططها بنوع خاص من السكان وهو "الإنسان المستقر" وهو الذي وصفته المصادر التاريخية بالبرانس بالنسبة للبربر أو العناصر المغربة من الذين استقروا في البلاد سواء كانوا أفارقة أو روم أو عرب. أما الباقي من البدو الرحل فقد انشأوا ما يشبه الحصن أو ما يعرف ب"إغرم". فالتمدين إذن في المغرب تمدين نمطي أثرت فيه الأنظمة الاجتماعية السائدة"[263].

ولعب المغرب دورا حضاريا متميزا في نقل الحضارة الإسلامية إلى بلاد الأندلس وبلاد السودان. فقد كان بموقعه الجغرافي في "ملتقى عدة تيارات حضارية فهو يستقبل حضارة المشرق كما يتلقى موثرات البحر المتوسط وعبره مؤثرات أوروبا بالإضافة إلى المؤثرات الإفريقية وتبلورت كلها في النهضة التي بلغت ذروتها في بداية العصور الحديثة"[264]. وأخذ النمط الحضري الجديد

(262) حركات (إبراهيم) : "آثار الفتح الإسلامي في المغرب" **دعوة الحق**. العدد 3 ، السنة 4 ، 1960 . ص 41-44 (ص 43).

(263) العلوي القاسمي (هاشم) : **مجتمع المغرب الأقصى**. مرجع سابق، الجزء الأول (ص 319).

(264) مصطفى عزب (خالد محمد) : مرجع سابق (ص 141).

بالغرب الإسلامي يثبت دعائمه سواء في توجيه أو إعادة صياغة البنية الاجتماعية، فظهرت عدة مدن كانت بمثابة عواصم إمارات سياسية مستقلة كالأدارسة بفاس، والخوارج الصفرية بسجلماسة، والخوارج الأباضية بتاهرت، وبورغواطة بتامسنا وبني صالح بالنكور.

2. سجلماسة كمدينة خوارجية بالمغرب الأقصى :

تعتبر سجلماسة من المدن الإسلامية الأولى التي شيدت بالمغرب الأقصى، واتخذت في أول الأمر شكل عاصمة لإمارة مغربية مستقلة عن الخلافة الإسلامية في المشرق. وهي بذلك تنتمي إلى الحضارة الإسلامية عامة وإلى حضارة الغرب الإسلامي بشكل خاص، فالمدينة شيدت من طرف خوارج مكناسة الصفرية في منطقة بدأ فيها انتشار الإسلام. لذلك فإن دراسة عمرانها لا يمكن فصلها عن هذا المعطى التاريخي، بحيث يبقى من المستبعد ألا تكون اتبعت القاعدة الإسلامية العامة للبنيان. فسجلماسة توفرت بدورها على تصميم معماري دقيق يتضمن مختلف المرافق العمرانية الأساسية في كل مدينة إسلامية، خاصة وأنها كانت بمثابة العاصمة السياسية قبل أن تتحول إلى مقر أحد الأقاليم المكونة للدولة المغربية على عهد المرابطين والموحدين والمرينيين.

وارتبط تصميم المدينة بتنظيمها الداخلي وفق التوزيع المجالي للأزقة، والمكونات، والبساتين، بينما ارتهن تخطيطها بالظروف الطبيعية والعمرانية كاختيار الموضع المناسب الغني بالماء الصالح للشرب وبالهواء النقي وبالحطب وبالمراعي. كما تجدر الإشارة إلى الدور الفعال الذي لعبته التجارة في بناء مدينة سجلماسة وفي تطورها المعماري. إلا أن المعطيات حول المعمار السجلماسي تظل قليلة ولا تساعد على توسيع الفهم عن ظروف تشييد المدينة وحدود توسعها العمراني وعن نوعية التخطيط العمراني الذي اعتمدته وما احتواه من المرافق المعمارية.

وللوصول إلى الحد الأدنى من هذه المعطيات تم الاعتماد على نقد النصوص المكتوبة، وعلى تدقيق الرواية الشفوية، وعلى تحليل نتائج البحث الأثري وعلى وضع المدينة في إطارها التاريخي والأثري.

فقد شيدت سجلماسة وسط واحة غنية بالمياه والهواء النقي وبالمراعي، وفوق ربوة مرتفعة، يحيط بها نهران وفي ملتقى مسالك القوافل التجارية. كما يمكن نعت المدينة بكونها تنتمي، على الأقل في البداية، لمجموعة مدن ـ الدولة أو المدينة ـ العاصمة، والتي أسست في ظروف سياسية خاصة بغية توفير الأمن للسكان وتحقيق مشروع سياسي. فهي مدينة بنيت من طرف خوارج مكناسة الصفرية عشية فشل ثوراتهم ضد الخلافة الإسلامية بالمشرق، وفي منطقة كانت في منأى عن كل تدخل خارجي.

كانت الاستراتيجية السياسية لمكناسة ولا شك تهدف إلى تحقيق نواة دولة خوارجية يمكن بواسطتها التوسع تدريجيا قصد السيطرة على أكبر جزء ممكن من العالم الإسلامي كخطوة أساسية للوصول في النهاية إلى سدة الخلافة الإسلامية. وحسب البكري فإن تخطيط مدينة سجلماسة وتفريقها بين السكان كان من عمل اليسع بن أبي القاسم "وارتحل إليها سنة مائتين وقسمها على القبائل"[265].

وتذكر إحدى الوثائق المحلية أن عيسى بن يزيد الأسود "كان صاحب ماشية يرعاها في شرق سجلماسة وغالبا ما يتردد على مكان المدينة ثم استقر به عام ثمانية وثلاثين ومائة بخيامه وأهله. ووجد هناك أربعمائة قبيلة فاتخذته هذه القبائل زعيما لها فأسس نواة المدينة عام أربعين ومائة، وقسم أحياءها بين القبائل كما قسم الماء في المكان المسمى خلجان ووجهه لكل المناطق حسب التساوي، ثم شرع في غرس النخيل وحرص على أن يكون عدده كثيرا"[266]. ويلاحظ أن هذه الوثيقة تضاربت فيها الأسماء ويرجع ذلك إلى أن المؤلف

(265) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق، طبعة 1992 (ص 836).

(266) Bassac : op-cit (p. 224).

اختلط عليه الأمر، فبدلا من أن ينصب كلامه حول الزعيم المكناسي سمكو بن واسول الذي يعود إليه الفضل في نشر المذهب الخارجي الصفري بمنطقة سجلماسة، فقد ركز على عيسى بن يزيد بصفته المؤسس الأول للمدينة.

ومع ذلك "يمكن أن نرجح صحة ما جاء في النص حول تقسيم أحياء المدينة لسببين : أولهما أن تأسيس مدينة سجلماسة كان في أغلب الروايات سنة 140 هجرية/757 ميلادية ولا يعقل أن يشرع في بناء مختلف المرافق المعمارية للمدينة في العام المذكور ولا ينتفع بها إلا بعد مرور أكثر من نصف قرن حتى نسلم بما قاله البكري حول تعمير مدينة سجلماسة في فترة حكم اليسع، أي في سنة 200 هجرية/ 816 ميلادية، خاصة وأنه الأمير الرابع في إمارة الخوارج الصفرية والثالث في سلالة أبي القاسم. وثانيهما أن الحديث عن عيسى بن يزيد يرتبط في المصادر عامة بالحديث عن أبي القاسم"(267).

مع تشييدها، عرفت سجلماسة في تنظيمها العمراني، تأثيرات سياسية واقتصادية مباشرة باعتبارها عاصمة الإمارة الخوارجية من جهة، ومركزا تجاريا نشيطا من جهة أخرى. وهكذا فمرافقها اتخذت في بداية الأمر وظيفة عمومية بالخصوص، مثل المسجد الجامع، ودار الإمارة، والسوق، والحمامات وغيرها. و"لما تحولت سجلماسة إلى عاصمة ومدينة تجارية صحراوية كبرى، فإن عمرانها تجاوز كثيرا حدود الربوة التي أنشئت فوقها أول الأمر. فأطلالها تنتشر اليوم على مساحة واسعة بمحاذاة الضفة الشرقية لوادي زيز"(268). كما لا يخفى أن "دولة المدراريين في سجلماسة بالرغم من قيامها على أكتاف البدو من البربر، إلا أنها عرفت الزراعة وأكثرت من العناية بغرس أشجار النخيل وازدهرت بها صناعة غزل الصوف واختطت بها المصانع والقصور"(269).

(267) حافظي علوي (حسن) : **سجلماسة وإقليمها**. مرجع سابق (ص 110).

(268) Jacques-Meunié (D) : *Le Maroc Saharien*. op-cit (pp. 195-196).

(269) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : **الأغالبة [184-296هـ] سياستهم الخارجية**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، مكتبة وراقة الجامعة، الطبعة الثانية 1978. 299 صفحة (ص 134).

وتجدر الإشارة إلى أن البنيان السجلماسي عرف عدة مراحل من النمو والتطور حسب تغير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمدينة، ووفقا لتوالي فترات الاستقرار أو الاضطراب. لكن "ماذا تبقى اليوم من سجلماسة وماذا نعرف عن المدينة القديمة ؟ لاشيء تقريبا، فقد اندثرت وهُجرت خلال القرنين 13 و14 الميلادي، وتعرضت للتخريب بفعل فيضانات وادي زيز و لم يبق منها سوى ركام من الآثار وأجزاء من الجدران المتناثرة"[270].

خلاصـــة :

إذا كان تاريخ سجلماسة واضحا نسبيا منذ تأسيسها من لدن خوارج بني مدرار عام 140 هجرية/757 ميلادية إلى غاية اندثارها في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فإن المعرفة بمجالها العمراني ظلت لحد الآن محدودة. ويرجع ذلك إلى عدة عوامل أهمها :

– أن المصادر المعاصرة اهتمت كعادتها بالوقائع السياسية التي شكلت تاريخ سجلماسة وبمؤهلاتها الاقتصادية وخاصة بدورها التجاري، واغفلت بشكل مقصود أو غير مقصود تنظيمها العمراني. إذ تقدم الكتابات العربية أوصافا عامة تفتقر إلى التفاصيل والكمية عن المدينة وعن بعض البضائع المصدرة منها أو المستوردة وأحيانا تتحدث عن الشخصيات المهمة التي ارتبط بها تاريخها. كما أن الرواية الشفوية لم تستطع تقديم كل المعلومات الكافية وبالتالي ظلت معظم المخلفات المادية والأسرار الأثرية حبيسة الأنقاض.

– انعدام كل الوثائق ذات الصلة بأحوال المدينة مثل سجل الضرائب وكنانيش ضبط الملكية، مثل ما هو الحال في بعض المدن العتيقة.

إلا أن الاعتماد على تحليل المعطيات المصدرية المتوفرة وعلى التحريات الأثرية، ساعد إلى حد ما على تدقيق التاريخ السجلماسي العام والكشف عن بعض البقايا المعمارية للمدينة.

(270) Terrasse (Henri) : "Notes sur les ruines de Sijilmassa", op-cit (p. 585).

الباب الثاني

سجلماسة من الأسطورة إلى الحقيقة الأثرية



الفصل الثالث

○○○○○

تقييم الأبحاث والدراسات حول سجلماسة

المبحث الخامس :
الدراسات والتحريات الأولية

تقديـــم :

هذا المبحث يقدم صورة جلية غير مسبوقة عن موقع سجلماسة الأثري وعن مختلف الدراسات والأبحاث التي أحيطت به، خاصة إذا علمنا أن المصادر التاريخية لم تشفي الغليل من خلال معطاياتها ذات الأوصاف المبالغة والجذابة. من الناحية الأركيولوجية، عرف الموقع السجلماسي مجموعة من التنقيبات أغلبها تحت إشراف بعثات أجنبية التي حاولت الكشف عن خبايا الموقع، بالرغم من كون أغلب هذه التنقيبات كانت ظرفية وجزئية و لم تخضع لاستراتيجية عملية ديقيقة وطويلة الأمد. كما أن هذه الأبحاث ـ مع الأسف ـ لم تعرف طريقها إلى النشر والتعميم، بل ظلت عبارة عن تقارير عن مجريات التنقيب وظلت أيضا حبيسة الرفوف.

I ـ البحث الأثري بالمغرب :

1 ـ الخريطة الأثرية، الحصيلة والآفاق :

الأركيولوجيا هي علم تقني يبحث في أعماق الأرض، ويهتم أساسا بدراسة المخلفات المادية التي تركها الإنسان، وبتصنيفها ومقارنتها ضمن سياقها الحضاري، وبترتيبها وفق أساس كرونولوجي، ثم بوضعها في إطارها التاريخي المناسب، كهدف أساسي يتمكن الباحث الأثري من خلالها تحديد أنماط الحياة الاجتماعية والنظم الاقتصادية والسياسية والحضارية خلال العصور السالفة. فالبحث

الأثري[1] هو إذن عمل ميداني طويل الأمد يعتمد الحفر المتواصل للإلمام بدقائق الأحداث التاريخية وبخصوصيات المواقع والمعالم التاريخية.

ويعرف البحث الأثري بالمغرب تطورات مهمة نظريا وعمليا، إذ تعددت مناهجه العلمية بهدف الوصول إلى وضع تسلسل تاريخي دقيق، كما أصبح علما أكاديميا قائما بذاته. ويشهد الحقل الأثري بالمغرب حاليا أبحاثا وتحريات متعددة، ستساهم في وضع خريطة أثرية دقيقة من خلال تقييم التراكم الحاصل وإنجاز مسوحا أثرية شاملة لكل المواقع الأثرية. كما أن المسح الأثري لم يعد يقتصر فقط على حصر وتوثيق المعلومات السطحية، بل يتجاوز ذلك إلى كشف الإطار البيئي الكامل الذي عاصر كل فترة.

ويمكن تقسيم تاريخ البحث الأركيولوجي بالمغرب إلى ثلاث مراحل : مرحلة أولى بدأت منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي في خضم الحركات الاستعلامية والاستكشافية المختلفة الوسائل والاتجاهات التي اعتمدها الأوربيون في محاولتهم للتعرف على المغرب، إذ تم خلال هذه المرحلة تحديد عدد من المواقع الأثرية. هذه الأبحاث ارتبطت بالتحريات الأثرية التي قام بها الفرنسيون وفق مناهج ومنطلقات لم تكن في غالبيتها ذات موضوعية على المستويين الميداني والتحليلي. وكان الهدف الأساسي هو ربط فرنسا بالحضارة الرومانية ومخلفاتها بإفريقيا الشمالية. وتم تنظيم قطاع الآثار وتقنين عملية الحفر بنص قانوني للمحافظة على المباني والنفائس التاريخية وذلك بتاريخ 26 نونبر 1912 ميلادية وأحدثت مصلحة الآثار القديمة Service des Antiquités سنة 1933 ميلادية.

المرحلة الثانية تبتدئ مع فترة الاستقلال وخاصة خلال التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجري/السبعينيات من القرن العشرين الميلادي والتي

(1) لتقييم التراكم المعرفي في الأركيولوجيا المغربية، نظم المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط في أواخر سنة 1999 يوما دراسيا في موضوع : "البحث الأثري في المغرب بين حفر المواقع والتأريخ للثقافة".

عرفت بوادر مدرسة وطنية، لكن باعتماد نفس المناهج التي اتبعها الفرنسيون، مع إعادة النظر في تنظيم وهيكلة مصلحة الآثار بجعلها مؤسسة متخصصة في البحث والتنقيب.

المرحلة الثالثة هي التي ارتبطت بتأسيس المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط سنة 1986 ميلادية، حيث بدأت عملية التكوين وتقييم نتائج الأعمال الأركيولوجية السابقة. وبتأسيس هذا المعهد، انطلقتئوتعددت عمليات التنقيب بالمغرب سواء في المواقع التي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ أو إلى ما قبل الإسلام أو إلى الفترة الإسلامية، وتم اكتشاف مواقع جديدة. فأصبح البحث الأثري يحقق نتائج علمية بارزة، وانقسم اهتمام الباحثين إلى اتجاهين متكاملين : الأول اتجه نحو دراسة المآثر المعمارية التي خلفتها الدول التي تعاقبت على حكم المغرب من جوامع، ومدارس وقصور وغيرها وما تزخر به هذه المعالم من مكونات بنائية وزخارف هندسية متنوعة. الاتجاه الثاني اهتم بالتنقيب في مواقع أثرية كشالة وسجلماسة... إلى آخره، مع ما يرافق ذلك من تحليل للطبقات الأثرية ودراسة اللقى المكتشفة.

وكان من نتائج ذلك أن البحث الأثري بالمغرب أصبح يحقق يوما بعد يوم تراكما على مستوى مختلف التخصصات : علم الآثار، والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا. ولم يعد اهتمام التوجه الأركيولوجي الجديد منصبا فقط على المدن الكبرى التي تعود مواقعها إلى فترات ما قبل التاريخ كالدار البيضاء وطنجة وتطوان، بل أصبح البحث في هذا المجال موزعا على مختلف المناطق كالريف الشرقي، وسوس، والأطلس المتوسط وغيرها. كما أصبح المسح الأثري، ضروريا في كل عمليات التنقيب والإنقاذ، وغالبا ما يصاحب دراسة أي موقع البحث في مجاله الجغرافي، ومدى استغلال موارده الطبيعية ومعرفة تعاقب الاستيطان البشري.

أما الخريطة الأثرية فيمكن تعريفها بأنها تجسيد لتراكمات الأبحاث الأركيولوجية المنجزة، إلا أن المفهوم الحقيقي لهذه الخريطة يختلف حسب المنهجية المتبعة والوسائل المعتمدة وكذا الغاية المتوخاة منها(2).

ويتمثل العائق الأساسي في الدراسات الأركيولوجية المغربية في كون أغلب الأبحاث لم تنشر أعمالها، وإنما بقيت عبارة عن تقارير ميدانية أكثر منها دراسات تحليلية. ذلك أن نشر مثل هذه الأعمال يتطلب وقتا طويلا بسبب صعوبة الوصول إلى نتائج دقيقة وبسبب ضعف الإمكانيات. ويتضح هذا جليا في تعثر صدور النشرة الأثرية المغربية Bulletin d'Archéologie Marocaine التي ظهرت سنة 1957 ميلادية، كما أن غالبية برامج الحفريات ارتبطت عموما بالبعثات الأثرية الأجنبية.

2. دور البحث الأثري في إثراء التراكم المعرفي :

قدمت الكتابات العربية للمؤرخين والجغرافيين القدامى أوصافا عامة عن سجلماسة وعن البضائع المصدرة أو المستوردة وعن الشخصيات الكبيرة التي ارتبط بها تاريخ المدينة. وتمثل سجلماسة مختبرا جيدا لتحليل معالم الحضارة العمرانية الإسلامية، خاصة وأن آثارها ظلت حبيسة الأنقاض منذ نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي على الأقل. لذلك فإن الدراسة الأثرية لعمران سجلماسة، تضع بين نصب عينيها مجموعة من الإشكاليات تندرج من الأهداف إلى النتائج ومرورا بالتحليل :

(2) نظمت بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط في شهر دجنبر 1998 ندوة علمية حول "خريطة المغرب الأثرية أسئلة وآفاق". وقد شارك في هذه الندوة مجموعة من الباحثين المغاربة ينتمون لمديرية التراث الثقافي، للمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وكذا لكليات الآداب والعلوم الإنسانية بكل من القنيطرة، والمحمدية، ومكناس والدار البيضاء- عين الشق. وتركزت الندوة على ثلاثة محاور أساسية، خصص الأول منها لمقاربة مفهوم الخريطة الأثرية واهتم المحور الثاني بمناقشة منهج البحث والإنتاج، المشاكل والتصورات وتطرق المحور الثالث والأخير إلى نماذج من الخرائط الأثرية والأنثروبولوجية للمغرب.

أ) الأهداف :

يمكن تلخيص أهم الغايات المتوخاة من هذه الدراسة في الأسئلة الرئيسية التالية :

• ماذا تشبه مدينة سجلماسة من الوجهة المعمارية ؟
• كيف تطور مجالها المعماري بارتباط مع صيرورتها التاريخية ؟
• ما هي آثار تجارة القوافل على نموها العمراني والاقتصادي بصفة خاصة ؟
• ما هو حجم التأثير السياسي في تطورها العمراني، والاقتصادي، والديني والاجتماعي ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها تستلزم القيام بتحليل دقيق لتشكيلات الطبقات الأثرية بموقع سجلماسة من جهة، وبتحديد أصناف اللقى المكتشفة ووضعها في إطارها الكرونولوجي من جهة ثانية، وبإنجاز مسح شامل للمنطقة من أجل معرفة الأشكال المختلفة لاستعمال التربة في الزمان والمكان من جهة ثالثة، وأخيرا بالتمييز بين ما هو مجال خصوصي وعمومي، وبين ما هو مرفق ديني وسياسي، وبين ما هو تشكيل معماري ومجال حيوي (فلاحي أو رعوي).

كما تتوخى الدراسة تقديم إضافات جديدة للأركيولوجيا المغربية خاصة والمساهمة في إثراء التراث المعماري الوطني عامة. إلا أنها في المقابل تطرح عدة ملاحظات وقضايا يمكن إجمالها كما يلي :

◆ الملاحظات الأولية :

– ضرورة إبراز أهمية هذه المنطقة في التاريخ المغربي عموما وفي تاريخ العلاقات المغربية ـ المشرقية والمغربية ـ الإفريقية بصفة خاصة.

- إن التاريخ المعروف عن هذه المنطقة يتسم بالغموض والحدثية، بينما ظلت المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية شبه مغيبة.
- إن الدراسات التاريخية والأثرية المنجزة حول المنطقة رغم أهميتها، تبقى ضئيلة.

◆ القضايا الجوهرية :

ويمكن تحديدها من خلال طرح الأسئلة التالية :

- لماذا بقيت الأبحاث المتعلقة بسجلماسة مبعثرة حسب الزمان والمكان والتخصص ؟
- إلى أي حد يمكن مقارنة سجلماسة بالمدينة الإسلامية في مفهومها العام ؟
- ما هي حدود تدخل الإنسان في المجال الطبيعي وخاصة في الاستغلال الفلاحي ؟
- هل تم تنظيم المجال الحضري حسب الانتماء القبلي أو المذهبي أم حسب النمط الإنتاجي وفقا لتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟
- كيف يمكن تفسير نمو النمط العمراني ولماذا تم انتقال الاستقرار البشري بالمنطقة من تجمع حضري إلى سكن قروي على شكل قصور وقصبات ؟
- هل يمكن فك لغز النمط العمراني لمدينة سجلماسة من خلال الاهتمام بهندسة القصور المحلية سواء العامرة منها أوالخالية، من خلال دراسة مواد بنائها وتشكيلاتها المعمارية وأشكالها الزخرفية ؟

ب) الدراسة :

تقتضي الدراسة الاعتماد على تخصصات متعددة كالتاريخ، وعلم الآثار، والأنتربولوجيا، والجغرافيا الطبيعية والبشرية، وعلم دلالات الأسماء، وعلم الاجتماع، والآداب... وغيرها، وذلك بغية الوصول إلى أجوبة صريحة

حول الإشكاليات المطروحة والتعرف بدقة على الخبايا التاريخية والأثرية للمنطقة. وتبدأ الخطوة الأولى بالمسح الأثري الدقيق لكل المجال[3]، والتحقيق التاريخي لمختلف مراحل تعمير الموقع للإجابة عن مجموعة من الأسئلة ومن أهمها كيف أنشئت سجلماسة وكيف اندثرت بتلك السرعة ؟

فقد عرفت سجلماسة بساكنتها المختلطة، وبتجارتها وعلاقاتها المتميزة مع بلدان جنوب الصحراء. وإذا كانت المصادر المكتوبة لا تقدم لنا معلومات مهمة عن الجوانب العمرانية للمدينة، فإن الاعتماد على علم الآثار يمكن من فهم التنظيم المعماري السجلماسي وخاصة مورفولوجية الأحياء وطبيعة عيش السكان ومواضع الصنائع. كما أن دراسة تجارة القوافل من حيث القافلة، والبضاعة المتبادلة، والأسواق، والمسالك والمحطات، تساعد جيدا على معرفة أثر هذه التجارة على النمط المعماري وعلى الوضع الاقتصادي بمدينة سجلماسة.

وتعتمد دراسة الصنائع المحلية أساسا على دراسة المسكوكات أو الخزف، لكن دون إغفال باقي الصنائع مثل النسيج والجلد، فعلى سبيل المثال تم العثور بموقع سجلماسة خلال مواسم 1988 و1992 و1993 و1994 على 811 قطعة غير خزفية من المعدن والزجاج والخشب. هذا العدد غير كاف لتقديم صورة واضحة عن الصنائع بسجلماسة، إلا أنها ترسم معطى أوليا عنها خاصة إذا أضفنا إليها المكتشفات الفخارية والنقدية. ففي الدراسة التي أنجزها الباحث الأمريكي رونالد ميسيي Ronald Messier سنة 1980 ميلادية حول الدنانير الذهبية المرابطية، توصل إلى أن أغلبية هذه الدنانير [حوالي النصف] أتت من سجلماسة ب 214 دينار مقابل 173 من أغمات، 62 فقط من مراكش "العاصمة المرابطية". وتضاعف حجم النقود التي ضربت بسجلماسة منذ أن أصبحت هذه النقود تحمل اسم المدينة.

(3) Touri (Abdelaziz) : "Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien", *Actes du IV° Colloque Euro-africain*. op-cit (pp. 32-35).

وركزت هذه الدراسة فقط على العملة الذهبية المرابطية وكان بإمكانها أن تقدم نتائج أفضل لو أخذت بعين الاعتبار باقي أصناف النقود من فضية ونحاسية وأيضا تلك المنتمية منها للدول الأخرى. ويعتبر حجم سك العملة الذهبية كذلك مؤشرا عن تجارة القوافل البعيدة، ذلك أن المادة الأولية في سك هذه العملة تستورد جلها من بلاد السودان.

وفي دراسته للقطع النقدية التي اكتشفت بموقع العقبة في الأردن توصل الباحث رونالد ميسيي Ronald Messier إلى أن العدد الأكبر منها تنتمي لدار السكة السجلماسية. وتبرز قيمة سك العملة الذهبية في أنها كانت تستعمل كوسيلة للتبادل في التجارة البعيدة. فالمرابطون مثلا ضربوا كميات كبيرة من النقود - استمدت مادتها الأولية من ذهب السودان - في ست مدن مختلفة بشمال إفريقيا، منها أربعة تنتمي لمنطقة جغرافية واحدة لعبت دورا رئيسيا في العلاقة الوطيدة بين مراكز حوض البحر الأبيض المتوسط شمالا وبين مناطق جنوب الصحراء. بالإضافة إلى ذلك كان يسير هذه المدن أو يراقبها حكام مرابطون. وهذا يقدم دليلا أخر على أن مداخيل هذه المراكز الحضرية المحصلة من تجارة الذهب كان البعض منه يستغل في تمويل الحكام المحليين مع قواتهم فضلا عن نقل وحماية السلع التجارية. أمام هذه الوضعية، وحيث أن الذهب كان بمثابة الممول الرئيسي للخزينة المركزية، فقد كان الشغل السياسي والعسكري الأساسي للمرابطين هو مراقبة المسالك التجارية ضد أي خطر مرتقب.

أما الصناعة الخزفية فتعتمد على دراسة اللقى المجمعة في المسح الأثري وفي الطبقات الأركيولوجية وذلك من خلال معرفة تكوينها الصلصالي، وأشكالها، وتقنية إنتاجها، ونمط زخرفتها. هذه المعطيات يتم تسجيلها في بطاقات معلومات قارة، قبل أن تدخل في بنك المعلومات لتصنيفها وتحديد مركز صنعها والحقبة الزمنية المنتمية إليها. كما تهتم هذه الدراسة بمختلف الأشكال الخزفية المستوردة إلى سجلماسة عبر تجارة القوافل سواء من المدن المغربية الأخرى أو من الأندلس أو من المغرب الأوسط وإفريقية وحتى من إفريقيا جنوب الصحراء.

وتبين المقارنة الزخرفية بين بعض القطع التي اكتشفت بموقع سجلماسة ومثيلاتها التي عثر عليها بمراكز الضفة الجنوبية للصحراء وخاصة بالنيجر الأوسط، أن هذه القطع يمكن أن تكون قد استوردت عبر الصحراء من بلاد السودان كما هو الشأن بالنسبة للذهب. ويذهب الباحث الأثري الفرنسي موريس بيكون Maurice Picon الذي زار موقع سجلماسة عدة مرات، وخاصة خلال زيارته في سنة 1993 ميلادية، إلى القول إن اللقى الخزفية الكثيرة والمبعثرة فوق سطح الموقع تنتمي تقريبا لكل المراكز الحضرية الواقعة بحوض البحر الأبيض المتوسط.

ج) النتائج :

يسعى البحث الأثري بعد تدقيق النتائج التي توصل إليها، إلى أن يتوج بدراسة منوغرافية حول مجال سجلماسة عموما بما فيه التجمعات السكنية، والمؤسسات الاقتصادية، والمرافق الدينية، والتجهيزات الفلاحة والموارد المائية والنظام الإيكولوجي. وتهتم الدراسة كذلك بالتطور العمراني، ودور المدينة أولا كعاصمة إمارة مستقلة ثم كعاصمة إقليم، ودورها كمركز للمذاهب الدينية ثم كقاعدة عسكرية، وكواحة فلاحية، وكمحطة تجارية ونقطة تواصل مع بلاد السودان.

وأكدت مواسم الحفريات بموقع سجلماسة أن الكثير من المعطيات المحصلة تبقى دون المستوى المطلوب، وتتطلب إضافتها إلى المعلومات المكتوبة للمقارنة والتحقيق قصد التوصل إلى تدقيق التاريخ السجلماسي العام.

وستكون نتائج هذه المقارنة ذات منفعة مهمة بالنسبة للمؤرخين المتخصصين في الدراسات الإسلامية أو في تاريخ شمال إفريقيا، أو في التاريخ الاقتصادي أوفي الجغرافية والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا أو بالنسبة للمهتمين بالتطور العمراني الإسلامي بالغرب الإسلامي. واعتمدت هذه النتائج على مقاربة منهجية تتضمن النقط التالية :

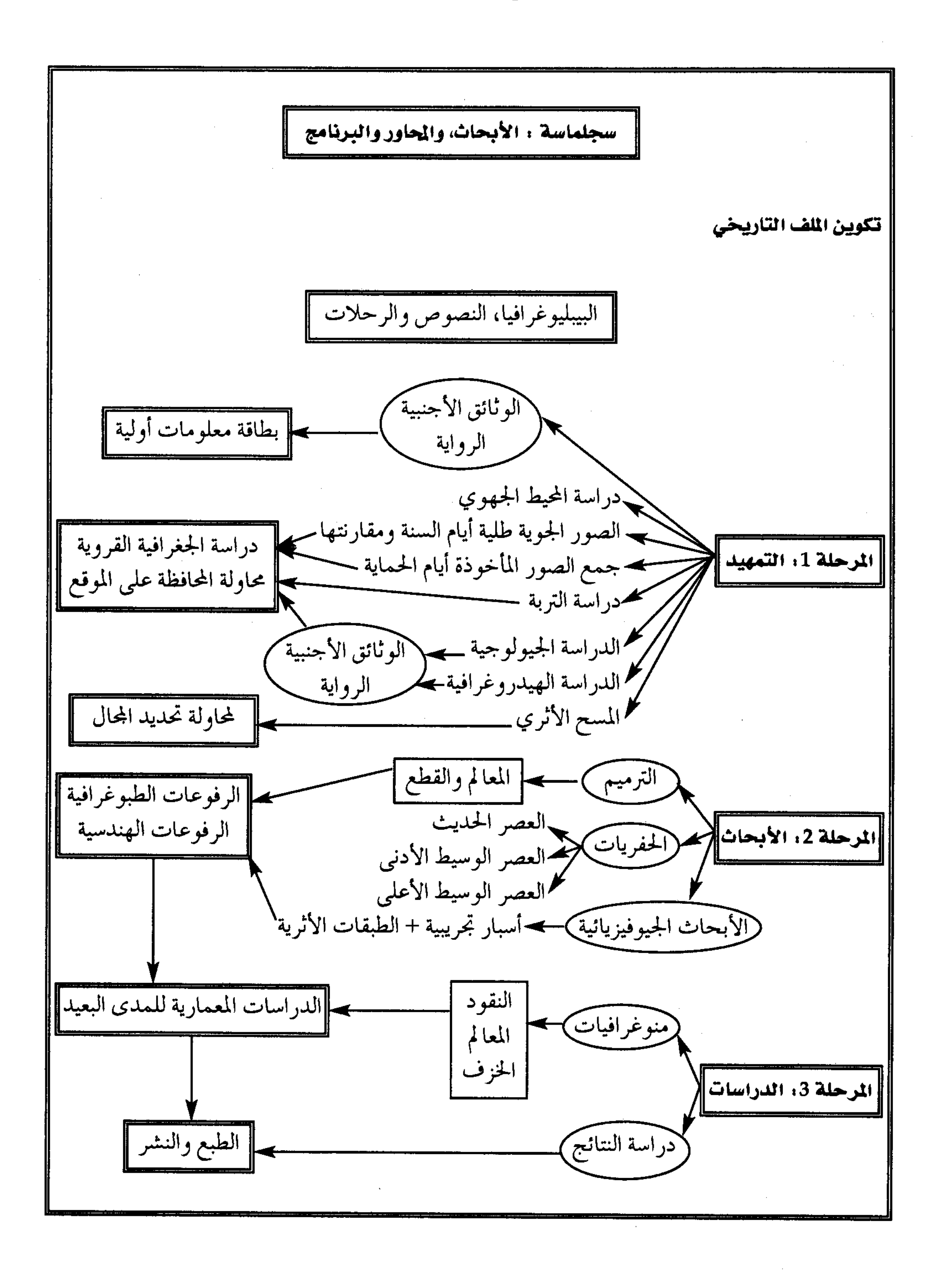
- إعداد ملف تاريخي يتضمن بيبليوغرافيا كاملة تصنيفا وتحليلا.
- جمع الرواية الشفوية وتوثيقها وتحليلها.
- إجراء المسح الأثري الدقيق بالمنطقة ومحيطها المجاور.
- تتبع الأبحاث والدراسات المنجزة حول المواقع المعاصرة والواقعة بالمغرب أو بجنوب الصحراء.
- استغلال كل المعطيات المتوفرة عن طريق الصور الجوية، والأبحاث الجيولوجية، الهيدروغرافية ودراسة التربة، وعلم دلالة أسماء الأماكن.

وتكون ثمرة هذه المقاربة في الأخير إنجاز الأبحاث والدراسات الآتية :

- الدراسة الجيوفيزيائية والأسبار التجريبية، لفهم الطبقات الأثرية وبالتالي مراحل تعمير موقع سجلماسة وطبيعة المكونات المعمارية.
- الرفوعات الطبوغرافية والهندسية الدقيقة.
- الدراسة الخزفية، ودراسة المسكوكات... إلى أخره.
- التحليل والمقارنة للقى الأثرية [الخزفية، والنقدية، والزخرفية...] من حيث الأشكال والفترات الزمنية.
- منوغرافيات دقيقة حول العمران السجلماسي سواء على شكل شمولي أو حسب النوعية من عمارة وفنون وصنائع وغيرها.

وإجمالا، تحظى الدراسة المعمارية لمدينة سجلماسة بأهمية بالغة وسيكون لها أثر رجعي يهم كل الميادين العلمية وخاصة العلوم الإنسانية. ويتجلى هذا الأثر من خلال المقاربة التالية التي تحاول إبراز المراحل المختلفة للتدخل في موقع سجلماسة الأثري[4].

(4) Hassar-Benslimane (Joudia) : "Sijilmassa du mythe à la réalité archéologique", *Actes du IV° Colloque Euro-africain*. op-cit. pp. 26-31 (p. 31).


سجلماسة : الأبحاث، والمحاور والبرنامج
تكوين الملف التاريخي
البيبليوغرافيا، النصوص والرحلات
الوثائق الأجنبية
الرواية
بطاقة معلومات أولية
دراسة المحيط الجهوي
الصور الجوية طلية أيام السنة ومقارنتها
جمع الصور المأخوذة أيام الحماية
دراسة التربة
المرحلة 1: التمهيد
دراسة الجغرافية القروية
محاولة المحافظة على الموقع
الدراسة الجيولوجية
الدراسة الهيدروغرافية
المسح الأثري
الوثائق الأجنبية
الرواية
لمحاولة تحديد المجال
الترميم
المعالم والقطع
الرفوعات الطبوغرافية
الرفوعات الهندسية
العصر الحديث
العصر الوسيط الأدنى
العصر الوسيط الأعلى
الحفريات
المرحلة 2: الأبحاث
الأبحاث الجيوفيزيائية
أسبار تجريبية + الطبقات الأثرية
الدراسات المعمارية للمدى البعيد
النقود
المعالم
الخزف
منوغرافيات
المرحلة 3: الدراسات
دراسة النتائج
الطبع والنشر

II- البدايات الأولى للبحث الأثري بمنطقة سجلماسة :

1- تنقيبات أثرية حول الجذور التاريخية :

كانت منطقة سجلماسة مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري الحديث على الأقل، ويؤكد ذلك وجود عدد من المواقع الأثرية تتخذ شكل تحصينات وتتضمن منازلا، وصخورا منقوشة، وحليا، وقطعا من بيض النعام وبعض الأدوات الحجرية. وعُرفت المنطقة خلال الفترة الممهدة للتاريخ، خاصة بمقابرها الجنائزية وبنقوشها الصخرية، ورغم اكتشاف العديد من هذه المعالم، فإن المنطقة مع ذلك تبقى في مجملها غير مكتشفة أركيولوجيا، كما أن التحريات الأثرية تركزت على بعض الكراكير فقط.

تعود الأبحاث الأثرية الأولى بمنطقة سجلماسة إلى سنة 1925 ميلادية وقام بها الكولونيل بلوان[5] le Colonel Belouin، تلتها تحريات رولمان[6] Armand Rulhmann في موقع كراكير tumulus[7] بضواحي أرفود سنتي 1936 و1938 ميلادية، ثم جاءت أبحاث جاك مونيي Jacques Meunié وشارل آلان Charles Allain بناحية الطاوس وحاسي البرابر[8] سنة 1955 ميلادية. تضاف إلى هذه الأبحاث المسح الأثري الذي قام به كل من كامو و ماركَات Camus et Albert Margat Jean سنة 1957 ميلادية بموقع البوية، حيث تم العثور على 1200 كركورا tumulus. وآخر الأبحاث حول المواقع ما قبيل تاريخية بالمنطقة قام بها الأستاذ الباحث يوسف بوكبوط في سنوات الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي

---

(5) Belouin (le Colonel) : "Notes sur la grotte de Tazougert", *Bulletin du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques.* 1925 (pp. CCXLIII-CCXLIV).

(6) Ruhlmann (Armand) : "Les recherches de préhistoire dans l'extrême sud marocain (les tumuli)", *Publications du Service des Antiquités du Maroc.* fascicule n° V, 1939 (pp. 42-51).

(7) كركور : جمع كراكير "tumulus" وهي بمثابة ركمة من تراب أو بناء حجري بشكل مخروطي فوق قبر.

(8) Meunié (J) et Allain (Ch.) : "Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême sud-est marocain", *Hespéris.* Tome : XLIII, 1956 (pp. 51-86).

وذلك في إطار تحرياته الميدانية حول السكن والمعالم الجنائزية بالمغرب خلال الفترة الممهدة للتاريخ(9). ويصنف الباحث المتخصص كامبس Gabriel Camps البعض من المعالم الجنائزية بتافيلالت ضمن الكركور ذات الحفرة(10). يقوم هذا الصنف بعزل غرفة الدفن وبتغطيتها كليا على حجم الكركور. أما كَزيل Stéphane Gsell فيعتمد على نمط كركور ذات الحفرة ليعطيها تاريخا معاصرا(11). ويشير سوفيل Souville(12) أن مدافن الموقع المسمى "غابة الحجر" بالقرب من مدينة أرفود تتضمن ثلاثة صفوف من الحجارة الواقفة والموضوعة على شكل دوائر مركزة يبلغ أكبر قطرها ستة أمتار.

ويميز كامو A. Camus و ماركَات J. Margat(13) بموقع البوية بين ثلاثة أصناف مختلفة من الكراكير : يتميز الصنف الأول بكثرة الانتشار وبأشكال مخروطية ذات قمة حادة وقاعدة دائرية ويبلغ قطرها ما بين أربعة وثمانية أمتار. يضم النوع الثالث الكراكير ذات أشكال مستديرة ومقاييس كبيرة، و يبلغ قطرها ما بين عشرة وخمسة عشر مترا، ويرافق هذا النوع شكل مستوي مستدير أو مربع يقع أمام المدخل بالجهة الشرقية ويمثل ربما طاولة تقديم الذبائح والقرابين. ويعرف النوع الثاني بالقلة وبأشكال مربعة أو مستطيلة مع مقاييس كبيرة تتراوح جوانبها ما بين عشرة وخمسة عشر مترا وتكون قمتها مستوية وترافقها دائما طاولات تقديم القرابين.

---

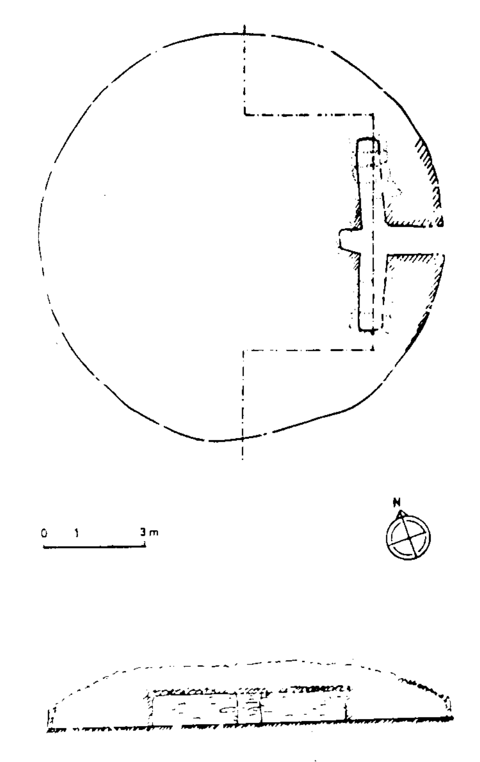
(9) Bokbot (Youssef) : *Habitats et monuments funéraires du Maroc protohistorique*. Université de Provence, Aix-Marseille I, Thèse du Doctorat en Archéologie Protohistorique, Janvier 1991. Cartes et figures dans le texte, 561 feuilles (dactylographiées).

(10) Camps (Gabriel) : *Aux origines de la Berbérie, monuments et rites funéraires*. Paris, édition AMG 1961. 172 figures, 24 planches, 628 pages (p. 74).

(11) Gsell (Stéphane) : op-cit. Tome : VI (p. 185 ; note 5).

(12) Souville (G) : "Los monumentos funerarios preislamicos de Marruecos", *Ampurias*. Tome : XXX, 1968. (p. 44).

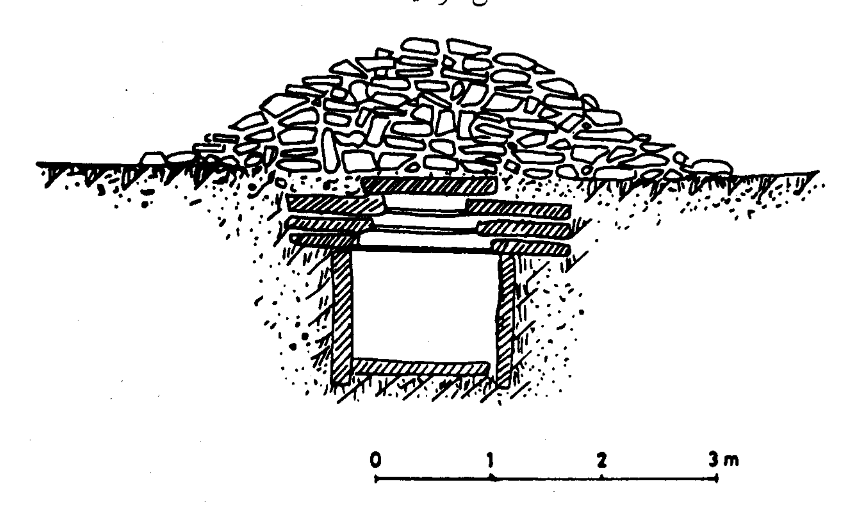
(13) Margat (J) et Camus (A) "La nécropole de Bouïa au Tafilalet", *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. Tome III, 1958-1959 (pp. 63-74).



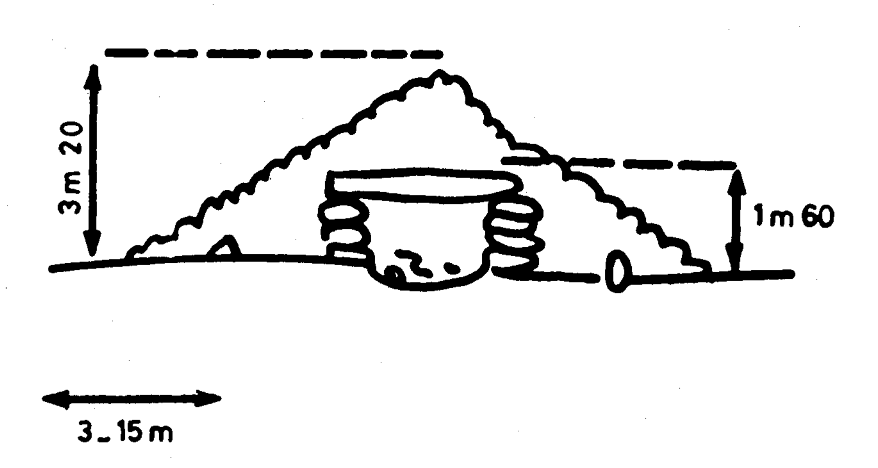
التصميم 2 : منطقة سجلماسة : موقع البوية (الكركور 1 / المقطع والتصميم)

المرجع : Bokbot (Youssef) : *Habitats et monuments funéraires du Maroc protohistorique* : Université de Provence Aix-Marseille I, Thèse du Doctorat, 1991

وبصفة عامة تعتبر الكراكير والمدافن ذات البنايات المعبدية أهم المعالم الجنائزية المعروفة بمنطقة تافيلالت، فهي مدافن بسيطة وعادية تتشكل من مجموعة من الأحجار الصلبة التي توضع فوق الجثة لإخفائها ووقايتها وحفظها. وقد يختلف الحجم، إلا أن الشكل يبقى في غالب الأحيان متشابها. وقد توضع الجثة بداخل الحفرة أو مباشرة فوق الأرض : ففي الحالة الأولى تغطي اللوحات الحجرية جميع جوانب الحفرة وأرضيتها وفوقها، بينما تتخذ المدافن ذات المعبد شكل بنايات تبنى بمجموعة من اللوحات المتشابكة توضع الواحدة فوق الأخرى وتعطي حائطا متماسكا. ويكون "المبنى عموما مستطيل الشكل أو دائري مخروط أو مسطح القمة يتراوح قطره ما بين أربعة وخمسة عشر مترا ويناهز علوه ثلاثة أمتار، ويوجد بالجانب الشرقي غالبا



رسم رقم 1 : أ : كركور به حفرة (رولمان 1939)



رسم رقم 1 : ب : كركور عادي (ماركات وكامو 59 ـ 1958)

التصميم 3 : منطقة سجلماسة : موقع البوية

المرجع : Margat (J) et Camus (A) : "La nécropole de Bouïa au Tafilalet", *Bulletin d'Archéologie Marocaine*, Tome III, 1958-59 (p. 68)

مدخل أو عدة مداخل، ومن ورائها بهو أو عدة ممرات قد يصل طولها أحيانا إلى ثلاثة أمتار... وفي بعض الحالات توجد مشكاة شعائرية في قاع الممر وهي عبارة عن حفرة صغيرة غير نافذة في الحائط[14].

وتشتهر منطقة سجلماسة كذلك بنقوشها الصخرية وخاصة بالموقع القريب من الطاوس وتنقسم هذه النقوش إلى ثلاث مجموعات : الأولى تضم بقرات وضباء تترافق بشخوص رسمت بشكل خطي. المجموعة الثانية تتضمن عربات خفيفة ذات عجلتين مرتبطتين بموردة وعريش متوسط لقرن أو ربط بدابتين وذات عريشين وخصصت لقرن أربعة بهائم. المجموعة الأخيرة تتكون من الكتابات اللبيية القديمة.

يرجع تاريخ المعالم الجنائزية والنقوش الصخرية بسجلماسة إلى الفترة الممهدة للتاريخ، أو بتعبير أدق إلى المرحلة النهائية من العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي المبكر. وتجدر الإشارة إلى "أن هذه البنايات المدفنية بأصنافها وأنواعها المختلفة، قد استمر وبدون انقطاع منذ ظهورها حتى مجيء الإسلام... مصدر هذه البنايات المدفنية يرجع في الأساس إلى الجنوب، وبالإجماع ينسبها جل الباحثين إلى القبائل الليبية ـ الأمازيغية التي كانت تقطن بالمناطق الجنوبية في القدم. ومن العوامل التي تدعم هذا الانتساب الكتابات الليبية المنقوشة على الصخور، بجانب العربات الخفيفة والحيوانات"[15].

وأخيرا تجدر الإشارة إلى التحريات الأولية بموقع جبل المدور الذي يعود إلى عصر ما قبيل التاريخ. الموقع المعروف بكدية المدورة يقع على بعد حوالي عشر

---

(14) الهجراوي (محمد عبد الجليل) : "تافيلالت خلال فترة ما قبل التاريخ"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى، دجنبر 1989 ص 335-342 (ص 329-333).

(15) مقداد (عبد السلام) : "تاريخ ومصدر البنايات المدفنية بمنطقة تافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى، دجنبر 1989 ص 335-342 (ص 340).

كيلومترات إلى الغرب من موقع سجلماسة. تتميز المدورة بموقعها الإستراتيجي الذي يتحكم في كل المجال المحيط به، كما يوفر حماية طبيعية خاصة وأنه على شكل طاولة منعزلة ذات حواف حادة يصعب صعودها. أغلب الآثار المتبقية تظهر على شكل جدران نصف مهدمة تتخللها بعض أبراج المراقبة، بينما يتميز السور الخارجي بالمتانة والصمود ويبلغ سمكه حوالي 1,20 مترا، علوه ثلاثة أمتار وهو يحيط بكل الموقع. كما يوجد بالموقع جداران يبلغ سمكهما 0,90 مترا ويقطعان الحافة ويميلان نحو الوسط، بينما يلاحظ وجود بقايا بنايات متتالية في القمة وكان هدفها بالدرجة الأولى الدفاع عن الحافة.

شيدت هذه البنايات من الحجارة الجافة وترتبط بواسطة الجبس، في حين بنيت الجدران بواسطة قطع حجرية ذات مقاييس موحدة. ويمكن أن نستنتج أن الموقع أستغل في فترة تاريخية معينة كمركز مراقبة أو كمحطة للقوافل التجارية. إلا أن وجود كركور tumulus من الحجارة اليابسة بأسفل الجبل في الجهة الشمالية، يمكن أن يقدم الدليل على أن الموقع قد عرف الاستغلال منذ زمن قديم يعود إلى فترة ما قبيل التاريخ مثلما هو الحال في مواقع مشابهة تقع غير بعيدة عنه.

صفوة القول تؤكد أغلب التحريات المنجزة بالمنطقة على أن التجمعات المهمة للمقابر كانت ترافقها دائما بقايا من أشكال البناء واللقى الأثرية التي يمكن حصرها في الأدوات البرونزية على شكل أساور وخواتم، وأوراق يبلغ قطرها سبع مليمترات وأنابيب، وحلي وشظايا حجرية وقطع عظمية وحديدية وزجاجية وأجزاء من بيض النعام، فضلا عن قطع خزفية كثيرة من النوع المصنوع يدويا ذي اللون البني أو الأحمر والذي عرف البعض منه تصقيلا في الواجهة الداخلية.

2ـ الأبحاث المساعدة :

أ) الدراسات الجامعية :

إذا كانت المصادر المكتوبة جد قليلة وشحيحة في وصفها لتاريخ سجلماسة ولعمرانها بشكل خاص، فإن الدراسات الجامعية حول هذا الموضوع تبقى هي الأخرى محدودة إذا قارناها من جهة بما كتب مثلا عن مدن معاصرة لسجلماسة مثل فاس أو مراكش، و بالنظر إلى الأهمية السياسية والاقتصادية التي حظيت بها المدينة طيلة تاريخها من جهة أخرى. إذ لا تتعدى الدراسات المنجزة حول سجلماسة ستة أساسية، أعد أغلبها "خمسة" بجامعات فرنسية، وهي كرونولوجيا كما يلي :

• الدراسة الأولى عبارة عن أطروحة لنيل دكتوراه الدولة من جامعة السوربون بباريس، أنجزها الجغرافي فرناند جولي Fernand Joly حول الخصائص الجيولوجية والفيزيائية لمنطقة الجنوب الشرقي المغربي «Etudes sur le relief du Sud-Est marocain»[16]. وهي دراسة قيمة تتضمن معطيات هامة خاصة الخرائط، وتعد بذلك مرجعا أساسيا لكل الباحثين حول هذه المنطقة.

• العمل الثاني يعتبر هو أيضا أطروحة من جامعة السوربون أعدتها الباحثة دجين جاك ـ مونيي Djinn Jacques-Meunié حول التاريخ العام للواحات المغربية الثلاثة الكبرى : سوس، ودرعة وتافيلالت «Le Maroc saharien des origines à 1670»[17] هذه الدراسة التي لم تقتصر على الجوانب التاريخية

---

(16) Joly (Fernand) : *Etudes sur le relief du Sud-Est marocain.* Rabat, imprimerie de l'Agdal, 1962. Travaux de l'Institut Scientifique Chérifien, série géologie et géographie physique, n° : 10. Université Paris Sorbonne, Thèse du Doctorat d'Etat en Géographie 1962. Cartes, tableaux et figures dans le texte dont 4 hors texte, XII planches hors texte et 4 cartes dépliées, 578 pages (p. 265).

(17) Jacques-Meunié (Djinn) : *Le Maroc Saharien des Origines à 1670, avec 55 documents photographiques.* Paris, édition C. Klincksieck, 1982, Université Paris Sorbonne, Thèse du doctorat d'Etat en Histoire 16 juin 1975. Deux volumes, cartes et figures dans le texte, 991 pages.

فحسب وإنما تناولت أيضا المظاهر الاجتماعية والمعمارية، بقيت إلى اليوم المعتمد في الأبحاث اللاحقة الخاصة بهذه المناطق شبه الصحراوية.

• الدراسة الثالثة اهتمت بتاريخ تافيلالت في القرنين 17 و18 م من خلال تحليل أربعة وثائق محلية جديدة »: Contribution à l'histoire du Tafilalet aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au XVII° et XVII° siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits »[18] وهي عبارة عن رسالة تقدم بها الأستاذ العربي مزين لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة باريس 1 سنة 1977. وهي رسالة حاولت أن تبرز جوانب دفينة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية لسكان قصور تافيلالت (الكَارة بأوفوس) وذلك اعتمادا على دراسة الاتفاقيات العرفية المحلية والمعروفة ب"تعقدين". واعتبارا لأهمية هذه الدراسة، عملت كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس الرباط/أكَدال، بطبعها لتسهيل تداولها[19].

• العمل الرابع يتعلق برسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من جامعة إكس-مرسيليا 1 (عام 1985) : « Contribution à l'étude de l'histoire des villes médiévales marocaines : Sigilmassa des origines à 668 (H)/1269 (J.C) » أنجزه الأستاذ محمد الملوكي[20] في محاولة لإماطة اللثام ولأول مرة عن التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمدينة سجلماسة منذ الجذور إلى نهاية الدولة الموحدية حوالي سنة 1269م.

---

(18) Mezzine (Larbi) : *Contribution à l'histoire du Tafilalet : aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au XVIIème et XVIIIème siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits.* Université Paris I, Thèse de 3? cycle en Histoire 1977. Trois volumes, Tableaux, 2 photos et 3 cartes dépliées hors texte, X+736+69 pages dactylographiées.

(19) Mezzine (Larbi) : *Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII° et XVIII° siècles.* Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida 1987 (387 pages).

(20) Mellouki (Mohamed EL) : *Contribution à l'étude de l'histoire des villes médiévales marocaines : Sigilmassa des origines à 668 (H)/1269 (J. C).* Université de Provence, Aix-Marseille I, Thèse de 3° cycle en Etudes et Civilisation Islamiques 1985. Figures et cartes dans le texte, X+511 pages dactylographiées.

• الدراسة الخامسة قام بها الأستاذ حسن حافظي علوي لنيل دبلوم الدراسات العليا - تخصص تاريخ المغرب الوسيط - من جامعة سيدي محمد بن عبد الله - ظهر المهراز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس سنة 1986. هذه الرسالة درست بالتحليل والاستقراء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بسجلماسة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[21]. وهي الدراسة التي قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بطبعها لتعميم فائدتها.

• الدراسة الأخيرة هي الرسالة التي تقدم بها عبد ربه لنيل الدكتوراه الموحدة (الجديدة) من جامعة إكس - مرسيليا 1 (سنة 1989) تحت عنوان : "دراسة إثنو - أثرية لخزف تافيلالت (سجلماسة)" «Etude ethnoarchéologique de la céramique du Tafilalet (Sijilmassa) : état des questions»[22]. هذا العمل وإن كان ذا طابع أركيولوجي محض، فقد تناول أيضا معطيات تاريخية وعمرانية وإثنوغرافية اعتمادا على تسلسل كرنولوجي يمتد من تأسيس سجلماسة سنة 140 هجرية/757 ميلادية إلى غاية الاحتلال الفرنسي للمنطقة سنة 1932 ميلادية.

كما يمكن إدراج بعض التنقيبات والدراسات التي اهتمت أساسا بالعمارة العلوية والتي أنجزها كل من مونيي (J) Meunié وجاك مونيي (د) (D) Jacques-Meunié، وصدر أغلبها على شكل مقالات بمجلة هسبيريس Hespéris بوجه خاص. ويمكن على سبيل المثال لا الحصر، ذكر الحفريات الأثرية التي أجراها الباحثان بقصبة الريصاني سنة 1959 ميلادية، إذ عثر على "صحن جميل زينت

(21) حافظي علوي (حسن) : **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1997 (485 صفحة).

(22) Taouchikht (Lahcen) : *Etude ethnoarchéologique de la céramique du Tafilalet (Sijilmassa) : état des questions*. Aix-en-Provence, Université de Provence, Aix - Marseille I, Thèse de Doctorat en Archéologie médiévale 1989. Deux volumes, 1° volume : Texte (459 feuilles dactylographiées) 2° volume : planches et illustrations.

جوانبه بعدة بقايا من الزخارف المنقوشة على شكل عقود وتشبيكات هندسية مزينة بنخلات ملساء وزهور، ويعتقد أن هذا الصحن يؤرخ بالفترة المرينية ما بين أواخر القرن 13 ميلادية والسنوات الأولى من القرن 14 ميلادية"[23].

ب) تحريات أثرية بمواقع الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى :

*** أبحاث رايمون موني Raymond Mauny[24] :**

أنجز هذا الباحث المتخصص، في إطار مشروعه الخاص بالكشف عن خبايا اقتصاد غرب إفريقيا خلال "العصور الوسطى"، عدة أسبار ومسوحا أثرية في المواقع التالية : ساني (عشر كيلومترات شرق كَاو) في فبراير 1952 ميلادية، وكَاو سنة 1950 ميلادية وسنة 1952 ميلادية، وسوق إفورة أو تادمكة سنة 1952 ميلادية، وكامبي صالح عام 1952 ميلادية، وأزليك أو تكادة سنة 1952 ميلادية وأودغشت سنة 1960 ميلادية. وقد توصلت هذه الأبحاث إلى حقيقة وجود تجارة مهمة في الآنية الفخارية المغربية والموجهة لبلاد السودان. هذا الفخار يتميز بطلائه الأخضر اللامع ويشبه إلى حد كبير الفخار الذي كانت تنتجه معامل الخزف السجلماسي.

*** أبحاث سانتو- بارا Sintiou-Bara بنهر السنيغال (عام 1978)[25] :**

أشرف عليها ج. تيلمان G. Thilma، ورافيس A. Ravisse ودونيس روبير D. Robert وقد كشفت هذه الأبحاث عن وجود قطع فخارية سجلماسية وخاصة في الأسبار التي يفوق عمقها عشرة أمتار. وهي أواني تعود إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وتتزامن بالضبط مع أوج ازدهار سجلماسة خلال تحكم المرابطين في كل محاور ومراكز التجارة الصحراوية.

(23) Terrasse (H) : "Note sur les ruines de Sijilmassa", op-cit (p. 586 et p. 588).
(24) Mauny (Raymond) : *Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen-Age d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie*. Dakar, I.F.A.N. N° 61 ; 1961 (587 p).
(25) Thilmans (G), Ravisse (A) et Robert (D) : "Découverte d'un fragment de poterie à Sintiou - Bara (fleuve de Sénégal)", *Notes Africaines*. N° 159 ; 1978 (pp. 59-61).

*** أبحاث أودغشت بموريتانيا الشرقية (1962-1965)[26] :**

أجريت هذه الأبحاث تحت إشراف الباحث جون دوفيس Jean Devisse، وشارك فيها الباحثان دونيس وسيرج روبير Denise et Serge Robert، وكشفت عن أهمية أودغشت كمدينة كبيرة تضم ثلاث مجالات عمرانية أساسية وهي : الأحياء السكنية، ومركز الصنائع، والقلب النابض حيث يوجد المسجد الجامع، ودار الإمارة والأسواق. كما أوضحت الحفريات عن وجود عدة طبقات استراتيغرافية والمؤرخة ما بين القرن الأول الهجري/السابع الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. وحسب أحد الباحثين[27] يمكن الكلام عن أربع طبقات : الأولى تسمى ما قبل حضرية بين القرن الأول الهجري/السابع الميلادي والقرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، الثانية هي الفترة الحضرية المبكرة التي تمتد من منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. الطبقة الثالثة تدعى الحضرية الثانية تؤرخ ما بين 1050 و1200 ميلادية، والطبقة الأخيرة هي مرحلة التدهور العمراني وتمتد من منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

فيما يخص المكتشفات، تم العثور خلال هذه الأبحاث على كميات هائلة من اللقى الخزفية سواء منها تلك المنتجة محليا أو المستوردة من المعامل المغربية والأندلسية. وبذلك تأكد لأول مرة وجود تبادل تجاري نشيط في الأواني الفخارية بين ضفتي الصحراء. ويدل ذلك كذلك على "أن طلبا مهما وبيعا مفيدا ألزم التجار بقبول المخاطرة في تلبية حاجيات وأذواق أفراد الجاليات

(26) Devisse (J), Robert (D et S) : *Tegdaoust, recherche sur Aoudaghost*. Paris, édition Arts et Métiers Graphiques 1978 (159 pages). *Campagnes 1960-1965, enquêtes générales*. Paris, édition Recherche sur les Civilisations 1983 (569 pages).

(27) Louhichi (Adnène) : *La céramique musulmane d'époque médiévale importée à Tegdaoust, étude archéologique, étude de laboratoire*. Université Paris 1, Thèse 3° cycle en Art et Archéologie 1984 ; 309 feuilles dactylographiées (p. 75).

الشمال إفريقية القاطنة ببلاد السودان من الأواني الكمالية بل والقابلة للانكسار في أي وقت"[28].

وكانت القطع المصدرة إلى أودغشت في معظمها ذات استعمالات منزلية مثل الجرات، والصحون، والقارورات، والفناجين وخاصة القناديل الزيتية. وكانت كذلك غالبا ما تزين بطلاء أخضر لامع وتصنع بطريقة دقيقة. وكلها مميزات اختصت بها صناعة الفخار السجلماسي، وبالفعل أبانت التحليلات المخبرية لبعض هذه القطع في مختبر الخزفيات بليون بفرنسا، أن أكثر من خمسين في المائة من الفخار المكتشف بموقع أودغشت جلبت من معامل سجلماسة. ذلك "أن كثرة معامل صناعة القناديل الزيتية ذات الوعاء المخروط الشكل، يمكن أن تكون صناعتها الأساسية بسجلماسة وناحيتها وهي القريبة فعليا من بلاد السودان"[29]. هذه الإشارة تم تأكيدها من خلال العثور بموقع سجلماسة على عدة أنواع مماثلة من هذه القناديل ذات الطلاء الأخضر.

كما ساهمت مديريتي الآثار بالمغرب والجزائر في إنجاز دراسة مخبرية للقطع الخزفية التي اكتشفت بموقع أودغشت والمستوردة ما بين القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي والقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. بالنسبة للخزف المطلي، قدمت الأبحاث عدة معلومات هامة : فأكثر من خمسين في المائة من اللقى المدروسة تنتمي لآنية مصنعة بمنطقة سجلماسة، بينما لا توجد أية قطعة من تاهرت وجاءت ما بين عشرة واثنا عشر في المائة من منطقة القيروان. نفس التأكيد جاء هذه المرة من موقع تامدولت بناحية زاكَورة بالجنوب الشرقي المغربي، إذ تم العثور على عدة لقى يرجع مصدرها إلى سجلماسة. وبصفة عامة فإن صادرات هذه الأواني الخزفية تعود إلى

---

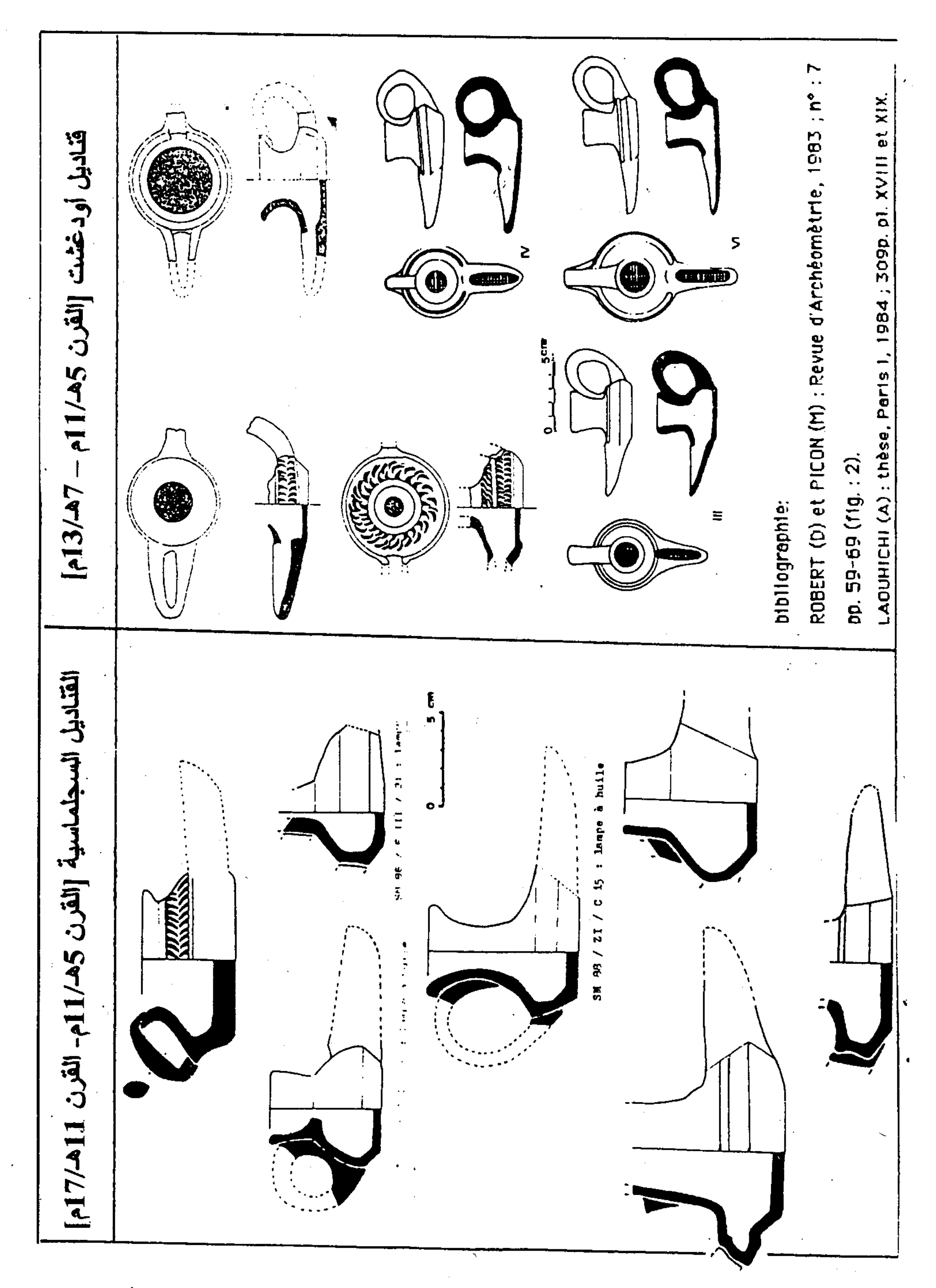
(28) Robert-CHaleix (D) : "Lampes à huile importées découvertes à Tegdaoust, 1er essai de classification", *Journal des Africanistes*. Paris, Tome : 53 ; 1983 (p. 62).
(29) Robert-CHaleix (D) : op-cit (p. 91).

الفترات الإسلامية الأولى[30]. ويذكر أحد الباحثين الفرنسيين أن العملة المسكوكة كانت غالبا ما تصدر نحو الشمال بينما كان الخزف يوجه نحو الجنوب مقابل ذهب بلاد السودان كما أن كميات مهمة من الأواني الخزفية كانت تستهلك من طرف الجالية المغربية بإفريقيا السوداء[31].

خلاصة :

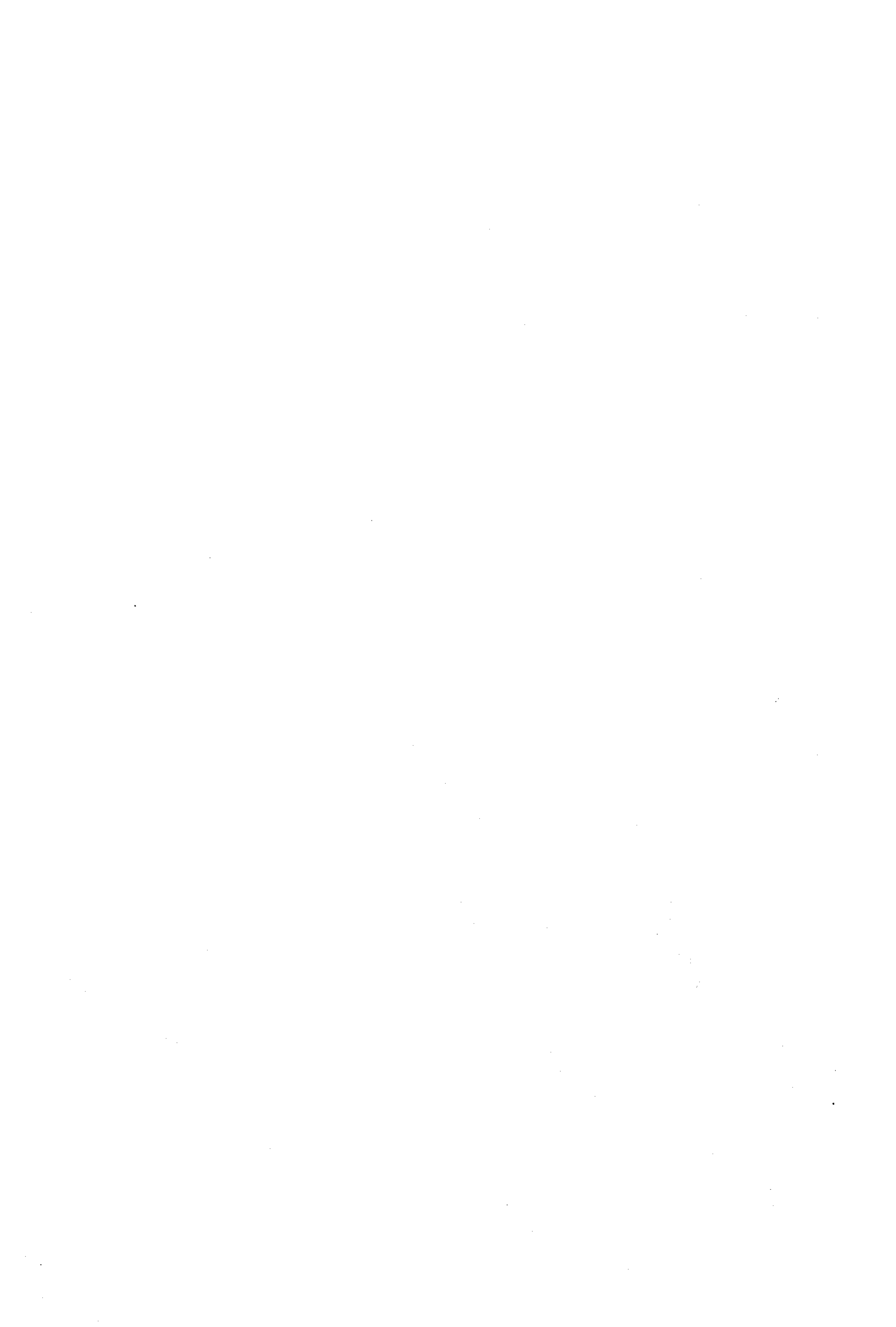
قدمت الدراسات والتحريات الأولية بمنطقة سجلماسة وخاصة منها أبحاث أودغشت الدليل الواضح عن الأهمية الأثرية الكبيرة لموقع سجلماسة. ويظهر ذلك بجلاء في صناعة الفخار من جهة وفي الدور البارز الذي لعبه هذا الفخار في تجارة القوافل الصحراوية من جهة ثانية ومن ناحية ثالثة في مدى التأثيرات الفنية والتقنية لهذا الفخار. بحيث أقبل السودانيون وخاصة الجالية المغربية هناك على شراء هذا الفخار بكثرة وبدون تردد في الأثمان، مما شجع تجار القوافل على المغامرة في نقله قصد تلبية الطلبات المتعددة لهذا الفخار. كما حاول الحرفيون المحليون تقليد هذه الصناعة بل وفي فترة لاحقة طبعوها بطابعهم الإفريقي المحلي وخاصة فيما يهم الأشكال والعناصر الزخرفية المعتمدة أساسا على الحزوز والنتوءات. وإجمالا تجدر الإشارة إلى أن "حفريات أودغشت، وكامبي صالح، وجيني جينو، وبيغو، وكونغ مكنت من طرح الكثير من الأسئلة وأيضا من الإجابة نسبيا عن بعض الإشكاليات" وخاصة منها المتعلقة بالدور الفعال الذي لعبته سجلماسة في التجارة الصحراوية وفي العلاقات المغربية السودانية.

(30) Devisse (Jean) : “Sijilmassa : les sources écrites, l’archéologie, le contrôle des espaces”, *IV° Colloque Euro-africain*. op-cit (p. 19).
(31) Devisse (J) : op-cit (p. 20).
(32)



الرسم 1 : مقارنة بين القناديل الزيتية التي عثر عليها بموقعي سجلماسة وأودغشت

المرجع : Taouchikht (Lahcen) : *Etude ethnoarchéologique de la céramique du Tafilalet (2° volume)*



المبحث السادس :

حصيلة البحث الأثري بموقع سجلماسة

تقديـــم :

استطاعت الحفريات الأركيولوجية بموقع سجلماسة وخاصة بأنقاض المسجد الجامع، أن تكشف إجمالا النقاب عن مستويات أثرية مختلفة يمكن جزافا تحديدها في أربعة :

- مستوى الإمارة السجلماسية والذي يعود إلى ما قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.
- المستوى الثاني يرجع إلى عصور المرابطين والموحدين والمرينيين [القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ـ نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي].
- المستوى الثالث ويمثل مرحلة ما بعد تخريب المدينة وإلى غاية تشييد القصبة السجلماسية [بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ـ نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي].
- المستوى الأخير ينتمي إلى مرحلة القصبة السجلماسية [نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي ـ بداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي].

I. التنقيبات الأثرية الأولى بالموقع :

ترجع التحريات الأركيولوجية الأولى بموقع سجلماسة إلى بداية عقد السبعينيات من القرن العشرين وكانت الانطلاقة تحت إشراف مصلحة الآثار القديمة بالرباط التي أقدمت سنة 1970 ميلادية على إنجاز حفريات على شكل أسبار ولكن دون أن يتبعها أي تقرير عن الحصيلة. وفي نفس العام أجريت كذلك مسوحا من طرف بعثة من معهد بريسكوت Prescott College تحت مسؤولية مؤسسة سميت ـ سون Smithsonian Institution ولكنها لم تقدم أي نتيجة أو متابعة.

1 ـ الحفريات الإيطالية (1971ـ1972 ميلادية) :

تعتبر من أهم وأولى الحفريات بسجلماسة، وأشرفت على إنجازها مؤسسة لودويك كيمر دي بازيليا "la Fondation Ludwig Keimer de Basilea" تحت رئاسة الباحث بوريس دي راشويلتس Boris de Rachewiltz. وهمت هذه الأبحاث التي أجريت في موسمين، المركز الأوسط والمنطقة الشمالية للموقع قرب قصر المنصورية الحالي والأبواب التاريخية الثلاثة المجاورة له :

أ) الموسم الأول (من 29 مايو إلى 3 يوليو 1971 ميلادية) :

تميزت هذه البعثة بكونها كانت مختلطة، مغربية ـ إيطالية[33] ، وذات تخصصات متعددة فضلا عن كونها استعملت معدات تقنية جد متطورة في

(33) أعضاء البعثة : الجانب الإيطالي يتشكل من بوريس دي راشويلتس Boris de Rachewiltz : مدير الأبحاث، وباولو بارزي Paolo Parisi من جامعة روما : اهتم بالبحث الأنثروبولوجي والجينات، وبيو فيليباني ـ رانكوني Pio Filippani-Ronconi من المعهد الجامعي الشرقي بنابولي : تخصص في البحث التاريخي والانثولوجي، وفرانكو برانكاليوني Franco Brancaleoni من مؤسسة Fondation Lerici : في الدراسة الجيوفيزيائية، وسيكفريد والتر دي راشويلتس Rachewiltz Siegfried Walter de من جامعة هارفارد University Harvard بالولايات المتحدة الأمريكية : مساعد. أما الجانب المغربي فيضم الحاج الهادي : من المتحف الأثري بالرباط، =

البحث، مثل نظام المسح الميغناطيسي والكهربائي، وآلات الرفوعات الفوتوغرافية بواسطة الموجات أو الأشعة فوق الحمراء. وتركز أبحاث هذا الموسم على منطقتين أساسيتين تقع أولاهما بالقرب من الآثار الحالية المتبقية من القصبة السجلماسية وتوجد الثانية على بعد حوالي 1200 مترا إلى الشمال من الأولى. واعتمدت في هذه الأبحاث التقنيات التالية :

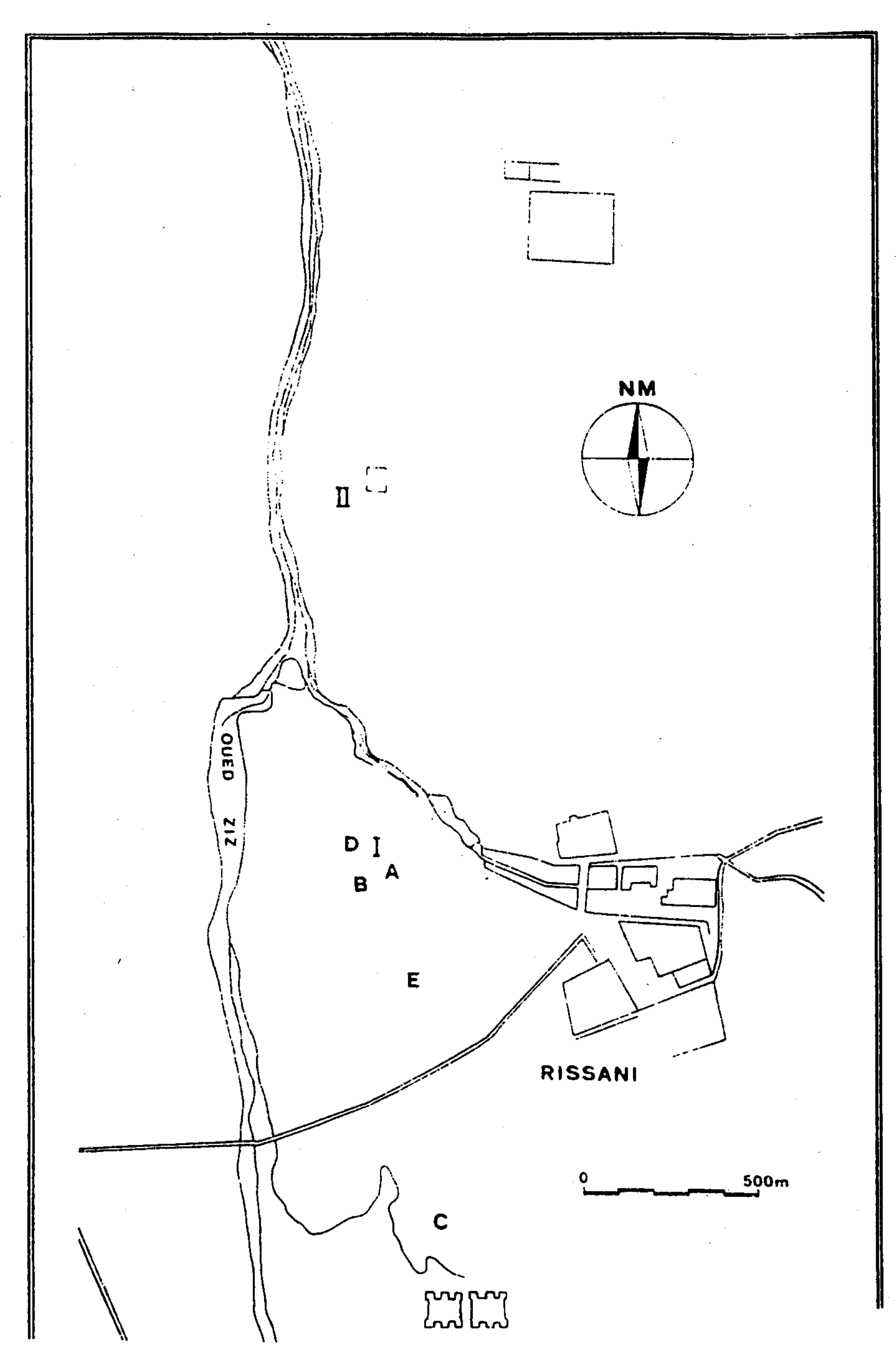
– المسح المغناطيسي من نوع «Assotuto Elsec» لقياس المسافة الطويلة وإنجاز مقاطع لكل متر.

– المسح الكهربائي المعتمد على نظام «Wenner L et B» مع مسافات كهربائية لكل متر. ونظرا لصلابة التربة، فقد أُنجزت حفرة لكل عملية مسار électrode تفاديا لقوة التصادم العالية جدا.

قدمت هذه التحريات عدة نتائج يمكن تلخيص أهمها حسب المنطقة وحسب التقنية المعتمدة كما يلي :

• **المنطقة الأولى** : اختيرت هذه المنطقة أساسا من أجل التحري حول إمكانية الوسائل الجيوفيزيائية المستعملة في إبراز تشكيلات معمارية من نفس النمط الذي كشفت عنه الحفريات من جهة ومن جهة أخرى التحقق من وجود تكوينات أكثر صلابة من الأولى. المسح المغناطيسي والكهربائي توصلا إلى نفس النتيجة ما عدى بعض الاختلافات الطفيفة والناتجة عن الطبيعة الجيولوجية للقشرة السطحية للتربة والمتكونة من ترسبات الطمي المختلط بالحصى.

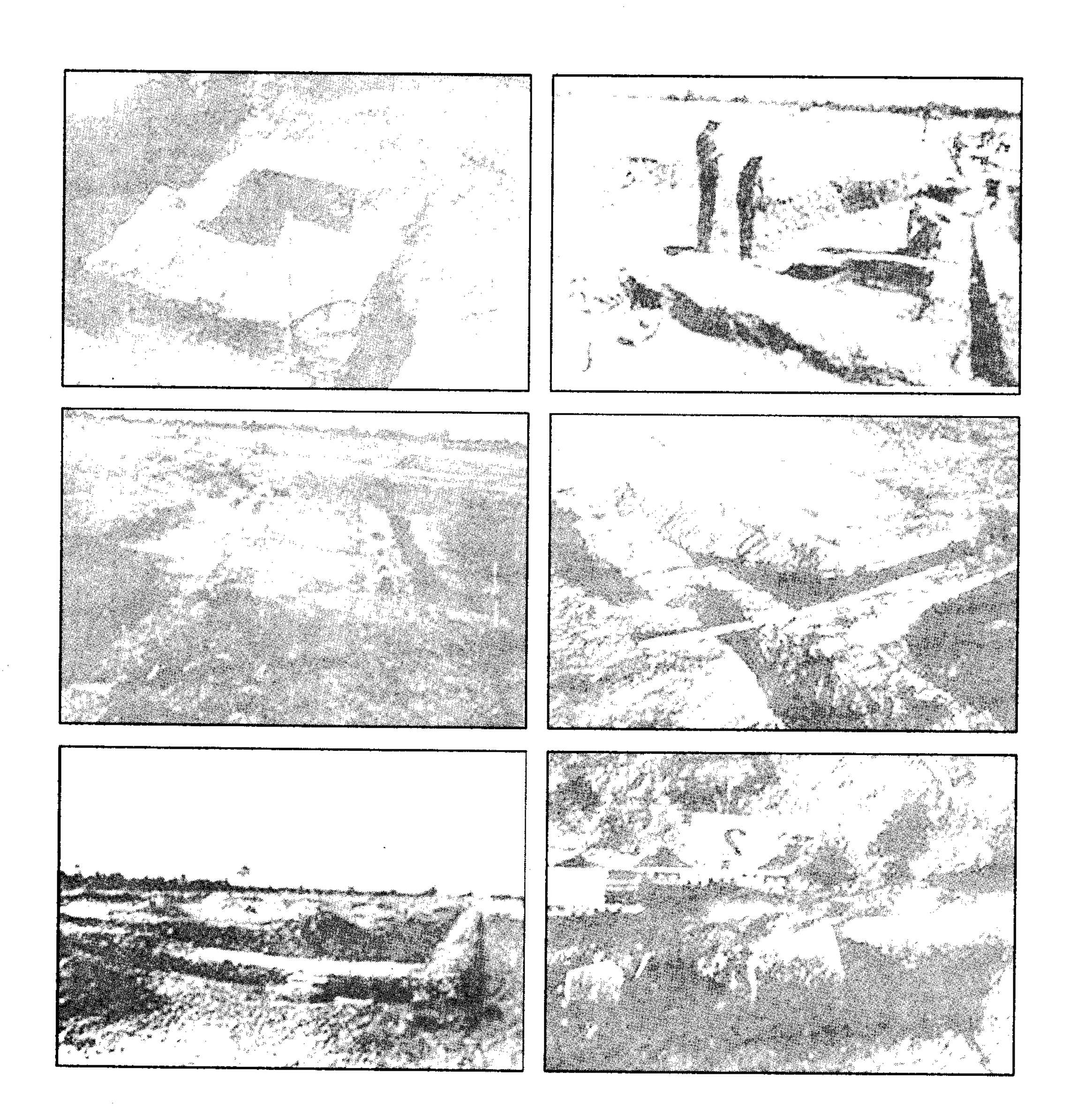
= ومولاي أحمد العلوي : من مفتشية المباني التاريخية بمكناس، وعبد المالك السليماني : من مصلحة الآثار المغربية، والمهدي بكاري : من نفس المصلحة، ومحمد بنشمسي : مفتش المباني التاريخية بمكناس، وحسن عبد الرحمان أبو مهدي : مرشد من منطقة تافيلالت.



الخريطة 6 : موقع سجلماسة الأثري : خريطة الحفريات الإيطالية

E-A : الأسبار   II-I المسوح الجيوفيزيائية

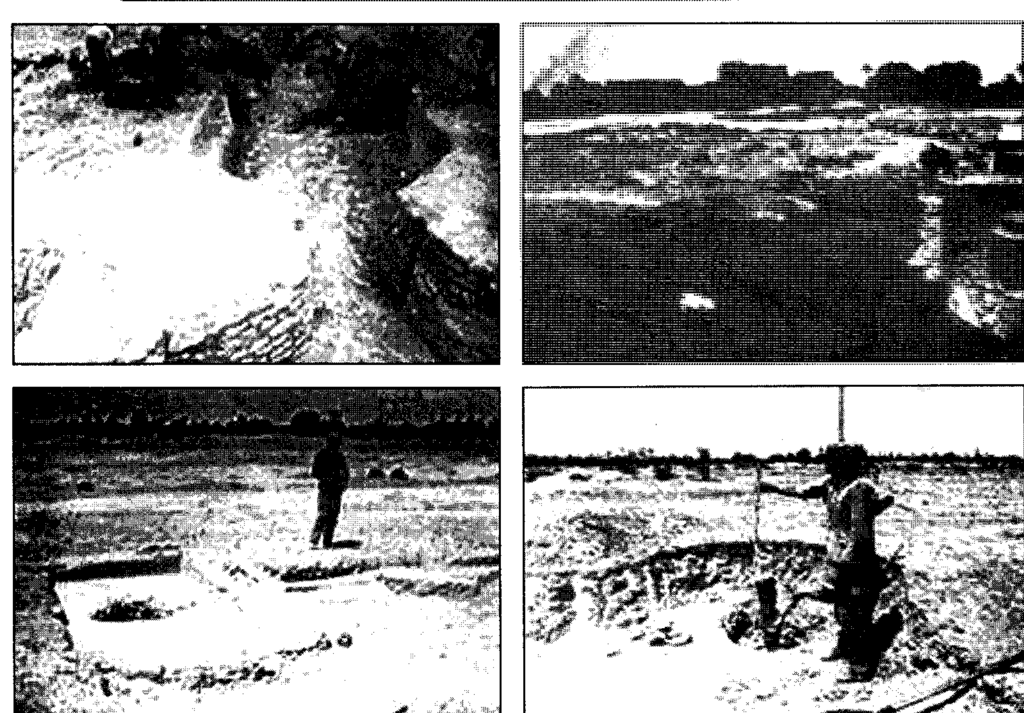
المرجع : Rachewiltz (Boris de) : "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", *Quaderni delle Rivista "Africa"*. Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20 illustrations dans le texte et 10 figures hors texte (pp. 519-568)



الصورة 4 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الإيطالية

المرجع : Rachewiltz (Boris de) : "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", *Quaderni delle Rivista "Africa"*. Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20 illustrations dans le texte et 10 figures hors texte (pp. 519-568)





الصورة 5 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الإيطالية

المرجع : Rachewiltz (Boris de) : "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", *Quaderni delle Rivista "Africa"*. Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20 illustrations dans le texte et 10 figures hors texte (pp. 519-568)

• **المنطقة الثانية** : وفيها استعملت البعثة نوعين من المسوح، الأول مغناطيسي ذي مقاطع تبلغ بالتوالي 71 مترا، و59 مترا و50 مترا، فضلا عن أخذ 183 قياسا في المجموع. نتائج هذه التقنية ظلت متشابهة عموما مع مثيلاتها بالمنطقة الأولى. المسح الثاني من الصنف الكهربائي توصل إلى متغيرات مهمة، مما دفع إلى القيام بمجموعة من المقاطع ذات 20 متر على 60 متر مع 11 صفا يبلغ الفرق فيما بينها مترين. إلا أن قياس قوة التصادم المحصلة بقي عموما منخفضا، و لم تكن الاختلافات الصغيرة ذات معنى.

إلى جانب هذين المسحين، أجريت بالمنطقة خمسة أسبار ذات عمق يتراوح بين 0,30 و5 أمتار. وتم الكشف فيها عن عدة تشكيلات معمارية متقابلة والمشيدة في أغلبها من الطابية، إلا أن معظم الطبقات الأثرية لم تقدم أي جديد ذي أهمية ما عدى ركامات من التراب البني المختلط أحيانا مع الحجارة. وهي توضعات على شكل طبقات غير واضحة المعالم وفقيرة إلى اللقى الأركيولوجية. وتتجلى أهم اكتشافات البعثة في حوض مائي كبير، وبقايا سور، والقرميد، وعظام بشرية وبعض القطع الخزفية...

وتجدر الإشارة إلى أن البعثة المغربية ـ الإيطالية أنجزت أيضا عدة أبحاث تكميلية كالبحث الإثنولوجي في كثير من القصور الفيلالية والدراسة الأنثروبولوجية والجينية [الاجتماعية والديموغرافية، والفيزيولوجية والمورفولوجية].

ب) الموسم الثاني (من 28 مارس إلى 7 مايو 1972 ميلادية) :

تركزت الأبحاث الأثرية خلال هذا الموسم[34]، على المنطقة الشمالية لموقع سجلماسة قرب الباب التاريخي المعروف ب"باب الريح" وقرب حوض بن

(34) وتكونت البعثة في هذا الموسم من : الجانب الإيطالي ويضم بوريس دي راشويلتس de Rachewiltz Boris : مدير الأبحاث، وفيتوريو كاستيلاني Vittorio Castellani من جامعة روما والمركز الوطني للأبحاث C.N.R : مسؤول المسح الجيوفيزيائي، وباولو بارزي Paolo Parisi =

زيريك. ومن أجل الحصول على المعلومات الأولية حول الكثافة الكهربائية للطبقات الأثرية، ثم إجراء مسح كهربائي بواسطة نظام قياس موجات التيار «volt à ampèremètre». إذ تقوم الوسائل المستعملة بقياس الفرق والضغط الناتج عن المسارين الكهربائيين المغروسين في الأرض. كما يساعد هذا النظام على قياس كثافة المسارين الآخرين الموازيين للسابقين، لكن في وضع خارجي. فيما يخص القياس، استعملت البعثة وسيلة قياس الغلاف مع خيط من الذهب «galvanomètre à fil d'or» هذا المسح أدى إلى إبراز الطبقات الأركيولوجية المختلفة التي تم حفرها فيما بعد قصد تحديد البقايا الأثرية الموجودة بداخلها. وأجري المسح الكهربائي بأربع مناطق متنوعة :

• **المنطقة الأولى** : تقع جنوب حوض بن زيريك، وفيها تم إنجاز ثلاثة صفوف متفرقة بثلاثة أمتار. وأثبتت هذه العملية وجود مؤشر خفيف في الشمال الشرقي للمنطقة، والذي أكده مسح أخر من 20 مترا على متر واحد.

• **المنطقة الثانية** : تقع شمال حوض بن زيريك وفيها أظهر مسح من 20 مترا على مترين وجود تشكيل أثري، إلا أن الاستبار من متر واحد على مترين والذي أنجز وسط هذا المؤشر لم يؤكد شيئا. وأجري مسح أخر من سبعة صفوف ذات 60 مترا على 3 أمتار شمال هذه المنطقة. وأثبت وجود أثرين، الأول في اتجاه الشرق والثاني في اتجاه الشمال الغربي. في أقصى الغرب، تم الكشف عن مؤشر أخر والذي أكده مسح ثان من 20 مترا.

= من جامعة روما : اهتم بالبحث الأنثروبولوجي والجينات، ولويجي سيرا Luigi Serra من المعهد الجامعي الشرقي بنابولي : اهتم بالبحث الإثنولوجي والدراسة الأمازيغية، وفيتوريو كالوا Vittorio Caloi (C.N.R) وألدو فينييتي Aldo Vigniti، وسيكَفريد والتر دي راشويلتس S. de Rachewiltz : مساعدون، أما الجانب المغربي فيتكون من الحاج الهادي من المعهد الأثري بالرباط ومولاي أحمد العلوي من مفتشية المباني التاريخية بمكناس.

• **المنطقة الثالثة** : وهي خالية من الركام الترابي، مما سمح بإجراء مسح دقيق إلى حد ما. وأكد هذا المسح المتكون من 14 صفا ذات 20 مترا على متر واحد والمتباعدة بمترين، وجود تشكيلة مهمة في الجهة الغربية للمنطقة.

• **المنطقة الرابعة** : وتتكون من ركام ترابي، و لم يجرى فيها إلا مسح صغير من 5 صفوف ذات 45 مترا على متر واحد وفوارق متنوعة. ومع ذلك تم الكشف عن مؤشر مهم بالجهة الشرقية منها.

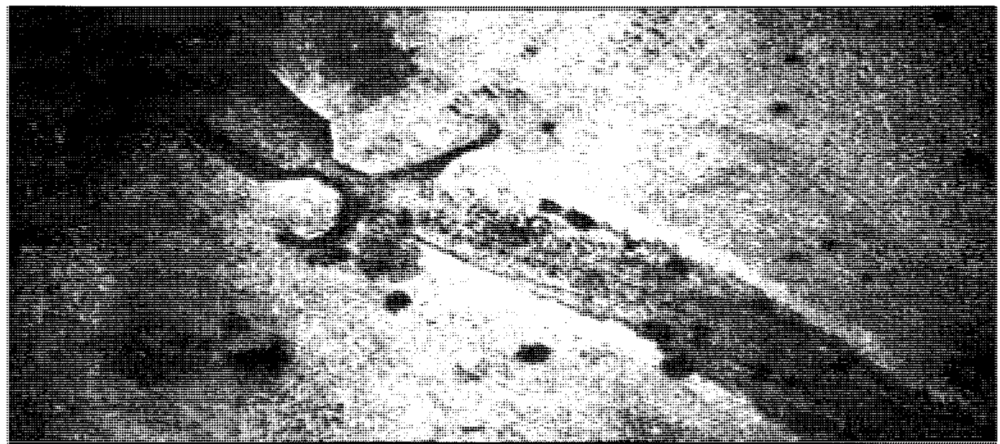
بصفة عامة، كشف المسح الكهربائي للمناطق الأربعة السالفة الذكر عن مؤشرات مهمة، أهمها أن تكوين التربة متنوع جدا بفعل ترسبات وادي زيز. وأكدت هذا التنوع الأسبار المنجزة في هذه المناطق. و لم يسمح هذا التكوين من الرمل والحجارة خاصة، بالتمييز بين الطبقات الأثرية وبالخصوص في المنطقة الثالثة بسبب التوضعات الناتجة عن فيضانات وادي زيز. وبالرغم من هذه الصعوبة، يعتبر المسح الكهربائي من الوسائل الضرورية التي تساعد على الكشف مسبقا عن الأماكن التي يمكن أن تنجز فيها الحفريات الأثرية.

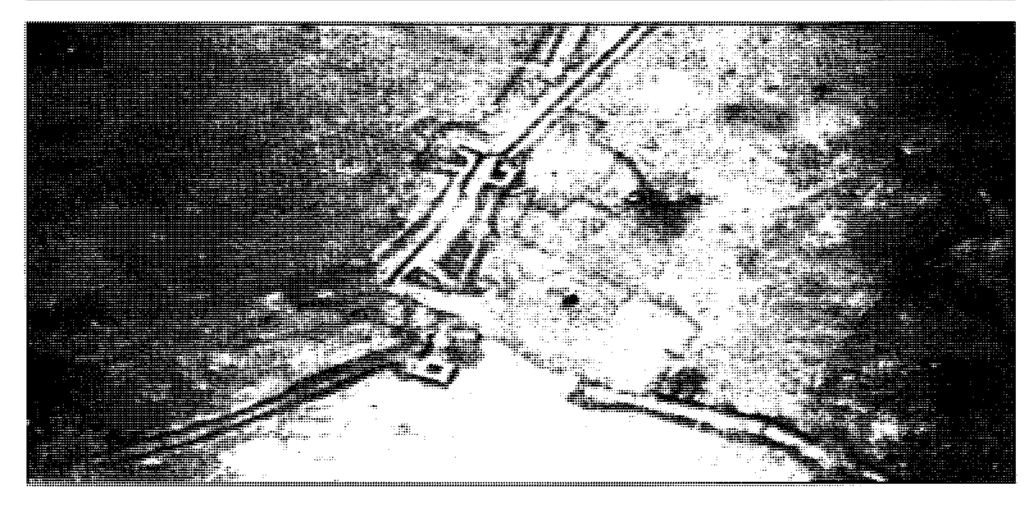
وعثر خلال الحفريات التي اتخذت شكل أسبار عن عدة بقايا أركيولوجية منها : شبكة من القنوات المائية، ونباتات مفحمة، وسد تلي صغير، وقنطرة، وحديقة من الطراز الأندلسي، ونافورة جميلة، وعظام بشرية، وزجاج، وحلي ولقى خزفية وخاصة من الزليج والفسيفساء.

وتجدر الإشارة كذلك إلى الأبحاث الموازية التي أنجزت خلال الموسم الثاني من البعثة المغربية ـ الإيطالية ويتمثل أهمها في :

– الدراسة الطبوغرافية وكشفت عن أهم التشكيلات وخاصة الأثرية لموقع سجلماسة [أحواض، وقنوات مائية، ومساكن...]،







الصورة 6 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الإيطالية

المرجع : Rachewiltz (Boris de) : "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", *Quaderni delle Rivista "Africa"*. Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20 illustrations dans le texte et 10 figures hors texte (pp. 519-568)

- المسح الجوي بواسطة رفوعات بالأشعة تحت الحمراء لتحديد التشكيلات المفصلة للتربة،
- دراسة النقوش الصخرية الموجودة بالقرب من الطاوس على بعد 60 كيلومتر إلى الجنوب من الريصاني.

كانت البعثة الإيطالية التي أشرفت عليها مؤسسة كيمير، تتوفر على برنامج بحث متكامل حول موقع سجلماسة الأثري ويهدف إلى القيام بدراسة شاملة وهادفة ومتابعة الأبحاث الجيولوجية، والأركيولوجية، والإثنولوجية، والسوسيولوجية... إلى أخره. لكن هذا الطموح لم يتحقق وتوقفت هذه الأبحاث عند بدايتها، كما أن نتائج الموسمين المنجزين، لم ينشر عنها سوى تقرير موجز على شكل مقالة باللغة الإيطالية بقلم مدير الأبحاث "بوريس دي راشويلتس" وفيها تمت الإشارة بتلخيص شديد إلى التقنيات المستعملة، والدراسات المحققة وبعض المواد المكتشفة[35].

2. الحفريات المغربية (يوليو. غشت 1974 ميلادية) :

أنجزت هذه الحفريات من طرف وزارة السياحة والأشغال العمومية وأشرف عليها المهندس محمد بنشمسي، مفتش المباني التاريخية بمكناس. وتركزت الأبحاث بالأساس على قلب القصبة السجلماسية على بعد أمتار قليلة غرب بقايا المسجد الجامع، حيث كشفت عن آثار بناية كبيرة ربما كانت منزل أحد المسؤولين الكبار بالقصبة. كما تم العثور خلال هذه الحفريات على لقى أثرية مهمة وخاصة الخزفية منها. ينتمي معظم هذا الخزف وهو من النوع العادي أو المملط بطلاء إلى معامل قصر بحاير الأنصار، بينما يمكن أن يصنف

(35) Rachewiltz (Boris de) : "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", *Quaderni delle Rivista "Africa"*. Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20 illustrations dans le texte et 10 figures hors texte (pp. 519-568).

الباقي منه بالمستورد وخاصة من مدينة فاس. ويمكن تأريخ هذا الخزف ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

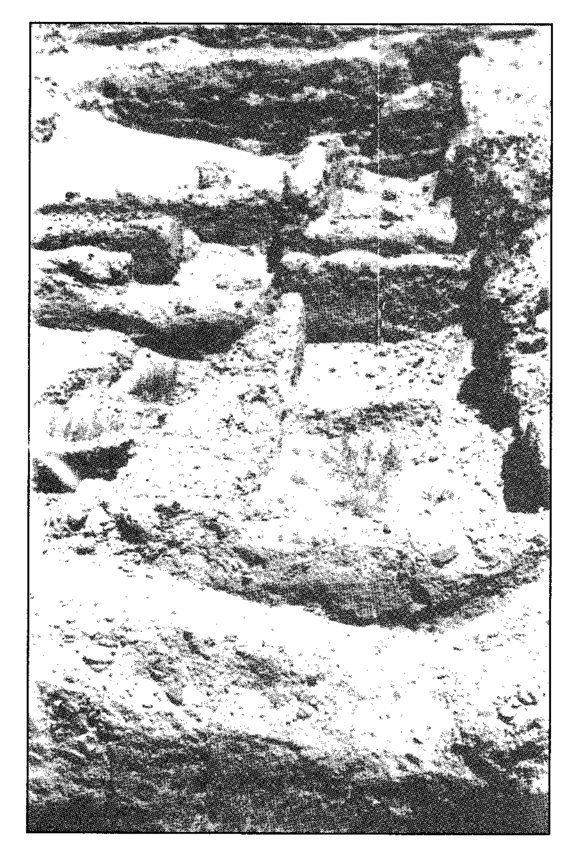
يمكن القول حسب هذه المكتشفات وحسب نوعية الطابية المستعملة والمتكونة من خليط من الطين واللقى الخزفية، والعظام، والقطع الخشبية وحسب المعطيات التاريخية وعمق الحفريات، إن البناية السالفة الذكر تنتمي إلى مجموعة البنايات الملحقة بالمسجد الجامع وهي ولا شك من تشييد السلطان سيدي محمد بن عبد الله حوالي سنة 1783 أو 1784 ميلادية.

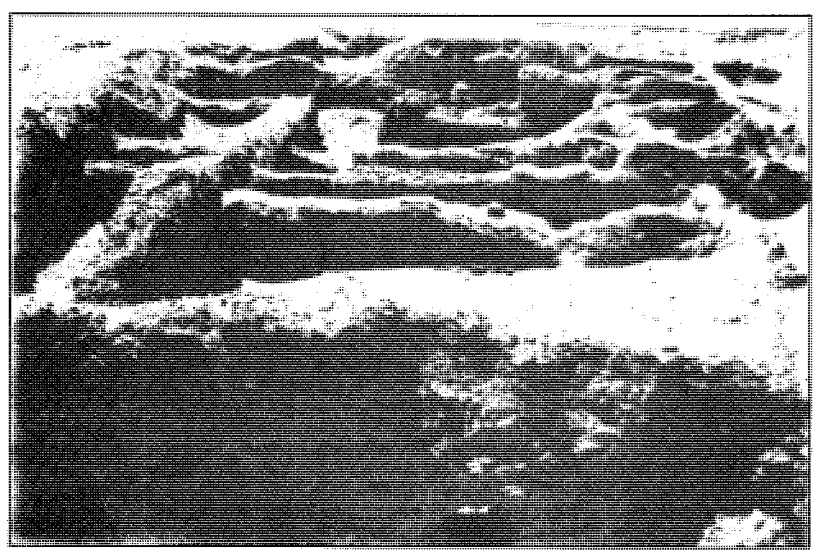
وتبقى مع الأسف مجريات هذه الحفريات ونتائجها مجهولة، إذ لم تنشر عنها أية دراسة. الأسباب متعددة، يتعلق أهمها بصعوبة تحليل المعطيات المحصلة والعقبات التقنية الناتجة عن خصوصية موقع سجلماسة الأثري. وكل ما قدمته عن هذه الحفريات اعتمدت فيه على المعاينة الميدانية للبقايا المكتشفة وعلى الرواية الشفوية لبعض العمال الذين اشتغلوا في الحفريات.

3. تحريات مختبر الخزفيات بمدينة ليون الفرنسية (1984) :

كانت هذه الأبحاث عبارة عن زيارة ميدانية[36] لموقع سجلماسة وخاصة للمعامل الخزفية الواقعة بواحة تافيلالت وتهدف إلى جمع معطيات عن الخزف المحلي وإجراء تحاليل مخبرية لقطع صلصالية مختارة. وحاولت هذه المقاربة العلمية ضبط واردات مدينة أودغشت من الأواني الخزفية السجلماسية خاصة بعد أن طرحت أبحاث موقع أودغشت، إشكالية مهمة تتجلى في أن خمسين في المائة من الخزف المكتشف بهذا الموقع يرجع أصلها إلى سجلماسة.

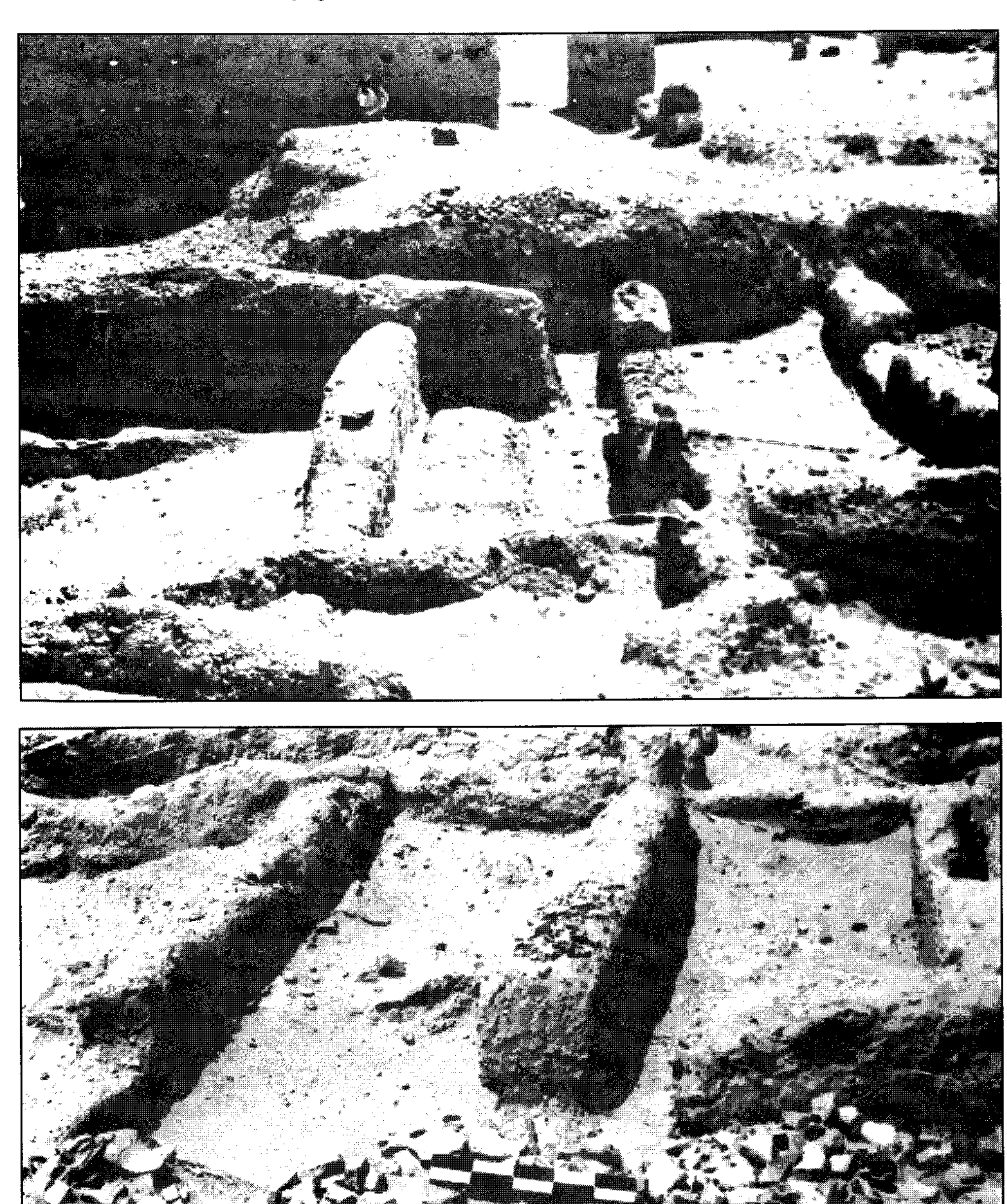
(36) تحت إشراف مختبر الخزفيات بليون/فرنسا Laboratoire de Céramologie, Lyon, France وشارك فيها كل من موريس بيكون Maurice Picon، ورحمة الحرايقي Rahma El-Hraiki ودونيس روبير Denise Robert.





الصورة 7 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات المغربية

بقايا منزل كبير



الصورة 8 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات المغربية

بقايا بعض الجدران واللقى الخزفية

وقد كشف مختبر الخزفيات بليون وجود معمل أو عدة معامل خزفية بمنطقة سجلماسة كانت تزود خلال فترة معينة، أودغشت بالمنتجات الخزفية. وهكذا أجرت البعثة سنة 1984 ميلادية بمجموعة من المسوح السطحية بموقع سجلماسة والضواحي "من أجل الوصول إلى تحقيق هذه الأطروحات، حيث جمعت عدة لقى خزفية وقطع من الصلصال. هذه القطع تم تحليلها وتصنيفها حسب مثيلاتها من أودغشت"[37].

تكشف دراسة النسب المئوية لأهم القطع الخزفية وللبقايا الكيماوية لمكوناتها مثل البوطاسيوم والماغنزيوم والكالسيوم والنيكل والكروم والحديد والألومنيوم... عن التشابه الكبير في التكوين بين الخزف السجلماسي ونظيره المكتشف بموقع أودغشت. التأريخ النسبي للقطع السجلماسية حسب تحاليل الكاربون C14 يرجع إلى فترة كرونولوجية تمتد ما بين 790 و1215 ميلادية مع هامش خطأ ناقص أو زائد مائة سنة. ووجدت القطع الخزفية السجلماسية المكتشفة بأودغشت بثلاث مستويات رئيسية :

- المستوى الأول وتضمن 35 قطعة.
- المستوى الثاني وفيه وجدت 55 قطعة.
- المستوى الثالث واشتمل على 45 قطعة.

تعميما للفائدة وتتويجا للأبحاث الميدانية بعدة مواقع مغربية وسودانية، نشرت هذه الدراسة أعمالها بالملتقى الدولي للخزف القروسطوي بالبحر الأبيض المتوسط الذي انعقد بمدينة سيين Sienne بإيطاليا سنة 1984[38]. وظهرت

(37) Hraiki (Rahma EL), Picon (Maurice) et Robert (Denise): "Atelier producteurs et commerce transsaharien à l'époque médiévale", *Colloque International de la Céramique Médiévale en Méditerranée Occidentale.* Sienne 8-12 octobre/Faenza 13 octobre 1984, Firenze, edizioni All 'Insegna del Giglio, 1986 (p. 52).

(38) Hraiki (Rahma EL), Picon (Maurice) et Robert (Denise) : op-cit (pp. 51-54).

دراسة أخرى مشابهة وتهم خاصة القناديل الزيتية في العدد الإضافي لمجلة أركيومتري Revue d'Archéométrie سنة 1983[39].

II. التنقيبات الأساسية :

1. الأبحاث الشخصية :

أ) المسح الأثري :

في إطار التحضير لرسالة الدكتوراه الموحدة بجامعة إكس - مرسيليا 1 Université Aix-Marseille حول خزف سجلماسة، قمت بمجموعة من الأبحاث الميدانية. ارتكزت أول الأمر حول إجراء مسوحا أثرية لموقع سجلماسة والضواحي وخاصة بالأماكن التي تعرف تركزا كبيرا للقى الخزفية، وذلك بهدف تحديد مراكز صناعة الخزف ومميزاتها التقنية ونوعية إنتاجها وتطورها الزمني.

والمسح الأثري هو تقنية علمية تسعى إلى تقديم صورة نسبية عن الآثار المدفونة تحت الأنقاض اعتمادا على المؤشرات الظاهرة على السطح وهو كذلك من الوسائل الضرورية في كل بحث أثري يهتم بمواقع غير محددة بدقة وموقع سجلماسة خير مثال على ذلك. ويرتبط المسح الأثري بعاملين أساسيين : يتعلق الأول بالهدف من المسح ويمكن التمييز بين الهدف في جمع المعطيات لإنقاذ موقع مهدد أو في طور التخريب مثل تهيئة الطرق السيارة وغيرها من الأوراش الكبرى وبين الهدف الذي يرمي إلى الإجابة على إشكالية معينة مثل تحديد المعامل الخزفية. أما العامل الثاني فيهم الوسيلة المعتمدة من طرف الباحث. ويظهر المسح "كعملية مرنة للبحث قادرة على الملاءمة سواء مع

(39) Robert (D) et Picon (M) : "Classification des lampes importées sur le site de Tegdaoust (Mauritanie)", *Revue d'Archéométrie.* N° : 7 ; 1983 ; diagramme dans le texte et 2 planches hors texte (pp. 59-69).

إشكالية اثنولوجية أو تاريخية أو للإجابة على حالة مستعجلة معينة"[40]. غير أن المسح يجب ألا يقتصر على جمع الأدوات الأثرية فوق السطح وإنما أيضا بجمع كل المعلومات المتوفرة سواء في الصور الجوية أو الأرشيفات المحلية أو المستخرجة من الرواية الشفوية والإشارات الجغرافية... إلى أخره. ذلك أن المسح لا يمكنه أن يقدم معطيات هامة إذا لم يحدد منذ البداية موضوعه الحقيقي وهدفه والوسيلة المعتمدة. ففيما يخص هذه الأخيرة، يمكن التمييز بين :

• المسح بواسطة خطوط متوازية ومنظمة وذات طول وتباعد متنوعين يقوم الباحث أو عدة باحثين بتتبعها مع النظر يمنة ويسرة قصد جمع القطع المبعثرة. يتميز هذا الصنف من المسح بالسرعة في التنفيذ، غير أن سلبياته كثيرة منها صعوبة ضبط المكتشفات على تصميم للتوزيع، كما أن الكثير من الآثار لا يتم معاينتها بدقة.

• المسح بواسطة قطع متقابلة على شكل وحدات للجمع محددة بواسطة خيوط، يقوم الباحث بمسحها عشوائيا أو بشكل منظم. تأخذ المكتشفات رقم كل وحدة وتفرق على تصميم شامل للتوزيع.

• المسح بواسطة إطار خفيف عادة ما يكون من الخشب ويتخذ شكلا مربعا ومحدد المقاييس. هذه التقنية سهلة الاستعمال ولا تتطلب سوى خيوط على شكل وحدات متتابعة، إلا أنها مع ذلك تستوجب عملية منظمة وموقعا مسطحا.

• المسح بواسطة مربعات أو دوائر منعزلة يتم رسمها على الموقع بشكل منظم أو عشوائي. هذه الوسيلة سهلة، إلا أنها تطرح مشاكل التوجيه والمكان الحقيقي لكل وحدة.

---

(40) Renimel (Serge) : *L'artisanat céramique du Saintonge du XIII° S. à nos jours : essai de reconnaissance documentaire et archéologique d'un espace rural.* Université Paris I, Thèse de 3° cycle en Archéologie 1987 (p. 289).

• المسح بواسطة التربيع وتقوم على رسم شبكات من المربعات ذات مقاييس متنوعة وحسب الهدف والتوقيت المتوفر. المسح بهذه الوسيلة يتم بشكل منظم أو عشوائي، مربعا بعد مربع أو عبر اتجاهين متقابلين.

وهناك تقنيات أخرى مثل التي تستعمل ببلجيكا على شكل "S" والتي يقوم بها شخص واحد. ويرجع هذا التنوع في الوسائل إلى أن كل باحث يستعمل منها وما يتناسب مع موقع موضوع البحث، وأيضا إلى التطور المستمر الذي يعرفه المسح الأثري بحيث لا يقتصر على الجمع ولكنه يقوم كذلك بالتحليل والدراسة للمكتشفات وبدراسة جيولوجية واثنوغرافية وتاريخية للموقع. ويتم تقديم المعطيات المجمعة على بطاقات أو تصاميم للتوزيع. فما هي مجريات المسح الأثري بموقع سجلماسة ؟

امتد هذا المسح ما بين بداية شهر مارس ونهاية شهر يونيو 1988 ميلادية وكان الهدف منه تحديد موقع المراكز الخزفية بتافيلالت منذ عصر سجلماسة إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

• **اختيار أماكن المسح** : اعتمادا على القاعدة التي تقول بأن أي تركز للقى الخزفية فوق سطح موقع أثري معين، يعد بمثابة مؤشر على وجود بقايا أثرية تحت السطح، وقع اختياري على ثلاث تجمعات مهمة للقطع الخزفية : تجمعان بموقع سجلماسة وثالث بقصر بحاير الأنصار على بعد كيلومتر واحد غرب سجلماسة.

• **التقنية المعتمدة** : تمكنت من خلال تحليل مجموع تقنيات المسح الأثري، من تحديد الوسيلة التي تناسب الهدف والموقع. فكانت التقنية المختارة هي المسح بواسطة التربيع من 25م² أو 6,25م² ووفق مقياس لومبير Lambert. يتم تقسيم مكان المسح بواسطة وسيلة المثلثات من 5x4x3 مترا، ثم على شكل وحدات من

16 مربعا ذات 25م^2 أو من 20 مربعا ذات 6,25م^2 لكل مربع. وقبل القيام بالجمع، قمت بعدة عمليات إجرائية أولية مثل أخذ رفوعات لتصميم التربيع لكل وحدة أو مربع، وتسجيل معلومات عن الموقع والمساحة والطبوغرافية والتاريخ وطبيعة المكان، ونوعية المسح، وعدد الباحثين، فضلا عن التقاط صورة فتوغرافية بالأبيض والأسود أو صورة شفافة «diapositive» وكذا إنجاز تخطيطة للتربيع.

يجري المسح بشكل منظم مربعا بعد مربع ووحدة بعد وحدة حيث يتم جمع كل اللقى الخزفية التي أقوم بإحصائها وبحفظها داخل غشاء من البلاستيك رفقة بطاقة يسجل عليها رقم التربيع، وتاريخ المسح ومجموع اللقى المجمعة. في نهاية المسح يتم اختيار اللقى التي يمكن أن تلصق فيما بينها أو تمثل شكلا خزفيا واضحا، ويتم عزلها في غشاء من البلاستيك رفقة نفس بطاقة المعلومات إضافة إلى عدد الأواني والنقود، بينما ترجع اللقى غير المرغوب فيها إلى مكانها الأول.

استعملت هذه الوسيلة في كل تربيع، وبعد نهاية المسح تحمل القطع المختارة حيث يتم غسلها، ولصقها وتسجل عليها معطيات تضم اسم الموقع، والسنة، والمكان ورقم المربع مثل SM 88/Z I/C 12. كما تنجز بطاقة شاملة لكل تربيع أو وحدة، وفي النهاية توضع بطاقة عامة تضم اسم الموقع، ومكان المسح، والوحدات التي تم فيها المسح، والمساحة، والطبوغرافية، وطبيعة المكان، والتاريخ، ونوع المسح، وعدد الباحثين، وعدد اللقى الخزفية المجمعة، وتصنيفها إلى مجموعات، وعدد الأواني المختارة، وأدوات أخرى (الآجر، والأواني غير المكتملة الصنع "ratés de cuisson"...)، وعدد النقود المكتشفة، والتحليل الأولي، وملاحظات مختلفة، والصورة والخطاطة. القطع الخزفية التي تمثل شكلا معينا يتم اختيارها، وتصنيفها، وتسجيلها وفي غالب الأحيان ترسم وتصور.

نموذج لمنطقة المسح الأثري الأولى

الموقع	موقع سجلماسة الأثري، قرب مدينة الريصاني، إقليم الرشيدية
مجال المسح	الجزء الغربي للموقع، شمال ملعب كرة القدم الحالي.
الترابيع	A(16-1)، B(16-1)، C(16-1)، D(17-1)، E(16-1)، F(16-1).
تاريخ المسح	من 6 إلى 12 أبريل 1988 .
نوعية المسح	الجمع بواسطة ترابيع من 25 متر مربع [5X5 أمتار].
عدد المشتغلين	02
المساحة	2425 مترا مربعا
الطبوغرافية	مجال منبسط على العموم مع وجود ركاما من الأتربة ذات اللون الرمادي والمختلطة بالرماد والرمل والحصى واللقى.
عدد اللقى المجمعة	16902
التصنيف	15010 من الخزف العادي و1892 من الخزف المملط. 279 شكلا فضلا عن الفواصل، والآجر، والأواني غير المكتملة الصنع ومواد الصباغة المكلسة.
عدد النقود المكتشفة	3 فضية.
تحليل أولي	بعد وضع مثلثات من 3 و4 و5 أمتار، ثم مربعات من 25 متر مربع، قمت بجمع كل اللقى مع عدها ووضعها داخل غشاء بلاستيكي. ثم يتم اختيار اللقى التي تمثل شكلا معينا ويحتفظ بها، بينما ترجع الباقية إلى مكانها الأصلي.
ملاحظات عامة	منطقة المسح تختلف كثيرا عن المجال المحيط بها، حيث التربة رمادية وكثرة اللقى الخزفية. عدة مؤشرات تدل على وجود صناعة خزفية بهذا المكان مثل الفواصل، والأواني غير المكتملة الصنع، والآجر، والرماد ومواد الصباغة المكلسة.
البطاقة التقنية	أخذت صورة شفافة لهذه المنطقة وكذا صور بالأبيض والأسود، كما وضعت لها تصميما على شكل خطاطة.

بطاقة لمجموعة من الترابيع

الموقع	موقع سجلماسة الأثري، قرب مدينة الريصاني، إقليم الرشيدية
مجال المسح	سجلماسة 88/المنطقة الأولى [SM/88/Z1].
الترابيع	A(1-16) على سبيل المثال.
تاريخ المسح	7 أبريل 1988 من الساعة 7,30 إلى 12 زوالا ومن الساعة 4 إلى 7 مساء
نوعية المسح	الجمع بواسطة ترابيع من 25 متر مربع [5x5 أمتار].
عدد المشتغلين	02
المساحة	400 مترا مربعا.
الطبوغرافية	مجال منبسط على العموم مع وجود ركاما من الأتربة الرسوبية ذات اللون الرمادي والمختلطة بالرماد والرمل والحصى واللقى.
عدد اللقى المجمعة	872
التصنيف	752 من الخزف العادي و120 من الخزف المملط. 23 شكلا فضلا عن الفواصل، والآجر، والأواني غير المكتملة الصنع ومواد الصباغة المكلسة.
عدد النقود المكتشفة	3 فضية [التربيع A6].
تحليل أولي	بعد وضع ترابيع من 25 متر مربع وأخذ المعطيات الضرورية في كناش المسح وكذا الصور، قمت بجمع كل اللقى مربعا بعد مربع ومن الشمال إلى اليمين، ثم قمت باحصائها واختيار اللقى التي تمثل شكلا معينا ووضعها داخل غشاء بلاستيكي مع بطاقة تحمل اسم منطقة المسح، واسم الترابيع، واسم التربيع، وعدد اللقى، وتصنيفها وعدد الأشكال.
ملاحظات عامة	– القطع الخزفية قليلة نسبيا بهذه المنطقة مقارنة مع المناطق الأخرى. – أهمية المنطقة تأتي من اكتشاف ثلاثة نقود فضية تعود إلى بداية القرن 5هـ/11م.
البطاقة التقنية	أخذت صورتان بالأبيض والأسود للتربيعين 6ء و8ء، كما وضعت تصميما على شكل خطاطة لكل الترابيع.

بطاقة تربيع

الموقع	موقع سجلماسة الأثري، قرب مدينة الريصاني، إقليم الرشيدية.
التربيع	سجلماسة 88/المنطقة الأولى/A6 [SM/88/Z1/A6] على سبيل المثال.
تاريخ المسح	7 أبريل 1988 من الساعة 9 إلى 9,30 صباحا.
نوعية المسح	الجمع بواسطة ترابيع من 25 متر مربع [5x5 أمتار].
عدد المشتغلين	02
المساحة	25 مترا مربعا
الطبوغرافية	مجال منبسط على العموم مع وجود ركام من التربة الرمادية والمختلطة بالرماد واللقى.
عدد اللقى المجمعة	198
التصنيف	170 من الخزف العادي و28 من الخزف المملط. 3 أشكال فضلا عن الفواصل، والأواني غير المكتملة الصنع ومواد الصباغة المكلسة.
عدد النقود المكتشفة	3 فضية.
تحليل أولي	كل اللقى جمعت، ثم حسبت وصنفت وتم اختيار التي تمثل شكلا معينا ووضعت داخل وعاء بلاستيكي مع بطاقة معلومات.
ملاحظات عامة	القطع الخزفية قليلة وجد مكسرة ومعظمها جمعت من ركام التربة وهي في أغلبها من الخزف العادي.
البطاقة التقنية	أخذت صورة بالأبيض والأسود من الركن الجنوب الشرقي، كما وضعت للتربيع تصميما على شكل خطاطة.

وبالفعل توصل المسح الأثري الذي أجريته بموقع سجلماسة إلى عدة نتائج أهمها :

أولا : تحديد مراكز الصناعة الخزفية السجلماسية ويمكن التمييز بين ثلاثة منها :

• **المركز الأول** الذي عاصر أغلب فترات سجلماسة وخاصة ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. يقع هذا المركز غرب وادي غريس وعلى بعد حوالي ست كيلومترات من سجلماسة، وهو بذلك غير بعيد عن مركز المدينة وفي اتجاه

الرياح شمال/شرق ـ جنوب/غرب أو شرق ـ غرب وهو أيضا قريب من منابع المياه، ومن مصادر الحطب ومن مقالع الصلصال. هذا المركز المسمى حاليا سوق ابن عقلة، يتضمن آثار بنايات ذات أساس من الحجارة، وبقايا أفران وكميات هائلة من اللقى الخزفية تشبه في معظمها ما تم العثور عليه بموقع سجلماسة في الطبقات التي تنتمي إلى ما يسمى ب"الفترة الوسيطية"، مما يطرح إمكانية أن يكون هذا المركز هو الذي احتضن الصنائع الخزفية في عهد سجلماسة.

• **المركز الثاني** يقع قرب خزان الماء على الضفة الشرقية لوادي زيز، ففي هذا المكان عثرت على عدة مؤشرات تدل على وجود صناعة خزفية مثل الأواني غير المكتملة الصنع "rebuts ou ratés de cuisson"والفواصل "pernettes"، والآجر المحروق، والأصباغ المكلسة، والرماد، والفحم وعدد كبير من القطع الخزفية. وكشفت حفريات 1988 ميلادية عن بناية تنتمي لهذا المركز والتي شيدت فوق بنايات سابقة. من جهة أخرى، أكدت أبحاث مختبر الخزفيات بليون أن إنتاج هذا المركز متأخر عن عصر سجلماسة وبأن مكوناته الصلصالية تختلف شيئا ما عن مثيله الموجود بغرب وادي غريس [فهو صلصال من صنف زيز]. اكتشفت بالمسح أواني مختلفة، وتأكد أن هذا المركز الخزفي بني على أنقاض مدينة سجلماسة بعد تخريبها في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

• **المركز الأخير** يقع بداخل قصر بحاير الأنصار على بعد كيلومتر واحد غرب سجلماسة، وقد خلف المركز الثاني مباشرة بعد إعادة بناء القصبة السجلماسية من طرف السلطان مولاي إسماعيل في نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. وظل المركز يشتغل إلى غاية أواسط القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي على الأقل، وتم العثور على عدة مؤشرات بعين المكان أهمها : 26 عملة نقدية تؤرخ في معظمها بالقرن الثاني

عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، ثم تشابه القطع الخزفية مع مثيلاتها المكتشفة في حفريات 1974 ميلادية وفي الطبقات العليا من الحفريات الأمريكية (1988-1996 ميلادية). ويحتفظ المركز ببقايا أثرية تنتمي للصناعة الخزفية ومنها أنقاض الأفران الثلاثة بصفة خاصة.

ثانيا : تسليط الضوء على مختلف الأصناف الخزفية التي أُنتجت بمنطقة سجلماسة وعلى وجود صناعة خزفية بالمنطقة وعن خصائصها. إذ استطاع المسح عامة تحديد مراكز الإنتاج الخزفي بسجلماسة من جهة ومن جهة أخرى تحديد السمات التقنية والشكلية والكرونولوجية لكل صنف.

ثالثا : توزيع القطع الخزفية حسب أماكن المسح : يمكن إنجاز خريطة التوزيع هاته بصيغ مختلفة سواء حسب أصناف الخزف (عادي أو مصبوغ) أو حسب الشكل أو حسب استعمال الآنية. ويمكن أن تقدم هذه العملية على شكل جدول بياني يبين عدد القطع لكل مربع وكثافة القطع وإما بواسطة تقديم النسبة المئوية لكثافة الأواني والقطع في كل مربع. بموقع سجلماسة، اعتمدت على هذه التقنية الأخيرة باعتبار أنها أكثر ملائمة ويمكنها أن تقدم صورة واضحة عن العلاقة بين طبوغرافية الموقع وتوزيع اللقى الخزفية.

وقد تم تطبيق هذه العملية على الأماكن الثلاثة التي أجري بها المسح، قصد تحديد كثافة القطع الخزفية في كل مربع وبارتباط مع مجموع القطع المجمعة، أو تحديد كثافة كل صنف خزفي (عادي أو مملط) بارتباط مع مجموع اللقى لكل مربع أو المكان، وأخيرا تحديد كثافة الأواني الخزفية حسب استعمالها في علاقة مع مجموع اللقى المجمعة. ويمكن تقديم النتائج التالية :

• في المنطقتين الأولى والثانية الواقعتين بموقع سجلماسة، يظهر أن اضطراب السطح لعب دورا كبيرا في توزيع الخزف، فالمنطقة الأولى هي عبارة عن ركام للتربة أخرج من ورش إنجاز الملعب الرياضي وفيه وجدت القطع الخزفية مشتتة ومتفرقة.

• المنطقة الثانية تتكون من توضعات رملية لوادي زيز ويكون فيها الخزف العادي الأغلبية [60 إلى 70 في المائة]. الخزف المكتشف بالمنطقة الأولى يشبه مثيله المكتشف بالاستبار الثالث من حفريات 1988 ميلادية، بينما يشبه خزف المنطقة الثانية نظيره المكتشف بالطبقات الأثرية للاستبار الأول والتي لا يتعدى عمقها مترين ونصف. توزيع الأواني، يوضح سيطرة الجرات الصغيرة (62,36 في المائة بالمنطقة الأولى) وخاصة الأواني المستعملة في نقل أو حفظ الماء، مما يؤكد أهمية الماء وأوانيه في الحياة المعيشية لسكان سجلماسة.

• منطقة بحاير الأنصار : خلافا للمنطقتين السابقتين، يلاحظ هيمنة الخزف المصبوغ [حوالي 70 في المائة]، أهم المكتشفات تم جمعها بالمربعات التي تقع عليها الأفران الثلاثة وتسيطر أواني المائدة (الأقداح، والصحون، والفنجان...) بنسبة 54,53 في المائة، وتأتي من بعدها أواني حفظ السوائل (الجرات الصغيرة، والقارورات والقلل) بنسبة 25,98 في المائة، بينما لا تمثل آنية الطبخ سوى 1,84 في المائة.

خلاصة القول إن المسح الأثري مكن من تحديد أو تأكيد مواقع المراكز الخزفية السجلماسية سواء خلال "الفترة الوسيطية" أو ما بعدها. ومكن المسح أيضا من تقديم توضيحات أكثر وجزئيات عن مختلف الأصناف الخزفية في تكوينها الصلصالي، وفي أشكالها، وفي تقنياتها الزخرفية وفي تسلسلها التاريخي. كما تجدر الإشارة إلى أن الطبوغرافية والإنسان لعبا دورا هاما في التوزيع النهائي للقى والأواني الخزفية على السطح، ويبقى تأكيد هذا أو نفيه مرتبطا بإجراء حفريات أثرية منظمة. وككل بحث علمي، يطرح المسح الأثري بسجلماسة عدة صعوبات، يمكن تلخيص أهمها :

– المعطيات المجمعة تظل مؤقتة إلى أن يتم تأكيدها بواسطة الحفريات.

– صعوبة وضع خريطة واضحة لتوزيع المكتشفات المجمعة مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف الطبوغرافية والبشرية.
– صعوبة الاعتماد على المسح الأثري لإعطاء تسلسل كرونولوجي محدد ومطلق.

ب) حفريات دجنبر 1990 ميلادية :

تهدف هذه الحفريات[41] إلى إماطة اللثام عن السور الغربي لمدينة سجلماسة وجمع معطيات جديدة حول الصناعة الخزفية التي تنتمي لفترة ما بعد سجلماسة (القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ـ الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي).

• مجريات التنقيب والنتائج :

كان الهدف الأساسي من هذه الأبحاث هو إبراز امتداد السور الغربي لسجلماسة والذي تظهر أجزاء منه من حين لآخر بفعل جريان وادي زيز. في البداية تتبعت هذه الأجزاء البارزة انطلاقا من سد وانكَاكَا شمالا إلى غاية قصر تابوعصامت جنوبا. لحسن الحظ وبالرغم من قساوة الظروف الطبيعية ومن تدخل الإنسان، لازالت الكثير من هذه الأجزاء واقفة داخل مجرى زيز أو بالضفة اليسرى "الشرقية" منه. وبالفعل تم الكشف عن بقايا السور السجلماسي على امتداد يصل إلى حوالي خمس كيلومترات من الشمال إلى الجنوب، مما يسمح مؤقتا بتحديد موقع سجلماسة من الجهة الغربية. وبدأ فريق العمل بإزالة التراب عن هذا السور بالارتكاز على ثلاث أجزاء غير واضحة والأخذ بعين الاعتبار تبيان جانبي السور بإنجاز أسبار يبلغ عرضها 0,60 مترا ويتراوح عمقها ما بين 0,60 و مترا واحدا :

(41) هذه الحفريات التي أنجزت ما بين 20 و30 دجنبر 1990، بمساهمة مادية من مختبر الخزفيات، دار الشرق بمدينة ليون Lyon، فرنسا [5500 درهم]، أشرف عليها لحسن تاوشيخت، مدير مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني، وشارك فيها 15 عاملا.

– **الجزء الشمالي من السور الغربي** : يقع على بعد 150 مترا جنوب سد وانكَاكَا، و200 مترا غرب السور الحديث للقصبة السجلماسية، و35,50 مترا جنوب الاستبار الرابع من الحفريات الأمريكية لسنة 1988 وعلى الضفة الشرقية لوادي زيز. المسافة المقترحة للحفر تساوي 274,31 مترا أي المسافة التي تفصل بين بقايا برجين رئيسيين تظهر معالمهما على السطح. إلا أن امتداد السور لم يعثر عليه انطلاقا من 80 مترا إلى الشمال من البرج الأول، مما يتطلب معه إجراء حفريات عميقة، وجعل بالتالي المسافة التي حفرت لا تتجاوز 190 مترا.

شيد السور المكتشف أساسا من الطابية التي تتكون من طين صلصالية حمراء ومختلطة بالحصى ومملطة على الواجهتين. ظل خط امتداد السور مستقيما على العموم وتتخلله ثلاثة أبراج ذات أشكال وأحجام مختلفة تتراوح مقاييسها ما بين 3,20x4,50 أمتار، و3,00x5,90x8,55 أمتار و6,00x6,50 أمتار.

تتمثل القطع المكتشفة في عدد كبير من اللقى الخزفية ينتمي أغلبها لصنف بحاير الأنصار والذي يؤرخ ما بين القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي والثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي. أهم الأشكال الخزفية هي الصحون، والجرات، والقناديل الزيتية، والقدور. إلا أن أهم اكتشاف يتمثل في "خلالة" صغيرة كاملة صنعت من الفضة والتي يمكن تأريخها ما بين القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

– **الجزء الأوسط** : يقع جنوب الجزء السابق على بعد 200 مترا شمال قنطرة وادي زيز و ستة أمتار إلى الجنوب منها. بهذا الجزء تمت معاينة نفس بقايا السور الغربي لسجلماسة في مكوناته، وفي امتداده. ولإبراز هذا الجزء تم اعتماد نفس التقنية بالحفر على جانبيه على عرض يبلغ 0,60 مترا وعمق يتراوح بين 0,60 ومترا واحد. وتمكنت الحفريات من الكشف عن ثلاثة أطراف من

السور : يقع الطرف الأول في الشمال ويبلغ طوله 41 مترا، وسمكه المتبقي من التعرية النهرية يصل إلى حوالي متر واحد، ويتراوح علوه الحالي ما بين متر واحد ومتر و40سم. يوجد الطرف الثاني على بعد ستة أمتار جنوب القنطرة الرئيسية لوادي زيز ويبلغ طوله 11,55 مترا، وسمكه المتبقي حوالي 0,70 مترا وعلوه الظاهر يصل إلى 0,70 مترا. يقع الطرف الأخير على بعد 45 مترا جنوب الطرف الثاني ويبلغ طوله 11,50 مترا، والسمك الحالي حوالي 0,90 مترا ويتراوح العلو ما بين 0,50 و0,80 مترا.

لم تكتشف أية قطعة أثرية في هذا الجزء، ذلك أن جانبي السور كانا يتكونان فقط من ركام من الطمي والرمل الناتج عن ترسبات وادي زيز والرياح.

– **الجزء الجنوبي** : يظهر مباشرة في مقدمة السد التلي المعروف ب"سلاوة" على بعد حوالي كيلومترين ونصف جنوب قنطرة وادي زيز وعلى بعد 50 مترا جنوب غرب قصر جرينفود الحالي. يمر هذا الجزء وسط مجرى وادي زيز، مما سمح بمعاينة الأطراف الظاهرة بكل سهولة واقتصرت أعمال الحفر على إبراز هذه الأطراف بشكل واضح والتي يبلغ طولها 50 مترا، ويتراوح سمكها المتبقي ما بين 0,60 ومتر واحد ويصل علوها إلى 0,80 مترا. بقايا السور هي من نفس العينة وتتخذ نفس الاتجاه شمال ـ جنوب، و لم يعثر بهذا الجزء على أية لقى خزفية تستحق الذكر.

• **النتائج :**

بصفة عامة، يكشف هذا البحث النقاب ولأول مرة عن الجزء الغربي لأحد أسوار سجلماسة من حيث تكويناته، وشكله واتجاهه. وبفضل هذا البحث تم إزالة بعض الغموض الذي كان يكتنف حدود موقع سجلماسة من الجهة الغربية على الأقل في فترة من فتراتها التاريخية. ومع ذلك فهذا التحديد لا يزال في حاجة ماسة إلى إظهار أجزائه الأخرى وخاصة بالجهة الشرقية.

ويمكن القول، اعتمادا على البقايا الأثرية الظاهرة، إن قصر المنصورية يمثل الحد الأقصى لسجلماسة من الناحية الشمالية وقصر تابوعصامت من الجنوب. وترجع صعوبة تحديد السور السجلماسي إلى ما عرفته مدينة سجلماسة من عمليات التوسع والانكماش المعماري بفعل دورها التاريخي وخاصة الاقتصادي الهام. وكانت نتيجة ذلك أن تحصيناتها تعرضت لعدة مراحل من البناء والهدم، مما أدى إلى انعدام الاستقرار في امتداد سورها الأول.

• الدراسة الخزفية :

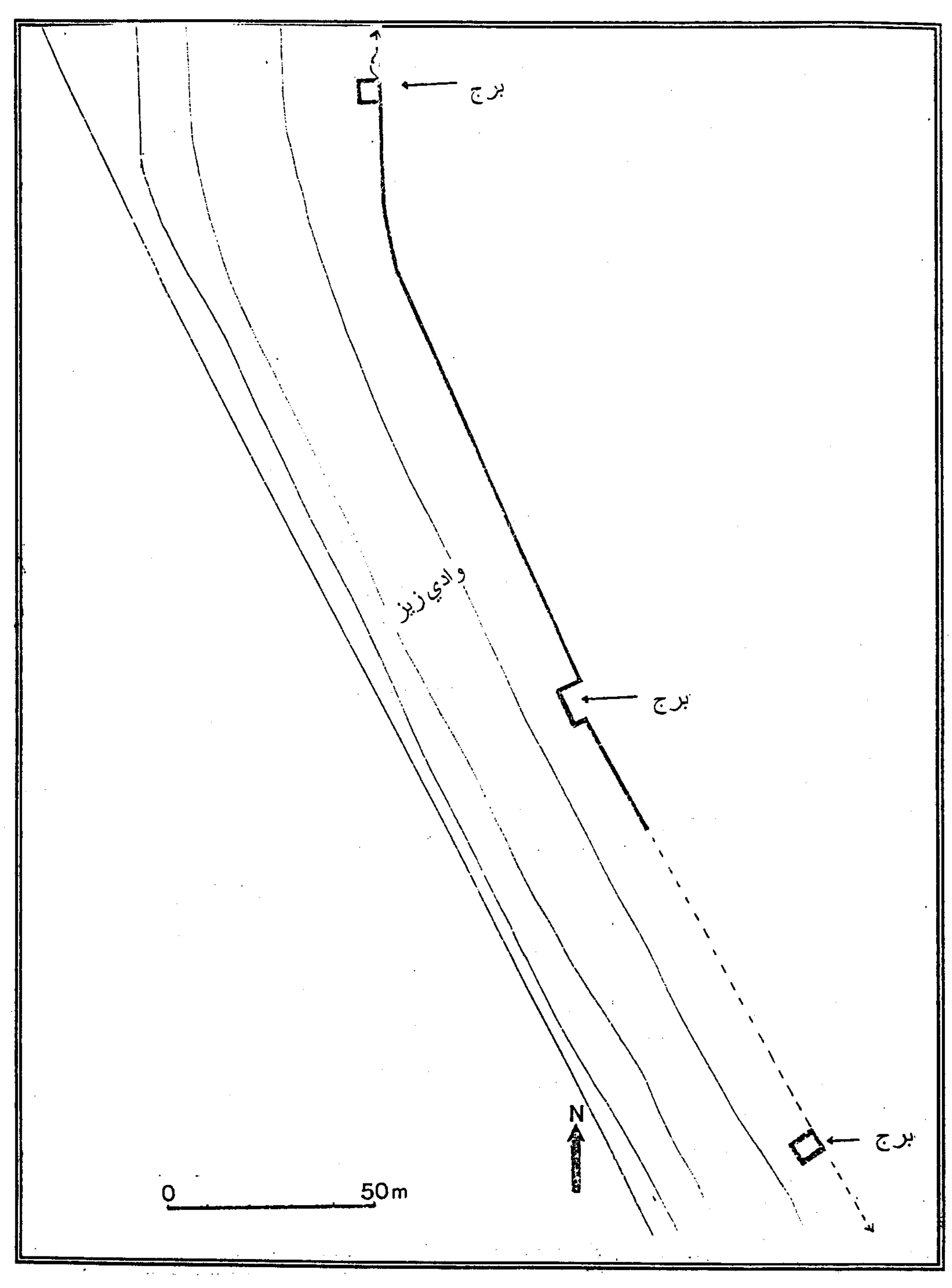
شملت التحريات حول الخزف السجلماسي المنطقة الواقعة على بعد ثلاثة أمتار شمال الملعب الرياضي ومائتي مترا شرق وادي زيز. وتهدف هذه التحريات إلى تعميق الفهم حول الخصائص الخزفية وتأكيد وجود مراكزه الإنتاجية التي شيدت فوق أنقاض مدينة سجلماسة. واعتمادا على المسح السطحي للمنطقة، تم تجميع عدد هائل من اللقى والأواني الخزفية. وتنتمي أغلبية هذه اللقى إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى سجلماسية (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ـ الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)، والثانية ما بعد سجلماسية (القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ـ القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي) والمجموعة الأخيرة مجهولة الانتساب (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ـ القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي).

فيما يخص الأشكال، كل الأواني ذات الاستعمال اليومي كانت ممثلة [أواني الطاولة، وأواني الخزن، وأواني الماء، والقناديل الزيتية، وآنية الطبخ...]. كما اكتشف بالمكان مختلف بقايا الصناعة الخزفية مثل الفحم، والرماد، وقطع من النحاس المكلس، والأواني غير المكتملة الصنع، والآجر المحروق، وفواصل الآنية داخل الفرن وعدة قطع أخرى...

يؤكد الباحث موريس بيكون Maurice Picon الذي زار موقع سجلماسة سنة 1984 ميلادية في إطار أبحاث مختبر الخزفيات بليون، أن هذا الموضع احتضن عدة معامل خزفية ومعدنية. وظلت المراكز الخزفية التي أقيمت في عين المكان تعمل منذ تخريب مدينة سجلماسة في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وإلى غاية تشييد القصبة السجلماسية من طرف السلطان مولاي إسماعيل في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي.

تقدم التحاليل الكيماوية لمختبر الخزفيات بليون المطبقة على بعض القطع الخزفية المنتجة من لدن هذه المعامل، خلافات ضئيلة في تكوينها مع نظيرتها السجلماسية التي تنتمي لمعامل وادي غريس، بينما تنتمي هذه القطع لما يسمى بصلصال زيز. نفس الشيء تثبته دراسة الأشكال، إذ يلاحظ تدنيا في تقنيات الإنتاج وخاصة فيما يخص السمك الذي أصبح أكثر غلظا والوزن الذي ازداد ثقلا والأشكال أقل رونقا والتمليط أقل بريقا.

خلاصة القول يمكن الإشارة إلى أن تحول تجارة القوافل الصحراوية نحو مسالك أخرى وخاصة نحو المحيط الأطلسي، كان له الأثر الكبير في التدهور الذي أخذ يدب في الجسم الحضاري لسجلماسة، ورافق ذلك ضعف في الطلب وقلة في المردودية. وكانت الصنائع وضمنها الصناعة الخزفية من المظاهر الاقتصادية التي تأثرت بسرعة وقوة، إذ أخذت في التراجع تدريجيا منذ ذلك التاريخ إلى اليوم.



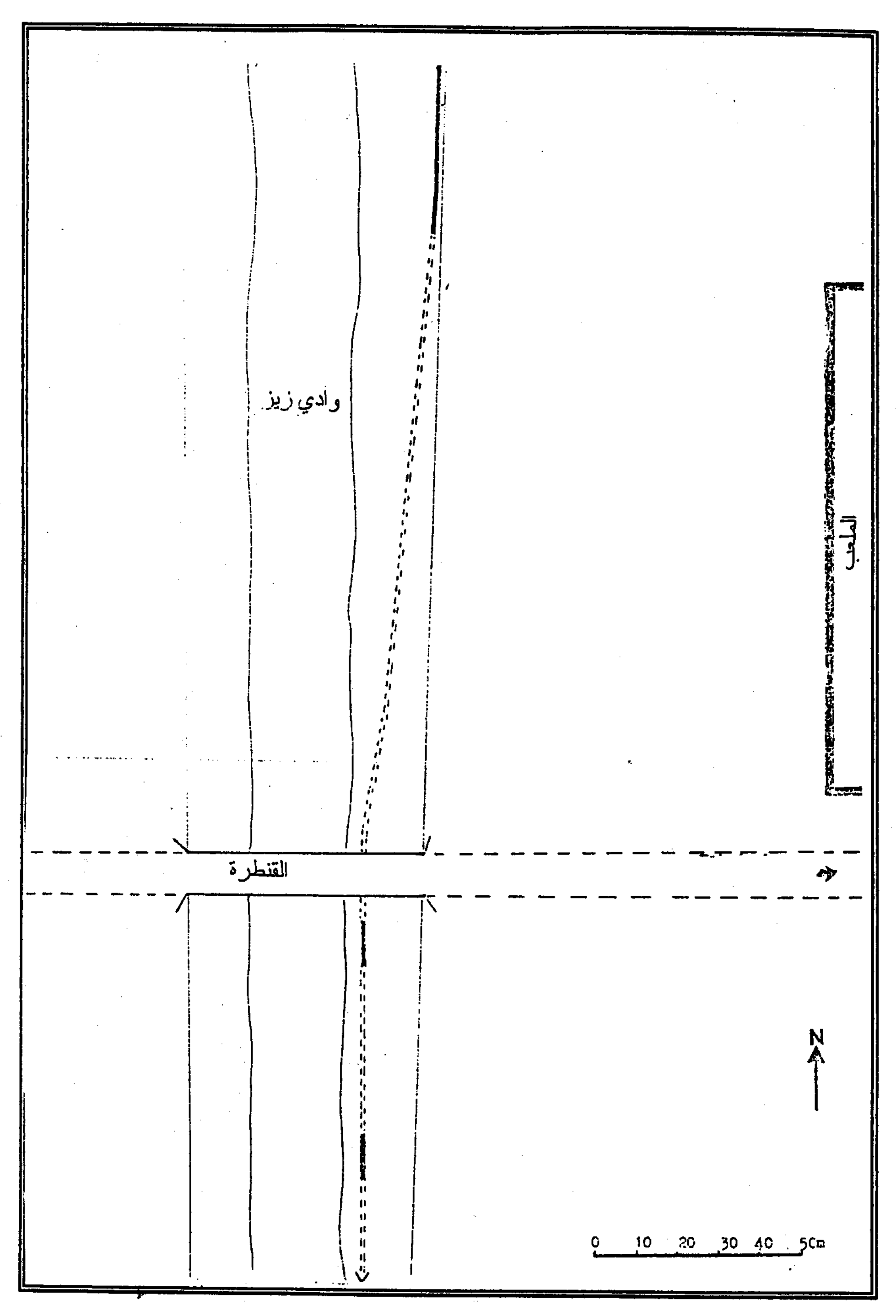
التصميم 4 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الشخصية

بقايا السور الغربي (الجزء الشمالي)





الصورة 9 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الشخصية
بقايا السور الغربي (الجزء الشمالي)

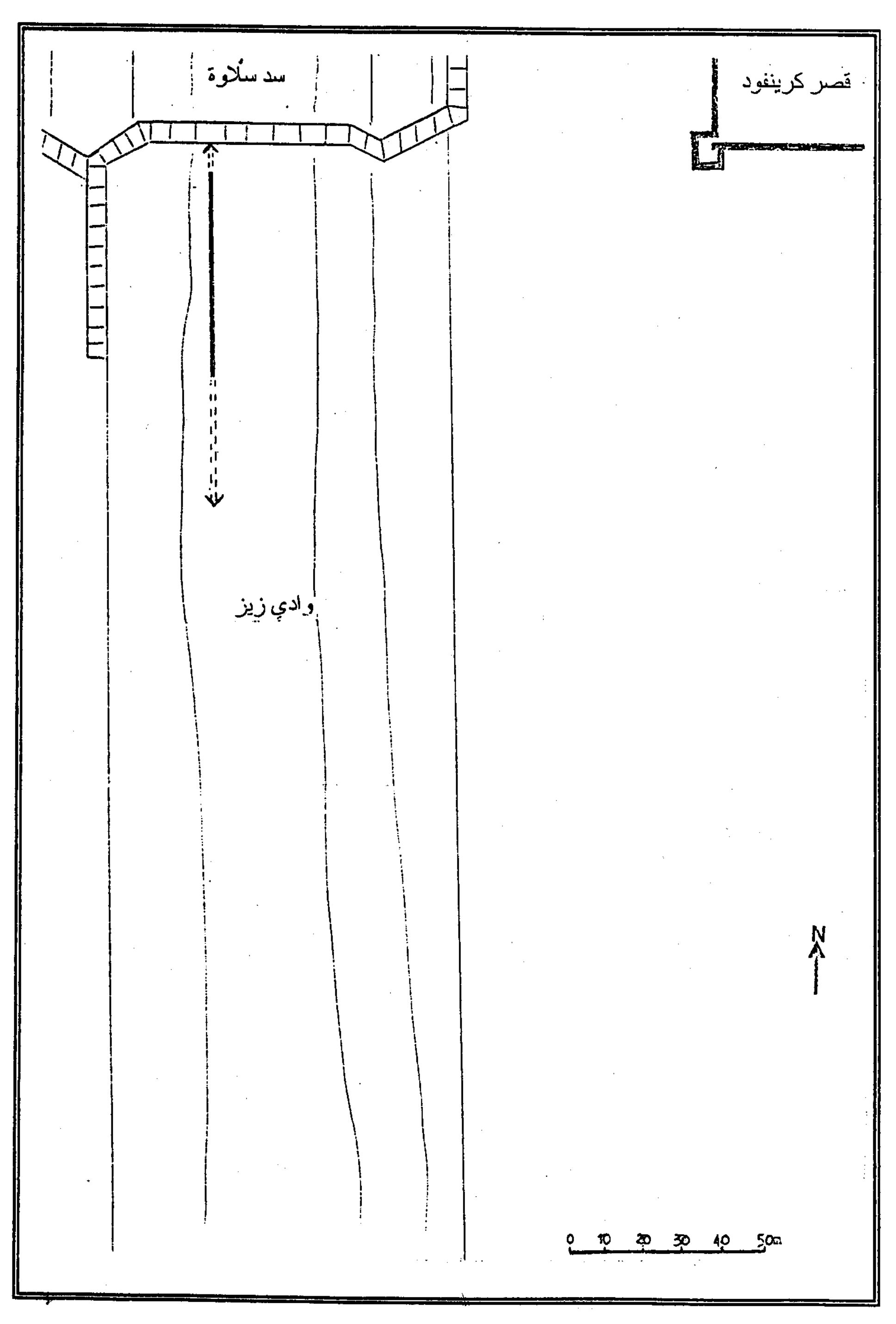


التصميم 5 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الشخصية

بقايا السور الغربي (الجزء الأوسط)

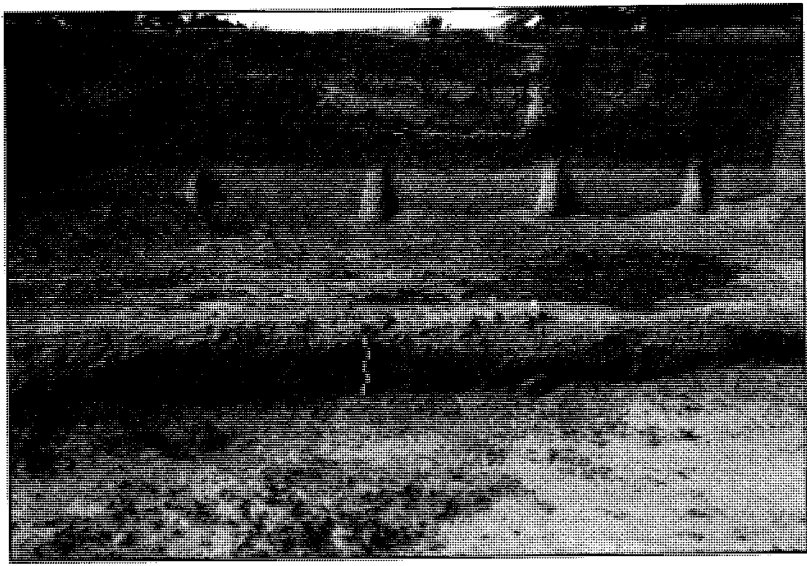


الصورة 10 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الشخصية
بقايا السور الغربي (الجزء الأوسط)



التصميم 6 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الشخصية
بقايا السور الغربي (الجزء الجنوبي)





الصورة 11 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الشخصية
بقايا السور الغربي (الجزء الجنوبي)

2 ـ الحفريات الأمريكية (1998-1988) :

تعتبر هذه الحفريات من أهم الأبحاث التي أنجزت بموقع سجلماسة لحد الآن وذلك لما قدمته من نتائج كشفت عن بعض أسرار هذا الموقع واعتبارا لاستمرارها طيلة ستة مواسم متتالية وأيضا لاعتمادها تخصصات متعددة. هذه الحفريات التي شاركت شخصيا في معظمها أشرفت عليها بعثة أمريكية مغربية مشتركة في إطار التعاون بين جامعة ميدل تينيسي Middle Tennessee State University بالولايات المتحدة الأمريكية من جهة والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط l'Institut National des Sciences d'Archéologie et du Patrimoine من جهة ثانية وذلك برئاسة الباحث رونالد ميسيي Ronald MESSIER، أستاذ التاريخ بالجامعة السالفة الذكر.

هذه الأبحاث تحققت في سنوات 1988، و1992، و1993، و1994، و1996 و1998 للميلاد مع معدل شهر ونصف من العمل في كل موسم، وكان من الممكن أن تستمر أعواما أخرى لو توفرت الإمكانيات المادية الضرورية.

وتعميما للنتائج الأولية لهذه الحفريات ووفقا لما توفر عندي من المعطيات، أقدم فيما يلي تقريرا عاما عن كل موسم على حدة وملخصا لأهم النتائج المحصلة :

أ) الموسم الأول (1988) :

كشفت حفريات هذا الموسم[42] النقاب عن مجموعة من المكونات المعمارية والقطع الخزفية. وكانت الطبقات الأثرية للموقع نسبيا واضحة بالرغم من

(42) يتكون الفريق الأثري من : رونالد ميسيي Ronald Messier : مدير الأبحاث، ونيل ماكينزي Neil Mackenzie : مكلف بالحفريات ومساعد المدير، وستيفان براون Stevan Brown وجون رانكل Jone Runkle : طبوغرافيان، وفرانك كينتز Frank Kintz : مصور، وجيمس وياط Wyatt James : التوثيق، ولحسن تاوشيخت : منسق، وبعض الطلبة من المعهد الوطني لعلوم =

اختلاطها في عدة أماكن، مما شجع على إنجاز خريطة طبوغرافية ـ أثرية للموقع وتحديد الجزء الأوسط منه أو ما يطلق عليه بالقصبة السجلماسية. كما تم أيضا إجراء دراسة اثنوغرافية، ورفوعات هندسية ودراسة خزفية. ويعتبر هذا الموسم مرحلة استكشافية لموقع سجلماسة الأثري، إذ قامت البعثة أثناءه بحفر خمسة أسبار تجريبية في محاولة للحصول على المعطيات الأثرية الأولية :

• **الاستبار الأول** : يقع على بعد عشرة أمتار غرب حفريات 1974 وعشرين مترا من المسجد الجامع، بلغت مساحته 25 مترا مربعا (5x5 أمتار) ووصل عمقه إلى حوالي خمسة أمتار. كان الهدف من هذا الاستبار هو تحقيق دراسة استراتيغرافية واضحة للموقع من أجل تحديد الطبقات الأركيولوجية ومعرفة مختلف الفترات التاريخية التي مرت منها سجلماسة. استغرق العمل بالاستبار 18 يوما (بين 20 يونيو و8 يوليو 1988) ومكن من التمييز بين 26 طبقة أثرية مختلفة :

– الطبقة 1 لا يتعدى عمقها 0,30 مترا وتتكون من ركام من التراب الرقيق ذي اللون البني والمختلط بالرمل الأصفر، والحصى، والعظام، والآجر، والفحم واللقى الخزفية التي بلغ عددها 395 وتنتمي إلى نمط قصر بحاير المؤرخ ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

– الطبقة 2 يبلغ عمقها ما بين 0,30 و0,45 مترا وتتكون في أغلبها من الرمل الأصفر الرقيق الذي تجمع بفعل الرياح. تنتمي اللقى الخزفية المكتشفة وعددها 122 إلى نفس نمط الطبقة الأولى.

= الآثار والتراث .I.N.S.A.P بالرباط [ك. بورشوق، أ. بوزوكَار، ح. الشرادي، ع. الخياري، ح. الواسيني، م. النامي] ومتطوعين أمريكيين [هودسون J. Hudson، مكاليون S. Macallion، ميسيي S. Messier، مينيهان J. Minniehan، روفنر M. Ruffner، سينيي P. Sennyey].

– الطبقة 3 يتراوح عمقها ما بين 0,45 و1,10 مترا ويصل إلى 1,30 مترا في الركن الجنوب الشرقي، وتتشكل من ركام ترابي صلب ومختلط بالحصى والرماد والعظام وقطع من الآجر واللقى الخزفية من النمط البحايري وعددها 920.

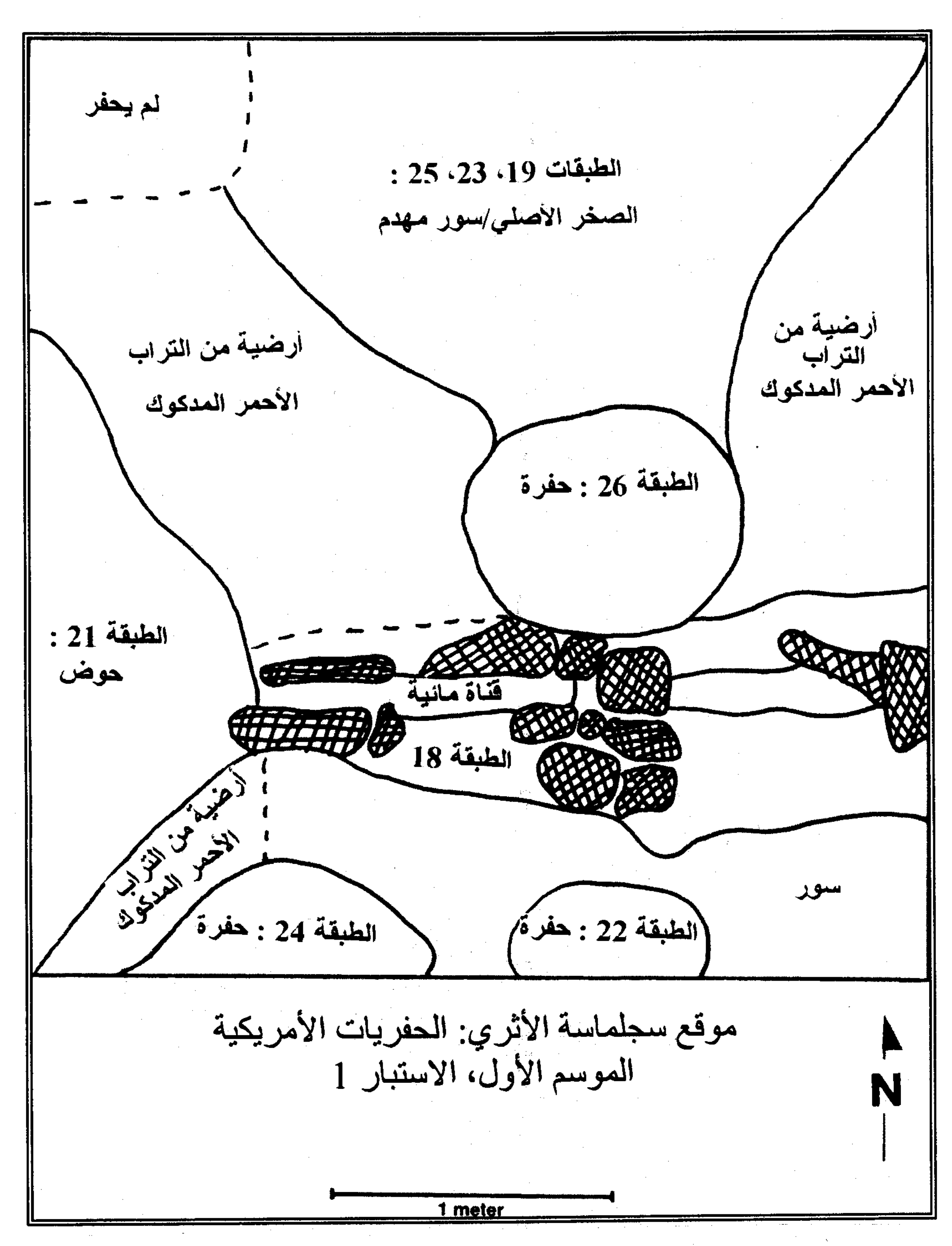
– الطبقة 4 يصل عمقها إلى 1,80 مترا في الركن الجنوب الغربي و مترين و50 سم في الركن الجنوب الشرقي، وتتكون من ركام من التراب الأحمر ـ البني المختلط بالعظام والرماد وقطع من الآجر والخزف. هذا الأخير والذي بلغت عدد قطعه 365 أغلبها أي 80 في المائة من النمط البحايري و20 في المائة الباقية تنتمي إلى النمط السجلماسي الذي يمكن تأريخه ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

– الطبقة 5 يتراوح عمقها ما بين 1,70 متر ومترين و05 سم وهي عبارة عن حفرة من الرماد والواقعة بالركن الجنوب الشرقي. في هذه الطبقة تم العثور على قطعتين خزفيتين فقط وهما من صنف الخزف السجلماسي.

– الطبقة 6 يتراوح عمقها ما بين 0,70 و1,30 مترا وتتكون من ركام من التراب الصلب والمختلط بالحصى [بقايا أحد الجدران]. الخزف المكتشف بلغت قطعه 92 وكلها من الصنف البحايري.

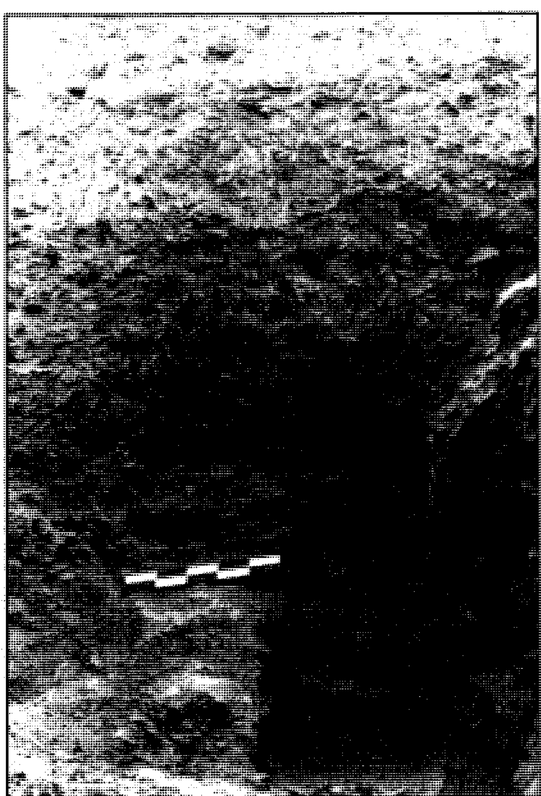
– الطبقات 7 و8 و10 : يتراوح عمقها ما بين 1,80 ومترين و10 سم وتتكون من ركام من التراب البني والمختلط بالرماد، والجير وقطع من الآجر والخزف وعددها 73 ينتمي 80 في المائة منها إلى الصنف السجلماسي.

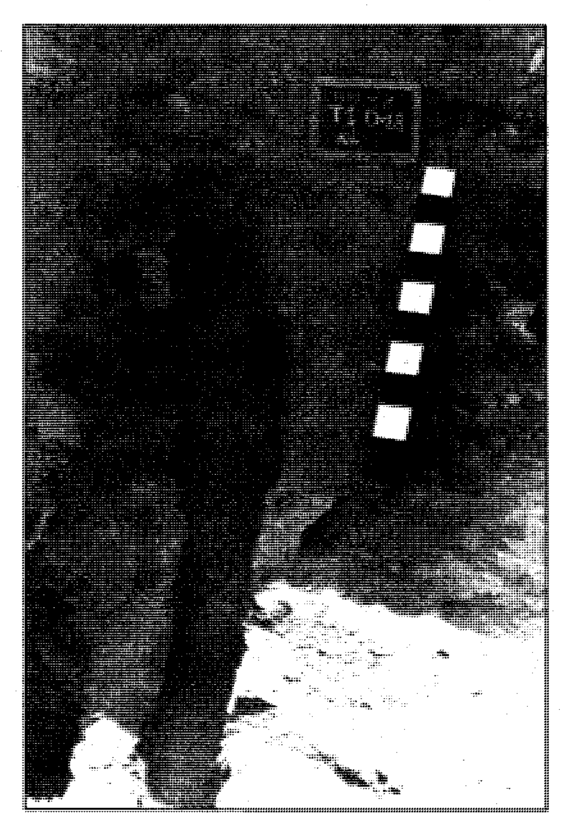
– الطبقتان 9 و17 : يتراوح عمقها ما بين 2,30 و2,55 أمتار، تقع في الركن الجنوب الشرقي وتتكون من ركام من التراب الأحمر المختلط بالحصى ـ بقايا حائط مهدم ـ بينما لم تكتشف أية لقى خزفية.

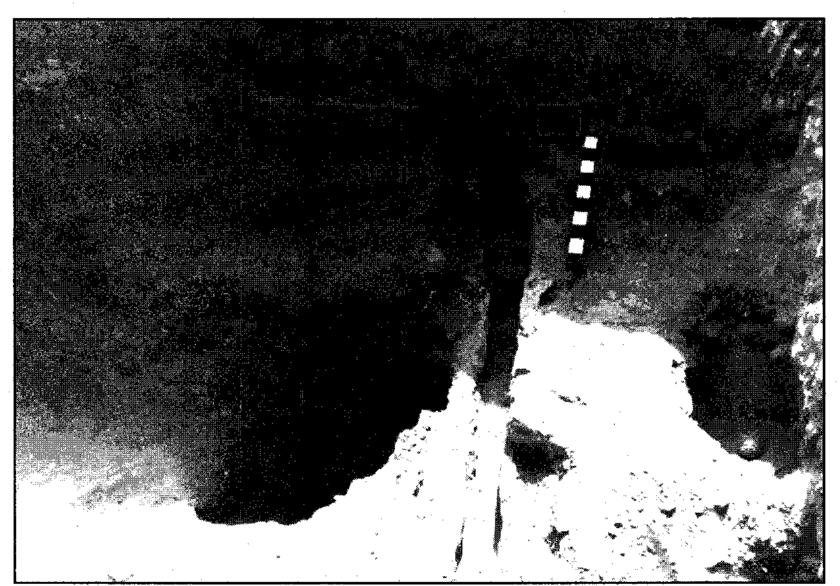


التصميم 7 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

الموسم الأول، الاستبار 1







الصورة 12 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
«الموسم الأول، الاستبار الأول»

– الطبقة 11 : يصل عمقها إلى مترونصف وتتكون من ركام من التراب الأحمر المختلط بالحصى "بقايا جدار مهدم". لم يعثر على أية لقى خزفية بهذه الطبقة.

– الطبقة 12 : يتراوح عمقها ما بين 1,50 و1,75 مترا وتتميز بنفس خصوصيات الطبقة السالفة، ولكن عثر بها على 24 لقى خزفية 75 في المائة منها من الصنف البحايري.

– الطبقة 13 : يتراوح عمقها ما بين 1,75 ومترين و20 سم وتتكون من حجارة كبيرة ومن ركام [بقايا جدار] وكذا من الرماد والصلصال الأحمر وبلغ عدد اللقى 97 مختلطة ما بين سجلماسية وبحايرية.

– الطبقة 14 يتراوح عمقها ما بين متر واحد و1,40 مترا وتقع بالركن الشمال الغربي وتتكون من ركام من التراب الأحمر الصلب المختلط بالحصى [بقايا جدار]، اللقى الخزفية بلغ عددها 31 وكلها بحايرية.

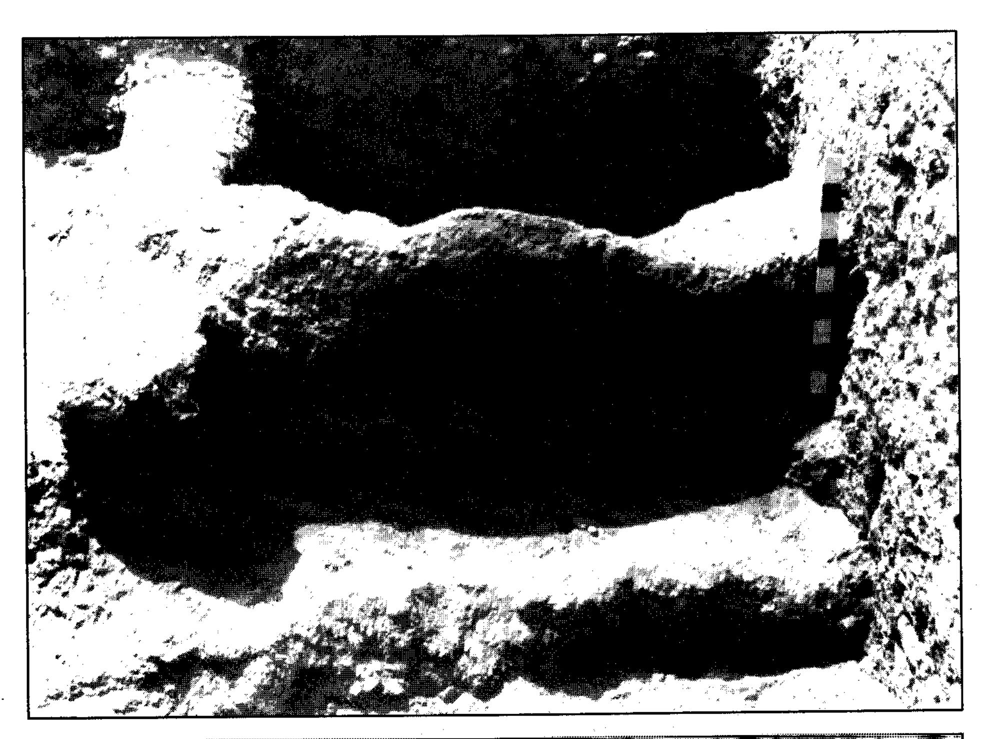
• **الاستبار الثاني** : تم الحفر فيه ما بين 25 و29 يونيو 1988 ويقع في قلب أنقاض حفريات 1974. بلغت مساحة هذا الاستبار 1,20x2 مترا ووصل عمقه إلى متر واحد. يهدف هذا الاستبار إلى إبراز ما إذا كانت هناك آثار سابقة عن مكتشفات أبحاث 1974. وقد تم الكشف عن تسع طبقات، بينما لم يتم العثور على أي أثر مهم ما عدى سارية مستديرة الشكل والمبنية من الحجارة المملطة بالجبس والتي يمكن تأريخها ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي. كما يظهر من طبقات هذا الاستبار أن المباني السجلماسية قد أعيد استعمال موادها في البناء. أما القطع الخزفية فهي جد قليلة و لم تتجاوز 28 لقى ينتمي أغلبها لصنف بحاير والمؤرخ ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر

الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي وخاصة بالقرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي ومن أهم أشكالها القناديل، والأقداح والجرات الصغيرة.

• **الاستبار الثالث** : يهدف اختيار هذا الاستبار إلى التحقق من الموقع الفعلي لمعامل الخزف الحديث والتي أنشئت على أنقاض مدينة سجلماسة ما بين القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي والقرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي. يقع هذا الاستبار في نصف الطريق بين خزان الماء والملعب الرياضي على بعد 600 مترا جنوب غرب الاستبار الأول. ودامت الأشغال بالاستبار الثالث من 29 يونيو إلى 15 يوليو 1988 وبلغت مساحته 5x5 أمتار (25م²) ووصل عمقه إلى 4,05 أمتار وتم الكشف خلاله عن 22 طبقة أثرية.

وبصفة عامة، تم العثور بهذا الاستبار على عدة مؤشرات تدخل في الصناعة الخزفية تدل على إمكانية وجود مركز الخزف السجلماسي الحديث بهذا المكان. ويتجلى ذلك خاصة من خلال الكشف عن بناية مرتبطة بالمعامل الخزفية على شكل مخزن أو فضاء لإعداد الصلصال، وعن قعر لجرة كبيرة كانت تستعمل في تحضير الخليط الطيني. كما اكتشفت بهذا الاستبار كميات من الرماد والفحم، وكذا الأواني الخزفية غير المكتملة الصنع، وأجزاء من النحاس المكلس، وأطراف من الصلصال الأحمر المحروق وعدد كبير من اللقى والقطع الخزفية من أهمها الجرة الكبيرة التي اكتشفت بالطبقة 10 على عمق 1,23 مترا.

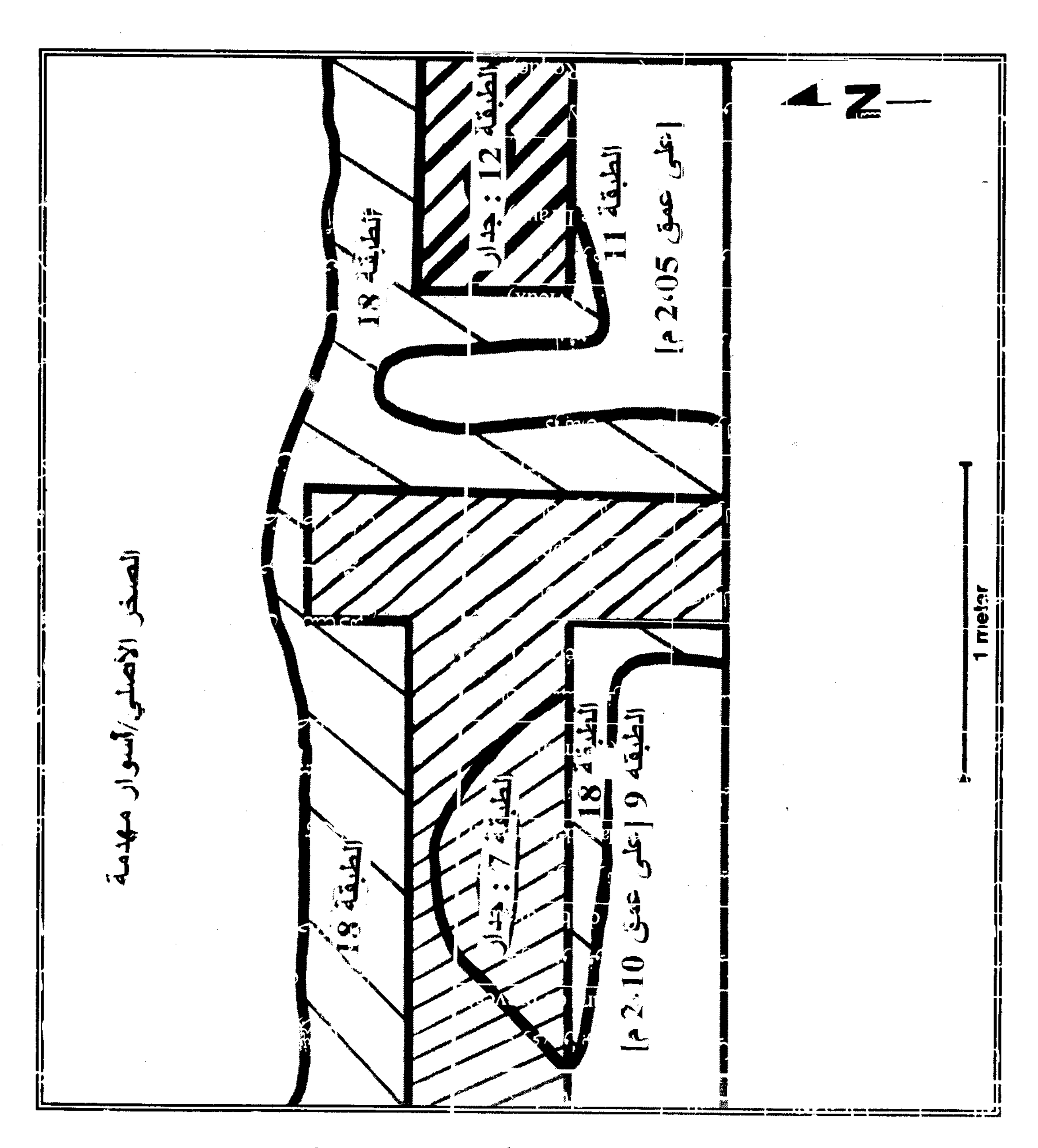
• **الاستبار الرابع** : يقع على بعد حوالي 300 مترا غرب الاستبار الأول وسط مجرى نهر زيز بالقرب من السور الغربي لسجلماسة. الحفريات أجريت داخل بناية مغطاة بالرمال كتشف عنها جريان وادي زيز. كان من أهداف الاستبار الرابع تحديد وظيفة هذه البناية، ودراسة تركيبة الجدران وإعطاء فكرة عن النمط المعماري للبناية. بدأ العمل بهذا الاستبار يوم 5 يوليو 1988 بإزالة الرمال





الصورة 13 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

«الموسم الأول، الاستبار 3»



التصميم 8 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

الموسم الأول، الاستبار 3

وتنقية السطح قصد تحديد حدود المنطقة وإعداد التصميم وأخذ الصور، وقد تم العثور على بعض اللقى الخزفية العادية من الصنف الحديث بالركن الشمال ـ الجنوبي. لم تشمل الحفريات كل البناية بسبب ضيق الوقت، وإنما اقتصرت على موضعين اثنين فقط : الحوض في الوسط [الاستبار الرابع ـ أ] والغرفة الواقعة في الجنوب [الاستبار الرابع ـ ب].

• **الاستبار الرابع ـ أ** : وتم الحفر فيه في الفترة ما بين 9 و15 يوليو 1988 ويتكون من ثماني طبقات ووصل الحفر إلى عمق مترين و40 سم. ويمكن إجمال أهم النتائج المستخلصة من هذا الاستبار كما يلي :

– الطبقات الأثرية ليست دائما مستقرة ومتتالية بشكل واضح من الأعلى إلى الأسفل ومن مكان إلى أخر، وإنما تظل عموما مضطربة، كما هو الحال في معظم أجزاء موقع سجلماسة. وهذا ما يحيل دون تحقيق دراسة استراتيغرافية واضحة والوصول إلى التمييز بين مختلف مراحل الاستيطان الإنساني بالمدينة.

– ينتمي الحوض الذي كان مغطى بملاط من الجبس والجير، إلى فترة متأخرة عن التكوينات التحتية. ويؤكد ذلك اكتشاف عدة لقى خزفية من النوع السجلماسي "الوسيط" بمعظم الطبقات السفلية. ويطرح وجود هذا الحوض نفسه وكذا القناة التي تربطه بمرافق سجلماسة، إشكالية حول الوظيفة الحقيقية للبناية نفسها التي تعرضت لعدة تغييرات في مرحلة لاحقة، إذ تحولت ربما إلى ناعورة كانت تزود سجلماسة أو القصبة السجلماسية بماء الشرب أو بمياه السقي.

– فيما يخص الخزف المكتشف بهذا الاستبار، يمكن القول إن القطع التي عثرت على السطح وخاصة بالركن الشمال الشرقي، تنتمي إلى المعامل الخزفية التي شيدت على أنقاض خراب مدينة سجلماسية ابتداء من نهاية القرن الثامن

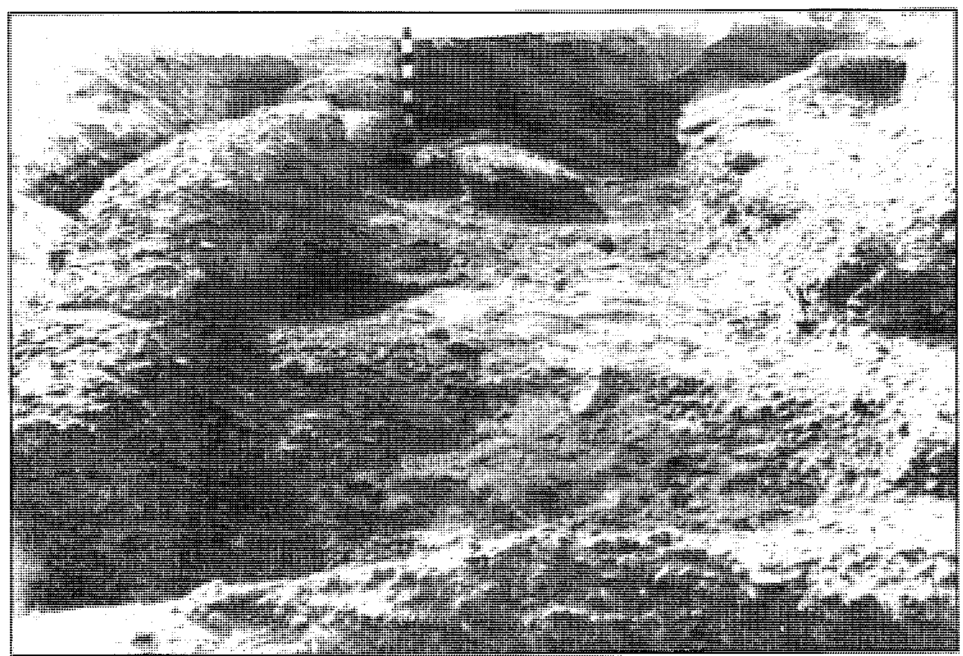
الهجري/الرابع عشر الميلادي. وفي المقابل، تنتمي اللقى المكتشفة بالطبقات التحتية إلى الصناعة الخزفية السجلماسية "الوسيطية".

• **الاستبار الرابع ـ ب** : أجريت به الحفريات من يوم 9 إلى يوم 13 يوليو 1988 ويتشكل من خمس طبقات وصل العمق بها إلى مترين و70 سم. ويمكن القول إن هذا الاستبار يتشابه مع سابقه، إلا أن الطبقات الأثرية بهذا الأخير تظل أقل اضطرابا وذات سمك أكبر. وتنتمي القطع الخزفية المكتشفة كلها لصنف معامل وادي غريس [القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ـ الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي].

• **الاستبار الخامس** :

يقع على بعد 100 مترا غرب الاستبار الأول، تبلغ مساحته 5x5 أمتار [25م2] ووصل عمقه إلى مترين و50 سم. ويهدف هذا الاستبار إلى تحديد طبيعة البقايا الأثرية التي تظهر بهذا المكان عند سقوط المطر كمكونات عمرانية على شكل بناية مهمة. إلا أن الحفريات لم تؤكد هذا الطرح إذ لم يعثر على أي تشكيل معماري واضح، وإنما فقط على ركامات مختلفة من التراب البني المختلط بالحجارة والرماد وأحيانا بالرمل.

وتنتمي أغلبية القطع الخزفية المكتشفة بهذا الاستبار إلى فترة القصبة السجلماسية وربما تم جلبها من المركز الخزفي بحاير الأنصار أو استوردت من بعض المدن المغربية الأخرى وخاصة من فاس. هذا الخزف يمكن تأريخه ما بين بداية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي. أما النمط السجلماسي فلم تكتشف منه سوى لقى قليلة بالطبقتين 10 و11 وعلى عمق يتراوح ما بين 1,95 متر ومترين و37 سم. وكان من الممكن أن يقدم الاستبار الخامس الكثير من المعطيات



الصورة 14 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

الموسم الأول، الاستبار 4

الأركيولوجية لو توفر الوقت لمتابعته أو إتمامه، إذ لم يستغرق فيه العمل إلا ما بين 12 و 25 يوليو 1988 و لم تكتشف خلاله إلا عن 12 طبقة أثرية مختلفة.

صفوة القول إن حفريات الموسم الأول من البعثة المغربية الأمريكية وإن اتخذت طابع التحري الأولي، توصلت إلى حصيلة مهمة يمكن إجمالها في الاكتشافات التالية :

* قناة مائية وقطع خزفية جميلة بالاستبار الأول وخاصة منها الجرة الصغيرة التي نقشت عليها كتابات عربية [البركة ـ البركة/اليمن ـ اليمن] والتي يمكن تأريخها بالقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

* قاعدة وجزء من سارية بالاستبار الثاني تنتميان إلى البناية التي حفرت خلال حفريات 1974. هذه السارية يمكن تأريخها بالقرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وقد شيدت على أرضية تنتمي إلى المكونات المعمارية السجلماسية.

* الكشف عن بناية بالاستبار الثالث تنتمي إلى معامل الخزف المشيدة على أنقاض مدينة سجلماسة ابتداء من نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أو بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. هذه البناية ترتكز بدورها على آثار سجلماسية سابقة عبارة عن جدران مهدمة.

ب) الموسم الثاني (1992) :

أنجزت البعثة المغربية الأمريكية[43] في صيف سنة 1992 ما مجموعه 15 استبارا (من رقم 6 إلى 20) وهمت وسط الموقع المسمى نطاق المسجد الجامع وأيضا

(43) أعضاء البعثة : رونالد ميسيي Ronald Messier كمدير الأبحاث، ونيل ماكينزي Mackenzie Neil كمساعد، ولحسن تاوشيخت كباحث في الخزفيات، وديل لايتفوت Lightfoot Dale وجيمس ميلر James Miller كجغرافيين، وجيمس كنودستاد James Knudstad كأثري، فضلا عن طلبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث I.N.S.A.P ومتطوعين من مؤسسة إرتواتش Earthwatch.

الأجزاء الجنوبية والشمالية والغربية للموقع. وأثبتت وجود مستويين من الاستغلال على الأقل تحت مستوى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي والذي كشفت عنه حفريات 1974 .

• **الحفريات :**

– أنجز الاستبار الأول على بعد 100 مترا جنوب شرق البرج الشمالي وفيه تم الكشف عن مستويين قرب السطح يتكون أحدهما من الغبار على عمق متر واحد، بينما عثر بالمستوى الثاني عن لقى خزفية وبقايا معمارية تؤرخ ما بين القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

– يقع الاستبار 6 وهو على شكل برج، في منطقة السور الغربي وفيه تركزت الجهود لمعرفة حدود مدينة سجلماسة من الجهة الشمالية ـ الغربية. وتم الكشف بهذا الاستبار عن مستويين : الأول يتكون من واجهة شبه مائلة وينتمي إلى الفترة العلوية ما بين القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي. ويقع على المستوى الثاني الذي يرجع إلى العصر السجلماسي ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. ومن الممكن أنه أُستغل كمخزن في فترة لاحقة ما بين القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ومنتصف القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي.

– أُجريت الحفريات بالاستبار 8 على بعد 160 مترا إلى الشمال من الاستبار 6 على طول وادي زيز، وهو أيضا على شكل برج تم العثور فيه على كميات كبيرة من الرمال وعلى عدة جدران تمثل ربما غرفا صغيرة وعلى الجزء من السور الرابط بين البرجين.

– أُنجز الاستبار 9 في المنطقة الجنوبية وفيه تم تأكيد أن هذا المكان يمثل حيا سكنيا بفعل وجود عدة بقايا من الخزف ذي الاستعمال المنزلي، وكوانين وحفر مليئة بالرماد. وتم العثور بهذا الاستبار على ثلاث مستويات استغلال على الأقل : يبلغ عمق الأول حوالي 0,75 مترا ويتكون من الرمل وبعض الأحجار ويرجع هذا المستوى إلى فترة متأخرة [عصر القصبة السجلماسية].

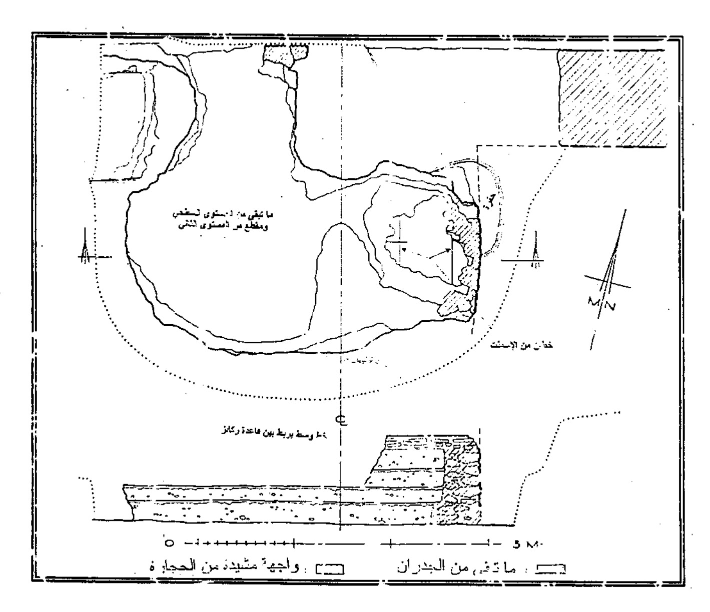
يتشكل المستوى الثاني من أسوار شيدت بالطابية وفيه كشفت بعض مؤشرات الصناعة الخزفية، مما يدعو إلى القول إنه يعود إلى فترة ما بعد تخريب سجلماسة واستغلال هذا الموضع لإقامة المعامل الخزفية ما بين القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي والقرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. ويصل عمق المستوى السفلي إلى 3,20 أمتار ويتكون من أرضية وجدران بنيت بالطابية وفيه تم اكتشاف الجرة الكبرى لحفظ المواد الغذائية، وكوانين، وصحن كبير زين بكتابة عربية [بالشفاء] والذي يمكن تأريخه بالقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ينتمي هذا المستوى إلى الفترة السجلماسية أي ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. وأظهرت التحاليل المخبرية على بعض البقايا النباتية التي اكتشفت بالاستبار، هيمنة المواد الغذائية بنسبة 79 إلى 89 في المائة، وأيضا اختلافا في التوزيع، إذ تنتشر الحبوب في الطبقات الدنيا بينما توجد النباتات الطبيعية في الطبقات العليا.

– أُنجز الاستبار 11 على أنقاض حفريات 1974 وكشف عن وجود طبقتين أسفل مستوى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي : تمثل الطبقة الأولى أرضية مبنية من حجارة مرصوصة مع عمود دائري مشيد من الحجارة ويمكن تأريخ هذا المستوى بالفترة الممتدة من القرن التاسع الهجري/الخامس

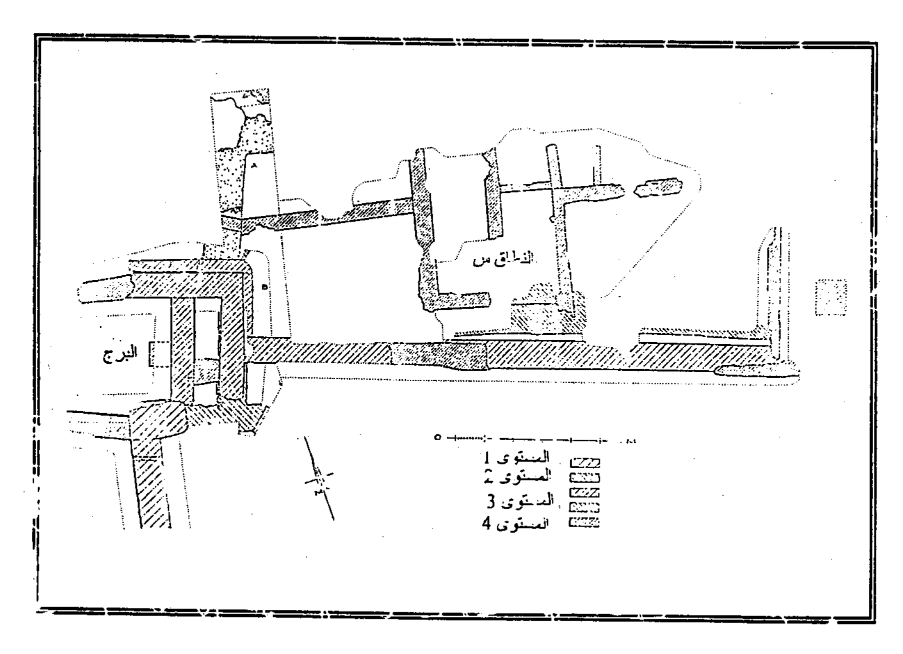
عشر الميلادي إلى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. وتقع الطبقة الثانية تحت الأولى وتتكون من أرضية مبنية من التراب المدكوك وكذا من قنوات لنقل المياه المستعملة ويمكن تأريخ هذا المستوى ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

– وكشف الاستبار 12 في المنطقة الوسطى عن مستويين رئيسيين : ينتمي الأول إلى العصر العلوي ويتراوح عمقه ما بين 0,60 و1,70 مترا ويتكون من مجموعة من الجدران المشيدة من الطابية. المستوى السفلي يمتد من مترين إلى مترين ونصف ويتضمن عدة أرضيات تتخللها عدة حفر مليئة بركام من الأتربة وقنوات مائية. وتم العثور في إحدى هذه الحفر على جرة صغيرة جميلة كما عثر على آنية من الزجاج المزينة بزخارف زهرية والتي يعتقد أنها مستوردة من مصر ويمكن تأريخها بالقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. اعتمادا على المكتشفات الخزفية يرجع المستوى الأول إلى الحقبة العلوية وبالضبط ما بين القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، بينما يؤرخ المستوى السفلي بالعصر السجلماسي أي ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

– أُنجز الاستبار 16 على بعد حوالي 10 أمتار شمال البرج السابق [الاستبار 8] لمعرفة امتداد السور السجلماسي الغربي نحو الشمال، إلا أن الحفريات لم تعثر على أي شيء ويعتقد أن هذا البرج يمثل زاوية السور.



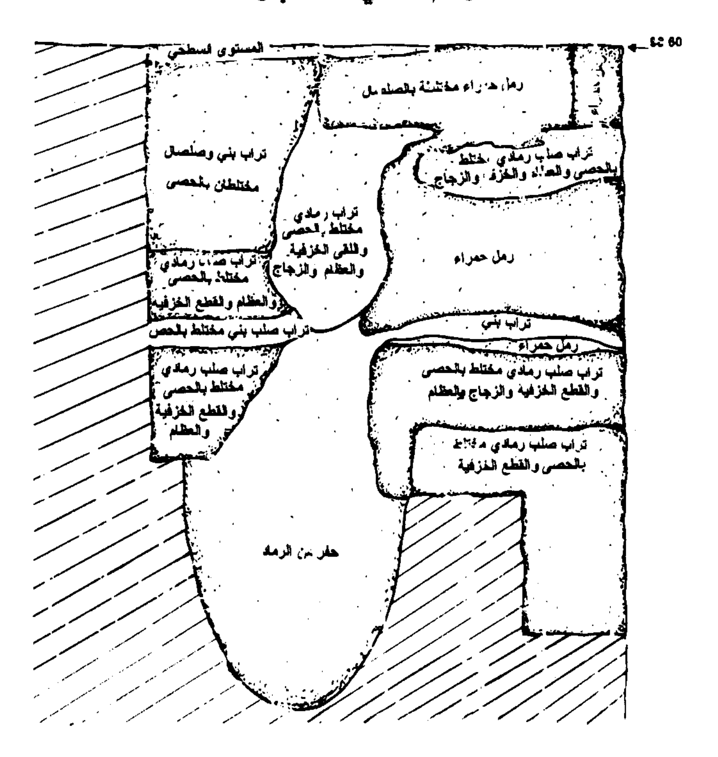
التصميم 9 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الثاني، الاستبار 7 (مقطع وتصميم المحراب)



التصميم 10 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الثاني، الاستبار 8 (تصميم البرج والجدران)



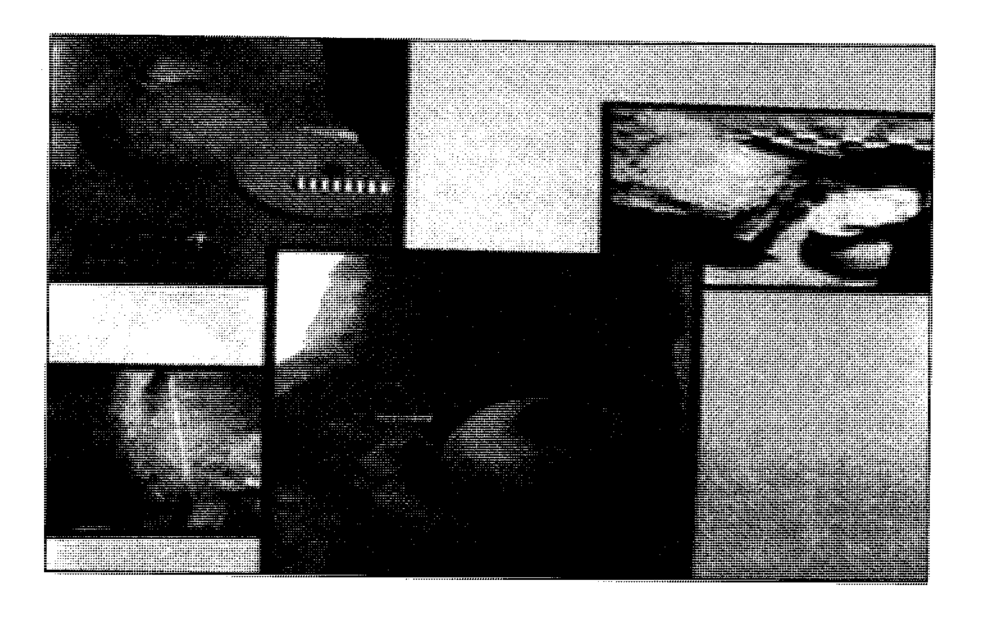
الصورة 15 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الثاني، الاستبار 8



التصميم 11 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الثاني، الاستبار 9 (مقطع الواجهة الجنوبية)

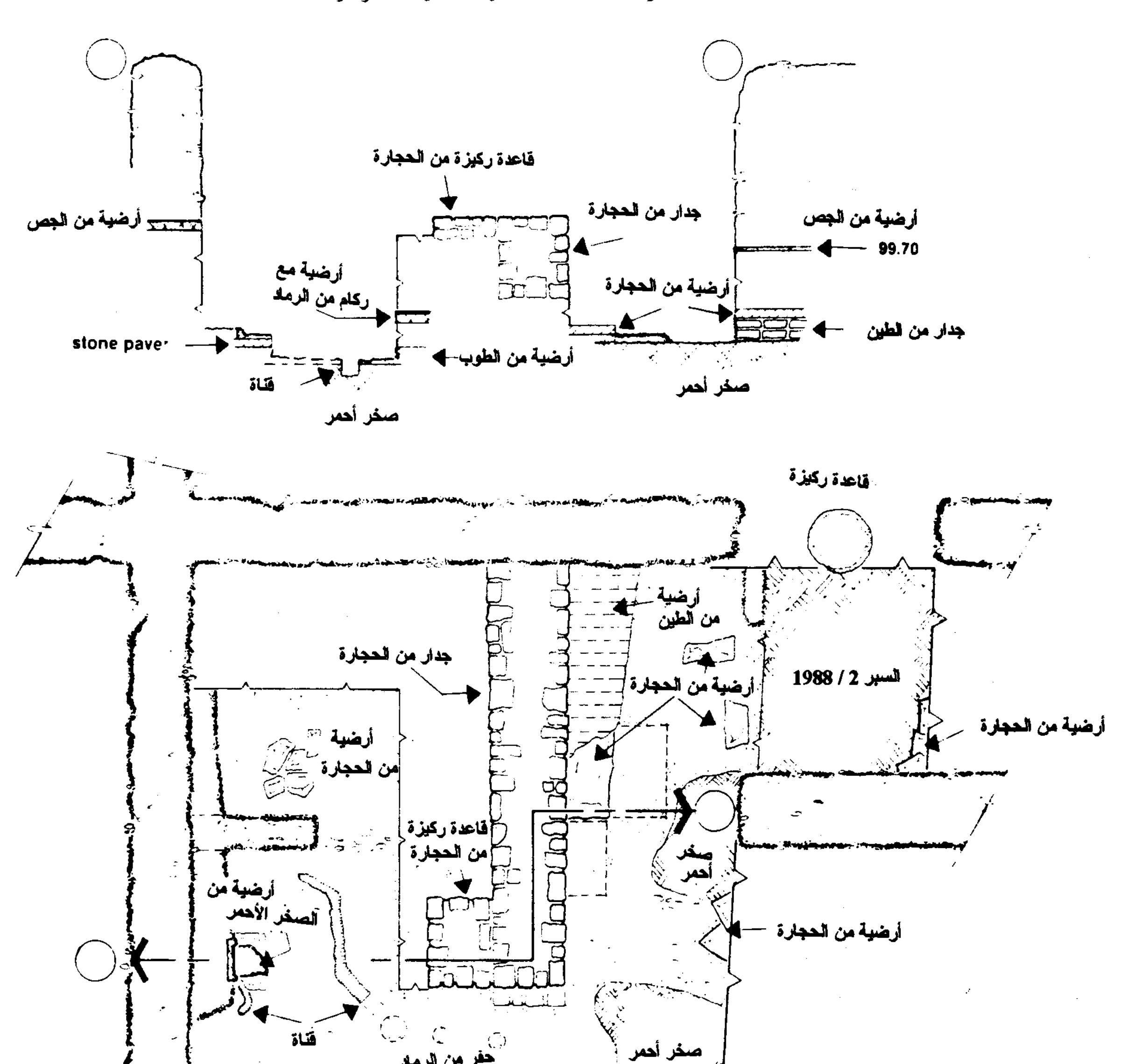
التصميم 12 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

الموسم الثاني، الاستبار 9 (مقطع الواجهة الشرقية)



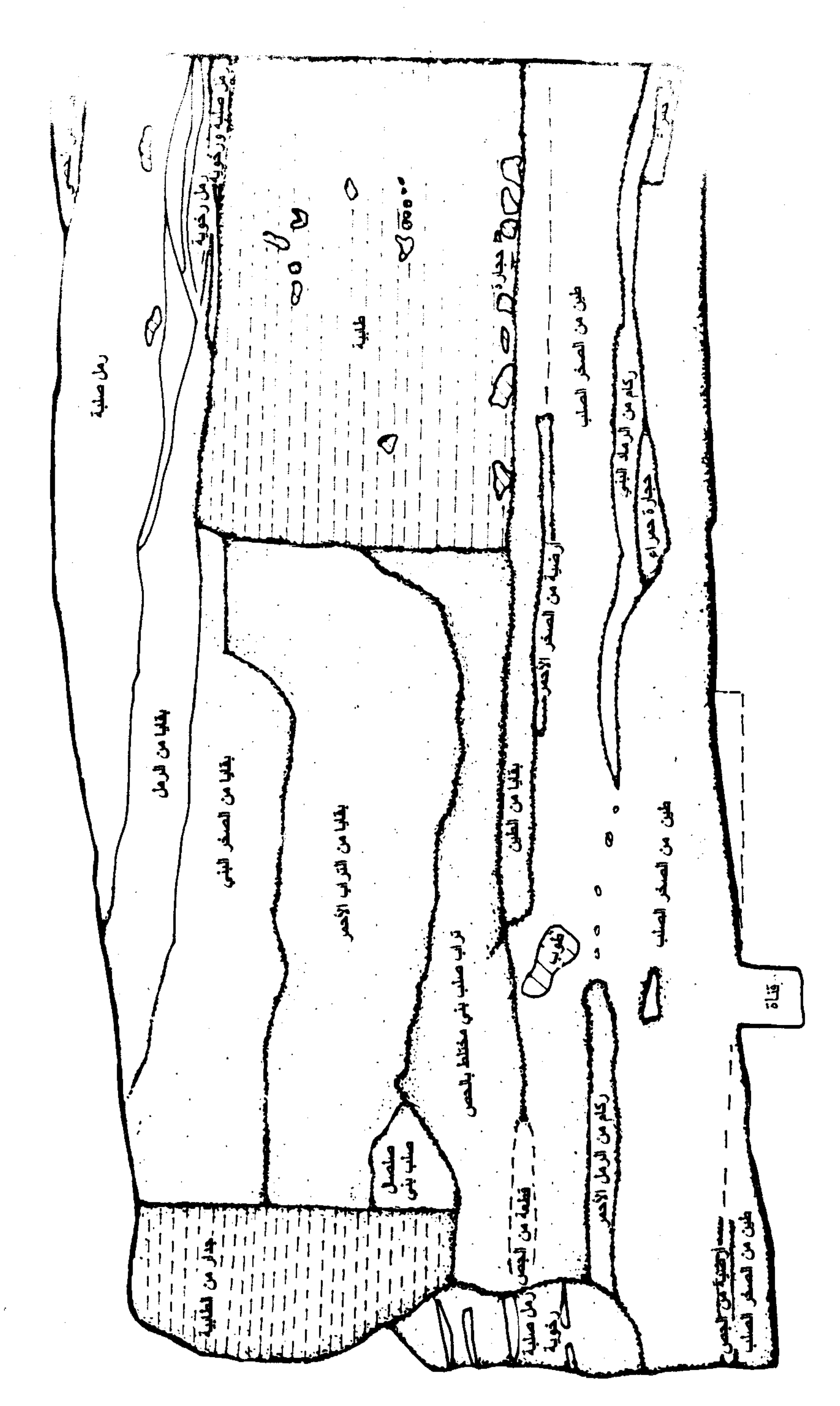
الصورة 16 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

الموسم الثاني، الاستبار 9 (بعض اللقى المكتشفة)

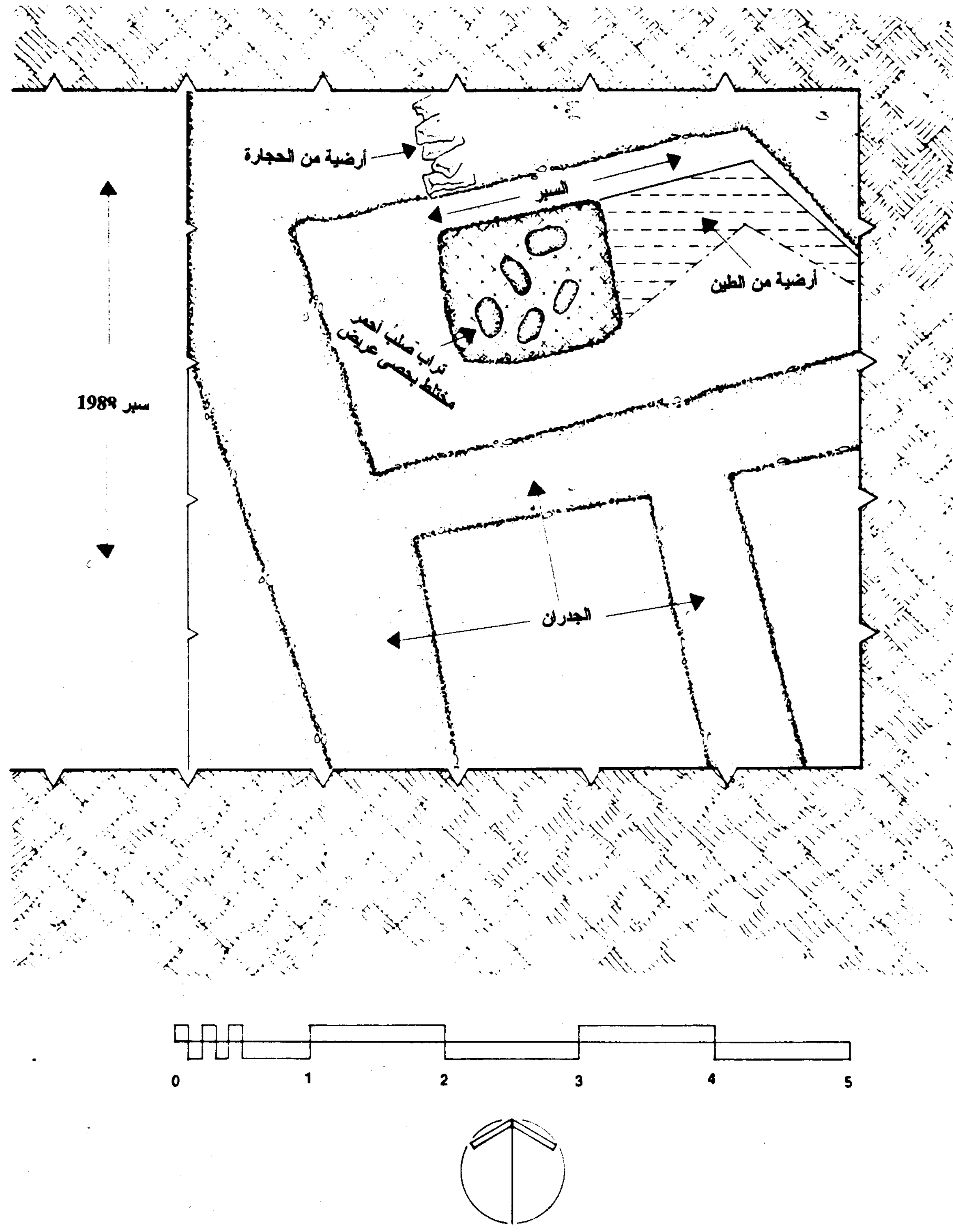


التصميم 13 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

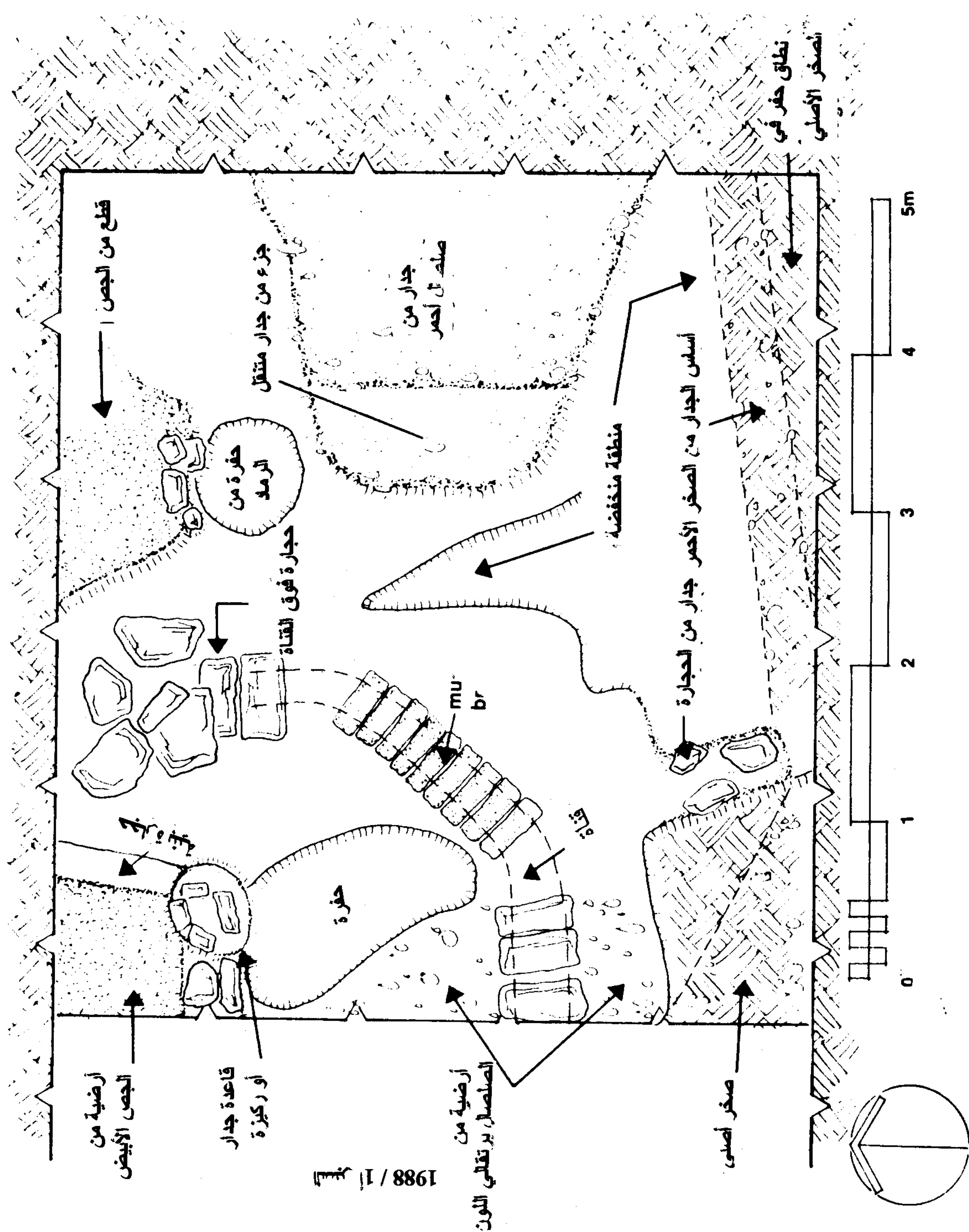
الموسم الثاني، الاستبار 11 (مقطع وتصميم الواجهة الشمالية)



التصميم 14 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الثاني، الاستبار 12 (مقطع الواجهة الشمالية)

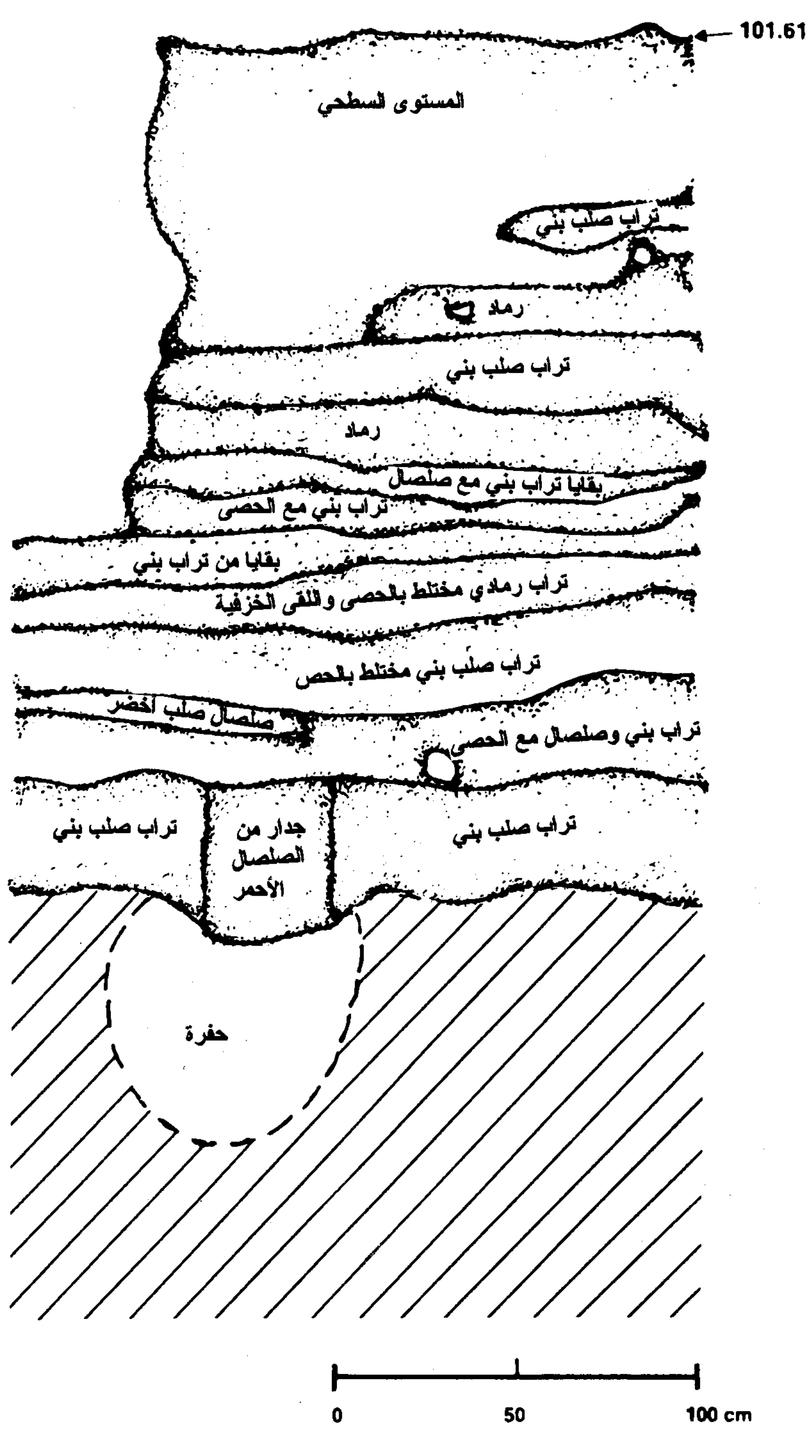


التصميم 15 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الثاني، الاستبار 12 (تصميم الجدران)



التصميم 16 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

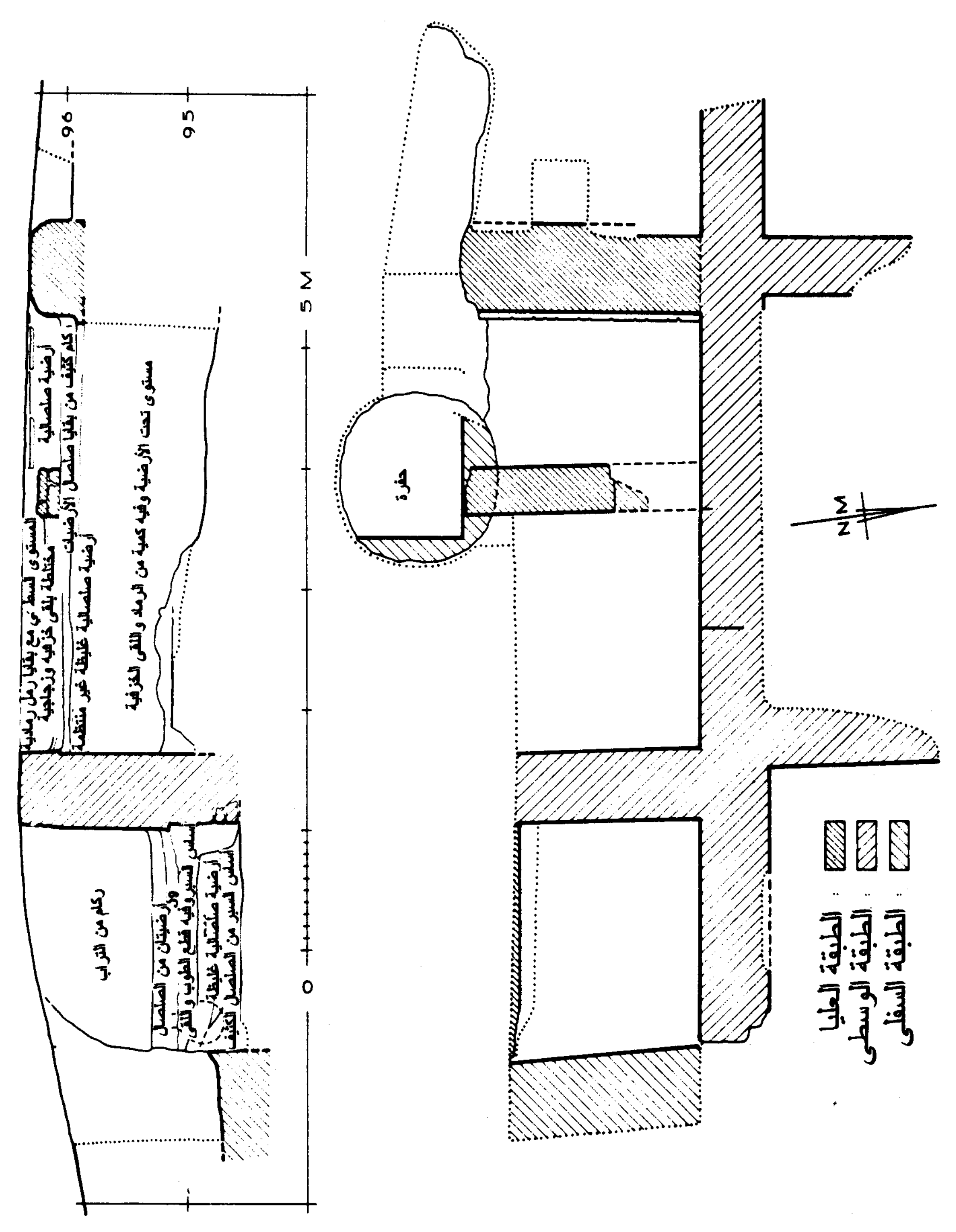
الموسم الثاني، الاستبار 12 (تصميم القناة)



التصميم 17 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية الموسم الثاني، الاستبار 13 (مقطع الواجهة الشمالية)

– يقع الاستبار 18على مسافة قصيرة إلى الجنوب من الاستبار 8، وهو على شكل كدية صغيرة ناتجة عن وجود جدران غرفة وسطى محددة قريبة من السطح. وقد تم العثور بالجهة الغربية لهذا الاستبار على بئر، وعلى جدار من الطوب في وسط الغرفة والذي يقسم الغرفة نصفين مع وجود مدخل في الشمال. وإلى أسفل من هذا المستوى وجد ركام من الأتربة والغبار والذي يمكن تأريخه بالفترة ما بعد سجلماسة ما بين القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي والقرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. ومن الممكن أن تعود الطبقة العليا إلى عصر القصبة السجلماسية ما بين القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي].

كما أُنجزت أسبار أخرى على طول الجدار الجنوبي للمسجد الجامع وأظهرت أساس المحراب وموضع المحراب الذي يقع بهذا الموضع وليس بالجدار الشرقي كما كان يعتقد من قبل. وكان الظن أيضا أول الأمر أن هذا المسجد شيد في الفترة العلوية خلال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي ثم القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، إلا أن اتجاهه يثبت أنه بني فوق مسجد سابق.



التصميم 18 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

الموسم الثاني، الاستبار 18 (مقطع الواجهة الجنوبية)

• الدراسة الخزفية :

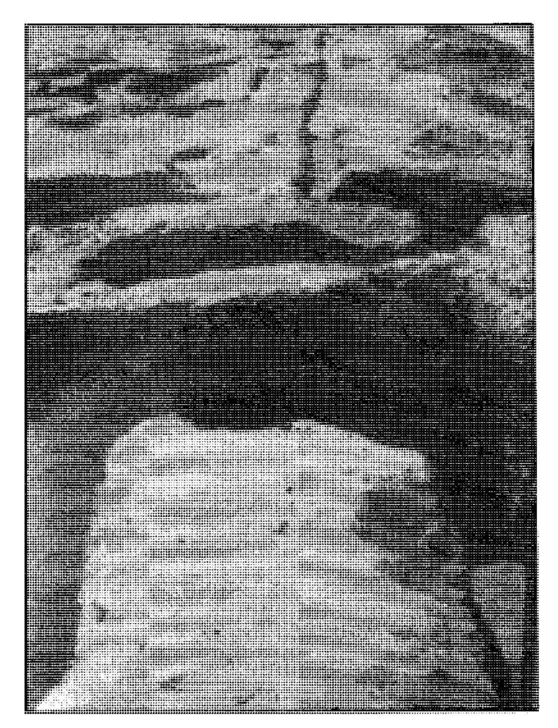
قام الباحث لحسن تاوشيخت المتخصص في الخزف السجلماسي بجرد 1200 قطعة خزفية وصنفها إلى ثلاث مجموعات تنتمي كل واحدة منها إلى مرحلة تاريخية معينة : الصنف الأول يتضمن خزف سجلماسة ويؤرخ ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. الصنف الثاني يشمل الخزف الحديث وكان إنتاجه ما بين القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي والقرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. والصنف الأخير يهم الخزف المعاصر "وخاصة المعروف بالبحايري نسبة إلى قصر بحاير الأنصار" ويرجع إلى الفترة الممتدة ما بين القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي والقرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.

• الدراسة الجغرافية :

كشفت صور الأقمار الاصطناعية بواسطة نظام G.I.S. عن خريطة للمؤهلات الفلاحية وللموارد المائية بتافيلالت، إذ قام الجغرافيان لايتفوت D. Lightfoot وميلر J. Miller بتحليل معطيات هذه الصور وقارناها بمعلومات الرواية الشفوية حول استغلال الأرض واستعمال المياه السقوية وتوصلا إلى رسم خريطة طبوغرافية ـ جيولوجية لواحة تافيلالت وفيها تظهر مدينة سجلماسة كمدينة موحدة تمتد على حوالي 13 كيلومتر من الشمال إلى الجنوب وحوالي كيلومتر واحد ونصف شرق وادي زيز.

• الدراسة الطبوغرافية :

قام الفريق الطبوغرافي بجمع المعطيات باستعمال نظام E.D.M. فأعاد النظر في الخريطة الطبوغرافية لسنة 1988 وأضاف إليها المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية. كل هذه المعطيات أُدخلت إلى الكومبيوتر قصد استخراج خريطة للموقع أكثر دقة وتفصيلا.



الصورة 17 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الثاني، الاستبار 12 (بقايا السور الغربي)

ج) الموسم الثالث (1993) :

تهدف أبحاث هذا الموسم[44] إلى تدقيق معرفة الطبقات الأركيولوجية بموقع سجلماسة وخاصة بالجزء المركزي منه، واستكمال الدراسة الخزفية في تسلسلها الكرونولوجي، وإنجاز دراسة أثرية ـ نباتية للقطع المكتشفة، والقيام بجمع بقايا العظام ومواد التربة ودراستها في مختبرات علمية.

(44) أعضاء البعثة : رونالد ميسيي Ronald Messier : مدير الأبحاث، ونيل ماكينزي Mackenzie Neil : مكلف بالحفريات، ونانسي بينكو Nancy Benco : مكلفة بالمختبر، وسينتيا بيكر Cynthia Becker : مساعدة بالمختبر، ونانسي ماهوني Nancy Mahoney : دراسة البقايا النباتية، وباسيونس فريمان Patience Freeman : دراسة بقابا العظام الحيوانية، وديل لايتفوت Lightfoot Dale : الدراسة الجغرافية، وأليزا شنارس Alisa Schnnars : مصورة، ولحسن تاوشيخت : منسق، وكَريكْ لانتش Greg Lynch : مكلف بالمعلوميات، إضافة إلى 10 طلبة من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث I.N.S.A.P. و6 متطوعين من منظمة أورتواتش Earthwatch.

• **مجريات الحفريات :**

جرى الموسم الثالث من الحفريات في شهري مايو ويونيو من سنة 1993، وتم بشكل اعتباطي، إنجاز أربع أسبار [21-24] بالمنطقة الجنوبية من وسط الموقع.

– الاستبار 21 وفيه تم الكشف عن كمية كبيرة من الرمال الصفراء الدقيقة على عمق متر واحد ويبلغ قطره 0,75 مترا، كما تم العثور أيضا على العديد من القطع الخزفية وعلى كميات من الرماد، مما يفسر أن هذا المكان كان عبارة عن مخزن للمواد الغذائية.

– الاستبار 22 ويقع إلى الجنوب الشرقي من الاستبار 18 وفيه أجريت عملية تنظيف للمكان الذي غطته الرمال، وكشفت الحفريات عن بقايا بنايات تقع داخل السور الغربي للمدينة وفي خط مستقيم من البرج [الاستبار 8] وربما إلى وسط المدينة (المسجد).

– الاستبار 23 تم حفره شمال المقبرة اليهودية وتم الكشف فيه عن بعض الجدران التي تقع فوق أرضية يبلغ سمكها ما بين 0,35 و0,40 مترا.

– الاستبار 24 يقع ما بين الاستبارين 21 و22 وفيه أظهرت الحفريات عن بقايا بنايات من الممكن أنها تمثل حيا سكنيا وتنتمي إلى الفترات التاريخية الثلاثة [السجلماسية، وما بعد سجلماسية، ومرحلة القصبة السجلماسية].

وهمت الحفريات أيضا امتداد السور الغربي المحاذي للضفة الشرقية لوادي زيز، إذ تم القيام بمجموعة من المقاطع على بعد 30 مترا جنوب الاستبار 6 وشمال الاستبار 8. كما أنجزت عدة أسبار تجريبية من حجم 5x2 أمتار في أماكن مختارة حسب مؤشرات متعددة، وذلك لتحديد الطبقات الأثرية التي بإمكانها أن تساعد على تعميق الفهم لموقع سجلماسة.

• **الدراسة الخزفية :**

خلال هذا الموسم، تم العثور على أكثر من 28000 قطعة خزفية صنفت منها 6800 ووضعت لها قاعدة معطيات حول المكونات الصلصالية، والأشكال والزخرفة وذلك بغية الحصول على ضبط مصدرها الحقيقي وعلى تدقيق التحقيب الكرونولوجي.

• **التحليلات المخبرية :**

قامت الباحثة نانسي ماهوني Mlle Nancy Mahoney من جامعة أريزونا Arizona والمتخصصة في علم النبايات، بجمع 34 نموذجا من التربة المختارة من بقايا الطبقات الأثرية وبنسبة لترين لكل نموذج، وذلك للكشف عن المواد النباتية وتوزيعها وتصنيفها وتحليلها.

كما جمعت الباحثة باسيونس فريمان Mlle Patience Freeman 142 كيسا من العظام [أي 105 كيلو غرام] من الطبقات الأثرية قصد دراستها والوصول إلى عدة مؤشرات بما فيها نوع العظام، ونوع الحيوان، وعمره وجنسه وكذا العلاقة بين النوع وعمليتي الذبح أو التربية. كما ستقدم هذه الدراسة معطيات عن نوعية التموين الذي اختارته الدولة من الإنتاج الفلاحي وخاصة من اللحوم، وما يتميز به كل صنف معين من الحيوانات حسب النوع والعمر والجنس. وسيحدد هذا التحليل كذلك النمط الذي اعتمد في تربية المواشي بالمنطقة وأيضا في تلبية متطلبات سكان سجلماسة إلى المواد الغذائية.

وتمت في هذا الموسم كذلك دراسة عشر قطع من الفحم الخشبي التي أخرجت من الطبقات الأثرية. وأثبت تحليلها بواسطة الكاربون C14 من طرف مختبر التحليلات Betal Analytic Laboratory بمدينة ميامي Miami بولاية فلوريدا Florida الأمريكية، على انتماء خمسة منها إلى مستوى استغلال موقع

سجلماسة قبل ظهور المرابطين أي في فترة الإمارة السجلماسية المستقلة مع بني مدرار أو بني مغراوة.

د) الموسم الرابع (15 أكتوبر - 15 دجنبر 1994) :

تهدف تنقيبات[45] هذا الموسم إلى تحديد التشكيلات المعمارية لسجلماسة بصفة عامة ومعرفة تسلسل الطبقات الأثرية بالمسجد الجامع بصفة خاصة، وأيضا وضع الخزف المكتشف في إطاره الأثري، وتحليل المواد النباتية والحيوانية وتأريخ القطع الفحمية بواسطة الكاربون C14.

وقد طرحت خلال هذا الموسم إشكالية عامة ترمي إلى إيجاد تفسيرات عن تأثير تحكم الدولة المركزية في التطور العمراني لمدينة سجلماسة وعن تأثير وحدة المدينة ونشاطها الاقتصادي باختلاف الأنظمة السياسية المتعاقبة على حكمها. توضيح العلاقة بين الاقتصاد المحلي وتجارة القوافل البعيدة ونوعية الاقتصاد السجلماسي من حيث تبعيته للدولة المتحكمة أو موجها للسوق.

• الحفريات الأثرية :

أنجزت البعثة عشرة أسبار [من الاستبار 25 إلى الاستبار 34]، شمل أهمها المسجد الجامع، إذ كان من بين أولويات الموسم الرابع القيام بأسبار واسعة بداخل هذا المسجد بلغ عددها عشرة :

– يقع الاستبار الأول في المكان المحدد للمحراب بينما شكلت الأسبار الأخرى امتدادا له في الجهة المقابلة للقبلة. وقد كشفت الحفريات عن طبقات أثرية سابقة عن المسجد الحالي : فالطبقة العليا هي عبارة عن أرضية مسطحة تم إعدادها من طرف البعثة المغربية الإيطالية سنة 1971 وتتكون هذه الأرضية

(45) تكونت البعثة تقريبا من نفس تشكيلة الموسم الثالث في أعضائها الأساسيين مع اختلاف في الطلبة المغاربة والمتطوعين الأمريكيين.

من تبليط بالحصى والكلس على سمك يتراوح بين 0,30 و0,40 متر وتتشكل من قطع مهمة من الجبس المنقوش.

الطبقة الثانية عبارة عن أرضية رقيقة السمك جدا تتراوح ما بين 2 و3 سنتمترات وتشمل نفس مساحة الأرضية الأولى. هذان المستويان ينتميان ولا شك إلى المسجد العلوي. الأعمدة ذات مقاييس مختلفة أي 0,70 على 0,70 متر بالجهة الغربية وحوالي متر واحد على 0,90 متر بالجهة الشرقية، حيث يتخذ المسجد اتجاها جنوبيا.

في هذا الموسم، تركزت الحفريات التي أجريت بالمسجد على البلاطة المركزية، وكشفت النتائج عن طبقات أثرية واضحة وعن وجود أعمدة مخالفة لتلك المنتمية للفترة العلوية من حيث مواد البناء، ومن حيث المستوى والامتداد. هذا التغيير المهم أدى إلى توسيع الأسبار في الاتجاهين الأيمن والأيسر. وهكذا تم العثور على بقايا سكة المنبر وعلى عدة سواري تدل على وجود مسجد سابق عن الفترة العلوية. وهو مسجد تختلف أساسات أعمدته فيما بينها من جهة ومع بلاطته المركزية من جهة أخرى، و يرتبط هذا الاختلاف على مستوى الأساسات بالحجم وتقنية البناء. ويمثل هذا المستوى توسيعا للمسجد في اتجاه الغرب خاصة وأن المنبر قد تم تركيبه في هذه الجهة. واكتشف الجدار المقابل للقبلة بالاستبار 39 ويتشكل من طابية طينية حمراء مختلطة بالحصى يبلغ عرضها 0,73 مترا.

في الجهة الشمالية الشرقية للمسجد، تتسم الأساسات بالشكل المستطيل ذات طول يتراوح ما بين 0,90 مترا و1,80 مترا بينما يتراوح عرضها بين 0,70 مترا و0,90 مترا. وتتخذ هذه الأساسات في الجهة الجنوبية الغربية شكلا مربعا من 0,75 مترا في كل جانب. هذه الأساسات الأخيرة بنيت بواسطة حجارة صقلت بشكل جيد. كل هذه المؤشرات تدل على وجود عدة مستويات يبلغ

سمك الأول ما بين 0,25 و0,40 مترا بينما لا يتجاوز سمك المستوى الثاني 0,70 مترا. ويمثل هذا المستوى توسيعا لمسجد سابق يعود ربما إلى الفترة المرابطية. ويؤيد ذلك العثور على بقايا الرخام المزين للمسجد في ركام الهدم والتي تمت إزالتها مع عملية التوسيع خلال العصر الموحدي.

وكشفت الحفريات تحت هذا المستوى، عن مستوى رابع يتشكل من ركام لبقايا الهدم ويضم كميات خزفية كبيرة ذات استعمال منزلي وكذا على قطع من الجبس المصبوغ. ويغطي هذا الركام أرضية مبلطة بالحصى والكلس وتنتمي ولا شك إلى بناية سابقة عن القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

كما ركزت البعثة الأثرية في عمليات التنقيب على منطقة لا يتعدى قطرها 80 مترا إلى الغرب من المسجد وخلالها تم إجراء أربعة أسبار [25 ، و26 ، و27 و28 من حجم 5x5م. تتميز الطبقة العليا لهذه الأسبار بوجود عدد كبير من الحفر "مطمورات صغيرة" يصل عمقها إلى حوالي متر واحد والمليئة بالرمال وبالرماد. وجدت بهذا المستوى أيضا بقايا جدارين شيدا من الطابية واعتمادا على تحليل الكاربون C 14 الذي يعطى سنة 1585 مع تأريخ نسبي ما بين 1430 و1670 يمكن تأريخ هذا المستوى بالفترة العلوية الأولى. وتتشكل الطبقة الثانية من حوض يرتبط بقنوات مائية وتتميز بالاضطراب الناتج ربما عن التغييرات التي عرفتها تلك الحفر. التحليل بالكاربون C 14 لبعض القطع الأثرية من مواد بناء الحوض يقدم سنة 1020م مع تأريخ نسبي ما بين 885 و1220م.

إلى الغرب مباشرة من هذا الحوض وعلى عمق ما بين متر ونصف ومترين، أُنجز الاستباران 27 و28 وفيهما تم العثور على أرضية شيدت من الحجارة وقنوات أرخت بواسطة الكاربون C 14 بسنة 1290 ميلادية مع نسبة من 1175 إلى 1420م. إلى الأسفل من هذا المستوى وجدت بقايا بناية تتكون من أرضية

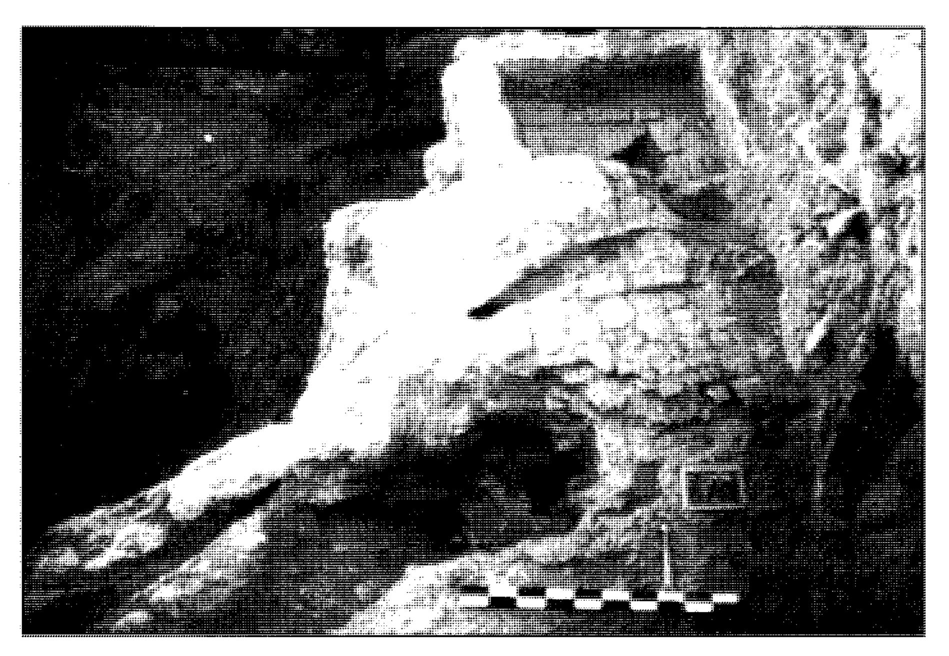
مرصوفة بالحجارة ومن سارية بنيت بالحجارة، كما تم العثور على قطع من الجبس المزين بأشكال هندسية مصبوغة. واكتشفت في بعض الحفر قطع من الزليج وقطعة من الزجاج المزين برسومات وحسب التحليل بواسطة الكاربون C 14، يمكن القول إنها ترجع إلى فترة السيطرة الفاطمية على سجلماسة وبالضبط إلى سنة 855 مع نسبة احتمال تمتد من عام 680 إلى 980م. كما تم العثور على خاتم ذهبي جميل زين بقطع من العاج، مما يعطي فكرة أخرى عن دور المدينة في تجارة الذهب.

في الأسبار الأربعة تتكون الطبقة الثالثة من شبكة مهمة من القنوات المائية، ومن حوض، ومن مسخن ومن حفر. وتدل طبيعة هذه التشكيلات المعمارية على إمكانية أن هذا المكان كان يستغل كدارا للوضوء أو مرحاضا.

وتظل البقايا الأثرية للاستبارين 25 و30 هي التي ظلت محتفظة أكثر وتتكون من حوضين مستطيلين شيدا من الآجر الملصق بطين غنية بالكلس. أحد هذه الأحواض يرتبط بقناتين خصصت الأولى بتزويدها بالماء النقي والأخرى استعملت لنقل الماء المستعمل. ويمثل الاستبار 30 امتدادا للاستبار 25 من ناحية الجنوب التي عثر فيها على مستوى رابع على شكل أرضية مبلطة بالكلس ومغطاة بركام يحتوي على قطع من الجبس المصبوغ والتي تنتمي ولا شك لبقايا منزل جميل.

أما الاستبار 26 فيتميز في المستوى الثالث بوجود تشكيل معماري يتكون من مسخن تحيط به كميات سميكة من الرماد ويتخلل هذا المسخن حوض مائي يرتبط بقناة مائية مشيدة من خليط من الحصى والكلس. وتوجد أسفل هذه القناة قناة أخرى كانت تستعمل في نقل المياه المستعملة. وتتكون المساحة الكلية للاستبار 27 من مجموعة من الحفر العميقة جدا التي أدت تهيئتها إلى تدمير التشكيلات السابقة. ومن الممكن أن هذه الحفر استغلت لخزن المياه المستعملة.

وإلى الشمال من الاستبار 28 يوجد حوض مستدير الشكل ويرتبط بقناة مبلطة بالحصى والكلس، وقد أغلق هذا الحوض بأربع ركامات من الأتربة. ويوجد بالركن الجنوبي للاستبار، حوض آخر يرتبط بقناة مشابهة للسابقة. وتوجد في الجهة الشرقية وفي مستوى أعلى، أرضية مبلطة بالحصى وغنية بالكلس والتي كانت ربما تغطي الشبكة المائية. ويمكن إرجاع هذه الشبكة المكونة من الأحواض والحفر والقنوات إلى بداية العصر العلوي أي نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي.



الصورة 18 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الرابع، الاسبار 28.25 (بقايا أحواض وقنوات مائية)

• الدراسة الجغرافية :

في سنة 1992 بدأ الفريق الجغرافي للبعثة الأمريكية بدراسة جغرافية مفصلة عن سجلماسة وواحة تافيلالت، وقد توبعت هذه الدراسة سنة 1994 من طرف جيمس ميلر James Miller. واعتمدت هذه الدراسة على تحليل الصور الجوية

وصور الأقمار الاصطناعية، وعلى جمع معطيات الرواية الشفوية، وعلى التحريات الميدانية لكل الواحة بما فيها الأودية والسواقي والسدود والحقول.

• الدراسة الطبوغرافية :

يعتبر سوق ابن عقلة أحد المواقع الأثرية المهمة إلى جانب موقع سجلماسة ويقع على الضفة اليمنى لوادي غريس على بعد حوالي 6 كيلومتر غرب مركز سجلماسة وتخترقه الطريق الرابطة بين الريصاني وألنيف على طول 500 مترا. يمثل الموقع حسب الرواية الشفوية، السوق الكبير لمدينة سجلماسة وكانت تحط فيه القوافل التجارة سواء الآتية إلى سجلماسة أو الذاهبة منها. يرجع المسح الأثري الأول بموقع سوق ابن عقلة إلى موسم 1994 وقام به الباحث الجيولوجي توني ويلكنسن Tony Wilkinson وتوصل خلاله إلى اكتشاف خمسة سدود تلية أقيمت على وادي غريس والتي تحد الموقع من الشمال، بينما يحده شرقا ثلاثة أفران لصنع الجير ومن الجنوب مقبرة حديثة. وتظهر على السطح عدة تشكيلات معمارية خاصة عند سقوط الأمطار. يصعب تأريخ هذه التشكيلات لانعدام أي مؤشرات واضحة. فالخزف المنتشر على السطح بكميات كبيرة يتميز بالتنوع وتنتمي 70 في المائة منه إلى الفترة السجلماسية. اعتمد المسح الأثري المنظم على تقنية التربيع وشمل معظم مساحة الموقع، وتلته عملية جمع اللقى المتواجدة على السطح وكذا المسح بواسطة الكشف الميغناطيسي من طرف الباحثين عثمان العلمي وعبد الكريم ريمي من معهد البحث العلمي بالرباط.

• دراسة البقايا العظمية :

جمعت نماذج العظام الحيوانية من الاستبارين 27 و28 فقط والمنجزين داخل البناية العمومية بغرب المسجد. وقد تم تصنيف هذه العظام إلى الأنواع

التالية : 152 من الماعز، و126 من الغنم، و30 من الدواجن، و26 من البقر، و24 من القطط، و20 من الكلاب، و12 من البهائم، و9 أخرى غير محددة. وسيتم إخضاع هذه العظام لتحليلات مخبرية لتحديد نوعية التغذية ونمط تربية الماشية السائدين بسجلماسة.

• **الخريطة الطبو-أثرية :** كان الهدف أيضا من موسم 1994 إعادة ضبط الخريطة الطبوغرافية لموقع سجلماسة مع التركيز على ضرورة إدماج كل المعطيات وتوسيع هذه الخريطة لتشمل موقع سوق ابن عقلة والحقول المجاورة.

وقدمت صور الأقمار الاصطناعية معلومات مهمة عن مؤهلات المنطقة الفلاحية والمائية وأكدت أن وادي زيز الأصلي يقع إلى الشرق من واحة تافيلالت ويسمى حاليا وادي أمربوح. وقصد الاستفادة من مياه هذا الوادي تم شق قناة اصطناعية - يعتقد في الفترة المرابطية - وهو ما يطلق عليه حاليا بوادي زيز الفيلالي الذي يخترق الواحة في الوسط.

هـ) الموسم الخامس (1996) :

إن الكمية الهائلة من المعطيات والمعلومات القيمة التي جمعت في مواسم 1988 و1992 و1993 و1994 من حفريات البعثة المغربية الأمريكية بموقع سجلماسة الأثري، تعطي الدليل على أهمية مدينة سجلماسة كمحطة رئيسية في تجارة القوافل. هذه الأهمية كان لها الأثر البالغ في التطور العمراني للمدينة كما هو الحال مثلا بالنسبة للمسجد الجامع والذي كشفت عنه حفريات موسم 1994. من هذا المنطلق استهدفت أبحاث هذا الموسم[46] الفهم الجيد

(46) انطلق الموسم الخامس للحفريات بموقع سجلماسة يوم 29 فبراير 1996 تحت إشراف وزارة الشؤون الثقافية وبتعاون بين جامعة ميدل تينيسي والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط تحت إدارة الباحث الأمريكي رونالد ميسيي R. Messier وبمشاركة عدة باحثين أمريكيين، من بعض طلبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث ومن بعض متطوعي منظمة أورتواتش Earthwatch وبتمويل من عدة مؤسسات أمريكية ومغربية هي : مؤسسة البركة Al-Baraka Fondation، ومؤسسة ماكس فان =

للتشكيلة المعمارية لمدينة سجلماسة مع التركيز على البقايا الأثرية للمسجد الجامع وأيضا محاولة الوصول إلى معرفة أفضل عن نمط عيش سكان هذه المدينة.

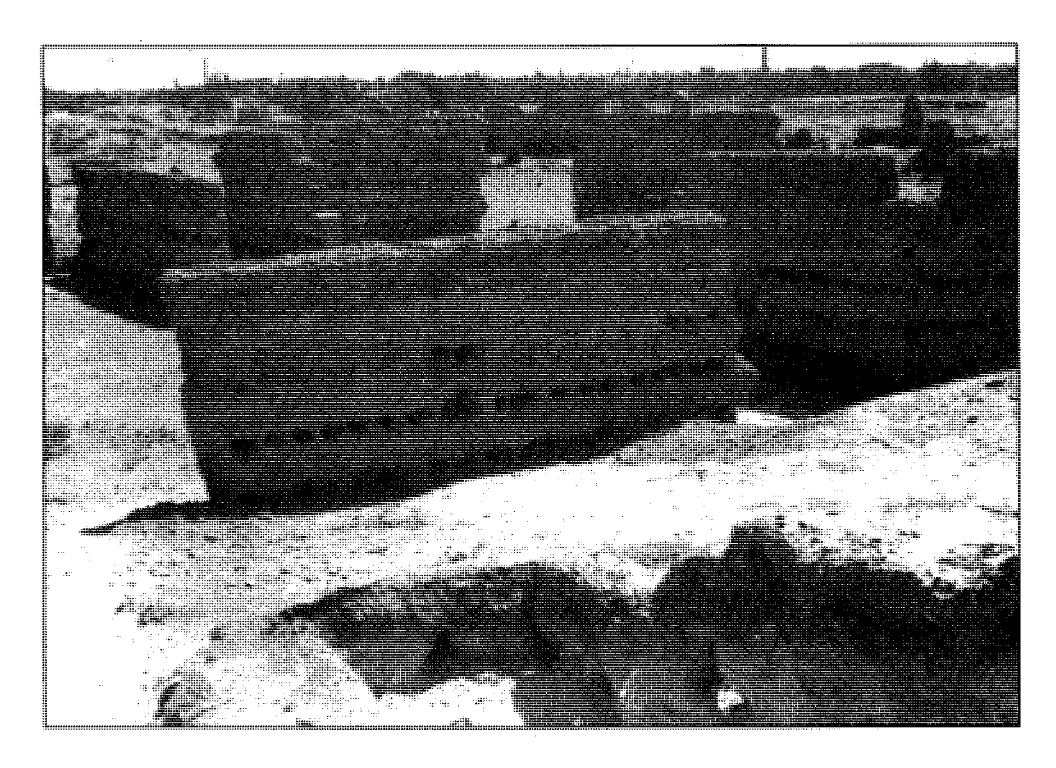
• **حفريات المسجد الجامع :**

من أجل إلقاء الضوء على الإشكالية التي يطرحها المسجد السجلماسي من حيث مساحته ومن حيث شكله، تم اللجوء إلى إنجاز حفريات مكثفة. وتركزت الأسبار على جانبي البلاطة المركزية والجهة الجنوبية الغربية لجدار القبلة بينما اهتمت أسبار أخرى برسم حدود المسجد العتيق. وقد فندت الأبحاث التي أجريت بالجهة الجنوبية الغربية، الطرح الذي توصلت إليه حفريات موسم 1993 ومفاده أن المسجد الأصلي يوجد بالجهة الشمالية الشرقية. كما توصلت البعثة إلى أن هذا المسجد عرف توسيعا في اتجاه الجهة الجنوبية الغربية. من أهم الاكتشافات بهذا الموسم، يمكن الإشارة إلى البلاطة المركزية التي يبلغ عرضها 4,30 أمتار وتتخللها بلاطتان جانبيتان تتباعدان بمترين و80سم. وعرفت الأعمدة في الاتجاه المعاكس لجدار القبلة، اتساعا يبلغ حوالي 3,60 أمتار..

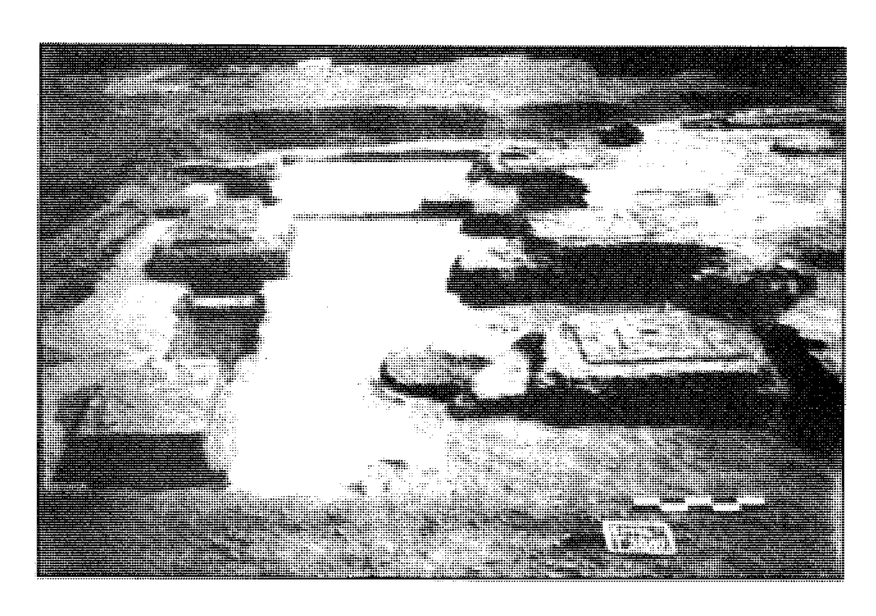
وحسب الأسبار التي أنجزت في الجهة الجنوبية الغربية، يلاحظ أيضا أنه تم توسيع المسجد في اتجاه الشمال الشرقي للمسجد الأول بشكل مضاعف مع وجود بلاطة مركزية يبلغ عرضها حوالي 4,10 أمتار. الأساكيب تتسع فيما بينها بحوالي 3,60 أمتار ما عدى الأسكوب الثاني الممتد على طول البلاطة المركزية والذي لا يتجاوز عرضه مترين و95سم.

= برشم Fondation Max Van Berchem، وجامعة ميدل تينيسي State University Middle Tennessee، ومجلة الجغرافية الوطنية National Geography Society والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث.

ويعتقد أنه تم العثور في الجهة الشمالية الشرقية والشمالية الغربية على الحدود المثلة لشكل المسجد "الموحدي" والذي يتكون من أربع بلاطات متقابلة و11 أسكوبا. هذا التوسيع صاحبه تغيير طفيف في اتجاه البلاطات، وهكذا فالجزءان المكونان للمسجد تم توجيههما نحو الجنوب الشرقي بينما البلاطات والجزء "الموحدي" اتخذوا اتجاها نحو الجنوب.



الصورة 19 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الخامس بالمسجد الجامع



الصورة 20 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الخامس، مكتشفات المسجد الجامع

كما تم الكشف عن عدة مستويات لاستغلال سابق عن قاعة الصلاة للمسجد، منها أرضية المسجد الأول المسمى ب"المرابطي". وتم العثور كذلك على قطع من الجبس ومن الخشب المصبوغ في طبقة لركام بقايا الهدم تغطي سطحا أعد بشكل متقن. كما عثر في الجزء الذي تم توسيعه من المسجد على طبقة لركام الهدم يحتوي على كميات مهمة من الجبس المنقوش.

بصفة عامة، إن المستويات السابقة عن هذا المسجد يبلغ عددها اثنان أو ثلاثة، فهي مستويات استغلال تحتوي على قطع من الجبس المنقوش أو المصبوغ، ومن الخشب المصبوغ، وعلى لقى من الخزف المستعمل في الطهي، ومن الزجاج، وكميات من الرماد وعلى بقايا بعض الكوانين. مما يطرح إمكانية أن هذا المكان كان يضم بنايات جميلة والتي ترجع ربما إلى الفترة السجلماسية الأولى [بني مدرار أو بني مغراوة]. هذا الطرح لا يرتكز على أي أساس أثري، إلا أنه يفتح مجالا واسعا للبحث في المستقبل.

• الحفريات بشمال غرب المسجد الجامع :

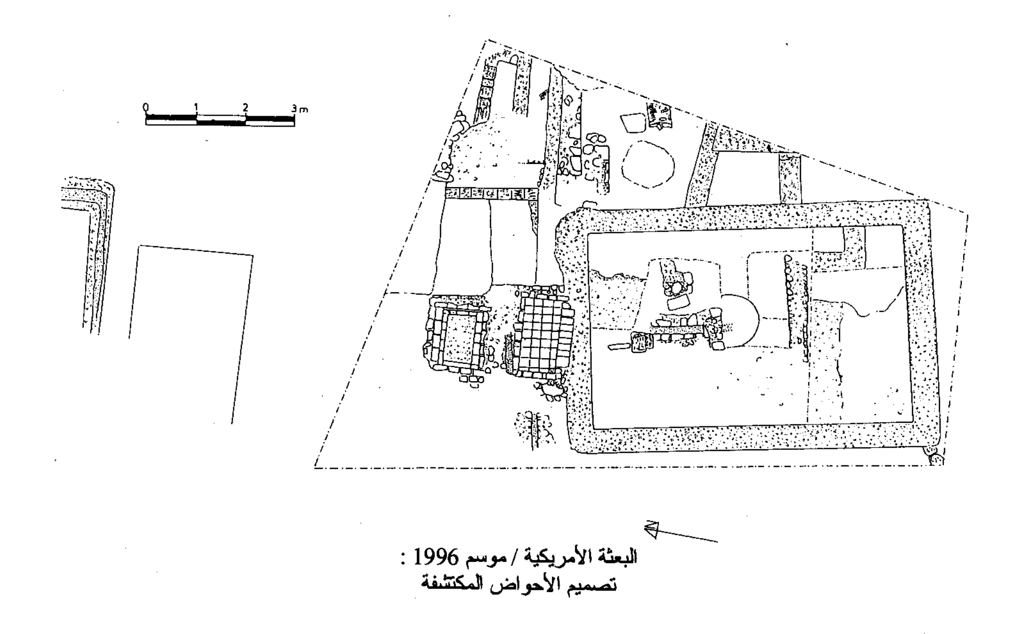
خلال موسم الحفريات لسنة 1994 أنجزت أربع أسبار من 25 مترا مربعا على بعد 60 مترا شمال غرب المسجد. في كل هذه الأسبار يتكون المستوى الأعلى من حفر صغيرة ذات أشكال بسيطة وغير منظمة. و لم تعرف واجهاتها أي عملية تبليط. أما تشكيلات المستوى الثاني فقد عرفت تحريفات كبيرة ناتجة عن التغييرات التي تعرضت لها الحفر السابقة الذكر.

المستوى الثالث يتكون من شبكة من القنوات المائية، ومن آبار، ومن أحواض، ومن مسخن ومن حفر للمياه المستعملة. هذه التشكيلات التي تتوزع على مجال الأسبار الأربعة وبالرغم من توسيع الاستبار 25 [5x5,35 أمتار] يبقى من الصعب التعرف بدقة على هويتها وإن كانت طبيعتها تدل على ارتباطها بالمسجد كحمام عمومي أو على الأقل كفضاء ما يسمى بدار الوضوء.

خلال حفريات 1996 تم إنجاز استبار واحد [هو الاستبار 42] الذي يعتبر امتدادا للاستبار 32 لموسم 1994 من جهة الغرب. وكشفت الحفريات عن حوض ثالث يبلغ طوله 8,30 أمتار و يصل عرضه إلى 3,90 أمتار. ويرتكز هذا الحوض الكبير ذي الشكل المستطيل على حوضين صغيرين ينتميان للاستبار 25 من موسم 1994. ينتمي هذا الحوض لنفس الفترة للتشكيلات السابقة الذكر. ومع ذلك فالعلاقة الوظيفية بين الحوض والتشكيلات، تبقى غامضة.

ويمكن من خلال الشكل المستطيل للحوض مع وجود سطح مبلط بالكلس وكذا من جدرانه المبنية بالطابية والتي لا تحمل أي تمليط، أن تعطى للحوض وظيفة مخزن. وبعد اختراق هذا الحوض تم الكشف عن حفرة تتصل بقناة للماء المستعمل. الطبقة الأثرية لهذين التشكيلين جد مضطربة ولا يمكن الاعتماد عليها لتقديم تاريخ محدد. يمكن القول إن هذه الشبكة من الحفر والقنوات

والأحواض الصغيرة والكبيرة ربما تعود إلى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي أو القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وهي تنتمي ولا شك لمركز صناعي أو بناية عمومية مرتبطة بالمسجد. ومع ذلك تبقى الوظيفة الحقيقية للبناية غير محددة.



التصميم 19 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم الخامس، تصميم الأحواض المكتشفة

• الدراسة الجغرافية :

في موسم 1996 حاول الباحث ديل لايتفوت Dale Lightf التحقق من الرواية الشفوية المحلية والاعتماد على الصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية والمسح الأثري وذلك بغية التوصل إلى نتيجتين : الأولى أن سجلماسة كانت مدينة مقسمة بواسطة أسوار إلى عدة أحياء والثانية أن المدينة كانت تتوفر على شارع كبير يمتد من الشمال إلى الجنوب ويمر في وسطها وبالضبط غرب المسجد الجامع.

و) الموسم السادس (1998) :

في إطار برنامجها الأركيولوجي بموقع سجلماسة الأثري، قامت البعثة المغربية الأمريكية[47] بإنجاز الموسم السادس من أبحاثها خلال المدة الممتدة من 8 مايو إلى غاية 5 يونيو 1998. وقد توزعت أعمال التنقيب على ثلاثة نقط رئيسية هي :

- حفريات الإنقاذ بورش المحطة الطرقية،
- متابعة التنقيبات بالمدرسة المجاورة للمسجد،
- مسح أثري لموقع سوق ابن عقلة.

• حفريات الإنقاذ :

أفرز ورش بناء المحطة الطرقية في الطرف الجنوبي للطريق المؤدية إلى مدينة الريصاني، على جزء هام من أنقاض موقع سجلماسة حيث ظهرت عدة بقايا أثرية مهمة، مما استوجب معه القيام بحفريات إنقاذ مستعجلة شملت استبارين من حجم 5x5 أمتار [25 مترا مربعا]. وكان الهدف الأساسي من هذه الحفريات التعرف بدقة على الطبقات الأثرية بهذا الجزء الجنوبي من موقع سجلماسة والذي لم يشهد أي تنقيبات من قبل.

- الاستبار الأول [رقم 55] يقع بالجهة الشمالية الغربية للمحطة وقد كشف عن وجود مستويين أثريين يتكونان من تشكيلات معمارية هامة. فالمستوى الأول يتشكل من قاعدة جدران بناية زينت بعض واجهاتها بزخارف جصية ذات أشكال هندسية ونباتية لا يستبعد أنها تعود إلى العهد المريني. الجدران بنيت بالطابية وهي مبلطة وقد عثر فوقها على عمق 1,84 مترا من السطح، على جدران أخرى مشيدة بالآجر. كما وجدت في جانب آخر وعلى بعد 1,50

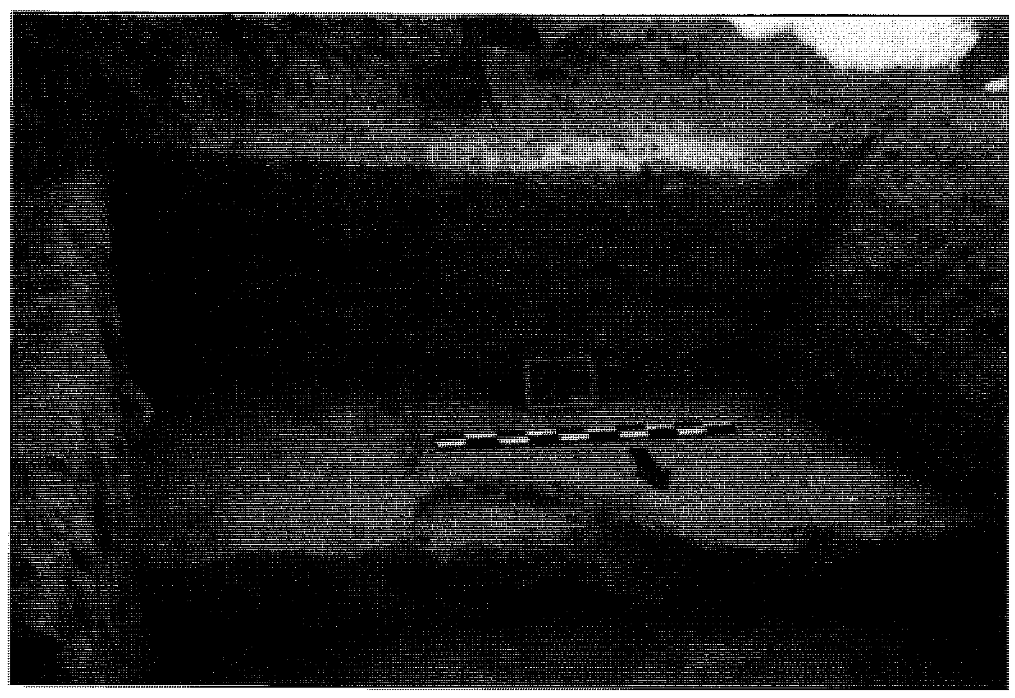
(47) كانت البعثة برئاسة الباحث رونالد ميسيي R. Messier وبمساعدة نيل ماكينزي N. Mackenzie، وتتكون من باحثين مغاربة وأمريكيين فضلا عن بعض طلبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وكذا بعض متطوعي مؤسسة أورتواتش Earthwatch.

مترا من السطح، جدران أخرى بنيت هذه المرة بالحجارة. أما المستوى الثاني فلا يتجاوز عمقه 0,50 مترا ويتكون بدوره من تشكيلات معمارية تمثل أساس جدران بناية، تم العثور بأحد أركانها على جرة كبيرة كانت مخصصة لحفظ المواد الغذائية. وقد شيدت قاعدة جدران هذا البناية من الحجارة. كما تم العثور بهذا المستوى على أنقاض أرضية اعتمد في تهيئتها على الجير والحصى، بينما تشكلت أرضية أخرى مجاورة من أحجار مسطحة.

القطع الخزفية المكتشفة بهذا الاستبار هي من النوع السجلماسي الذي يمكن تأريخه ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وهي ذات استعمال منزلي. كما اكتشفت بهذا الاستبار بعض الحلي وكميات كبيرة من العظام الحيوانية. وتدل هذه المكتشفات ونوعية التشكيلة المعمارية، أن هذا الاستبار ربما كان يحتضن دورا سكنية من الطراز المريني.

– الاستبار الثاني [رقم 56] : يقع وسط مشروع بناء المحطة على طول طرفه الجنوبي. يتميز هذا الاستبار بغناه الأثري مقارنة مع الاستبار الأول، فعلى عمق متر ونصف وبعد إزالة طبقة سميكة من ركام الأتربة، تم العثور على أربع مستويات أثرية متتالية ويتشكل كل مستوى من أرضية مبلطة بالجبس على شكل مستطيل تحدها شرقا وجنوبا جدران من الحجارة والطابية.

ويبدو أن شكل هذه البنايات لم يتغير، بل اتخذ نفس الشكل والوظيفة على امتداد المستويات الأربعة. وقد بلغ عمق هذا الاستبار أربعة أمتار واتسمت فيه الطبقات الأثرية بتسلسلها بصفة شاملة ودقيقة، مما سيمكن من دراسة القطع الخزفية وتطورها عبر الحقب المختلفة من تاريخ مدينة سجلماسة، الشيء الذي سيعزز الدراسات السابقة في هذا التخصص. كما جمعت بهذا الاستبار مجموعة من القطع الفحمية التي ستخضع للتحليل المخبري بواسطة تقنية الكاربون C14.





الصورة 21 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم السادس، الاستباران 55 و56 بالمحطة الطرقية

وبنفس ورش المحطة قامت البعثة بأخذ الرفوعات الهندسية للمستويات الأثرية الظاهرة في أشغال بناء أساسات الجدران. وهكذا تم رسم 28 تشكيلا معماريا مختلفا يتراوح مستوى الطبقات الأثرية فيها ما بين 0,20 و4,00 أمتار.

خلاصة القول إن التنقيب بورش المحطة الطرقية كشف عن عدة حقائق أولية منها :

– أن موقع سجلماسة يمتد إلى الجنوب من الطريق الحالية والمؤدية إلى مدينة الريصاني، مما يستوجب الاهتمام بهذا الجزء من الموقع قصد إغناء المعرفة الأركيولوجية عن مدينة سجلماسة التي لا زال القسم الأكبر منها تحت الأنقاض ومحتفظا بمعظم الأسرار.

– المستويات الأثرية بلغت أربعة وتنتمي كلها إلى الفترة السجلماسية باعتبار انعدام أي مؤشرات حديثة مثل الخزف الذي يعود إلى فترة القصبة السجلماسية والذي يمكن تأريخه ما بين القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

– كان يحتضن هذا المكان خلال العصر السجلماسي حيا سكنيا مخصصا للمنازل الفخمة التي ربما كانت تأوي كبار موظفي المدينة أو كبار التجار والأعيان،

• الحفريات بمدرسة المسجد الجامع :

بعد الحفريات التي أجريت بالمسجد الجامع خلال موسمي 1994 و1996 اهتمت أبحاث هذا الموسم (1998) بالتنقيب في مجال المدرسة الواقعة إلى الشمال من المسجد. هذه الأبحاث اعتمدت على التنقيب الامتدادي من خلال حفر سبعة أسبار متجاورة وذلك بهدف التعرف على علاقات الترابط

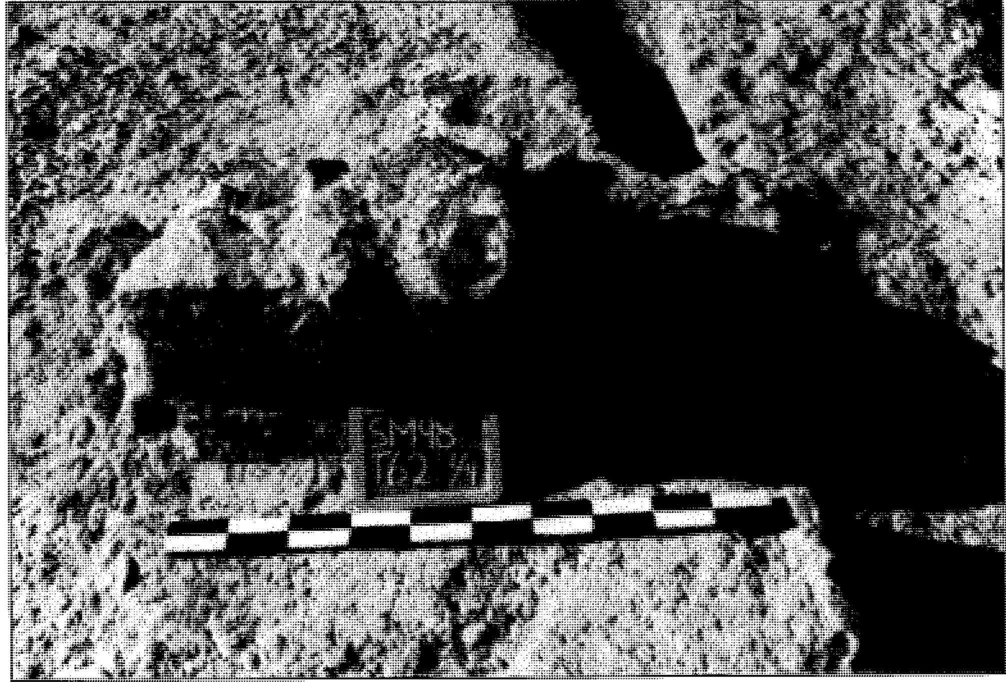
بين الطبقات الأثرية بالتشكيلات المعمارية للمسجد. بلغت المساحة الإجمالية لهذه الأسبار 403 مترا مربعا، وتم خلالها العثور على مستويات وبقايا أثرية متنوعة. إلا أن حفريات المدرسة كانت غاية في التعقيد بسبب عدم التعمق في الأسبار والذي لم يتجاوز في أقصى الحالات مترا واحدا.

إن هذا المعطى يجعل المستويات متقاربة جدا فيما بينها، بل يمكن القول إن كل مستوى يتكون من بقايا ركام مستوى سابق. وبالرغم من هذه الصعوبة، فقد تم حصر مجموع المستويات في أربعة. وكانت أهم التشكيلات المعمارية التي اكتشفت فيها تتمثل في قنوات، وأعمدة، وأرضيات مبلطة وأساسات جدران مبنية من الآجر الصلب.

إذا كان معروفا أن موضع هذه الأسبار هو مدرسة شيدت خلال العهد العلوي في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وأعيد ترميمها في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، فإن الطبقات الأثرية التحتية للمدرسة ترجع إلى فترة سابقة وكانت لها علاقة مباشرة بالمسجد ولكن يصعب تحديد وظيفتها الحقيقية. وتنتمي هذه البنايات الأثرية سواء المنتمية منها للمسجد أو للمدرسة في الغالب لأشكال عمرانية ظلت تؤدي دورها منذ العهد المرابطي على الأقل إلى حدود الفترة العلوية وهي بذلك تعتبر سجلا أثريا يلخص أغلب المراحل التاريخية التي مرت منها مدينة سجلماسة.

• المسح الأثري بموقع سوق ابن عقلة :

وفي موسم 1998 شمل المسح الأثري بموقع ابن عقلة مساحة إجمالية قدرها 42500م² وذلك من خلال 17 تربيعا يبلغ قطر الواحد منها 50 مترا. وخلال عملية المسح، تم انتقاء سطحي لكل اللقى الخزفية والمعدنية داخل كل تربيع



الصورة 22 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية
الموسم السادس، الاستباران 57 و62 (بقايا مدرسة المسجد الجامع)



الصورة 23 : موقع سجلماسة الأثري : الحفريات الأمريكية

الموسم السادس، الاستباران 58 و62(بقايا مدرسة المسجد الجامع)

على حدة. الخزف المكتشف بهذا الموقع يتشابه إلى حد بعيد مع مثيله بموقع سجلماسة من حيث الأشكال وتقنية الصنع، غير أن النتائج النهائية لهذا المسح تتطلب الكثير من الدراسة والتحليل.

وتجدر الإشارة إلى أن المسح الأثري بموقع سوق ابن عقلة قد ساعد على التحقق من بعض البقايا الأثرية السطحية، إذ تمت معاينة بعض الأعمدة والجدران التي لا تزال ظاهرة على سطح الموقع.

نتائج الحفريات الأمريكية :

يمكن القول إن الحفريات الأمريكية منذ بدايتها سنة 1988 وإن اتخذت طابعا ظرفيا، إذ لا يتعدى كل موسم مدة شهر أو شهر ونصف على أكبر تقدير، فإنها كانت مبادرة أولية لمعرفة خصوصيات موقع سجلماسة اعتمادا على إنجاز أسبار في عدة أماكن مختلفة، قصد الحصول على المعطيات الأساسية للبقايا الأركيولوجية بهذا الموقع. وبالرغم من الصعوبات الكثيرة التي يطرحها موقع سجلماسة الأثري، فإن هذه الحفريات تمكنت من تسليط الأضواء على العديد من المكتشفات يمكن إجمالها فيما يلي :

* أظهرت حفريات المسجد الجامع أن هذا الأخير يعتبر من المعالم العمرانية التي تحظى دائما بعناية الحاكمين والمحكومين على السواء، فكل يعمل حسب إمكانياته حتى يكون المسجد في أحسن حلة. ولعل هذا ما يفسر المستويات الأثرية المتنوعة التي كشفت عنها الحفريات والتي تمثل سجلا تاريخيا لمراحل البناء والإصلاح بالمسجد على مرور مختلف العهود. وكشفت هذه الحفريات النقاب عن أربع مستويات مختلفة :

- مستوى ينتمي إلى ما قبل وصول المرابطين أو إلى فترة سيطرتهم النهائية على سجلماسة،

• مستوى توسيع المسجد في عهد الموحدين،
• مستوى التجديد على يد السلطان مولاي إسماعيل،
• مستوى إعادة البناء من طرف السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

* محاولة تحديد وظيفة البناية التي تقع وسط وادي زيز والتي يفترض أنها عرفت مرحلتين من الاستغلال : الأولى ربما كحمام عمومي والذي تعبر عنه الطبقات الأثرية السفلى التي يتراوح عمقها بين متر واحد ومترين ونصف. الثانية تمثلها الطبقات العليا وهي عبارة عن حوض وقناة مائية وهما يشكلان ولا شك أجزاء من الناعورة ترتبط بشبكة مائية كانت تزود مرافق سجلماسة أو القصبة السجلماسية بما تحتاجه من المياه سواء المستعملة في الشرب أو السقي.

* وقدمت حفريات البعثة المغربية الأمريكية معلومات هامة حول السور الغربي لسجلماسة. فقد كشفت الأسبار المنجزة داخل بعض الأبراج عن مستويين مختلفين في البناء ويقعان فوق مستوى سابق يمكن أن يؤرخ بالقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أو القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وأثبتت الدراسة الطبوغرافية التي قام بها طوني ويلكنسن Tony Wilkinson أن سجلماسة كانت عبارة عن مدينة تمتد على طول وادي زيز وكانت لها أربعة أبواب رئيسية هي : باب الساحل من الشرق قرب قصر أمسيفي، وباب القبلة أو الجنوب ويقع بين قصري وطارة وكَاوز، والباب الغربي يوجد قرب ضريح مولاي عبد المؤمن وباب فاس بالشمال قرب قصر المنصورية. كما أبانت التحريات أن سجلماسة كانت محاطة من الشمال والجنوب بعدة أرباض ومعامل صناعية.

* تدقيق المعرفة بموقع سوق ابن عقلة، إذ يلاحظ من خلال الصور الجوية والمسح الأثري أن هذا الموقع يمتد على مساحة تتراوح ما بين كيلومتر واحد

وكيلومترين مربعين، كما تم معاينة طريق ضيق ومستقيم يربط بين موقعي سجلماسة وسوق ابن عقلة. وتوصلت الأبحاث إلى اكتشاف بقايا بنايات مستطيلة تحدها المقبرة في الشمال وفي الجنوب من الطريق التي تخترق هذا الموقع. وتوجد في الوسط تشكيلات عمرانية مربعة ومحصنة تمتد على مسافة 90 مترا من الشرق إلى الغرب وعلى 80 مترا من الشمال إلى الجنوب. ويظهر من هذه البقايا أنها كانت تمثل فندقا أو حصنا، وأن هذا السوق كان يحيط بالحقول ويمثل امتدادا طبيعيا للمدينة الأم "سجلماسة" وكان يمثل محطة لقوافل التجارة البعيدة الآتية إلى سجلماسة أو الذاهبة منها.

* الخزف المكتشف خلال هذه الحفريات يمكن تصنيفه إلى ثلاث مجموعات : الأولى توجد في الطبقات العليا وتنتمي إلى الصناعة الخزفية البحايرية والمؤرخة ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي [تاريخ بناء القصبة السجلماسية] وبداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي [تاريخ تخريب القصبة]. يتميز خزف هذه المجموعة بوجود طلاء لامع ذي لون أخضر أو أصفر أو بني وأهم أوانيه هي الأقداح، والجرات والصحون. ويضاف إلى هذا الصنف الخزف المستورد من المناطق والمدن الأخرى وخاصة من مدينة فاس. المجموعة الثانية ترجع إما إلى المركز الخزفي المشيد على أنقاض مدينة سجلماسة ابتداء من نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أو بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وإلى غاية تشييد القصبة السجلماسية في نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، أو إلى الواردات من مصانع أخرى. المجموعة الأخيرة وجدت بالطبقات السفلى للأسبار وترجع إلى المعامل السجلماسية الواقعة بغرب وادي غريس وإلى مراكز أخرى قريبة أو بعيدة. وتؤرخ ما بين القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ونهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وتتميز بتقنية إنتاجية عالية وبتكوين صلصالي جيد يتخذ لونا أصفرا أو أبيضا مع

سمك رقيق وتمثل أغلب قطعها الأواني ذات الاستعمال المنزلي. وتنتمي القطع الخزفية المجمعة على السطح بموقع سوق ابن عقلة، في أغلبها إلى الصنف الأخير. ويظهر أن الآنية المستوردة كثيرة جدا بهذا الموقع بالمقارنة مع ما يوجد فوق موقع سجلماسة.

* وقامت البعثة الأمريكية ولأول مرة بإنجاز تصميم طبوغرافي وأثري لموقع سجلماسة في جزئه الأوسط. كما أخذت رفوعات لواجهات الطبقات الأثرية وخاصة منها الواقعة بالجهة الشرقية. هذه الرفوعات أكدت أن موقع سجلماسة تعرض لعدة تغييرات ارتبط بعضها بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المدينة خلال معظم فترات تاريخها وبالخصوص في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. وكان من نتائجها أن قام السكان بهدم سور المدينة والارتحال عنها نهائيا للاستقرار بالضواحي. ومنها من له صلة بما تذكره الرواية الشفوية والدراسة الجيومورفولوجية من كون سجلماسة تعرضت لفيضانات مهولة أو إلى زلزال قوي مما أدى إلى تخريبها بالكامل. ويوضح المقطع الاستغرافي للجهة الشرقية والمكتشفات الخزفية، هذا الخلط والاضطراب اللذين عرفهما موقع سجلماسة. فاللقى الخزفية تكون جد مختلطة في معظم الطبقات، مما يجعل من الصعب أحيانا التمييز بين الخزف السجلماسي المنتمي لما قبل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وبين الذي يعود إلى الفترات اللاحقة.

* دراسة البقايا النباتية التي توصلت اعتمادا على النماذج المنتقاة من الطبقات الأثرية إلى تحديد العينات التالية :

– العنب (Vitis Vinifiera) : ويعتبر من أكثر النباتات التي تم استخلاصها من النماذج المنتقاة وجاءت خاصة من الاستبار 21 الذي يمثل المنطقة السكنية بالجزء الجنوبي، ومن الاستبارين 31 و38 بمستويات أسفل المسجد. وكلها

حسب التحليل بواسطة الكاربون 14 ترجع إلى فترة المرابطين وربما إلى ما قبل هذه الفترة.

– الذرة : (Hordeum) : وتأتي أغلبها (91 في المائة) من الاستبارين 31 و38 وكانت تحرث بكثرة بمجال سجلماسة وتؤكل خاصة كخبز.

– الحشائش الطبيعية (Poaceae) : وتستعمل في تغذية الماشية وقد وجدت بالاستبارين 31 و38.

– القمح (Triticum) : ويمثل 32 في المائة من كل النماذج وكان من بين المواد الغذائية الأكثر استهلاكا.

– التمر (Dactylifera du Phénix) : واكتشفت بالاستبار 27 وبالرغم من أهميتها الحالية بواحة تافيلالت، فإن النماذج المنتقاة منها ظلت قليلة ويرجع هذا ربما إلى إعادة استعمال نواتها في الغرس أو في العلف ومن النادر أن يرمى بها على الأرض.

* وكشفت دراسة بقايا العظام أن تغذية سكان المغرب الأقصى عامة وسجلماسة بصفة خاصة خلال ما يطلق علية بالعصر الوسيط تتشابه إلى حد كبير مع تغذية المغاربة حاليا ذلك أن استهلاك اللحم يرتكز أساسا على الماعز في الأصل، والغنم وبعض الدواجن. وهو نفس ما أكدته دراسات مشابهة بمواقع مغربية أخرى وخاصة بالقصر الصغير[48] بشمال المغرب.

---

(48) Redman (Charles.L) : "Survey and test excavation of six medieval islamic sites in northern morocco", *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. Tome : XV ; 1983-1984. 33 figures dans le texte (pp. 311-49).

خلاصـــة :

إذا كانت الأبحاث الأثرية قد توصلت إلى تحديد موقع سجلماسة، فإن معطياتها حول الجوانب المعمارية لهذه المدينة، تبقى لحد الآن ضئيلة ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة يتجلى أهمها في أن موقع سجلماسة عرف عدة تغييرات بنائية خلال مختلف العصور وحتى بعد تخريب المدينة. فقد أحرقها الفاطميون، ودكها المرابطون قبل السيطرة عليها، وهاجمها الموحدون بقوة، وأطلق عليها المرينيون المنجنيق، وكانت مسرحا لثورات كثيرة وللصراع بين الحكام والأمراء، وفي الأخير ثار سكانها على عامل المرينيين بها فكان ذلك إيذانا بنهايتها، إذ تهدمت بناياتها وهجرها السكان ليستقروا بالضواحي.

وبعد اندثارها، استغل الحرفيون وخاصة الفخارون الموقع لتشييد معاملهم، واستمر هذا الوضع إلى غاية نهاية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وصادف ذلك بناء القصبة السجلماسية في قلب الموقع قبل أن تخرب في بداية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي. نفس الأمر ينطبق على بعض القصور والقصبات التي شيدت على أنقاض المدينة الأم ومن ذلك قصر المنصورية في الشمال، وقصر تابوعصامت في الجنوب وقصري أبو عام والريصاني في الوسط، و لم يعد يظهر من سجلماسة سوى بعض أجزاء السور الغربي وبقايا الباب الشمالي وبعض البنايات المتفرقة. من جهة أخرى يمتد خراب سجلماسة على مسافة تزيد عن ثماني كيلومترات من الشمال إلى الجنوب طولا وما بين كيلومتر واحد وكيلومترين من الشرق إلى الغرب. ويتميز هذا الموقع بعدم الوضوح في طبيعة الطبقات الأثرية التي يتراوح عمقها ما بين ثلاثة و ثمانية أمتار حسب الأماكن.

الفصل الرابع

○○○○○

عمران سجلماسة وشح المعطيات



المبحث السابع :
مقاربة أولية

تقديم :

تحاول هذه المقاربة الأولية استعمال المنهجين الاستقرائي والمقارن في سبيل الوصول إلى جمع كل المعطيات المتوفرة ومقارنتها وتحليلها. ذلك أن الاعتماد على سرد ما أوردته المصادر المكتوبة لا يشفي الغليل، كما أن الأخذ فقط بما توصلت إليه الأبحاث الأركيولوجية بموقع سجلماسة يبقى مجازفة غير مضمونة العواقب. وبفعل هذه المقاربة التي استفادت أيضا من البقية المتبقية من الروايات الشفوية بالمنطقة، استطعنا أن نقدم وصفا موضوعيا للتشكيلة المعمارية السجلماسية من حيث مواد البناء والمكونات والتطورات التي عرفتها منذ فترة المرابطين على الأقل إلى غاية العصر العلوي الأول.

فإلى أي حد يمكن تقديم صورة غير مسبوقة عن عمارة سجلماسة ذات الخصوصيات المحلية والتأثيرات الخارجية بفعل موقع المدينة على أبواب الصحراء وفي نقطة التواصل بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب ؟ وهل فعلا يمكن التوفيق بين النصوص المكتوبة في المصادر التاريخية وبين المعطيات الميدانية سواء كانت من حصيلة البحث الأثري أو من تحليل الرواية الشفوية ؟

I- المعطيات المجمعة :

1 - النصوص التاريخية :

تقدم الكتابات المعاصرة للمدينة، بالرغم من ضآلتها وتجزيئتها، أوصافا مهمة عن موقع سجلماسة. فالمؤرخون العرب الأوائل، وإن كان القليل منهم

قد زارها فعليا، اعتبروها كمدينة كبيرة ومنطلق لتجارة الذهب ونموذج للحواضر الأخرى. لقد ظهرت سجلماسة في المؤلفات التاريخية بعد قرن من تشييدها عند الخوارزمي المتوفى سنة 229 هجرية/846 ميلادية في كتابه "صورة الأرض"، كمدينة محورية على شكل نقطة التقاء لباقي مراكز العالم. وتظهر سجلماسة في الكتابات اللاحقة التي يمكن حصرها في ثلاثة عشر مصدرا، كحاضرة غنية وجذابة.

من الناحية التاريخية تمتد هذه الكتابات زمنيا ابتداء من الخوارزمي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى ابن خلدون في كتابه "العبر" في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. أما محمد بن الحسن الوزان فقد زار سجلماسة مائة عام من بعد اندثارها، أي في بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وقدم عنها معلومات مهمة وجديدة اعتمادا على معاينته لما تبقى من خرابها واعتمادا كذلك على ما جمعه من الروايات الشفوية.

يطرح تحليل هذه الكتابات عدة إشكاليات : تتمثل الأولى في عدم تحري الدقة، ذلك أن ثلاثة فقط من مؤلفيها هم الذين زاروا المدينة بالفعل. الأول هو ابن حوقل الذي يمكن ضبط زيارته لها بحوالي سنة 380 هجرية/967 ميلادية، ثم ابن بطوطة في سنة 752 هجرية/1352 ميلادية وفي الأخير محمد بن الحسن الوزان حوالي سنة 918 هجرية/1516 ميلادية.

الإشكالية الثانية تتعلق بمضمون هذه الكتابات ذلك أن معظمها يكرر نفس المعلومات. ويعتبر "كتاب المسالك والممالك" لأبي عبيد الله البكري ويرجع إلى حوالي سنة 453 هجرية/1068 ميلادية، المؤلف الذي قدم تفاصيل أكثر عن سجلماسة. وللتذكير فإن البكري لم يغادر قط بلده الأصلي "الأندلس"، وإنما اكتفى بجمع معلوماته نقلا عن ابن حوقل أو روايةً عن التجار الذين زاروا

المدينة. وبعد البكري بحوالي 300 سنة جاء ابن فضل الله العمري الذي ألف كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" حوالي سنة 737 هجرية/1337 ميلادية، وفيه أورد وصفا دقيقا للمدينة اعتمادا على مؤلفي البكري وابن حوقل.

وتجدر الإشارة إلى أن الجغرافيين القدامى اعتمدوا على أهم المصادر المتوفرة بين أيديهم، مما جعل معلوماتهم متشابهة ولا تتغير إلا من حيث الكلمات المستعملة أو من حيث إضافة بعض الافتراضات الغير المبنية على أسس علمية. ويمكن إجمال المحاور التي تناولتها هذه المصادر في اثنين رئيسيين :

أ) تأسيس مدينة سجلماسة ونمط معمارها :

اعتمادا على ما أوردته المصادر المكتوبة، يمكن القول إن سجلماسة كانت مدينة "عامرة بأهلها متسعة الأطراف، تتألف من حصون منيعة وعمائر وبيوت بني كل منها في وسط حديقة"[49]. وقد أثبتت مجموعة من النصوص موقع مدينة سجلماسة الأثري، وتصف المدينة بأنها كبيرة الحجم، وكثيفة السكان، وتحيط بها أرباض وحدائق خضراء، كما تواجدت بها قصور وبنايات عالية على ضفاف نهرين يحدها من الشرق ومن الغرب. وحسب ما أورده البكري، فإن مدينة سجلماسة عرفت أكبر عملية تشييد على عهد الأمير اليسع بن أبي القاسم[50] حوالي سنة 184 هجرية/ 800 ميلادية واستكملت بناء سورها الحصين حوالي سنة 200 هجرية / 814–815 ميلادية، هذا السور يتخلله اثنا عشر بابا ثمانية منها من الحديد. كما شيد اليسع دار الإمارة والمسجد والعسكر وجدد حمامات المدينة التي كانت رديئة البناء.

---

(49) مجموعة من المؤلفين : **دائرة المعارف الإسلامية**. الجزء الحادي عشر (ص 300).

(50) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق، طبعة 1992 (ص 835-836).

وحسب رواية الدمشقي [توفي سنة 727 هجرية / 1327 ميلادية] "كانت سجلماسة تحاط بأسوار تبلغ مسافة دائرتها حوالي 12 براسانغ وهو قياس الأرض بالفارسية وتساوي الوحدة منه 3,88 أميال"[51]، وبذلك تكون المسافة الإجمالية لأسوار سجلماسة حوالي 46 ميلا أو 74 كلم. من جهته يقدم ابن فضل الله العمري [توفي سنة 750 هجرية / 1349 ميلادية] وصفا لهذا السور بقوله أنه زيحتضن بنايات وبساتين ونخيلا ويتراوح طوله ما بين 70 و 80 كلم[52]. أما محمد بن الحسن الوزان الذي استقر بضعة أشهر بالمنطقة [حوالي سنة 918 هجرية / 1516 ميلادية]، فيشير إلى أن المدينة كانت محاطة بسور[53]. ويمكن تلخيص أهم ما جاء في المصادر المكتوبة من معطيات حول عمران سجلماسة وفق التسلسل الكرنولوجي التالي :

- خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، يصف ابن حوقل مرافق سجلماسة بالجمال وبالسمو فيقول "وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية"[54].
- في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي يورد البكري[55] المعلومات الأتية : "ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة، وبعمارتها خلت مدينة تدغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا. ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة، وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله لم يشركه

(51) الدمشقي (أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي) : **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**. تحقيق إحسان عباس. القاهرة، المطبعة الأميرية 1976 (ص 153).

(52) العمري (ابن فضل الله) : مصدر سابق (ص 200).

(53) الوزان (محمد بن الحسن) : مصدر سابق، الجزء الثاني (ص 127).

(54) ابن حوقل (أبو القاسم) : مصدر سابق (ص 90).

(55) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 835-836).

في الإنفاق عليه أحد، أنفق فيه ألف مد طعام، ولها اثنا عشر بابا ثمانية منها حديد. وكان بناء اليسع له سنة تسع وتسعين ومائة، وارتحل إليها (سنة مائتين) وقسمها على القبائل على ما هي عليه اليوم. وهم يلتزمون النقاب، فإذا حسر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله. وهي على نهرين وعنصرهما من موضع يقال أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها. وجامعها متقن البناء بناه اليسع فأجاده، وحماماتها رديئة البناء غير محكمة العمل. وماؤها زعاق وكذلك جميع ما ينبط من الماء بسجلماسة، وشرب زروعهم من النهر في حياض كحياض البساتين، وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه، وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لا يزبب إلا في الظل ويعرفونه بالظلي، وما أصابته الشمس منه زبب في الشمس. ومدينة سجلماسة في أول الصحراء لا يعرف في غربيها ولا في قبليها عمران".

- في نفس الفترة يذكر المسعودي أن سجلماسة عبارة عن "مدينة عظيمة وبها أربعة مساجد أحدها مسجد جامع ويتوسطها زقاق يبلغ طوله نصف مرحلة"[56].

- في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، يذكر الإدريسي "وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة وكثيرة العامر وهي مقصد الوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر كثير الماء"[57].

- من جانبه يقدم العمري صورة كبيرة عن سجلماسة بقوله : "فهي مدينة ضخمة في جنوب مدن المغرب الأخرى بجوار الصحراء الكبرى وهي

(56) المسعودي (علي بن الحسين) : مصدر سابق (ص 60-61).

(57) الإدريسي (أبو عبد الله) : **وصف إفريقيا الشمالية-الصحراوية**. الجزائر، نشر هنري بيريس 1957 (ص 37).

من أكبر المدن بالمغرب والأكثر ازدهارا في العالم. يخترقها نهر كبير وتتوفر على قصور متينة ومباني عالية وأبواب مرتفعة، الهواء بها طاهر نظرا لقربها من الصحراء"[58].

– وأورد المقدسي وصفا أكثر دقة، إذ يشير إلى أن سجلماسة "قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة، شديدة الحر والبرد، صحيحة الهواء، كثيرة الأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات، كثيرة الغرباء، موافقة لهم يقصدونها من كل بلد وهي ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة"[59].

– خلال نفس القرن [السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي]، كرر صاحب كتاب الاستبصار نفس معلومات البكري في وصف المدينة فيقول : "مدينة سجلماسة، مدينة عظيمة من أعظم مدن المغرب، وهي على طرف الصحراء، لا يعرف في قبليها ولا غربيها عمران، بينها وبين غانة صحراء...ولمدينة سجلماسة اثنا عشر بابا، ولها بساتين وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه...وهي على نهرين من عنصر واحد في موضع يسمى أكلف، وتمده عيون كثيرة، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر في حياض كحياض البساتين"[60].

– في فترة لاحقة يشير ابن الخطيب[61] إلى أن "تلك كورة، وقاعدة مذكورة، ومدينة محمودة مشكورة، كانت ذات تقديم، ودار ملك قديم،

(58) العمري (ابن فضل الله) : المصدر السابق (ص 200).

(59) المقدسي (شمس الدين) : مصدر سابق (ص 219 وص 231).

(60) مجهول : **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**. مصدر سابق (ص 200-201).

(61) ابن الخطيب (لسان الدين) : **المعيار**. مصدر سابق (ص 81-82) ويذكر المحقق معنى بعض الكلمات ومنها : كورة : بلد به قرى ومساكن. الحجاب : عديم النظير. معتصم ورشيد : من أشهر الخلفاء العباسيين ويرمي إلى إظهار عظمة الجسر المؤدي إلى المدينة. صوان : كناية عن السور المحيط بالمدينة. النشافى الحلية ناشية : الأحجار ذات النخاريب وذات رائحة طيبة تستعملها النساء في الحمام.

وبلد تبر وأديم، ومنمى تاجر ومكسب عديم، معدن التمر، بحكمة صاحب الخلق والأمر، تتعدد أنواعه فتعيى الحساب، وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب، قد استدار بها ؟ لحلق السور ؟ الأمر العجاب، والقطر الذي تحار في ساحته النجاب. فضرب منه – على عذارها ؟ الحجاب، باطنه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، يحيط بها مرحلة راكب، ويصيرها سماء مخضرة ذات كواكب. فمنازلها لا تنال بهوان، وفدنها ودمنها تحت صوان، ونخلها تطل من خلف جدار، وتتبوأ الأيمان والدار، وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن، موجودة بنزر الثمن، وفواكهها جميمة، ونعمها عميمة، وسورها حصن مشيد، وجسرها بعجز عن مثله معتصم ورشيد، وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم، ويرجع إلى وال يكف كل ظلوم، وهي أم البلدان، المجاورة لحدود السودان، فتقصدها بالتبر القوافل، وتهدى على محرابها النوافل، والرفاهية بها فاشية، والنشافى الحلية ناشية".

– في منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وصف ابن بطوطة المدينة عندما زارها سنة 752 هجرية / 1352 ميلادية واستقر عند الفقيه أبي محمد البشري قائلا : "وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيرار منه لا نظير له في البلاد"[62]. وفي مكان أخر يقارن ابن بطوطة بين شكل السكن بالصين وبسجلماسة من خلال تواجد الدار في وسط حديقة فيشير في وصفه لمدينة كوانزهو بمضيق تاويان بالصين : "وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي ببلدة سجلماسة ببلادنا"[63].

(62) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد) : مصدر سابق، المجلد الرابع (ص 239).

(63) نفسه : نفس المصدر ونفس المجلد (ص 135).

– وفي بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، أشار محمد بن الحسن الوزان إلى أن سجلماسة "شيدت فوق هضبة على نهر زيز وكان يحيط بها سور عال لا زالت بعض أجزائه ظاهرة وكانت لها نافورات كثيرة يأتي ماؤها من النهر. وكان بها ناعورات كبيرة تحمل هذا الماء من زيز وتطلقه في قنوات تحمله إلى المدينة"(64).

ب) نهاية سجلماسة :

اندثرت سجلماسة بسرعة غير متوقعة، فحوالي سنة 752 هجرية / 1352 ميلادية وصفها ابن بطوطة بكونها مدينة جميلة جدا وتتحكم في تجارة الذهب عبر الصحراء. وحينما زارها الوزان في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كانت قد تخربت تماما، وذلك ما بين سنة 794 هجرية / 1393 ميلادية وسنة 802 هجرية / 1400 ميلادية، بعد أن تحارب الناس فيما بينهم فهدموا قنوات السقي الآتية من النهر وقطعوا النخيل وخربوا السور وتفرقوا عبر الواحة فشيدوا قصورا خاصة بهم والتي بلغ عددها ما يقرب من 350 قصرا ما بين صغير وكبير. "وسجلماسة اليوم خرائب وأطلال... ويطلق عليها أهل البلاد على سبيل التلطيف المدينة العامرة، وهي تمتد على طول الشاطئ الشرقي لوادي زيز نحوا من خمسة أميال، ولم يبق منها إلا منارة ما زالت قائمة على قنطرة عبر وادي زيز وكتل ضخمة من الأسوار المشيدة من الصلصال في كل مكان"(65).

2- الرواية الشفوية :

يحتفظ معظم سكان منطقة سجلماسة "تافيلالت حاليا" بذكريات جميلة عن مدينتهم التي يطلقون عليها اسم "العامرة" أو "المردومة"، إلا أنهم يتذكرون

(64) الوزان (محمد بن الحسن) : المصدر السابق، الجزء الثاني (ص 127).
(65) مجموعة من المؤلفين : **دائرة المعارف الإسلامية**. الجزء الحادي عشر (ص 300-301).

إلى حد ما نهاية المدينة أكثر من بدايتها، ويشيرون إلى أن مدينة سجلماسة اتخذت شكلا طويلا وضيقا على ضفاف وادي زيز وتمتد من قصر المنصورية في الشمال إلى قصر تابوعصامت بالجنوب، إذ تبلغ مسافتها نصف نهار مشيا بالنسبة لرجل ونهارا كاملا لامرأة من المنطقة أي ما يقارب ثمان كيلومترات، بينما يتراوح عرض المدينة ما بين كيلومتر واحد وكيلومترين.

وتؤكد الرواية الشفوية أيضا أن منطقة تافيلالت لا تضم سوى مدينة واحدة هي سجلماسة الكبرى التي تقع كاملة شرق وادي زيز وتوافق الموقع المعروف حاليا والذي يطلق عليه اسم "المدينة العامرة" أو "المردومة". وكانت المدينة تربطها بالسوق المعروف بابن عقلة، قنطرة واحدة شيدت على وادي زيز. كما تشير هذه الرواية إلى أن تطور مجال القصور المنعزلة، جاء مباشرة بعد تخريب المدينة، إلا أن بعض القصور يعود أصلها الأول إلى فترة سجلماسة، في حين أن أغلب القصور العلوية الحالية ترجع إلى فترة اندثار المدينة.

فيما يخص الأسوار والأبواب، تقول الرواية الشفوية أن مدينة سجلماسة لم تكن محصنة بسور، وأن السور المعروف بالمنطقة كان يحيط بالواحة كلها. فحقول سجلماسة التي تسمى "الجمامن، مفرد : جمون" كانت محددة بجدران على علو يصل إلى أربعة أمتار، وهذه الحقول هي التي كانت بمثابة الحد الفاصل بين الواحة وسجلماسة من جهة، وبين العالم الخارجي من جهة ثانية.

وتشير الرواية الشفوية أيضا إلى أن إحاطة مدينة سجلماسة بالسور جاء متأخرا، وأن أسوار الحقول أمنت سكان الواحة خلال حصار السلطان الأكحل الذي تعتبره الرواية كحاكم للمدينة والذي عمل على حرمانها من مواردها المائية وذلك بتغوير عيون تسمى تمدرين.

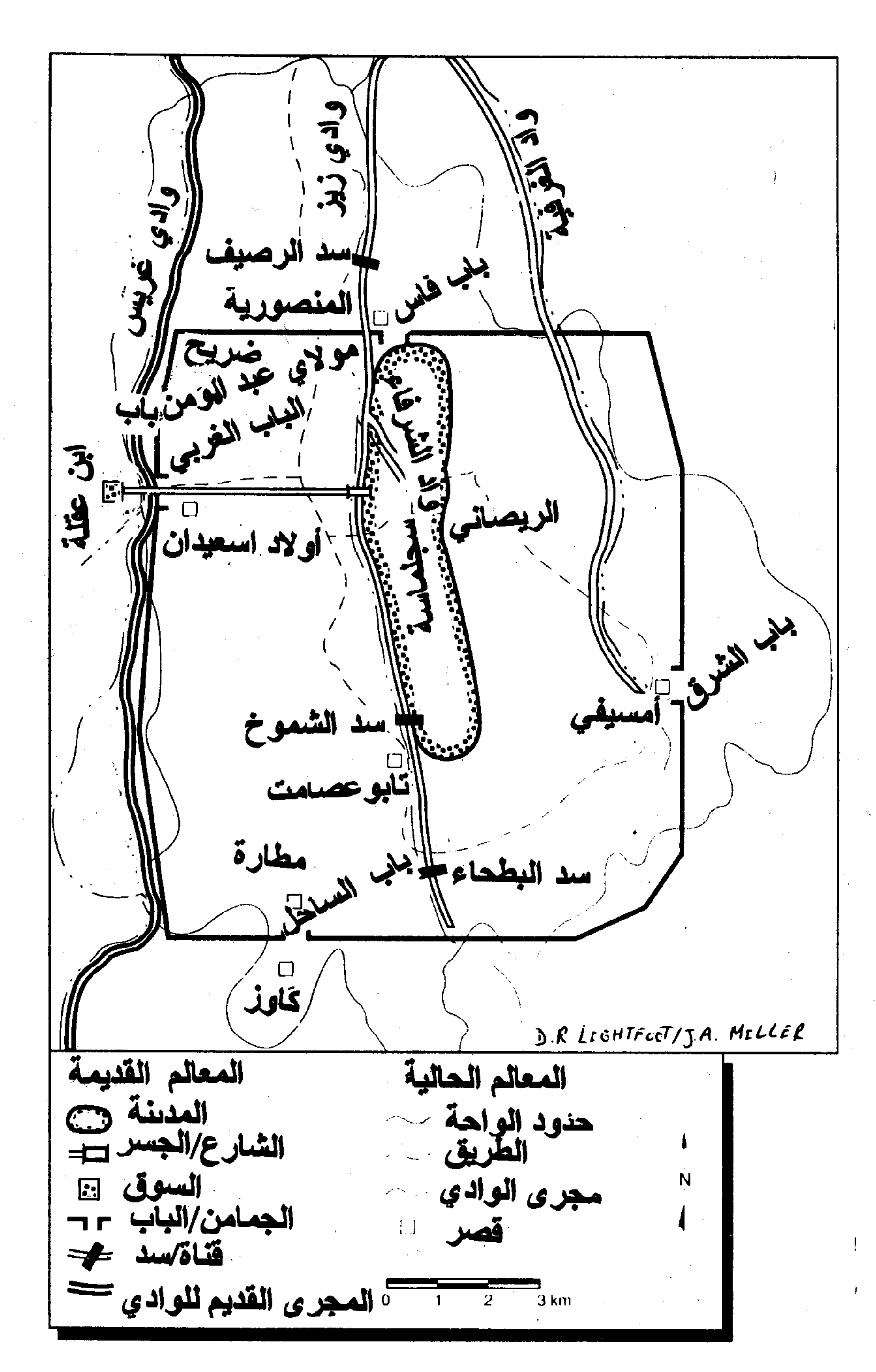
وتطلق الذاكرة الشعبية على أبواب سجلماسة، كما هو الشأن في باقي مدن المغرب، أسماء تدل على الاتجاه بالنسبة للتجارة أو المجال الخارجي أو الجهة المؤدية إليها :

- باب فاس يقع بقصر المنصورية ويشير إلى الحد الشمالي للمدينة، ولا تزال آثار هذا الباب واضحة إلى اليوم وتسمى باب الريح.
- باب الساحل يوجد بالجنوب الغربي ما بين قصري وطارة وكَاوز.
- باب الغرب يدل على غرب الواحة وينفتح على وادي غريس ويقع بالقرب من سوق ابن عقلة وبالضبط بجوار ضريح مولاي عبد المؤمن.
- باب الشرق يقع في الركن الجنوب الشرقي للواحة قرب قصر أمسيفي .بمشيخة الغرفة.

كما تتذكر الرواية الشفوية أن سجلماسة كانت بمثابة نقطة للعادات أو الدواوين التي كانت تتركز بسوق ابن عقلة الواقع غرب وادي غريس في نهاية القنطرة التي تربطه بسجلماسة عبر طريق تحيط بها أسوار عالية من الطين. بل تذهب الرواية المحلية إلى القول بأن سوق ابن عقلة استخدم كنقطة الوصول بالنسبة للقوافل التجارية وسوقا أو مكانا كانت تجمع فيه المكوس. وتشير إلى أن بعض أفراد القبيلة المعروفة حاليا بآيت كبور عرفوا بكونهم كانوا يسيرون السوق.

وتورد الذاكرة الشعبية معطيات كثيرة عن مسألة الموارد المائية وطرق استغلالها بسجلماسة. فالصورة المحتفظ بها هي أن الواحة كانت محاطة بسور وتوجد بها مدينة واحدة فقط. كما تذكر الرواية المحلية أن القصور المنعزلة لم تكن موجودة وأن الواحة لم تكن مقسمة إلى مشيخات وحقول فردية مثل اليوم، وإنما كانت مجالا فلاحيا واحدا وواسعا يؤمن للمدينة حاجاتها الكافية من المواد الغذائية.

وعرفت سجلماسة بوجود عيون مائية كثيرة ومتنوعة أهمها عين تمدرين التي عمل السلطان الأكحل على تغويرها عند حصاره لسجلماسة وذلك قصد الضغط على سكانها ليؤدوا ما بذمتهم من الضرائب والكلف.



التصميم 20 : منطقة سجلماسة : الحدود الأثرية للموقع والمعالم الأساسية
(البعثة المغربية الأمريكية، موسم 1994)

وفي الوقت الذي كثرت فيه الاضطرابات السياسية، أجبر السكان على إخلاء المدينة والاستقرار بقصور لهم بالضواحي. من جهة أخرى، حددت الرواية الشفوية ثلاثة سدود وشبكة من السواقي المرتبطة بوادي زيز والتي شيدت قصد تحويل مياه هذا الوادي خلال فترة سجلماسة، وبالتالي تطوير نظام الري وتوسيع المجال الفلاحي بالواحة. هذه السدود هي :

- سد الرصيف ويقع في الجزء الشمالي للواحة.
- سد البطحاء وهو أكبرها ويوجد في أقصى الجنوب.
- سد الشموخ ويقع في الحدود الجنوبية للآثار المتبقية حاليا من موقع سجلماسة.

أما السواقي المهمة فتتمثل في الغرفية التي تتفرع عن وادي زيز في الشمال قصد سقي الحقول الواقعة في شرق الواحة، وساقية الشرفاء وتتفرع عن وادي زيز في شمال القصبة السجلماسية لسقي المناطق الوسطى من الواحة [واد إيفلي سابقا]. كما توجد قنوات صغيرة تتفرع عن هذه السواقي الكبيرة وعن وادي زيز ووادي غريس.

وبالرغم من هذه المعطيات الغنية التي تقدمها الرواية الشفوية، تظل عدة إشكاليات بدون أجوبة مقنعة ومنها :

- إلى أي حد استطاع السلطان الأكحل بواسطة مراقبة موارد مياه زيز، من التحكم في نوع نظام السقي، وفي بسط سيطرته على المدينة ؟ وكيف قام هذا السلطان بتغوير عين تمدرين ؟
- هل الوضعية السياسية كانت بالفعل سيئة إلى درجة أن السجلماسيين أرادوا الفرار من مدينتهم ؟ كيف ولماذا كانت الوضعية متردية إلى هذا الحد ؟
- من هو السلطان الأكحل وهل يمثله بالفعل أبو الحسن المريني كما أشارت إلى ذلك بعض الكتابات التاريخية أم هو أحد حكام المدينة فقط ؟

II- إشكالية موقع سجلماسة الأثري :

1- تحديد الموقع من الناحية الأثرية :

أ) التشكيلات الأساسية :

تعترض إشكالية التحديد الحقيقي لموقع سجلماسة عقبات عديدة، ذلك أن الكثير من المعطيات الأثرية تستخلص أساسا من اللقى الخزفية المكتشفة بالموقع، كما أن الحفريات المنجزة بسجلماسة لحد الآن لا زلات محتشمة. وبالرغم من استغلال موقع سجلماسة لفترة الطويلة تمتد من سنة 140 هجرية / 757 ميلادية إلى حوالي سنة 795 هجرية / 1393 ميلادية) فإن المعطيات الطبوغرافية والاستراتيغرافية لم تحدد بدقة لحد الآن وتؤكد إجمالا أن الكثير من الطبقات الأثرية تعرضت للاضطراب بفعل إعادة استغلال الموقع في فترات لاحقة كبناء القصبة السجلماسية والقصور والمراكز الصناعية والمقابر منذ تخريب مدينة سجلماسة، كما تعرضت بعض الطبقات الأخرى لتشوهات كبيرة بفعل فيضانات وادي زيز. ففي حفريات 1992 ميلادية أظهر 14 استبارا اختلالات كبيرة في المستويات مثل البناية المشكلة من ثلاث طبقات مختلفة والمؤرخة بسنة 493 هجرية / 1000 ميلادية وأيضا السور الغربي مع أبراجه ويؤرخ بحوالي سنة 596 هجرية / 1100 ميلادية. كما كشفت حفريات موسم 1994 ميلادية عن ثلاث طبقات لمساجد متتالية تحت مستوى القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

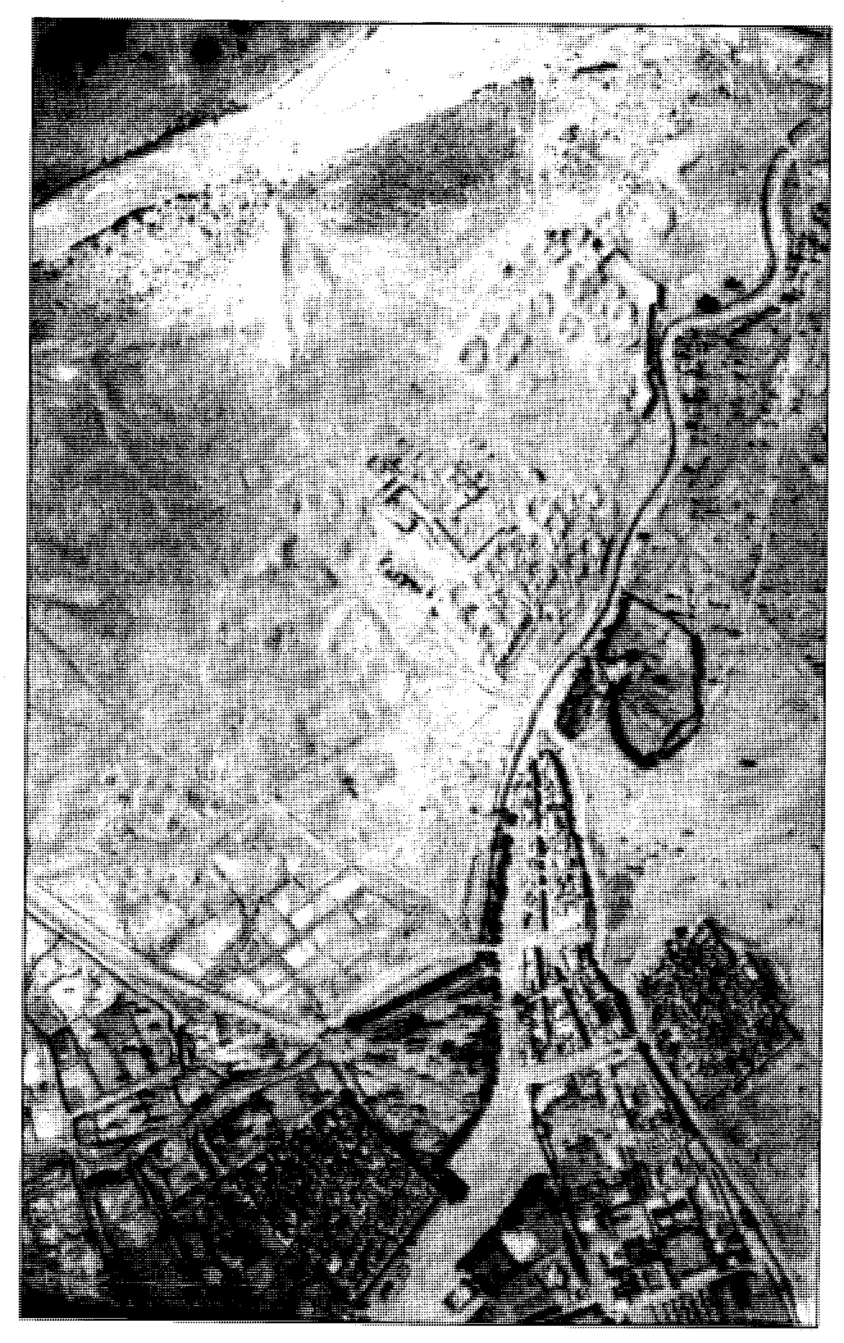
وبالرغم من هذه المعوقات الستراتيغرافية، فيمكن الاعتماد على المعطيات المجمعة لرسم خريطة أثرية تشمل مدينة سجلماسة والواحة كنموذج نظري على الأقل لما كانت عليه في تلك العصور السالفة. كما أن المقاربة بين المعطيات الطبوغرافية والصور الجوية والمسح الأثري من جهة، والرواية الشفوية والكتابات التاريخية من جهة ثانية، تمكن من الحصول على صورة تقريبية عن مجال سجلماسة وخاصة عن مركزها الحضري في السنوات الأخيرة قبل اندثارها.

اعتمدت الخريطة التي تغطي الجزء الشمالي للموقع على مقياس 1/50.000 وبالنسبة للواحة على مقياس 1/250.000، واستعملت أساسا لتحديد حدود موقع سجلماسة وحدود محيطها الإيكولوجي. فالصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية تقدم نظرة عامة عن الموقع ومجالها مثل مصادر المياه، والمساحة المسقية ونظام توزيع الأراضي والمنتجات الفلاحية. كما مكنت صور الأقمار الاصطناعية من التمييز بين الأرض الصالحة للزراعة وغير الصالحة وأبرزت تنوع مؤهلات المنطقة من الحقول المستغلة وظروف تلك المهملة، وأيضا المستوى الأصلي للفرشات المائية وسبل استغلالها وأهم المواد الغذائية المنتجة.

وبهذا يكون تحليل الصور الجوية، قد ساعد على إثراء المعلومات التي أوردتها الكتابات التاريخية والرواية الشفوية. وساهم أيضا في الكشف عن مجرى الأنهار وحدود الواحة، وفي تعميق الفهم حول المجال والموارد المائية وفي التحقق من صحة ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية من حكايات غنية ومتنوعة.

وساعد المسح الأثري على اكتشاف بقايا المنازل، والأسوار، والأبواب والقنوات المائية الموزعة على عدة أماكن داخل المجال الأوسط لموقع سجلماسة. كما توضح الصور الجوية بعض الأنقاض المتبقية التي تبرز كمكونات معمارية متوافقة. فبقايا الجدران المدفونة تحت الأنقاض على سبيل المثال لا الحصر، تختلف في الغالب عن مثيلاتها الموجودة فوق السطح من حيث تكوينها وشكلها الهندسي. هذه المخلفات تشير من جهة أخرى، إلى وجود آثار تحت مستوى القصبة السجلماسية. الأسبار الأثرية المنجزة في موسمي 1993 و1994 ميلادية كشفت عن جزء من هذه الأسوار وأنها تنتمي فعلا إلى مدينة سجلماسة.

وكشفت التحريات الأثرية عن بعض بقايا السور الذي شكل جزءا من تحصينات الواحة على طول الضفة الشرقية لوادي غريس إلى غاية قصر مولاي



الصورة 24 : موقع سجلماسة الأثري : صورة جوية للجزء الأوسط

المرجع : أبنية القصور والقصبات بالأودية المتاخمة للصحراء.
الرباط، وزارة السكنى 1992 (ص 63)

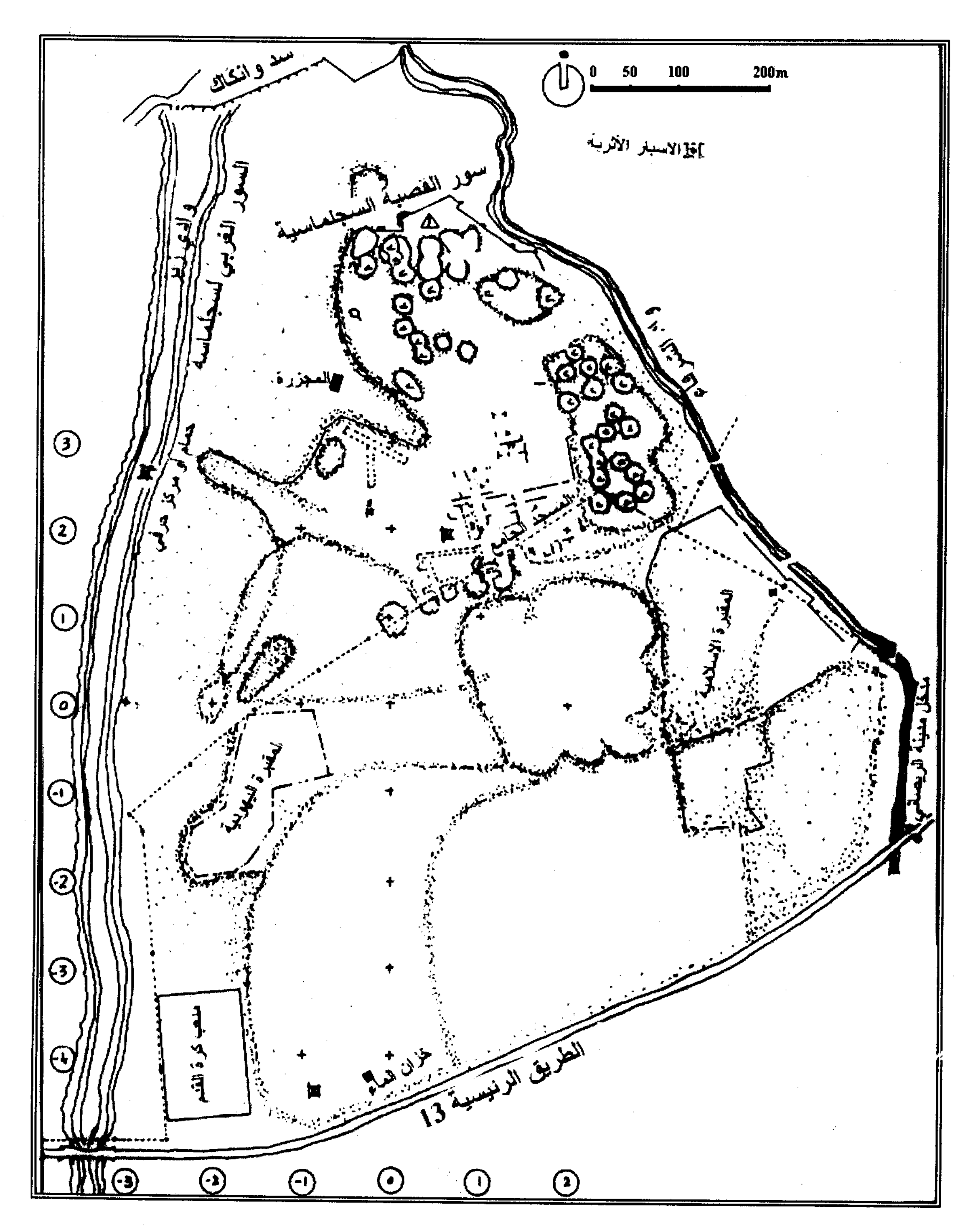
عبد المؤمن "المندرس" بشمال غرب الواحة. ويؤكد وجود جزأين طويلين واتجاه السور إلى انتماء هذه البقايا لساقية تستمد مياهها من وادي غريس. ويظهر السور متقطعا في نقطتي دوران المجرى بفعل التعرية النهرية، واندثرت منه أجزاء أخرى بفعل أعمال الزراعة. يمتد الجزء الأول من السور على مسافة حوالي 3,5 كيلومترات، بينما يظهر جزؤه الثاني في الصور الجوية وهو يحيط بالركن الجنوب الشرقي للواحة على مسافة حوالي 6 كيلومترات.

تتفق هذه الأجزاء من حيث الشكل والموقع مع ما ذكرته الرواية الشفوية ويظهر أن هذه الأسوار سابقة عن التغييرات التي تعرض لها المجال في الفترة المعاصرة، إذ أعدت عدة حقول وقنوات وطرق فضلا عن المجاري الطبيعية. كما أن السور المحيط بالواحة تعرض بدوره للتعرية ولتدخل الإنسان منذ اندثار سجلماسة، إلا أن بقاء بعض أجزائه يؤكد أن الواحة كانت فعلا محصنة.

وتتمثل الأبواب في باب فاس بالشمال الذي يتخذ شكل بناية مرينية لا زالت تحتفظ بأهم خصائصها المعمارية، وتقع أجزاء منها بداخل قصر المنصورية. الموقع المفترض لباب الشرق يوجد بالقرب من قصر أمسيفي، لكن شكله تعرض لعدة تغييرات.

ب) المكونات الأخرى :

أجري مسح دقيق بموقع سوق ابن عقلة غرب وادي غريس، جمعت خلاله عدة لقى أهمها رحى يدوية من الحجارة مخصصة لطحن علف الحيوانات من نواة التمر. تنتشر هذه القطع على قطر يمتد على أكثر من نصف كيلومتر وتنتمي أغلب اللقى الخزفية للفترة السجلماسية، كما تظهر آثار الأفرنة المخصصة لصناعة الخزف فوق السطح. واكتشفت أيضا أنقاض جدران من الطابية والطوب المشيدة فوق أساس من الحجارة وقاعدة أعمدة مربعة، وكلها بقايا تشير إلى وجود بناية غير محددة بدقة. قرب الضفة الشرقية لوادي غريس



التصميم 21 : موقع سجلماسة الأثري : البقايا المعمارية بالنطاق الأوسط حسب التحريات الأركيولوجية

وبجوار قصر أولاد سعيدان الحالي، توجد بقايا أسوار كانت تحيط بالطريق التي تربط بين سجلماسة وسوق ابن عقلة.

يكشف تحليل الصور الجوية لموقع سوق ابن عقلة عن انتشار لبقايا أسوار بشكل هندسي على مساحة تتراوح ما بين كيلومتر واحد وكيلومترين مربعين. كما يكشف عن وجود ممر شبه مستقيم عبر الحقول يمتد من سجلماسة وبالضبط من حدود البرج المكتشف قرب وادي زيز سنة 1992 ميلادية إلى سوق ابن عقلة وهو نفس الطريق الذي أشارت إليه الرواية الشفوية سابقا.

النقطة المهمة في المجال السجلماسي التي لم تثر اهتمام النصوص المكتوبة والرواية الشفوية تتمثل في عملية تحويل وادي زيز إلى شكل مجرى اصطناعي يخترق وسط الواحة ويمر بالقرب من موقع سجلماسة. المجال النهري الحالي بتافيلالت يتضمن ثلاث أودية تعبر الواحة من الشمال إلى الجنوب وتتقارب كثيرا شمال الواحة لتفترق من جديد في الجنوب قبل أن تلتقي لتشكل واد الدورة. فوادي زيز الذي يمر وسط الواحة، انقسم إلى سواقي تساير في معظمها الحد الغربي لموقع سجلماسة، بينما يجري وادي غريس على طول الهامش الغربي للواحة. هذا في الوقت الذي يتخذ واد أمربوح الوجهة الشرقية للواحة بعد أن انفصل عن وادي زيز في شمال تافيلالت بالقرب من قصر أولاد الزهراء، ويلتقيان من جديد في جنوب الواحة.

ويوضح كل من المسح الأثري والصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية، أن مجرى زيز على خلاف وادي غريس وواد أمربوح، يظل مستقيما وهو يعبر وسط واحة تافيلالت. ويؤكد هذا أن وادي زيز الحالي لا يمكن أن يكون طبيعيا خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تم العثور عليه في موضع انفصاله عن واد أمربوح من بقايا ورش الأشغال والحجارة المستعملة في عملية التحويل. وإذا كان وادي زيز يعرف جريانا شبه مستمر وبالخصوص في السنوات الممطرة،

فإن ما يسمى بالمجرى الأصلي المعروف اليوم بواد أمربوح غالبا ما يكون جافا، ما عدى في وقت الفيضانات.

وبصفة عامة، يمكن القول إن زيز تم تحويله عن مجراه الطبيعي في شمال الواحة لكي يعبرها في الوسط لتستفيد سجلماسة من مياهه بشكل أفضل. وينطبق نفس المعطى حول التحويل الذي عرفه هذا الوادي نفسه في وقت متأخر إلى ساقيتي الغرفية والشرفاء : فالأولى تنفصل عن زيز في شمال الواحة بسد حديث والمعروف باسمها وتتخذ اتجاها جنوبيا شرقيا، وتنتهي قرب باب الشرق بمشيخة الغرفة. أما واد الشرفاء فيكون قناة مائية قصيرة تجري بوسط أنقاض سجلماسة وتسقى منها حقول مشيخة واد إيفلي ابتداء من سد وانكَاكَا.

وإذا كان السدان التليان المحولان لمياه وادي زيز نحو ساقيتي الغرفية والشرفاء غير معروفين في الرواية الشفوية، فإن السدود الثلاثة المعروفة بكونها سجلماسية [الرصيف، والبطحاء والشموخ] تظهر بوضوح في الصور الجوية وهي قديمة ولكن يصعب ضبط تاريخها بواسطة المسح الأثري أو تحليل الصور الجوية. واستنادا إلى المنطقة المسقية بواسطة السدود المشيدة على وادي زيز فضلا عن ساقيتي الغرفية والشرفاء، يمكن القول إن الترسبات النهرية بسجلماسة كبيرة جدا قد تصل إلى 115 كلم² داخل مجال سهلي يتخذ شكلا شبه مستطيل (10 × 11,50 كيلومترا).

2- الخصوصيات الطبوغرافية :

أ) الموقع الرئيسي :

على خلاف باقي المواقع وخاصة منها سوق ابن عقلة، شيدت سجلماسة على ربوة مرتفعة يصل علوها إلى مترين و40 سم فوق سطح الأرض. تنتشر اللقى الخزفية بكثيرة وبشكل غير منتظم على سطح الموقع. وتتغير طبوغرافية

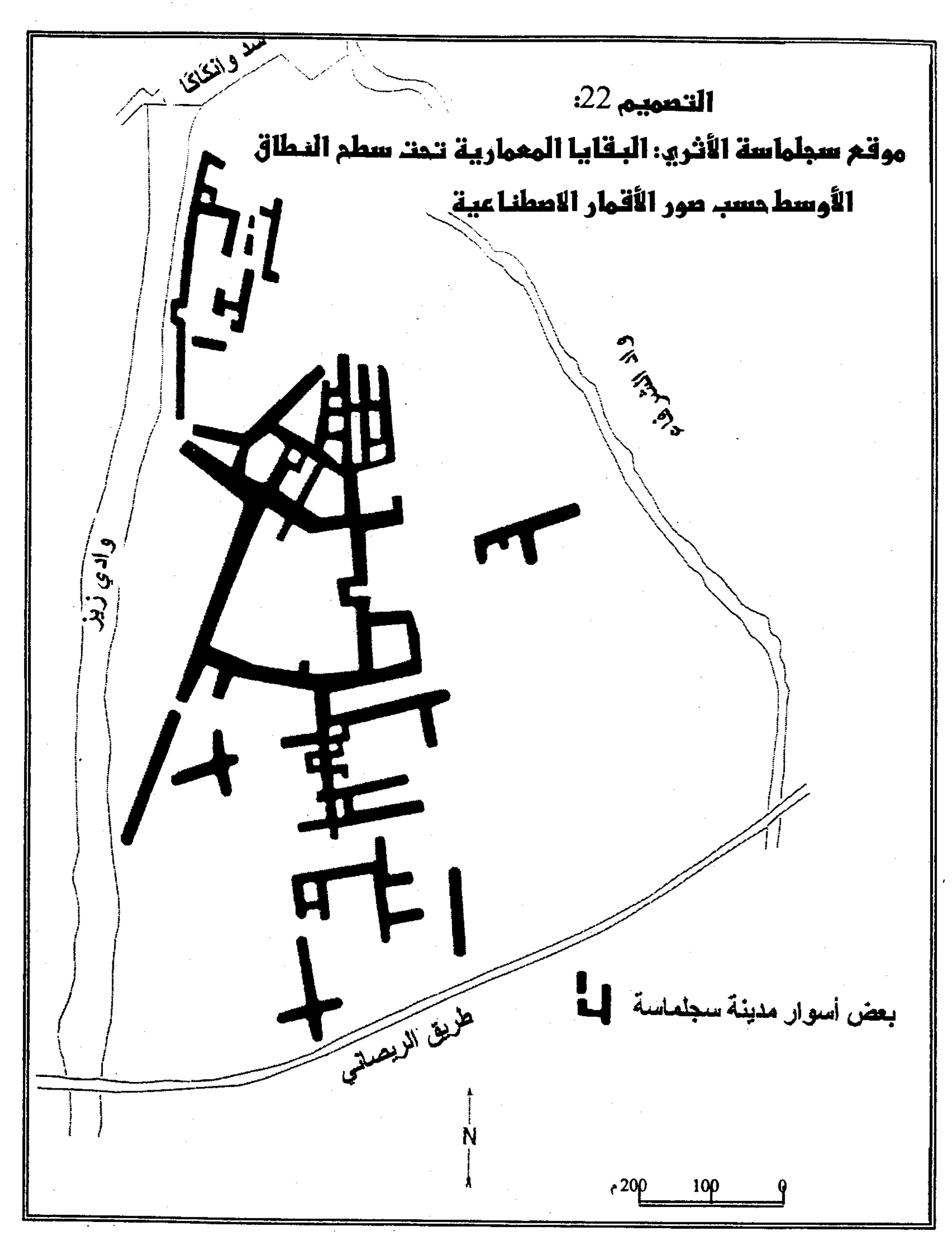
موقع سجلماسة بالنظر إلى جزئيه الشمالي أو الجنوبي واللذين تفصل بينهما الطريق الحالية المؤدية لمدينة الريصاني. ففي الجزء الأول يزداد الارتفاع ويعرف الموقع بعض الاضطراب في الجهة الشمالية الشرقية بينما يغطي الحصى الناحية الغربية.

أما في الجزء الجنوبي فيتخذ الموقع شكل مفصص إلى غاية قصبة الحدب، ثم شكلا مستويا يخترق الحقول في الجهة الشرقية، بينما يتسم بالإنحدار الخفيف في الجانب الغربي. كما يتشكل من مرتفع بسيط يبلغ ما بين مترين ومترين ونصف فوق مستوى مجرى وادي زيز، ويوجد جدار شمال- جنوب في الغرب بينما تنتشر قبور واضحة المعالم في الشرق. وتظل القطع الأثرية وخاصة الخزفية منها قليلة بهذا الجزء الذي تظهر به أيضا الرمال أو قاعدة رملية رطبة مختلطة بالحصى وتشكل مسطحا محجرا يعود إلى فترة البلايستوسين Pléistocène.

وفي شمال وجنوب قصبة الحدب يوجد مفصص مسطح مغطى بالحصى وهو قليل الارتفاع [أقل من نصف متر]. ويبقى الخزف المكتشف بهذا الجزء قليلا ويغلب عليه الصنف العادي.

ب) المنطقة المستوية :

وهي ذات مستوى يتشابه مع مستوى وادي زيز وتقع خاصة بأقصى الجهة الجنوبية لموقع سجلماسة وكذلك شمال قصر المنصورية وتنتشر بها الرمال الرطبة بفعل ترسبات وادي زيز. لم يعثر بهذه الناحية، على أي قطعة خزفية على السطح. وتوجد في الجنوب في اتجاه قصر كَرينفود حقول من الرمال الرطبة يبلغ علوها مترا ونصف. مظاهر الاستغلال بهذه المنطقة منعدمة وربما دفنت تحت الرمال على عمق يتراوح بين نصف متر ومتر واحد، وربما اتخذت شكل حقول زراعية أكثر من مراكز حرفية.



التصميم 22 : موقع سجلماسة الأثري :

صورة بالأقمار الاصطناعية للبقايا المعمارية تحت السطح

في بداية الواحة، شمال قصر أولاد ليمان وجنوب غرب قصر أولاد الزهراء، تتوضع ترسبات وادي زيز ذات لون بني أخضر زيتي على عمق يتراوح بين نصف متر و ثلاثة أمتار ونصف. كما توجد بها آثار قنوات ومجريين للماء المالح تعود إلى فترة سابقة لعين مائية دائمة، وتخترق المنطقة كذلك عدة خطارات وتنتشر بها بعض اللقى الخزفية.

وتوجد بين وادي زيز ووادي غريس وحدة من الواحات تتخذ شكلا مفتوحا ووسطا يمتد بين الطريق الرئيسية وقصر تانجيوت المندرس، بينما تتشكل وحدة أخرى من الترسبات تمتد من الشمال / الشمال – الشرقي إلى الجنوب / الجنوب – الغربي ويخترقها واد صغير قرب قصر بحاير الأنصار. هذا الوادي يبلغ عمقه مترين ويتجه نحو الجنوب / الجنوب – الغربي ليصب في وادي غريس.

وتنتشر القطع الخزفية على محيط يتراوح عمقه ما بين 1,35 و 1,60 مترا ويمتد ما بين قصر بحاير الأنصار وقصر كَيغلان. وعلى طول وادي غريس وخاصة حول موقع ابن عقلة وإلى الشمال الغربي والجنوب الغربي منه يوجد مجال مسطح تنتشر فيه لقى خزفية عادية كثيرة ومجموعة من الأصداف والأحجار المتنوعة ويحد هذه المنطقة بقايا الحقول والسواقي.

ج) منطقة الجمامين :

وهي عبارة عن حقول صغيرة تمتد على طول ضفة وادي زيز وتفصلها حدود غير واضحة نتيجة التعرية السقوية والاختلاط الكبير للتربة بفعل الأنشطة الفلاحية. وتتكون من طبقة سميكة تتراوح بين متر و60 سم ومترين، وهي ذات تربة بنية مفتوحة ومختلطة مع قطع من الخزف السجلماسي والعظام

والفحم. كما تنتشر بهذه المنطقة ترسبات من الرمال والطمي الناتجة عن فيضانات وادي زيز.

وتتشكل في شمال هذه الوحدة أراض مستوية على مساحة عدة هكتارات وتنتشر بها بقايا قنوات مائية وآثار سبخات وتركز للكلس، فضلا عن حجارة حادة وكميات من الخزف اليدوي وأدوات أخرى، بينما تقل الأدوات المصنوعة من السليكس silex. وفي الجنوب تنتشر طبقات رسوبية من الطمي والصلصال يتعدى سمكها مترا واحدا. ويتضح أن هذه الحقول، قد غمرت بفعل الترسبات السنوية للطمي والرمال بواسطة عملية الفيض وهبوب الرياح وبفعل الاستصلاح المستمر للأراضي المسقية.

د) المرتفعات :

وأهمها مرتفع الجبيل الذي يتكون من صخر بني أسود يشبه الصخور الأصلية وهو يشكل تل منعزل بشمال الواحة. ويمثل المرتفع حاجزا طبيعيا تحت أرضي للمياه الجوفية التي كانت تنبع منه على شكل عيون. تكون هذه الأخيرة فرشة مائية مهمة تتغذى منها الواحة والتي تم قطعها بفعل التعرية النهرية وتدخل الإنسان. وتظهر هذه العيون على طول خط يمتد من الشرق إلى الغرب. من جهة أخرى يمكن أيضا الكلام عن الكثبان الرملية العالية التي تقع قرب زاوية الرمل في الجنوب الغربي للواحة والتي تهيمن عليها أشجار وحقول حديثة العهد. وتشكلت هذه الرمال وكذا الحقول بفعل ترسبات وادي غريس بصفة خاصة.

تنتشر غرب هذه المنطقة وعلى طول وادي غريس، حقول وقنوات مائية مهجورة. كما توجد غرب وادي غريس وجنوب موقع ابن عقلة منخفضات ملئت بترسبات الفيضانات وبتراكمات من الصلصال، فضلا عن مجموعة من الحجارة المحروقة ذات أصل غير محدد.

3- الدراسة الاستراتيغرافية :

أ) الموقع الرئيسي :

تقدم الطبقات الرسوبية الممتدة من شرق موقع ابن عقلة إلى وادي غريس صورة عامة عن تاريخ الترسبات بالمنطقة. ورغم صعوبة تأريخ هذه الطبقات بدقة، يمكن القول إنها تطورت كثيرا خلال عصر الهلوسين Holocène وعلى امتداد ستة آلاف إلى ثمانية آلاف سنة أو أكثر بقليل.ىءيبلغ سمك هذه الطبقات حوالي سبعة أمتار ونصف، وتقع الوحدة الأساسية منها فوق طبقة من الطمي البني المتحول كيميائيا والصلصال والتي توضعت في بحيرة أو وسط مجال غمر بالمياه. وهذا ما أعطى للطبقة لونا بنيا أسودا وتختلط مع قطع قليلة من بقايا سبخة. ويتبين من ذلك وجود تراكم لصلصال يرجع إلى منتصف عصر الهلوسين [من خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف سنة]. ثم تأتي طبقة الكلس ويبلغ سمكها حوالي مترا واحدا، وقد نتجت عن فيضانات الأودية وبعض التحولات الكيميائية. تتخذ الطبقة الأخيرة طابعا رسوبيا وتتكون من خليط التوضعات النهرية والرمال المحمولة من طرف الرياح.

وبصفة عامة تمثل الطبقة الأولى تراكما سابقا لتكون الواحة على عمق مترين والذي لم يتعرض للتعرية كلية بفعل الغطاء النباتي. أما الطبقة الرسوبية فهي عبارة عن تراب بني مفتوح مختلط بكميات من كاربونات الكالسيوم وتغطى بواسطة تراب رملي وأصداف صغيرة. وتمثل الطبقة السطحية مستوى مستقرا بفعل الأنشطة البيولوجية المكثفة للغطاء النباتي وللتربة وكاربونات الكالسيوم.

ب) على جنبات الموقع :

أهم طبقة بهذا الجزء تقع على الضفة الغربية لوادي زيز وشرق مرتفع الجبيل ويمكن تجزيئها مقطعيا إلى ما يلي :

– إلى حدود مترين : طمي بني شاحب اللون ومختلط بالرمل وببعض اللقى الخزفية الصغيرة وقطع من العظام.

– من مترين إلى مترين و75 سم : تراب أصفر–أحمر وكميات من الرمال البنية مختلطة بكاربونات الكالسيوم.

– من مترين و75 سم إلى 3,40 أمتار : تراب رملي صلب بني اللون يشكل قاعدة تعلوها طبقة من الطمي.

– من 3,40 إلى 4,70 أمتار : صلصال أخضر زيتي بني مع رمال رقيقة مختلطة بكاربونات الكالسيوم.

– من 4,70 إلى 5,30 أمتار : تراكم لرمال صلبة ومملطة بصلصال بني زيتي ثم ليموني.

وفي الجزء العلوي من مستوى الواحة وعلى عمق متر و60 سم، يتراكم التراب الناتج عن الأنشطة الفلاحية وعن ترسبات الطمي بفعل التعرية السقوية والفيضانات. وهي تختلط ببعض اللقى الخزفية القليلة وقطع من الفحم الخشبي وبعض العظام. يظهر ذلك جليا في الخرائط الطبوغرافية ذات مقياس 1/50.000 حيث أن الرواسب تمتد على عمق ما بين خمسة وأربعة عشر مترا. أما بقايا التكوين الطبوغرافي فيعتقد أنها نتجت بفعل التعرية النهرية منذ عصر الهلوسين.

ج) موقع سوق ابن عقلة :

يقع على بعد ست كيلومترات غرب موقع سجلماسة ويتشكل من الأجزاء التالية :

• الجزء الرئيسي : يقع شمال الطريق الرابطة بين مدينة الريصاني ومركز ألنيف، بين خط العرض '31°16.99 شمالا وخط طول '04°19.51 غربا ويتكون أساسا من بقايا أثرية على شكل جدران تمتد على حوالي خمس هكتارات.

• ركام بقايا الصخور : يقع على طول الجانب الجنوبي لموقع ابن عقلة، جنوب الطريق بين خط عرض '31°17.00 شمالا وخط طول '04°19.35 غربا. يتشكل هذا الركام من الحجارة المحروقة، وترسبات وادي غريس، وقطع من الفحم الخشبي، وبعض اللقى الخزفية المتنوعة وأشكال ناتجة عن حرق الجبس.

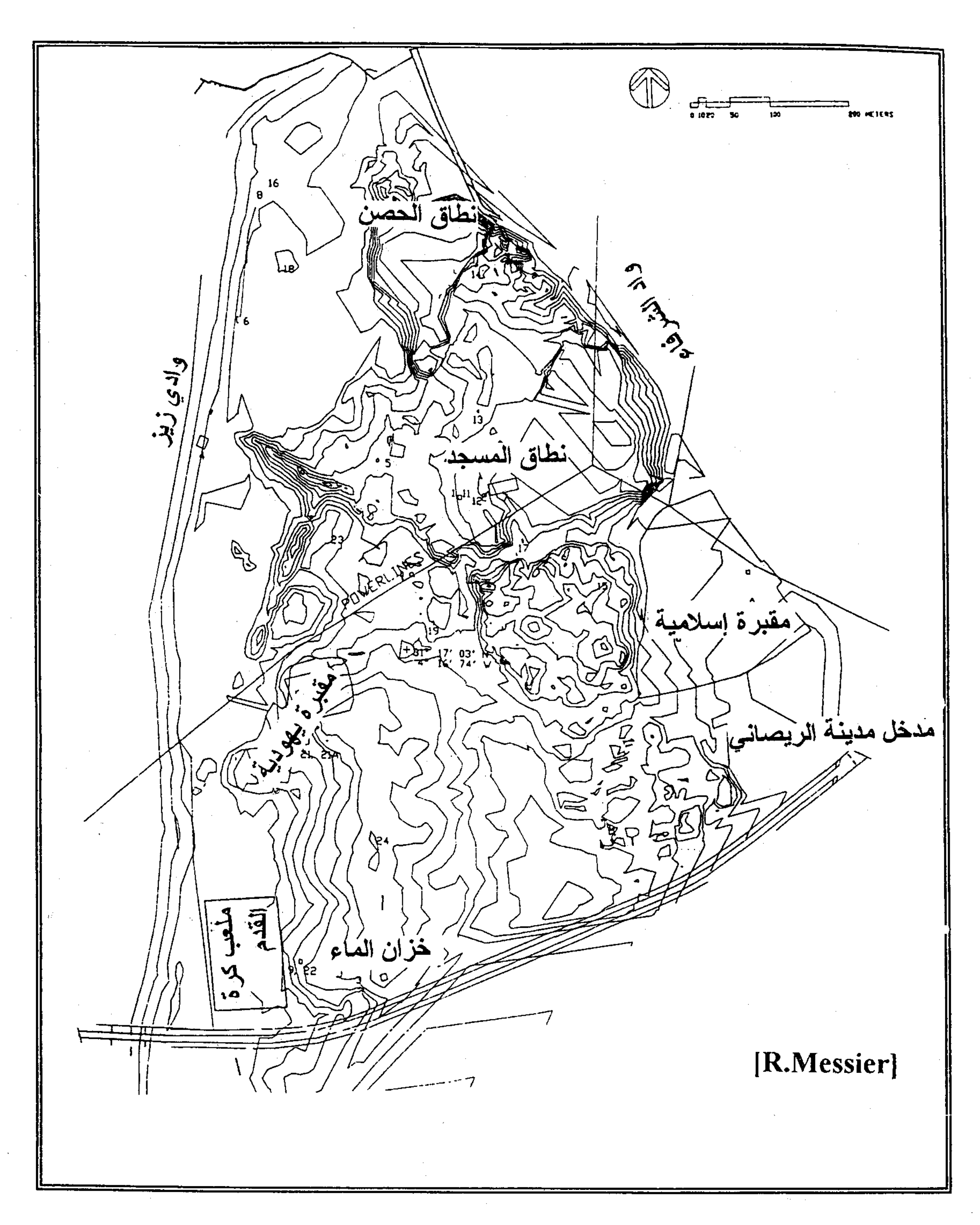
• المقبرة : تقع شمال الموقع على جانب الوادي وفيها تظهر عشرات من الهياكل العظمية بفعل تعرية المجرى المائي الذي يصب في غريس.

• المنطقة الواقعة جنوب ابن عقلة : تقع بين خط عرض'31°16.77 شمالا وخط طول '04°19.50 وهي عبارة عن تل قليل الارتفاع يتخذ شكلا مربعا ويمتد على طول تسعين مترا من الشرق إلى الغرب وعلى عرض ثمانية أمتار من الشمال إلى الجنوب. ويظهر جدار من الطابية في الشمال وآخر من الطوبية في الشمال الغربي وتوجد عدة غرف صغيرة في الجزء الداخلي المغلق. يمكن أن هذه المنطقة استعملت كحصن للحراسة.

• منطقة امتداد المنطقة نحو الشمال : تقع بين خط عرض '31°16.86 شمالا خط طول '04°19.45 غربا وهي عبارة عن مرتفعات صغيرة على طول مائة وأربعين مترا من الشمال إلى الجنوب وعلى عرض مائة مترا من الشرق إلى الغرب وتظهر فيها آثار فرن دائري لحرق الجبس يبلغ قطره 3,4 أمتار كما تنتشر بالمنطقة عدة لقى خزفية من المخلفات غير الصالحة «Ratés de cuisson».

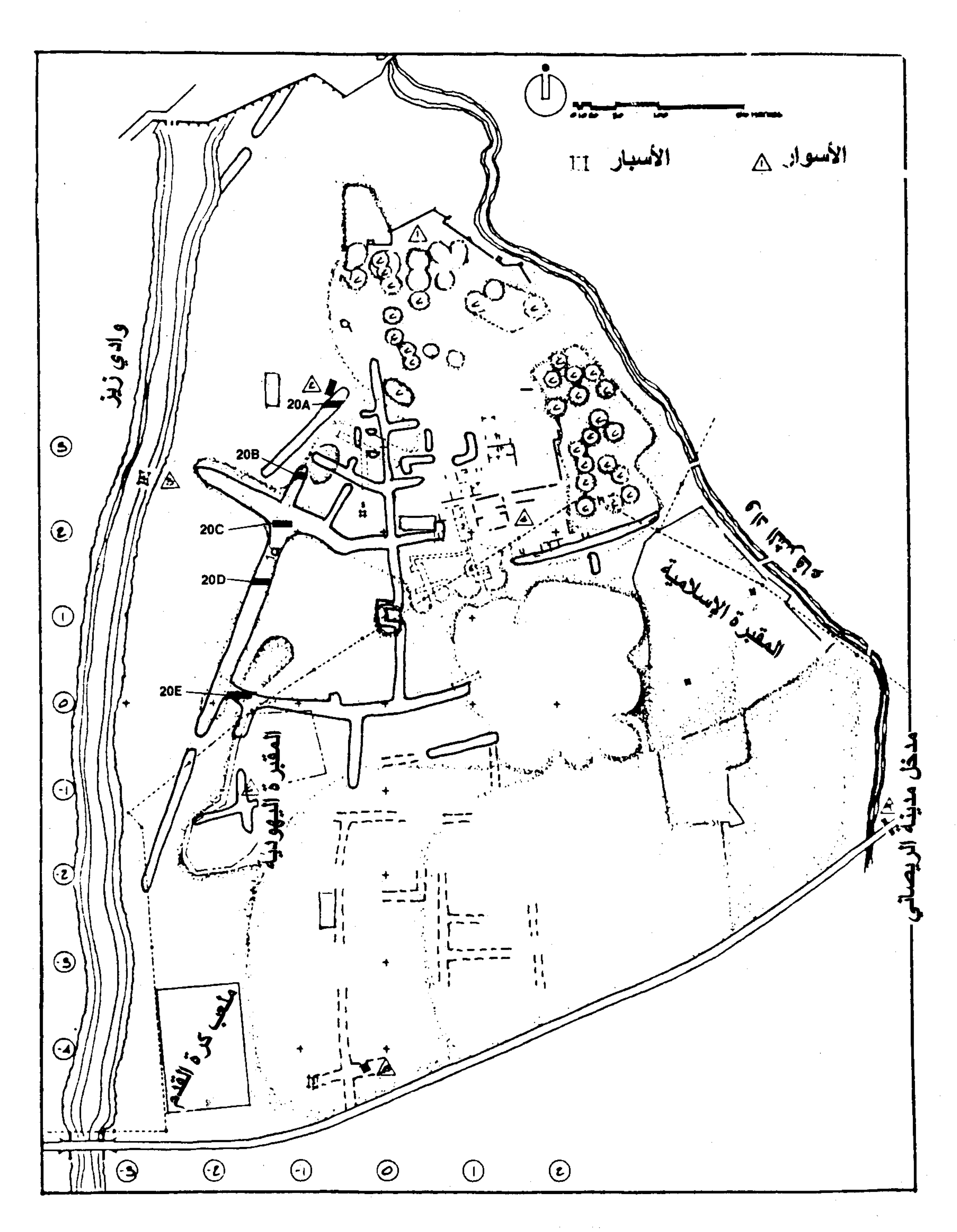
• منطقة امتداد التل في الجنوب والجنوب الغربي : تشتمل على ركام كبير من الخزف الضائع الذي ينتمي لمركز خزفي محلي.

• منطقة الامتداد الغربي والشمالي لموقع ابن عقلة : وهي عبارة عن حقول مهجورة وبقايا قنوات مائية وتمتد على مساحة كيلومتر واحد مربع، وهذا يدل على أن موقع ابن عقلة لم يكن سوقا فقط وإنما يمثل أيضا توسعا لواحة تافيلالت.



التصميم 23 : موقع سجلماسة الأثري :

البقايا المعمارية بالنطاق الأوسط حسب المسوح الجيوفيزيائية



التصميم 24 : موقع سجلماسة الأثري : أهم المعالم المتبقية

خلاصة :

يستخلص مما سبق أن دراسة العمران السجلماسي من خلال المصادر المكتوبة والرواية الشفوية والبحث الأثري، لا تخرج عن الاهتمامات الجديدة التي أخذت تفرض نفسها على البحث العلمي. وتكشف هذه الدراسة عن أهمية سجلماسة من ناحية التراث المعماري وعن دورها في المسار التاريخي المغربي العام. وتساهم أيضا في إثراء وتصحيح معظم المعطيات التي وردت في الدراسات السابقة عنها وتؤكد على ضرورة إعادة كتابة تاريخ المنطقة. كما أن الدراسة تضع لبنة جديدة في صرح الكتابات التاريخية والأبحاث الأركيولوجية المغربية.

وتدشن هذه الدراسة، من جانب آخر، لبداية أو لمواصلة عمل طويل المدى يهم أساسا مجموعات بحث متعددة التخصصات، نظرا لما يتطلبه مثل هذا العمل من إمكانات كبيرة وتحريات ميدانية كثيرة، فضلا عن شراكات علمية بين بعثات مغربية وأجنبية. فطبيعة الموضوع وخصوصيات مجال البحث، لا يمكن حصرهما في الزمان ولا في المكان، مما يجعل النتائج التي توصلنا إليها بالرغم من أهميتها، تظل أولية وغير نهائية.



المبحث الثامن :
مواد البناء وتنظيم المجال الحضري

تقديـــم :

يسعى هذا المبحث إلى تحديد مختلف المكونات المادية للعمارة السجلماسية، حيث إن دراسة مواد البناء يعد من الأولويات لفهم العمارة من الناحية الشكلية ومعرفة الضوابط المحلية والتأثيرات الخارجية فضلا عن تحديد التطور الكرونولوجي لمختلف المرافق العمرانية، وتبيان الفوارق الاجتماعية داخل المدينة الواحدة.

فما هي المواد المستعملة في العمارة بسجلماسة ؟ وإلى أي حد خضعت لضوابط أحكام البنيان ؟ ثم هل اكتفت العمارة السجلماسية بما هو متوفر من مواد البناء محليا أم اضطرت إلى استيراد مواد أخرى من مناطق قريبة وبعيدة ؟

I- خصوصيات مواد البناء في العمران السجلماسي :

1- المواد الأساسية :

أ) الطابية :

لعبت مواد البناء دورا أساسيا في مجال العمارة بصفة عامة ويذكر ابن خلدون أن الاختلاف في أحوال البناء إنما يكون بسبب الاختلاف في المدن، كل مدينة على "ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر. فالأمراء ومن في معناهم يتخذون

القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدد من البيوت والغرف لكثرة الولد وكثرة التابع والحاشية. ويبنون الجدار بالحجارة ويلحمون بينها بالكلس ويبالغون في التنجيد والتنسيق وتزيين الجدران بالنقش على الجص والأصبغة إظهارا للبسطة بالعناية في شأن المأوى وهناك من يقتصر على بناء سكن لنفسه وولده ولا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله"[66].

ويأتي الطين في المرتبة الأولى للمواد المستعملة في البناء، ذلك أن هذه المادة "وإن كانت تفرض في تشييد الجدران أو السقوف أحجاما ونسبا عامة، فإنها بالمقابل تعطي حرية كبيرة للمهندس المعماري في تشكيل الفراغ عبر البناء واختراع أحجام ونسب جديدة تعيد الاعتبار للمقياس الإنساني الذي هو في النهاية العامل الرئيسي الذي يفترض أن يحدد المادة وكيفية استخدامها، هذا فضلا عن العنصر الجمالي الذي تتميز به هذه المادة بالذات"[67]. وكانت نتيجة ذلك أن انتشر استعمال الطين في بلدان متعددة وامتد عبر أزمان مختلفة، منذ آلاف السنين قبل الميلاد.

ويرجع استعمال العمارة الترابية على نطاق واسع، إلى ملاءمتها للظروف الاقتصادية والمناخية. فقد "ساعدت هذه العمارة على تجسيد فنون الشعوب المختلفة في أشكال رائعة... فقد تميز العصر الحجري الوسيط بظهور بدايات العمارة لأن الإنسان ترك الإقامة داخل الكهوف والمغاور واتجه للسكن حول ضفاف الأنهار والبحيرات في أكواخ شيدت من أعواد القصب بجدران مائلة للداخل ولها سقوف من أغصان الأشجار والطين"[68].

(66) ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة**. مصدر سابق (ص 510-511).

(67) Fathy (Hassan) : *Construire avec le peuple*, Paris, Sindibad, collection Hommes et Sociétés, 2ème édition, traduit de l'Anglais par Yana Kormel 1970 (p 36).

(68) خزام (عهد عفيف) : "تاريخ العمارة الطينية في سوريا، منطقة القلمون نموذجا" **المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط**. الرباط، جامعة محمد الخامس / كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1999. ص 17-50 (ص 17-18).

والطين مادة سهلة الاستعمال والإعداد وتدخل في تشييد الجدران، كما توظف في بناء السقوف والقبب وأيضا في عمليات التمليط والتبليط. وبخلاف المواد التي تجلب من بعيد مثل الحجارة والخشب، "فإن التراب المستعمل في الطوب والطابية غالبا ما يستخرج وبسهولة من عين المكان، كما أن المادة الأولية لا تستعمل مباشرة في حالتها الطبيعية. بل تخدم وتحول في مكوناتها الفيزيائية لضمان استقرار المادة عبر خلطها بمواد مخصبة نباتية كانت (التبن مثلا) أو معدنية (صلصال الترسبات، رمل الأودية، الحصى...)، مما يقلل من عوامل التجفيف ويساعد على مقاومة[69] المادة ضد الكسر. ويلعب الجير هذا الدور بامتياز حيث يقوم بالربط بين مكونات التراب وبالتالي تشكيل طبقة صلبة ومضادة للرطوبة ولتسرب المياه.

ويستخدم الطين في عمليات التمليط الذي يسميه ابن الرامي بالتلبيس أي تكسية الجدران بطبقة من الملاط أيما كانت مادته والتلبيس، مما يساعد على تقويتها وحمايتها من الأمطار. كما أنه يوفر سطحا أملسا للجدران يمكن زخرفته وتزيينه إذا ما رغب في ذلك[70].

والطابية[71] مادة بنائية تتميز بالقوة والصلابة وتوفر هواء مكيفا داخل التكوينات المعمارية وقد استخدمت في البناء بواسطة ألواح من الخشب، إلا أنها تختلف في الإعداد وتتنوع في الاستعمال من منطقة إلى أخرى. وحاولت عدة وجهات نظر أن تبحث عن الأصل اللغوي للطابية[72] :

(69) Bazzana (André) : «L'architecture de terre au moyen - age, considérations générales et exemples andalous», *Colloque International sur l?architecture de terre en Méditerranée : Histoire et perspectives 1996*. op - cit. pp. 169 - 202 (pp. 178 -179).

(70) عبد الستار عثمان (محمد) : **الإعلان بأحكام البنيان.** مرجع سابق (ص 208-209).

(71) وحاول فانستفيل Van Staëval أن يلخص مفهومها في ثلاثة : المصطلح الأول جاء به فورد R. Ford في القرن 19 م ويقترح الأصل العربي. المصطلح الثاني قدمه جليك Th. F. Glick الذي يركز على الأصل اللاتيني (Pinsare) والمصطلح الأخير أورده طوريس L. Torres ويرى فيه تحريفا لكلمة أمازيغية قديمة.

(72) Van Staëval (Jean-Pierre0 : «Réflexions à propos de la nomenclature médiévale de l'architecture de terre en Occident Musulman : l'exemple du tabiya», *Colloque International sur l?architecture de terre en Méditerranée*. op-cit pp. 95 - 109 (pp. 105 -107).

• فالوجهة المورفولوجية، تقول إن الطابية لفظ عربي يستجيب للقواعد اللسانية المؤسسة للغة العربية من خلال الجدر الثلاثي : ط.و.ب. أو ط.ب.ي. وتعني الطابية المادة المقولبة وليس المادة الأولية أي التراب.

• وجهة النظر الثانية تستند على الأصل الأمازيغي للكلمة ويطلق عليها بالمغرب الأوسط "تابيت"، "التابوت"، "تاطبيت" وبالمغرب الأقصى "اللوح" أو "الطابية".

• وجهة النظر الثالثة ترجح اللفظ اللاتيني المقابل للإسباني tapia وtapial والبرتغالي taipa ويعني آلة "المركاز" التي تستعمل في دك التراب.

من الناحية التاريخية وردت كلمة الطابية في عدة مصادر منذ الفترة الكلاسيكية يمكن إجمالها كما يلي :

• في العصر القديم "يتحدث بلين Pline عن هذه التقنية وخاصة اللوح formatum بإفريقيا وإسبانيا، ويشير إسيدور الإشبيلي Isidore de Sevilla إلى مباني من تراب عاينها بالمدن الإفريقية، وتتحدث النصوص اللاتينية بالأساس عن الطوب وعن اختلاف أشكاله وحداثة وتنوع طرق توظيفه في البناء"[(73)].

• المصادر العربية تشير من جهتها إلى انتشار المعمار الترابي، ويعتبر ابن خلدون خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، الأول وربما الوحيد الذي يقدم تعريفا مفصلا ووصفا دقيقا للطابية : "ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس

(73) Bazzana (André) : op-cit (p 181).

ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدار ويسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة السابقة، وهكذا إلى أن تنظم الألواح كلها سطرا من فوق سطر، وينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب"(74).

وغالبا ما يقترن ذكر الطابية بالوسيلة المستعملة فيها "أي اللوح، جمع ألواح"، التي يعتقد أنها كلمة عربية يرجع تاريخ ظهورها إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد ولكن انتشارها بحوض البحر الأبيض المتوسط لم يبرز إلا في ظل الحضارتين الفينيقية واليونانية. فاللوح يعني بالأساس الوسيلة المعتمدة في البناء بينما الطابية تدل عن تقنية للبناء أكثر من كونها مادة بناء. ففي "ألواح من الخشب يدك خليط من الحصى والتراب والجير. وترتفع الأسوار على قواعد متتابعة، فنجد في الجدران آثار الأعمدة التي تشد الألواح وفق المساحة المطلوبة"(75).

ويقدم ابن حوقل خمس إشارات عن تشييد أسوار الطابية بمدن إفريقية (طرابلس، ومجانة وعبة) وبالمغرب الأوسط (تبنة، وقصر الفلوس). ويذكر ابن حيان (توفي بعد 469 هجرية / 1076 ميلادية) أن مؤسس مدينة بداخوس بالأندلس قد أحاطها بسور بني بالطابية وبالطوب المشمس. ويشير ابن عذارى (توفي بعد 712 هجرية / 1312 ميلادية) إلى أن الأمير الأغلبي زياد الله الثالث قد أعاد تشييد أسوار مدينة رقادة بالطوب والطوابي. وينقل الحميري

(74) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق (ص 407-408).

(75) Terrasse (Henri) : *Kasbas berbères de l'Atlas et des oasis: les grandes architectures du sud marocain*. Paris, édition Horizons de France, sans date. 136 pages (p 51).

معلومات استقاها من البكري مفادها أن مدينة بلنسية بالأندلس تحاط بسور شيد بالحجر و الطوابي. ويصف الإدريسي مراكش بكونها مدينة بنيت بالطين والطوب والطوابي المعتمدة على التراب[76].

وتذكر بعض المصادر المكتوبة أن المعالم الإسلامية الأولى بالغرب الإسلامي اعتمدت الطابية في تشييد الأسوار كما كان الشأن في مدن طرابلس ومجانة وعبة ورقادة بالمغرب الأدنى، وقصر الفلوس بالمغرب الأوسط، وبمدينتي بداخوس وبلنسية بالأندلس، وسجلماسة ومراكش بالمغرب الأقصى[77].

• من الناحية الأركيولوجية، توضح الخرائط الأثرية القديمة لحوض البحر الأبيض المتوسط أن تقنيات استعمال التراب ظهرت منذ الألفية السابعة قبل الميلاد، إلا أن الطابية الحقيقية التي تعتمد على الألواح، لم تبرز إلا خلال عصر البرونز ما بين 1800 و800 قبل الميلاد. وظهرت الطابية خلال عصر الحديد، بشكل مكثف بالشرق الأدنى، وبشما إفريقيا، وبجنوب أوربا مثل ليدا Leida بكتالونيا، ومارتيكَ Martigue[78] بفرنسا. ووجدت ببلاد الغال الوسطى والجنوبية خلال الفترة الرومانية، السقوف المستوية والمبنية من الخشب والمغطاة بالتراب على سمك 15 سم. كما عثر عليها بمنطقتي لابروفانس La Provence وبلنسية Valence بين القرن الثالث والقرن الأول قبل الميلاد. وكشفت الحفريات الأثرية بشبه الجزيرة الإيبرية أن الطوب استعمل في تشييد أسوار المنازل، والتحصينات، والدكانات، والأفرنة، وقوالب مختلفة.

---

(76) Van Staëval) (Jean-Pierreà : op-cit (pp. 98 - 99).

(77) idem: mêmes pages.

78) تم العثور على قريتين من التراب بمنطقة مارتيك Martigue يعود تاريخهما إلى عصر الحديد ما بين القرن الخامس ونهاية القرن الثاني قبل الميلاد.

وخلال العصر الإسلامي كشفت الأبحاث الأثرية أن الطابية استخدمت بكثرة في بلاد الأندلس كمرسية، وبلنسية، وغرناطة وقصر قاديس. وشيد الفاطميون مدينة المنصورة سنة 334 هجرية / 945 ميلادية من الطابية. واعتمدت عمليات البناء ببلاد المغرب عامة وبمناطق الواحات مثل سجلماسة بشكل خاص على الطابية والطوب وما يرافقهما من تمليط الجدران بالطين وأيضا الآجر والقراميد والزليج. واستعملت الطابية في بناء أسوار المدن وجدران مختلف المكونات المعمارية العمومية وكذا الخاصة.

وساعدت الطابية على تشييد مباني كثيرة بطريقة سريعة، ويشهد على ذلك قصر مدة بناء مختلف التكوينات المعمارية التي أشرف عليها الأمراء والسلاطين. ففي سنة 522 هجرية / 1126 ميلادية شرع الأمير المرابطي علي بن يوسف في إحاطة مدينة مراكش بالسور وبناء جامعها ومناره وأتم كل ذلك على عظم مساحته واتساعه في مدة ثمانية أشهر[79]. وفي سنة 579 هجرية / 1183 ميلادية لما أراد يوسف بن عبد المؤمن بن علي توسيع العاصمة الموحدية، قام بهدم السور المرابطي بجهة باب الشريعة وابتدأ في بناء أساس زياداته بها وأتمه وأعاد بناء السور المذكور في أربعين يوما من تاريخ الشروع في عملية البناء[80]. وفي سنة 593 هجرية / 1197 ميلادية بنى المنصور رباط الفتح وأتم سورها وركبت أبوابها وفيها أيضا أتم قصبة مراكش وجامعها بالبناء[81]. وفي السنة الموالية أكمل تحصين مدينة فاس وبناء باب الشريعة بها.

من جهة أخرى، بنى المرينيون فاس الجديد في مدة زمنية قصيرة، إذ بني جامعها الأعظم في مدة ثلاث سنوات، وبنيت دور الوزراء والأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة في شهر شوال من سنة 669 هجرية / 1271

(79) مجهول : **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979 (ص 90).
(80) ابن عذاري : مصدر سابق (ص 154).
(81) ابن أبي زرع (علي) : مصدر سابق (ص 269).

ميلادية[82]. ولما طرد السلطان أبو يعقوب يوسف المريني عامل بني عبد الواد من مدينة تاوريرت بنى بها حصنا وأدار السور به وركب أبوابه بعد أن صفحها بالحديد. أتم كل ذلك في شهر رمضان من سنة 694 هجرية /1295 ميلادية[83]. وفي أثناء حصاره الطويل لتلمسان شيد هذا السلطان مدينة تلمسان الجديدة وأدار السور عليها سنة 702 هجرية / 1303 ميلادية. وصارت تلمسان، رغم قصر مدة بنائها، "إحدى مدائن المغرب ومن أعظم الأمصار والمدن وأحفلها اتساع خطة واحتفال بناء وتشييد منعة، لكن بمجرد ما هلك عام 706 هجرية / 1305 ميلادية ورفع الحصار المريني لبني عبد الواد ردوا عاليها سافلها وخربوها عن أخرها"[84].

ومدينة سجلماسة لا تخرج عن هذه القاعدة، فقد أهلها موقعها الجغرافي المتميز أن تكون ملتقى تيارات الحضارة العربية الإسلامية ومصدر إشعاعها نحو مدن مغربية أخرى ونحو مناطق جنوب الصحراء. فالمدينة استقبلت حضارة المشرق كما تلقت مؤثرات البحر الأبيض المتوسط وكذلك التأثيرات الإفريقية. وكانت من بين نتائج هذا التواصل الحضاري، أن شهدت سجلماسة نهضة عمرانية تمازجت فيها عناصر معمارية متنوعة وتطورت مع تعاقب الفترات التاريخية. "فابتداء من تفوق المرابطين الصنهاجيين السياسي والعسكري منذ فتح سجلماسة سنة 447 هجرية وفتح أغمات وتملك تامسنا سنة 449 هجرية وبداية حكم يوسف بن تاشفين سنة 453 هجرية وتأسيس مدينة مراكش سنة 454 هجرية ودخول المرابطين الأخير والنهائي لمدينة فاس قاعدة المغرب التاريخية سنة 462 هجرية وإلى نهاية أيام المرابطين على يد الموحدين

(82) مجهول : **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية.** الرباط، دار المنصور، 1972 (ص 161-162).

(83) الناصري (أبو العباس أحمد) : **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.** الدار البيضاء، دار الكتاب، الجز الثالث 1954 (ص 76).

(84) ابن خلدون (عبد الرحمن) : **العبر.** مصدر سابق، الجزء السابع (ص 293).

سنة 539 هجرية كانت آثارهم المعمارية والفنية همزة الوصل بين الأساليب والطرز العربية بالمشرق العربي ونظيرتها بالمغرب الأقصي"[85]. ولا شك أن مدينة سجلماسة، باعتبارها عاصمة أحد الأقاليم المرابطية المهمة، قد لعبت دورا بارزا في نقل الكثير من المؤثرات المشرقية إلى المغرب الأقصى.

وكشفت التحريات الأثرية التي أنجزت بموقع هذه المدينة عن الانتشار الكبير للعمارة الترابية والمعتمدة أساسا على الطابية. ولا غرابة أن هذا النمط المعماري "ينتشر من المحيط الأطلسي بالمغرب إلى هضاب أفغانستان مرورا بضفتي الصحراء والجزيرة العربية وصحراء سوريا وإيران....وإذا كانت إشارات المصادر التاريخية نادرة، فإن الأبحاث الأثرية قد ساعدت على الكشف عن تقنيات البناء الترابي"[86].

وحسب المصادر العربية المؤرخة ما بين القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فقد كانت سجلماسة مركزا نشيطا مهما. ويذكر صاحب الاستبصار أن المدينة حافظت على شكلها العمراني في العهد الموحدي مع نفس العدد من الأبواب المفتوحة في السور[87] الذي تم بناؤه من الطابية بواسطة ألواح خشبية.

لقد كان البناء بالطابية التقنية المستعملة بكثرة في منطقة سجلماسة وفي الواحات المجاورة لها كتيزيمي، وتذغة، ودادس، ودرعة وسوس وكانت تستعمل في تركيبتها تربة صلصالية تستخرج محليا وبالتالي فهي قادرة على تحمل التغيرات المفاجئة للحرارة بين الليل والنهار وبين الشتاء والصيف، وعلى

(85) عثمان إسماعيل (عثمان) : "زفضل المرابطين على الفن المغربي الأندلسي" **دعوة الحق**. العدد 232، صفر 1404هـ/ نونبر 1983 (ص 27).

(86) Erbati (Larbi) : «l'architecture de terre dans le Maroc saharien, description des géographes et apport de l'archéologie», *Colloque International sur l'architecture de terre en Méditerranée.* pp. 111 - 119 (p 111).

(87) مجهول : **الإستبصار**. مصدر سابق (ص 163).

أن تدوم طويلا [أكثر من مائة عام]. لكن من أين جاءت هذه التقنية وهل يمكن اعتبار أن أصلها من سجلماسة أم أنها استوردت من مناطق أخرى ؟

يصعب الحسم في الإجابة عن هذا التساؤل، لانعدام المؤشرات التاريخية والمقاربات الأثرية الدقيقة. وحسب أحد الباحثين "هناك منطقتان فقط معروفتان اليوم باستعمال بقايا قديمة أو حديثة للمعمار الترابي ذي الزخرفة من الطوب المشمس : من جهة المغرب ومن جهة أخرى أفغانستان"[88]. ففي نفس خطوط العرض ومناخ متشابه كما هو الشأن بمنطقتي سيستان الأفغانية وسجلماسة، وجدت تقنية الطابية. ولكن حتى وإن كانت وجهة النظر هاته صحيحة، فكيف انتقلت هذه التقنية من أفغانستان إلى سجلماسة ؟

هذه الإشكالية تطرح روايتين : الأولى تقول إن الطابية جلبت من طرف خوارج الصفرية لما لجأوا للغرب الإسلامي، بعد فشل ثوراتهم في المشرق مع نهاية القرن الأول الهجري / السابع الميلادي وبداية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. الرواية الثانية تشير إلى أن هذه التقنية دخلت إلى منطقة سجلماسة بواسطة الأندلسيين الذين استقروا بالمنطقة وخاصة بعد فشل ثورة الربض بقرطبة سنة 202 هجرية / 810 ميلادية.

ويمكن أيضا ترجيح أن هذه التقنية هي ذات جذور محلية، قد تكون معاصرة لسجلماسة أو سابقة عنها وورثتها عن عمارة الواحات المجاورة. وهي نفس التقنية التي اعتمدت فيما بعد في بناء مراكش وغيرها من المدن المغربية.

ومهما يكن من أمر، فإن الدلائل التاريخية والأثرية تؤكد أن الطابية كانت الوسيلة الأكثر استعمالا وبامتياز في العمارة السجلماسية. وقد عثر خلال مختلف مواسم الحفريات الأثرية بموقع سجلماسة، على بقايا كثيرة من هذا

---

(88) Jacques-Meunié (D) : "Sur l'architecture du Tafilalet et Sijilmassa (Maroc Saharien)", *Comptes Rendues de l'Académie des Inscriptions des Belles Lettres avril - décembre 1962*. Paris, Librairie C. Klincksieck, décembre 1963. 5 figures dans le texte, pp. 132-146 (p 145).

النمط سواء على شكل جدران أو أسوار أو أبراج وغيرها. وحسب هذه المكتشفات الأركيولوجية، تتميز الطابية السجلماسية بصلابتها فهي تتكون من طين صلصالية حمراء مختلطة بالحصى، وأيضا بدقة بنائها، إذ يصل سمكها في بعض الأجزاء إلى حوالي متر ونصف وتظهر كأنها جلمود صخر يصعب هدمه بسهولة.

ب) الطوب :

يعتبر الطوب أحد الاستعمالات القديمة والسهلة للتراب كمادة للبناء وللزخرفة على حد سواء، فقد أُستخدم ولا يزال في تشييد المباني الثانوية وفي الترميم أو دعم أجزاء من أسوار الطابية أو في تزيين الواجهات. وإذا كانت الطابية تُنشأ منها الجدران الأساسية، فإن مادة الطوب "تصلح لبناء الأروقة الداخلية، وتستعمل أيضا في التوسيعات والارتفاعات، وفي التشكيلات الهندسية مثل العقود والإفريز وهي تسمح بالتناسق"[89].

ويعتمد الطوب على "خلط التربة بالماء ثم إضافة التبن المفروم إليها، ثم تصب هذه الخلطة يدويا في قوالب وتترك عدة أيام تحت أشعة الشمس لتجفيفها وبعد ذلك تصبح جاهزة وتستخدم في إنشاء الجدران والأقواس والقباب"[90]. وقد كان للطوب أهمية لدى السكان فهو يساعد على تشييد المباني بسرعة كبيرة وبتكاليف أقل، مما جعل الإقبال على استعماله بكثرة في مختلف عمليات البناء. وكان من مهام المحتسب مراقبة إنتاج هذه المادة ويمنع "البناءين من صناعة الطوب بقالب بال قد نخر ونقص من وفره شيء، لأن ذلك يسبب تشقق الطوب بعد جفافه كما منعهم من البناء بالطوب قبل أن يبيض أي أن يجف تماما ويفقد ما فيه من ماء كما أوجب عليهم الزيادة في غلظ الطوب"[91].

---

(89) Terrasse (H) : op-cit. (p 51).

(90) خزام (عهد عفيف) : مرجع سابق (ص 29).

(91) ابن عبدون (محمد بن أحمد الأموي) : **رسالة في القضاء والحسبة**. القاهرة، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، المجلد الثاني، 1955 (الصفحات : 43– 84 و55).

وإذا كان من الصعب تحديد الموطن الأول للطابية، فإن أصل الطوب، يبقى هو الآخر مجهولا. فقد تكون هذه التقنية ذات جذور محلية وقد تكون "عنصر زخرفي مشرقي انتقلت تقاليده الهندسية إلى المغرب وسجلماسة عبر القيروان"[92].

ويعود استعمال الطوب ببلاد المغرب عامة وبمناطق الواحات على وجه الخصوص إلى زمن سحيق، لم يحدد بدقة كما هو الشأن بالنسبة للطابية. وما ترده النصوص المكتوبة من معطيات بخصوص هذه التقنية، لا تشفي الغليل. فقد بنى المرابطون بعض المباني بمدينة مراكش من هذه المادة، ذلك أن المهدي بن تومرت لما دخل مراكش نزل بها بمسجد جامع الطوب[93]. وحسب البكري فسور سجلماسة بني بالطوب على أساس من الحجارة[94]. كما أورد ابن الخطيب أن جدران سجلماسة أعتمدت في بنائها على الطوب[95]. هاتان الإشارتان المصدريتان تؤكدان أن سجلماسة لم تخرج عن القاعدة في استعمال الطوب بكثرة، وكان يصنع الطوب بها بواسطة قالب مستطيل الشكل واعتمد على تربة محلية ذات خصائص تجعله يعمر طويلا ويقاوم المتغيرات المناخية. كما أن الكونات المعمارية السجلماسية لا يمكنها أن تستغني عن الطوب خاصة في بناء السواري والجدران الداخلية والأفران وغيرها وفي زخرفة واجهات المباني وخصوصا العليا للأبراج والمداخل. وبالفعل كشفت الأبحاث الأثرية بموقع سجلماسة عن بعض البقايا المعمارية التي اعتمدت هذه التقنية كالمطامير والأفران بشكل خاص.

---

(92) Jacques-Meunié (D) : op-cit (p 146).

(93) البيدق (أبو بكر الصنهاجي) : **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**. الرباط، دار المنصور 1971 (ص 27).

(94) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق (ص 148).

(95) ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : **معيار الاختيار**، مصدر سابق (ص 306).

خلاصة القول إذا كان التراب يعتبر عنصرا طبيعيا يسهل الحصول عليه في عين المكان ويتوفر بكثرة، فإنه أُستعمل كمادة أساسية في البناء بمدينة سجلماسة منذ بداية تأسيسها. فالتراب مادة "سريعة الاستعمال ولا تعتمد على أدوات معقدة أو باهظة الثمن. كما يوفر تماسكا داخليا للجدران، ويقاوم الريح والأمطار القوية، ويضمن تكيفا جيدا للحرارة وللصوت"[96]. ومع ذلك تتطلب عملية البناء بالتراب عناية خاصة في التركيب وبالتالي تستلزم حدا أدنى من المعرفة التقنية في تخليط المواد، وتركيب اللوح، والدقة المطلوبة في بعض جوانب البنايات. هذه المعرفة لم تستوجب، بالرغم من أهميتها وجود مدارس هندسية متخصصة، وإنما انتقلت شفويا من جيل لآخر. فلم يقتصر عمل البناءين على استعمال مواد البناء بل كانوا يقومون كذلك بالتصميم والتتبع أي بكل العمليات التقنية، مما جعلهم يلقبون بالمعلمين، فهم البناءون والخبراء بهذه الحرفة وبأحكامها[97]. ويعتبر ابن الرامي أحسن نموذج على ذلك، إذ لم يكن في بداية الأمر سوى مستخدم بسيط قبل أن يصبح معلما، بل وفقيها ملما بالأحكام الشرعية الخاصة بالبناء.

ويحتاج معلم البناء بواسطة الطابية والطوب بالإضافة إلى المعرفة التقنية، على بعض الأدوات الضرورية في هذا النمط من البناء، ومنها مثلا الميزان الذي يقول في حقه ابن الرامي بأنه الآلة التي تُستخدم "لضبط استقامة ارتفاع الجدران وعدم دخولها أو خروجها عن السمت الذي بدأ به من أساس الجدران، وهذا الميزان عبارة عن ثقل من الحديد يربط به خيط وينظم في الخيط قطعة من الخشب تحرر على الحائط في أعلى بناء الجدار"[98].

(96) Bazzana (André) : op-cit. (p 202).

(97) يورد محمد المنوني مصطلح نظارة المباني وكان صاحبها يتولى الإشراف على مباني الدولة وإخراج الأموال للنفقات عليها. وقد كان أبو سعيد الأول أضاف هذه الخطة لوالي جبايتها أبي القاسم بن أبي مدين. وفي عهد السلطان أبي العباس بن أبي سالم أسندها استقلالا في سبتة أيضا للمهندس الطبيب أبي عبد الله الجياني المتوفى سنة 789 هـ أو التي بعدها / 1387-1388م. المنوني (محمد) : مرجع سابق (ص 90-91).

(98) عبد الستار عثمان (عثمان) : مرجع سابق (ص 219).

2- المواد الثانوية :

أ) الآجر :

الآجر مادة بنائية شاع استخدامها في بلاد المغرب إلى جانب الحجارة والطابية. و"الآجر هو الطين المطبوخ وعرف أيضا باللبن المحروق، وتتم صناعته بخلط المواد التي يصنع منها بالماء لمدة معينة ثم يترك ليجف، ثم يحرق في أفران خاصة، وبعد حرقه يصبح معدا للبناء"[99].

وقد اهتم المسلمون بصناعة الآجر، وخضعت هذه الصناعة لضوابط وقوانين ومواصفات أشرف على تنفيذها المحتسب. وقد تضمنت كتب الحسبة إشارات واضحة عن هذه المواصفات ومن ذلك أن يكون مقياس وقالب الآجر وافرين ومعدان بحسب عرض الحائط. وكانت القوالب، غالبا ما تصنع من خشب صلب لا يستاس ضمانا لبقائها واستمرار سلامتها باعتبارها وحدة قياس يرجع إليها عند الضرورة. وكانت تعلق في مسامير في أعلى حائط الجامع، ويتم تزويد الصناع بنماذج منها ليعملوا بها في صناعتهم[100]. وهذا ما كان يسهل عملية المراقبة ومحاربة الغش بالاحتكام إليها في حالة نشوب خلاف بين المنتج والمستهلك، وتكون هذه "القوالب وافرة وطولها وعرضها وغلظها معلوم عند المحتسب والصناع"[101].

وكان من الشروط الواجب توفرها أيضا في صناعة الآجر، تحديد موضع المعامل خارج المدينة، لحاجة هذه الصناعة إلى الاتساع ولتجنيب المدينة ضرر دخان الأفران. وكان المحتسب يقوم كذلك بتتبع عمليات حرق الآجر، ويشترط على الصناع بوجوب حرقها حرقا جيدا بعد أن تكون قد جفت بالكامل.

---

(99) نفسه : نفس المرجع (ص 134).
(100) ابن عبدون (محمد بن أحمد) : المصدر السابق (ص 34).
(101) نفسه : نفس المصدر ونفس الصفحة.

واستخدم الآجر بكثرة في العمارة المغربية، سواء في بناء الجدران أو ترصيف الأرضيات أو في تشييد جوانب الآبار والسطوح ومداخن الأفران. كما استعمل الآجر في تشييد الأقواس والأعمدة خاصة وأنه الأكثر ملائمة لمثل هذا النوع من البناء، واستخدم أيضا في بناء منارات المساجد والأبراج[102] أو على شكل بجماط[103] وغيرها.

ويتميز البجماط الحالي بشكل مستطيل يبلغ طوله 0,15 مترا وعرضه 0,50 مترا. وهذا ما يوفر إمكانية عمل تشكيلات هندسية متنوعة. أما اللحام المستخدم في ترصيف البجماط فتتم صناعته من الجير بنسبة 90% والإسمنت بنسبة 10% [104].

ويذكر ابن أبي زرع أن صحن مسجد القرويين في عهد علي بن يوسف المرابطي "فرش بأربعة وأربعين ألف من البجماط على طول إحدى عشر قوسا وفي القوس الواحد من القبلة إلى الجوف عشرين صفا وفي كل صف مائتي آجر وحوله طود دائر في ثمانية آلاف آجرة فيجتمع في الجميع كله اثنين وخمسين ألف آجرة دون شك ولا ريب"[105].

أما بمدينة سجلماسة، وبالرغم من صمت النصوص المكتوبة، فقد تم الكشف خلال مختلف مواسم التنقيبات الأثرية بالموقع، عن قطع كثيرة من الآجر الذي كان يستعمل في بناء المرافق المعمارية السجلماسية. ويتميز هذا الآجر بمتانته وبتكوينه الصلصالي المتماسك الذي يتغير لونه من الأصفر المفتوح، إلى البرتقالي والوردي وحتى الأحمر، حسب نوعية الحرق ودرجة حرارة الفرن المستعملين.

(102) Marçais (G) : op-cit. (p 135).

(103) عرف ابن أبي زرع البجماط بأنه نصف آجر في الطول : المصدر السابق (ص 63).

(104) Paccard (A) : *Le Maroc et l?artisanat traditionnel islamique dans l'architecture*. Paris, édition Ateliers 1974. 1° volume (p 479).

(105) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 63).

أما المقاييس فتختلف باختلاف العصور وتتراوح عموما ما بين خمسة عشر سنتيمترا طولا على عشر سنتيمترات عرضا وثمانية عشر سنتيمترا طولا على اثنتي عشرا سنتيمترا في العرض.

ب) الخشب :

يعتبر الخشب من مواد البناء الأساسية في تشييد السقوف والقباب والدعائم ويعتمد في توفيره على الغابات المنتشرة بالمناطق الجبلية وعلى خشب النخيل بمناطق الواحات. واعتبارا لأهمية الخشب في مختلف عمليات البناء، فقد حظي باهتمام الحكام والسكان على السواء، وكمثال على ذلك أن إدريس الثاني لما كان بصدد بناء سور مدينة فاس خاطب في الناس قائلا : من ابتنى موضعا وغرسه قبل تمام السور بالبناء فهو له هبة. فابتنى الناس الديار فكان الرجل يختط موضع منزله وبنيانه وبستانه من الشعراء ثم يقطع منه الخشب فيبني به لا يحتاج إلى خشب غيره[106].

ويعتبر خشب الأرز أكثر الأخشاب استعمالا في مجال البناء ببلاد المغرب وهو ثلاثة أنواع : الأرز اللين ويستخدم في الأعمال والتحف الفنية الثمينة، الأرز الصلب ويستعمل في صنع النوافذ وألواح السقوف والدعائم وغير ذلك، وأخيرا الأرز الورقة الذي يعد للطلاء[107]. ويعتبر الأرز من "أطيب خشب الأرض، يعمر العود منه في سقف البيت ألف سنة لا يعفن ولا يسوس ولا يعتريه شيء ما لم يعبه الماء. وهو متوفر بكثرة عند أهل فاس لذلك كانت أكثر الدور عندهم من طابقين بالأعلى والأسفل ومنها ما يكون على ثلاث طبقات لبنائهم بهذا الخشب ولعقد تربتهم"[108]. وللأرز خصائص متميزة

(106) ابن أبي زرع (علي) : مصدر سابق (ص 107).

(107) Paccard (André) : op-cit (p 222).

(108) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 43).

تساعد على استخدامه في الحمامات لمقاومته الاختلافات الكبيرة في درجة الحرارة، كما أن له رائحة طيبة تبقى لعدة سنوات يسميها الصناع في وقت الحاضر "نسمة الهناء" لأنها تطلق رائحة تبعث على الارتياح[109].

ونظرا لأهمية الخشب في عمليات البناء فقد أولى المحتسب عناية خاصة لهذه المادة وتابع أمر تصنيعها وبيعها واشترط على المتاجرين فيها توفير الخشب الغليظ والمتين في الأسواق. وتعتبر الأخشاب هي الحاملة للأثقال والممسكة للبنيان، وتستعمل في تقنيات البناء كألواح الطابية وقوالب الطوب وفي بناء السقف والرفوف.

كما استخدم الخشب الرفيع في صناعة منابر المساجد، فقد صنع منبر جامع القرويين من الأبنوس والصندل والعاج والنارنج والعناب وأصناف الخشب العظيم. كما عمل عبد المؤمن بن علي بعد بنائه لجامع الكتبية على صناعة منبر له بالأندلس في غاية الإتقان، قطعاته من عود وصندل أحمر وأصفر وصفحاته من الذهب والفضة. كما صنع مقصورة من الخشب لها تسعة أضلاع تتسع لأكثر من ألف رجل صنعها الحاج يعيش المالقي الذي بنى له أيضا مدينة جبل طارق[110]. كما استعمل الخشب في بناء الجسور، فقد بنى الخليفة أبو يعقوب يوسف الموَحدي جسرا على وادي أم الربيع لعبور جيوشه وخصص لكل فريق منهم يوما للعبور ليجوزه في حذر من الزحام خوفا من غرق الجسر، فأجازوا عليه في أيام[111].

كما تصنع من الخشب السلاليم لصعود الأسوار في حالة الحصار، وكذا الصاري الذي يبنى في جامور منارات المساجد ويرفع عليه علم للدلالة على

(109) Paccard (A) : op-cit. (p 220).

(110) المراكشي (عبد الواحد) : مصدر سابق (ص 144).

(111) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة تحقيق عبد الهادي التازي، تطوان مطبعة دار الأندلس 1964 (ص 354).

أوقات الصلاة في النهار وفنار فيه سراج مزهر في أوقات صلاة الليل ليستدل من بعد من لم يسمع الاذان[112] إلى غير ذلك من الأعمال مثل النجارة أو البناء أو النقش والصباغة. ومن الأصناف الخشبية التي توظفت حاليا في البناء بالواحات المغربية وربما بسجلماسة أيضا في السابق، يمكن ذكر صنفين أساسيين قد يكونا من الأرز أو النخيل أو مختلطين :

- **الجائزة** : هي الخشبة الكبيرة المعترضة بين حائطين توضع عليها ألواح الخشب في سقف البيت. وقد جرى استخدام مصطلح جائزة في العمارة المغربية والأندلسية وهي غالبا كتلة من الخشب قطاعها مربع يمتد أفقيا من جانبي السقف لتحمل باقي مكونات السقف، وتستند الجائزة في الغالب إلى ركائن وكعوب خشبية[113].
- **الجذع** : هو ساق النخلة ونحوها وكانت ترتكز على الجدران الجانبية ويطلق عليها "الحمل الميت"[114].

ج) الحجارة :

تستخدم الحجارة في بناء الجدران والأعمدة والتيجان وتحرق بعض أنواعها للحصول على الجبس والجص اللذين يستخدما في تمليط مواد البناء وفي طلاء الجدران وزخرفتها. ومع ذلك فإن البنايات المشيدة بالحجارة في المغرب قليلة بالمقارنة مع تلك المبنية بالطابية والآجر والطوب، ويرجع السبب في ذلك خاصة إلى التكلفة المرتفعة. واعتمد في جلب وتوفير الحجارة على أنقاض المدن المندثرة، وعلى المحاجر القريبة وعلى الأودية والشعاب المجاورة. ويظل حجر الكذان أكثر الأنواع استعمالا في عمليات البناء وهو حجر كلسي وسط بين الطوب والحجر.

(112) الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) : مصدر سابق، الجزء الرابع 1956 (ص 206-207).
(113) عبد الستار عثمان (محمد) : المرجع السابق (ص 152).
(114) نفسه : نفس المرجع (ص 149).

فقد استعمل هذا الحجر في بناء جامع القرويين، إذ يشير ابن أبي زرع أن فاطمة الفهرية حفرت في موضع الجامع كهوفا اقتطعت منها الكذان وأخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب(115). كما أن الفتوح بن دوناس بن حمامة حاكم عدوة الأندلس بمدينة فاس شيد قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكذان(116). أما بالنسبة للمرابطين، فقد بنوا قلعتهم بمراكش "قصر الحجر" من نفس الحجارة المستخرجة من مقالع الكذان بجبل جليز. كما شيدوا الكثير من المساجد والحصون في مختلف المناطق بالاعتماد على الحجارة، مثل مسجد ندرومة ومسجد تلمسان ومثل حصن أمرجو وكذلك حصن تاسغيموت الذي استخدمت فيه الحجارة العادية والطابية(117).

ووظفت حجارة الكذان في عملية البناء أثناء حكم الموحدين لبلاد المغرب توظيفا مكثفا، فقد بنى الخليفة أبو يعقوب المنصور باب الرواح وصومعة حسان بالرباط والمسجد الأعظم بطالعة سلا ومدرسته الجوفية(118) بحجارة الكذان الوردية اللون المستخرجة من محاجر سلا (الدار الحمراء قرب بوقنادل)(119). وبنى أيضا باب أكَناو بمراكش من الكذان الرمادي المستخرج من محاجر جليز. كما بنى الموحدون الكثير من مبانيهم كالمساجد والقناطر والأسوار والسقايات والقصور من الحجارةالعادية(120).

وشيد بنو مرين بعض المرافق بالحجارة لكنها تظل قليلة العدد(121) إذا ما قورنت بمثيلاتها الموحدية لأن أغلب مبانيهم كانت بالطابية والآجر وأكثر ما

(115) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 54).

(116) نفسه : نفس المصدر (ص 111).

(117) Marçais (G) : op-cit. (P 91).

(118) الناصري (أبو العباس أحمد) : المصدر السابق (ص 195).

(119) Paccard (A) : op-cit. (p 35).

(120) ابن صاحب الصلاة : المصدر السابق (ص 397).

(121) Marçais (G) : l'art musulman, Paris, P.U.F, 2° édition 1981 (p134).

اعتنوا به في عمليات البناء هو التنميق والتزيين والنقش على الجص والعناية بتزويق الخشب وتلبيس الجدران وتزيينها بأنواع الزليج الملون[122]. وهكذا بنى يعقوب بن عبد الحق السور الغربي لمدينة سلا الذي يقابل نهر أبي رقراق بالحجارة، كما بنى سلاطين بني مرين منارات المساجد وبعض المرافق في مختلف المدن بالحجارة.

ويرتبط الحديث عن الحجارة بالرخام الذي استخدم في تزيين المباني بالأعمدة والتيجان وفي ترصيف الأرضيات وبناء النافورات والصهاريج والمصاعد. ويذكر ابن خلدون أن الرخام كان يستخدم في صناعة الأعمدة والتيجان وكانت تفرش به الدور والميضات وربما عولي على الحيطان أيضا بقطع الرخام[123]. فقد استخدم الرخام الأبيض في البيمارستان الذي بناه يعقوب المنصور بمراكش[124] وتزايد الطلب على هذه المادة في العهد المريني خاصة في عهد أبي الربيع سليمان[125].

وعرفت مدينة سجلماسة توظيفا للحجارة وخاصة في بناء أساسات الجدران تفاديا للرطوبة والفيضانات، ويشير البكري إلى أن الجزء الأسفل من السور الذي يحيط بسجلماسة شيد من الحجارة[126]. ونفس الشيء يمكن ملاحظته في القصبة السجلماسية وفي باقي القصور المخزنية بتافيلالت، والتي بنيت أساساتها من الحجارة على علو متر واحد من سطح الأرض.

د) المعادن :

كانت تستخدم المعادن في العمارة المغربية لأغراض مختلفة : فالذهب استعمل خاصة في الزخرفة المعمارية مثل تذهيب كتابة الشواهد وتفاحات

(122) Idem. (p 134).

(123) ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة** مصدر سابق (ص 512).

(124) المراكشي (عبد الواحد) : مصدر سابق (ص 411).

(125) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 395).

(126) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق. طبعة 1968 (ص 148).

الجامور المصنوعة من النحاس الأصفر. أما الحديد فيدخل بالخصوص في إعداد المسامير لعمليات البناء وفي صنع الأقفال وفي تصفيح الأبواب لتقويتها. واستخدم النحاس في صناعة الثريات وتفاحات الجامور، بينما يعتمد على الرصاص في تلبيس الصهاريج والمعد وصناعة القواديس التي يتم بواسطتها جلب الماء إلى القصور والدور[127]. واستخدمت الفضة في تزيين المصنوعات النفيسة خاصة المنابر وفي تصفيح محامل المصاحف.

واعتبار لتحكم سجلماسة في تجارة الذهب وفي مناجم الفضة والنحاس بالمنطقة، فلا شك أن أغلب هذه المعادن قد وظفت بشكل أو بآخر في العمارة السجلماسية. كما تجدر الإشارة إلى أن مهنة الحدادة وتغليف الأبواب بالحديد كانتا مشهورتين بها. وهكذا يذكر البكري في إحدى رواياته عن تشييد المدينة أن مؤسسها يدعى مدرارا وكان حدادا من ربضية الأندلس[128]، كما يشير إلى أن سجلماسة كانت تتوفر على اثني عشر بابا ثمانية منها حديد[129].

هـ) الكلس والخزف :

• **الجبس والجص** : أشار ابن الرامي إلى استخدام الجبس في تكسية الجدران ويكون أبيضا أو أحمرا[130] بينما يوظف الجص في تمليط جدران المنشآت العمومية والدور الفاخرة وأيضا في السطوح لوقايتها من آثار الأمطار ولتسهل انسياب الماء نحو الميازيب. ويورد ابن خلدون وصفا لطريقة تحضيره "يحل الكلس في الماء ويخفى أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النار المفسدة للإلحام، فإذا تم ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط إلى أن يلتحم"[131].

(127) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 70).
(128) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق. طبعة 1992 الجزء الثاني (ص 836).
(129) نفسه : نفس المصدر ونفس الصفحة.
(130) عبد الستار عثمان (محمد) : المرجع السابق (ص 147).
(131) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق (ص 512).

ويستخرج الجير من حجر الكلس الذي استخدم في تبييض الحيطان أو في البناء عن طريق خلطه بالتراب في الطابية وتغطية السطوح أو لخلطه بالرمل واستخدامه كملاط تلحم به الحجارة والآجر في بناء الجدران أو صناعة الدص على شكل خليط يضم طمي الأودية والجير بنسبة 3/4 من الطمي و الربع من الجير. وتترك عجينة الدص بعد خلطها عدة ساعات حتى تتماسك أجزاء الجير مع الطمي ثم تفرش على الأرض بسمك 20 سم تقريبا ثم تكبس على مدى عدة ساعات أخرى حتى يخرج ماء الجير ويجف الملاط[132].

ونظرا لما كان للجير والجص من استخدامات متعددة في مجال البناء فإن المحتسب شدد الرقابة على باعة المادتين معا وألزمهم بقوانين تضمن سلامة المتاجرة فيهما من الغش. فكان يفرض عليهم توفير الجص الجيد في الأسواق وتخليص الجير المعد للكيل من الحجر و ألا يبيعوه إلا مغربلا.

• **القرميد** : قرمد الشيء يعني طلاه بالقرميد، وهو بذلك مادة تستخدم لتغطية البيوت حتى لا تتأثر سقوفها وجوانبها بماء المطر. وتتم صناعة القراميد بعد غمر الصلصال في الماء مدة 24 ساعة ثم يوضع الصلصال في القالب ويشمس حتى يجف، ثم يوضع في الفرن ليحرق في مرحلة أولى، ويستخرج بعدها ليوضع عليه طلاء ثم يعاد ثانية للفرن فيصبح بعد إحراقه جاهزا للاستعمال[133]. وعمل المحتسب على مراقبة صناعة القراميد بواسطة قوالب أعدت لهذا الغرض كما هو الحال بالنسبة لقوالب الآجر والطوب[134].

واستخدم القرميد في تكسية سطوح البنايات العمومية والخاصة وفي دعائم الجدران وفي شرفات النوافذ والمداخل، وذلك قصد حماية المباني من آثار

---

(132) Paccard (A) : op-cit. (p 478).
(133) Paccard (A : op-cit. (pp. 357-358).

(134) ابن عبدون (محمد بن أحمد) : المصدر السابق (ص 35).

تسرب مياه الأمطار فضلا عن إعطاءها شكلا مفخما وإبراز رونقها. وذكر ابن أبي زرع أن عدد القرميد المستعمل في سقف جامع القرويين أربعمائة وسبع وستين ألف وثلاثمائة [467300] قرمودة[135].

• **الزليج** : يصنع من الصلصال الذي خلط بالماء على شكل عجينة، فيترك لمدة 24 ساعة، ثم يوضع في القالب للحصول على الأشكال التي تجفف وتحرق مرتين بنفس الطريقة المعمول بها في صناعة القراميد[136] ويبلغ قياس المربع منها 0,10 × 0,10 مترا. ويستعمل الزليج في زخرفة الجدران على ارتفاع يزيد قليلا عن نصف القامة وأحيانا أخرى على الارتفاع الذي يمكن للإنسان أن يعلو إليه بيده[137]. كما يستخدم في تغطية الأرضيات وصهاريج الماء في الدور وقد وظف في العمارة المغربية بشكل مكثف وخاصة في العهد المريني.

II- التنظيم الحضري بسجلماسة :

1- التخطيط المعماري بسجلماسة، الإشكالية العامة :

كان نموذج المدينة الإسلامية محور اهتمام الدارسين والمهتمين بالدراسات الخلدونية. وتوصلت هذه الدراسات إلى خلاصة هامة مفادها أن المدينة المغربية عبر التاريخ الإسلامي خضعت بصفة عامة، في تنظيمها المجالي لأربع محددات : يتمثل الأول في وجود حكم مركزي غالبا ما يمثل بمرافق محصنة على شكل قصبة، بينما يتجلى المحدد الثاني في نطاق السوق والأنشطة الاقتصادية، ويتعلق المحدد الثالث بالمؤسسات الدينية من مساجد وزوايا وأضرحة، أما المحدد الأخير فيتكون من الأحياء السكنية.

---

(135) ابن أبي زرع (علي) : المصدر السابق (ص 66).

(136) Paccard (A) : op-cit. (p 357).

(137) ابن خلدون (عبد الرحمن) : العبر، مصدر سابق، الجزء السابع (ص 314).

إن اعتماد سجلماسة على الفلاحة وعلى تجارة القوافل بالدرجة الأولى، يطرح عدة أسئلة منها : هل كانت المدينة عبارة عن سلسلة من القصور المتفرقة على طول وادي زيز وعلى مسافة عدة كيلومترات أم كانت مدينة بمعنى الكلمة ؟

الأوصاف التي جاءت في كتابات الجغرافيين والرحالة القدامى لا تقدم جوابا شافيا، وإنما تتوزع إلى صنفين : يذهب أولهما ويمثله الإدريسي بصفة خاصة، إلى القول إن سجلماسة كانت تتكون من مجموعة من القصور والديار والحقول الزراعية المتتابعة على امتداد وادي زيز كما هو الحال بالنيل[138]. ويشير البكري[139] من جهته إلى أن سجلماسة تحيط بها أرباض كثيرة. وحاول ابن بطوطة أن يقارن بين النمط السكني بسجلماسة مع مدينة كوانزهو الصينية من خلال قوله : "وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا"[140].

وبالمقابل يرى الصنف الثاني أن سجلماسة كانت تمثل مركزا حضريا بمعنى الكلمة، إذ توفرت على كل المرافق والمستلزمات الضرورية : مثل المسجد الجامع، ودار الإمارة والأسواق والصنائع والشوارع وغيرها. ويذكر المسعودي[141] أن المدينة تتوفر على شارع رئيسي يبلغ طوله نصف يوم من المشي وهو ما تذهب إليه أيضا الرواية الشفوية المحلية. ويشير الوزان[142] إلى أن سكان سجلماسة كانوا يعيشون داخل المدينة قبل أن يقوموا في أخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بتخريب سورها وبقتل حاكمها وتفرقوا عبر الواحة حيث بنوا لهم قصورا خاصة بهم.

---

(138) الإدريسي (أبو عبد الله) : مصدر سابق (ص 37).
(139) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق، طبعة 1968 (ص 148).
(140) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد) : مصدر سابق، المجلد الرابع (ص 135).
(141) المسعودي (علي بن الحسين) : مصدر سابق (ص 60).
(142) الوزان (محمد بن الحسن) : مصدر سابق، الجزء الثاني (ص 127).

ومهما يكن، فإن سجلماسة بالنظر إلى موقعها في منطقة شبه صحراوية وفي ملتقى مسالك القوافل التجارية من جهة، واعتبارا لكونها مثلت عاصمة دولة ثم عاصمة إقليم من جهة أخرى، ربما اعتمدت النموذجين معا حسب تعاقب المراحل التاريخية.

سؤال آخر يرتبط بالتطور العمراني للمدينة ومدى ارتباطه بالقطاع الاقتصادي وإلى أي حد كانت الدولة تتحكم في اقتصاد سجلماسة وخاصة في إنتاج وتوزيع البضائع ؟ وهل كان لذلك تأثير على المكونات المعمارية للمدينة ؟

تظهر تبعية الاقتصاد السجلماسي للدولة المغربية من خلال سيطرة هذه الأخيرة على فوائد تجارة القوافل ومراقبة مسالكها ومراكزها. وبما أن نسبة التجارة البعيدة تكون أعلى من التجارة المحلية في اقتصاد الدولة، وباعتبار الدور الأساسي للدولة في تنظيم مجالها وفي لعب دور الوسيط ما بين مناطق جنوب الصحراء ودول حوض البحر الأبيض المتوسط، فإن قاعدة الحكم السياسي بالمغرب اتخذت من مراقبة وتشجيع التجارة الصحراوية إحدى الأولويات.

شيدت سجلماسة سنة140 هجرية / 757 ميلادية من طرف خوارج مكناسة بزعامة أبي القاسم سمكو وعرفت نموا كبيرا خلال الثلاث قرون الموالية، فكانت بمثابة المدينة العاصمة التي توفرت ولا شك، على دار الإمارة والمسجد الجامع في الوسط، وعلى السوق والدور السكنية والمرافق العمومية بالقرب من المركز، وعلى المعامل الحرفية والحمامات والحدائق التي توزعت ما بين وسط المدينة وخارج سورها. ويعتقد أن سجلماسة في المراحل الأولى من تاريخها، كانت مدينة مغلقة على نفسها تتحكم في العلاقات بين ضفتي الصحراء وكان من نتائج هذا التحكم أن ازدهرت المدينة وتوفرت على مختلف المكونات العمرانية والصنائع وخاصة منها دور سك العملة الذهبية.

وكان لهذه الأهمية الاقتصادية، أن أصبحت سجلماسة محط أطماع كل القوى السياسية بالغرب الإسلامي قبل أن يسيطر عليها المرابطون سنة 447 هجرية / 1054 ميلادية، فتحولت سجلماسة من عاصمة إمارة مستقلة إلى عاصمة إقليم من أقاليم دولة كبيرة وشاسعة الأطراف. وحاولت المدينة أن تندمج في شبكة اقتصادية وسياسية يسيطر عليها الحكم المركزي، فتغيرت أحوالها العامة من حاكم إلى آخر ومن دولة إلى أخرى. وكانت من نتائج السياسات المختلفة التي انتهجتها كل دولة اتجاه مدينة سجلماسة، أن فقدت هذه الأخيرة رويدا رويدا الكثير من بريقها. فأصبحت وضعيتها السياسية غامضة في نهاية العصر المريني، وشهدت العديد من الصراعات انتهت بتخريبها وتفرق سكانها في القصور. ولم تعد أحوال المدينة في الفترة التي تلت القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي معروفة بدقة، فبينما بقي اسم سجلماسة شبه متداول في بعض المصادر المكتوبة، إلا أن هذا الاسم لم يكن يمثل الحاضرة بعينيها وإنما المنطقة بكاملها.

نفس الأسئلة يمكن أن تطرح خلال مختلف العصور التي مرت منها سجلماسة لمعرفة علاقة التجارة المحلية بالتجارة البعيدة وكذا العلاقة بين التنظيم المجالي العام للمدينة وتصميمها العمراني. ويبقى أن المكتشفات الأثرية هي الكفيلة بتقديم إيضاحات عن هذه العلاقات وخاصة عن تأثير تحكم الدولة المغربية في سجلماسة على تطورها العمراني وعلى تحديد مساحتها الإجمالية وأنشطتها الاقتصادية.

2- الإشكالية العمرانية بسجلماسة من الوجهة الأثرية :

اعتمدت الخريطة الطبوغرافية المفصلة للحصول على كل المعطيات المعمارية الموجودة فوق وتحت سطح موقع سجلماسة الأثري، على صور الأقمار الاصطناعية والصور الملونة المأخوذة بواسطة الأشعة تحت الحمراء،

وكذلك على المسوح الأثرية. وتقدم صور الأقمار الاصطناعية حلولا تقريبية [حوالي ثلاثين مترا]، إلا أنها تبقى غير كافية لإعطاء صورة واضحة عن التنظيم العمراني للمدينة، إذ يجب أن تكون مرفوقة بدراسة الخرائط الطبوغرافية الموضوعاتية والصور الجوية ذات المسافة القريبة جدا [خمس أمتار] أو ذات مقياس صغير لا يتعدى 1/10.000 على أساس أن تكون متبوعة بالحفريات الأثرية.

البعثة المغربية الأمريكية وظفت كل الوسائل والتقنيات بغية جمع مختلف المعطيات كما عملت على ربط الأسبار المنجزة بالإطار العمراني العام للمدينة من خلال تحديد البقايا المعمارية وطبيعة الطبقات الأثرية وتحليل اللقى المكتشفة. وفيما يلي الاستنتاجات الأولية التي توصلت إليها البعثة :

• يبدو أن سجلماسة كانت مدينة مجمعة على الأقل في مركزها الأوسط وهي تمتد على مساحة كيلومتر مربع واحد، لكن دون أن يكون بناؤها مكثفا. إذ اتخذت شكل دور منعزلة أو قصبات في الشمال وفي الجنوب، وهذا ما يؤيد إشارة البكري بأن المدينة كانت تحيط بها أرباض[143]. ووصفها الحميري بقوله "وهي قصور وديار وعمارات متصلة"[144]. ويشير أبو حامد الأندلسي إلى "أن سجلماسة كانت محاطة بمساكن محصنة"[145]. كما تؤكد هذا الطرح مقارنة ابن بطوطة لنمط السكن بسجلماسة مع مثيله ببعض المدن الصينية[146].

ويعتقد كذلك أن سجلماسة لم تكن مدينة واحدة ومحصنة بسور، بل وجدت مرافق منعزلة وتابعة لها في نفس الوقت وخير مثال على ذلك الموقع المسمى بسوق ابن عقلة. ويفسر اكتشاف كميات هائلة من اللقى الخزفية سواء

(143) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق، طبعة 1968 (148).

(144) الحميري (ابن عبد المنعم) : مصدر سابق (ص 305).

(145) Fagnan (E) : op-cit (p28).

(146) ابن بطوطة (أبو عبد الله شمس الدين) : المصدر السابق، الجزء الرابع (ص 239).

المصنوعة محليا أو المستوردة، أن موقع سوق ابن عقلة كان يوظف كمحطة هامة في التجارة الصحراوية.

من جهة أخرى، عملت مختلف الأنظمة التي تعاقبت على حكم سجلماسة كل جهدها من أجل استغلال المصادر الطبيعية للمياه، وتنظيم المجال الفلاحي وشبكة مياه السقي والتجارة البعيدة، وتحصين المدينة، وتوطين السكان في الأحياء حسب الانتماء القبلي وربما الحرفي. وقد بدأ هذا الاهتمام منذ فترة تأسيس المدينة من طرف بني مدرار وإلى غاية العصر العلوي.

• اعتبارا للدور الأساسي الذي يلعبه المسجد الجامع في عمران المدينة الإسلامية، يظهر أن هذه المؤسسة الدينية، إلى جانب المؤسسات الإدارية كانت تتمركز في قلب مدينة سجلماسة، ثم تأتي من بعدها بعض المرافق الاقتصادية الضرورية وغير الملوثة وأيضا الأحياء السكنية.

• دراسة تطور الفلاحة السجلماسية اعتمدت على جمع معطيات صور الأقمار الاصطناعية، والصور الجوية، والمسوح الميدانية، ومعطيات المصادر التاريخية والرواية الشفوية. وتوصلت التحليلات المخبرية للبقايا النباتية المنتقاة من الطبقات الأثرية، إلى معلومات مهمة حول أنواع النباتات التي كانت تزرع أو تغرس بمجال سجلماسة خلال "العصر الوسيط". من هذه الأنواع يمكن ذكر: بذور الحبوب [céréale]، والأعشاب الطبيعية [herbes sauvages]، وبذور من فصيلة [Ephedra]، ونوار الشمس [Compositae-tournesol] وفصيلة الورد [Caryophyllaceae]. بينما اكتشفت في بعض المواقع شبه الصحراوية الأخرى، المنتجات التالية : الذرة، والقمح، والعدس، والزيتون، والعنب، والتين، والتمر واللوز.

إن توفر المجال السجلماسي على سهل فلاحي خصب وعلى موارد مائية مهمة، وبالنظر إلى ما تم العثور عليه من البقايا النباتية السالفة الذكر وخاصة منها الحبوب وكذا من الأواني الخزفية المخصصة لحفظ ولخزن المواد الغذائية، يمكن القول إن سجلماسة كانت من بين المراكز الفلاحية الرئيسية بالمغرب المنتجة للحبوب التي كان محصولها يلبي الحاجيات المحلية ويتم تصدير الفائض منه إلى المناطق الأخرى. كما تجدر الإشارة إلى إمكانية وجود مواد أخرى تدخل في بعض الزراعات المتخصصة والتي يتم استيراد بذورها ولكن بطريقة محدودة لما تتطلبه من خبرة.

• تشير المعلومات المستخلصة من دراسة اللقى الخزفية المكتشفة بموقع سجلماسة الأثري، إلى تمركز صنائعها بالمنطقة والتي كانت نشيطة في الإنتاج. كانت الصنائع الخزفية السجلماسية تغطي المستلزمات المحلية من الأواني الفخارية، ويتم تصدير العديد من القطع عبر التجارة المسالكية إلى عدة حواضر مغربية وسودانية. وفي المقابل استوردت سجلماسة آنية فخارية من مراكز أخرى قريبة وبعيدة. وكشفت الدراسة الخزفية كذلك أن اللقى التي ترجع إلى ما قبل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، تبقى جد قليلة وتقدم مؤشرا مهما على أن مدينة سجلماسة ربما لم تكن كبيرة جدا في هذه الفترة عكس ما وصلت إليه ما بعد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وخاصة في العهد الموحدي.

• يعتبر حجم سك العملة الذهبية من المؤشرات الدالة على التجارة البعيدة، فإذا كانت المادة الأولية التي تدخل في ضرب النقود تستورد من بلاد السودان، فإن قيمة تلك العملة كانت تستعمل كما هي كسلعة للتبادل في تجارة القوافل أكثر منها في الاقتصاد المحلي. وتفسر مراقبة الجهاز الحاكم لعملية ضرب النقود الذهبية أن الدولة كانت تلعب دورا مباشرا في هذه التجارة البعيدة.

فالمرابطون مثلا يعرف عنهم أنهم ضربوا كميات كبيرة من الدينار المصنوع من الذهب السوداني في ست مراكز أساسية بشمال إفريقيا وتمثل أربع نقط جغرافية كانت بمثابة صلة وصل بين إفريقيا جنوب الصحراء وحوض البحر الأبيض المتوسط وكذا كعواصم أقاليم أساسية وتأتي سجلماسة في مقدمتها. وباعتبار مادة الذهب تمثل المدخول الرئيسي للدولة، فقد كان من أهم العقبات السياسية والعسكرية التي واجهتها الدولة المرابطية تتجلى في ضرورة حماية المسالك القوافلية ومراكزها من كل الأخطار الخارجية وفي المواجهة السريعة والقوية لظهور الزعامات المحلية التي من شأنها تهديد السير العادي للتجارة الصحراوية وبالتالي الاستقرار العام للدولة ككل.

صفوة القول كانت سجلماسة تعتمد على فلاحة متنوعة وعلى نظام دقيق للري وعلى صنائع مختلفة ترتبط بالمنتجات الفلاحية وبالمناجم المعدنية وبتجارة القوافل. وكانت التجارة أساس ازدهار المدينة وربما أساس بنائها وكانت أيضا من بين عوامل اندثارها.

خلاصة :

يقدم موقع سجلماسة الأثري عدة معطيات مهمة تغطي بعض النقص الحاصل في الكتابات التاريخية والروايات الشفوية. وتؤشر بدلك على أن هذا الموقع في حاجة ملحة لأن يكون موضوع أبحاث أثرية دقيقة على شاكلة تلك التي أنجزت.بموقعي القصر الصغير بشمال المغرب وأودغشت بشرق موريتانيا، وذلك بغية الكشف عن أسراره العمرانية بشكل خاص.

كما تجدر الإشارة إلى أن مواد البناء التي استخدمت في العمارة السجلماسية تنوعت بتنوع ما وفرته المعطيات البيئية من موارد. ويمكن ترتيب هذه المواد حسب أهميتها وكثرة استعمالها في عمليات البناء على الشكل التالي : التراب، والحجارة، وأخيرا الخشب والمعادن.

فموقع سجلماسة في منطقة شبه صحراوية ذات مناخ شبه جاف وذات تربة هشة، جعلها تعتمد في معمارها على المواد المناسبة والمتوفرة في عين المكان مثل الطابية والطوب بشكل خاص. من جهة أخرى اعتمدت على أهل الذمة كيد عاملة متخصصة في مثل هذا النمط من البناء، وإلى هذا يشير البكري بقوله : "والبناءون عندهم يهود لا يتجاوزهم أحد في هذه الصناعة"[147].

(147) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق، طبعة 1992 (ص 839).

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

عمران سجلماسة

دراسة تاريخية وأثرية

تأليف

الأستاذ لحسن تاوشيخت

الجزء الثاني

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الكتـــــاب : عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية

تــألــيــف : الأستاذ لحسن تاوشيخت

منشـــورات : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الطبـعـــة : الأولى 1429هـ/2008م

الـطـبـــع : مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء

الإيـــــداع : 2008 MO 1787

ردمـــــك : 978-9954-0-5441-4

عمران سجلماسة

دراسة تاريخية وأثرية



الباب الثالث

عمران سجلماسة
من المدينة إلى القصور

الفصل الخامس

○○○○○

الخصائص العامة للتشكيلية المعمارية السجلماسية



المبحث التاسع :
المكونات المعمارية السجلماسية

تقديـــم :

إذا كان التاريخ الكرونولوجي لسجلماسة واضحا نسبيا منذ تأسيسها من لدن خوارج بني مدرار عام 140 هجرية / 757 ميلادية وإلى غاية اندثارها في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فإن المعرفة بمجالها العمراني تظل إلى حد الآن محدودة. ربما يرجع ذلك إلى كون المصادر المعاصرة اهتمت اساسا بالوقائع السياسية التي شكلت تاريخ سجلماسة وبمؤهلاتها الاقتصادية وخاصة بدورها التجاري، بينما أغفلت عن قصد أو بدون قصد تنظيمها العمراني. كما أن موقع سجلماسة الأثري يصعب ضبط حدوده : فقد عرف عدة مراحل من البناء والهدم وأُستغلت أطلاله من طرف الحرفيين وبالخصوص الفخارين حيث أقاموا منشآتهم الإنتاجية، قبل أن يتم بناء القصبة السجلماسية في القسم الأوسط من الموقع.

فإلى أي حد ساهمت الأبحاث الأثرية بموقع سجلماسة في إبراز بعض البقايا المعمارية والتمييز بين ما هو مجال عمومي أو خاص، وبين ما هو مرفق ديني أو سياسي وبين ما هو قطاع سكني وما هو مركز إنتاجي ؟ وهل كانت سجلماسة فعلا مدينة بمعنى الكلمة خاصة وأنها كانت بمثابة العاصمة لإمارة بني مدرار ثم بني مغراوة من بعدهم قبل أن تصبح عاصمة إقليم ؟

I ـ المرافق الأساسية :

1 ـ المؤسسات الدينية :

المسجد الجامع هو إحدى المؤسسات الأولى التي تشيد في المدينة الإسلامية وإحدى خصائصها المعمارية الأساسية التي تحتفظ بموضعها ومكوناتها لعدة قرون لما تحظى به من عمليات الصيانة والإصلاح باستمرار. ويتخذ الجامع موقعه في قلب المدينة ليتمكن كل السكان من الوصول إليه بسهولة، ويلعب دورا هاما في المدينة الإسلامية، لأنه لم يكن فقط مكانا لأداء الصلاة ولكن أيضا مقرا سياسيا وفضاء لعقد الاجتماعات والمشاورات ومحكمة قضائية ومؤسسة تعليمية وجامعة وخزانة تحيط به سوق من المكتبات وحرف الوراقة والكتاب. «وتخطيط المسجد الجامع نظام أصيل في تاريخ العمارة وأنه استحدث في السنة الأولى من الهجرة...وكان يراعي أن يكون موقع المسجد في وسط العمران وأن تكون مساحته واسعة وشاسعة»[1].

فالمسجد الجامع هو إذن نواة المدينة ومركزها السياسي، والاجتماعي، والديني، والثقافي والقضائي. وكان بناؤه يخضع لأربعة مبادئ ثابتة وهي : أن يتخذ جدار القبلة قاعدة للتخطيط، وأن تخط أسس بيت الصلاة صفوفا متوازية لجدار القبلة على شكل أساكب وتقابلها البلاطات وتقام على الأعمدة أو الدعامات، وأن يزود المسجد الجامع بصحن فسيح يطل عليه بيت الصلاة، وأن يحاط بيت الصلاة والصحن بجدران سميكة تحصر المسجد الجامع في حدوده المرسومة[2].

---

(1) محمود وصفي (محمد) : مرجع سابق (ص 32).
(2) محمود وصفي (محمد) : مرجع سابق (ص 32)

ويمكن إجمال القاعدة العامة المتحكمة في تأسيس المسجد الجامع بالمدينة الإسلامية في كون المسجد يرتكز على محورين رئيسيين : يمثل أولهما القبلة أو اتجاه المسجد الحرام بالكعبة المشرفة وهو ما يعبر عنه المحراب، والثاني يهم التطلع إلى السماء بواسطة الصحن المكشوف أو المئذنة أو هما معا. ومن جهة أخرى، لقد روعي في كل تصميم للمسجد الجامع أن يكون متسعا «لكافة أهل المدينة ليقيموا فيه صلاة الجمعة ولذا سموه المسجد الجامع، غير أن اتساع المدن أدى إلى إنشاء مساجد متعددة في مختلف الأحياء في المدينة الواحدة بل تطلب الأمر أحيانا إنشاء زوايا ومصليات صغيرة»[3]. وهكذا يتضح بجلاء ومما لا خلاف حوله، أن المدينة الإسلامية، كانت تؤسس أول ما تؤسس، على التوازن والتكامل. فيبنى المسجد الجامع أولا، فالسوق ثانيا، ثم المرافق الأخرى تباعا.

فيما يخص المسجد الجامع السجلماسي، يمكن القول إنه لن يخرج عن الأسس العامة لجوامع المدينة الإسلامية. فالمصلحة الدينية تحتم أن يشيد في مركز المدينة بالقرب من دار الإمارة. ونظرا للأهمية الكبرى التي يحظى بها المسجد الجامع، يمكن القول إن مسجد سجلماسة بني بإتقان ومتانة وأنه احتوى كباقي الجوامع على المرافق الأساسية التالية: قاعة الصلاة وتشمل عددا من الأساكب والبلاطات وعلى المحراب والمنبر والصحن المفتوح، ثم على المئذنة ودار للوضوء ومرافق أخرى مرافقة مثل المدرسة وبيوت إيواء الطلبة.

المسجد الجامع الأول بسجلماسة أسس من طرف عيسى بن يزيد الأسود، ثم تم توسيعه وربما أعيد بناؤه فيما بعد على يد الأمير المدراري اليسع ابن المنصور ابن أبي القاسم سنة 199 هجرية/418–518 ميلادية. ويورد البكري

(3) عكاشة (ثروت) : مرجع سابق (ص 31).

إشارتين مهمتين عن هذا المسجد مبرزا في الأولى «وجامعها متقن البناء بناه اليسع فأجاده»[4]، ويعرض في الثانية لما شهده الجامع من أحداث بعد سيطرة المرابطين على مدينة سجلماسة وخروجهم منها مؤقتا لرد هجمات قبائل الصحراء وما تعرضوا له من غدر من طرف بني مغراوة : «وغزا المرابطون مدينة سجلماسة بعد أن خاطبوا أهلها ورئيسهم مسعود بن وانودين المغراوي، فلم يجيبوهم إلى ما أرادوا، فغزوهم في جيش عدته ثلاثون ألف حمل سرج، فقتلوا مسعودا واستولوا على مدينة سجلماسة وتخلفوا فيها جماعة منهم، ثم عادوا إلى بلادهم. فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين بالمسجد فقتلوا منهم عددا كثيرا، وذلك سنة ست وأربعين وأربعمائة»[5]. من جهته يذكر ابن عذاري هذا الحدث التاريخي فيقول إن بني مغراوة ثاروا على المرابطين بسجلماسة عام 448 هجرية / 1057 ميلادية «وقتلوا من وجدوا من الملثمين في المسجد الجامع للمدينة»[6].

وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، يورد المسعودي معطيات جديدة تدل على أن سجلماسة أصبحت مدينة كبيرة تشتمل على «أربعة مساجد منها واحد جامع»[7] والذي كان أهمها ويقع في قلب المدينة، بينما بنيت المساجد الأخرى بمختلف الأحياء. ويشير صاحب الذيل والتكملة إلى الجامع السجلماسي في معرض حديثه عن أبي الحسن ابن القطان علي بن محمد بن عبد الملك الحميري : «لما دخل المأمون مراكش...لجأ المعتصم [يحيى ابن أخيه] أمام عمه على سجلماسة فأدركت أبا الحسن بها منيته...[فاتح] شهر ربيع الأول من سنة 628هـ ودفن بالركن الواصل بين

(4) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق طبعة 1992 (ص 836).
(5) نفسه : نفس المصدر (ص 861).
(6) ابن عذاري : مصدر سابق. الجزء 4 (ص 9).
(7) المسعودي (علي بن الحسين) : مصدر سابق (ص 60 - 61).

الصفحتين الشمالي والغربي من الزنقة لصق الجامع الأعظم بسجلماسة وقبره هنالك معروف إلى الآن...»[8]. ويذكر مؤلف الدرر البهية «أن مولاي الحسن بن القاسم الشريف القادم من الحجاز إلى سجلماسة والمتوفى عام 676هـ [1278م] كان يدرس العلوم بمسجدها الأعظم»[9].

وحاول التادلي في كتابه التشوف إلى رجال التصوف أن يقدم بعض مواصفات هذا الجامع عند حديثه عن ابن النحوي من بني حماد المتوفى بسجلماسة سنة 513هـ /1119م، إذ يقول : «أن أبا الفضل لما قدم سجلماسة نزل مسجد ابن عبد الله ليدرس أصول الدين وأصول الفقه فمر عليه عبد الله بن بسام وكان من رؤساء البلد... وكانت عادة أهل البلد أن يعقدوا أنكحتهم بالسحر في المسجد»[10].

وتحتفظ الذاكرة الشعبية المحلية بأن المسجد الحالي الذي لايزال واقفا بموقع سجلماسة يعود إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله الذي عمل على ترميمه وتغيير سقفه.

من الناحية الأثرية ولأجل التأكد من صحة هذه الرواية ومحاولة البحث عن المستويات السفلى للمسجد، قامت البعثة المغربية الأمريكية[11] بالتحقق في اتجاه البناية وتحديد موضع المحراب. وأثبتت الحفريات الأثرية

---

(8) المراكشي (محمد) : **الذيل والتكملة**. تحقيق محمد بنشريفة، الرباط، مطبعة المنصور 1984، الجزء 1 (ص 194).

(9) الفضيلي (إدريس) : **الدرر البهية**، فاس، طبعة حجرية 1314هـ، الجزء 1 (ص 63).

(10) التادلي المعروف بابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى) : **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1984، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس «نصوص ووثائق 1» (ص 98).

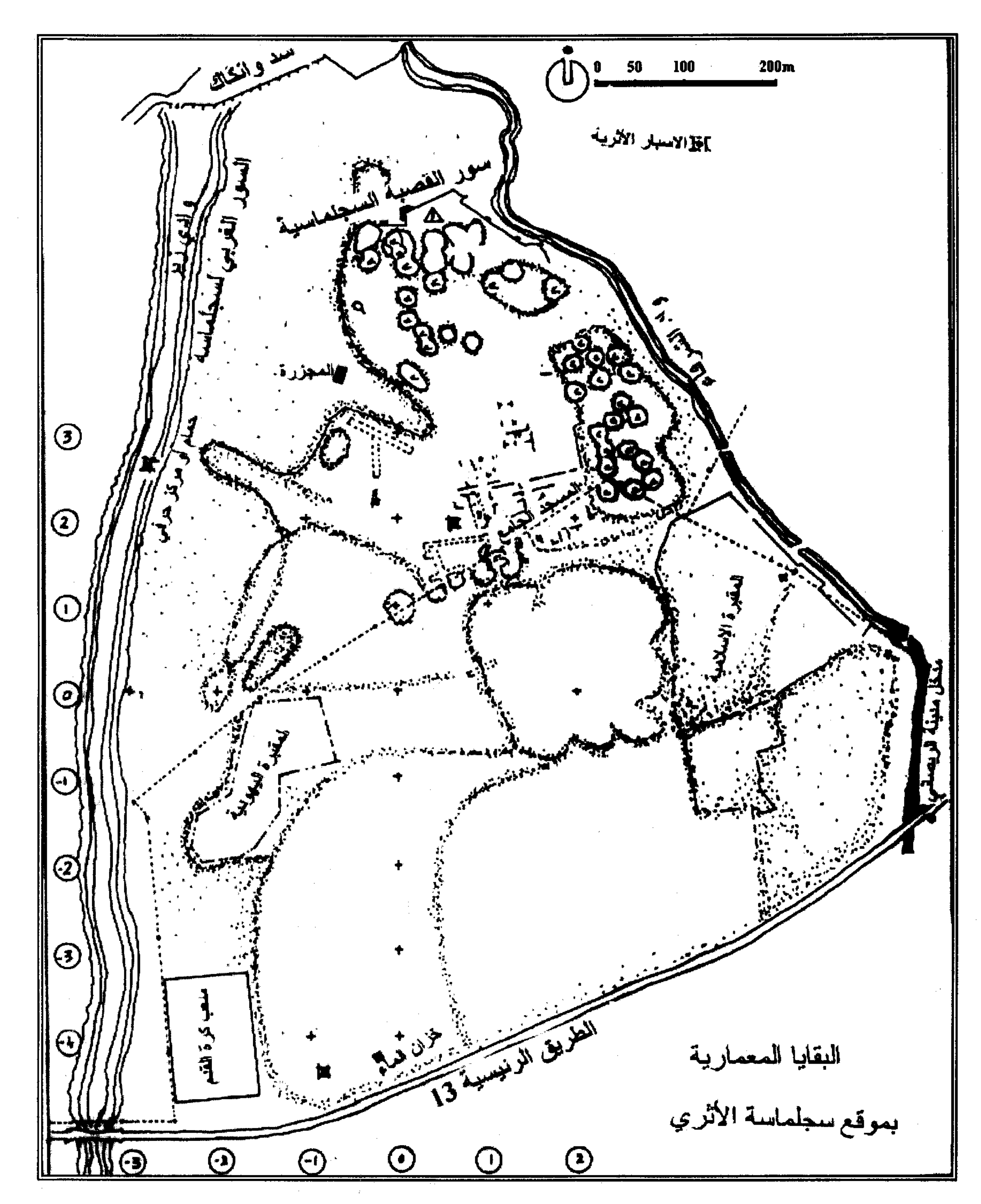
(11) Messier (Ronald A) : «the grand mosque of Sijilmasa : the evolution of a structure from the mosque of Ibn Abd Allah to the restoration of Sidi Mohammed ben Abd Allah», *Colloque International sur l'Architecture de Terre en Méditerranée* (pp 287-296).

بالمسجد الجامع أنه يتخذ شكلا مستطيلا، وشيدت جدرانه من الطابية يبلغ سمكها الظاهر ما بين متر واحد و1,15 متر، وقد هدمت بعض أجزائها في عدة أماكن وخاصة ابتداء من موضع المحراب إلى الركن الجنوب الغربي. قاعة الصلاة تتكون من أربع بلاطات مقابلة للقبلة وإحدى عشر أسكوبا موازيا لها. قاعدة الأعمدة تتوزع بشكل منتظم من 4,20 أمتار إلى مترين و30 سم.

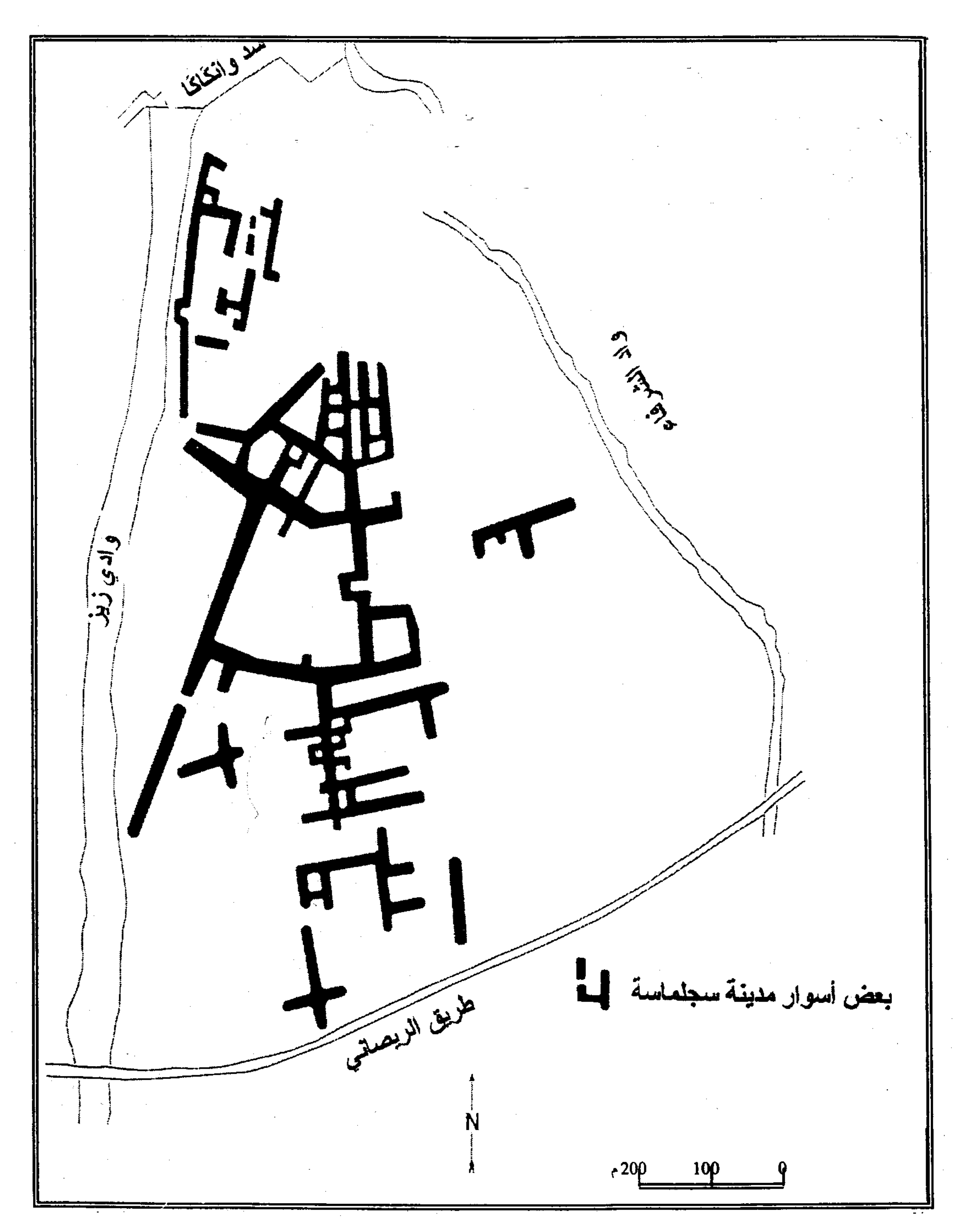
ويظهر أن البقايا الحالية تنتمي إلى المسجد المشيد من طرف السلطان سيدي محمد بن عبد الله في نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي والذي بني بدوره على أنقاض مسجد آخر يرجع تاريخه إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل في آخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

ويوجد تحت بقايا المسجد الإسماعيلي مستويان : الأول يتكون أيضا من أرضية مبلطة بالحصى والكلس بشكل جيد والتي وضعت على فرشة من الحجارة وتم الكشف بها على بقايا سكة المنبر وآثار المحراب. تتشكل الصفوف الأربعة لهذا المسجد من أعمدة متقابلة، بينما تبقى الحدود الجانبية غامضة. ومن الممكن أن يمثل هذا المستوى أرضية لمسجد سابق تم توسيعه نحو الغرب بنسبة الضعف من حجمه.

وتجدر الإشارة إلى أن المسجد المرابطي عرف بجامع ابن عبد الله ويرجع إلى عهد الأمير علي ابن يوسف بن تاشفين وكان هذا المسجد الجامع شبه مربع يبلغ طوله 22,50 مترا وعرضه 19,50 مترا. وعمل الموحدون بتغيير هام لحجم المسجد وذلك بالنقص من الجدار الخلفي على أساس 18 مترا في الطول وبتمديد الجدار الشرقي لمضاعفة عرض المسجد حيث بلغ 37,50 مترا، وتزامن هذا التوسيع مع تغيير طفيف لاتجاه القبلة.



التصميم 24 : موقع سجلماسة الأثري : البقايا المعمارية بالنطاق الأوسط



التصميم 25 : موقع سجلماسة الأثري : البقايا المعمارية تحت سطح النطاق الأوسط حسب صور الأقمار الاصطناعية

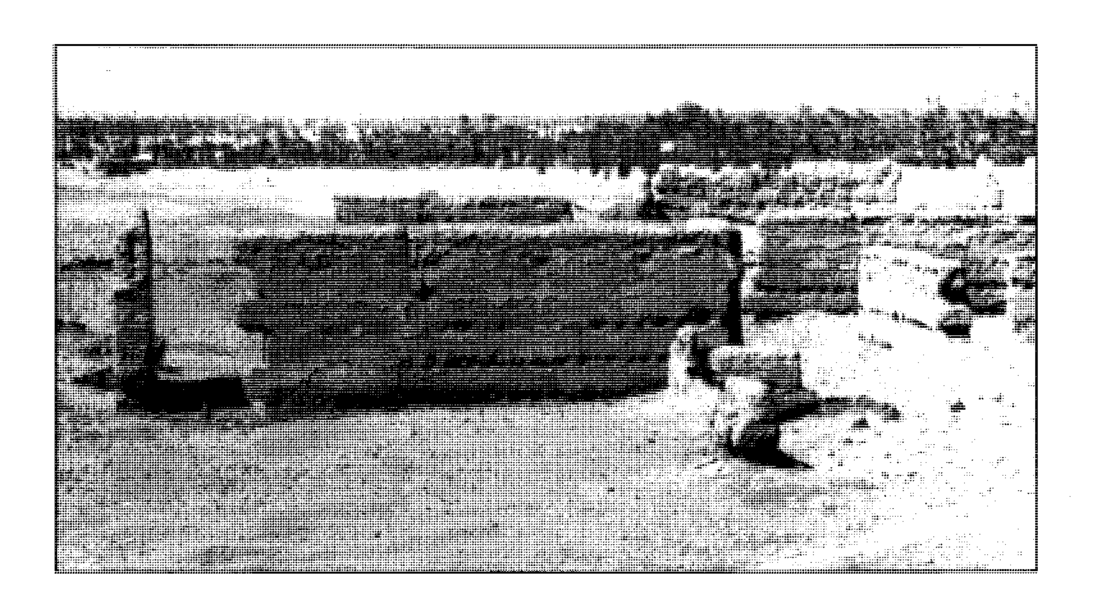
وحسب القطع الخزفية من الصنف السجلماسي المكتشفة بهذه الطبقة يمكن تأريخ هذا التوسيع بالفترة المرينية، ويبقى من المرجح أن زيادة ديمغرافية بسجلماسة كانت وراء هذه العملية التي أُنجزت من طرف الموحدين بعد تحكمهم في المدينة حوالي سنة 541هـ / 1148م. ويظهر ذلك من تشابه أجزاء السارية الأساسية التي عثر عليها في مستوى هدم المحراب مع الأعمدة المستعملة في واجهة المحراب بالمساجد الموحدية وخاصة بمسجد تنمل. كما وجدت أجزاء من الكلس المنقوش والمصبوغ بالأحمر والأسود مخبئة في ركام الهدم، ويتماشى هذا مع ما عرف عن الموحدين بتغطية الزخارف المرابطية بالكلس في جامع القرويين بفاس وبتغيير وجهة القبلة. إلا أن الموحدين أنفسهم عملوا على زخرفة المسجد بالكلس قصد التعبير عن الجمالية الفنية للنظام الجديد وذلك بعد سنة 541 هـ / 1148م.

وقد اشتهرت الدولة الموحدية بكونها قامت بتغيير اتجاه القبلة للمساجد السابقة لعهدهم وهي نفس الظاهرة التي يمكن ملاحظتها بمسجد سجلماسة من خلال مقارنة أرضيتي المستوى الثالث والتوسعة، إذ يلاحظ تحويل اتجاه القبلة بنحو 4 درجات إلى الجنوب على نفس المنوال الذي حدث لقبلة جامع الكتبية بمراكش. واستند هذا الموقف الموحدي على الفتاوى التي أصدرها فقهاء الدولة الموحدية حول عدم شرعية اتجاه القبلة بالجوامع المرابطية : «حتى إذا استولى الموحدون على العاصمة مراكش، استشار الموحدون الفقهاء في موقفهم من مساجد المرابطين، فأفتوهم بهدمها لأنها في رأيهم منحرفة عن القبلة... وامتد اهتمام ولاة الأمر إلى المدن المغربية الأخرى وبناء المساجد فيها وقد ظهر ذلك واضحا حين أمر الخليفة عبد المؤمن ببناء المساجد في جميع أرجاء البلاد»[12].

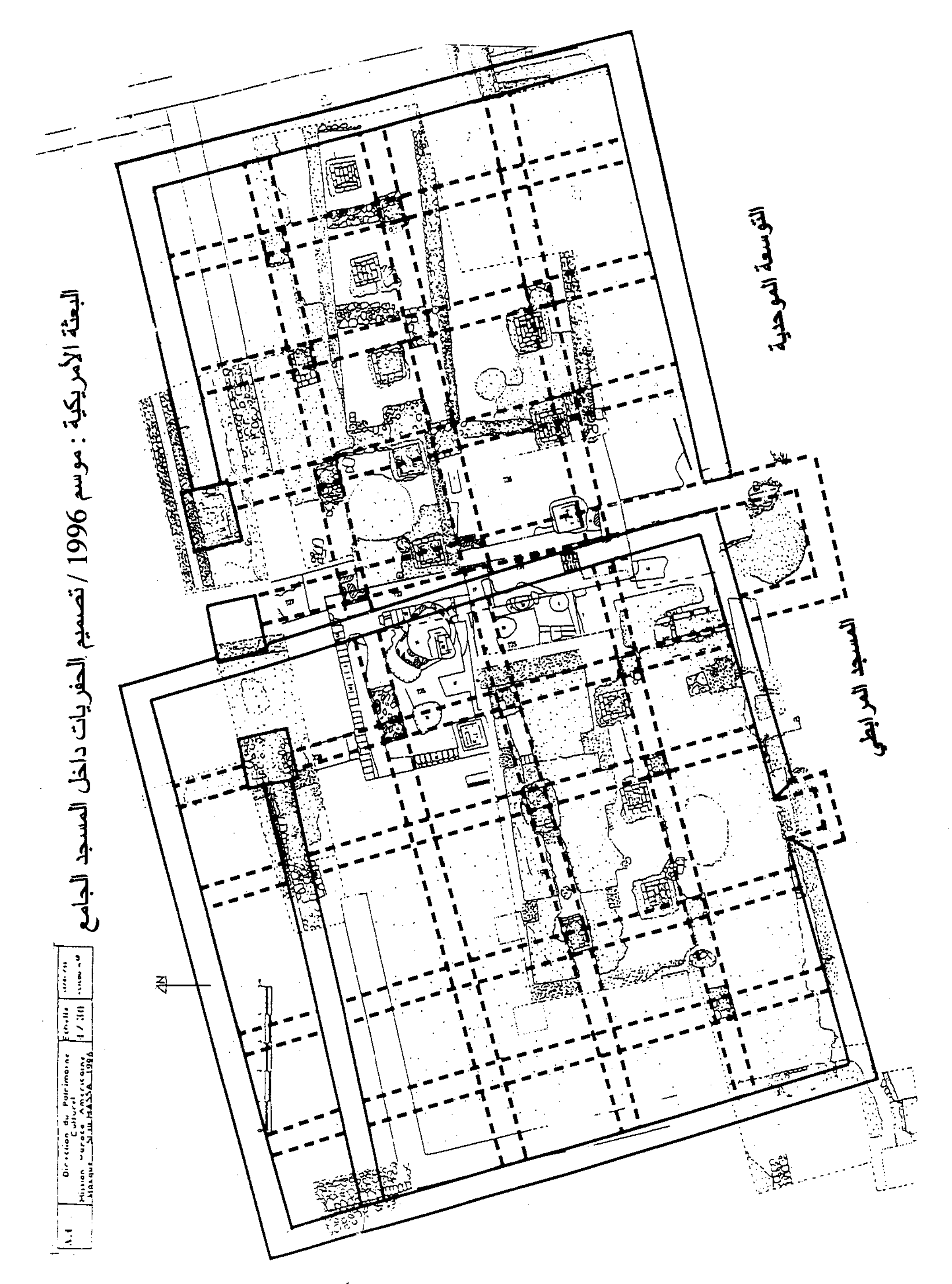
---

(12) علي حسن (حسن) : **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين**. القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى 1980، 564 صفحة (ص 397 وص 399).

ويستنتج من حصيلة الحفريات الأثرية بالمسجد الجامع، أن هذا الأخير ربما ظل محتفظا بموضعه لفترة تاريخية طويلة عرف خلالها عدة تغييرات وإصلاحات يمكن تحديدها في أربع مراحل تطورية : ترجع الأولى إلى العصر المرابطي، إذ كانت تبلغ مساحة المسجد 22,50 x 19,50 مترا [أي 540,00 مترا مربعا] ، وتمثل المرحلة الثانية المسجد الموحدي الذي تم تقليص طوله بحوالي أربعة أمتار ونصف من جهة الجدار الشمالي وعلى العكس من ذلك تم مضاعفة عرضه تقريبا من ناحية الشرق ليصل إلى 37,50 مترا [المساحة الإجمالية 37,50 x 18 = 675 مترا مربعا]. كما عمل الموحدون على تغيير اتجاه القبلة التي أضحت في موسطة الجدار الجنوبي. وعرف المسجد توسيعا أخر في فترة لاحقة، يعتقد في العهد السعدي وحسب التحليل بواسطة الكاربون C 14 ما بين 1400 و 1630، وذلك بالزيادة في الجدار الشمالي وفي الجدار الشرقي (المرحلة الثالثة).



الصورة 25 : موقع سجلماسة الأثري: بقايا المسجد الجامع ودار الإمارة



التصميم 26 : موقع سجلماسة الأثري :

تصميم المسجد الجامع المرابطي والتوسعة الموحدية

أما المرحلة الرابعة فتنتمي إلى الفترة العلوية، إذ شهد الجامع عملية تجديده على يد السلطان مولاي إسماعيل في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، ثم على يد حفيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله في نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، إذ لم يتغير تصميم المسجد بينما أعيد بناء السقف وتزيينه بالزخارف. الأطلال الحالية ترجع ولاشك إلى هذه المرحلة الأخيرة وتبلغ المساحة الإجمالية للمسجد الحالي حسب ما يظهر من الآثار 16,50 x 39 = 643,50 مترا مربعا.

وغالبا ما يرتبط بالمسجد الجامع وجود مدرسة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن الكريم. فمن «المسجد انطلق ذلك الإشعاع الحضاري للفكر الإسلامي في مختلف ميادين العلوم والمعرفة قبل ظهور المدارس النظامية والجامعات والمعاهد والكليات»[13]. وكان للمسجد دور تربوي لتلقي كل العلوم الدينية وظل «يؤدي هذه المهمة الحضارية من الناحية الدينية والأدبية والاجتماعية إلى أن رأى السلاطين السلاجقة في القرن 5هـ / 11م أن يشيدوا عمائر خاصة لتدريس الدين على مذاهب أهل السنة وتثقيف الموظفين الذين كانوا يحتاجون إليهم في إدارة مملكتهم الواسعة الأطراف. وكان يشمل تخطيط المدرسة صحنا مكشوفا تحيط به أربع حجرات في شكل متقابل وكانت الأركان الواقعة بين ضلعي هذا الشكل تشتمل على المدخل وفيها سلم يوصل إلى الطابق العلوي ومساكن الطلاب والأساتذة»[14]. وغالبا ما كانت هذه المدارس تحتوي على طابقين وصحن مكشوف وعدة غرف وعلى قاعة أو عدة قاعات كبيرة مخصصة للدراسة. كما أن أغلب المدارس كانت تجاور المسجد الجامع.

(13) بودهان (أحمد) : «المسجد ودوره الحضاري في الغرب الإسلامي من عهد الولاة إلى عهد الحسن الثاني»، **دعوة الحق**، العدد 308، مارس 1995، ص 85 - 96 (ص 87).

(14) محمود وصفي (محمد) : مرجع سابق (ص 41).

ويعرف عن مدرسة المسجد الجامع بسجلماسة في العهد الموحدي وخاصة خلال حكم أبي يوسف يعقوب، أنها كانت مركزا للتعليم. إلا أن المعلومات المصدرية عنها جد محدودة، ويظهر أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أعاد ترميمها وفتح أبوابها لحوالي 500 طالب كانوا يتابعون بها دراستهم على نفقة الدولة. هذه المدرسة التي كشفت عنها التحريات الأثرية في موضع يوجد مباشرة شمال المسجد، ولكن دون أن تحدد مستويات تطورها المختلفة كما وقع بالجامع.

2. المنشآت العامة :

أ) دار الإمارة :

وتعتبر من أهم المرافق الأساسية في المدينة الإسلامية وخاصة منها التي اتخذت كعواصم. وتقع دار الإمارة غالبا في مركز المدينة بجوار المسجد الجامع، وتمثل المقر الرئيسي لحاكم المدينة. هذه الدار تشيد بشكل متين وتزخرف بإتقان وتحرس بقوة وترتبط مباشرة بالحصن أو العسكر وبالمسجد. بني هذا المرفق بسجلماسة منذ بداية التأسيس على يد الحاكم الأول للمدينة عيسى بن يزيد الأسود. ولا شك أنها عرفت خلال مختلف الفترات التاريخية اللاحقة، عدة عمليات من الترميم وإعادة البناء. إلا أن معرفتنا بهذه الدار وبالتطورات المعمارية التي لحقت بها، تظل غامضة وناقصة بسبب انعدام المعطيات التاريخية.

من الناحية الأثرية، كشفت حفريات البعثة المغربية الأمريكية خلال موسميها 1994 و1996 عن وجود بناية سكنية ضخمة تحت المستوى الأسفل للمسجد الجامع. ويعتقد من خلال تحليل البقايا الأثرية واللقى المكتشفة المتكونة من القطع الخزفية ذات الاستعمال المنزلي، وكانون للطهي،

وعظام حيوانية، أن هذه البناية تمثل دار الإمارة أو على الأقل جزءا منها وربما تمثل فقط منزلا لأحد الأعيان، يعود تاريخه إلى ما قبل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. كما يمكن القول إن هذه البناية قد تكون أحاطت بكل المكان المغطى من طرف جامع ابن عبد الله وتوسعاته المتوالية.

وتحتوي الجهة الغربية للبناية على فناء مربع ذي أرضية مملطة بدقة ترتبط شرقا وغربا بمدخل على شكل أقواس يؤدي إلى غرف مجاورة. وبهذا المكان اكتشفت عدة قطع من الجبس المصبوغ ومن الخشب المزين برسومات جميلة، وتمثل الزخرفة على الكلس والصباغة على الخشب فضلا عن الخشب المصفح نمطا متميزا. وحفرت في الجهة الشرقية عدة غرف وتم العثور أيضا على قطع من الجبس المصبوغ من بينها قطعة كتبت عليها العبارات الآتية[15] : «... وسعها... كسبت... عليها...» ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾. وحسب تحليل الكاربون C 14 لجزء من هذه القطعة الجبسية، يمكن تأريخ هذه البقايا بفترة بني مدرار وبالضبط سنة 770 ميلادية مع نسبة خطأ تتراوح ما بين سنتي 665 و885م. هذه القطعة المنقوشة تشكل حمولة دينية تعبر بدون شك عن العقيدة الخارجية التي ترفض الإيمان بالقلب دون أن يصدقه العمل. وهذه الفكرة ربما كانت شائعة عند مؤسسي سجلماسة من خوارج الصفرية. وفي المكان الفاصل بين الجزء الشرقي والجزء الغربي للبناية لم تكتشف أية لقى أثرية ما عدى بعض القطع من الأغصان، مما يطرح إمكانية أن يكون هذا المكان عبارة عن حديقة تابعة للبناية. التحليل بواسطة الكاربون 14 أعطى تأريخا للبناية يمتد من سنة 140هـ / 758م إلى سنة 257هـ / 875م.

(15) القرآن الكريم : سورة البقرة، جزء من الآية 285 .

ب) الحمامات :

عرفت الحمامات منذ القدم، وكانت من المرافق الضرورية في معظم المراكز الحضرية كما عرفت بجمالية بنائها وهندستها الزخرفية وحرص الحكام والسكان على حسن تدبير مجاريها المائية وإتقان أحواضها وصهاريجها وتزيين مجالسها. وكانت الحمامات من بين المنشآت المعمارية التي استهوت الرحالة والمؤرخين، فقدموا عنها أوصافا كثيرة، بل «ومنهم من اعتنى بما عرف منها بالمدن والحواضر لأنها أضافت إلى «فن العمارة» كثير من الفن والجمال، وإلى الآداب الاجتماعية ألوانا من العادات والتقاليد، واتخذها بعض الشعراء والكتاب موضوعا طريفا أطلقوا فيه العنان لمخيلتهم»[16].

ويعتبر الحمام من المكونات المعمارية الأساسية بالمدينة الإسلامية، لأنه يلبي حاجيات السكان إلى النظافة والطهارة. «ويعكس إنشاء الحمامات العامة بالمدينة الإسلامية مدى الحاجة إليها، تلك الحاجة التي ارتبطت في المقام الأول بعدم قدرة جميع سكان المدينة على إنشاء حمامات خاصة بمنازلهم، لما يكلفه ذلك من تكاليف الإنشاء والمساحة والتزود بالماء وتسخينه وأيضا إنشاء شبكات الصرف وآباره»[17].

وتحتل الحمامات مكانة متميزة في الحضارة الإسلامية، وارتبطت وظيفتها بمصالح المياه، فكل «مدينة تتوفر على حمام أو أكثر، فبغداد وحدها في القرن 18 كانت تتوفر على 5 آلاف حمام»[18]. ويعرف أن

(16) الخلادي (عبد القادر) : «لمحة تاريخية وأدبية عن الحمامات في المجتمع الإسلامي»، **دعوة الحق**، العدد 9 - 10، السنة 8، يوليو - غشت 1965، ص 119 - 125 [نقلا عن داود الأنطاكي في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، ج 1، ص 119 وما بعدها].

(17) عبد الستار عثمان (محمد) : **المدينة الإسلامية**، مرجع سابق (ص 353).

(18) Jehel (Georges) et Racinet (Philippe) : *La ville médiévale de l'Occident chrétien à l'Orient musulman, V° - XV° siècle.* Paris, édition Armant Colin, 1996, 495p. (p 113).

الحمامات ظهرت بالمغرب مع الرومان، وشهدت أوجهها بعد الفتح الإسلامي بفعل التأثيرات المشرقية وخاصة الأندلسية، فوجدت هذه المنشآت بالمدن المغربية التي أُسست في عهود الأدارسة والمرابطين والموحدين. وكانت «حمامات المغرب ولاسيما تلك التي بنيت منذ عهد المرينيين، تمتاز بهندسة تكاد تنفرد بها حمامات إفريقيا الشمالية وذلك من حيث التصميم لا من حيث ما تتسم به بعض الحمامات المشهورة من زخارف وأعمدة رخامية وفسيفساء...»[19]. ويمكن التمييز بين صنفين من الحمامات فمنها الخاصة ومنها العمومية، وكلاهما حظيا بالعناية، إذ غالبا ما يختار لهما موقع لائق ومواد البناء المناسبة ويعتنى بمجاريهما المائية ووسائل التسخين.

ويتكون الحمام غالبا من مدخل رئيسي ينفتح على رواق ضيق وقصير يؤدي إلى غرفة الملابس، ثم من غرفتين أو أكثر يتم تزويدها بالماء الدافئ والبارد. وكانت الحمامات زمن الأبنية المهمة في العالم الإسلامي، لأن النظافة من الإيمان وذلك نظرا لأهميتها في التطهير والنظافة وكان يلاحظ في تصميمها أن تتيح للمستحم أن ينتقل تدريجيا من الجو الحار إلى الجو البارد حتى لا يصاب بأذى. وكان الحمام يسخن عن طريق إيقاد النار تحت أرضيته وكان يشتمل على أنابيب الماء الساخن والبارد داخل الجدران. والحمامات من أقدم الآثار الإسلامية»[20].

وكانت سجلماسة، باعتبارها مدينة إسلامية كبيرة وعاصمة دولة أو إقليم فيما بعد، تتوفر على حمامات عمومية في أغلب أحيائها وخاصة بالقرب من عيون المياه. ويذكر البكري أن «حماماتها رديئة البناء غير محكمة

---

(19) الخلادي (عبد القادر) : مرجع سابق (ص 122).
(20) محمود وصفي (محمد) : المرجع السابق (ص 40).

العمل»[21]. وينقل لنا صاحب التشوف في سياق الحديث عن أبي الفضل بن أحمد بن محمد بن عبد الله المتوفى في رمضان عام 542 هـ / 1149م أنه «لما دخل أبو الفضل سجلماسة أمر أن ينزل في دار قريبة من الحمام بعيدة عن المسجد، فأنكروا عليه ذلك وسألوه فقال : خطاي إلى الحمام في حق بدني، فأريد أن تكون قليلة وخطاي إلى المسجد فيها الأجر فأريد أن تكون كثيرة»[22].

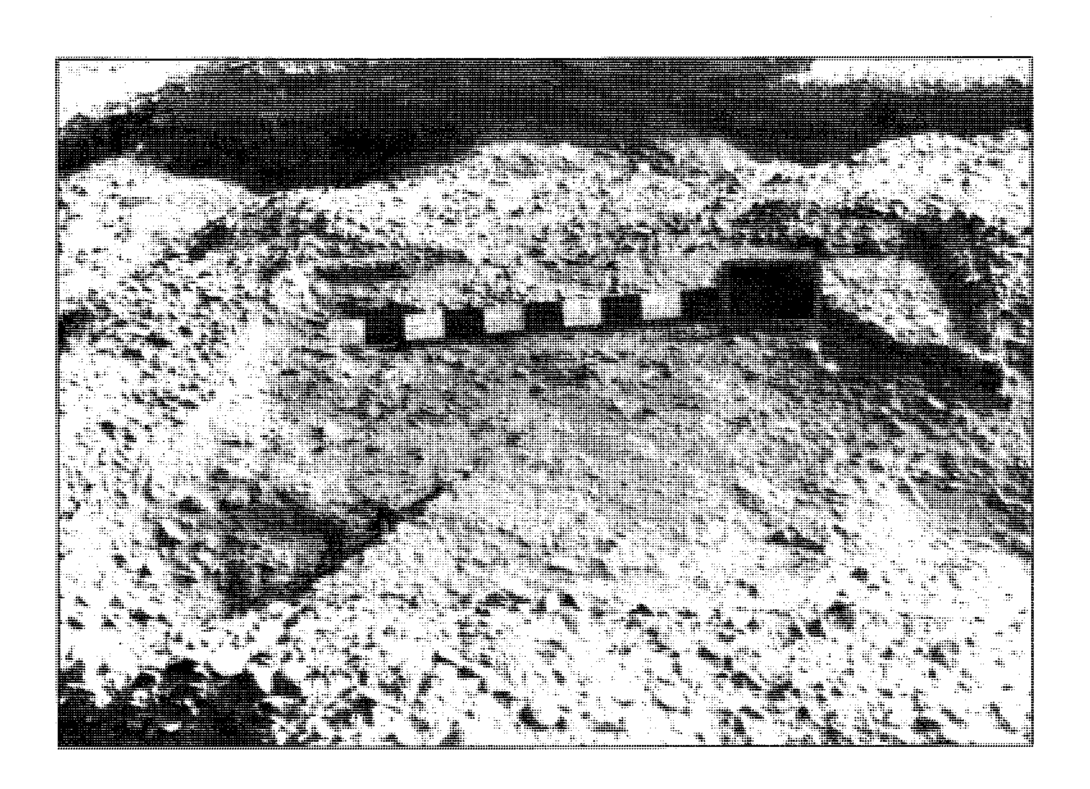
وتدل هذه الإشارة على أن حمام سجلماسة كان يقع بعيدا عن المسجد الجامع، وربما كانت تمثله البناية التي أُكتشفت وسط مجرى وادي زيز خلال حفريات البعثة المغربية الأمريكية لموسم 1988. تتكون هذ البناية من غرفتين كبيرتين والعديد من الغرف الصغيرة وعلى حوض في الوسط والذي يتم تزويده بالماء بواسطة قناة. وشيد الحمام من الطابية وضعت مباشرة فوق أساس من الرمال، ومع ذلك ظلت صامدة بالرغم من فيضانات وادي زيز. وهذا ما يؤكد أن مباني سجلماسة بنيت بشكل صلب بالاعتماد على طين صلصالية حمراء مختلطة بالحصى. هذا الصنف من البناء لازال يقاوم التعرية النهرية، بل إن تكويناته تلتحم أكثر وتزداد تماسكا، كلما تعرضت للغمر بمياه وادي زيز. وهو ما ينطبق أيضا على السور الغربي لسجلماسة والذي يجاور الضفة الشرقية لوادي زيز الحالي.

هذه البناية سابقة ولا شك على المجرى الحالي لوادي زيز، إذ كيف يمكن تفسير وقوع البناية وبعض أجزاء من سور المدينة وسط المجرى نفسه. ذلك أن وادي زيز الأصلي كان بعيدا ويقع شرق الواحة [وادي أمربوح حاليا] ولا يمر في وسطها، وأن زيز الحالي كان فقط في بداية الأمر، عبارة عن قناة

(21) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 836).
(22) التادلي (أبو يعقوب يوسف) : المصدر السابق (ص 99).

اصطناعية سرعان ما كبرت. فأصبح وادي زيز يخترق عدة معالم عمرانية سجلماسية، ولم يتم إزالة النقاب عن بعضها إلا مؤخرا، كما تراكمت توضعاته فوق معالم أخرى مما أدى إلى تغطيتها بالكامل.

وحسب حصيلة الحفريات الأثرية فإن هذه البناية استغلت مرتين : الأولى كحمام عمومي والذي تعبر عنه الطبقات الأثرية السفلى التي يتراوح عمقها بين متر واحد ومترين و50 سم. الثانية تمثلها الطبقات العليا وهي عبارة عن حوض وقناة مائية ويشكلان ولا شك أجزاء من الناعورة وشبكة مائية كانت تزود مرافق سجلماسة أو القصبة السجلماسية بما تحتاجه من المياه.



الصورة 26 : موقع سجلماسة الأثري : بقايا حمام

ج) الشوارع والأزقة :

تلعب الأزقة والشوارع دورا أساسيا في المجال العمراني للمدينة، فهي بمثابة الخط الفاصل بين مختلف المرافق. وتعتمد في تأسيس المدينة وفق مشروع تصميم معماري تراعى فيه تنظيم الأحياء السكنية في علاقة مع الفضاءات الحرة والفارغة. وتمثل الشوارع والأزقة شريان التواصل بين مختلف هذه المنشآت وبذلك فهي مجال التهوية وإدخال ضوء الشمس. وترتبط هذه الشرايين بطبوغرافية المدينة وبتنظيمها العمراني وبوسائل النقل المتوفرة. «إن نسق الأزقة في مقابل المبنى يعد من بين قواعد تركيبة المدينة، مما يؤثر على التخطيط العام وعليه ينمو العمران ابتداء من مركز المدينة في اتجاهات مختلفة كما أنه يؤثر على مختلف التجهيزات التحتية مثل القنوات المائية وعلى الأنشطة الاقتصادية والتجارية منها بشكل خاص»[23].

وكانت سجلماسة تتوفر على عدة شوارع وأزقة، فقد أورد المسعودي أن المدينة كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة تساوي نصف يوم مشيا على الأقدام[24]. أما الرواية الشفوية فتذكر أن الزقاق الرئيسي للمدينة والذي يربط بين شمالها وجنوبها يبلغ طوله مشي امرأة منذ شروق الشمس إلى غروبها. وتوصل الفريق الجغرافي للبعثة الأمريكية في موسم سنة 1996 اعتمادا على الرواية الشفوية المحلية وعلى الصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية والمسح الأثري، إلى أن مدينة سجلماسة يمر في وسطها وبالضبط غرب المسجد الجامع، شارع كبير يمتد من الشمال إلى الجنوب.

وعلى هذا الأساس يمكن أن تصل مسافة هذا الشارع إلى حوالي سبع كيلومترات أو أكثر، وكان يفصل المدينة إلى جزأين شرقي وغربي وعنه تنبثق

(23) Lacaze (jean - Paul) : *la ville et l'urbanisme*. Paris, Dominos / Flammarion, 1995. 127 pages (p 79).

(24) المسعودي (علي بن الحسين) : مصدر سابق (ص 60 - 61).

شبكة عادية من الأزقة والدروب الثانوية قصد تسهيل الانتقال بين مختلف الأحياء، بينما شيدت المنازل على جوانبها[25].

د) الحدائق العمومية والقنوات المائية :

يدخل تنظيم المجال الأخضر والشبكة المائية في المدينة الإسلامية، ضمن المهام الرئيسية للسلطات كما أنه يشغل اهتمام السكان، لما يوفره من الظروف الجمالية والصحية المناسبة. وتؤكد المصادر المكتوبة أن سجلماسة أسست وسط واحة خضراء وقرب نهر دائم الجريان وأنها كانت تحاط بحقول جميلة تسقى من مياه النهر. ويذكر البكري أن المدينة كانت تتوفر على «بساتين كثيرة»[26]. من جهته يشير ياقوت الحموي «وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له تيومتين على نهرها الجاري فيه من الأعناب الشديدة الحلاوة ما لا يحد وستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقل»[27]. فالماء بسجلماسة كان متوفرا بكثرة منذ نشأتها، إذ قام الحاكم الأول عيسى بن يزيد بتنظيم «قنوات الماء لكل حقل وقام بغراسة الكثير من شجر النخيل حتى أصبحت سجلماسة مدينة النخيل والعنب والفواكه»[28]. ويورد محمد بن الحسن الوزان وصفا للشبكة المائية بسجلماسة والتي كانت تضم «نافورات عديدة يأتيها الماء من النهر، تأخذه ناعورات من زيز وتقذفه عبر قنوات تحمله إلى المدينة»[29].

لذلك كانت سجلماسة كباقي المدن المغربية المعاصرة وخاصة مدينة فاس، تتميز بوفرة المياه وببساط دائم الخضرة وكانت أيضا تشتهر بوجود

---

(25) Terrasse (Henri) : «notes sur les ruines de Sijilmassa», op-cit. (p 585)

(26) البكري (أبو عبيد الله) : المصدر السابق (ص 835).

(27) الحموي (ياقوت) : مصدر سابق (ص 192).

(28) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : **الخوارج في بلاد المغرب**، مرجع سابق (ص 118).

(29) الوزان (محمد بن الحسن) : مصدر سابق، الجزء 2 (ص 127).

النافورات والناعورات الجميلة والحدائق الغناء التي كانت بمثابة الرئة التي تتنفس منها البنايات المتعددة. وقد كشفت الحفريات الأثرية للبعثة الإيطالية في موسمي 1971 و1972 بشمال الموقع عن حوض وقنوات وحدائق جميلة من النمط الأندلسي ونباتات فحمية. كما عثرت البعثة الأمريكية من جهتها وفي معظم مواسمها، على بقايا قنوات وأحواض وبعض بقايا موضع الناعورة بالاستبار الرابع وكانت ترتبط بشبكة مائية تزود مرافق سجلماسة بما تحتاجه من المياه سواء المستعملة في الشرب أو السقي. كما اكتشفت البعثة عن بذور وفصائل نباتية كانت تزين بها ولا شك حدائق سجلماسة ومن ذلك الأعشاب الطبيعية [herbes sauvages]، وبذور نوار الشمس [Compositae - tournesol] وفصيلة الورد [Caryophyllaceae].

هـ) المقابر والأضرحة :

وتحظى أماكن الدفن هاته على اختلاف مستوياتها بتقديس من طرف المسلمين الذين يقومون عادة بزيارتها وخاصة يوم الجمعة قصد الترحم على موتاهم من الأهل والأقرباء. و«ابتداء من القرن 10م أخذت عملية تقديس الموتى أهمية كبرى إثر تشييد أضرحة ضخمة على شرف الأسرة النبوية. ففي المدن الكبرى أصبح من المعتاد بناء أضرحة على قبور الأمراء والتي تعلوها قبة وتتكون من عدة غرف تحتوي على مخطوطات وزرابي وقنادل»[30].

وكان تشييد المقابر في المدن الإسلامية يتم بصفة عامة خارج الأسوار بالقرب من السور الخارجي وغالبا ما تتوفر كل طائفة على مقبرتها الخاصة. أما الدفن فيتم فرديا مع ترك مسافة قليلة بين قبر وأخر وتحظى قبور الأولياء بعناية كبيرة وغالبا ما تبنى عليها قبة أو ضريح. كما أن بعض القبور يتم

(30) الخلادي (عبد القادر) : المرجع السابق (ص 124).

زخرفتها وتزيينها بشواهد تخلد اسم الدفين وتاريخ وفاته. مع الأسف لا نعرف أي شيء عن مقابر وأضرحة مدينة سجلماسة القديمة حيث اندرست مع اندثار المدينة أو أنشئت فوقها مقابر جديدة. لذلك فالمقابر التي لا تزال تظهر حاليا فوق سطح الموقع سواء كانت إسلامية أو يهودية، ترجع إلى القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

و) الجسور :

اعتبارا لوظيفتها ولمعمارها، فإن الجسور تعد من المعالم المهمة في المجال العمراني وغالبا ما تشيد من الحجارة مع ملاط من الجبس أو من الخشب فوق الوديان والسواقي. ويشير ابن الخطيب إلى وجود مثل هذا المرفق العام بسجلماسة التي شيدت على ضفاف وادي زيز، إذ يقول : «وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد»[31]. من جهته يذكر أبو علي الحسن اليوسي في كتابه المحاضرات أنه كان بسجلماسة جسر على شكل رصيف قبالة الشجرة الخضراء المعروفة بهذه الناحية وكان يستعمل للعبور نحو ناحية الزلاميط[32].

كما تورد الرواية الشفوية أن مدينة سجلماسة كان يربطها مع سوق ابن عقلة جسر على الوادي وممر طويل تحيط جوانبه جدران من الطابية. واستطاعت التحريات الأثرية للبعثة المغربية الأمريكية خلال مواسم 1994 و1996 و1998 من الكشف بواسطة الصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية عن وجود طريق ضيق ومستقيم يربط بين موقعي سجلماسة وسوق ابن عقلة.

---

(31) ابن الخطيب (لسان الدين) : **معيار الاختيار** مصدر سابق (ص 181).

(32) اليوسي (أبو علي الحسن) : **المحاضرات في الأدب**، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976، الجزء 1 (ص 105).

3. التحصينات الدفاعية :

أ) الســـور :

يعتبر السور في المدن القديمة رمز الأمن والوقاية من كل تدخل خارجي، إذ كانت معظم هذه المدن تحاط بسور متين تتخلله عدة أبراج للحراسة وأبواب محصنة. ويلعب السور دورا دفاعيا وتحدد قوته وعدد أبراجه وأبوابه وفق أهمية المدينة وطبيعة علاقاتها الخارجية. «إلى حدود بداية القرن العشرين، لم تتغير كثيرا المكونات داخل المدينة المغربية، حيث أن جميع المدن... كانت محاطة بأسوار سميكة وعالية ولا يمكن الولوج إليها إلا من أبوابها التي كانت محروسة وتغلق للحفاظ على الأمن العام في المدينة»[33].

وإذا كان أغلب الجغرافيين والرحالة القدامى قد وصفوا مدينة سجلماسة بكونها كانت محصنة بسور، فإن الإدريسي ينفرد بالقول إن هذه المدينة كانت فقط عبارة عن قصبة خالية من كل تحصين[34]. بينما يشير المقدسي إلى أن سورها من طين[35]، يقول البكري : «وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله لم يشركه في الإنفاق عليه أحد، أنفق فيه ألف مد طعام، ولها اثنا عشر بابا ثمانية منها حديد. وكان بناء اليسع له سنة تسع وتسعين ومائة»[36] هجرية / حوالي815 ميلادية.

---

(33) المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة والأشغال الطبوغرافية : **الاسم الجغرافي : تراث وتواصل، ندوة حول الأعلام الوطنية [15 - 17 أبريل 1992]**، المحمدية، مطبعة فضالة، 1994 (ص 128).

(34) الإدريسي (أبو عبد الله) : مصدر سابق (ص 37).

(35) المقدسي (أبو عبد الله محمد) : مصدر سابق (ص 231).

(36) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق، طبعة 1992، (ص 835 - 836).

(37) مجهول : **الاستبصار**، مصدر سابق (ص 201).

نفس المعلومات يوردها صاحب كتاب الاستبصار فيذكر أن سورها أتمه «أبو منصور ابن أبي القاسم بن مدرار (هكذا)، ولم يشركه في الإنفاق في بنائه أحد أنفق فيه مدى ألف مد طعاما»[37]. وإلى هذا السور يشير ابن أبي زرع في نطاق وصفه لحصار السلطان المريني أبي يوسف يعقوب للمدينة بقوله : «هتك المنجنيق من سور لها برج ومسافة فانهد البرج والمسافة فدخلها من هنالك عنوة بالسيف»[38]. ويظهر «أن بقايا السور البارزة اليوم بالموقع ترجع إلى عهود متأخرة، ومع ذلك فهي لا تختلف عن السور القديم في الشكل خاصة وأن هذا الأخير كان يتبع حافة الهضبة التي بنيت فوقها المدينة مما يزيد من تحصين المدينة أكثر»[39]. إلا أن هذه البقايا التي «تظهر حاليا في شمال غرب خراب مدينة سجلماسة لا تنتمي للسور الذي بناه اليسع عام 815م لأنه كان مشيدا من الطوب على أساس من الحجارة كما ورد عند البكري، أما البقايا الحالية فهي من التراب المبني بطريقة ما يسمى بـ«اللوح» وتعود للقرن 12م ومنها ما يرجع إلى القرنين 13 و14م»[40]. وفي المقابل يذهب أحد الباحثين إلى «أن بقايا سور سجلماسة مازالت موجودة على مسافة 3 كلم في اتجاه الجنوب وإلى جانبها آثار البساتين التي يرجح أنها كانت موجودة داخل سور المدينة. وكان هذا السور يتكون من جدارين ويظهر ذلك خاصة في الجهة الغربية للموقع حيث السور الأول خارجي وبدون أبراج وعلى بعد 7 أو 8 أمتار يوجد سور ثان يبلغ سمكه مترين وتتخلله أبراج لم يبق منها سوى برجا واحدا يتراوح ارتفاعه ما بين 6 و7 أمتار وتظهر على هذا السور معالم النقش الموريسكي»[41].

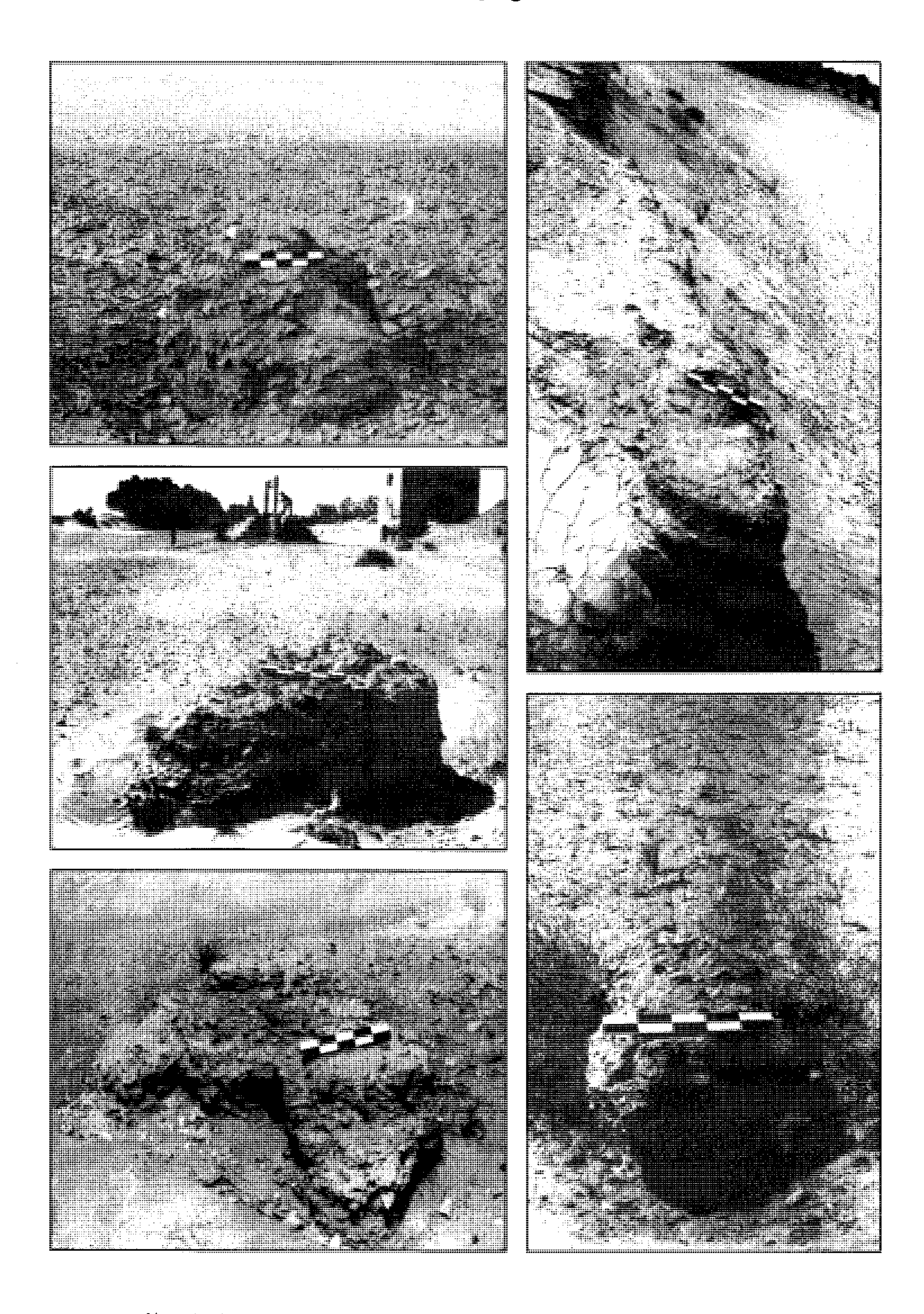
---

(38) ابن أبي زرع الفاسي (علي) : مصدر سابق (ص 312).

(39) Margat (J) : «Note sur la morphologie du site de Sijilmassa», op-cit (p 256).

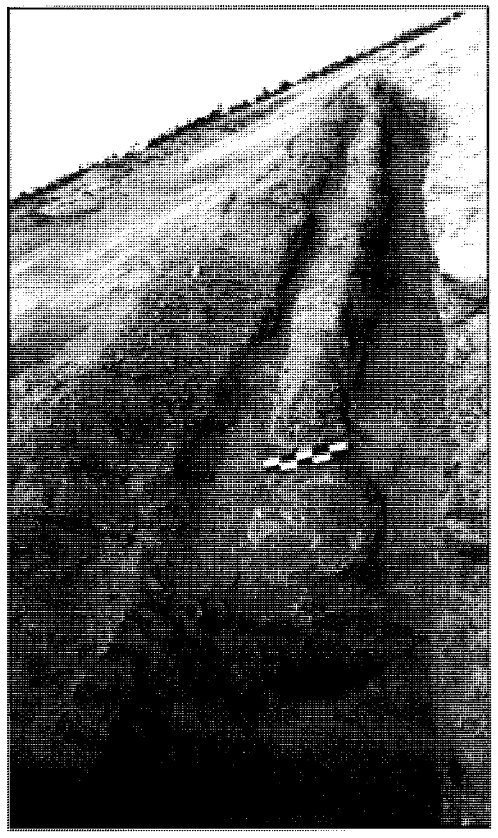
(40)Terrasse (H) : «Notes sur les ruines de Sijilmassa» op-cit (p 364).

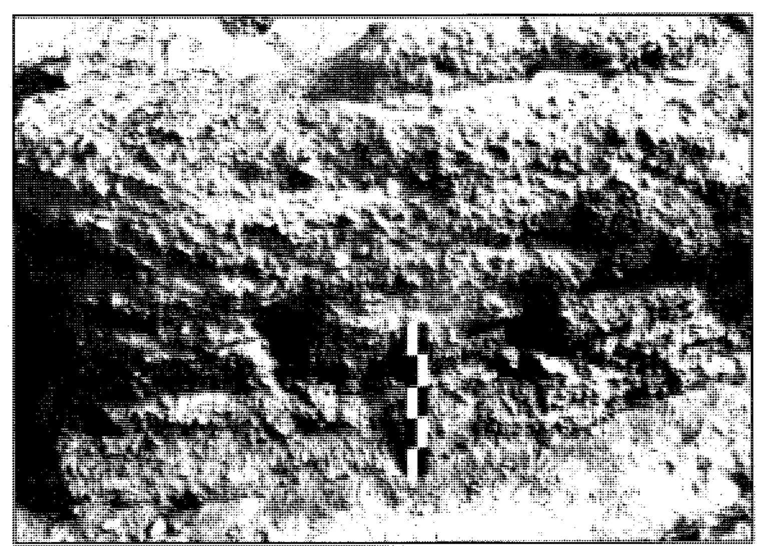
(41) Lessard (J.P) : op-cit (p 9).



الصورة 27 : موقع سجلماسة الأثري : البقايا الحالية للسور «الجزء الغربي»







الصورة 28 : موقع سجلماسة الأثري : البقايا الحالية للسور «الجزء الغربي»

ويذكر ابن الخطيب في رسالة له إلى الفقيه أبي عبد الله محمد الكتاني أن سجلماسة «قد استدار بها الأمر العجاب، والقطر الذي تحار في ساحته النجاب فضرب منه على عذارها الحجاب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب يحيط بها مرحلة... سورها حصين مشيد»[42]. مما يدل على التحصين القوي الذي كانت تحظى به المدينة.

كل هذه الأوصاف تدل على مدى النمو العمراني الذي بلغته «مدينة سجلماسة مع الإشارة إلى أن النصوص التي وصفت سور سجلماسة ترتبط بالفترة الزمنية الواقعة ما بين القرن الرابع والخامس الهجريين خاصة كتابات كل من المقدسي والبكري وما عداها اقتصر على جمع تلك المعلومات وإعادة تدوينها»[43]. ولاحظ اليوسي عند إقامته بسجلماسة قصد القراءة وجود «شجرة يقال لها الشجرة الخضراء مشهورة في تلك البلاد وفي سائر بلاد القبلة وهي... منفردة ليس معها شجر أصلا وكانت نابتة خارج سور المدينة الخالية بينه وبين النهر قبالة الرصيف الذي يعبر عليه لناحية الزلاميط ويقال أن ذلك باب من أبواب تلك المدينة»[44].

ويستنتج من هذه المعطيات التاريخية أن سجلماسة كانت بالفعل تتوفر على سور حصين منذ الفترة الأولى لتأسيسها من طرف عيسى بن يزيد، ثم تواصل بناؤه مع أبي القاسم سمكو ولم يكتمل إلا على يد الأمير القوي اليسع ما بين 199هـ / 815 م و208هـ / 823م. تشييد هذا السور كان من الأولويات الضرورية في العاصمة الفتية للإمارة الخارجية للاحتماء من الأخطار المفاجئة، وبما أن مثل هذا العمل الضخم يحتاج إلى يد عاملة مهمة وخاصة إلى أموال كثيرة، فلن تتمكن سجلماسة من التوفر عليه سوى في عهد الأمير

(42) ابن الخطيب (لسان الدين) : المصدر السابق (ص 180).

(43) حافظي علوي (حسن) : مرجع سابق (ص 108 - 109).

(44) اليوسي (الحسن أبو علي) : مصدر سابق، (ص 105).

اليسع المدراري. فقد استفاد هذا الأمير من تحكمه في تجارة القوافل وسيطرته على مجموع واحات الجنوب وأعطى لسجلماسة الصورة النهائية لمدينة كبيرة ومحصنة، فقام بإحاطتها بسور قوي شيد من الطابية على أساس من الحجارة كما يذكر البكري[45]. ويمكن أن تعود أسباب تحصين المدينة إلى تفادي تعرضها لغارات الرحل مثل مسوفة من صنهاجة الذين ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة[46].

مقاييس وحدود هذا السور الأول غير معروفة بدقة، بفعل الاضطرابات والحملات التي تعرضت لها المدينة، مما أدى إلى تخريب السور وإعادة بنائه عدة مرات، وبفعل أيضا غياب المعلومات التاريخية والأثرية. ورغم ذلك وحسب بعض البقايا المكتشفة أخيرا، يمكن القول إن هذا السور كان يحيط بالمدينة وكان يتكون من عدة أبراج وحوالي 12 بابا.

الجزء الظاهر حاليا على طول وادي زيز، يبلغ طوله أكثر من كيلومترين، وهو يعطي فكرة على أن مسافة سور المدينة يمكن أن تصل إلى ثماني كيلومترات، في حين يتراوح سمكه ما بين متر واحد و1,80 مترا، ومن الممكن أن يتجاوز علوه خمسة أمتار. ويشير محمد بن الحسن الوزان أن مدينة سجلماسة «كانت تحاط بسور عال لازالت بعض أجزائه ظاهرة إلى اليوم»[47].

وتظهر أجزاء السور التي تربط بين أبواب مدينة سجلماسة واضحة على الصور الجوية، كما تم تدقيقها بواسطة التحريات الميدانية، إذ تم الكشف عن جزأين طويلين لسور قديم على طول الضفة الشرقية لوادي غريس، وهو ما أشارت إليه أيضا الرواية الشفوية. ويظهر جزء آخر للسور يبلغ طوله ستة

---

(45) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق طبعة 1968 (ص 148).

(46) زنيبر (محمد) : مرجع سابق (ص 79).

(47) الوزان (محمد بن الحسن) : مصدر سابق. الجزء 2 (ص 126).

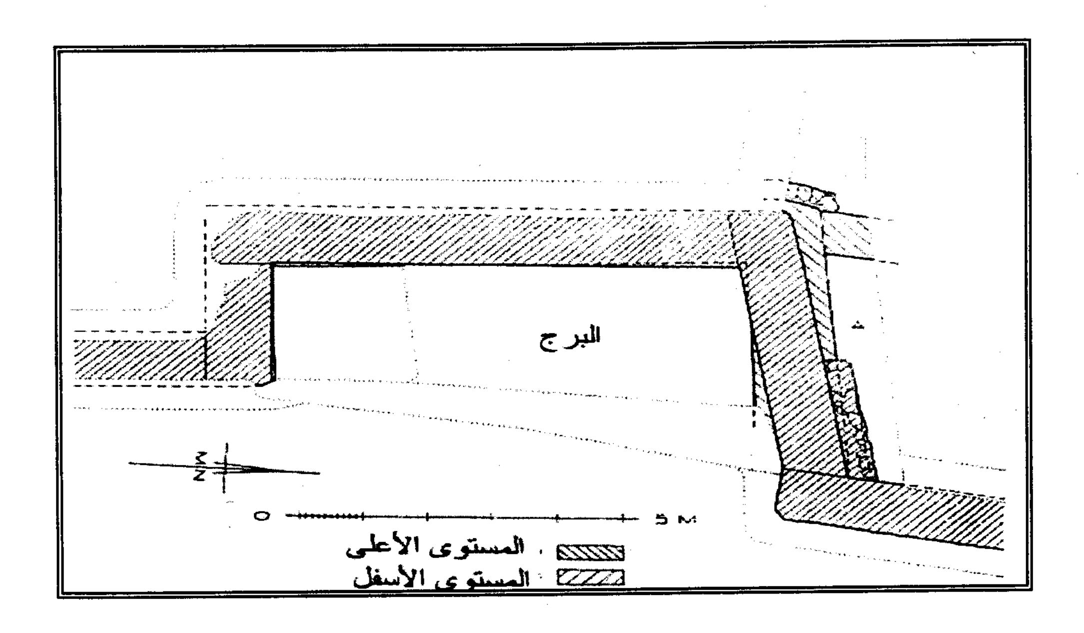
كيلومترات، جليا على الصور الجوية على طول الركن الجنوب الشرقي للواحة. ويمتد مجال الحقول التي يربط فيما بينها هذا السور على مساحة 115 كيلومتر مربع [11,50 x 10 كيلومتر].

ب) الأبراج والأبواب :

وتلعب دور المراقبة والاتصال في نفس الوقت وكانت ولا شك عديدة وتحتل خاصة الأماكن البارزة. اتخذت الأبراج بسجلماسة حسب بقايا أحدها المكتشفة، شكلا مستطيلا تبلغ مساحته 18م^2 ويصل علوه إلى حوالي سبعة أمتار. تقنية بناء الأبراج لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها المستعملة في تشييد السور [طابية ذات صلصال أحمر مختلطة بالحصى]. وغالبا ما توفرت الأبراج ربما على مدخل وعلى سلالم وغرف وفتحات للحراسة.

ويشير ابن أبي زرع إلى أحد أبراج سجلماسة في معرض حديثه عن المعارك الطاحنة التي دارت بين المرينيين والعبدواديين حول المدينة فيقول: «وفي شهر رجب من سنة 672هـ (1273م) المذكورة خرج أمير المسلمين يعقوب لغزو مدينة سجلماسة وكانت بيد يغمراسن بن زيان وعرب المنبات وكان يغمراسن يبعث إليها في كل سنة ولدا من أولاده لضبطها وجباية خراجها مع المنبات الذين قاموا بأمرها فسار أمير المسلمين يعقوب إليها في جيوش بني مرين وقبائل العرب فحاصرها وشرع في قتالها وضيق عليها وبالغ في حربها ونصب عليها المجانيق والرعادات وضاق أهلها من شدة الحصار والقتال فكانوا يصعدون على الأسوار فيسبون ويلعنون بالقبيح فهتك المنجنيق من سورها برجا ومسافة فأنهد البرج والمسافة فدخلها من هنالك عنوة بالسيف على عاملها عبد الملك ابن حنيفة العبد الوادي»[48].

(48) ابن أبي زرع الفاسي (علي) : مصدر سابق (ص 312).



التصميم 27 : موقع سجلماسة الأثري : بقايا بعض أبراج السور «الجزء الغربي»

كما تم العثور على برجين في حفريات 1990 وتم حفرهما لعمق حوالي خمسة أمتار. من جهتها قدمت حفريات البعثة المغربية الأمريكية معلومات هامة حول أبراج السور الغربي لسجلماسة. فقد كشفت الأسبار المنجزة داخل بعض الأبراج عن مستويين مختلفين في البناء ويقعان فوق مستوى سابق يمكن أن يؤرخ بالقرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أو القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

أما الأبواب في المدن الوسيطية فكان لها دور هام، مما جعل وظائفها تتعدد مع التطورات التاريخية ويمكن تلخيص هذه الوظائف خلال عهد الموحدين في خمسة[49] وهي : وظيفة مجالية حيث تحدد شبكة

(49) رابطة الدين : «باب»، **معلمة المغرب**، المجلد الرابع (ص 950 - 951).

الاتجاهات، على اعتبار أنها كانت تشكل نقط الاتصالات الوحيدة التي تربط بين المدينة وخارجها. وظيفة دينية وتبرز من خلال ثلاثة عناصر هي : المصلى... باب الشريعة، الاستسقاء والمقابر. وظيفة اقتصادية، إذ كانت الأبواب تؤدى بها المغارم وتخصص بعضها لأنشطة اقتصادية... ماله صلة بالحرف، ماله صلة بالفلاحة وماله صلة بالتجارة. وظيفة مخزنية وهي جملة الخدمات التي تلبي حاجيات المخزن وتكون فيها الأبواب ضرورية لتحقيقها [استقبالات رسمية، استعدادات عسكرية وإنزال بعض العقوبات]. ووظيفة الأمن وهدفها حماية المدينة من التهديدات التي قد تأتي من الخارج، وفي نفس الوقت منع المتابعين في الداخل من الفرار.

ويرى أحد الباحثين أن الباب عامة وخاصة بالمناطق النائية، لم يحظ بالاهتمام الكافي حيث «لم تنكب الدراسات المتوفرة في غالب الأحيان إلا على المدن والحواضر المغربية الكبيرة، أما المدن التاريخية الثانوية وبصفة أشمل البوادي، فلم تدرس بعد مع أن أبواب الدور ومداخل المداشر المنتشرة في الجبال المغربية وخاصة بجبال الأطلس الكبير والصغير وفي الواحات مثلا تشكل في حد ذاتها تحفا فنية رائعة»[50].

وكان لسور سجلماسة عدد كبير من الأبواب اختلفت المصادر في تحديد عددها... ويرجح أن تكون أبواب هذه المدينة موزعة على كل الجهات كما هو الحال في غيرها من مدن المغرب حتى تسهل مأمورية خروج القوافل نحو مقاصدها. وربما إلى هذا يشير القلقشندي بقوله : «من أي باب منها خرجت ترى النهر والنخيل وغير ذلك من الشجر»[51]. وكان يطلق على هذه الأبواب أسماء «اتجاهات الطرق التي تخرج منها... أو اسم محلي للدلالة

---

(50) توري (عبد العزيز) : «باب»، **معلمة المغرب**، المجلد الرابع (ص 945 - 946).

(51) القلقشندي (أبو العباس أحمد) : مصدر سابق، الجزء 5 (ص 164).

على شكل أو النشاط الذي كان يمارس في ذلك المكان بل في بعض المدن اسم الباب هو صفة لذلك الباب»[52].

ويعتبر المقدسي الوحيد من الكتاب القدامى الذي أورد أسماء بعض أبواب سجلماسية مشيرا إلى : «أن بسجلماسة الباب القبلي، والباب الغربي، وباب غدير الجزارين، وباب موقف زناتة وغيرها»[53]. ويمكن تحديد موقع هذه الأبواب اعتمادا على أسمائها : فالباب القبلي «كان يقع في الجهة الجنوبية للمدينة كما يظهر من تسميته وبناء على ذلك فإنه الباب الذي تخرج منه القوافل في اتجاه بلاد السودان مرورا ببعض مناطق درعة الأسفل. أما الباب الغربي فهو مخرج القوافل المتجهة نحو المناطق الجنوبية الغربية للمغرب بما فيها درعة الأوسط وأغمات ومراكش. وأما الباب الثالث فيرجح أنه اتخذ تسميته من وجود مجزرة لأن تسمية غدير الجزارين توحي بذلك. أما الباب الرابع والأخير الذي يحمل اسم باب موقف زناتة فيحتمل أنه كان أهم الأبواب كما يفترض أن يكون أجملها لأنه يحمل اسم القبيلة التي تنتمي إليها مكناسة مؤسسة المدينة وهي قبيلة زناتة»[54].

ويذكر البكري أن سور سجلماسة كانت له اثنا عشر بابا منها ثمانية حديد[55]. كما ذكر ابن أبي زرع اسما أخر لأحد أبواب سجلماسة خلال العهد المريني يدعى باب تاخنسيت حيث يقول : «وفي سنة 655 هـ/ 7521م ملك الأمير أبو بكر مدينة سجلماسة ودرعة وكانتا للمرتضى فطمع فيهما يغمراسن وسار نحوهما في جيش كثيف من بني عبد الواد والعرب فاتصل

---

(52) المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة والأشغال الطبوغرافية : المرجع السابق (ص 128).

(53) المقدسي (أبو عبد الله محمد) : مصدر سابق (ص 231).

(54) حافظي علوي (حسن) : مرجع سابق (ص 107).

(55) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق طبعة 1992 (ص 836).

خبر مسيره إليها بالأمير أبي بكر وهو بمدينة فاس فجمع عساكر مرين وجد السير إلى سجلماسة فوجد يغمراسن قد نزل بخارجها من باب تاخنسيت فكانت بينهما حروب عظيمة»[56] وجاء عند صاحب الاستقصا تحت اسم تاحسنت[57].

وحاولت الدراسة الطبوغرافية التي أنجزتها البعثة المغربية الأمريكية سنة 1994 تحديد مواقع أبواب سجلماسة، وتوصلت إلى أن المدينة كانت تتوفر على أربعة أبواب رئيسية هي : باب الساحل من الشرق قرب قصر أمسيفي، باب القبلة أو الجنوب ويقع بين قصري وطارة وكَاوز، الباب الغربي يوجد قرب ضريح مولاي عبد المؤمن وباب فاس بالشمال قرب قصر المنصورية.

مع الأسف، لا نعرف الكثير عن هندسة هذه المداخل ولا عن مقاييسها، فهل يمكن مقارنتها بما وجد بالمدن الأخرى مثل فاس ومراكش أو بما يوجد حاليا بالقصور الفيلالية ؟ هل يمكن أيضا اعتبار آثار ما تبقى من ثلاثة أبواب بشمال الموقع أنها تنتمي إلى أبواب سجلماسة ؟ هذه الأبواب الثلاثة عرفت عدة إصلاحات متأخرة، ربما على عهد السلطان مولاي إسماعيل ومع ذلك فهي لا زالت تحتفظ ببعض الأشكال الهندسية الأولى وهي تشبه في ذلك أبواب شالة والوداية بالرباط والتي يمكن تأريخها بالقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

الرواية الشفوية تؤكد هذا الطرح وتقول أن هذه الأبواب شيدت من طرف السلطان الأكحل، أبي الحسن المريني خلال حصاره لأخيه أبي علي سنة 731هـ / 1331م. ولظروف أمنية، كان الدخول إلى مدينة سجلماسة من هذه

(56) ابن أبي زرع الفاسي (علي) : المصدر السابق (ص 296) ربما اشتق اسم قصر أخنوس الحالي من هذا الاسم.

(57) الناصري (أبو العباس أحمد) : مصدر سابق، الجزء 3 (ص 18)، ربما أن اسم قصر تاحسنونت الحالي مشتق من هذا الاسم.

الناحية أي الشمال، يتطلب المرور عبر الحصن الذي يتحكم في الأبواب الثلاثة، ويؤدي إلى بابين ورواق يبلغ طوله خمسين مترا الذي يفضي بدوره إلى الباب الرئيسي المسمى حاليا باب الريح أو باب فاس. «الباب ذا العطف الواحد ظهر بالمغرب كما بالأندلس، في القرن الخامس (11م)، بينما تعددت الإلتواءات ابتداء من القرن السادس. وقد صاحب هذا النموذج الأخير ظهور قسم مكشوف من الدهليز اعتبر بمثابة تطور حقيقي يهدف إلى تقوية الدفاع إذ يمكن من رمي المهاجمين من الأعلى في حالة اختراقهم للباب واجتيازهم للقسم الأول من المدخل...»[58].

ويتكون الباب من قوس مزين بعقود صغيرة يعلوها إفريز من المثلثات الأفقية المحفرة. وشيد أساس هذا الباب من الحجارة وتم تبليطه بالكلس، بينما بنيت بقية الباب بالآجر والطوب. يصل علو الباب إلى حوالي 5,50 أمتار. وهو «باب كبير ظل وحده صامدا والذي حسب المقارنة كان يحاط ببرجين ضخمين. وراء هذا الباب توجد بقايا بهو يؤدي إلى القصبة (المدينة)»[59].

II- المرافق الخاصة :

1- الدور السكنية :

تمثل المنازل أهم المرافق الاجتماعية بالمدينة الإسلامية فهي الملجأ اليومي للإنسان حيث يجد أمنه وحرمته وتغذيته كما أنها المعبر الظاهري عن الهوية والتقاليد المكتسبة. وتظهر المنازل في تصميم معظم المدن الإسلامية موافقة «لجو البلاد والعادات فكانت حرمة الدار مكفولة ومن خارج الدار لا يستطيع رؤية من بداخله وكانت معظم البيوت تتكون من سقيفة وحديقة...

---

(58) توري (عبد العزيز) : المرجع السابق (ص 946).

(59) Jacques-Meunié (D) : op-cit (p 141).

وكانت المشربيات أهم ما يزين واجهات البيوت والقصور وهي تلطف شدة الضوء وتدخل الهواء وتمكن النساء من رؤية ما يحدث في الخارج دون أن يراهن أحد وكانت النوافذ المتسعة في القاعات تطل على صحن الدار، أما النوافذ المطلة على الشارع فكانت صغيرة ومرتفعة»[60].

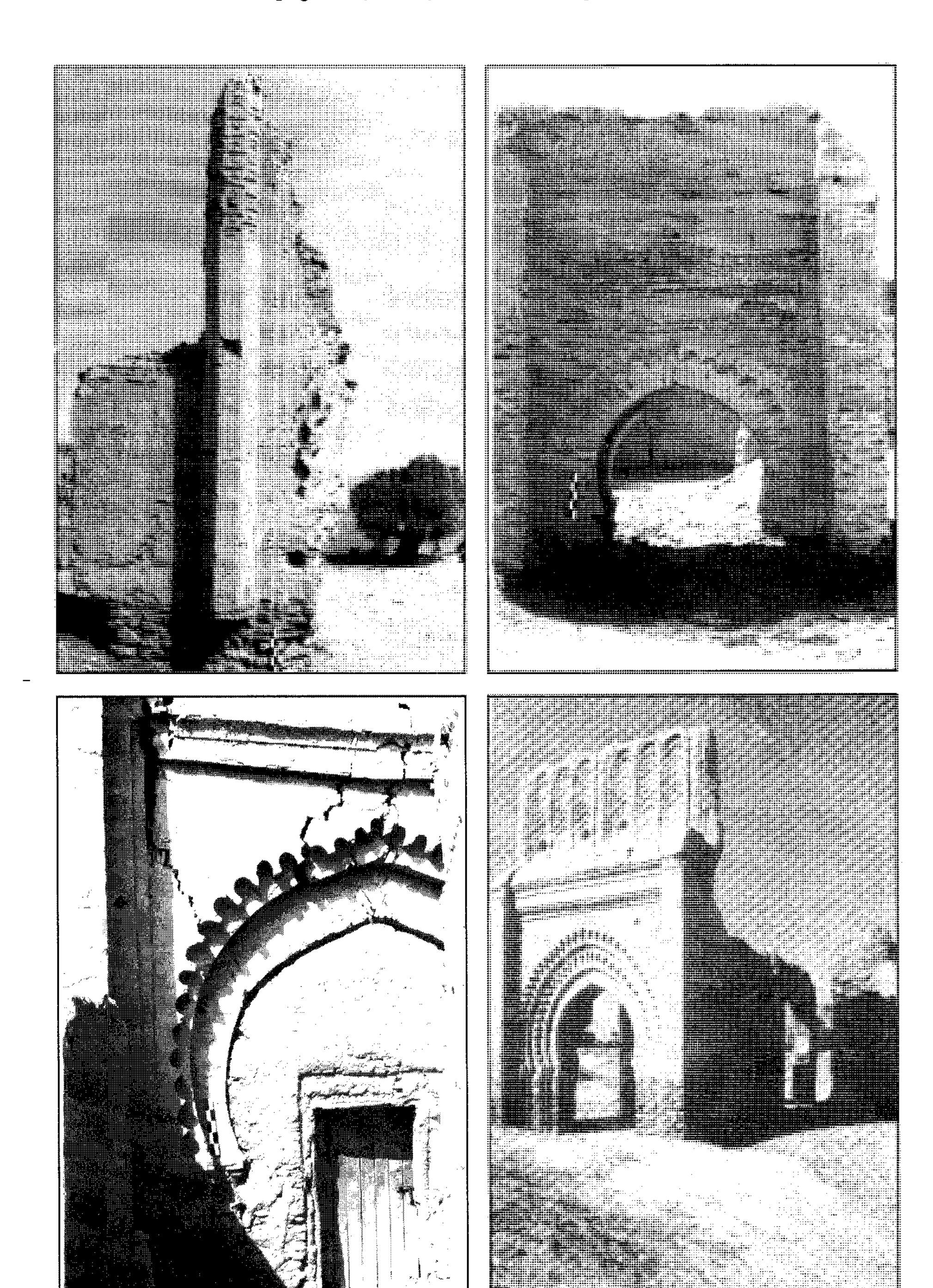
يرتبط نمط تنظيم السكن أساسا بالبنية السياسية والاقتصادية للساكنة ويمكن تفسير أشكال وأنماط بناء المنازل حسب العوامل البيئية من مناخ وتضاريس وطبيعة التربة والمواد المتوفرة وحسب التطور التقني وثقافة كل مجموعة سكنية.

ففي المناطق الحارة والجافة مثل سجلماسة، تلعب المواد الطينية المحلية دورا فعالا في تكييف الهواء وكذا التأثير في تشكيلة المنزل التي تظل مغلقة على نفسها وقليلة الفتحات. كما أن تجمع المرافق يقلل من شدة الحرارة فضلا عن اتجاه البنايات إلى استغلال المساكن تحت أرضية والفتحات العمودية «عين الدار، والصحن المكشوف» ويمكن تلخيص أهم مميزات المنازل المشيدة من الطابية في تحصين جدرانها، وفي رغبتها الأكيدة إلى المحافظة على الوقار وفي الاقتصاد في المواد المستعملة.

ويظل مع الأسف، التنظيم المعماري للمنزل السجلماسي مجهولا بسبب ندرة المعلومات التاريخية والأثرية، لذلك اختلفت الآراء.حول طبيعة هذا المنزل والتي يمكن تصنيفها إلى طرحين :

الطرح الأول يصف سجلماسة كمدينة منظمة على شكل قصور متفرقة داخل وخارج السور، وهو بذلك يرى المدينة اعتمادا على الحالة الراهنة لمعمار تافيلالت. ويؤيد هذا الطرح قول أبي حامد الأندلسي بأن سجلماسة

(60) محمود وصفي (محمد) : المرجع السابق (ص 36 - 35).



الصورة 29 : موقع سجلماسة الأثري :

بقايا الباب الشمالي «باب فاس أو باب الريح»

كانت محاطة بمساكن محصنة[61]. كما يذكر ابن بطوطة الذي زار المدينة خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، أن كل قاطن بسجلماسة كان يتوفر على دار وبستان في وسط المدينة كما هو الشأن بالمدن الصينية[62].

الطرح الثاني يعتبر أن سجلماسة كانت مدينة موحدة وكبيرة يحيط بها سور وتتوفر على دور جميلة تنتظم حول شرايين المواصلات. ويشير البكري في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي إلى أن «بداخل [المدينة] نرى منازل جميلة ومباني سامية»[63]. ووصفها الحميري بقوله : «وهي قصور وديار وعمارات متصلة»[64]. في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، قدم محمد بن الحسن الوزان وصفا ضافيا عن سجلماسة اعتمادا على الروايات الشفوية المحلية، إذ يشير إلى أن سجلماسة كانت مدينة متحضرة جدا، ودورها جميلة[65].

ويمكن القول إن سجلماسة، وفقا لما جاءت به هذه الكتابات القليلة من معلومات ووفقا للظروف التاريخية التي مرت منها المدينة، كانت حاضرة مقسمة إلى أحياء سكنية ومنازل تتوزع حسب تنظيم الشوارع والأزقة من جهة، وعدد السكان من جهة ثانية، والانتماء القبلي أو المكانة الاقتصادية والاجتماعية من جهة ثالثة.

وقد اختلفت طرق بناء الدور السكنية من مدينة إلى أخرى وذلك حسب الإمكانيات والظروف الطبيعية المحيطة بها. فأحيانا تكون طريقة البناء

(61) Fagnan (E) : op-cit (p 28).

(62) ابن بطوطة (أبو عبد الله شمس الدين) : مصدر سابق، الجزء 4 (ص 239).

(63) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر سابق. طبعة 1968 (ص 148).

(64) الحميري (ابن عبد المنعم) : مصدر سابق (ص 305).

(65) الوزان (محمد بن الحسن) : مصدر سابق. الجزء 2 (ص 127).

متشابهة بين بعض المدن كما هو الشأن في تشابه أبنية سجلماسة بمساكن الكوفة. وفي هذا يقول ابن حوقل : «وأبنيتها ـ ويعني سجلماسة ـ كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية»[66]. ومن المرجح أن هذا التشابه «يرجع إلى وجود كثير من التجار الوافدين من الكوفة وغيرها من مدن المشرق وإقامتهم بسجلماسة للإشراف على تجارتهم مع غانة وغيرها ومن هنا نقلوا معهم نظامهم في البناء»[67].

وتوصلت البعثة الأمريكية خلال موسم 1998 في الاستبار 55 إلى الكشف عن تشكيلات معمارية هامة تتشكل من قاعدة جدران بناية زينت بعض واجهاتها بزخارف جصية ذات أشكال هندسية ونباتية. وبنيت الجدران بالطابية المبلطة وبالآجر وبالحجارة، كما تم العثور بأحد الأركان على جرة كبيرة كانت مخصصة لحفظ المواد الغذائية وعلى أنقاض أرضية اعتمد في تهيئتها على الجير والحصى، بينما تشكلت أرضية أخرى مجاورة من أحجار مسطحة. القطع الخزفية المكتشفة بهذا الاستبار هي من النوع السجلماسي الذي يمكن تأريخه ما بين القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي والثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وهي ذات استعمال منزلي. كما اكتشفت بهذا الاستبار بعض الحلي وكميات كبيرة من العظام الحيوانية. وتدل هذه المكتشفات ونوعية التشكيلة المعمارية، أن هذا الاستبار ربما كان يحتضن دورا سكنية من الطراز المريني.

وبالرجوع إلى مقارنة السكن السجلماسي مع مثيله بالقصور الحالية بتافيلالت، يعتقد أنه من غير المستبعد أن تطرأ تغيرات جدرية في تصميم المنزل بعد اندثار سجلماسة، حيث احتفظت القصور التي ورثتها بنفس

---

(66) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) : مصدر سابق (ص 90).
(67) علي حسن (حسن) : مرجع سابق (ص 390 – 193).

التصميم الذي ساد خاصة في العهدين المريني والسعدي والذي يتميز بالخصوصيات التالية :

– وجود ساحة داخلية أو بهو مستطيل تحيط به غالبا أروقة مكشوفة ذات أعمدة دقيقة وتنفتح عليها قاعات مستطيلة،

– وجود قاعات مستطيلة الشكل «قباب» في كل الجهات الأربع للصحن تتوفر على باب كبير نقش إطاره وتعلوه شمسية مفرغة وعلى جانبيه النوافذ،

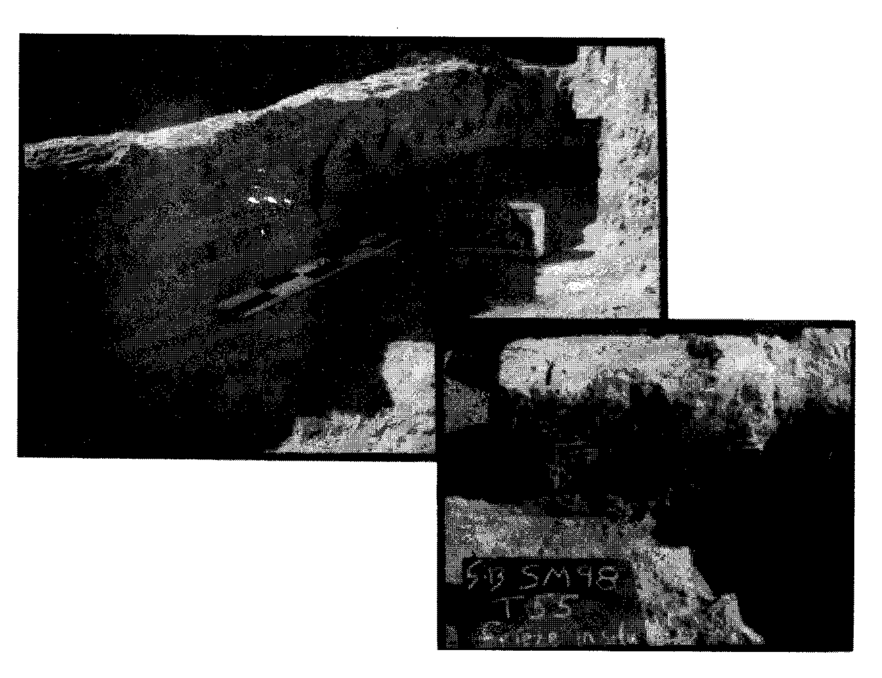
– الإسراف في الزخارف والنقوش ووجود طابقين،

– استخدام الجص والسقوف الخشبية المصبوغة والأقواس واعتماد الزليج،

– وجود أروقة مغطاة وملتوية،

– وجود البستان أو الرياض،

– وجود الحمام.



الصورة 30 : موقع سجلماسة الأثري : نموذجان من الزخرفة الجصية

2. التجهيزات الاقتصادية :

أ) وسائل الري :

يلعب الماء الدور الأساسي في حياة السكان بالمناطق التي يغلب على مناخها طابع الجفاف، وتعرف قلة التساقطات طيلة معظم فصول السنة. وقد شهدت التقنيات المائية تطورا كبيرا في مجتمع الواحات ومن ضمنها سجلماسة، لأن ندرة الماء بهذه المناطق تدفع الفلاح إلى البحث عن سبل ووسائل تضمن له ممارسة نشاطه الزراعي بطريقة مستمرة، فنتج عن ذلك تعدد طرق رفع الماء من باطن الأرض واستغلال المياه السطحية.

وإذا كانت المصادر لا تفصح عن التقنيات المائية السائدة في سجلماسة، نظرا لتركز اهتمامها على الأحداث السياسية للمدينة، فإن كتاب وصف إفريقيا لمحمد بن الحسن الوزان يخرج عن هذه القاعدة وينفرد بذكر بعض الوسائل المستعملة في المدينة لرفع الماء : «كانت سجلماسة مدينة متحضرة جدا، ودورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع السودان وكان فيها مساجد ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر تأخذه ناعورات من وادي زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة»[68].

من خلال هذه الإشارة، يتضح أن المزود الرئيسي لمدينة سجلماسة بالماء هو الوادي الذي كانت مياهه تحمل وتوزع بشكل منظم وبتقنية متطورة تجعل كل المنشآت العمرانية بالرغم من اختلاف وظائفها، تستفيد من نصيبها من الماء. وقد عثر «بالقرب من وادي الشرفاء شمال خراب سجلماسة على أثار برجين ترتفع بقاياهما عن مستوى سطح الأرض بحوالي مترين ونصف وبالقرب منهما آثار نافورة كانت تأتيها المياه عبر قادوس من

(68) الوزان (محمد بن الحسن) : المصدر السابق، الجزء 2 (ص 127).

الوادي وبالقرب من النافورة توجد آثار حمام مستعمل منذ القديم وقد عثر على بقايا الرماد بمكانه»[69].

لم تقتصر تقنيات رفع الماء بسجلماسة على الناعورة بل كانت هناك تقنية أخرى لاستخراج المياه الباطنية وتتعلق بالخطارة. فالمؤكد حسب الوثائق التاريخية، أن هذا النظام (الخطارة) كان موجودا من قبل في الحجاز وإيران وأرمينيا وتوات وتافيلالت. كان الطوارق يسمونه «أفلي» والأمازيغ «أفري»... وكانت الخطارة تطلق في الأندلس على عملية رفع الماء من الوادي بواسطة آلة رافعة أو عجلة أو أرجوحة...ويتراوح طول الخطارة بمراكش بين 500م و5 كلم وقد تصل آبارها المفتوحة للترميم والصيانة إلى 300 بئر يبعد الواحد عن الأخر بحوالي 10 إلى 20م»[70]. وليس من المستبعد أن تكون الآبار قد شكلت عنصرا أساسيا في تزويد المرافق السجلماسية خصوصا المنازل والمساجد بحاجياتها من المياه، إذ أشار الوزان إلى وجود هذه الآبار بقوله «وكثيرا ما يجف النهر في هذا الفصل من السنة ويقل الماء جدا بحيث لا يجدون غير الماء المالح المستخرج من الآبار المحفورة باليد»[71]. وكانت تستخرج المياه من الآبار بواسطة وسيلة أغرور المتميزة ببساطة أدواتها وبمردوديتها غير المكلفة.

إن الظروف المناخية القاسية التي عرفتها مدينة سجلماسة، وخاصة قلة التساقطات بفعل موقعها شبه الصحراوي، جعلتها تعتمد في زراعتها على استصلاح الأراضي الصالحة والسقي بمياه واديي زيز وغريس. وفي هذا الجانب، يذكر البكري «وشرب زرعهم من النهر في حياض كحياض

(69) Bassac : op-cit (p 463).

(70) جلاب (حسن) : مرجع سابق (ص 78).

(71) الوزان (محمد بن الحسن) : المصدر السابق، الجزء 2 (ص 126).

البساتين»[72]. ونظرا لما لهذا الوادي من دور أساسي في الزراعة بالمنطقة فإن الفلاح اضطر إلى شق عدة قنوات وسواقي تحمل مياه الوادي نحو الحقول والبساتين.

وكانت الزراعة بسجلماسة تتم في حقول صغيرة [جمامن، مفرد جمون]، ويحرص الفلاح - تلبية لرغبات وحاجيات السكان المختلفة والمتنوعة - على الاستفادة إلى حد أقصى من أرضه سواء بالاعتماد على دورة زراعية أو من خلال القيام بزرع وغرس أكثر من محصول في وقت واحد. لذلك عرفت سجلماسة أنواع متعددة من المحاصيل والثمار، «وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه»[73]. إلى جانب الزراعة كان السجلماسيون يعتمدون على تربية المواشي ومن أهمها الأبقار، والأغنام، والإبل، والخيول وغيرها.

ب) السوق أو الأسواق :

يمثل السوق فضاء عمرانيا مهما بالمدينة الإسلامية، فهو المركز النشيط في المبادلات التجارية للمنتجات المحلية والمستوردة. لذلك يحتل السوق مكانا وسطا في المدينة بالقرب من المسجد الجامع ودار الإمارة ويمكن أن يتخذ له كذلك إمتدادات في مختلف الأحياء والأزقة. يطبع الصورة المورفولوجية للسوق توزيع المحلات التجارية حسب الأنواع : فقرب المسجد توجد محلات بيع الكتب من مخطوطات ومطبوعات ومجلدات، تليها محلات الحلي ومصنوعات النسيج والصنائع الجلدية، بينما تحتل دكاكين الحدادة والدباغة والخرازة المرتبطة بتجارة الدواب، قرب أبواب المدينة. السوق يتم تأسيسه من طرف حاكم المدينة ويتم مراقبته من طرف المحتسب بتعاون مع أمين الأمناء ويكون مقسما إلى عدة أماكن حسب

(72) البكري (أبو عبيد الله) : مصدر السابق، طبعة 1992، الجزء 2 (ص 835).
(73) البكري (أبو عبيد الله) : نفس المصدر ونفس الصفحة.

طبيعة السلع المتبادلة وحسب المساحة المخصصة لكل بائع، وقد يتكون السوق أحيانامن عدة حوانيت وقيساريات متخصصة.

اعتبارا للدور الهام الذي قامت به سجلماسة كمحطة أساسية في تجارة القوافل الصحراوية، يمكن القول إن مجالا كبيرا من التصميم المعماري للمدينة خصص لاحتواء الأنشطة التجارية. مع الأسف تظل المعلومات التاريخية جد محدودة عن موقع سوق سجلماسة وعن وظائفه المتعددة وعن مكوناته المعمارية. فسجلماسة كانت ولا شك تتوفر على عدة أسواق منها الخاص فقط للغنم والماعز وخاصة للإبل، ومنها سوق للمواد الغذائية، وربما أخر للمنتجات المصنعة،... كما يمكن الإشارة إلى أن بعض الصنائع مثل الخزف والجلد والنسيج تباع منتجاتها في عين المكان.

ويعتبر سوق ابن عقلة الذي يقع على بعد حوالي 6 كيلومترات غرب مدينة سجلماسة والذي كشفت عنه الرواية الشفوية وكذا التحريات الأثرية أهم سوق بالمنطقة، إذ كان بمثابة المحطة التجارية الأساسية للقوافل الآتية إلى سجلماسة من بلاد السودان أو الذاهبة منها نحو هذه البلاد. ويظهر من البقايا الأثرية البارزة على السطح أن هذا السوق كان يتوفر على كل المستلزمات الضرورية من حوانيت وأزقة. ومن المتوقع أن تكشف الحفريات المقبلة للبعثة المغربية الأمريكية عن الخصوصيات المعمارية لهذا السوق وعن وظائفه المختلفة.

وتجدر الإشارة إلى مرافق أخرى ترتبط بالسوق، بالرغم من كونها أقرب ما تشبه المنازل وهي الوكالات والفنادق التي كانت بمثابة دور يكتريها التجار لقضاء بعض الوقت في انتظار بيع بضائعهم أو متابعة سفرهم نحو بقاع أخرى. وكان الفندق «يقسم إلى عدة أمكنة، فهناك مكان للنوم والراحة وأخر لعقد الصلات التجارية من عقود وبيوع وغيرها»[74]. وكانت الفنادق

(74) علي حسن (حسن) : مرجع سابق (ص 404).

تشيد كمأوى للتجار والمسافرين والقوافل وغالبا ما تتألف من فناء أوسط مستطيل تحيط به حجرات. وتسمى أحيانا هذه البناية بالوكالة وتمتاز «بمدخلها الضخم الذي تعلوه العقود وتحف به الأبراج»[75].

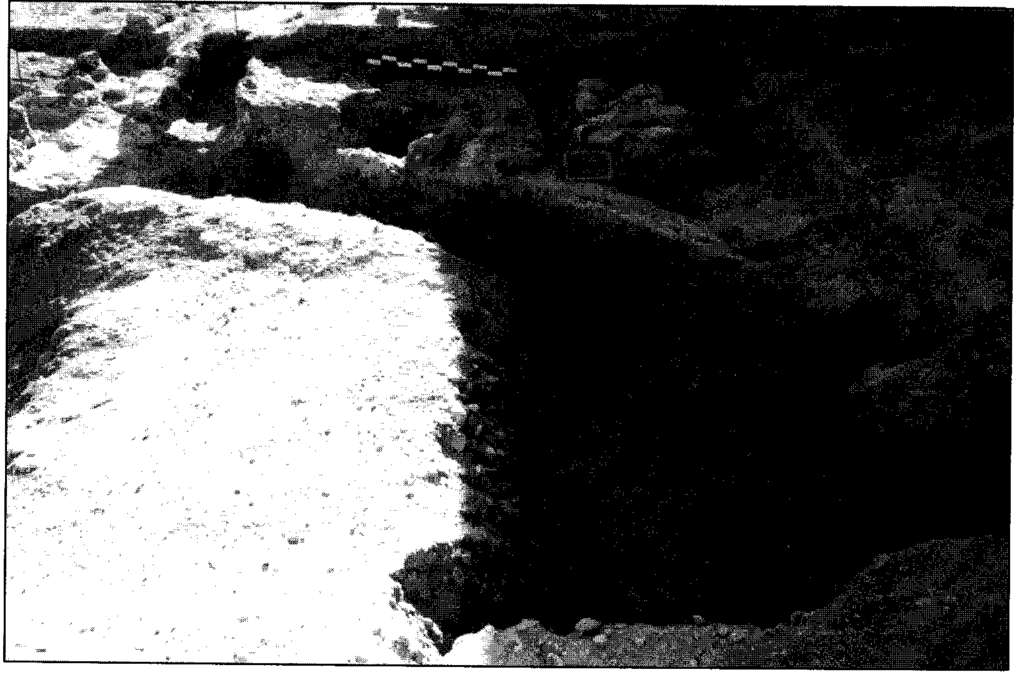
وكانت هذه المؤسسات تؤمن كل مستلزمات توفير الراحة والاستقرار للتجار مثل الحمامات والمخازن وحظائر الدواب وغيرهما. «وهناك فروق جوهرية بين الفنادق المشيدة وسط المدن التي كانت تقدم خدماتها بأجر بوصفها أماكن ذات طابع تجاري خالص وبين خانات القوافل المبنية في طرق الصحراء أو بين المدن بوصفها محاط لتوقف قوافل التجارة تقدم خدماتها بلا مقابل... (فضلا عن) اختلافات كبيرة في تصميم البناء وفي زخرفته»[76].

ج) المراكز الإنتاجية :

تعتبر هذه التجهيزات ضرورية في كل مدينة، فهي التي تلبي حاجيات السكان من المواد المصنعة وهي التي تدل على مستوى النمو الاقتصادي للمدينة. يرتبط موضع هذه المراكز بطبيعة إنتاجها: فتلك المسببة للصداع أو التلوث، غالبا ما تستقر في أماكن بعيدة عن الأحياء السكنية، بينما توجد الأقل خطورة منها في كل مكان. «لقد اعتبر الدخان الضار والرائحة الكريهة والصوت المزعج ثلاثة مظاهر تسبب الضرر للآخرين، إذا زاد عن الحد المحتمل الذي قدرته الأحكام الفقهية، وتطبيقا لمنع هذا الضرر في تخطيط المدينة الناشئة وجب إبعاد المنشآت التي تسبب في ذلك، كأفران الفخار والجير والمدابغ والصناعات التي تصدر صوتا مزعجا، عن الوحدات السكنية التي تشغل القطاع الأكبر من حيز المدينة»[77].

---

(75) محمود وصفي (محمد) : مرجع سابق (ص 43).
(76) عكاشة (ثروت) : مرجع سابق (ص 75).
(77) عبد الستار عثمان (محمد) : المرجع السابق (ص 330).



الصورة 31 : موقع سجلماسة الأثري : بعض الأحواض المكتشفة

كانت سجلماسة، باعتبار أنشطتها التجارية ومراقبتها للمناجم المعدنية بالمناطق المجاورة وبفضل تنوع منتجاتها الفلاحية، تتوفر ولا شك على عدد كبير من الصنائع [النسيجية، والخزفية، والجلدية وغيرها]. موضع ووظيفة هذه المعامل يظلان غير معروفين لحد الآن ومع ذلك فلا يمكن أن يخرجا عن القاعدة الإسلامية، ذلك أن مراكز إنتاج المواد الثمينة كالحلي مثلا تحتل مكانا بارزا قرب وسط المدينة، وعلى العكس من ذلك تتركز المعامل ذات الدخان الكثيف والصداع والروائح الكريهة بعيدا وفي الغالب خارج الأسوار.

أهم صناعة يمكن أن تقدم معطيات قيمة عن صنائع سجلماسة، هي الصناعة الخزفية، ذلك أن الخزف يعتبر المادة الأساسية التي بواسطتها يمكن الكشف عن خبايا حضارة منطقة معينة والتحقق من تاريخها وذلك للاعتبارات التالية :

• فالخزف هو من أهم المؤشرات التاريخية التي يعتمد عليها الباحثون في تحقيب البقايا الأثرية سواء كانت منزلا أو سورا أو مقبرة أو مركزا للصنائع... إلى آخره.

• ويعتبر الخزف كذلك شاهد عيان عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لحضارة ما. من خلال دراسة التقنيات المستعملة في الفخار، يمكن التعرف على نوعية المعيشة التي تميز كل تجمع سكني، وكذا حركات الإنسان اليومية داخل المنزل خاصة وداخل المجال الحضري على العموم. كما يمكن معرفة الوضعية الاقتصادية لمجتمع ما وبالتالي درجة الفقر أو الترف التي كان يعيش فيها، ويمكن أيضا من ضبط حجم الحركة التجارية بين مختلف المدن والمناطق.

• وبدراسة الخزف ومراكز صنعه، يمكن الكشف عن التقنيات الصناعية العتيقة ومدى تطورها في مكان وزمان معينين.

• ويساهم الخزف كذلك في إغناء المعرفة حول الجوانب الفكرية والتراثية وخاصة الإثنوغرافية لسكان منطقة ما وذلك من خلال دراسة مختلف الاستعمالات الثقافية للفخار.

وإذا كان الكتاب القدامى قد اهتموا بالأحداث السياسية والعسكرية وأحيانا ببعض المبادلات التجارية التي عرفتها سجلماسة، فقد التزموا الصمت الكامل حول الخزف السجلماسي ودوره في الاقتصاد المحلي وفي التجارة الصحراوية. هذا السكوت يلاحظ حتى على أولئك الذين زاروا المدينة كابن حوقل وابن بطوطة ومحمد بن الحسن الوزان وغيرهم، إذ لا توجد ولو إشارة واحدة عن تمركز الصناعة الخزفية بمدينة سجلماسة أو على الأقل عن وجود سلع فخارية في تجارة القوافل بين هذه المدينة والضفة الجنوبية للصحراء. «إن المصادر العربية لا تذكر بتاتا الخزف كبضاعة تمثل جزءا من التجارة الصحراوية، وإن هذه البضاعة لم تسترع انتباه الرحالة كما استرعتهم بعض المنتجات الأخرى مثل الأقمشة والأواني النحاسية»[78].

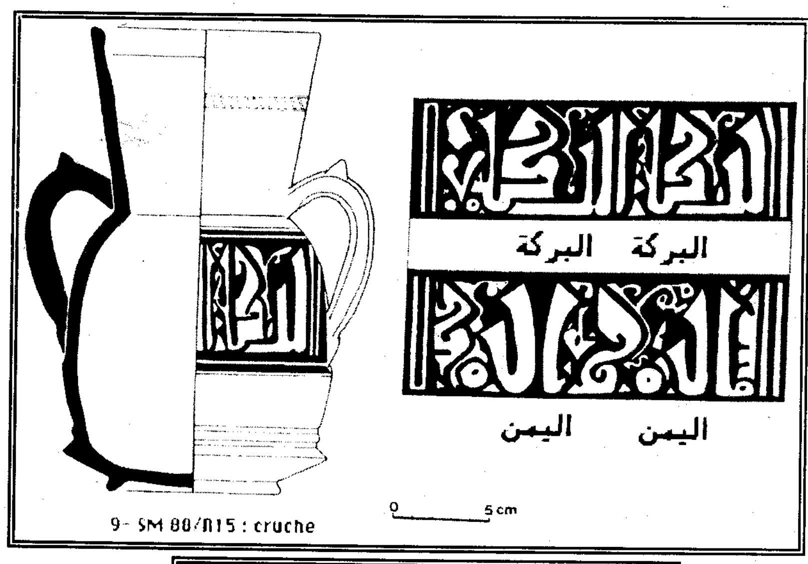
وبما أن صناعة الخزف من الصنائع الوسخة والملوثة بدخانها، اضطر الممتهنون لها بإنشاء مراكزها وأفرانها بعيدا عن المباني السكنية والمرافق العمومية وفي موضع يتناسب مع اتجاه الرياح. وبالفعل دلت الأبحاث الميدانية أن هذه الصناعة اختارت لها موقعا يبعد عن الوسط الحضري لسجلماسة بحوالي ست كيلومترات إلى الغرب وفي مكان ـ يطلق عليه اسم سوق ابن عقلة ـ يأخذ بعين الاعتبار اتجاه الرياح الشمالية ـ الشرقية والجنوبية ـ الغربية والجنوبية ـ الشرقية، ويتوفر على كل المواصفات الخاصة بالإنتاج

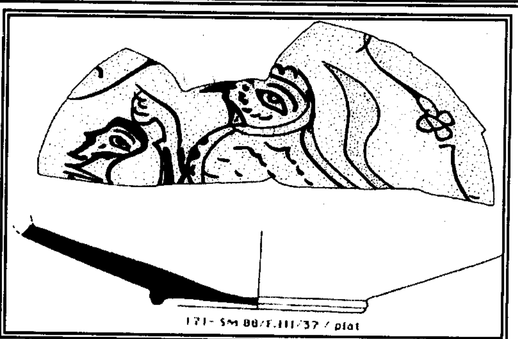
(78) Louhichi (Adnène) : *la céramique musulmane d'époque médiévale importée à Tegdaoust (Mauritanie orientale) : étude archéologique et étude de laboratoire*. Université Paris 1, Thèse du 3ème cycle en Art et Archéologie, 1984, 309 pages (p 75).

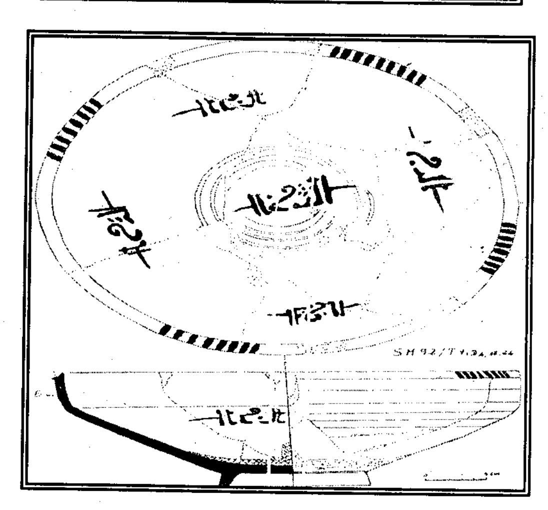
الخزفي مثل بقايا بعض البنايات والأفرنة، والانتشار الكبير للرماد وللقى الخزفية. كما أن موقع هذا المركز لم يكن خلال عهد سجلماسة بعيدا عن المواد الأساسية التي تدخل في الصناعة الخزفية كالماء والصلصال والحطب، فضلا عن قربه من الأسواق المحلية وفي طريق القوافل التجارية.

إضافة إلى هذا الموقع، يمكن ذكر مركزين آخرين لم يتم تحديد موقعهما بدقة حتى الآن. يختص أولهما في صناعة الفخار المزخرف والذي واصل نشاطه ـ حسب تحليل القطع الخزفية المنتمية له والتي اكتشفت في مختلف الطبقات الأثرية ـ منذ فترة سجلماسة وربما إلى غاية القرن 13 الهجري / 19 الميلادي. أما المركز الثاني فيهم صناعة الآنية المخصصة للطهي كالقدور والمجامير، والآنية المائية كالجرات الكبيرة. ويمكن إرجاع هذه الصناعة إلى فترة قديمة وربما سابقة عن تأسيس مدينة سجلماسة نفسها وظلت مستمرة إلى القرن 12 الهجري / 18 الميلادي على الأقل، قبل أن تنتقل إلى المركزين الحاليين: المراكنة وكَلاكَلا.

مع الأسف لا نعرف بالضبط متى بدأت صناعة الخزف بسجلماسة، فهل عاصرت تشييد المدينة، أم وجدت قبلها أو أنشئت بعد أن حس السجلماسيون ضرورة توفير آنية تسهل عليهم وسائل العيش ؟ فمن الملاحظ أن هذه الصناعة وتبعا للصيرورة التاريخية وللتطور العمراني الذي شهدته المنطقة، قد انتقلت من مكان لآخر حفاظا على استمراريتها. ويبدو من تحليل بعض أصناف الخزف السجلماسي، ارتباط هذا الأخير بالحركة التجارية وبالأهمية القصوى التي كان يحظى بها الماء، ويظهر ذلك جليا من سيطرة الأشكال الخزفية المرتبطة بخزن الماء أو نقله أو تبريده. والنتيجة أن صناعة هذه الآنية وخاصة القارورات والجرات اتسمت بالدقة العالية وبالتقنية الأنيقة. وتأتي بعد هذا الصنف، آنية المائدة بكل أشكالها وأيضا القناديل الزيتية التي عرفت بخفة وزنها ودقة صنعها وبسهولة نقلها.







الرسم 2 : موقع سجلماسة الأثري : نماذج من المكتشفات الخزفية

وإجمالا تتميز الصناعة الخزفية السجلماسية بعدة خصائص : أولا أنها استعملت طينا صلصالية متماسكة ومختلطة بشوائب بيضاء من الكوارتز الرملي الطبيعي. ثانيا أن هذه الصناعة استخدمت المخرطة ويتجلى ذلك من أثاره المتبقية على واجهتي بعض الآنية خاصة القارورات والجرات الصغيرة. ثالثا أن الخزف السجلماسي كان يغلف بطلاء أخضر لامع يستخرج من أوكسيد الرصاص وأوكسيد النحاس بالإضافة إلى الرمل البيضاء «silice». وكان الطلاء يوضع على الآنية بعد التجفيف نهائيا وإما مباشرة بعد عملية الحرق الأولى «1ère cuisson»، إن اعتمدت عمليتان للحرق طبعا. وهنا تطرح من جديد مسألة الفرن السجلماسي بأقسامه وحطبه ومدة الحرق ودرجة الحرارة وعمليات ملء وإفراغ الفرن فضلا عن تقنية زخرفة الآنية الخزفية. رابعا كان الخزف السجلماسي موجها أساسا للاستهلاك المحلي، بينما يتم تصدير الفائض من منتجاته إلى مناطق أخرى بعيدة.

خلاصة :

يمكن القول إن سجلماسة، حسب الأوصاف السالفة الذكر، كانت مدينة كبيرة تخضع لنظام ونمط معماري يرتبط، ولا شك، بالقاعدة الإسلامية للبنيان. إلا أن المعلومات المعروفة عن عمران هذه المدينة تبقى شحيحة، ذلك أن المصادر المعاصرة اهتمت أساسا بالأحداث السياسية وببعض الظواهر الاقتصادية أكثر من اهتمامها بالتكوينات المعمارية للمدينة. من جانب أخر، يظهر أن سجلماسة لم تشهد إلى اليوم حفريات أثرية واسعة ومنظمة والتي بإمكانها الكشف عن خصوصياتها العمرانية. «البحث الأركيولوجي ارتبط أساسا بدراسة هندسة القصور من خلال وصف مواد البناء ومكونات البناية ونمطها الزخرفي ولا تهتم إلا بالأشكال التي لا تزال واقفة وتترك جانبا المعالم القديمة»[79].

(79) Touri (Abdelaziz) : "Problématique d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans les régions du Maroc présaharien", op-cit (p 32).

لذلك فموقع سجلماسة في حاجة ملحة إلى أن يكون موضوع أبحاث أثرية دقيقة على شاكلة تلك التي أنجزت بمواقع القصر الصغير بشمال المغرب أو أودغشت بشرق موريتانيا وذلك من أجل الكشف عن أسرارها العمرانية. وأخيرا يذكر أحد رجال الاستعلامات الفرنسية اعتمادا على ما جمعه من معطيات شفوية بتافيلالت، أن سجلماسة في القرنين الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي والسابع الهجري / الثالث عشر الميلادي كانت «مدينة كبيرة وعاصمة كل الجنوب الشرقي المغربي. فقد كان يحيط بها سور عال ذا شرفات متدرجة تحت حكم الأميرين المرابطيين : يوسف بن تاشفين وعلي ابن يوسف. وكانت تحتضن دورا جميلة ذات زخارف غنية ظل ذوقها الفني مستمرا خلال العصر المريني»[80]. لكن ماذا تبقى من سجلماسة الآن؟ «إنه ركام من الخراب يمتد لمسافة كبيرة، حيث تظهر بعض أجزاء الأسوار المبنية من الطابية والطوب»[81] وأغلبها ينتمي لمعالم القصبة السجلماسية.

(80) Henriet (Lieutenant): *L'extrême Sud dans l'économie marocaine*. Tanger, les éditions internationales, n° : 195/140 ; 1939, cartes et tableaux dépliées dans le texte, publication des Colonies Bibliothèques. 176 pages (pp 78 - 79).

(81) Terrasse (H) : op-cit (p 585).



المبحث العاشر :

تدهور المعمار السجلماسي

تقديـــم :

كانت سجلماسة محط أطماع كثيرة ومتواصلة، مما جعل معالمها العمرانية تتعرض بإستمرار للهدم ولإعادة البناء، قبل أن تمحى من الوجود نهائيا في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. بعد هذا التاريخ عرف موقع سجلماسة مرحلتين من الاستغلال: تتمثل أولاهما في إقامة عدة مراكز صنائعية ما بين القرن التاسع والحادي عشر للهجرة / الخامس عشر والسابع عشر للميلاد. أما المرحلة الثانية فتهم بناء القصبة السجلماسية، التي كانت بمثابة مقر الإدارة المحلية، قبل أن تخرب بدورها مع بداية القرن الثاني عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

ومع اندثار سجلماسة ظهرت إلى الوجود عدة قصور اتخذت شكل تجمع سكاني داخل بناية محصنة بأسوار وأبراج وذات مدخل وحيد. وتتوفر هذه البناية بداخلها على أهم المرافق الضرورية من المسجد والساحة العامة والأزقة والدور السكنية.

وبذلك يتبادر إلى الذهن سؤال عفوي عن مدى المقاربة الموجودة بين عمارة هذه القصور وعمارة المدينة الأم سجلماسة ؟ وهل يمكن اعتبار أن هذه القصور تمثل نموذجا مصغرا للمعمار السجلماسي أو على الأقل نمطا عمرانيا مستوحىً منه ؟

I. النهاية المأساوية لمدينة سجلماسة :

1. عوامل الاندثار :

بدأت مدينة سجلماسة في التدهور منذ فترة حكم أبي الحسن المريني خلال منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، قبل أن تندثر نهائيا في عهد أبي العباس أحمد مع نهاية هذا القرن [حوالي سنة 795 - 802 هجرية / 1393 - 1400 ميلادية] فتفرق سكانها في قصور خاصة بهم بالضواحي. فما بين سنة 733 هجرية/ 1333 ميلادية و749 هجرية / 1349 ميلادية، صمتت المصادر المكتوبة ولم تخبرنا أبدا عن أحوال المدينة التي كانت ربما تنعم نسبيا بقسط من الأمن والاستقرار.

في سنة 749 هجرية / 1349 ميلادية، وفي الوقت الذي فشل فيه أبو الحسن في السيطرة على إفريقية، وبعد التأكد من نكبته بالقيروان، «استمع أبو عنان إلى نصائح عثمان بن جرار الذي كان في قلبه»[82]، فثار ضد أبيه بفاس واحتل سجلماسة وعين عليها عاملا مواليا. وهكذا تراجع أبو الحسن في بسط نفوذه على المغرب الأدنى وتلمسان، فعاد مباشرة إلى سجلماسة سنة 750 هجرية / 1350 ميلادية حيث استقبلته قبائل بني معقل بينما فر عامل أبي عنان إلى أحد القصور ليتحصن به، فقام أبو عنان بالهجوم على المدينة فأخرج منها أباه وعين عليها حاكما جديدا سنة 751 هجرية / 1351 ميلادية، ثم عاد إلى فاس، في حين توجه أبو الحسن إلى مراكش حيث توفي بها في نفس السنة.

من سنة 751 هجرية / 1351 ميلادية إلى سنة 761 هجرية / 1360 ميلادية استعادت سجلماسة بعض استقرارها قبل أن تعرف من جديد سلسلة من التمردات والثورات. ففي سنة 761 هجرية / 1360 ميلادية قام الأمير عبد الحليم بن أبي علي ابن أبي سعيد عثمان بمحاولة للسيطرة على الحكم بفاس،

---

(82) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء 7 (ص 368).

إلا أنه فشل مما جعله رفقة أخيه عبد المؤمن وصهره عبد الرحمان يتراجعون ويلتجئون بسجلماسة «فأقام بها رسوم الملك والسلطان ووزع خراجها في عرب المعقل وأقطعهم جنات المخلص بأسرها وأعصوصبوا عليه»[83]. وبذلك نجح في السيطرة على المدينة، بل وقام بالثورة ضد الوزير عمر ابن عبد الله الذي أقال أبا عنان وقتله سنة 758 هجرية / 1357 ميلادية. وكادت الحرب أن تندلع بين الرجلين لولا تدخل الفرقاء لإصلاح ذات البين بينهما فوقعا عقد اتفاقية تم بموجبها توزيع النفوذ الترابي بينهما. فاستقل عبد الحليم بسجلماسة، حيث بايعته جميع «عرب المعقل وأقطعهم الأراضي وجباية خراج بلاد درعة والسوس مكافئة لهم... وبهذه المساعدة جسد بنو معقل الروابط التاريخية التي جمعتهم مع الأمير أبي علي عند خروجه في الناحية، إذ استمر إخلاصهم لأبنائه من بعده»[84].

ولم يهدأ للوزير عمر بن عبد الله بال منذ أن استقل الأمير عبد الحليم بسجلماسة وخاصة لما علم أن هذا الأخير يعد العدة للاستيلاء على الحكم المريني بفاس، فحاول الوقوف في وجهه إلا أنه لم يقدر على محاربته «حيث أدرك ما يتمتع به - الأمير عبد الحليم - من قوة بفضل تأييد حلفائه عرب المعقل... وهذا ما دفعه على قبول وساطة بينه وبين عبد الحليم، والتي تشكلت من زعماء العرب وذلك قصد الصلح»[85] فرجع الوزير عمر إلى فاس بينما استقل عبد الحليم بسجلماسة. إلا أن الأمير عبد الحليم لم ينعم بالاستقرار بسبب المؤامرات التي لم يتردد الوزير عمر بن عبد الله يثيرها في وجهه. وهكذا ثار ضده أخوه عبد المؤمن بتشجيع من عرب المعقل أولاد حسين سنة 762 هجرية / 1361 ميلادية.

(83) ابن خلدون (عبد الرحمن) : نفس المصدر (ص .422 - 423).
(84) أبو ضيف مصطفى (أحمد) : مرجع سابق (ص 187).
(85) نفسه : نفس المرجع (ص 188 - 187).

وانتهى التمرد بانتصار الثوار الذين احتلوا المدينة على الأقل إلى أن أرسل الوزير عمر حملة عسكرية بقيادة مسعود بن عبد الرحمن بن ماسة (أو ماسي) الذي استولى على المدينة سنة 764 هجرية / 1363 ميلادية وطرد منها عبد المؤمن فعين عليها علي بن إبراهيم بن عبو بن ماسة (أو ماسي). وبذلك نجح في ربط المدينة بالحكم المركزي من جديد. غير أن «ارتباط سجلماسة بمملكة فاس لم يدم طويلا لأن الوزير مسعود بن ماسة ثار بنفسه ضد حكام فاس وأعلن حفيد أبي علي، الأمير عبد الرحمان بن أبي إفلوسن»[86] سنة 765 هجرية / 1364 ميلادية والذي حاول أن يسيطر على الحكم المريني ولكنه فشل فألتجأ إلى الأندلس.

في هذه الأثناء بايع علي بن إبراهيم ـ ابن عم مسعود ـ سنة 787هجرية / 1386 ميلادية محمدا بن عبد الحليم بسجلماسة، باعتباره السلطان الحقيقي وكانت فاس حينئذ يحكمها السلطان أبو العباس أحمد. وبذلك دخلت سجلماسة في فترة من الاستقلال عن الحكم المريني ولو إلى حين، لكن ما لبث أن تطورت الأحداث لصالح السلطان أبي العباس فتمكن من عدوه الوزير ابن ماسة. كما نشب سوء التفاهم بين علي بن إبراهيم ومحمد بن عبد الحليم، مما جعل المدينة تعيش في الفوضى وبدون سلطة حاكمة. واضطر الحاكم السجلماسي مع هذه الأحداث، إلى الاحتماء بأنصاره من عرب المعقل، قبل أن يفشل في استرجاع سلطته، فألتجأ إلى تلمسان وإفريقية، ثم المشرق لأداء فريضة الحج، مقتفيا بذلك آثار أبيه من قبله والذي توفي بالإسكندرية سنة 766 هجرية / 1365 ميلادية.

وبذلك ظلت سجلماسة تابعة رمزيا على الأقل للحكم المركزي بفاس، لكن وضعها بدأ في التدهور الفعلي، بل وأدى إلى اندثارها بعد أن عانت من

(86) Jacques-Meunié (D) : op-cit. (p 293).

الثورات والتمردات بين حكامها وبين هؤلاء وسلاطين بني مرين. ويشير محمد بن الحسن الوزان إلى أن المرينيين عهدوا بحكم إقليم سجلماسة إلى «أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءهم. وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، فثار الإقليم وقتل أهل البلد الوالي وهدموا سور المدينة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا، وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حر، والبعض الآخر خاضع للأعراب»[87]. وتبقى العوامل غير المباشرة لهذا الاندثار جد مترابطة ويمكن تلخيصها في أربعة أساسية هي :

* العامل الأول يتمثل في هيمنة القبائل العربية وما سببته من قلاقل، مما أثر بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للمدينة. فضعفت المحاصيل الزراعية وتوقف سك العملة وتحولت مسالك تجارة القوافل إلى جهة أخرى... «وعمت فوضى كثيرة البلد خلال فترة استقرار وهيمنة القبائل العربية. في نفس الوقت تدهورت التجارة الصحراوية. وضعفت سجلماسة، المدينة المحورية للواحات وانتهى بها المطاف إلى الاندثار»[88].

* العامل الثاني يتعلق بتحول مسالك التجارة الصحراوية نحو موانئ المحيط الأطلسي مع ظهور البرتغاليين بهذه الشواطئ ونحو المناطق التي كانت أكثر أمنا مثل تلمسان وإفريقية ودرعة. هذا التحول حال دون استفادة المدينة من موارد رئيسية التي بفضلها نشأت أول الأمر وعرفت أوجهها اقتصاديا وسياسيا في عدة فترات.

* العامل الثالث يرتبط بسياسة سلاطين بني مرين أنفسهم وخاصة منهم أبي يوسف يعقوب وأبي الحسن تجاه سكان سجلماسة حيث قاموا بمحاصرة

(87) الوزان (محمد بن الحسن) : مصدر سابق. الجزء 2 (ص 121).

(88) Terrasse (H) : op-cit. (p 362).

المدينة بقوة ولمدد طويلة، بل ودخلوها عنوة وكان لذلك تأثيرا سلبيا على قاعدتها الاقتصادية عامة والفلاحية على الخصوص بفعل تغوير عيونها الطبيعية والتي تشكل منبع الحياة بالمنطقة. وإلى ذلك يشير صاحب الاستقصا «أن أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها واشتغل بتغوير ماء العين[89] التي تسقى منها، فكان ذلك سببا في خلائها»[90].

من جهته، يذكر محقق كتاب الأنوار الحسنية أن السلطان أبا الحسن علي بن عثمان المريني الشهير بالسلطان الأكحل ودفين شالة بالرباط [المحرم 731 هجرية/ 1331 ميلادية إلى 751 هجرية / 1351 ميلادية] حارب «سجلماسة حيث غور العين التي هي عماد أهل سجلماسة في حياتهم الزراعية وهي العين المعروفة اليوم بـ«عين تيمدرين» القريبة من أرفود والتي حفر حولها مائة بئر، ثم طمسها بالصوف والقطران والرمال»[91]. هذا فضلا عن فرض ضرائب ثقيلة وغير شرعية والتي قام ابن مرزوق بتفصيل أنواعها في كتابه المسند الصحيح[92]. وكان لهذه السياسة فعلها السلبي خاصة في وقت الأزمات المتتالية التي عرفها المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بسبب تعاقب سنوات الجفاف والمجاعة.

* العامل الرابع يرتبط بالظروف المناخية القاسية من الجفاف والأوبئة. وقد ترك لنا ابن خلدون صورة سوداوية للطاعون الذي عم المغرب خلال

---

(89) ويقصد ربما عين تمدرين الواقعة قرب قصر البروج بسهب أيردي شمال مدينة أرفود وعلى بعد حوالي 30 كلم شمال سجلماسة.

(90) الناصري (أبو العباس أحمد خالد) : **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدارالبيضاء، دار الكتاب، الجز الثالث 1954 (ص 120).

(91) المدغري (أحمد ابن عبد العزيز ابن الحسن) : **الأنوار الحسنية**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، 1966 (ص 92 الهامش رقم 1).

(92) ابن مرزوق (محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني) : **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان مولانا أبي الحسن**، الجزائر، 1981.

منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي حيث قال : «وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هدمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها»[93]. وذكر الناصري من جهته نقلا عن ابن قنفذ أن سنة 776 هجرية / 1375 ميلادية «كانت سنة مجاعة في المغرب، وعم على إثرها الخراب، حيث انتشر الخوف والجوع»[94]. وفي موضع أخر يصف نفس المؤرخ مخلفات الطاعون الأسود على المغرب بما فيه سجلماسة «حيث انتقص العمران على الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل»[95].

وبذلك عرفت سجلماسة فترة من عدم الاستقرار ووصلت بها الأوضاع الداخلية حدا لا يطاق «وهكذا ومع موت السلطان أبي العباس (أحمد المنتصر) سنة 1393م، ثار إقليم سجلماسة، فقتل السكان حاكم المدينة وحطموا سورها»[96]. ويعتقد أن المدينة عرفت مرحلتين من التخريب أولها : «أن يكون ذلك قد حدث في أواخر القرن 8هـ / 14م بعد ثورة أهاليها سنة 597هـ / 1393م وتهديمهم للسور الخارجي لها ثم انتقالهم إلى السكن في القصور الكبرى المحصنة حسب رواية الوزان وثانيها : أن تكون ثورة الأهالي هاته بداية لأعمال تخريب متوالية أتت على إندراس المعالم المعمارية للمدينة بالتدريج طيلة النصف الأول من القرن 9هـ / 15م»[97] وبذلك تكون مدينة سجلماسة قد وصلت إلى نهايتها المحتومة،

(93) ابن خلدون (عبد الرحمن) : المصدر السابق، الجزء 1 (ص 187 - 188).

(94) الناصري (أبو العباس أحمد) : المصدر السابق، الجزء الرابع 1956 (ص 83).

(95) نفسه : نفس المصدر (ص 85).

(96) Jacques-Meunié (D) : op-cit. (p 296).

(97) حافظي علوي (حسن) : **سجلماسة وإقليمها**، مرجع سابق (ص 412 - 413).

حيث هدمت عن أخرها فالتجأ سكانها إلى الضواحي فبنوا لهم قصورا خاصة بهم.

من وجهة الرواية الشفوية، فهي تتذكر أسطورتين مختلفتين عن اندثار سجلماسة : تقول الأولى إن السلطان الأكحل «الأسود» ويقصد به ربما حاكم المدينة، ذهب يتجول في إحدى الليالي، فالتقى امرأة خرجت رفقة أبنائها قصد غسل بعض الملابس. فطلب منها السلطان أن تربط معه علاقة غير شرعية، فلما رفضت قام بتصفية ابنا لها، إذ قسمه بسيفه إلى شطرين وقدمه لكلابه. هذا الفعل الشنيع لم يستسغه السجلماسيون فنددوا به وقاموا بالثورة أدت إلى نشوب الحرب التي قتل على إثرها الحاكم، وكان من نتائجها تدمير المدينة.

الأسطورة الثانية تشير إلى أن سكان المدينة استيقظوا فجر ذات يوم على مؤذن المسجد الجامع وهو يصيح بعد أذان الصبح «أصبح ولله وخلت» بدلا من «أصبح ولله الحمد». ويمكن أن نستشف من وراء ذلك أن المدينة ربما تعرضت في ليلة هذا اليوم لكارثة طبيعية تتمثل على الأرجح في زلزال قوي، أو فيضان جارف. ذلك أن التوضعات النهرية بالمنطقة أدت إلى تزايد مستوى سطح الواحة بنسبة متر واحد تقريبا كل مائة سنة، ليتساوى بذلك تقريبا مع مستوى الربوة التي أسست فوقها مدينة سجلماسة أول الأمر. فلما تعرضت لفيضان كبير أتى ذلك على كل معالمها العمرانية، خاصة وأن معظم بناياتها شيدت من الطابية. وهذا ما يؤيده أحد الباحثين، إذ يقول «اندثرت مدينة سجلماسة في نهاية القرن 14 الميلادي [8 للهجرة]، ربما نتيجة تخريبها بواسطة فيضانات غير عادية لنهري زيز وغريس، فتفرق سكانها على الأماكن والقصور المحصنة بالواحة»[98].

(98) Jacques-Meunié (D) : *Le Maroc Saharien*. op-cit (p 284).

ويبقى تأكيد أحد العوامل المؤدية إلى الاندثار السريع والمفاجئ لمدينة سجلماسة، مرهونا بنتائج الحفريات الأثرية في غياب أي مصدر مكتوب يمكن الاعتماد عليه.

ورغم اندثار سجلماسة، فإن أنشطتها الاقتصادية ودورها التاريخي (السياسي) لم يتوقف، بل انتقل إلى أهم القصور الكبيرة، يمكن ذكر ثلاث رئيسية منها : «أولها يسمى تانجيوت وعدد سكانه نحو ألف كانون وبه بعض الصناع. والثاني يسمى تابوعصامت وهو أكبر منه وأكثر حضارة وفيه عدد كبير من التجار الأجانب، واليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة. ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من بقية الإقليم. والقصر الثالث يسمى المأمون وهو أيضا كبير حصين كثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود والمسلمين»[(99)].

فقصر تابوعصامت الذي لا زال صامدا من الممكن أنه شيد بين سنتي 795هـ / 1393 و802هـ / 1400م في جنوب المدينة الأم والذي كان بمثابة المركز التجاري والحرفي ودارا لضرب العملة إلى غاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. بينما اندثر القصران الآخران، المأمون وتانجيوت ولم يبق لهما أثر، ويطلق اسم تانجيوت على مقاطعة أو مشيخة بكاملها والواقعة بشمال شرق تافيلالت ومن قصورها مزكيدة، أولاد يوسف والقصر الفوقاني. «كان لكل من تانيجيوت وتابوعصامت والمامون في القرن العاشر الهجري (16 الميلادي) أمير يدير شؤون القصر ويعمل على حمايته من غارات الأعراب. واستقر بهذه القصور الحرفيون والتجار المسلمون واليهود كما كان بكل منها دار سكة تضرب بها مثاقل خفيفة من الذهب الرديء ونقود من الفضة»[(100)].

---

(99) الوزان (محمد بن الحسن) : مصدر سابق، الجزء 2 (ص 125 - 126).

(100) حافظي علوي (حسن) : «تانيجوت»، **معلمة المغرب**، المجلد السابع (ص 2230 - 2231).

من جهة أخرى وابتداء من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بدأ اسم سجلماسة الذي يعني المدينة، ينمحي من النصوص التاريخية واستبدل في بعض المرات باسم إقليم سجلماسة قبل أن يعوض نهائيا باسم تافيلالت. وهنا يمكن طرح التساؤل التالي: هل اندثرت المدينة بكاملها أم أنها احتفظت ببعض معالمها ولو على شكل قصور كما هو الشأن بالنسبة لقصر الريصاني الذي يرجعه البعض اعتمادا على بعض البقايا الأثرية، إلى العصر المريني ؟

كما يمكن القول إن موقع سجلماسة لم يظل يبابا منذ تاريخ هدم المدينة في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، بل بنيت فوق بعض أجزائه قصورا وأنشئت في أجزاء أخرى منه مراكز حرفية كما هو الحال بالنسبة للصنائع الخزفية التي تم العثور على الكثير من بقاياها. ويبقى مع ذلك أن أغلبية السكان ربما استقروا بقصور خاصة بهم بنوها بالضواحي، مما يرجح إطلاق اسم تافيلالت على كل المنطقة أو الواحة. وقد حاولت عدة روايات تفسير اسم تافيلالت ومنها :

* الأولى شفوية محلية وتذكر أن السجلماسيين لما ذهبوا إلى الجزيرة العربية قصد جلب أحد الشرفاء للتبرك به وإصلاح أشجار النخيل، اتفقوا مع مولاي الحسن بن أبي القاسم أن يعطوه نصيبه من غلة الواحة لما تصلح وتثمر. إلا أنهم خالفوه العهد، مما جعله يذكرهم صائحا فيهم «وفوا وفوا» أي أوفوا بالعهد، فردوا عليه : «لا، لا» وبذلك أطلق عليهم لقب وفيلالا ثم فيلالا وعلى منطقتهم تافيلالة ثم تافيلالت.

* الرواية الثانية تشير إلى «أن تافيلالت هي اسم أمازيغي مشتق من أفيلال وهو اسم لمكان يعني جبل بالعربية وأوفيلال بالأمازيغية. وأفيلال عبارة عن سلسلة جبلية صغيرة لا يتعدى علوها 785 مترا وتوجد على بعد 50 كلم

جنوب/ جنوب ـ شرق الريصاني وشمال / شمال ـ غرب الطاوس على الضفة اليمنى لوادي زيز»[101].

* الاقتراح الثالث اعتمد على مفهوم الدلالة اللغوية لاسم تافيلالت، ذلك أن «الاسم يستمد جذره كما هو الشأن بالنسبة لاسم سجلماسة من اللغة الأمازيغية ويعني مكانا يهيمن على الماء أو غني منه»[102].

* التفسير الأخير يذكر أن اسم «تافيلالت» هو تصغير لكلمة أفيلال والتي تعني الجرة، الزير أو الخابية[103].

ومهما يكن فاسم تافيلالت أطلق على منطقة سجلماسة منذ بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ولازال مستعملا إلى اليوم.

2 ـ المعطى التاريخي والسوسيو ـ اقتصادي :

إذا كان من المستعصي ترجيح كفة أحد الأسباب المباشرة التي أدت إلى الانهيار المفاجئ لمدينة سجلماسة، نظرا لاختلاف الأطروحات التي تطرقت للموضوع، فإن ما يهم في هذا المجال هو محاولة فهم عملية الانتقال من نمط معمار «مديني» تمثله حاضرة سجلماسة إلى نمط «قروي» يتجسد في القصور المندرسة والحالية. وهنا يمكن الاستدلال بقولة ابن خلدون المعبرة عن ما «نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة [القرن الرابع عشر الميلادي] من الطاعون الجارف الذي... ذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها... وانتقص عمران

(101) Jacques - Meunié (Djinn) et Meunié (Jacques) : "Abbar, cité royale du Tafilalet", *Hespéris*, Tome : XLVI, 1° et 2° trimestre, 1959; 12 figures ; VIII planches hors texte ; pp. 7 - 72 (p 10 / note 2).

(102) Mezzine (L) : "Sijilmassa", *Le Mémorial du Maroc*. op-cit. (p 25).

(103) شفيق (محمد) : **المعجم العربي الأمازيغي**، الرباط من مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1990 (ص 341).

الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن»[104].

بصفة عامة، استقرت بسجلماسة ساكنة مختلفة ومتنوعة في الأصل والانتماء الجغرافي، نقلت معها بدون شك أسلوبها في العيش وأيضا في البناء من مناطق استقرارها الأول، فامتزج هذا الأسلوب الفني الذي رافق الهجرات مع نظيره المحلي فأكسبه لونا وطابعا خاصا.

أمام هذا المعطى الاجتماعي فإن سجلماسة فضلا عن كونها شكلت مركزا حضريا، لا يستبعد أنها كانت أيضا تحتضن بعض التشكيلات المعمارية المنعزلة. وفي هذا الصدد يشير أبو حامد الأندلسي إلى «أن سجلماسة كانت محاطة بمساكن محصنة»[105].

وحول أصل هذا النمط المعماري، يذكر ابن خلدون «أن القبائل الزناتية تركت قصورها جنوب جبال درن لعرب المعقل بعد أن تكونت لها دول ببلاد المغرب، بني مرين بفاس وبني زيان بتلمسان»[106]. لذلك يمكن إرجاع أصول ظاهرة القصور إلى القبائل الزناتية، خاصة وأن «المنزل الزناتي يتكون من عدة طوابق بينما المنزل الصنهاجي «القبايلي» يتكون من سكن أرضي فقط»[107]. كما يعود الفضل في انتشار هذا النمط السكني «بالمناطق الصحراوية إلى قبائل زناتة التي أنشأت أغلب واحات الصحراء كواحات سوف ووادي ريغ وورگلة وتيدكلت وتوات»[108].

---

(104) ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة**، مصدر سابق (ص 33).

(105) Fagnan (E) : op-cit (p28).

(106) ابن خلدون: **العبر**، مصدر سابق. الجزء 7 (ص 77).

(107) Gautier (E.F) : *le passé de l'Afrique du Nord*, Paris, édition Payot 1964 (pp 228 - 229)

(108) Lewiki (Tadensz) : «Sur le titre libyco - berbère», : *Etude maghrébines et soudanaises. Studio nad maghrebem i sudanem.* Varsovie, édition Scientifique de Pologne, 1976; illustrations (Publication de l'Académie Polonaise des Sciences, Comité des Etudes Orientales) 93 pages (p 44).

ويشير أحد الباحثين المتخصصين أن قصور تافيلالت تنتمي إلى الحضارة المتوسطية، فقد «عرف سكانها تأثيرات شرقية ومتوسطية قبل الإسلام، فالمنازل ذات الصحون والأشكال المربعة وظهور الزوايا القائمة والتحصين والتنظيم البسيط ومتانة بناء الأسوار ووجود النخيل والجمال، كلها معطيات تنتمي إلى حوض بحر الأبيض المتوسط»(109).

وعلى كل حال، فمن المؤكد أن قبائل بني معقل حين بسطت سيطرتها على منطقة سجلماسة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، لم يكن المجال بيداء وإنما وجدت بعض القصور قائمة بدون شك. «فقبيلة مكناسة التي أسست مدينة سجلماسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي تنتمي للجماعة الزناتية، وكانت لها دراية بالهندسة المعمارية للقصور وظفتها في بناء المدينة اعتمادا على النمط السكني السائد بمجالاتها وقد عرف بناء القصور اتساعا وتطورا ملحوظا مع دخول عرب المعقل إلى المنطقة، لأن هؤلاء أنفسهم نقلوا معهم مقومات هذا النمط السكني من مناطق استقرارهم الأولى التي كانت مجالا لسكنى قبائل زناتة فيما سبق»(110).

فلم تكن قبائل الرحل بالجنوب المغربي بدوا يتنقلون بحثا عن المراعي فقط، بل لعبوا أيضا دورا أساسيا في نشر ثقافات وعادات الحضارات المتوسطية التي كانوا على اتصال مباشر معها. وأدى ذلك «إلى ظهور التجمعات البشرية الأولى، فتطورت بذلك التشكيلات المعمارية الدائمة بالواحات الشبه الصحراوية تحت تأثيرات محتملة لهذه المبادلات خلال

(109) Hensens (J) : «Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar : problème de rénovation», *Bulletin Economique et Social du Maroc.* N° 114 ; Juillet - Septembre 1969 (p 83).

(110) حافظي علوي (حسن) : مرجع سابق (ص 116 - 117).

عهد الزناتيين الذين نظموا وقننوا التجارة الصحراوية وتحكموا أيضا في ساكنة الفلاحين المستقرين وشبه المستقرين»(111).

كما يمكن أن يكون هذا النمط المعماري قد نقله عرب المعقل أنفسهم من بلادهم الأصلية باليمن، ذلك أن هندسة القصور بتافيلالت تأثرت في نفس الوقت بموثرات أندلسية ومشرقية(112). ويحاول باحث آخر أن يجد لهذا النمط جذورا أوربية وإن كان رأيه يتأرجح بين الوجهة المصرية والأصل الروماني ـ البيزنطي، إذ يقول «إن الهندسة المعمارية للواحات ترجع لتقليد قديم جدا تم اغناؤه في العصور الإسلامية الأولى وهي في كل الأحوال، ذات أصول مصرية... هندسة الواحات تشكلت إذن ـ على أقصى تقدير ـ في القرون الإسلامية الأولى، مع بداية العصر الوسيط وقد قلدت في الهندسة التقليدية الأولى، التصاميم والبرامج المعمارية الموروثة عن روما وبيزنطة»(113).

نفس التناقض يطغى على رأي باحث أوربي آخر، فمرة يرى أن معمار سجلماسة ومنذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي عرف «تأثيرات الكوفة وبغداد، هذا التأثير الذي ازداد فيما بعد بفعل العلاقات الثقافية والاقتصادية المتعددة التي ربطت متربول الصحراء الكبرى مع المشرق»(114). وفي المرة الثانية يذكر أن هذا النمط المعماري، «يتشابه مع مثيله الموجود بإقليم سيستان بإيران، ذلك أن الخوارج الصفرية الذين شيدوا سجلماسة يرجع أصلهم إلى بلاد فارس ومنها نقلوا تأثيرات ثقافية وحضارية إلى موطن استقرارهم بمنطقة سجلماسة»(115).

---

(111) Saidi (Idriss) : «étude architecturale des ksour du Tafilalet, dossier d'analyse et de diagnostic», *Oasis Tafilalet*, n° 1; 1999; pp 3 - 34 (p 11).

(112) محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : **الخوارج في بلاد المغرب**، مرجع سابق (ص 300).

(113) Terrasse (Henri) : *Kasbas berbères de l'Atlas et des oasis*. op-cit (pp 73 - 74).

(114) Jacques-Meunié (D) : op-cit (p 231).

(115) Jacques-Meunié (D) : *Architectures et habitats du Dades*, op-cit (pp 100 -101)

وعلى كل حال يصعب الحسم في تحديد تاريخ دقيق لبداية ظاهرة القصور بمنطقة سجلماسة، ويمكن القول بأنه بعد «تخريب مدينة سجلماسة عرفت واحة تافيلالت تحصينا بواسطة سور طويل بلغ 80 ميلا (128 كيلومترات)»[116]، أو أن المنطقة كانت «عبارة عن قرى متعددة [قصور] كان بعضها ما يزال قائما عند ظهور زعامة الشرفاء العلويين بالصحراء. لاشك أن الأوصاف التي نعت بها القدماء مدينة سجلماسة، إما أن تكون مدينة كبيرة جدا واندثرت في وقت لم يحدد وإما أن تكون عبارة عن قصور متوالية في منطقة معينة»[117].

فمن نماذج القصور التي يعتقد أنها كانت موجودة قبل اندثار مدينة سجلماسة، يذكر أحد الباحثين أن قصر الجبيل الواقع شمال غرب سجلماسة، يعتبر أقدم قصر بهذه المنطقة ويعود تاريخه إلى القرن 11م ويقطنه حاليا عدة عناصر عربية وبعض الأسر من آيت إزدك[118]. ويشير باحث آخر إلى أن القصر المعروف حاليا تحت اسم «آبار المخزن يرجع إلى القرن 11م، رغم أن موقعه المتميز يؤهله لأن يكون أقدم من ذلك»[119]. وجاء في كتاب ابن الزيات التادلي أن القصر الذي يدعى برابطة أنبدور يقع خارج أسوار مدينة سجلماسة[120]، وأنه شهد إشعاعا دينيا خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. ويقع هذا القصر بمشيخة بني امحمد إلى الشمال الغربي من موقع سجلماسة، يحده قصر «البطرني في الجنوب الشرقي والساقية المسماة المنصورية شرقا ومولاي محمد الشيخ غربا والجبيل وتاحسنونت شمالا. وتوجد إلى اليوم بتافيلالت ساقية تحمل اسم الساقية النبدورية تنطلق من قصر

---

(116) Jacques-Meunié (D) : *le Maroc Saharien*. op-cit. (p 297).

(117) حجي (محمد) : «المنافسة بين سجلماسة وإيليغ والدلاء»، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**، الرباط، مطابع الميثاق، 1988، ص 29 - 33 (ص 29).

(118) Faure (Roger) : *le Tafilalet, étude d'un secteur traditionel d'irrigation*. Paris 1969 (p 167).

(119) Jacques - Meunié (D) : «Abbar», op-cit (p 63).

(120) ابن الزيات التادلي (أبو يعقوب يوسف) : مصدر سابق (ص 412).

أولاد ليمان وتمر محاذية للحدود الشمالية لخراب مدينة سجلماسة لتنتهي بقصيبة الحدب»[121].

ومن غير المستبعد أن العصر المريني شهد «بناء العديد من القصور وخاصة لما استقل أبناء أبي علي عمر المريني بسجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فانعكس ذلك على تطور فن معمار القصور بهذه المناطق. فقد بنى عبد الحليم بن أبي علي الذي حكم سجلماسة ما بين 762هـ - 763 / 1361—1362م قصبة ماتزال تحمل اسمه إلى اليوم، وهي قصبة أولاد عبد الحليم»[122]. هذه القصبة اشتراها «السلطان سيدي محمد بن عبد الله في منتصف القرن 18م وفي بداية القرن 20م أصبحت مقر سكنى مولاي رشيد الخليفة السلطاني على مناطق تافيلالت»[123].

كما يمكن إرجاع تأسيس قصور مشيخة الغرفة «إلى مرحلة مبكرة من التاريخ الوسيط، غير أن أول إشارة وصلتنا عنها ترجع إلى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي...»[124]. وفي مشيخة واد إيفلي توجد كذلك قصور وقصبات يظهر من نمطها المعماري أنها تعود إلى ما قبل ظهور الدولة السعدية. «خربت مدينة سجلماسة قبيل عهد السعديين حتى لم يبق قائما منها غير الأسوار وانتقلت أهميتها التاريخية إلى القصور المجاورة وبخاصة قصر الشرفاء الحسنيين المعروف أيام السعديين بالقصبة السجلماسية»[125].

---

(121) حافظي علوي (حسن) : مرجع سابق (ص 121).

(122) نفسه : نفس المرجع (ص 122).

(123) Jacques-Meunié (D) : *le Maroc saharien*, op-cit (p 295).

(124) حافظي علوي (حسن) : المرجع السابق (ص 125).

(125) حجي (محمد) : **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، المحمدية، مطبعة فضالة، 1978، الجزء 2 (ص 519).

وبالاعتماد على رواية محمد بن الحسن الوزان فإن معظم القصور بتافيلالت برزت مباشرة بعد اندثار مدينة سجلماسة، لما خربها سكانها وهدموا سورها فألتجأوا بالضواحي وبنوا قصورا خاصة بهم كان عددها في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، حوالي ثلاثمائة وخمسين قصرا بين كبير وصغير. «استولى بنو مرين على هذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحدين وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبنائهم وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد (أبو العباس) ملك فاس فثار الإقليم وقتل أهل البلاد الوالي وهدموا سور المدينة فبقيت خالية حتى يومنا هذا (أي بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) وتجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم»[126].

من أهم هذه القصور تجدر الإشارة إلى ثلاثة مهمة منها هي : «قصر تانجيوت ويعود تأسيسه إلى فترة خراب مدينة سجلماسة»[127] وهو قضر لم يعد له وجود وبقي فقط اسمه يطلق على مشيخة تقع بالجزء الشمالي للواحة ومن أهم قصورها مزكيدة والقصر الفوقاني. القصر الثاني يسمى المأمون وهو «كبير وحصين وكثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود والمسلمين»[128]. إلا أن هذا القصر خرب سنة 1830 ميلادية وكان موقعه على بعد كيلومتر واحد جنوب ـ غرب قصر تابوعصامت على الضفة اليسرى لوادي زيز[129]. أما القصر الثالث فيطلق عليه اسم تابوعصامت ويقع في جنوب سجلماسة وهو لايزال صامدا، بل ويعتبر من أكبر قصور المنطقة حجما وسكانا.

---

(126) الوزان (محمد بن الحسن) : المصدر السابق. الجزء 2 (ص 121).

(127) نفسه : المصدر السابق (ص 125).

(128) الوزان (محمد بن الحسن) : المصدر السابق. الجزء 2 (ص 126).

(129) نفسه : نفس المصدر (ص 126، الهامش 22).

صفوة القول لقد تحكمت السلطة المركزية في مدينة سجلماسة وجعلت منها عاصمة أهم إقليم من أقاليم الدولة المغربية، فأصبحت مواردها الاقتصادية وخاصة من تجارة القوافل، وسك العملة، والمعادن، والمنتجات الفلاحية والصنائع، بمثابة المداخيل الرئيسية لخزينة الدولة والتي لا تنضب وتستعمل كقوة مضافة لمواجهة الأزمات الاقتصادية والضائقات المالية. وهذا ما جعل من المدينة الهدف الأول لكل حركة أو قوة تريد بسط سيطرتها على المغرب عامة وعلى التجارة الصحراوية بالخصوص.

وكان «نتيجة ذلك أن فقدت سجلماسة وإقليمها الكثير من أهميتها السياسية والاقتصادية وكانت مركزا لتمرد الحكام المحليين المدعمين من لدن القبائل المعقلية المحلية»[130]. هذا فضلا عما عرفه المغرب ككل، بما فيه منطقة سجلماسة، خلال هذه الفترة من أزمات اقتصادية نتيجة توالي سنوات الجفاف والأوبئة ويشير ابن أبي زرع أنه في سنة 630 هجرية / 1233 ميلادية مثلا انتشرت مجاعة عظيمة ووباء كبير حتى خلت البلاد من العباد[131].

II - الأسس التقنية والتنظيمية لمعمار القصر :

1- مواد البناء الأساسية بقصور تافيلالت :

أ) الطابية والطوبية :

يمكن القول إن المواد التي استخدمت في تشييد القصور الفيلالية سواء المندرسة منها أو الباقية، شبيهة بتلك التي استعملت في بناء مدينة سجلماسة، إذ اعتمدت أساسا على الطابية والحجارة والآجر والجبس والخشب والخزف.... إلى أخره.

---

(130) Mezzine (Larbi) : op-cit. (p 32).

(131) ابن أبي زرع (علي) : مصدر سابق (ص 276).

تتكون الطابية من تربة صلصالية متماسكة ذات لون أحمر - بني ومختلطة بالحصى والقطع الخزفية وبقايا عظام حيوانية وأجزاء خشبية. هذه المواد محلية وقد تكون أخذت من الركامات الأثرية لمدينة سجلماسة. وتتميز الطابية بالصلابة، إذ يستخدم في بنائها على تراب طيني غني بالرمل والحصى الصغيرة يستخلص من عين المكان، ويبلغ طول الطابية حوالي ثلاثة أمتار، وعلوها حوالي 0,80 مترا ويتراوح السمك ما بين 0,90 مترا ومتر ونصف وبذلك يصل ارتفاع السور المشيد من الطابية إلى 11 مترا وأكثر بالنسبة للأبراج. ويعتمد في تركيبها على اللوح والمركاز وعلى ميزان الخيط لضبط استقامة الجدار. واستعملت الطابية في بناء الجدران الخارجية والداخلية واعتمدت في تشييد «أقدم القصور بتافيلالت، بينما زينت أبراجها وحصونها بزخرفة خاصة من الطوبية المشمسة ذات تنسيق دقيق ووحدة كبيرة»[132].

أما الطوبية فتعتمد على تراب خال من الرمل والحصى، يضاف إليه التبن الرقيق ويخلط بالماء. ويستعمل في صنعها إطار خشبي «قالب» به فراغين مستطيلين يملئان بالتراب الذي يدك حتى تلتحم أجزاؤه، فيزال القالب وتترك الطوبية على الأرض حتى تجف جيدا تحت أشعة الشمس. يتكون القالب عادة من حجمين مختلفين، الأول كبير يبلغ في المعدل 30 سم طولا و15 سم عرضا و8 سم سمكا، أما القالب الصغير الحجم فيبلغ طوله 26 سم، والعرض 13 سم والسمك 7 سم. ويسمى صانع الطوبية، «الطواب في اصطلاح مجتمع تافيلالت»[133].

(132) Jacques-Meunié (D) : *Architectures et Habitats du Dadès, Maroc présaharien*. Paris, Librairie C. Klincksieck 1962 (p 92).

(133) لمراني علوي (محمد) : «المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة»، **الندوة الدولية حول المعمار المبني بالتراب**، ص 99 - 114 (ص 107 - 108).

وإذا كانت الطابية تكون الجدران الأساسية في بناء القصور، فإن الطوبية تصلح لبناء الحيطان والأروقة الداخلية والأقواس والأعمدة والعقود والسلالم والأدراج وشرفات الأبراج. وتستعمل أيضا في التوسعات والارتفاعات، وفي تزيين واجهات القصور وخاصة في القسم العلوي للأبراج بنقوش زخرفية هندسية مثل التقويسات والإفريز وهي تعبر عن روح إبداعية بالرغم من بساطة أشكالها. وتستغل الطوبية كذلك كستار فوق الأسوار وكمادة بنائية لاحمة بين مختلف طبقات الحائط المشيد من الطابية.

ب) الجبس والجص :

الأول يوظف في تبليط الواجهات الداخلية للجدران، بينما يستخدم الثاني في النقش والزخرفة. ويتخذ الجص شكل المكان الذي يزينه، فيحيط إطارات الفسيفساء والزليج ويحتل الجزء العلوي للأسوار وتحت السقف. كما يزين الأقواس والأعمدة الحاملة للساكف وعقود الأبواب، والمحاريب... ويتوزع الجص المنقوش على شكل إفريز أو إطار مستقيم، أومحدب أو مقوس.

ج) الخشب :

وهو ثلاثة أنواع : خشب الصفصاف، خشب الأرز وخشب النخيل. ويعتبر خشب الأرز الصنف الأكثر شهرة واستعمالا في القصور الفيلالية وخاصة المخزنية سواء في البناء أوفي الزخرفة. ويظهر عموما في الأجزاء العليا، إنه المادة المفضلة في تشييد السقوف والقباب والرتاجات الخارجية والأروقة الداخلية، وفي صنع المنابر والأبواب والمشربيات... كما استخدم أيضا خشب النخيل والصفصاف ولكن بكيفية أقل. ويصنف الخشب الموظف في البناء إلى عدة أسماء أهمها :

– المادة ويبلغ طولها ما بين ثلاثة وسبعة أمتار، بينما يتخذ سمكها شكلا مربعا متساوي الأضلع (0,30 x 0,40 متر) أو مختلف الأضلع [ما بين 0,18 x 0,30 مترا أو 0,26 x 0,40 مترا].

– الكَايزة وهي شكل من أشكال المادة ذات الأضلع المربعة [ما بين مترين ومترين ونصف] ويتراوح سمكها ما بين 0,10 و0,16 مترا.

– الورقة وترافق الكَايزة وتلتصق بها من الأسفل، ويتراوح سمكها ما بين 0,01 0,03 مترا، ويبلغ طولها ما بين متر ونصف ومترين أو مترين ونصف.

– التشبيكة و«هي أخشاب صغيرة مأخوذة من شجرة النخيل كذلك يبلغ سمكها ما بين 6 و8 سم وطولها ما بين 12 و18 سم... تسمى أيضا «تشبيكة الربط» وهي عبارة عن مواد لاحمة توظف لتشبيك أخشاب الكايزة»[134].

– الفرد وهو عبارة عن خشبة من النخيل يبلغ طولها ما بين مترين ونصف وثلاثة أمتار وعرضها بين 0,30 و 0,50 متر وتستعمل في مدخل المنازل والبيوت وأحيانا في السقف.

– القنطرة وتشبه في طولها الفرد، بينما يتراوح عرضها ما بين 0,20 و0,30 متر وتستخدم في السقف.

– الكريدة «وهي خشبة صغيرة مأخوذة من شجرة النخيل طولها ما بين 1 و1,30م، أما سمكها فمحدود بين 15 و30 سم... يتم تصفيفها وإتقانها لتكون بعض الأشكال الهندسية في السقف إما على شكل مربعات أو مستطيلات»[135].

(134) لمراني علوي (محمد) : المرجع السابق (ص 111).
(135) لمراني علوي (محمد) : نفس المرجع (ص 113).

- الجريد والقصب ويوظفان في بناء سقوف بعض البيوت وحظائر الحيوانات والدواجن.

- الساكف وهو ما يقابل العتبة من أعلى الباب، ويشيد إلى جانب السقوف والخرجات من الخشب[136].

د) الخـــزف :

وهو أنواع أهمها الزليج والبجماط والقرميد. فأما الأول فيوجد على شكل قطع صغيرة مربعة أو تربيعات أو نجمات، ويستعمل في تزيين الأرضيات والجدران ومداخل الحجرات والمساجد، فيعطيها زخرفة متميزة. وحسب جورج مارسي G. Marçais فإن «الزليج الذي بقي المغرب وفيا له، يحتل مكانة أكثر أهمية في هذه البنايات»[137]. نفس الشيء يقال عن البجماط الذي يستعمل خاصة في فرش أرضيات الحمامات والممرات والصحون المفتوحة. أما القرميد الأخضر فيتخذ طابعا وظيفيا وزخرفيا ويستعمل في واجهات الشرفات العليا للأبواب الرئيسية والصحن والرياض.

هـ) الحجـــارة :

من أهمها الجرانيت السوداء ويتم استخدامها خاصة في بناء أساس الأسوار على ارتفاع حوالي متر واحد اتقاء للرطوبة والفيضانات. تبنى الأسس بالحجارة الكبيرة يضاف إليها التراب والجبس لكي تلتحم وتملأ الفراغات بالحصى والحجارة الصغيرة. ويعتمد في تشييد هذه الأسس على طبيعة التربة، فإن كانت صلبة تشيد مباشرة فوق الأرض، بينما إذا كانت التربة هشة، فإن ذلك يستدعي حفر الأسس لعمق وعرض لا يتجاوزان متر واحد.

---

(136) Terrasse (Henri) : op-cit (p 51).
(137) Marçais (G) : *l'architecture musulmane*, op-cit (p 415).

2 ـ التصميم العمراني :

إن بناء القصر لا يعتمد بتاتا على تصميم تطبيقي ولا على تعليمات مهندس معماري، وإنما فقط على خبرة المعلم البناء الذي يحدد شكل القصر وحجمه ووضعه اعتمادا على الموقع والموضع وعدد السكان المحتملين ومواد البناء المتوفرة. ويتشكل القصر عادة من بنايات متراصة يحيط بها سور عريض ومرتفع، تتخلله عدة أبراج للحراسة. «إن كلمة القصر التي تقابلها كلمة الدوار والمدشر في باقي مناطق المغرب الأقصى، تستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات وادي زيز ووادي غريس وكذلك وادي دادس ودرعة. كما تستعمل بعض الكلمات الأخرى كمرادف لها كالقصبة وكذلك كَصيبة وكَصيرة التي هي تصغير للقصبة والقصر»[138]، ويطلق عليها بالأمازيغية تغرمت وإغرم. إلا أن القصبة «تختلف بحوض وادي درعة عن تلك الموجودة بسجلماسة، لأنها في الأولى تكون محاطة بسورين يتراوح علو الداخلي منها ما بين 1,40 و1,80 مترا، أما السور الخارجي فيكون أعلى من سابقه ويبنى بمواد صلبة كما توجد بزواياه الأربع أبراج عالية. بينما القصور بسجلماسة لا تتضمن إلا سورا واحدا وغالبا ما تلتصق به جدران المنازل»[139]. ويذهب أحد الباحثين إلى أن «الهندسة المعمارية للقصور بسجلماسة أقدم من مثيلاتها بدرعة»[140].

ومهما يكن الأمر «فالقصور قرى محصنة في السهول الصحراوية أو ما قبل الصحراوية تتسم ببنية منتظمة على وثيرة واحدة تندرج ضمن حصن له أبواب ضخمة واستحكامات ركنية أي قائمة في زوايا القصور»[141]. وربما

(138) حافظي علوي (حسن) : المرجع السابق (ص 114).

(139) Touri (A) : op-cit, (p 33).

(140) Jacques-Meunié (D) : «Abbar», op-cit (p 51).

(141) بنعبد الله (عبد العزيز) : «القصبات والقلاع الإسماعيلية»، **دعوة الحق**، عدد خاص، مارس 1988، ص 108 - 113 (ص 112).

كانت «الضرورات الأمنية هي التي أجبرت على بناء الأسوار حول جنبات القصور وهي أسوار غالبا ما تشيد فوق أساس من الحجارة درءا لفيضانات الأنهار. والقصور بسجلماسة تتخذ في غالبتها شكلا مستطيلا تتخللها أربعة أبراج في الأركان وتكون جدرانها سميكة يتراوح عرضها بين متر واحد ومترين وعلوها ما بين 5 و10 أمتار ولا يوجد بالقصر إلا مدخل واحد غالبا ما يكون مزخرفا»[142].

وتتميز القصور بتافيلالت في معظمها بتنظيم داخلي جد منسق، ذلك أن القصر غالبا ما يتخذ شكلا مستطيلا يحيط به سور عال تتخلله أبراج في الأركان وما بينها وعلى جانبي المدخل الوحيد الذي ينفتح مباشرة في السور وسط أحد الواجهات. ويكون المدخل عبارة عن قوس يزين إطاره بنقوش جميلة، وهو يؤدي إلى رواق مغطى يفضي بدوره إلى ساحة داخلية. وقد يكون السور الخارجي للقصر منفردا أو مزدوجا، أما الساحة الداخلية فتتوزع عنها مرافق القصر من المسجد، والزقاق الرئيسي الذي تتفرع عنه بشكل منظم الأزقة الثانوية والدروب والدور. و«القصر بزقاقه الرئيسي وأزقته الثانوية يشبه دروب المدن الإسلامية، مما يؤكد أنه ليس حسب شكله تجمعا سكنيا قرويا. كما أن اتجاه هذه القصور لم يكن اعتباطيا : فالزقاق الكبير يتجه غالبا نحو قبلة المسجد»[143].

ويضم القصر عدة منازل متراصة ومنتظمة حول أزقة ضيقة مغطاة. وتلعب الأزقة عدة أدوار منها ما هو طبيعي مثل التهوية ومنع تسرب الرياح المحملة بالغبار والرمل، ومنها ما هو اجتماعي يتجلى في ضمان أواصر التآزر والتكافل ومنها ما هو اقتصادي حيث تستغل الأزقة من طرف النساء في إنجاز بعض الأعمال اليدوية. وبذلك يظهر القصر على شكل «خلية سكنية

---

(142) Faure (R) : op-cit (p 140).
(143) Terrasse)Henri(: op-cit (p 56).

تضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب وتشابه أنماط العيش وأيضا بعض الترابطات الاجتماعية ذات الأصول القبلية المتعددة... السكن التقليدي المنغلق، إذ أنه يتوفر على مدخل رئيسي يعرف باسم فم القصر وفي بعض القصور نجد مدخلا أو بابا ثانويا يعرف باسم الخراجية، كما أن القصر محاط بأسوار عالية وبأبراج معدة للعملية الأمنية وللحراسة المستمرة»[144].

وتتشكل الترابطات السياسية والاجتماعية داخل القصر وفق عدة اتفاقيات تنظيمية عرفية يتم بموجبها ضبط سير الحياة العامة واليومية داخل القصر، والتي حاولت الكشف عنها وثيقة محلية تدعى مطالع الزهراء في ذرية بني الزهراء لمؤلفها مولاي الزكي بن هاشم العلوي. «هذه الوثيقة تتعلق بالمسألة العمرانية بمنطقة مدغرة وما إليها. وتبين كيف كان يتم بناء القصر وتوزيع النطاقات والحومات على فئاته وكانت تخضع هذه المسألة للوضعية المادية والمكانة الاجتماعية لكل فئة. وتبين الوثيقة المرافق التي يشارك في بنائها وبشكل لزومي كل فئات القصر، كبناء الأسوار الخارجية والأبراج والأزقة والمسجد وغيرها من المرافق العامة. وتكشف كذلك عن جملة من الشروط التي يقرها مجتمع القصر ويفرضها بصرامة على كل السكان»[145].

والقصر الفيلالي يتكون من عدة منازل تتألف بدورها من طابقين وأحيانا من ثلاثة ويفضي مدخل القصر إلى «ساحة تسمى «السكيفة» أي «السقيفة»، وبها الدرج الذي يؤدي إلى الطابق العلوي. ومن السكيفة يتم المرور إلى ساحة مغلقة تصل إليها أشعة الشمس عبر فتحة في السقف، وتضم حجرتين واحدة للمواشي وأخرى للأدوات الفلاحية. أما الطابق العلوي فيخصص غالبا لسكن الأسرة وتتوزع على جنباته الغرف، وعلى إحدى زواياه الأربعة

(144) لمراني علوي (محمد) : مرجع سابق (ص 101).
(145) عبد اللوي علوي (أحمد) : المرجع السابق، الجزء 1 (ص 27 - 28).

يبنى الدرج الثاني الذي يؤدي إلى طابق يضم غرفة أو غرفتين ويسمى هذا الطابق بـ«العلالي»[146].

وتمثل القصور العلوية أو المخزنية نموذجا رائعا للمعمار الترابي بمنطقة تافيلالت. هذه القصور تتميز بتصميم عمراني شبه موحد يتوفر على مختلف المكونات المعمارية التي تعطيه شكل وحدة سكنية متكاملة.

يقطن بداخل هذه الوحدة عادة عائلة واحدة من الشرفاء فضلا عن الخدم وأحيانا بعض الأحلاف القبلية وتضم بالإضافة إلى الدور السكنية، على المسجد والحمام والرياض والساحة العمومية... إلى آخره. وتعبر هذه القصور المحصنة عن نمط من المعمار الترابي يعكس ربما الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت في مرحلة معينة من تاريخ المنطقة. ويتجلى ذلك من خلال معاينة مكونات تصميم القصور العلوية والتي يمكن تحديدها من الخارج إلى الداخل كما يلي :

* **السور الخارجي** : يحيط بكل القصر ويتميز بعلوه الذي يتجاوز 11 مترا، تتخلله عدة أبراج مربعة يتراوح عددها ما بين 9 و13. وتكون هذه الأبراج غالبا مزينة بنقوش هندسية محززة من الطوبية.

* **الساحة الخارجية أو المشور** : وهي مخصصة لمراسيم الاحتفال والاستقبال وغالبا ما تشيد في أحد جوانبها مرابض الخيول.

* **المدخل الرئيسي** : وهو عبارة عن باب كبير ذي قوس منكسر ويحيط به برجان مربعان يمينا ويسارا فضلا عن بوابات صغيرة مغلقة. ينفتح هذا المدخل على رواق مغطى يسمى بالدكانة تخصص للحراسة وتشيد فوقها مسرية يسكنها الحارس.

---

(146) حافظي علوي (حسن) : مرجع سابق (ص 117).

* **المسجد** : يتكون من صحن مكشوف ومن خمس بلاطات ومن ثلاثة أساكب ومن المحراب والمنبر. ويتميز المسجد بثرائه الزخرفي من حيث النقوش الجصية والأشكال المصبوغة والخشب المنحوت.

* **زقاق بوطويل** : وهو عبارة عن زقاق طويل يحيط بالسور الخارجي من الداخل وغالبا ما توجد بجوانبه دور الخدم، أو يمر في الوسط فيقسم القصر إلى شطرين.

* **الساحة الداخلية** : وتستعمل أيضا للاستقبالات والمراسيم المختلفة وتؤدي مباشرة إلى الدار الكبيرة.

* **الدار الكبيرة** : وهي مقر سكنى العائلة العلوية وتتوفر على مختلف المرافق الضرورية للحياة اليومية من الأروقة المغطاة، والصحن المفتوح، والرياض، والحمام، والحريم، وقاعات الضيافة، والمخازن، والبئر، والمطبخ... وغيرها.

* **العرصات والجنانات** : وتوجد خارج السور الرئيسي وهي مخصصة لتزويد القصر بما يحتاجه من المواد الغذائية.

وتمكن دراسة الأشكال الزخرفية بهذه القصور أيضا من فهم الظروف التاريخية المصاحبة لظهورها ومن تعميق المعرفة النسبية بما كانت تزخر به مدينة سجلماسة من نقوش فنية بديعة لم تسعف المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية على تقديم تفاصيل دقيقة عنها. وتتخذ الزخارف بالقصور أصنافا متنوعة حسب طبيعتها وحسب نوعية المواد التي تتشكل منها وحسب توظيفها :

– فمن حيث المواد المستعملة تنقسم هذه الأشكال إلى ثلاثة هي : الزخرفة الطينية، والزخرفة الجصية والزخرفة الخشبية.

– من حيث تموضعها تحتل دائما الأماكن البارزة وتتخذ شكل إفريز، أو لوحة أو إطار.

– من حيث طبيعتها تصنف إلى عناصر زخرفية مصبوغة، وإلى عناصر زخرفية منقوشة وإلى عناصر مركبة أو مزدوجة. كما يمكن التمييز بين أشكال هندسية (معينات، وتشبيكات، ومربعات، ونجوم...) وأشكال نباتية (أغصان، وأزهار، ونخلات...) وأشكال مكتوبة (الملك لله/ العز لله / العافية الباقية / آيات قرآنية/ أبيات شعرية منتقاة من قصيدة البردة للبوصيري...).

من حيث التنظيم الداخلي للقصر، يمكن القول إن المعمار بتافيلالت يمثل شكلا من أشكال التضامن الجماعي والاجتماعي، ذلك أن لكل قاطن بداخله سواء كان فردا أو عائلة مكانته وحقه في المشاركة الفعلية في تدبير شؤون الحياة اليومية للقصر والتي تضبطها قواعد التعاون والتعاضد بمختلف تجلياتها. ففي الجانب الاقتصادي، تكون مصادر المياه ووسائل الإنتاج مشتركة ويتم توزيعها بدقة، ويتجلى ذلك في تجاور الحقول «الجمامن». والأكثر من هذا غالبا ما يوزع الحقل الواحد بين مالك الأرض ومالك الشجر ومالك حق السقي. كما تتضح صور التآزر في مساهمة كل أسرة حسب طاقتها، في توزيع الزكاة والأعشار والصدقات وفي أداء الكلف الاجتماعية.

في ميدان تدبير المصالح العامة، يتوفر كل قصر على جماعة تسيره وتنظمه برئاسة الشيخ الذي يتكلف بتطبيق القوانين والقرارات الصادرة عن الجماعة، وينتخب لمدة محددة ويمكن تجديد انتحابه. وتكون الجماعة مؤلفة من ممثلين عن كل سكان القصر حسب انتمائهم العرقي ووضعيتهم الاجتماعية. ويذكر محمد بن الحسن الوزان نموذجا للتنظيم الداخلي بمجتمع قصور تافيلالت خلال القرن التاسع الهجري / السادس عشر الميلادي فيقول : «ويدير كل قصر من القصور أمير خاص هو رئيس فريقه... وتضرب في هذه القصور سكة فضة وذهب... ويوجد به بعض النبلاء الأغنياء يذهب الكثير منهم إلى بلاد السودان يحملون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلونها بالذهب والعبيد»[147].

(147) الوزان (محمد بن الحسن) : المصدر السابق. الجزء 2 (ص 126).

وقد قام أحد الباحثين[148] بدراسة مختلف التنظيمات الاجتماعية في المجتمع الفيلالي من خلال مجموعة من الاتفاقيات والعقود التنظيمية التي تعتبر بمثابة الشروط والضوابط العرفية الخاصة بتنظيم الحياة العامة واليومية للعناصر الإثنية القاطنة داخل القصر الواحد. وعموما يعبر القصر عن استجابة لحاجيات متنوعة فرضتها ظروف قاهرة تتمثل في شح الموارد والتنافس عليها، فاستحالت في النهاية وحدة معمارية متعددة الوظائف وتداخلت في تشكيلها عدة عوامل أهمها :

* الماء : ويتم التحكم فيه بواسطة السواقي والخطارات وعبر تنظيمات وأعراف محلية، ومشكل قلة الماء وضرورة التغلب على ذلك بالتنظيم والتوزيع الدقيقين، ويعتبر من المشاغل الأساسية لسكان تافيلالت منذ عهد سجلماسة التي اعتمدت كل الوسائل اللازمة في ذلك مثل الناعورات والآبار والخطارات. ذلك «أن الظروف البيئية والمناخية القاسية التي كانت تعاني منها المنطقة جعلت سكان الواحات مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيات استنباط المياه الجوفية... من هنا كانت تقنية أغرور كما هو الشأن بالنسبة لتقنية الخطارة وليدة حاجة السكان للماء الجاري بصفة مستمرة لممارسة النشاط الزراعي بشكل منظم دون الاعتماد فقط على مياه الفيضانات التي يغلب عليها طابع التذبذب والموسمية»[149].

* القبيلة التي تسيرها الجماعة برئاسة الشيخ، وكانت من أسباب ظهور الأحلاف. وكانت جماعة القصر «تفرض على كل السكان بمختلف فئاتهم المشاركة في بناء التحصينات كالأبراج والأسوار والمؤسسات الدينية

(148) Mezzine (larbi) : *Contribution à l'histoire du Tafilalet : aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au XVIIème et XVIIIème siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits.* Paris I, Thèse de 3° cycle en Histoire, 3 volumes, tableaux, 2 photos et 3 cartes dépliées hors texte (X + 736 + 69 pages dactylographiées)

(149) عبد اللوي علوي (أحمد) : المرجع السابق، الجزء 1 (ص 102).

والإنتاجية العامة (المسجد ـ الفندق المعصرة...). وسعيا وراء تحقيق الأمن داخل القصر، فقد كانت المشيخة أو الجماعة تكلف بالتناوب ساكنة القصر حراسة بابه بالليل والنهار لاسيما وقت الفتنة»[150]. ففي تافيلالت يعتبر الانتماء القبلي هو العامل الرئيسي في استغلال المجال الفلاحي، فهو المنظم لعملية توزيع الماء بين ذوي الحقوق وهو المؤطر للصراعات المحلية، بل وهو العامل الذي غالبا ما يحدد المورفولوجية المعمارية للقصر.

* الزاوية : وكان لها دور روحي واجتماعي، ويتجلى خاصة في إصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة. لذلك حظيت باحترام كبير من لدن مختلف الفئات الاجتماعية بتافيلالت وكان لها مجالها المقدس وخاصة في الميدان الفلاحي، إذ كانت تتوفر الزاوية على ملكيات هامة من الحقول الزراعية ومن الأشجار ومن الماشية. في الجانب العمراني كان نطاقها المعماري بارزا سواء كان منعزلا أو مدمجا داخل أحد القصور فيسمى باسم الزاوية.

* التنوع والتكامل الاقتصاديين : يتميز القصر بتافيلالت بتواجده وسط الحقول الزراعية التي يقوم بخدمتها سكان القصر أنفسهم إلى جانب تعاطي بعضهم للحرف والتجارة. وتختلف أهمية القصور حسب انتمائها لإحدى المشيخات المكونة للمنطقة وأهمها مشيخة واد إيفلي التي يغلب عليها النشاط التجاري والوظيفة الإدارية، بينما تخصصت مشيخة السفالات في التجارة والصنائع وخصوصا النجارة. وارتبطت مشيختي السيفة وبني امحمد بالزراعة بشكل خاص. وإذا عرفت بعض القصور بنشاطها التجاري مثل تابوعصامت وأبو عام، فإن بعضها الآخر تخصص في الصنائع مثل مولاي عبد الله الدقاق في الخزف ومنوكَة في الدباغة.

(150) نفسه : نفس المرجع، الجزء 1 (ص 186).

خـلاصـــة :

شيدت مدينة سجلماسة سنة 140 هجرية / 757 ميلادية من طرف خوارج مكناسة بزعامة أبي القاسم سمكَو وعرفت نموا كبيرا خلال الثلاثة قرون الموالية. اتخذت في البداية شكل عاصمة دولة، فتوفرت على المرافق الضرورية لذلك مثل دار الإمارة، والمسجد الجامع في الوسط، والسوق بالقرب من المركز، والدور السكنية، والمرافق العمومية، والمعامل الحرفية، والحمامات العمومية، والحدائق... إلى آخره. وفي فترة الإمارة المستقلة بسجلماسة، كانت المدينة تتحكم في العلاقات بين ضفتي الصحراء وكان من نتائج ذلك أن ازدهرت المدينة ونشأت بها دور لسك العملة الذهبية. وفي المقابل جلبت لها هذه الحظوة أطماع كل القوى السياسية قبل أن يسيطر عليها المرابطون سنة 447 هجرية / 1054 ميلادية.

مع السيطرة المرابطية تحولت سجلماسة إلى عاصمة إقليم لدولة شاسعة واندمجت في شبكة اقتصادية وسياسية أكبر، وشهدت تغييرات متناقضة من حاكم إلى آخر ومن دولة إلى أخرى. وكان من نتائج كل هذه السياسات المختلفة، أن فقدت سجلماسة الكثير من بريقها، بل وأصبحت وضعيتها السياسية غامضة في نهاية العصر المريني، إذ شهدت العديد من الصراعات انتهت بتخريبها وتفرق سكانها في القصور.

وبصفة عامة إن مدينة سجلماسة وصلت إلى أعلى مستويات الرقي والتقدم وأثرت بشكل إيجابي على المناطق المجاورة والبعيدة، إلا أن مصيرها المحتوم كان مرتبطا إلى حد كبير بتجارة القوافل الصحراوية، مما جعلها أتعس حظا لما تحولت هذه التجارة نحو جهات أخرى وخاصة نحو المحيط الأطلسي، فكان ذلك إيذانا بنهايتها المؤلمة.



الفصل الخامس

○○○○○

بنيان القصر نموذج لفهم معمار سجلماسة



المبحث الحادي عشر :
الإرث التاريخي والمعماري

تقديـــم :

لم يكن اندثار سجلماسة الفجائي والسريع ليطمس معالم مدينة كانت مزدهرة ومحطة أساسية في تجارة القوافل وكذلك مركز ثقل سياسي من الضروري السيطرة عليه، قبل الإقدام على التحكم في دواليب السلطة المركزية. غير أن الدور الاستراتيجي الذي لعبته سجلماسة كان له وجهان لعملة واحدة : يتمثل الأول في أن المدينة تبوأت أسمى مراتب الرقي والتحضر، والثاني أنها كانت محط أطماع دائمة مما انهك قواها وجعلها طعما سهلا لكل القوى المتصارعة على الحكم المركزي بالمغرب.

كما أن الدور التاريخي لسجلماسة من الناحية العمرانية لم ينتهي مع تخريبها بل انتقل إلى القصور المجاورة حاملا معه الثقل الحضاري وخاصة الإرث المعماري في كل تجلياته ووظائفه. ولعل بالرجوع إلى القصور الأولى التي خلفت المدينة الأم يتضح أن كل قصر جمع حوله نوع خاص من السكان سواء من حيث العرق أو من حيث المهن المحترفة. نفس الشيء ينطبق عن المشيخات أو المقاطعات التي اتخذت لها دورا مميزا حسب موقعها وحسب نوعية ساكنتها.

I. التطورات التاريخية لما بعد سجلماسية :

1. منطقة سجلماسة في العصرين الوطاسي والسعدي :

أ) عصر الوطاسيين (875 هـ/1472م - 943 هـ/1537م) :

ينتمي الوطاسيون إلى قبائل زناتة وهم بذلك من أبناء عمومة بني مرين، كانوا في البداية عبارة عن رحل يتنقلون في الهضاب العليا بالمغرب الشرقي قبل أن يتحالفوا مع المرينيين. في العهد الوطاسي لا يُعرف إلا النزر القليل من المعطيات عن منطقة سجلماسة بسبب صمت المصادر التاريخية، ويعتقد أن المنطقة كانت مستقلة عن الحكم المركزي أو لم تحظى بأي اهتمام من طرف الوطاسيين.

ومن الأدلة المعبرة عن ذلك عدم اكتشاف أية عملة وطاسية ضربت بمعامل السكة بتافيلالت. وفي المقابل يرى أحد الأساتذة أن المنطقة انتعشت «اقتصاديا وتحركت مع ذلك العلاقات التجارية بين سجلماسة وإفريقيا جنوب الصحراء - محورا اقتصاديا - تيدكلت وكاو ونحو نول - لمطة وشنجيط في اتجاه السودان الغربي... كما تزامن هذا العصر مع الاستقرار القبلي العربي في سجلماسة : هجرة القبائل الهلالية إليها من الشمال الشرقي عبر محور تلمسان سجلماسة (القرن السابع للهجرة)، هجرة القبائل المعقلية عبر عدة محاور من الشمال الشرقي أيضا ومن الجنوب الصحراوي الإفريقي ومن حوض وادي درعة. وهذه الهجرة أعطت بداية نهاية مدينة سجلماسة وتكوين ظاهرة القصور في واحة تافيلالت وعلى ضفاف نهر زيز وغريس وبحوض درعة. وهجرة القبائل الصنهاجية الصحراوية إليها وخاصة قبائل آيت عطا»[1].

(1) العلوي القاسمي (هاشم) : «تافيلالت التاريخ والواقع»، **واحة تافيلالت**، العدد الثاني، 2000، (ص 8 - 9).

ما عدى هذه الإشارة، فإن باقي المعلومات والقليلة جدا، يمكن إجمالها فيما يلي :

* ما بين سنتي 916 هجرية / 1510 ميلادية و943 هجرية / 1537 ميلادية ظلت تافيلالت في غالب الأحيان تابعة ولو اسميا للحكم الوطاسي.

* في سنة 930 هجرية / 1524 ميلادية قام السلطان أبو العباس أحمد الوطاسي (930 هجرية / 1524 ميلادية - 954 هجرية / 1548 ميلادية) بتقديم المساعدة لممثله بتافيلالت مولاي عمر قصد مواجهة كل الأخطار المحدقة.

* في سنة 932 هجرية / 1526 ميلادية أرسل نفس السلطان حملتين عسكريتين إلى منطقة سجلماسة.

* في سنة 936 هجرية / 1530 ميلادية وقع سلطان فاس معاهدة سلام مع الشريف السعدي أحمد الأعرج بمراكش وبموجبها تخلى هذا الأخير على تافيلالت لصالح الوطاسيين.

* في سنة 942 هجرية / 1536 ميلادية عين السلطان أبو العباس أحد القادة حاكما على تافيلالت وأرفقه بثلاثمائة من الرماة.

* في سنة 943 هجرية / 1537 ميلادية سيطر السعديون على تافيلالت، مباشرة بعد انتصارهم على بني الوطاس في معركة وادي العبيد سنة 942 هجرية / 1536 ميلادية.

وتشير بعض المصادر إلى أن السعديين «انتهزوا الهدنة الموقعة مع البرتغاليين بآكادير، فقاموا بشن حملة عسكرية على تافيلالت، حيث حاصروها في شتنبر من عام 1537 ميلادية وقذفوها بعض الوقت بالمدفعية

التي استولوا عليها في موقعة العبيد. فاستسلم المزوار الوطاسي على المدينة، فرجع الشريف إلى مراكش بعد أن ترك حامية عسكرية بالمنطقة»[2].

* ما بين سنة 943 هجرية / 1537 ميلادية و948 هجرية / 1542 ميلادية كانت تافيلالت تابعة لنفوذ السعديين بمراكش.

* في سنة 946 هجرية / 1540 ميلادية حاول الوطاسيون استرجاع تافيلالت دون نتيجة.

* في سنة 947 هجرية / 1541 ميلادية عين أحد أبناء أحمد الأعرج حاكما على منطقة سجلماسة. وفي نفس الوقت حاول أحد الأمراء الوطاسيين القيام بحملة على المنطقة اعتمادا على قوة ضخمة، فوقع صراع بين الطرفين تدخل بموجبه الأعرج لمساندة ابنه، مما أدى إلى فشل الحملة الوطاسية.

* في سنة 948 هجرية / 1542 ميلادية استغل الوطاسيون الخلاف الذي «نشب بين الأخوين السعديين أحمد الأعرج ومحمد الشيخ بعد سيطرتهم على آكادير، فاسترجعوا إقليم سجلماسة تحت إشراف أحد القياد»[3].

* في سنة 950 هجرية / 1544 ميلادية سيطر السعديون على تافيلالت بصفة نهائية.

* في السنوات الأخيرة من العصر الوطاسي عرفت عدة مناطق مغربية من بينها تافيلالت العديد من الاصطدامات الدامية انتهت بتبعيتها للسلطة السعدية.

ب) عصر السعديين (943 هـ/1537م - 1035هـ/1626م) :

السعديون هم شرفاء أبناء عمومة العلويين و«ينحدرون من الينبوع بالجزيرة العربية، جدهم الأول أحمد بن محمد بن القاسم وصل إلى المغرب في أواسط

(2) De Castries (Henri) : *Sources Inédites de l'Histoire du Maroc.* 1ère série, dynastie Saâdienne (1530 -1560) Portugal. III, Paris, édition E. Leroux 1921 (p 121 et p 131).
(3) De Castries (Henri) : op-cit. Portugal. IV (p 120).

القرن القرن 12 للميلاد واستقر بدرعة))[4]. الزعيم الروحي للسعديين هو محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله (916 هجرية /1510/1511 ميلادية - 923 هجرية / 1517/1518 ميلادية) وقد اختار قبل موته، ابنه الأكبر أحمد الأعرج قائدا للسعديين في مقاومة الاحتلال البرتغالي للشواطئ الأطلسية المغربية.

خلال العهد السعدي، لم تشر المصادر المغربية بكثرة لمنطقة تافيلالت ربما بفعل بعدها وعزلتها، وكانت هذه المصادر تهتم أساسا بالصراع السعدي الإيبيري وبالصراع السعدي التركي وبالتوغل السعدي في بلاد السودان. و بالرغم من قلة المعلومات حول المنطقة فذلك لا يعني أن السعديين لم يعطوا أهمية لتافيلالت، بل بالعكس كانت هذه المنطقة ضرورية في مشروعهم السياسي - خاصة مع توفرها على دار لسك العملة، وعلى إنتاج فلاحي مهم من التمر والحبوب وعلى مركز تجاري نشيط نسبيا - على الأقل قبل سيطرتهم على بلاد السودان الغربي تحت قيادة السلطان أحمد المنصور الذهبي.

من جهة أخرى، يمكن القول إن تافيلالت كانت بمثابة الملجأ أو الإقامة الإجبارية للأمراء المتمردين والمغضوب عليهم. وفي هذه المرحلة ((شهدت هذه المنطقة الفيلالية نهضة صوفية وعلمية واقتصادية انطلاقا من الترابطات الإقليمية المغربية عبر طرق المواصلات الداخلية وعبر نشاط الواحات وترابطاتها محليا، وظهرت فيها تشكيلة بشرية متصارعة أحيانا ومتضامنة أحيانا أخرى أثرت فيها الظروف الاقتصادية وفترات الجفاف، الأوبئة، الطاعون وقساوة الطبيعة))[5].

ويمكن إجمال أهم الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة خلال الفترة السعدية كما يلي :

(4) Le Tourneau (Roger) :«la naissance du pouvoir sa'dien vue par l'hitorien Al-Zayyani». *Extrait des mélanges Louis Massignon*. Damas, Institut Français 1957 (p 73).

(5) العلوي القاسمي (هاشم) : المرجع السابق (ص 9 - 10).

– ما بين سنة 930 هجرية / 1524 ميلادية و950 هجرية / 1544 ميلادية كانت تافيلالت مسرحا للصراع الوطاسي السعدي من أجل التحكم في مواردها الغنية.

– في سنة 947 هجرية / 1541 ميلادية وبعد السيطرة على آكادير وتقسيم الغنائم، وقع خلاف بين الأخوين أحمد الأعرج ومحمد الشيخ كان ضحيته الأعرج الذي انهزم وفر إلى تافيلالت رفقة عائلته وظل فيها من سنة 948 هجرية / 1542 ميلادية إلى سنة 956 هجرية / 1550 ميلادية.

– في سنة 956 هجرية / 1550 ميلادية احتل محمد الشيخ بالقوة تافيلالت وطرد منها أخاه الأعرج الذي حاول بدعم من الملك الوطاسي بفاس أخذ الثأر من أخيه.

– في سنة 958 هجرية / 1552 ميلادية هاجم مولاي زيدان بن الأعرج عمه محمد الشيخ بتافيلالت ولكن دون جدوى.

– في سنة 960 هجرية / 1554 ميلادية استغل الأعرج وابنه زيدان هزيمة محمد الشيخ أمام الوطاسيين للسيطرة على تافيلالت لبعض شهور على الأقل. وقام الأعرج وابنه بتوقيع اتفاقية مع الملك الوطاسي أبي حسون قصد شن هجوم مشترك ضد محمد الشيخ على أساس أن يتم في حالة الانتصار تقسيم المغرب إلى شطرين : الأعرج «يأخذ مناطق مراكش، وسوس ودرعة بينما يكون شمال المغرب، وتادلة وتافيلالت تابعين لأبي حسون»[6]. إلا أن هذه الاتفاقية لم يكتب لها النجاح حيث استطاع محمد الشيخ من هزم منافسيه فسيطر على تافيلالت سنة 960 هجرية / 1554 ميلادية وسجن أخاه الأعرج مع

(6) Le Tournea (Roger) : *Les débuts de la dynastie sa'dienne jusqu'à la mort du sultan M'hamed ech-Cheikh (1557).* Alger, Institut des Etudes Supérieures Islamiques d'Alger 1954 ; 64 pages (p 60).(7) Jacques-Meunié (D) : *le Maroc Saharien.* op-cit. 1° volume (pp 551-552)

ابنه زيدان وبذلك خضعت المنطقة لمحمد الشيخ إلى غاية وفاته سنة 963 هجرية / 1557 ميلادية.

– ما بين سنة 963 هجرية / 1557 ميلادية و1000 هجرية / 1595 ميلادية بقيت تافيلالت إقليما تابعا للسعديين يحكمه أحد أبناء السلطان الحاكم، أولا من طرف أولاد محمد الشيخ ثم أبناء الناصر من بعده.

– في سنة 1000 هجرية / غشت 1595 ميلادية قام أحمد المنصور، بعد انتصاره على أخيه الناصر قرب مدينة فاس بفضل مساعدة ابنه الشيخ، برد الجميل لابنه فعينه عاملا على تافيلالت يساعده ألف من الرماة.

– في سنة 1007 هجرية / 1602 ميلادية عين السلطان أحمد المنصور ولي عهده وابنه المامون عاملا على تافيلالت ودرعة مع تخصيصه بالاستفادة من عائداتها وذلك قصد إبعاده عن فاس عسى أن يتراجع عن بعض أفعاله المسيئة لسمعته[7]، إلا أن المامون لم يتأخر في التمرد ضد أبيه، فهاجم فاس في نفس السنة قبل أن يطرد من طرف المنصور.

– في سنة 1010 هجرية / 1603 ميلادية ومع وفاة أحمد المنصور تصارع أولاده على الحكم، حيث بويع المامون بفاس وسيطر على تافيلالت التي عين عليها قائده الحاج الميرا.

– ما بين سنة 1016 هجرية / 1609 ميلادية و1020 هجرية / 1013 ميلادية عرفت منطقة تافيلالت ظهور حركة ابن أبي محلي الذي بويع من طرف سكان المنطقة سنة 1016 هجرية / 1609 ميلادية. وشكلت تافيلالت القاعدة الأساسية لهذه الحركة السياسية خاصة وأن أصل متزعمها يرجع إلى زاوية القاضي الموجودة بالمنطقة. فمنها انطلق للسيطرة على واحة درعة التي تعتبر

(7) Jacques-Meunié (D) : *le Maroc Saharien*. op-cit. 1° volume (pp 551-552)

الشريان الأساسي للاقتصاد السعدي وفيها ضرب السكة باسمه، قبل أن يهجم على السعديين في عقر دارهم ويسيطر على عاصمتهم مراكش سنة 1017 هجرية / 1610 ميلادية. «وقد اتجه [المرابط ابن أبي محلي] بعد ذلك إلى تافيلالت حيث خاض معركة ضد القائد الميرا انهزم فيها هذا الأخير والذي اضطر إلى الفرار إلى ولاية درعة وفي تافيلالت قام المرابط بفرض الجبايات على الأهالي حيث أرغم الجميع على دفعها. وكان يسوغ قيامه بذلك بحاجته إلى الأموال قصد القتال في سبيل الله، وبهذه التعليلات تمكن كذلك من ضم عدد كبير من الرجال إلى جيشه»[8].

— وفي سنة 1019 هجرية / 1612 ميلادية «قام أبو العباس أحمد بن عبد الله ـ أبو محلي ـ الذي ينحدر من أسرة معربة من أصل مغراوي ولمتوني، الفقيه والمتشبع بمبادئ الزاوية الرحمونية، بالهجوم على منطقة سجلماسة على رأس 400 إلى 500 من أتباعه»[9]، فاحتل تافيلالت ثم درعة ومراكش.

وكان لقوة هذه الحركة ولكثرة الأتباع الموالين لها، أن شكلت خطرا محدقا بالدولة السعدية فكان ولابد من إخمادها في مهدها قبل اتساع رقعتها. و«لما علم مولاي زيدان بالهزيمة التي لحقت بالقائد الميرا وكيف أن المرابط قتل أغلب الرجال الذين يرافقونه حز في نفسه ذلك كثيرا... قام [القائد] بإعادة تنظيم قواته وقد تم ذلك بشكل سريع وعشوائي»[10]. ولم تنتهي حركة ابن أبي محلي سنة 1020 هجرية / 1613 ميلادية إلا بعدما دخل في

---

(8) دي هنين (خورخي) : **وصف الممالك المغربية (1603 ـ 1613) مذكرة خورخي دي هنين**، ترجمة عبد الواحد أكمير، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الطبعة الأولى، دجنبر 1997، 253 صفحة (ص 138).

(9) Bassac : " Sijilmassa d'après les auteurs arabes", *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord*, 1927 ; pp. 451-67 (p 463).

(10) دي هنين (خورخي) : المرجع السابق (ص 138 ـ 139).

الصراع إلى جانب الملك السعدي مولاي زيدان المرابط يحيى بن عبد المنعم الحاحي.

– ما بين سنة 1020 هجرية / 1613 ميلادية و1030 هجرية / 1623 ميلادية ظلت تافيلالت تحت حكم الدولة السعدية.

– في سنة 1030 هجرية / 1623 ميلادية قامت ثورة أحد أولاد ابن أبي محلي ويدعى أحمد بن عبد الله وهو كذلك من مواليد المنطقة سنة 967 هجرية / 1564 ميلادية. إذ ثار ضد عامل السعديين بتافيلالت، مما اضطر السلطان مولاي زيدان إلى أن ينتقل بقواته إلى المناطق المجاورة لتافيلالت بل وأجبر على تجميد كل نشاطه التجاري والدبلوماسي ريثما يتم القضاء على هذه الثورة. وانهزم المرابط من طرف أحد أبناء السلطان والتجأ إلى توات. «إن احتضان أهل تافيلالت لبيعة مولاي الشريف بن أبي زكريا سنة 1622 وفشلها نستخلص إذن أن المنطقة قد بقيت خلال ما يزيد من أربعة عشر سنة (1609 - 1623) في غليان سياسي مستمر وأن مشروعية الحكم السعدي بها أصبحت مهددة لانعدامها الفعلي»[11].

– في سنة 1033 هجرية / 1626 ميلادية استغل سيدي علي محمد الجزولي السملالي، الملقب ببودميعة أو أبي حسون، زعيم زاوية تازروالت بالسوس، تدهور السلطة السعدية ومن الفراغ السياسي بتافيلالت، من أجل السيطرة على هذه المنطقة.

مع هذا الحدث دخلت منطقة تافيلالت مرحلة جديدة شهدت الصراع السملالي الدلائي على المنطقة قبل أن ينجح العلويون في طرد كل الخصوم والطامعين وتوحيد المغرب تحت سلطتهم انطلاقا من هذه المنطقة.

(11) مزين (العربي) «بداية الدولة العلوية بتافيلالت»، مرجع سابق (ص 42).

2. تافيلالت في عصر العلويين :

أ) العصر العلوي الأول :

في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ذهبت جماعة من أعيان سجلماسة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج ولاستقدام أحد الأشراف العلويين قصد الاستعانة به في فض الصراعات السياسية والقبلية وفي حل الأزمات الاقتصادية بالمنطقة. فوقع اختيارهم على مولاي الحسن بن القاسم المعروف بالداخل الذي وصل إلى المنطقة سنة 664 هجرية 1265 ميلادية وتوفي بها سنة 678 هجرية / 1279 ميلادية حيث دفن بالمكان المسمى المصلح، وسط واحة تافيلالت. وبفضل نبله ونسبه وعلمه، استقبل الشريف العلوي بحفاوة من طرف السجلماسيين، ورضوه أن يستقر بين ظهرانهم، فكان يقوم بإصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة وعمل على استصلاح أشجار النخيل.

ترك مولاي الحسن الداخل من بعده ذرية اشتهر منها مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد بن الحسن بن القاسم، ولد سنة 762 هجرية / 1361 ميلادية وكان رجلا صالحا عالما ومجاهدا، استوطن مدينة فاس بحومة الجزاء بن عامر بعدوة القرويين وكذلك بمدينة صفرو وجاهد بالأندلس عدة مرات، حتى ذهب أهل الأندلس إلى حد إقناعه بالرئاسة عليهم إلا أنه رغب وزهد عن ذلك. كما جاهد ببلاد السودان فعمل على نشر الإسلام ومحاربة المعتقدات الضالة من وثنية وشرك. وكان عالما كبيرا تخرج على يديه عدد من العلماء وترك عدة مؤلفات. توفي سنة 847 هجرية / 1446 ميلادية عن عمر يناهز 84 سنة ودفن أول الأمر بقصر تغمرت [الخلوة] قبل أن ينقل جثمانه إلى ضريحه الحالي الذي بناه السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وعن مولاي علي الشريف ينحدر مولاي الشريف بن علي الذي أصبح حاكم تافيلالت ما بين سنة 1037 هجرية / 1630 ميلادية و1042 هجرية / 1635 ميلادية وكان تحت حماية الزاوية السملالية في حين كان قصر تابوعصامت يحكمه بنو الزبير الموالين للزاوية الدلائية. وكان من نتائج ذلك أن أصبحت المنطقة مسرحا للتنافس بين السملاليين والدلائيين قبل أن يتمكن العلويون من بسط سيطرتهم عليها في آخر المطاف.

في سنة 1037 هجرية / 1630 ميلادية شن محمد الحاج الدلائي حملة ضد تافيلالت فاحتل العديد من قصورها ومن بينها تابوعصامت. في نفس الوقت وأمام انعدام الأمن بسبب الصراع الدلائي السملالي على المنطقة، بايع الفيلاليون، ما عدى بني الزبير - أهل تابوعصامت - مولاي الشريف.

مع هذه المستجدات، اضطر بنو الزبير للتحالف مع الدلائيين، بينما استنجد مولاي الشريف وأتباعه بالزاوية السملالية. في سنة 1040 هجرية / 1633 ميلادية وفي الوقت الذي أصبح فيه نفوذ الزعيم السوسي قويا، بايع «أهل تابوعصامت سيدي علي بودميعة واعتبروه حاكم المنطقة وهم من أتباعه»[12]. في حين تحالف مولاي الشريف مع الدلائيين بفعل تضرره من ثقل الضرائب المفروضة من طرف زعيم تازروالت. وكان نتيجة الصراع السملالي الدلائي والخلاف بين مولاي الشريف والبوعصاميين، أن قام مولاي امحمد بن الشريف بهجوم ضد بني الزبير. «إن موقف تابوعصامت قد أملاه حقيقة الدفاع عن مصالح موضوعية مهددة بالتوحيد المحتمل للواحة وللمنطقة في حين أن بيعة مولاي الشريف بن علي التي لا يمكن أن

(12) Jacques-Meunié (D) : *Greniers - citadelles au Maroc*. Paris, Art et Métiers Graphiques 1951. Deux volumes. Publication de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, n° : LII. 2 cartes dépliées hors texte, 96 illustrations, plans, gravures dans le texte ; 358 pages (p 205).

نفي ضمن أسبابها وجود مبررات مصلحية مختلفة للداعين إليها (التجارة، والسلطة) كانت حدثا جماعيا متشعب الأسباب ينم عن قلق لوضع متأزم دام ما يزيد على ثلث قرن»[13]، مما أثار حفيظة أبي حسون الذي أعطى أوامره لعامله بتافيلالت أبي بكر للقبض على مولاي الشريف.

وبالفعل استطاع أبو بكر الذي استعمل كل أساليب الخداع من سجن الشريف العلوي وأسره إلى قصر سيدي علي الحسين بمنطقة سوس سنة 1042 هجرية / 1635 ميلادية. وأمام هذه الوضعية حاول مولاي امحمد قيادة الفيلاليين لفك سراح أبيه، إلا أنه مع تقديره لقوة السملاليين وبفعل افتقاده لجيش منظم، قام بالتفاوض مع سيدي علي السملالي لإطلاق سراح مولاي الشريف مقابل فدية وذلك سنة 1048 هجرية / 1640 ميلادية.

ما بين 1041 هجرية / 1634 ميلادية و1043 هجرية / 1636 ميلادية قام الدلائيون برئاسة زعيمهم محمد الحاج، بشن حملتين متتابعتين على تافيلالت من أجل استرجاع نفوذهم.

في سنة 1047 هجرية / 1639 ميلادية استجاب مولاي امحمد لنداء أهل فاس الذين ثاروا ضد الدلائيين، فاستطاع السيطرة على المدينة وسجن القائد الدلائي. إلا أن الشريف العلوي تعرض لهزيمة أمام الدلائيين في معركة ظهر الرمكة سنة 1058 هجرية / 1650 ميلادية مما جعله يتراجع إلى تافيلالت استعدادا لمحاولات أخرى. وهكذا هاجم تلمسان سنة 1066 هجرية / 1658 ميلادية وفاس سنة 1069 هجرية / 1660 ميلادية.

إلا أن طموحات مولاي امحمد لم يكتب لها الاستمرار، إذ وقف في وجهه أخوه مولاي رشيد سنة 1072 هجرية / 1664 ميلادية. هذا الأخير وبعد

---

(13) مزين (العربي) : المرجع السابق (ص 50).

أن غادر تافيلالت عقب وفاة أبيه سنة 1068 هجرية / 1660 ميلادية استقر بالزاوية الدلائية ثم بفاس وشمال المغرب وبجنوب وهران حيث بايعته الكثير من القبائل وخاصة من بني معقل وبني يزناسن كما استطاع أن يكون قاعدة مادية بسيطرته على ذخائر دار ابن مشعل سنة 1072 هجرية / 1664 ميلادية. وقد دارت معركة دامية بين الأخوين بمنطقة أنجاد في 1072 هجرية / 3 غشت 1664 ميلادية، انهزم وقتل فيها مولاي امحمد. فقام مولاي رشيد اثر ذلك وضمن استراتيجيته لتوحيد المغرب بالسيطرة على تازة سنة 1073 هجرية / 1665 ميلادية، هذا في الوقت الذي رفض سكان تافيلالت الاعتراف به، فبايعوا ابن أخيه مولاي محمد الصغير. أمام هذه الوضعية اضطر مولاي رشيد إلى إرجاء تنفيذ مخططه الوحدوي، حيث سارع إلى شن حملة على تافيلالت، فحاصر مولاي محمد لمدة تسعة أشهر قبل أن يستطيع السيطرة عليها وتنظيم أموره بها «فدخل المدينة[14] وبويع في كل تافيلالت. وبعد أن قام بترميم أسوار المدينة وبتنظيم دفاعها وبتعيين أخيه الحران حاكما عليها غادر المنطقة»[15] في خريف سنة 1073 هجرية / 1665 ميلادية.

بعد استرجاع نفوذه بتافيلالت وتجديد اتفاقية الحدود مع أتراك الجزائر، ركز مولاي رشيد جهوده في القضاء على كل القوى المقسمة للتراب المغربي. فسيطر على الريف وشمال المغرب سنة 1074 هجرية / 1666 ميلادية، ثم على فاس في نفس السنة، وعلى الزاوية الدلائية سنة 1075 هجرية/ 1667 ميلادية، وعلى مراكش سنة 1076 هجرية / 1668 ميلادية وعلى الزاوية السملالية سنة 1078 هجرية / 1670 ميلادية. وبذلك أصبح الحاكم الوحيد للمغرب على الأقل لمدة عامين. «في 9 أبريل 1672 توفي مولاي رشيد وفي

(14) يقصد هنا ربما كل المنطقة خاصة إذا علمنا أن مدينة سجلماسة في هذه الفترة لم يعد لها وجود في هذه الفترة، وربما يعني قصر الريصاني الذي شيده مولاي الشريف حسب الرواية الشفوية.

(15) Jacques-Meunié (D) : *Le Maroc Saharien*. op-cit (p 704).

14 من أبريل خلفه أخوه أبو النصر مولاي إسماعيل، ولي عهده والذي بويع بالإجماع سلطانا على المغرب وكان عمره يبلغ 26 سنة»[16]. وحاول مولاي إسماعيل توطيد دعائم الدولة الفتية التي ورثها عن أخيه، فاستطاع أولا القضاء على كل المتمردين ضده ومن بينهم أخاه مولاي الحران الذي ثار بالجنوب وسيطر على تافيلالت وعلى كل الواحات الجنوبية [توات، وكَورارة ودرعة] سنة 1085 هجرية / 1677 ميلادية. إلا أن مولاي الحران وجد أمامه منافسا أخر أكثر قوة والمتمثل في أخيه مولاي حمادي الذي زاحمه في السيطرة على الواحات والتجارة الصحراوية التي لا تزال نشيطة نسبيا. «استطاع مولاي الحران الانتصار على أخيه واسترجع حكمه على المنطقة لفائدة السلطان الذي عفا عنه وأرسله إلى توات سنة 1678 ميلادية»[17].

وقد خص مولاي إسماعيل هذه المنطقة بعناية خاصة، فعين أحد أبنائه مكلفا بتسيير أمورها وقام ببناء عدة قصور وقصبات قصد إيواء بعض أبنائه الذين كانوا يفضلون الاستقرار بتافيلالت ومن ذلك قصبة مولاي المامون بتزيمي، وقصر لبطرني، وقصر مزكيدة، وقصر الفيضة، وقصر الشقارنة، وقصبة مولاي أحمد الذهبي، وقصر المنصورية، وقصبة أولاد يوسف، وقصبة المدرسة، وقصبة المولى الشيخ، وقصبة المولى المكتفي، وقصبة عمارة، وقصبة بني ميمون الشرفاء، وقصبة أولاد عائشة، وقصر أولاد عدو، وقصبة كرينفود، وقصر المعاركة، والقصبة الإسماعيلية... وغيرها كثير. وفي سياسته الهادفة إلى تقوية الدولة الناشئة، قام السلطان مولاي إسماعيل بتنظيم الإدارة الترابية لمملكته عن طريق تقسيمها إلى عدد من الأقاليم عين على رأسها أحد الولاة يساعده قائد عسكري وحامية من الفرسان.

---

(16) Bassac : op-cit. (p 406).
(17) Martin (A.G.P.) : *Quatre siècles d'histoire marocaine, au Sahara de 1504 à 1902, au Maroc de 1894 à 1912, d'après les archives et documentation indigènes.* Paris, édition Ernest Leroux 1923 (p 64).

وكان إقليم تافيلالت من أهم هذه الأقاليم ويضم فضلا عن واحة تافيلالت باقي الواحات الصحراوية ومنها درعة، وتوات وكورارة وكان يحكمها أول الأمر ابنه مولاي الحران يساعده في ذلك 500 فارس، ثم خلفه أخوه مولاي يوسف من بعده. كما أن السلطان قام بزيارة المنطقة عدة مرات وأعطى أهتم بإصلاح أحوالها وبتعميرها.

ففي رحلته لتافيلالت خلال نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، قام هذا السلطان بتشييد أو بإعادة بناء عدة قصور وقصبات أهمها القصبة السجلماسية التي كانت بمثابة مقر الإدارة المحلية، وكانت محاطة بسور قوي وتضم القلعة والمسجد الجامع فضلا عن المدارس القرآنية ومنازل الموظفين السامين. كما «جدد مولاي إسماعيل سقوف المنازل الواقعة بداخل القصبة... وأسس مخزنا للبارود... وشيد المدارس لدراسة القرآن وباقي فروع التعليم الإسلامي... وكذلك المساكن»[18].

وبعد حكم دام 55 سنة وعمرا يناهز 80 عاما، توفي مولاي إسماعيل في سنة 1137 هجرية / حوالي 22 مارس 1727 ميلادية ومنذ هذا التاريخ وإلى غاية تولي سيدي محمد بن عبد الله الحكم، عاشت منطقة تافيلالت، فترة من عدم الاستقرار. إذ تخاصم أولاد مولاي إسماعيل، «فاضطربت أحوال تافيلالت وخربت معالمها كما انقطعت موارد الصيانة والتدريس، وانصرف التلاميذ والأساتذة عن القصبة وذهبوا للاستقرار بقصورهم. فأصبحت المدينة العامرة [القصبة السجلماسية] خاوية من سكانها»[19]. وحاول السلطان سيدي محمد بن عبد الله [1167 هجرية / 1757 ميلادية - 1200 هجرية / 1790 ميلادية] الذي زار المنطقة سنة 1194 هجرية / 1783 - 1784 ميلادية إعادة الحياة إلى

(18) Dastugue (Henri, le Lieutenant Colonel) : "Quelques notes au sujet du Tafilet et Sidjilmassa", *Bulletin de la Société de Géographie*. Paris, Tome : XII, avril 1867; 3 cartes hors texte, pp. 337 - 380 (p 370).

(19) Idem : (p 371).

القصبة السجلماسية وذلك بترميم مدارسها ومنازلها. فـ«قام بفتح المدارس التي كان الأطفال يتابعون بها حفظ القرآن والتعليم العالي، منهم 500 كانوا على نفقة الدولة. كما قام بتنفيذ عدة إصلاحات بمرافق القصبة السجلماسية وبتغيير سقوف بنايات المسجد الجامع»[20]. ومن بين منجزاته كذلك نجد قصر عمارة الذي خصصه لابنيه مولاي هشام ومولاي اليزيد سنة 1183 هجرية / 1773 ميلادية، ثم قصر الدارالبيضاء لفائدة ابنه مولاي سليمان سنة 1197 هجرية / 1787 ميلادية. كان حاكم تافيلالت خلال عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ابنه مولاي سليمان ثم المؤرخ أبي القاسم الزياني بن أحمد بن علي.

ب) تافيلالت خلال القرن 13 الهجري / 19 الميلادي :

مع وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله تولى الملك من بعده ابنه المولى اليزيد الذي لم يدم حكمه سوى عامين حيث خلفه أخوه مولاي سليمان الذي كان رجل علم وزهد وعاش قسطا من حياته بتافيلالت. ووفقا لسنة سابقيه، زار مولاي سليمان المنطقة سنة 1215 هجرية / 1804 ميلادية فعين محمد السريدي عاملا عليها وأقام فرقا مسلحة بالقصور قصد حراستها ضد هجمات القبائل. و«أشرف على تنصيب حاميات الجيش بمختلف المناطق التي عين عليها ولاة جددا ومن بينها غريس وزيز ومدغرة»[21]. كما قام السلطان في 1225 هجرية / 1814 ميلادية بإنشاء «مخزن للبارود بالمكان المعروف بالمصرية والواقع بداخل السور المحيط بقصر الريصاني ودار الزياني»[22]. وبذلك أصبح قصر الريصاني المقر الإداري لإقليم تافيلالت والذي عوض القصبة السجلماسية التي تعرضت ربما للتخريب حوالي سنة

(20) Dastugue (Henri) : op-cit (p 371).

(21) حركات (إبراهيم) : **المغرب عبر التاريخ**، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الثانية، ثلاثة أجزاء 1984، الجزء الثالث (ص 147).

(22) Dastugue (H) : op-cit. (p 371).

1228 هجرية / 1818 ميلادية بفعل الصراعات القبلية، هذا في الوقت الذي أصبح فيه قصر أبو عام مركز الحركة الاقتصادية بالمنطقة.

ومع ذلك لم تنمحي القصبة السجلماسية من ذاكرة السكان المحليين على الأقل في جانبها الروحي، إذ ظل مسجدها الجامع حيا إلى غاية بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي وكانت تقام فيه صلاة الجمعة والعيدين. بعد وفاة السلطان مولاي سليمان سنة 1232 هجرية / 1822 ميلادية خلفه مولاي عبد الرحمان بن هشام الذي كان بدوره يقيم بتافيلالت ولفترة طويلة، قبل أن يستقدمه السلطان مولاي سليمان فولاه على الصويرة وأعمالها ثم حاكما على مدينة فاس.

وخلال عهد هذا الأخير يمكن تلخيص الأحداث التي عرفتها المنطقة كما يلي :

* فقد شهدت هذه الفترة «أزمة في تاريخ تافيلالت والأيالة السجلماسية كما يسميها المؤرخ المغربي أبي القاسم الزياني... وخاصة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وعرفت المنطقة هجرة بشرية مكثفة نحو شمال المغرب ومدنه الكبرى مثل فاس، مكناسة الزيتون، تازة، مراكش، الرباط وغيرها... [مما] أثر بشكل سلبي على الحياة العامة لتافيلالت وأضعف إمكانياتها»[23].

* تمرد مولاي عبد السليم بن مولاي سليمان الذي بويع بتافيلالت بوصفه الوريث الشرعي لعرش أبيه، إلا أنه فشل في حركته.

* ما بين 1232 هجرية / 1822 ميلادية و1240 هجرية / 1830 ميلادية كان عامل تافيلالت هو مولاي أحمد بن عبد الواحد.

(23) العلوي القاسمي (هاشم) : المرجع السابق (ص 10).

* في سنة 1246 هجرية / 1836 ميلادية كان يحكم المنطقة القائد العربي الرحماني.

* ما بين 1265 هجرية / 1855 ميلادية و1266 هجرية / 1856 ميلادية عين مولاي عبد الرحمان، إبراهيم يسمر - زعيم قبيلة آيت إزدك - عاملا على المنطقة، إلا أن هذا الأخير كبر طموحه وأغواه المنصب، فتمرد قبل أن يقتل فيما بعد.

* في هذه المرحلة أيضا ازداد انقسام سكان تافيلالت إلى أحلاف متصارعة أهمها حلف آيت يافلمان وحلف آيت عطا. وكان لهذا الانقسام أن غرقت المنطقة طيلة النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي في دوامة من الصراعات المتتابعة كان لها الأثر السلبي في انعدام الاستقرار والأمن.

* في سنة 1269 هجرية / 1859 ميلادية توفي السلطان مولاي عبد الرحمان فخلفه ابنه سيدي محمد الذي عين ابنه مولاي رشيد حاكما على تافيلالت وعلى كل الواحات الجنوبية [توات، وكَورارة] كما أعاد تنظيم المنطقة بشكل محكم، فكانت إدارتها تتكون من : خليفة السلطان (مولاي رشيد)، والمستشارين، والقائد (علي وداود في 1270 هجرية / 1860 ميلادية، ثم عمر، ثم لحسن بن محمد الدليمي في 1282 هجرية / 1872 ميلادية)، وقاضي الجماعة، وشيوخ القبائل، وشيوخ الجماعات، والمحتسب وموظفي المخزن.

وفي نفس السياق كان يبلغ عدد سكان تافيلالت خلال نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي حوالي 45 ألف نسمة يتوزعون على أكثر من 150 قصرا وقصبة. كما تم خلال هذه الفترة تقسيم المنطقة إلى ست مشيخات رئيسية تحكمت فيها بشكل خاص الانتماءات العرقية والدينية والمصلحية التي يمكن تحديدها كما يلي :

• حلف آيت عطا ويتكون أساسا من آيت خباش، وآيت إعزى وعرب بني امحمد.

• حلف آيت يافلمان ويضم بشكل خاص آيت مرغاد، وعرب الصباح بالسيفة وعرب السفالات.

• عنصر الشرفاء والمرابطين من العلويين والأدارسة ويرتكز دورهم في الوساطة والصلح بين القبائل المتصارعة.

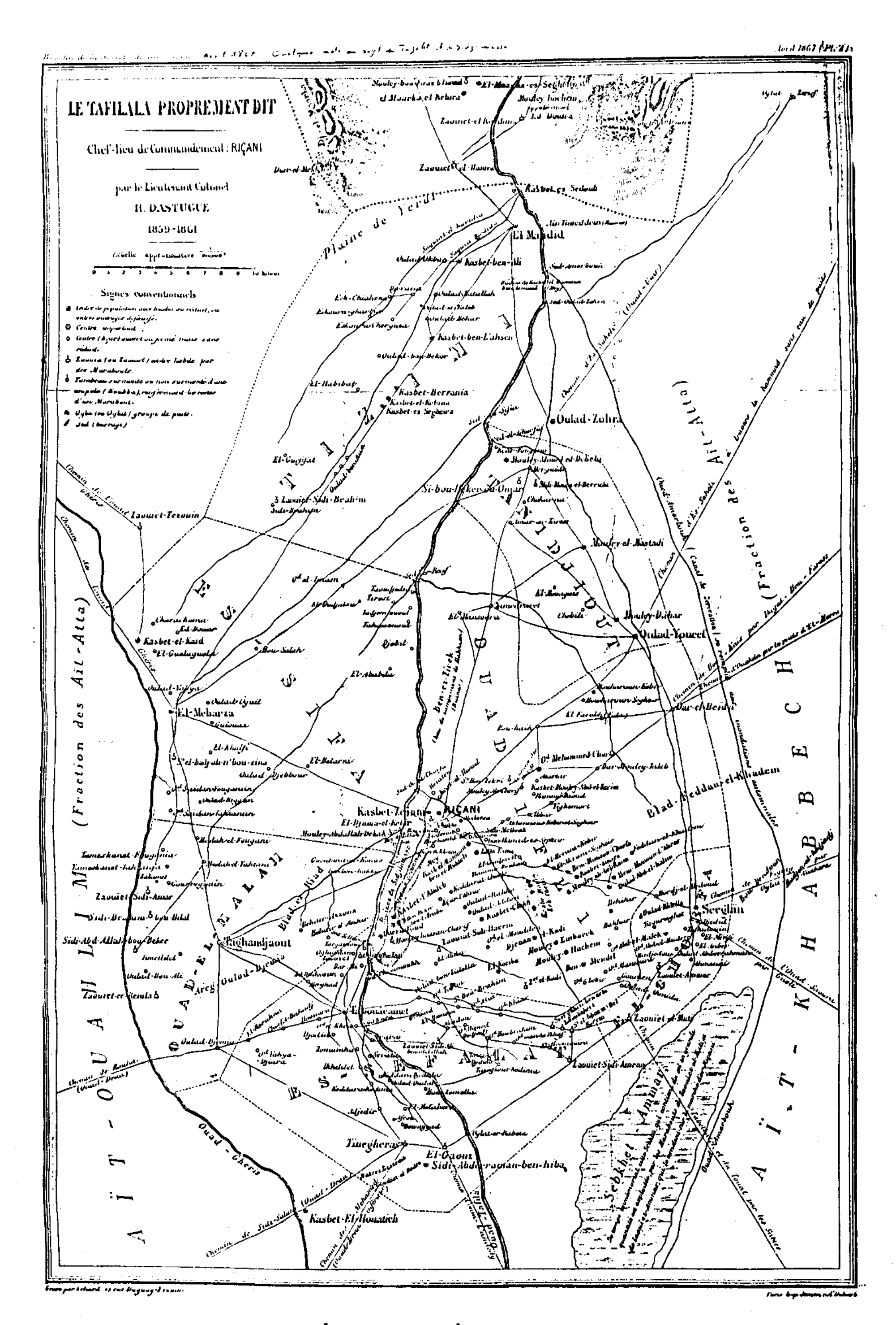
• عنصر الأحرار سواء منهم العرب أو الأمازيغ ويشتغلون بالتجارة والزراعة والرعي.

• عنصر أهل الذمة وخاصة من اليهود وكانوا يتعاطون للتجارة ولبعض الحرف.

• عنصر العبيد والإيماء والحراطين ويُستغلون كخدم في المنازل أو كخماسة في الحقول.

جدول لأهم مشيخات تافيلالت :

اسم المشيخة	عدد القصور	عدد السكان
مشيخة تانيجيوت	16	6000
مشيخة السيفة	22	8000
مشيخة بني أحمد	18	6500
مشيخة واد إيفلي	36	9000
مشيخة الغرفة	20	6000
مشيخة السفالات	40	9000
المجموع	152	44500



الخريطة 8 : منطقة سجلماسة أو تافيلالت : أول خريطة شاملة

المرجع : Dastugue (Henri Lt. Cl.): "Quelques notes au sujet du Tafilet et Sidjilmassa", *Bulletin de la Société de Géographie* ; Paris, Tome : XII, avril 1867; 3 cartes hors texte, pp. 337- 80 (carte n° 2).

من جهة أخرى وكباقي مناطق المغرب، عرفت تافيلالت خلال هذه الفترة ظهور عدة زوايا كانت تلعب دورا هاما في إصلاح ذات البين بين القبائل وفي التوجيه الديني وربما حتى السياسي. أغلب هذه الزوايا تقع بمشيخة السفالات وتم تأسيسها من طرف زعماء أتوا من خارج المنطقة ويطلق عليهم اسم المرابطين. البعض من هذه الزوايا انقرض مع السيطرة الاستعمارية (بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي) والبعض الآخر ظل يلعب دوره الروحي والفكري إلى اليوم. وقبل تقديم نبذة موجزة عن هذه الزوايا، تجدر الإشارة إلى ثلاث ملاحظات أساسية :

* الملاحظة الأولى : أن معظم هذه الزوايا قد أسس من طرف أولياء أو شيوخ من أصل غير فيلالي، فهم غالبا شرفاء أدارسة وفدوا إلى المنطقة التي اشتهرت بمراكز العلم والفقه وكانت فيها الظروف جد مواتية لظهورهم على الساحة الصوفية على الأقل «الدعوة السرية».

* الملاحظة الثانية : تتعلق بتركز أغلب هذه الزوايا في مشيخة السفالات وهي أكبر وأهم المقاطعات الفيلالية من حيث المساحة، ومن حيث عدد السكان [حوالي 9000 نسمة موزعين على حوالي 40 قصرا] ومن حيث النشاط الاقتصادي [الفلاحة، وتجارة القوافل وبعض الصنائع ومنها سك العملة بقصر تابوعصامت].

* الملاحظة الثالثة : هي أن هذه الزوايا كانت تابعة في نفوذها الروحي للزوايا الكبرى المتمركزة بأهم المدن المغربية كفاس، مراكش وسلا أو بالمناطق الفلاحية مثل درعة وسوس. ومن أهم هذه الزوايا الأم يمكن ذكر الزاوية التيجانية والزاوية الدرقاوية بفاس، والزاوية الناصرية بتمكَروت «درعة». أهم الزوايا الفيلالية هي :

➢ **زاوية تابوبكرت أو الزاوية الغازية** : تقع هذه الزاوية جنوب تافيلالت بمشيخة السفالات، شيدت في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من طرف الشريف الإدريسي العلامة والزاهد الشيخ سيدي الغازي أبي القاسم، السوسي الأصل. وتعتبر الزاوية الغازية من أشهر وأغنى زوايا تافيلالت باعتبار كثرة مريديها وزوارها الذين يفدون عليها من كل أنحاء المغرب وخاصة قبائل بني مكَيلد بالأطلس المتوسط وبعض قبائل واحة درعة. وتشتهر هذه الزاوية بما ألفه شيوخها من كتابات صوفية على شكل قصائد موزونة وذات رنة موسيقية ملحونة. وتتكون الزاوية من ضريح الشريف سيدي الغازي بن العربي، والدويرية، والدار الكبيرة، والمسجد والبقيع المخصص لدفن أولياء الزاوية وأهلهم.

➢ **زاوية الماطي** : توجد في أقصى الجنوب من واحة تافيلالت بمقاطعة السفالات على بعد أربعة عشر كيلومترا من مدينة الريصاني، يحدها شمالا زاوية سيدي الغازي بن القاسم، وجنوبا جبل أدرار، وغربا زاويتي من لا يخاف وسيدي إبراهيم وشرقا قصر زاوية عمار. تأسست الزاوية من طرف الشريف الإدريسي أحمد الطيب بن محمد الصديقي السجلماسي المصري الأصل الذي يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان هذا الولي عالما مبرزا وزاهدا أخذ العلم والفقه والتصوف على يد عدة شيوخ مغاربة كبار ومن تلامذته العالم أحمد بن عبد العزيز الهلالي صاحب كتاب «الظواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقية». توفي مؤسس الزاوية في ثالث محرم عام 1165 هجرية / 1751 ميلادية ودفن بضريحه الواقع داخل قصر الماطي. يحاط القصر بسور سميك وعال شيد بالطابية وتتخلله أبراج مربعة. يوجد المدخل في جهة الجنوب وهو عبارة عن قوس تعلوه ستارة من القرميد الأخضر وبابه صنع من خشب الصفصاف. المدخل ينفتح على رواق مغطى «دكانة» يؤدي إلى الضريح والمسجد عبر ساحة كبيرة وأزقة مكشوفة. يقع

مدخل الضريح بالجهة الشرقية وينفتح على رواق مغطى يفضي إلى قبة الولي وهي عبارة عن حجرة مربعة تتخللها أربعة أقواس تعلوها قبة إهليليجية الشكل، وقد شيدت القبة والأقواس بالآجر والحجارة. وتتوفر القبة على فتحات أربعة ومن الخارج تحاط القبة بأربع شرفات وضعت فوقها صنونات خضراء ويعلو القبة الجامور المكون من ثلاث كويرات نحاسية مصبوغة بالأخضر. دفن بداخل القبة الولي سيدي أحمد الحبيب وابنيه أبي القاسم ومحمد وقد غطيت القبور بدربوس خشبي من نوع مشربية.

أهم الآثار الموجودة بالضريح هي شاهدة القبر التي تقول الرواية الشفوية أنها من إهداء السلطان سيدي محمد بن عبد الله. اللوحة صنعت من خشب الأرز وتتخذ شكل قصبة مزينة بنقوش هندسية [نجيمات متشابكة مصبوغة بالألوان الحمراء والصفراء]. وقد وضعت للوحة دفتان قصد المحافظة عليها وزينت الدفتان بنقوش هندسية عبارة عن نجمة ثمانية عشرية. بداخل الدفتين يوجد قوس نقشت عليه كتابة عربية ويعلو هذا القوس إطار مزين بنقوش زهرية وإفريز كتبت عليه الشهادة والحمدلة والتصلية. الكتابة نقشت بخط مغربي حديث وهي كما يلي : «لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. الحمد لله، هذا ضريح العلامة الإمام الشيخ البركة الإمام قدوة الإسلام وحجة الجهابذة وعدة الأعلام عمدة العارفين وذخيرة السالكين صاحب الكرامات الطاهرة والإشارات الباهرة، محيي رسوم الطريقة الشاذلية ومنقذ معالم الحقيقة بمواقفه الشريفة المحمدية حامي لواء الأسرار الربانية وناشر طي المعارف بالبلاد السجلماسية، أستاذ الطريقة وإمام أهل الحقيقة، بركة الزمان وغوث العصر والأوان، العارف بالله سيدنا ومولانا أبو العباس الشيخ أحمد الحبيب رحمه الله تعالى ورضي عنه بن الخير البركة سيدي محمد العماري بن العالم الأفضل الولي الأكمل سيدي محمد صالح بن الفضل الكبير سيدي أحمد بن يحيى بن سعد بن يحيى بن يحيى بن الحسن بن عيسى بن علي بن

محمد بن عمر بن علي بن عمرو بن أحمد بن عبد الله بن أبي إبراهيم بن يوسف بن صالح بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. توفي رحمه الله ثالث المحرم عام خمسة وستين ومائة وألف».

يخدم الزاوية طائفتان من المرابطين : فأولاد سيدي حمزة بلماحي يستقبلون الزوار، بينما يعمل أولاد بلغزال بحراسة الضريح، وبحرث الحقول وبالمتاجرة. تحظى الزاوية وشيخها بتقدير وشهرة لدى سكان تافيلالت عامة.

➢ **زاوية سيدي علي بن أبي زينة** : تقع بواد المالح غرب واحة تافيلالت على الضفة الشرقية لوادي غريس على بعد سبع كيلومترات من مركز سجلماسة. أسسها الشريف الإدريسي سيدي علي بن أبي زينة وهي تشرف على حقول زراعية بمشيختي الغرفة وواد إيفلي وكذلك على عدة أشجار من النخيل بمقاطعة السفالات. يقوم بحراسة الزاوية أحد الشرفاء الذي يتقبل الزيارات ويأوي الزوار. تضم الزاوية فضلا عن المسجد قبتين جنائزيتين : الأولى دفن بها العالم الفيلالي سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي المتوفى ليلة الثلاثاء 21 ربيع الأول عام 1175 هجرية / 1761 ميلادية. أخذ العلم عن عدة علماء مشهورين أمثال سيدي أحمد الحبيب صاحب زاوية الماطي، وله عدة مؤلفات منها : «تفسير القرآن الكريم»[24]. «كتاب في القراءات»[25]، كما ألف كتبا أخرى في اللغة وفي تفسير مختصر خليل. أما القبة الثانية التي تقع إلى الشمال، فقد دفن بها مؤسس الزاوية وتتكون هذه القبة من باب رئيسي على شكل قوس تعلوه لوحة من الفسيفساء كتب عليها : «لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم» هذا فضلا عن اللوحة المؤرخة لبناء الزاوية والتي اختفت مع الأسف. مرورا برواق مغطى نصل إلى القبة المشيدة من الآجر المحلي فوق أعمدة وجدران من الطابية، وقد زينت القبة بنقوش جصية وجبسية أنيقة تتكون

(24) الخزانة الملكية : المخطوط رقم 5345 د.
(25) الخزانة الملكية : المخطوط رقم 1057 د.

من تشبيكات زهرية ومعينات هندسية تتخللها أفاريز من الكتابات العربية المكونة من العبارات : «العافية الباقية»، و«العز لله»، و«الملك لله».

أما قبر الشريف فيتخذ شكل سنم تعلوه لوحة رخامية بيضاء نقش عليها : الوجه الأول : «الحمد لله توفي الولي الصالح أفاض الله عليه ببركاته سيدي علي بن أبي زينة الأحد عند صلاة العشاء ودفن»، الوجه الثاني : «يوم الاثنين عند صلاة الظهر وذلك أول شعبان عام ستة عشر ومائة وألف لا إله إلا الله محمد رسول الله». وبجانب قبر الشيخ، دفن أحد أبنائه، وقد وضع على القبرين كما هو الشأن بالنسبة لقبر سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي، دربوس من الخشب زين بفتحات هندسية من نوع مشربية.

➢ **زاوية سيدي أحمد بلمدني** : يرجع أصل شيخ هذه الزاوية إلى قصر النجا الواقع بواد الساورة. وكان لوصول المستعمر الفرنسي لهذه المنطقة أن اضطر الشيخ بلمدني إلى الخروج منها، فاستقر مؤقتا بقصر الطاوس على بعد ثمانين كيلومترا جنوب تافيلالت. ثم ارتحل إلى قصر مقطع الصفا، قرب وادي غريس بالجنوب الغربي لواحة تافيلالت، حيث أسس الزاوية المعروفة باسمه. واشتهر أحمد بلمدني بمواقفه المعارضة للأطماع الفرنسية في المغرب وكذا بزهده وقيامه بدور الوساطة في إصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة، مما جعل زاويته تحظى بشهرة كبيرة عند سكان تافيلالت والذين كانوا يترددون عليها باستمرار.

➢ **زاوية عمار** : أسست من طرف الشريف الإدريسي المراكشي الأصل العلامة الزاهد الشيخ سيدي الساسي، جد شرفاء قصر عمار. ويوجد ضريح هذا الشريف داخل قصر عمار وإلى جانبه قبور أولاده وخاصة منهم سيدي أحمد منديل. وكانت زاوية سيدي الساسي تابعة للزاوية الدرقاوية بفاس ولزاوية سيدي أحمد بن عبد الصادق بقصر الدويرة بأوفوس على بعد حوالي خمسة وأربعين كيلومترا إلى الشمال من تافيلالت. وكانت زاوية عمار مشهورة جدا،

إذ كانت تعرف عدة زيارات وتستقبل عدة هدايا وعطاءات من لدن مريديها وخاصة منهم ذوي منيع، وأولاد بلقيس، وأولاد جرير وآيت خباش.

< **زاوية سيدي بوبكر** : وترجعها الرواية الشفوية إلى الزعيم المرابطي عبد الله بن أبي بكر بن عمر اللمتوني الصنهاجي الذي قاد الحركة المرابطية بعد وفاة زعيمها الروحي عبد الله بن ياسين. تقع الزاوية قرب قصر مزكيدة بمشيخة تانجيوت، شمال واحة تافيلالت على بعد خمس كيلومترات من مركز سجلماسة. وتعتبر هذه الزاوية من أقدم زوايا تافيلالت، إذا صدقنا الرواية الشفوية التي ترجعها إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. تتكون الزاوية من ضريح الشيخ وهو على شكل قبة ومن مسجد ومدرسة ومقبرة وتم تشييدها من الطابية على أساس من الحجارة. وتزخر الزاوية بنقوش جصية على شكل أفاريز تتكون من تشبيكات زهرية ومعينات هندسية وكتابات عربية «العز لله». المسجد يتكون من صحن مكشوف، ومن أربعة أساكيب، ومن ست بلاطات ومن صومعة مربعة الشكل، بينما لم يبق أثر للمحراب والمنبر بفعل تعرض الجهة التي وجدا بها للهدم. يقوم بخدمة الزاوية بعض سكان قصر سيدي أبو بكر والذين يتلقون الزيارات والهبات المقدمة من طرف المريدين وخاصة من قبيلة آيت خباش.

< **زاوية من لا يخاف** : توجد هي أيضا بجنوب تافيلالت بمشيخة السفالات، تأسست من طرف الشريف سيدي عبد الرحمان بن علي الذي كان رجل علم وزهد. يقوم بحراسة ضريح الشيخ أحد الشرفاء المنتسبين للزاوية والذي يستقبل الزوار ويتقبل هداياهم. وتتم الزيارة خاصة مساء كل يوم خميس. من روادها أذكر قبائل آيت خباش وذوي منيع. ولا تزال هذه الزاوية تؤدي دورها إلى اليوم وهي مشهورة بتافيلالت والنواحي.

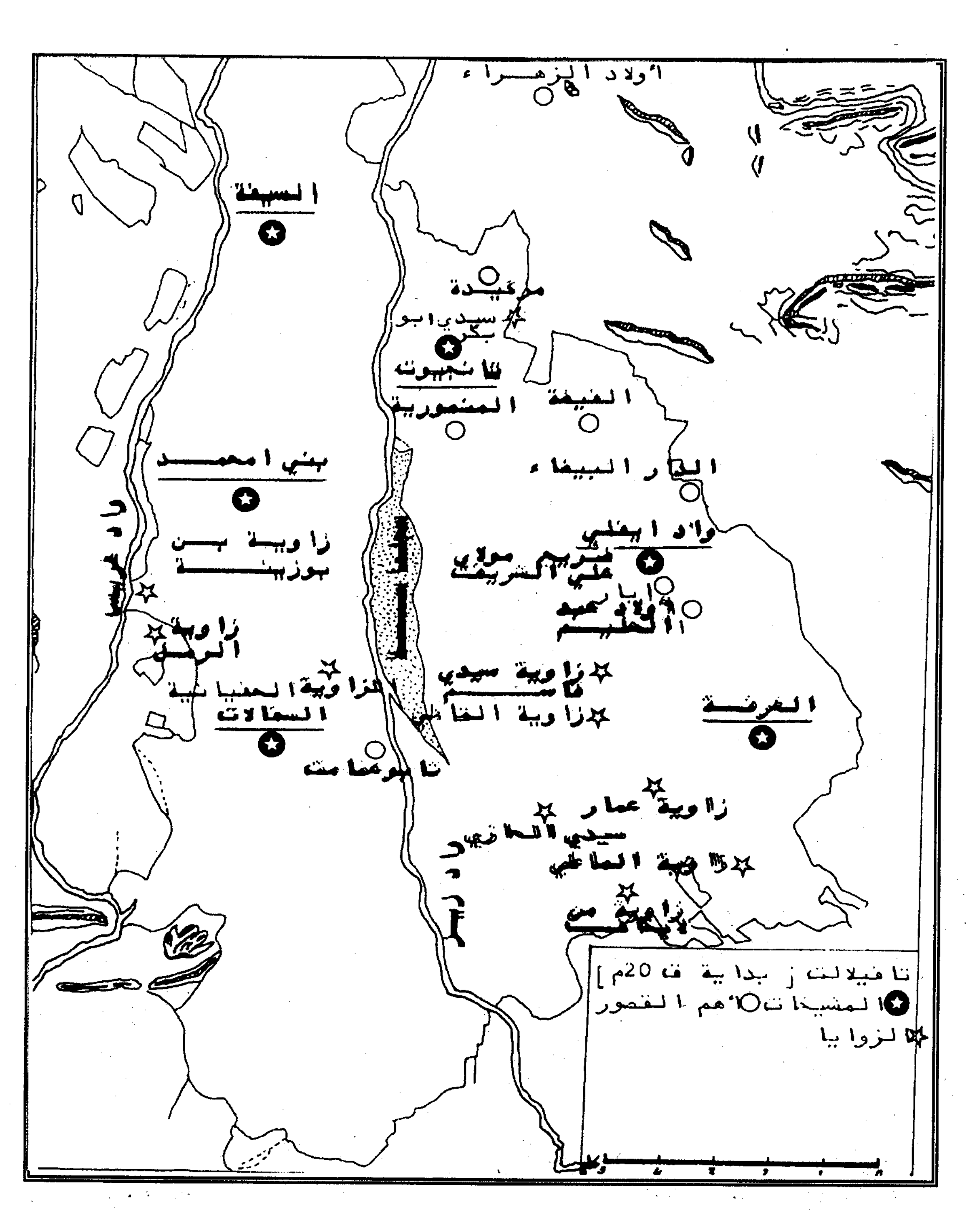
< **زاوية سيدي عبد الله بن علي** : تقع بجوار الزاوية السالفة الذكر ولكن خارج أسوار قصر من لا يخاف، أسسها الشريف سيدي عبد الله بن علي.

وهي زاوية صغيرة يقوم بخدمتها بعض سكان القصر حيث يتقبلون الزيارات والهدايا.

وتجدر الإشارة إلى أن زوايا تافيلالت كانت في معظمها نشيطة، وذات انتشار واسع وتتقبل عدة هبات، وكانت لها ملحقات تابعة لنفوذها بأهم المناطق المغربية. كما يمكن الكلام عن زوايا فيلالية أخرى أقل أهمية وهي: زاوية القاضي بواد إيفلي، وزاوية أحمد بن بدلة بالغرفة، والزاوية البوبكرية بالسيفة... إلى آخره. وتذكر إحدى الوثائق الملكية المؤرخة بـ 7 صفر عام 1311 هجرية / 1900 ميلادية أن مجموعة من فقراء الزوايا الفيلالية وهي «زاوية من لا يخاف، وزاوية سيدي أبو إبراهيم العمري، وزاوية سيدي عبد الله بن علي، وزاوية سيدي أحمد الحبيب، وزاوية عمار، وزاوية سيدي أحمد بن بدلة وزاوية القاضي، كانوا قد طلبوا بالقدوم إلى الحضرة السلطانية طالبين البرور بهم والكون منهم على بال فأجابهم إلى ذلك»[26].

وارتباطا دائما بالزوايا، يمكن الإشارة إلى الدور العلمي الذي كانت تضطلع به، مما جعلها قبلة للعلماء والطلاب وهذا ما جعلها تزخر بمكتبات غنية تضم أمهات المصنفات العلمية والفقهية والتشريعية والأدبية ومن ذلك مكتبة الزاوية الحفيانية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على المكانة المرموقة التي كانت تحتلها المنطقة في الخريطة الفكرية ـ الثقافية المغربية، حيث كانت بحق مركزا علميا متميزا تدرس فيه العلوم الفقهية والشرعية والأدبية والصوفية وغيرها. كما تخرجت منها أفواج لا تحصى من العلماء والفقهاء الذين تعدى صيتهم الواحة ليصل إلى المدن المغربية الرئيسية مثل فاس، وتازة، ومراكش... بل ووصل إلى بلاد الكنانة والديار المقدسة. ومنهم من حتمت عليهم مهنة التدريس تلقين ما تحفظه الصدور والزيادة من بحر العلم، بالاغتراب عن موطنهم الأصلي والاستقرار بمدن ومناطق أخرى تأقلموا معها مع مرور الزمن، فتركوا هنالك كنوزهم العلمية والذرية إن توفرت لهم السبل وتناسلوا.

(26) مديرية الوثائق الملكية : الوثيقة الملكية عدد 19500.



الخريطة 9 : منطقة سجلماسة : توزيع القصور والزوايا

وفي الأخير وفي إطار توثيق أهم الأحداث الرسمية التي عرفتها منطقة تافيلالت في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، يمكن تقديم نماذج من الوثائق الملكية الخاصة بالمنطقة خلال عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام والتي توصل بها مركز البحوث والدراسات العلوية من مديرية الوثائق الملكية بالرباط :

رقم الوثيقة بالوثائق الملكية	الموضوع	التاريخ
21405	رسالة من الوصيف مسعود الشباني إلى الخليفة السلطاني سيدي محمد بن عبد الرحمان في شأن بعض النفقات المتعلقة بقصر الفيضة العليا وخطارة جنان الأجهال والفقيه مولاي الصادق المدغري.	18 شوال عام 1248هـ 8381م
19612	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى الفقيه المولى عبد الهادي في شأن آيت عطا والأسعار وبناء قصر آبار.	16 ذو الحجة عام 8421هـ / 1838م
18333	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ولد عمه المولى المأمون بن المكتفي في شأن بعض أخبار تافيلالت.	29 ربيع الثاني عام 1261هـ / 1850م
18416	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى شرفاء قصبة سيدي ملوك في شأن عمارة القصبة الملوكية من طرف أهل السفالات.	16 ربيع الأول عام 1262هـ / 1851م
18626	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن بناء قصر كَحايك وتجديد سوره وشراء دور للخدم.	2 رجب الفرد عام 1262هـ/1852م

رقم الوثيقة بالوثائق الملكية	الموضوع	التاريخ
18915	رسالة من جماعة أسرير إلى السلطان مولاي عبد الرحمان في شأن العامل مجمان الذي تحالف مع أكابر آيت مرغاد بغريس وفركلة.	23 رجب عام 1262هـ/1852م
17734	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن امتناع أهل غريس عن أداء ما عليهم من واجبات.	15 رمضان سنة 1262هـ/1852م
19059	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن الزيادة في عرصة قصر آبار.	19 شوال عام 1262هـ/1852م
19935	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن إعانة الشريفات لالة سكينة بنت مولاي محمد بن سليمان وأختها لالة حبيبة ولالة شريفة بنت مولاي علي بن أحمد المدغري.	متم محرم عام 1263هـ/2581م
19033	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن تنظيم الجيش وضمنه عشرين من جيش البخاري أهل تافيلالت.	21 ربيع 1 عام 1263هـ/1852م
18987	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن أهل أبي عام.	28 ربيع 1 عام 1263هـ/2581م
18989	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن نفاذ الزرع وتأخر المؤونة لمدة 3 أشهر عن قصر آبار.	نفس التاريخ

التاريخ	الموضوع	رقم الوثيقة بالوثائق الملكية
غرة ربيع 2 عام 1263هـ/2581م	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن ترحيل بعض البلاغمة بفاس إلى تافيلالت لخدمة الأصول وعمارة القصور.	19114
28 جمادى 2 عام 1263هـ/3581م	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ولده سيدي محمد في شأن نفقة جنان بوعمار قرب قصر بني ميمون الشرفاء وإصلاح قنطرة بناء 271 منزل بالشقارنة وتقويم ما وراء عرصة قصر آبار لفائدة مسجدي حمو داود ومنوكة.	20055
24 رمضان عام 1263هـ/3581م	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن وصول شرفاء أخنوس والقمح الموجه لقصر آبار.	20066
7 شوال عام 1263هـ/1853م	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن بعض المؤونة الموجهة إلى قصر آبار.	17961
نفس التاريخ	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن تقويم وشراء الجنان المسمى بيت الغرس.	17962
11 شوال عام 3621هـ/1853م	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن تكريم ضيافة سيدي اليمني بن ملوك وكذا كسوة بعض الشرفاء والخدم بتافيلالت.	19795

رقم الوثيقة بالوثائق الملكية	الموضـــوع	التاريـــخ
19769	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن تكريم ضيافة كبير الشرفاء سيدي محمد بن الرشيد.	13 شوال عام 1263هـ/3581م
20579	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن إعانة الشريف مولاي الحسين بن الشاد من القصر الفوقاني.	27 شوال عام 1263هـ/1853م
20309	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ولد عمه القاضي مولاي الهادي في شأن وصول كتابين.	25 رمضان عام 1264هـ/ 1854م
22145	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى الوصيف ابريك الحبشي في شأن توجيه وصفين من آبار إلى حضرته.	3 صفر الخير عام 1268هـ/1858م
22146	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى الوصيف ابريك الحبشي في شأن دفع 100 مثقال لأهل تزكزوت النازلين بقصر آبار بحسب 50 أوقية للرجل.	13 صفر الخير عام 1268هـ/1858م
22162	رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن تنظيم الخدمة العسكرية بتافيلالت والنفقة عليها حسب الرتبة [فارس، راجل، قائد، مقدم].	بدون تاريخ

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان مثله في ذلك مثل باقي السلاطين العلويين مرتبطا أشد الارتباط بتافيلالت، وكان ذلك دافعا قويا حفزه على تخليد منجزات عمرانية بها. ويشير مؤلف كتاب التاريخ الصغير للمغرب أنه «في سنة 1860 ميلادية كان السلطان سيدي محمد يتوفر على الملكية الخاصة لأربعة قصور بتافيلالت هي آبار، وبني ميمون، وأولاد سعيد، والدحيك، ثم ضم إليه اثنان آخران هما أولاد عبد الحليم وأولاد أحمد [أولاد محمد الشرفاء حاليا]»[27]. في هذه الفترة أيضا يمكن الإشارة إلى الصراع الذي نشب بين مولاي رشيد وأهل السفالات بسبب مشاكل السقي، ذلك أن أهل السفالات اتهموا خليفة السلطان بتحويل مياه وادي زيز بعد أن قام بتشييد ثلاث سدود على الوادي وهي : سد المعاضيض، وسد أولاد الزهراء وسد السيفة. هذا الصراع دام لعدة سنوات ولم يهدأ إلا بوساطة من زعماء بعض الزوايا.

في سنة 1263 هجرية / 1873 ميلادية توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان فخلفه ابنه وولي عهده مولاي الحسن. وظلت تافيلالت خلال حكم هذا الأخير [1263 هجرية / 1873 ميلادية - 1284 هجرية / 1894 ميلادية] تحت حكم خليفته وأخيه مولاي الرشيد ومن أهم الأحداث التي عرفتها المنطقة في هذه الفترة أذكر بشكل خاص زيارة السلطان لتافيلالت سنة 1283 هجرية / 1893 ميلادية وذلك قصد الترحم على روح أجداده وخاصة منهم مولاي علي الشريف، فضلا عن إعادة الأمن والاستقرار للمنطقة بعد سلسلة من الصراعات المحلية.

(27) Caillé (Jacques) : *La petite histoire du Maroc*. Casablanca, Librairie Faraire, Rabat, Librairie Céré; édition Société de Librairie et d'Editions Atlantiques 1954. Trois séries, 3° série : de 1850 à 1912; illustrations hors texte, 243 pages (pp. 158 - 159).

وترك الطبيب الشخصي للسلطان وصفا لهذه الزيارة، إذ يقول : «كان السلطان مرفوقا بجميع كبار موظفي المخزن، ومنهم الوزير الأكبر الحاج المعطي، والحاجب أبا حماد، وكاتب الشؤون البرانية فضول غرنيط، وكاتب الجيش محمد الصغير، والمعلم الكبير للمدفعية مولاي الصويري، وقائد المشور... والطبيب الخاص الفرنسي ليناريس»[28]. خلال هذه الزيارة، شيد مولاي الحسن قصبة تغمرت قصد إيواء الخليفة السلطاني رفقة حامية عسكرية، كما قام بجولة لموقع القصبة السجلماسية وقضى ليلة كاملة يتعبد بمسجدها أو المصلى الذي لا زال موجودا. «المكان احتفظ بنوع من القداسة، فالصلوات السنوية لعيد الكبير والعيد الصغير تؤدى بالمصلى المحاذي للمسجد وحيث الصومعة بقيت واقفة»[29].

II - القصور التاريخية :

1 - قصر تابوعصامت :

أ) نبذة تاريخية :

بني قصر تابوعصامت مباشرة بعد تخريب مدينة سجلماسة في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)حوالي سنة 795 هجرية / 1393 ميلادية) ويعتبر هذا القصر من أكبر القصور الفيلالية مساحة وأكثفها سكانا [حوالي 4000 نسمة]. يقع هذا القصر في مشيخة السفالات على بعد سبع كيلومترات جنوب مدينة الريصاني و«على بعد ثمانية أميال جنوب قصر تانجيوت وهو أكبر منه وأكثر منه حضارة وفيه عدد كبير من التجار ومن

(28) Linares (Fernand, Docteur) : "Voyage au Tafilalet avec S.M. le sultan Moulay Hassan en 1893", *Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc*. Rabat, publication de la Direction de la Santé et de l'Hygiène publiques, Tome : III, juillet - septembre 1932; pp. 93 - 116 (p 103).

(29) Harris (Walter B.) : *Tafilet*. London, édition WIlliam Black Wood and sons 1895; illustrations dans le texte, 1 carte hors texte, 386 pages [Le Tafilalet : pp. 213 - 306] (p 284).

اليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من كل بقية الإقليم»[30]. ولعب هذا القصر دورا سياسيا هاما في نهاية الدولة السعدية وبداية الدولة العلوية وساهم في التكتلات السياسية والاقتصادية السائدة في هذه الفترة. فهو مركز تجاري وحرفي نشيط «ومقر حكم تافيلالت خلال القرنين 16 و17 الميلادي، ويعود تاريخ بنائه إلى ما بين سنة 1390 و سنة 1400 ميلادية، أي في نفس فترة اندثار سجلماسة وبداخله مسجد تنتمي زخارفه إلى المساجد والمدارس المرينية المؤرخة ما بين نهاية القرن 14 وبداية القرن 15 الميلادي»[31]. ويرجح أن تأسيس القصر كان من طرف بني الزبير من عرب المعقل والذين اتخذوه محطة رئيسية في تجارة القوافل الصحراوية وأيضا كمركز أساسي لسك العملة، مما مكن هذا القصر من تحقيق قوة مادية وبشرية مهمة أثارت أطماع الدلائيين ثم السملاليين من بعدهم، قبل أن يسيطر عليه مولاي امحمد بن الشريف بن علي سنة 1041 هجرية / 1634 ميلادية.

وكان قصر تابوعصامت يسمى في أول الأمر بالقصبة التي كانت تضم قصرين (شمالي وجنوبي) وكان بابها هو بمثابة الباب الجنوبي لمدينة سجلماسة، ولكن بعد اندثار هذه القصبة بفعل الإصطدامات القبلية اجتمع السكان حول المسجد العتيق الذي لم يمسه أي سوء منذ تشييده في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، حيث قاموا ببناء مساكنهم.

ب) المكونات المعمارية :

ويمثلها خاصة المسجد الذي يعتبر من أقدم المساجد بتافيلالت (عمره يزيد عن 600 سنة) وهو لا يزال يحتفظ بمعظم معالمه التاريخية التي تعود إلى

---

(30) الوزان (محمد بن الحسن) : المصر السابق، الجزء الثاني (ص 126).

(31) Jacques-Meunié (D) : op-cit (p 297).

عهد الدولة المرينية. يقع المسجد وسط قصر تابوعصامت الحالي على عمق ثلاثة أمتار (المستوى الأصلي) ويتكون من المرافق التالية :

– أروقة مغطاة تؤدي إلى بيت الصلاة وبيت الوضوء.

– بيت الصلاة ذات الشكل المربع [15 x 15 مترا] والمكونة من خمس بلاطات وخمسة أساكب أو منابح، من محراب ومنبر فضلا عن قبة إهليلجية الشكل تتوسط هذه البيت، أما الأقواس فهي منكسرة ومشيدة من الحجارة. معظم أجزاء بيت الصلاة لا تزال محتفظة بنمطها الأصلي وإن كانت قد تعرضت لعدة إصلاحات عشوائية.

– الصومعة وهي فريدة من نوعها بتافيلالت، شكلها مربع وقد شيدت بالآجر المحلي على أساس من الحجارة ويتوسطها سلم «درج». إلا أن هذه الصومعة منذ أن تعرضت لإحدى قنابل الطائرات الفرنسية في العشرينيات من القرن العشرين الميلادي، لم تعد تستعمل في الآذان وعوضت في هذا الدور بسطح بيت الصلاة، قبل أن تبنى مكانها أخيرا صومعة جديدة من الإسمنت.

– بيت الوضوء التي يجلب إليها الماء من بئر عميق مربع الشكل يعود تاريخه ولا شك إلى فترة بناء المسجد.

– غرف إيواء حفظة القرآن أو المرتبين والطلبة الذين يأتون من مدن بعيدة خاصة من شمال وشرق المغرب مثل تازة، ووجدة... إلى أخره.

ج) النقوش الزخرفية :

– في القبة : تقع القبة في وسط المسجد وقد شيدت فوق أربع أعمدة على شكل أقواس محززة الحواف. القبة ذات شكل إهليلجي وتتكون من 12 واجهة يبلغ عرضها 0,30 مترا، تتخللها أربع فتحات جانبية للتهوية وإدخال

الضوء. يعلو القبة من الداخل نقش على شكل نجمة ثمانية الأضلاع يحيط بها شكل دائري وأغصان زهرية وتتوسطها وردة من ثمان ورقات. وقد استعملت في هذا النقش الصباغة السوداء وحدها.

– في القوس المقابل للمحراب : يتخذ القوس شكلا منكسرا زين من الداخل بحزوز هندسية عمودية موازية بينما زخرف إطاره في الجانبين بنقوش زهرية على شكل ورود تتناغم فيما بينها بانسجام تام.

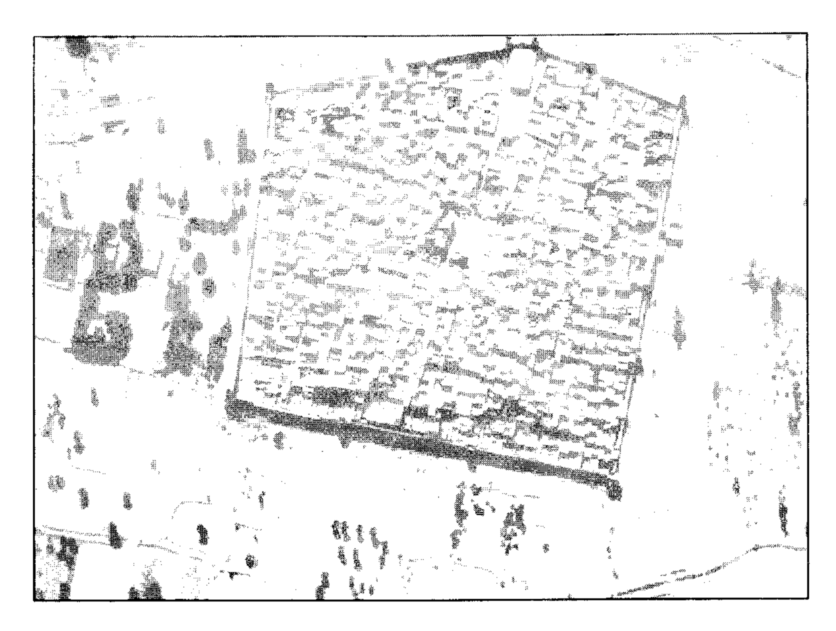
– في المحراب : وهو على شكل قوس واسع ومنحدر تحيط به من الأعلى عقود ثلاثية صغيرة (trilobés) مزينة بزخارف هندسية من معينات، ومربعات وتشبيكات،... ويحده يمينا وشمالا عمودان دائريان توجا في الأعلى بتاجين نقشت فيهما زخارف زهرية على شكل أغصان ونخلات. بداخل المحراب نجد إفريز عمودي نقشت عليه الآية القرآنية الآتية : «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان [مشهودا...]». ويحاط المحراب بأربعة أفاريز متنوعة الأشكال والمضامين غير أن جميعها تبتدئ وتنتهي بنقش على شكل وردة :

➢ الإفريز الأول يتكون من عبارات «الملك لله الملك لله».

➢ الإفريز الثاني يتضمن زخارف زهرية على شكل نخلات، وأغصان، وورود...

➢ الإفريز الثالث نقشت عليه أشكال هندسية مختلفة : مربعات، ومعينات، ومثلثات، ونجمات...

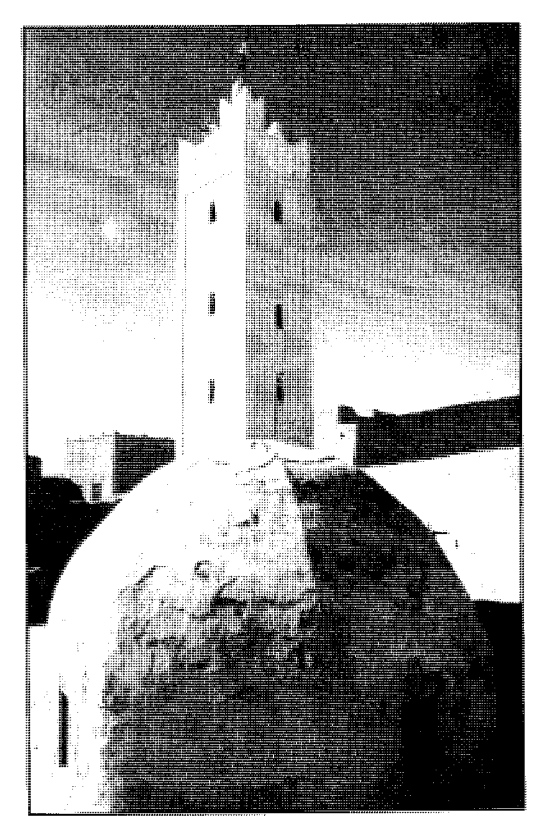
➢ الإفريز الرابع يبتدئ يمينا بـ«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم» وينتهي يسارا بـ«ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله وما بكم من نعمة فمن عند الله».



الصورة 32 : منطقة تافيلالت : قصر تابوعصامت (صورة جوية)

المرجع : أبنية القصور والقصبات بالأودية المتاخمة للصحراء.

الرباط، نشر وزارة السكنى 1992 (ص 64)



الصورة 33 : صورة لقبة وصومعة المسجد

أما الجزء العلوي فيبدو غير واضح تماما، إذ أعيد ترميمه بشكل سيئ، بينما زين إطار المحراب في الأعلى بثلاث عقود : الأول والثالث على شكل شبكة هندسية تشبه خلايا النحل، بينما ينفرد العقد الأوسط بزخرفة زهرية تتكون من نخلات وورود وأغصان.

– في المنبر : وهو حديث العهد ويتميز إطار مدخله بوجود إفريزين تعلوهما لوحة من النقوش الهندسية على شكل معينات ومربعات ومثلثات ونجمات. أما الإفريزان فقد نقشت عليهما آية الكرسي كما يلي :

➢ الإفريز الأول : من اليمين [«... الرحيم الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم»]،

من الأعلى [«له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع»]،

من اليسار [«عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون»].

➢ الإفريز الثاني : من اليمين [≡«بشيء من علمه إلا بما شاء وسع»]،

من الأعلى [«كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده»]،

من الشمال [«حفظهما وهو العلي العظيم»].

– في إطار باب المقصورة : يحيط بهذا الباب الذي لم يعد له وجود إفريزان لم تبق منهما كذلك سوى الأجزاء اليمنى وهي كما يلي :

➢ الإفريز الأول : ≡«بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على...».

➢ الإفريز الثاني : ≡«هو اجتباكم وما جعل عليكم...».

2. قصر أبو عام :

أ) نبذة تاريخية :

قصر أبو عام يقع بمحاذاة موقع سجلماسة من الناحية الشرقية وهو من القصور المشهورة والقديمة التي شيدت بمنطقة تافيلالت، ومع ذلك فإن المعلومات التاريخية المتوفرة حوله تبقى جد محدودة وفي غالب الأحيان عبارة عن روايات شفوية متضاربة سواء حول ظروف تأسيس القصر أو حول مصطلح أبو عام نفسه. ففيما يخص هذا الأخير نجد ثلاث روايات : الأولى تقول بأن القصر سمي بهذا الاسم لأنه كان يحتضن معرضا تجاريا سنويا، أي مرة في كل عام، فسمي سوق عام ثم بعد ذلك أبو عام. الرواية الثانية تشير إلى أن هذا القصر تعرض أثناء الصراعات القبلية لحصار دام عاما كاملا ولذلك لقب بأبي عام.

أما الرواية الثالثة والأكثر واقعية وشهرة فهي التي تؤكد أن قصر أبي عام بني من طرف مولاي علي الشريف وأنه سمي بذلك لأن مولاي علي الشريف الذي كان يقسم حياته إلى ثلاثة : سنة في الجهاد، وسنة لأداء مناسك الحج وسنة في تدريس العلم. وقد أستقر عاما بزاويته المسماة الحجر داخل قصر أبو عام قصد تلقين العلم ولهذا السبب ربما لقب القصر بهذا الاسم كما يشير إلى ذلك صاحب مخطوط الجوهر الشفاف[32].

واعتبارا لما كان يحظى به مولاي علي الشريف من سمعة طيبة واحترام من طرف جميع الفئات القاطنة بتافيلالت فقد عرف قصر أبو عام نموا سريعا سواء من الناحية العمرانية أو الاقتصادية بل وأحتل هذا القصر الصدارة في

(32) الفيلالي المعروف بابن دفين طيبة الشريفة (العربي بن عبد السلام بن أحمد) : **الجوهر الشفاف**، مخطوط يوجد بجامعة أكسفورد بإنجلترا ويرجع تاريخه إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل وتوجد نسخة منه بمركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني (ص 4).

المجال التجاري. ولا تزال بعض المرافق بداخل القصر تحمل اسم مولاي علي الشريف مثل الدار التي كان يقطن بها وكذلك الزقاق الذي تقع فيه هذه الدار. إلا أن هذه الدار قد عرفت عدة إصلاحات مما أفقدها طابعها المعماري الأصيل.

وقد تعاقبت ذرية مولاي علي الشريف على الاستقرار بهذا القصر ومنهم خاصة أولاد مولاي العربي بن علي بن محمد بن مولاي علي الشريف وهم عبد المؤمن وهاشم وعبد الله، الحسن وعمر وقاسم والطلحاوي ومحمد. كما أن القصر لا يزال يحتفظ ببعض الأراضي الموقوفة كحبوس على زاوية مولاي علي الشريف.

يبلغ سكان قصر أبو عام حسب إحصاء 1982 ميلادية حوالي 2150 نسمة موزعين على حوالي 264 منزلا وأغلبيتهم يشتغلون بالتجارة فهم من أثرياء المنطقة ويعبر عن ذلك نمطهم المعيشي، وكذا النقوش التي زخرفت بها مساكنهم فضلا عن أدوات الزينة والتجميل التي تميز المرأة البوعامية عن باقي نساء تافيلالت.

ب) الدور التجاري للقصر :

مع تخريب سجلماسة، لم تتوقف نهائيا الأنشطة التجارية، بل انتقلت إلى القصور وتركزت خصوصا بقصري تابوعصامت وأبو عام. هذا الأخير بحكم موقعه في قلب الواحة وعلى مشارف سجلماسة تحول بسرعة إلى مركز تجاري حيوي وبالتالي إلى نقطة وصل تربط بين مختلف طرق القوافل شمالا وجنوبا وغربا وشرقا. يقول أحد الرحالة الذين زاروا أبو عام ما بين سنتي 1862 و1864 ميلادية «أن القوافل المكونة من تجار فاس وتافيلالت كانت تحط الرحال بقصر أبي عام قبل مواصلة الرحلة نحو شمال

المغرب»[33]. كما أشار المستكشف روني كايي René Caillée الذي زار تافيلالت سنة 1830 ميلادية إلى شهرة سوق أبي عام في تجارة العبيد[34]. وقد ارتبط القصر بعلاقات تجارية وطيدة مع عدة مدن مغربية كفاس ومراكش ومنطقة درعة وكذلك مع مدينتي تلمسان ووهران فضلا عن المدن الصحراوية مثل توات وكَورارة وتومبكتو وغيرها.

وقد ظل قصر أبو عام يلعب نفس الدور الريادي في الميدان التجاري منذ تشييده إلى الآن. وإلى ذلك يشير أحد رجالات الاستعلامات الفرنسية خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي بقوله «أن سوق أبي عام كان يعرف رواجا مهما فالقوافل الكثيرة الآتية من المدن الصحراوية مثل تاغبالت وتزامي وأيضا من درعة تجلب الحناء وتشتري ما تحتاجه من الحاجيات. كما أن الرحل يقومون بتبادل ماشيتهم والأكسية مقابل تمور وحبوب سكان القصور أو مقابل القطن والسكر والشاي والشموع من عند التجار»[35]. وكانت عمليات التبادل تتم إما بواسطة المقايضة العينية وأحيانا باستعمال النقود على اختلاف أنواعها مثل المثقال، والدرهم، والدورو، والفلس، والمزونة...

ج) النمط المعماري للقصر :

يحتفظ قصر أبو عام بشكله المعماري القديم، فهو عبارة عن تجمع سكاني يحيط به سور ضخم وعال جدا. هذا السور المشيد من الطابية تتخلله

(33) Rohlfs (Gerhard) : "Le Tafilelt", *Renseignements Coloniaux et Documents*. N° : 8; 1910; 1 carte dans le texte, pp. 243 - 257 (p 251).

(34) Caillée (René) : *Voyages à Tombouctou*. Paris, édition la Découverte, Librairie F. Maspero 1979. Deux volumes ; 1 carte hors texte, 401 pages [Tafilalet : 2° volume, pp. 335 - 357] (p 345).

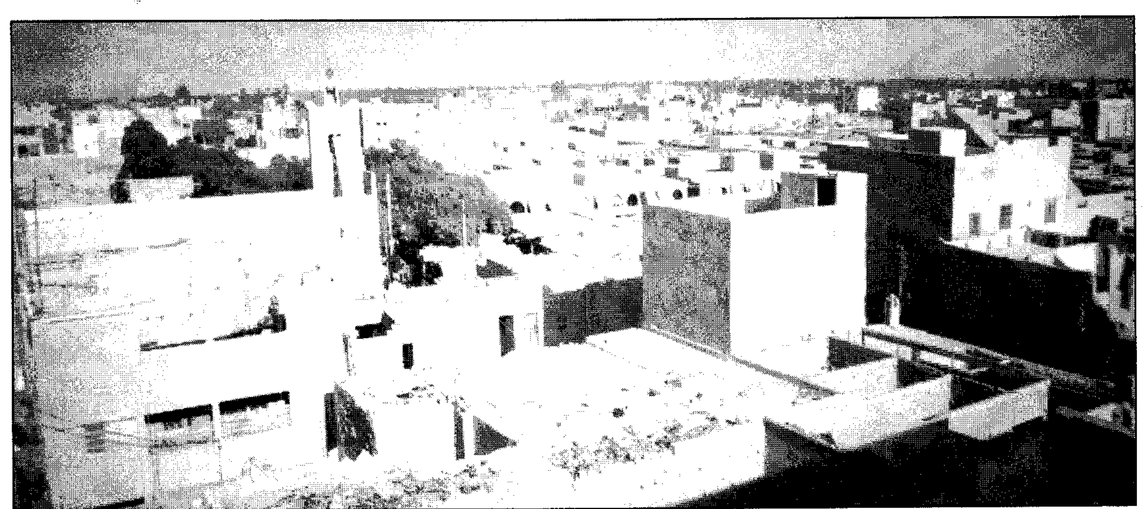
(35) Anonyme : «la pacification du sud marocain», *Renseignement Coloniaux et Documents*. N°: 3; 1933, pp 49 - 58 (p 55).

تسعة أبراج مربعة الشكل وله مدخل رئيسي في الجهة الشرقية. هذا المدخل يتكون من قوس كبير زين إطاره بالزليج الملون الذي تعلوه ستارة من القرميد الأخضر والتي تقيه من عوامل التعرية المطرية. ويحيط بالمدخل يمينا ويسارا برجان مربعان زين طرفهما العلوي بنقوش هندسية طينية. وللمدخل باب من الصفصاف ينفتح على رواق مغطى يسمى بالدكانة أو المسرية التي كانت مخصصة للحراسة. ويوصل هذا الرواق إلى ساحة كبرى تتفرع عنها الأزقة والدروب.

ويوجد المسجد في الساحة الداخلية الثانية وهو يتكون من صومعة مربعة، ومن بيت الوضوء ومن بيت الصلاة التي تضم ثماني بلاطات وأربعة أساكب، ومن محراب مجوف، وخزانات حائطية للمصاحف ومنبر خشبي جميل يرجع تاريخ صنعه إلى عهد السلطان الحسن الأول [13 ربيع الأول عام 1314 هجرية / 1893 ميلادية]. وهو منبر زينت واجهته الأمامية ولوحته الخلفية بعدة نقوش هندسية وزهرية وكذلك بكتابات عربية مستوحاة من قصيدة البردة للبوصيري وهي كما يلي :

- على الواجهة الأمامية : «بركة محمد / من تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في أجامها تجم / من يعتصم بك يا خير الورى شرفا الله حافظه من كل منتقم / بركة محمد».

- على الواجهة الخلفية : من الأعلى «استغفر الله من قول بلا عمل لقد نسبت /الله/محمد/ أمرتك الخير لكن ما استمرت في ما استقم فمالي لك به» في الوسط «لا إله إلا الله / في 31 ربيع الثاني عام 4131 / محمد رسول الله» من الأسفل «ولتزود قبل الموت نافلة / بسم الله الرحمن الرحيم / ولم أصل سوى فرض ولم أصب».



الصورة 34 : منطقة تافيلالت : قصر أبو عام (صورة جوية)

المرجع : أبنية القصور والقصبات بالأودية المتاخمة للصحراء. الرباط، نشر وزارة السكنى 1992 (ص 65)

صفوة القول إن قصري تابوعصامت وأبي عام بالرغم من قساوة الظروف الجغرافية والمناخية وبالرغم من التحولات الاقتصادية التي عرفتها منطقة سجلماسة وخاصة فيما يتعلق بتراجع دورها البارز في تجارة القوافل الصحراوية، فإن هذين القصرين يعتبران مراكز تواصل وتجمع سكاني حيوي. فسكانهما كانوا من كبار التجار ومن المنتجين النشيطين وكان منهم العلماء. ومع ذلك لا يعرف عن تاريخهم إلا النزر القليل، بل إن هذا التاريخ لم يكتب، وظل على شكل ذكريات جميلة تناقلتها الأجيال شفويا أبا عن جد وتكسوها هالة من الأساطير والخرافات.

خلاصة :

يظهر مما سبق أن للقصور والقصبات بمنطقة سجلماسة، عمق تاريخي وثقل حضاري لا يقل أهمية عن المراكز الحضرية، فالتنظيم المجالي والاجتماعي للواحات يتسم بالتداخل الاقتصادي وازدواجية النشاط الفلاحي بين المستقرين الذين يتعاطون أساسا للزراعة وبين الرحل الذين يعتمدون على الرعي وأحيانا على التجارة. وهو ما يطرح إشكالية استيعاب أنماط التنظيم المؤثرة على العلاقات بين مختلف الوحدات السكنية المحلية وأشكال التنظيم الاجتماعي والمجالي داخل القصر نفسه، وعوامل تدهور هذه البنية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

المبحث الثاني عشر :

منوغرافية المعمار الحالي بتافيلالت

تقديـــم :

إذا كان من الصعوبة الإحاطة الشاملة بالمكونات المعمارية التي احتضنتها مدينة سجلماسة وتحديد بقاياها الأثرية وتأريخها بدقة، فإن الدراسة المنوغرافية للقصور والقصبات بمنطقة سجلماسة أو تافيلالت حاليا وخاصة منها المنتمية للفترة العلوية، ساهمت إلى حد بعيد في حل مجموعة من الألغاز المحيطة بالعمارة السجلماسية وبالخصوص تلك المتعلقة بمواد البناء والمكونات البنائية والزخرفية، فضلا عن التنظيم الاجتماعي والمجالي. كل هذا يدعم الفكرة التي تقول أن العمران الحالي بتافيلالت تمتد جذوره في عمق التاريخ وتستمد أصولها من المعمار السجلماسي وربما قبل ذلك من القصور والمدن التي وجدت بالمنطقة قبل الفتح الإسلامي مثل زيز وتدغة.

فقد شهدت منطقة تافيلالت الاستقرار منذ ما قبل التاريخ وكان من نتائج ذلك هذا التراث العمراني العريق والمتنوع الذي لا تزال الكثير من معالمه واقفة كشاهد عيان تتحدى الظروف الطبيعية القاسية وتدخل الإنسان وتعاقب الأزمان.

I ـ العمارة العلوية بتافيلالت :

1 ـ القصبات الإسماعيلية :

تعتبر منطقة تافيلالت منطلق ومهد الدولة العلوية، هذه الدولة التي أعادت للمغرب وحدته واستقراره. وقد ظل كل السلاطين العلويون أوفياء في رد الاعتبار لمنطقة تافيلالت، إذ قاموا بزيارتها للوقوف على أحوالها والترحم على صلحائها وعلمائها، كما لم يتوانوا في النهوض بشؤونها على جميع الأصعدة. بل ونجد الكثير من العائلات الشريفة تفضل الاستقرار بها حيث الأهل والأجداد وحيث العلم والأمن وحيث الحياة هادئة ومبسطة.

وباستقراء لكل الفترات التاريخية التي شهدتها منطقة تافيلالت منذ نشوء الدولة العلوية، يمكن القول إن كل عهد انفرد بطابعه العمراني المتميز، بالرغم من صعوبة المقارنة في العمارة المحلية المشيدة أساسا من الطابية. فلكل سلطان مآثره المعمارية التي تتميز بنمطها الخاص في الزخرفة. وإذا كانت الرواية الشفوية المحلية وبعض المصادر التاريخية الأجنبية تؤكد أن مولاي الشريف بن علي يرجع له الفضل الأول في إعطاء الانطلاقة لهذه المنجزات من خلال تشييده لقصبة الريصاني المسماة حاليا بقصبة أبي القاسم الزياني والتي اتخذها ابنه مولاي امحمد كقاعدة لحكمه في إطار استراتيجيته الرامية إلى توحيد المغرب، فإن السلطان مولاي إسماعيل يظل بحق المشيد الأول لمعظم قصبات وقصور تافيلالت والتي بلغت حسب صاحب الاستقصا مائة وخمسة قصور. «وكل واحد من هذه الدور المائة والخمس التي بسجلماسة لواحد من أولاد صلبه، لأنه كان رحمه الله إذا رأى أحدا من أولاده الذين لم يرد إقامتهم معه بالمغرب (أي الغرب) قد بلغ أرسله إلى سجلماسة وبنى له قصرا أو دارا وأعطاه نخلا وأرضا للحراثة والفلاحة ومماليك يقومون بخدمة أصله وحراثة أرضه في الشتاء والصيف... فتناسلت

أولاده ونمت فروعه ووفر الله جمعهم وحفظ نظامهم، وكان رحمه الله سديد النظر في نقل أولاده بأمهاتهم من مكناسة إلى تافيلالت مع بني عمهم من الأشراف ليتدربوا على معيشتها التي تقوم لهم فكان ذلك صونا لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخصاصة بعد موته...»[36].

وهو نفس الكلام تقريبا الذي يورده مؤلف كتاب المنزع اللطيف بقوله : «وأسس الدور والقصور العديدة لأولاده بسجلماسة، كل واحد قصرا أو دارا وأعطى لكل على حدة نخيلا وأرضا للحراثة والغراسة ومن يقوم به من المماليك، كل على قدر رتبته ومكانته لديه...»[37] وخاصة منهم ابنه زين العابدين الذي يرجع له الفضل في بناء أغلب هذه البنايات. «فمولاي إسماعيل قام ببناء عدة معالم ذات الصبغة الرسمية والسياسية وبتجديد سقوف المنازل والجوامع (قصر قصابي مولاي الشريف، قصر مزكيدة)»[38].

استنادا إلى ما ذكرته المصادر المكتوبة واعتمادا على التحريات الميدانية، يمكن جرد القصور والقصبات الإسماعيلية التالي :

الاسم	الموقع	ملاحظات
1 - القصبة السجلماسية	على أنقاض سجلماسة	مقر الإدارة الإقليمية لتافيلالت
2 - المعاركة	الرتب - أوفوس	لابنه مولاي الشريف
3 - مولاي المأمون	تزيمي - أرفود	لابنه مولاي المامون
4 - مولاي أحمد الذهبي	تانيجوت - الريصاني	لابنه مولاي أحمد الذهبي
5 - مولاي المكتفي	واد إيفلي - الريصاني	لابنه مولاي المكتفي
6 - جنان مولاي الشيخ	واد إيفلي - الريصاني	لابنه مولاي الشبخ
7 - بني ميمون الشرفاء	واد إيفلي - الريصاني	لابنه زين العابدين

(36) الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) : مصدر سابق، الجزء الرابع (ص 102).

(37) ابن زيدان (عبد الرحمان) : **المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف** تحقيق عبد الهادي التازي، الدار البيضاء، مطبعة اديال، الطبعة الأولى 1993، 525 صفحة (ص 387).

(38) Jacques-Meunié (D) et Meunié (J) : «Abbar, cité royale du Tafilalet», op-cit. (p 56).

الاســـــم	المـوقــــع	مــلاحــظـــات
8 ـ أولاد عائشة	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه زين العابدين
9 ـ مولاي مبارك	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه زين العابدين
10 ـ أولاد عدو	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه زين العابدين
11 ـ أولاد رحو	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه زين العابدين
12 ـ مولاي الشريف	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه مولاي الشريف
13 ـ مولاي الهادي	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه مولاي الهادي
14 ـ مولاي الحران	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه مولاي الحران
15 ـ المنصورية	واد إيفلي ـ الريصاني	لابنه مولاي الحسين
16 ـ السيفة	السيفة ـ تافيلالت	تخربت
17 ـ أولاد عبيد	عرب الصباح ـ أرفود	
18 ـ كنبدرا	عرب الصباح ـ أرفود	
19 ـ الخلفي	عرب الصباح ـ أرفود	
20 ـ أولاد يعيش	عرب الصباح ـ أرفود	
21 ـ أولاد كروم	عرب الصباح ـ أرفود	
22 ـ العبايدة	عرب الصباح ـ أرفود	
23 ـ لبطرني	بني امحمد ـ الريصاني	
24 ـ لوجا رشة	بني امحمد ـ الريصاني	
25 ـ مزكيدة	تانيجوت ـ الريصاني	
26 ـ الفيضة العليا	تانيجوت ـ الريصاني	لابنه مولاي عبد الله
27 ـ الشقارنة	تانيجوت ـ الريصاني	
28 ـ القصر الفوقاني	تانجيوت	
29 ـ أولاد يوسف	تانجيوت	
30 ـ المدرسة	واد إيفلي ـ الريصاني	تخربت
31 ـ ابن رقاصة	واد إيفلي ـ الريصاني	تخربت
32 ـ أوجارتي	واد إيفلي ـ الريصاني	
33 ـ أطرطار	واد إيفلي ـ الريصاني	

ملاحظات	الموقع	الاسم
لابنه زين العابدين	واد إيفلي - الريصاني	34 - عمارة
	واد إيفلي - الريصاني	35 - الجار
	واد إيفلي - الريصاني	36 - تيعلمت أو تيعرمت
	واد إيفلي - الريصاني	37 - تيخلفين
أعيد بناؤه وخاصة المسجد	واد إيفلي - الريصاني	38 - أخنوس
	السفالات - الريصاني	39 - كرينفود
وخاصة الضريح	السفالات - الريصاني	40 - مولاي عبد الله الدقاق
تخربت	الغرفة - الريصاني	41 - حمني
تخربت	الغرفة - الريصاني	42 - تغدوين

وكانت تخصص هذه القصور والقصبات لأحد الأمراء بواسطة ظهير سلطاني، وفيما يلي نموذجا لأحد هذه الظهائر الذي أصدره السلطان يملك فيه قصر الفيضة لابنه مولاي عبد الله :

بعد البسملة والصلاة والطابع الشريف وبدائرته الآية [إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا] : «... يستقر بعون الله تعالى وتوفيقه الجميل هذا الظهير المبارك المحفوف بالخير المتدارك الجدير بفضل الله تعالى جميع أنواع الإيثار والإكرام والإنعام غير مشارك، بيد حامله المتمسك بالله ثم به ولدنا الأرضى، الأثير الأحظى، الأعز الأرشد، الأمجد الأسعد، مولاي عبد الله أصلحه الله وأثمر غرسه ورضي عنه وأرضاه. يتعرف منه أننا أعطيناه ووهبنا عليه جميع البلاد المعروفة بالفيضة بقاعدة سجلماسة حرسها الله بجميع ما اشتملت عليه الفيضة المذكورة من الأرض والديار والأشجار والنخيل والفسلان (صغار النخيل) وجميع القصبة المباركة التي من الله علينا بناءها وإنشائها بمنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها وأذنا له حفظه الله أن يحوز ذلك كله عنا وأن يحل فيه محل ذي المال في

ماله وذي الملك في ملكه وأن يتصرف فيه بأنواع التصرفات وسائر الإنتفاعات دون معارض له ولا منازع. وأنعمنا عليه أصلحه الله حتى بخديمنا مسعود غرينطو الذي وكلناه على القيام بمنافع هذا الأصل المبارك وخدمناه في بنائه وحضائه وأصبناه إلى وعده المذكور وألقيناه له يتصرف له في منافعه ومآربه بهذا الأصل وغيره ويصنع به ما شاء ويخدمه حيث شاء... في الرابع عشر من شوال سنة سبع وعشرين ومائة وألف (1127 هجرية))[39].

وإذا كان من الصعب تقديم وصف شامل لكل القصور الإسماعيلية بتافيلالت، يمكن الاقتصار على ذكر أهمها مثل القصبة السجلماسية باعتبارها مقر الإدارة المحلية، وعلى الوقوف بإيجاز عند بعضها الآخر كمزكيَدة، وقصابي مولاي الشريف، وكرينفود، وأولاد عائشة، وبني ميمون الشرفاء، وعمارة، وأولاد رحو، والمنصورية، وقصبة مولاي مبارك.

أ) القصبة السجلماسية :

*** لمحة تاريخية :**

اندثرت مدينة سجلماسة خلال نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر، إلا أنها بقيت حية في الذاكرة الشعبية المحلية، كما أن خرابها استغل من طرف الحرفيين (مثل الفخارة) لبناء معاملهم الإنتاجية. وظل الأمر كذلك إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل الذي قام بتشييد القصبة السجلماسية على أنقاض المدينة الأم وذلك خلال زيارته لتافيلالت في نهاية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي [ربما سنة 1683 ميلادية]. فقد قام هذا

(39) ابن زيدان (عبد الرحمان) : المصدر السابق (ص 336 - 338).

السلطان ببناء «القصبة السجلماسية وعين ابنه المأمون خليفة له على تافيلالت. وكانت هذه القصبة تضم الحصن، والمسجد، والمدارس والقصور... إضافة إلى دور المخزن أي موظفي السلطات المحلية»(40).

من الممكن أن تكون هاته القصبة قد بنيت في قلب موقع سجلماسة وقد تكون أيضا اعتمدت مواد بنائها من نفس الموقع، ومن الممكن أنها نقلت عن المدينة التاريخية تخطيطها المعماري حسب البقايا الأثرية الحالية. هذه القصبة سيقوم بترميمها فيما بعد السلطان سيدي محمد بن عبد الله عقب زيارته لتافيلالت ما بين 1783 و1784 ميلادية.

*** المكونات المتبقية :**

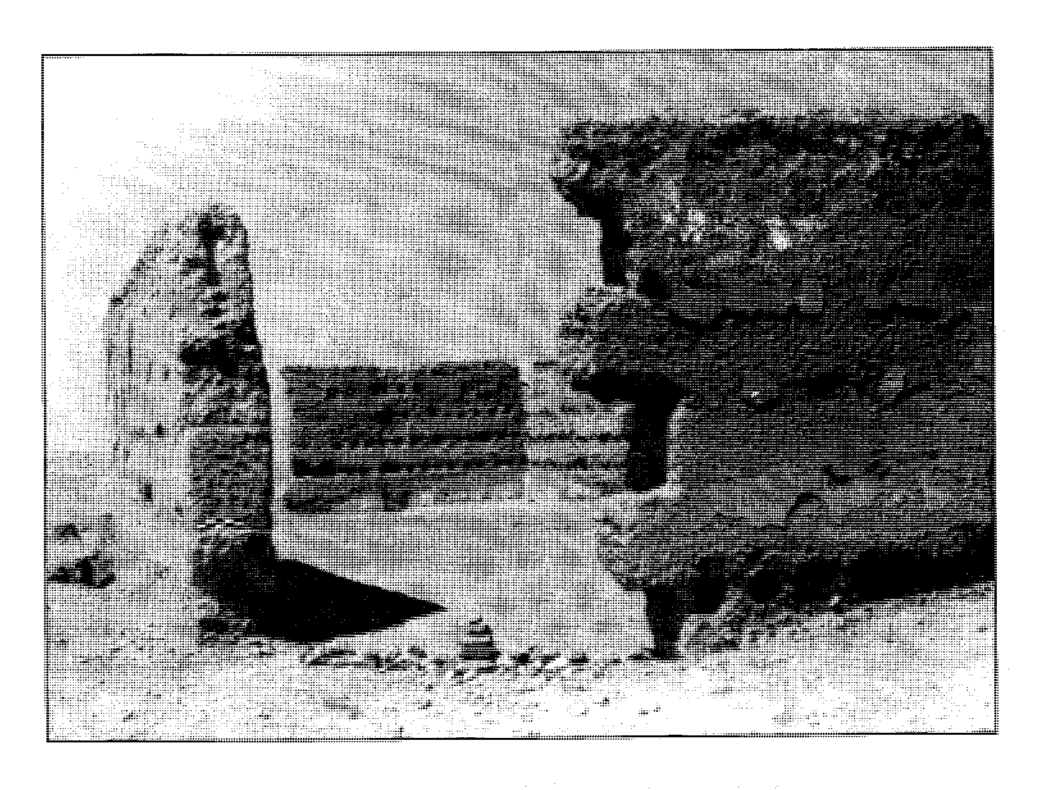
تعرضت هذه القصبة للتخريب في بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، بفعل الصراعات القبلية بين حلفي آيت عطا وآيت يافلمان، وهي اليوم «عبارة عن ركام من الأتربة على امتداد مسافة شاسعة بينما تظهر من مكان لأخر بعض بقايا الأسوار المشيدة من الطابية والطوب»(41). ولم صمد من مرافقها إلا القليل وهي :

– **المسجد الجامع** : ويقع في قلب موقع سجلماسة الأثري، ويطلق عليه محليا بالمسجد الإسماعيلي. وقد بني وفق تصميم مستطيل يتجه نسبيا نحو الجنوب الشرقي، ويقع موضع محرابه الذي دمر تماما وسط الجدار الجنوبي. وشيدت جدران المسجد من الطابية فوق أساس من الحجارة ويبلغ سمكها حوالي متر واحد وعلوها ستة أمتار. وتم تبليط الجدران من الداخل بالجبس الممزوج بالرمل.

(40) Dastugue (Henri) : op - cit (p 370).

(41) Delbrel (Gabriel) : «Notes sur le Tafilalet», *Bulletin de la Société de Géographie*. Paris, Tome : XV; 7° série, 3° trimestre 1895; pp. 199 - 227 (p 226).

تتخذ بيت الصلاة شكلا مستطيلا، يبلغ طولها 39 مترا وعرضها 16,50 مترا (المساحة الاجمالية : 643,50 مترا مربعا). بداخل هذه القاعة لازالت آثار التبليط والأعمدة ظاهرة للعيان. هذا التبليط المكون من الجبس المختلط بالرمل، تتخلله 24 حفرة تمثل قواعد الأعمدة ذات مقاييس مختلفة أي 0,70 x 0,70 مترا بالجهة الغربية وحوالي متر واحد على 0,90 متر بالجهة الشرقية والتي تتوزع إلى خمس بلاطات وعشرة أساكب.



الصورة 35 : القصبة السجلماسية : بقايا المسجد الجامع

وبالإضافة إلى الدور الديني الذي كان يقوم به المسجد، فقد كان أيضا قبلة لطلاب العلم حيث يضم مرفقا خاصا تعطى فيه الدروس في الفقه وأصول الدين والتفسير وغيرها من العلوم الإسلامية. ويدل على ذلك آثار المدرسة وغرف إيواء الطلبة بجوار الجامع في الجهة الشمالية. وتقول الرواية الشفوية إن العالم مولاي عبد الله الدقاق (دفين القصر الذي يحمل اسمه) كان يلقي دروسا بهذا المرفق. وتجدر الإشارة إلى كون جناح التدريس كان منفصلا عن الجامع بسور وعن غرف الطلبة بسور كذلك وهو عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل تبلغ مساحتها 273 مترا مربعا أي 39 مترا في الطول و7 أمتار في العرض. وشيد السور من الطابية على أساس من الحجارة وبلطت أرضيته بالجبس الممزوج بالرمل. نفس الشيء يقال عن مكان إيواء الطلبة وهو عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة الشكل ذات مساحة إجمالية تقدر بـ 507 م² (39 مترا طولا و13 مترا في العرض).

وقد ظل هذا الجامع يؤدي دوره الروحي والثقافي حتى بعد تخريب القصبة السجلماسية في بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي (حوالي سنة 1818 ميلادية)، إذ كانت تقام فيه صلاة الجمعة وصلوات الأعياد الدينية إلى غاية بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي. وقد قام السلطان مولاي الحسن الأول أثناء زيارته لمنطقة تافيلالت، بالاعتكاف ليلة كاملة يصلي بمسجد القصبة وهي ليلة يوم الثلاثاء 21 نونبر 1893 ميلادية[42].

– **الدار الكبيرة** : تقع إلى الشمال من المسجد وشيدت بالطابية فوق أساس من الحجارة، و لم يبق منها سوى السور الذي يشتمل على بعض الأبراج المربعة. يبلغ طول هذا السور حوالي 70 مترا، بينما يقدر عرضه بحوالي 30

---

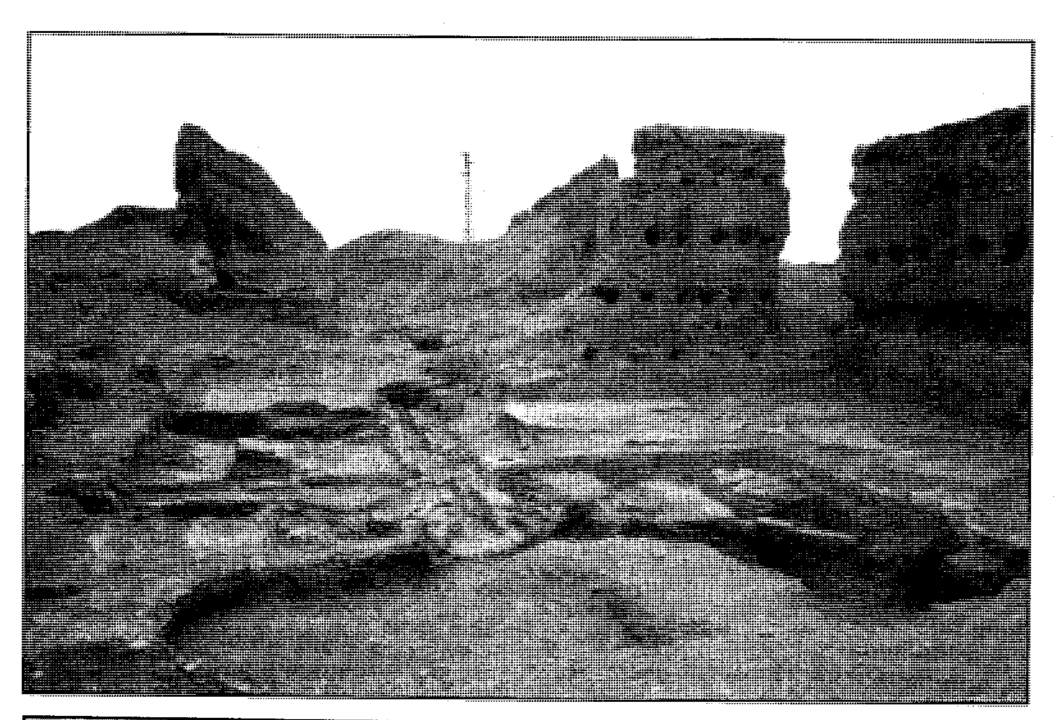
(42) Linares (Fernand) : op-cit (p 112).

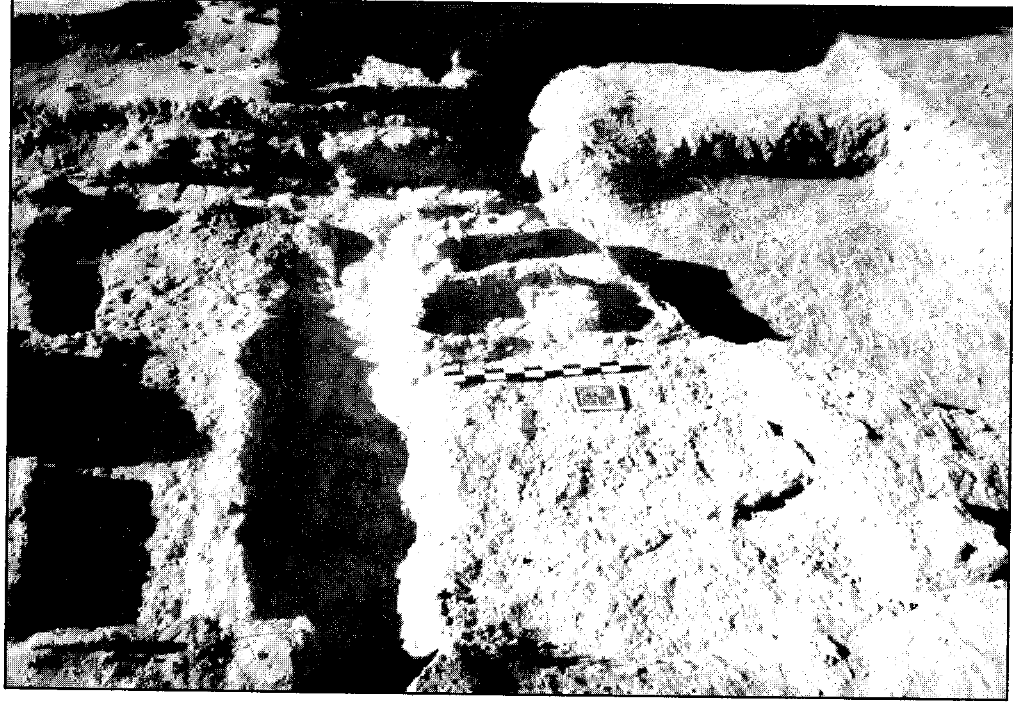
مترا (المساحة الإجمالية : 2100 مترا مربعا). كانت الدار الكبيرة محصنة ويبدو أنها قد بنيت بمتانة وزخرفت بدقة. وتذكر الرواية الشفوية أن هذه الدار وظفت لإدارة القصبة وإقليم تافيلالت عامة وكان يسكنها الخليفة السلطاني مولاي المأمون في أول الأمر.

– **المرافق الأخرى** : وهي عبارة عن بنايات متفرقة ربما كانت تستعمل كمنازل لكبار موظفي السلطة المحلية. ولعل المنزل الذي تم الكشف عنه خلال حفريات 1974 ميلادية يسير في هذا الاتجاه، فقد شيد هذا المنزل من الطابية ذات سمك يبلغ حوالي 0,50 مترا والمكونة من تربة صفراء وحمراء والمختلطة باللقى الخزفية والعظام والرمل والحصى. المنزل يبلغ طوله 37,50 مترا وعرضه 12 مترا وعلوه الحالي يتراوح بين مترين و3 أمتار. بني المنزل فوق بقايا موقع سجلماسة التاريخي ويتكون من غرفتين كبيرتين (ربما للضيافة)، ومن أروقة، ومن غرف صغيرة (المطبخ، وغرفة النوم...). في وسط هذه الدار تم العثور على سارية مستديرة مشيدة من الحجارة ومبلطة بالجبس. وقد عرف المنزل كباقي مرافق القصبة السجلماسية عمليات الترميم في الأماكن المهددة بالسقوط والتي تم تدعيمها بالحجارة والجبس. الحفريات بداخل هذا المنزل أمدتنا بمعطيات مهمة عنه منها :

■ أن المنزل عرف على الأقل مرحلتين من البناء : تعود الأولى إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل بينما ترجع الثانية إلى عصر حفيده سيدي محمد بن عبد الله.

■ الخزف المكتشف ينتمي إلى صنف خزف تافيلالت الحديث (نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ـ بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي) وهو حسب الاستعمال نوعان : الأول ذو وظيفة منزلية (أواني المائدة، وأواني الخزن، وجرات الماء، والقناديل)، الثاني يوظف في البناء والزخرفة (القرميد والآجر).





الصورة 36 : القصبة السجلماسية : بقايا المسجد الجامع والمدرسة

– السور : يقع داخل السور القروسطوي وتوجد بقاياه الأساسية في الجهة الشمالية وفي الجزء الغربي والجنوبي. وقد كانت القصبة السجلماسية في الحقيقة محاطة بسورين : الأول يخص المرافق المركزية كالمسجد والدار الكبيرة، بينما يهم الثاني كل المساحة التي تشملها القصبة. ومن الناحية التاريخية يمكن التفريق بين السور الإسماعيلي والسور الذي شيده سيدي محمد بن عبد الله. فالأول يتميز بصلابته ويبلغ سمكه حوالي مترين وعلوه الحالي يتراوح بين ثلاثة وستة أمتار. وهو سور يضم عدة أبراج مربعة الشكل (63م^2) أو مستطيلة (65م^2). وقد زينت في قسمها العلوي بالقرميد والآجر الطيني ويبلغ علو الأبراج ما بين ستة وثمانية أمتار. الصنف الثاني هو عبارة عن ترميم للسور الأول لذلك غالبا ما يقع داخل السور الإسماعيلي، إلا أنه يتميز بضعف صلابته، إذ بني بطابية هشة مكونة أساسا من بقايا الموقع الأثري وتختلط التربة الحمراء فيه بالعظام والقطع الخزفية فضلا عن الحصى. يضم هذا السور بدوره عدة أبراج مربعة من حجم 25م^2. إلا أنه لم يصمد أمام قساوة الظروف المناخية وتدخل الإنسان، فتعرض للهدم ولم يبق منه إلا بعض الأجزاء في الجهتين الشمالية والغربية.

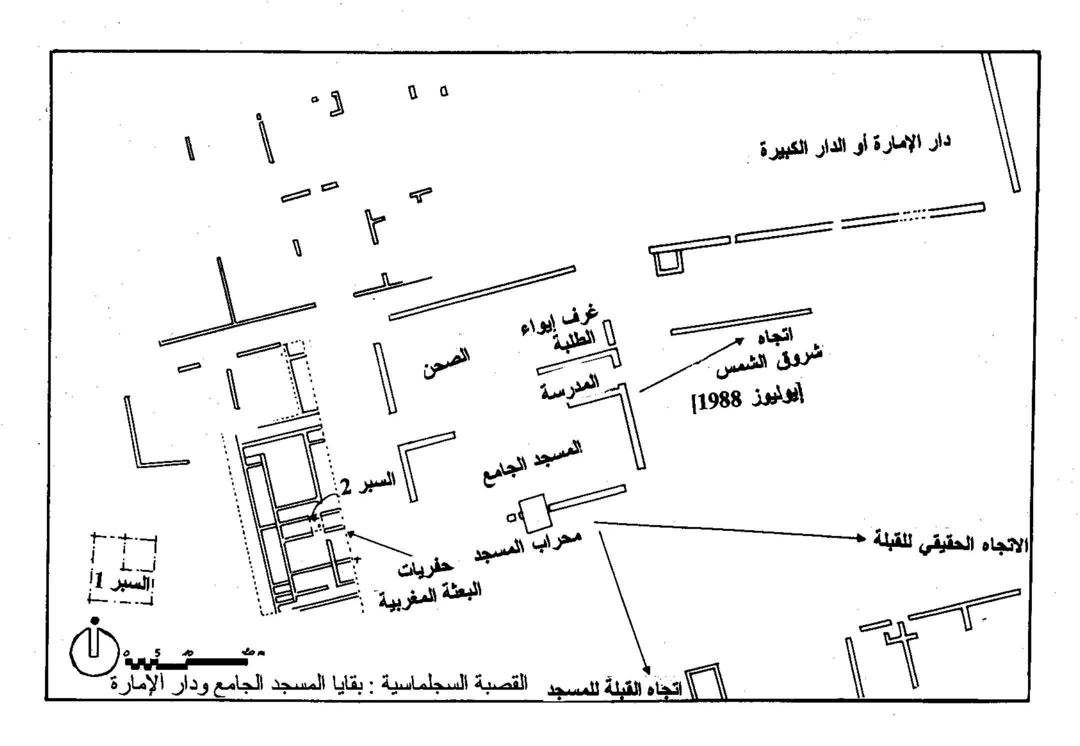
صفوة القول لقد كانت للقصبة السجلماسية أهمية كبرى بالمنطقة، ويبدو ذلك جليا في طبيعة مرافقها التي حصنت بشكل متين وفي نوعية مواد بنائها الصلبة وفي إحاطتها بسورين ضخمين من أجل الحماية والدفاع.

ب) قصر المنصورية :

* نبذة تاريخية :

يقع قصر المنصورية في أقصى شمال موقع سجلماسة الأثري بالقرب من الباب الشمالي والمسمى بباب فاس. وقد تضاربت حول بنائه روايتان : الأولى تقول بأنه شيد على يد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب المنصور

أثناء حصاره لسجلماسة عام 687 هجرية / 1287 ميلادية. هذا الحصار الذي استمر لمدة سنة كاملة واستعملت فيه لأول مرة آلة المنجنيق. وتستدل هذه الرواية على اسم القصر الذي اشتق من اسم هذا السلطان «المنصور»، وأيضا على نوعية التحصينات وشكل الأقواس المزينة لهذا القصر والتي تتخذ طابعا مرينيا. أما الرواية الثانية فتؤكد بأن القصر بناه السلطان أبو النصر مولاي إسماعيل لإيواء ابنه مولاي الحسين الذي لازالت ذريته «الملقبة بالإسماعيلي» تقطن بالقصر إلى اليوم.



التصميم 29 : القصبة السجلماسية : تصميم بقايا المسجد الجامع والحصن

*** المكـونـات :**

شيد القصر من الطابية ذات تكوين سميك ومتين وعلى أساس من الحجارة اتقاء للرطوبة والفيضانات. وكان القصر يتوفر على عدة مرافق مهمة إلا أن أغلبها اندثر مع مرور الزمن، ولم يبق منها غير بقايا البنايات التالية : السور الخارجي الذي يحيط بالقصر وتتخلله عدة أبراج. أما المسجد العتيق فيقع بالجزء الشمالي للقصر ولم يعد يحتفظ إلا بالمدخل الرئيسي وهو عبارة عن باب مقوس. الدار الكبيرة التي كانت تحتوي على عدة أجنحة لم يصمد منها غير الجدران والأبواب التي يبلغ عددها سبعة مما جعل السكان المحليون ينعتون قصرهم بقصر «سبع عتابي» أو «سبعة أبواب».

ج) قصابي مولاي الشريف :

*** المـوقـــع :**

تقع هذه القصابي [ثلاث قصبات] في مشيخة واد إيفلي جنوب شرق مدينة الريصاني، يحدها شرقا قصر جنان القاضي وبني ميمون الشرفاء، وغربا قصر أولاد رحو، جنوبا أولاد عدو وشمالا قصر صوصو. وهي في الأساس تنقسم إلى ثلاث قصبات متقاربة : قصبة مولاي الهادي في الشمال، قصبة مولاي الحران في الجنوب وقصبة مولاي الشريف في الوسط، وتقول الرواية الشفوية بأن هذه القصبات بناها المولى الشريف بن علي، وبأن المسجد الأول كان بسيطا ويخلو من كل عناصر الزخرفة وقد أعاد بناءه وترميمه المولى إسماعيل في إطار سياسيته الرامية إلى إصلاح مساجد تافيلالت.

*** المكـونـات :**

أهم معلمة بالقصابي تتمثل في المسجد الذي يتخذ شكلا مستطيلا تزينه أقواس كبيرة شيدت من الطابية وتخلو من أي نقش أو زخرفة. وتتكون بيت

الصلاة من أربع بلاطات وثلاثة أساكب (منابح) وثمانية عشر سارية تبلغ المسافة الفاصلة بينها 1,75 مترا. وشيد السقف من خشب الأرز (الورقة) على شكل البرشلة ويغطى بالقرميد الأخضر.

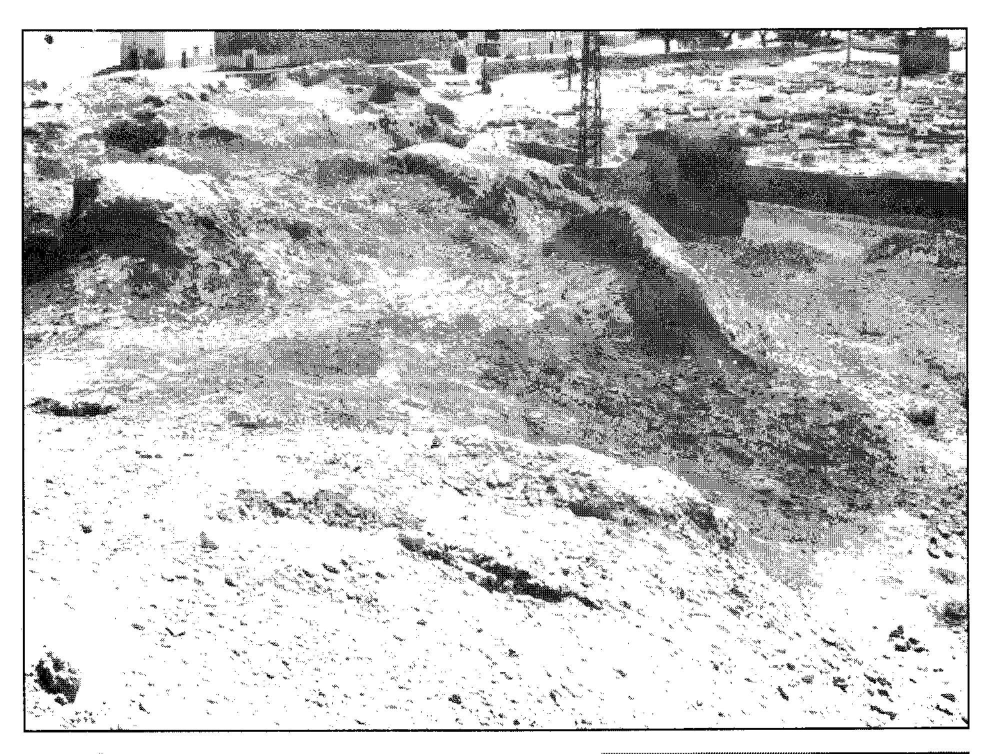
كما تضم بيت الصلاة محرابا مجوفا على شكل قوس تعلوه نقوش هندسية أنيقة من خطوط ومنحنيات متشابكة تتناغم مع أفاريز منفردة ومركبة من النقوش الهندسية والمكتوبة «العافية الباقية» و«العز لله». وبجانب المحراب توجد نقوش من القويسات تعلوها كتابة عربية تتخللها أوراق زهرية وتحمل العبارة : «الصلاة في وقتها خير» [في اليمين]، «من الدنيا وما فيها» [في اليسار]. كما يتوفر المسجد على الصحن المفتوح لإدخال الهواء والضوء.

وزين المدخل الخارجي للمسجد بشرفات، وصنع بابه من خشب الصفصاف. أما المدخل الداخلي فيتكون من قوس على شكل حدوة الفرس تتخلله تموجات لولبية ونتوءات متشابكة تحمل عبارة «العافية الباقية» منقوشة على الجبس حول حواف المدخل وتعلوه ستارة من القرميد الأخضر.

د) قصر مزكيدة :

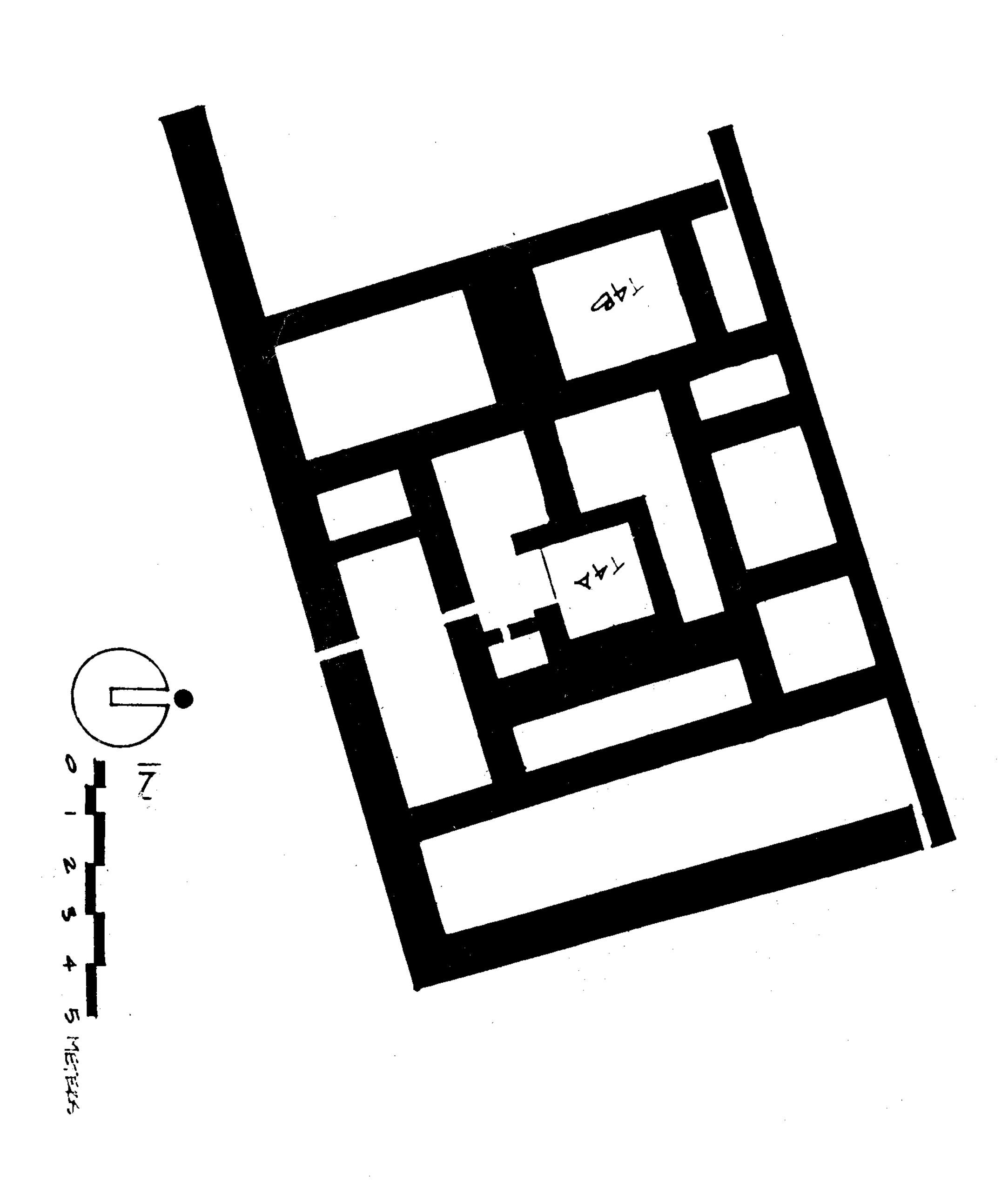
*** الموقع :**

يقع قصر مزكيدة في مشيخة تانجيوت على بعد حوالي ست كيلومترات شمال مدينة الريصاني. وحسب ما جاء عند صاحب المنزع اللطيف والرواية الشفوية ووفقا للبقايا الأثرية، فإن القصر ينتمي إلى سلسلة القصور العلوية التي شيدها السلطان المولى إسماعيل بمنطقة تافيلالت.

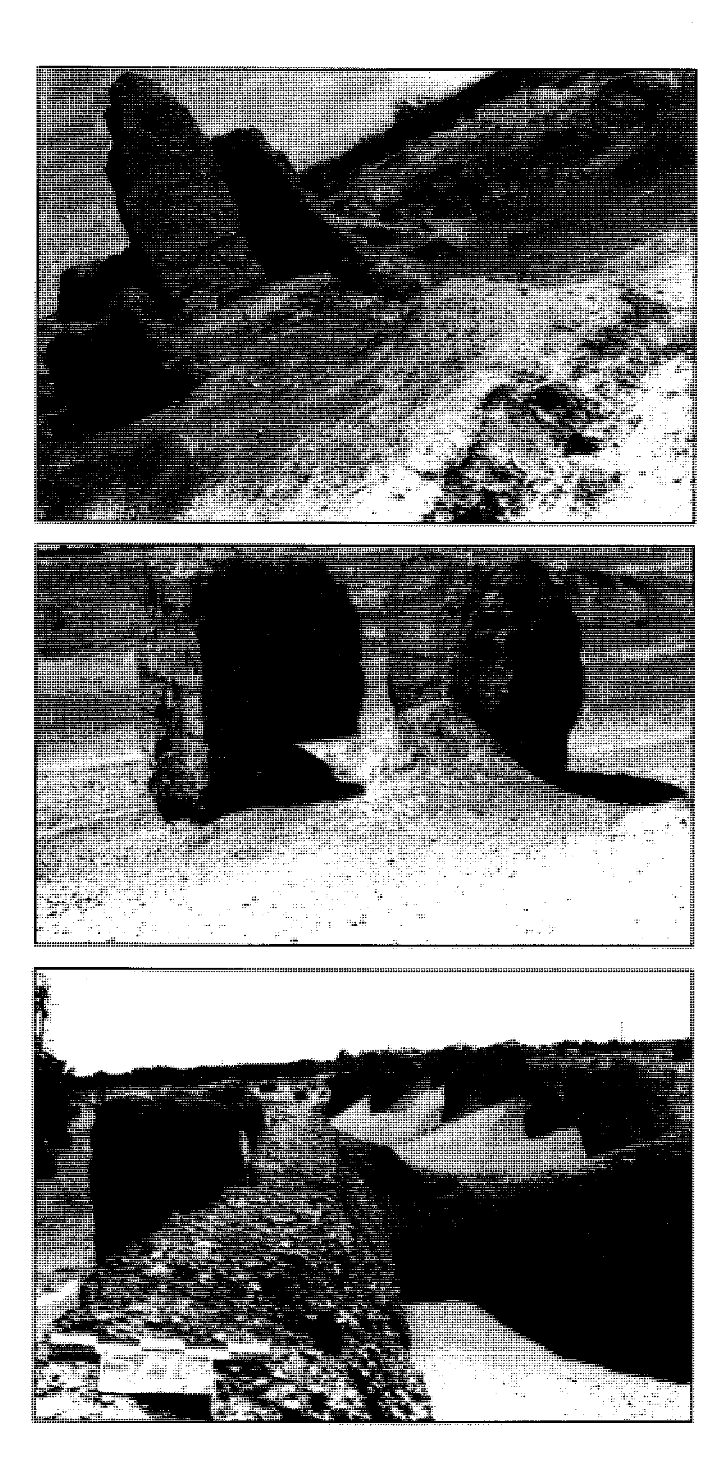




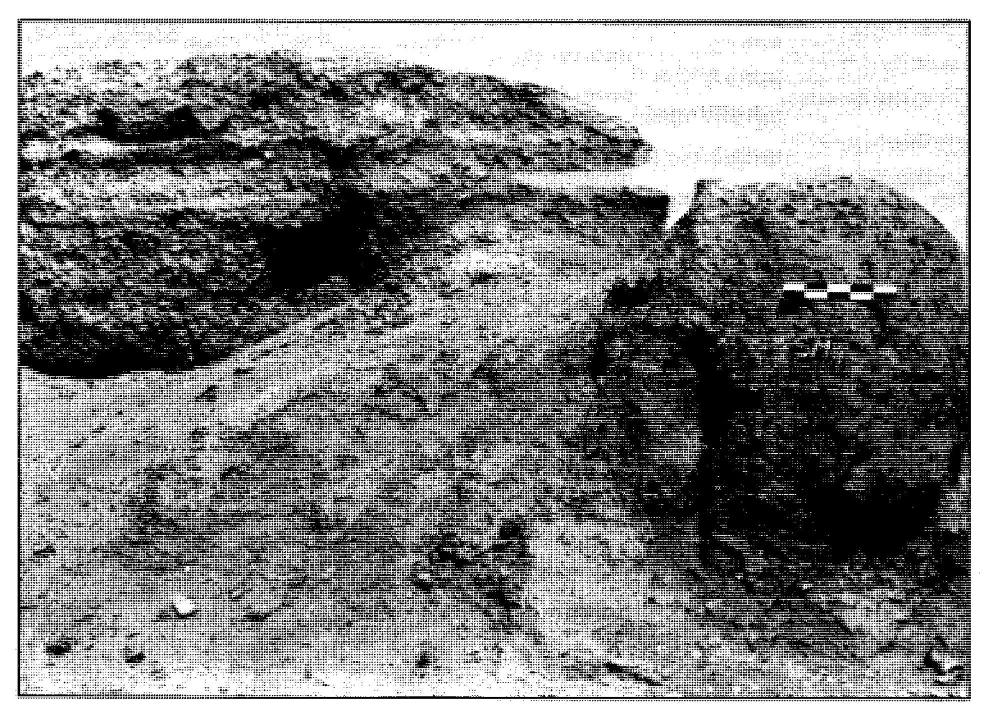
الصورة 37 : القصبة السجلماسية : بقايا الحصن

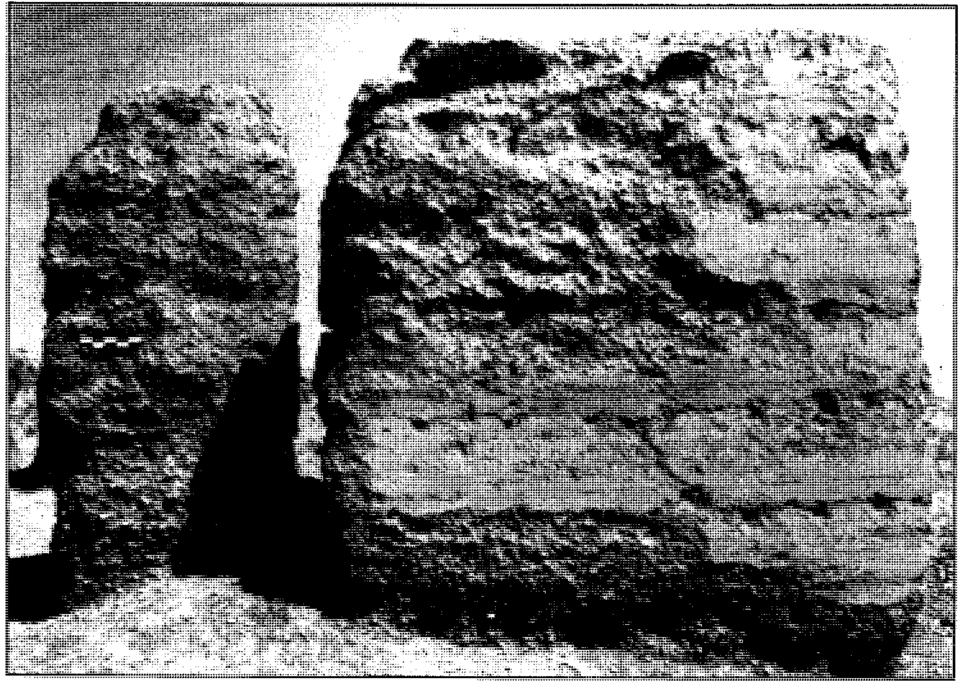


تصميم 30 : القصبة السجلماسية : بقايا حمام أو ناعورة



الصورة 38 : القصبة السجلماسية : بقايا السور والأبراج





الصورة 39 : القصبة السجلماسية : بقايا السور والأبراج

*** المكونـات :**

من المكونات المعمارية التي لا تزال صامدة بالقصر يمكن ذكر المسجد ويشبه إلى حد كبير مسجد قصابي مولاي الشريف ويتخذ شكلا مستطيلا تتخلله اثنا عشر سارية مقسمة إلى أربع أعمدة، أما الأقواس فهي منكسرة. تتكون بيت الصلاة من ثلاثة أساكب وخمس بلاطات وهي مغطاة بسقف خشبي على شكل سنم (البرشلة) وزينت بالقرميد الأخضر من الأعلى. ويتخذ المحراب شكل قوس مجوف زين جزؤه العلوي وجانبه بلوحة جصية من الجبس الأبيض نقشت عليها زخارف هندسية وزهرية وقويسات محاطة بكتابات عربية «العافية الباقية» / «العز لله». نفس النقوش زخرف بها الجزء العلوي من القوس الموازي للمحراب. ومن الملاحظ أن هذا المسجد يخلو من الصحن والصومعة، وما يميزه هو وجود قبة تتوسط الأسكوب الثاني (النبح الثاني). وهي قبة مضلعة أنيقة مهمتها الأساسية إدخال الضوء والهواء إلى بيت الصلاة.

أما الدار الكبيرة فكانت في الماضي تضم صحنا مكشوفا تحيط بها أروقة ذات أعمدة ومغطاة بسقف خشبي. وكان هذا الصحن ينفتح على أربع غرف للضيافة والحريم. أما حال هذه الدار اليوم، فهي تبكي حظها السيء الذي لم يترك لها سوى المدخل الرئيسي وبعض الأعمدة وقطعتين من الجبس منقوش عليهما عبارة «العز لله».

هـ) قصر كَرينفود :

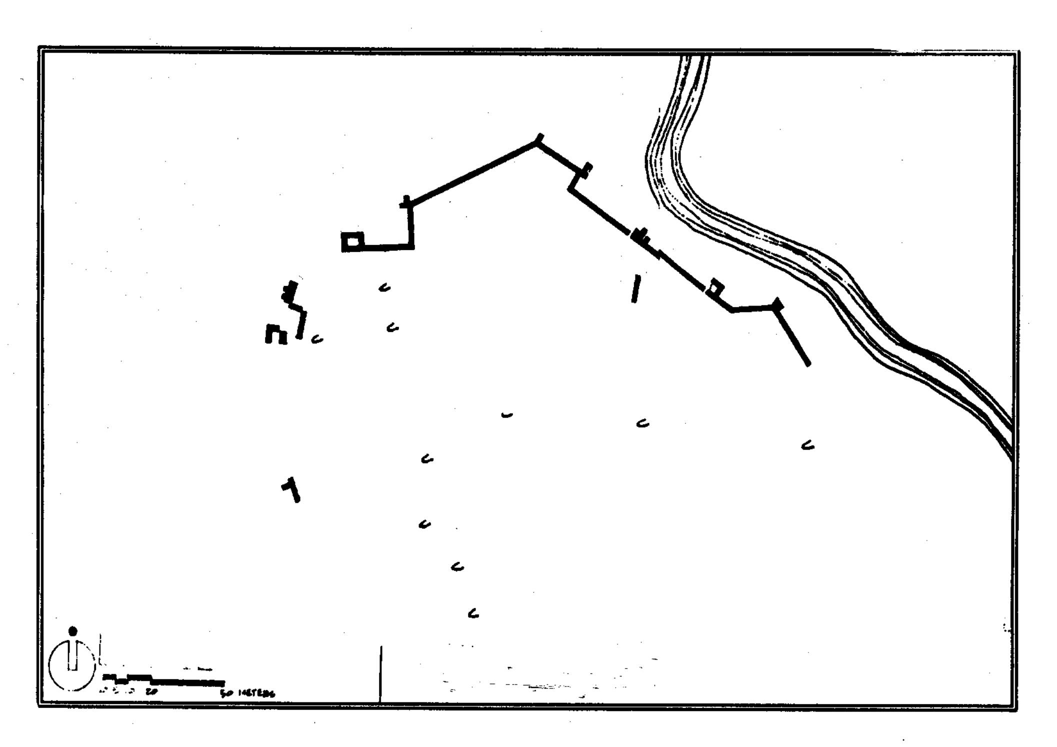
*** الموقـع :**

يقع هذا القصر في الطرف الجنوبي لموقع سجلماسة الأثري على بعد حوالي كيلومترين جنوب الطريق الرئيسية 13 وحوالي كيلومتر واحد شمال

ضريح مولاي الحسن الداخل. ويرجع تاريخ تأسيس قصر كَرينفود كما تقول الرواية الشفوية وكتاب الدرر البهية إلى نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

*** المكـونات :**

أعيد بناء قصر كَرينفود وترميمه، ولم يبق من آثاره الأولى سوى بعض الأبراج الشمالية والغربية ذات الشكل المربع وأيضا الباب الرئيسي (الداخلي) الذي بني بالآجر وزينت شرفاته بالقرميد الأخضر. وينفتح هذا الباب على مسرية (رواق) مغطاة مخصصة للاجتماعات والجلوس وتتضمن أقواس وحجر مصقول من الجرانيت كان يستعمل في دق البارود.



التصميم 30 : القصبة السجلماسية : بقايا السور والأبراج

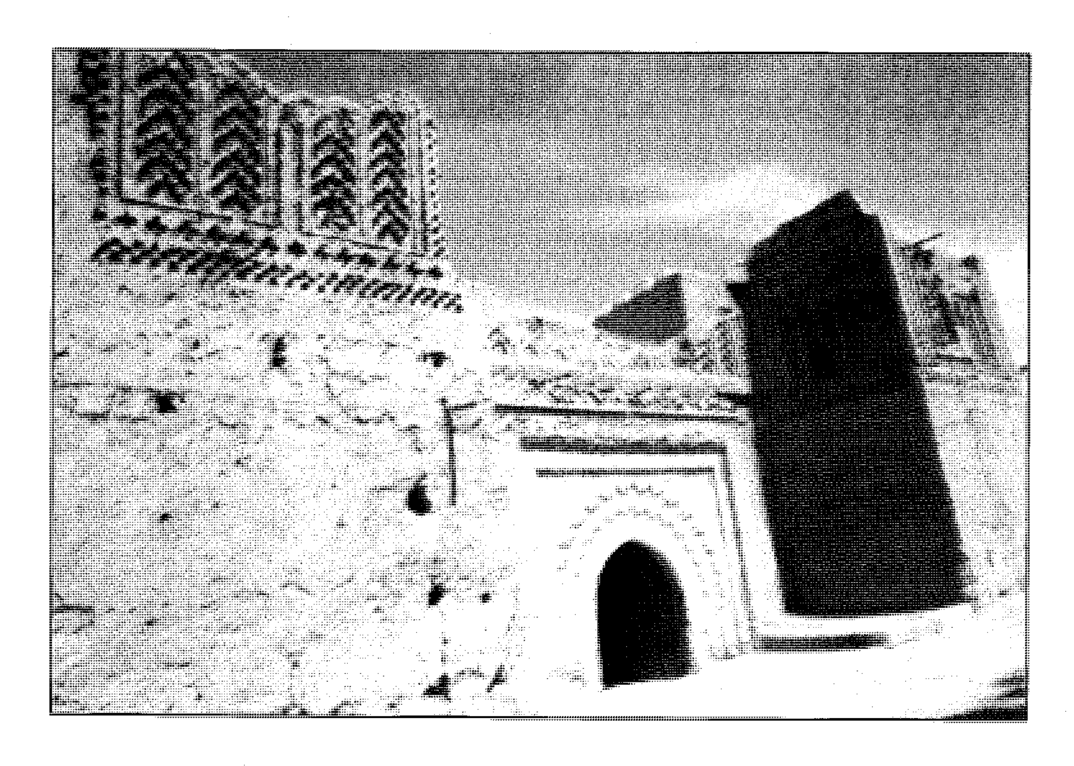
و) قصر أولاد عائشة :

* الموقــع :

يقع هذا القصر بمشيخة واد إيفلي يحده شرقا قصر أولاد عبد الحليم، وغربا أولاد رحو، وشمالا قصبة عمارة وجنوبا قصر أبحار. شيد القصر من طرف زين العابدين بأمر من أبيه مولاي إسماعيل في بداية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، ثم رممه فيما بعد مولاي عبد القادر بن مولاي الرشيد بن سيدي محمد بن عبد الرحمان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

* المكونات :

يعتبر هذا القصر آية في الروعة والإتقان بناء وزخرفة. بني سوره الخارجي من الطابية على أساس من الحجارة ويتميز بسمكه وعلوه (حوالي اثنا عشر مترا) ويتخلله اثنا عشرة برجا مربعا زين القسم العلوي منها بنقوش هندسية بديعة من الطين. يقع مدخل القصر في الطرف الجنوبي وهو عبارة عن قوس شيد من الحجارة والآجر وزين بنقوش جصية على شكل عقود تعلوها ستارة من القرميد الأخضر. ويحاط المدخل ببرجين مربعين زينت واجهاتهما العليا بنقوش هندسية طينية بديعة. وينفتح المدخل على رواق مغطى منعرج كان في الماضي بمثابة مكان للحراسة ووضع السلاح. وخير دليل على ذلك وجود حجارة من الجرانيت السوداء التي كان يدق عليها البارود. وبداخل القصر توجد الدار الكبيرة ذات المرافق المختلفة [الحريم، وقاعات الاستقبال، والحمام والمطبخ] وأيضا المسجد، إلا أن هاتين المعلمتين قد أعيد إصلاحهما مما افقدهما طابعهما الأول.



الصورة 40 : قصر أولاد عائشة : المدخل الرئيسي

ز) قصر القصيبة أو قصبة مولاي مبارك :

*** الموقــع :**

تقع إلى الشمال الغربي من القصر السابق ويعتبر كذلك من القصور العديدة التي بناها زين العابدين بن المولى إسماعيل بتافيلالت.

*** المكـونات :**

يتكون القصر من مدخل رئيسي في اتجاه الشرق شيد من الحجارة والآجر وتعلوه نقوش جصية وستارة من القرميد وهو ينفتح على رواق مفتوح يحاط بحقول زراعية (العرصات) يسارا ويمينا وكذا من المشور والمدخل

الداخلي. هذا الأخير ينفتح بدوره على رواق مغطى منعرج يؤدي إلى الدار الكبيرة المكونة من عدة قباب (قاعات الاستقبال والحريم) والمشيدة من الطابية بالنسبة للجدران، والحجارة والآجر بالنسبة للأقواس والسواري، والخشب المنقوش بالنسبة للأبواب. وقد زينت هذه القاعات بنقوش جصية هندسية وزهرية بديعة. أما السور الخارجي فيتميز بعلوه الشاهق الذي يصل إلى حوالي إحدى عشر مترا، وقد شيد من الطابية على أساس من الحجارة وتتخلله تسعة أبراج مربعة أعيد بناء أغلبها، مما أدى إلى اندثار النقوش الطينية التي كانت تزين واجهات قسمها العلوي.

ك) قصر بني ميمون الشرفاء :

*** الموقـــع :**

يقع القصر في مقاطعة واد إيفلي، يحده شرقا قصر عمارة، ومن الغرب والجنوب قصر جنان القاضي وشمالا قصر منوكَة. بني القصر من طرف المولى المأمون، بأمر من أبيه السلطان المولى إسماعيل، فوق ربوة اتقاءا للفيضانات.

*** المكـونات :**

تتمثل أهم بقايا القصر الأثرية في السور الخارجي الذي شيد من الطابية على أساس من الحجارة، ويصل علوه إلى حوالي عشرة أمتار وتتخلله تسعة أبراج مربعة مزينة بنقوش هندسية محززة من الطين في القسم العلوي. أما المدخل الرئيسي الذي يقع في الواجهة الشرقية، فقد شيد من الحجارة والآجر وزين بنقوش هندسية تعلوها ستارة من القرميد الأخضر. أما المسجد والدار الكبيرة فقد أعيد بناؤهما، مما افقدهما معالمهما الأولى.

ل) قصر عمارة :

*** الموقـــع :**

يقع القصر في مشيخة واد إيفلي قرب قصر أولاد عبد الحليم وكان هذا القصر حسب الرواية الشفوية عبارة عن مخزن مملوء دائما بالحبوب أي عامر ومن ذلك اشتق اسم القصر. يعود تاريخ بناء هذا القصر إلى عهد السلطان المولى إسماعيل وتسكنه حاليا ذرية المولى اليزيد بن سيدي محمد ابن عبد الله.

*** المكـونـات :**

تتمثل أهم المآثر القديمة للقصر في المدخل الرئيسي الذي يقع في الجهة الغربية والمشيد من الحجارة والآجر والمزين بنقوش جصية على شكل أقواس صغيرة. ويحاط المدخل ببرجين مربعين شيدا من الطابية وزينا بزخارف هندسية محززة من الطين، بينما صنع الباب من خشب الصفصاف. وهناك أيضا السور الخارجي الذي يبلغ علوه عشرة أمتار وتتخلله الأبراج التي تم ترميم بعضها.

م) قصر أولاد رحو :

*** الموقـــع :**

يوجد على بعد حوالي ثلاث كيلومترات جنوب مدينة الريصاني ويعتبر هذا القصر أيضا من القصور العلوية التي شيدها المولى زين العابدين بأمر من أبيه المولى إسماعيل.

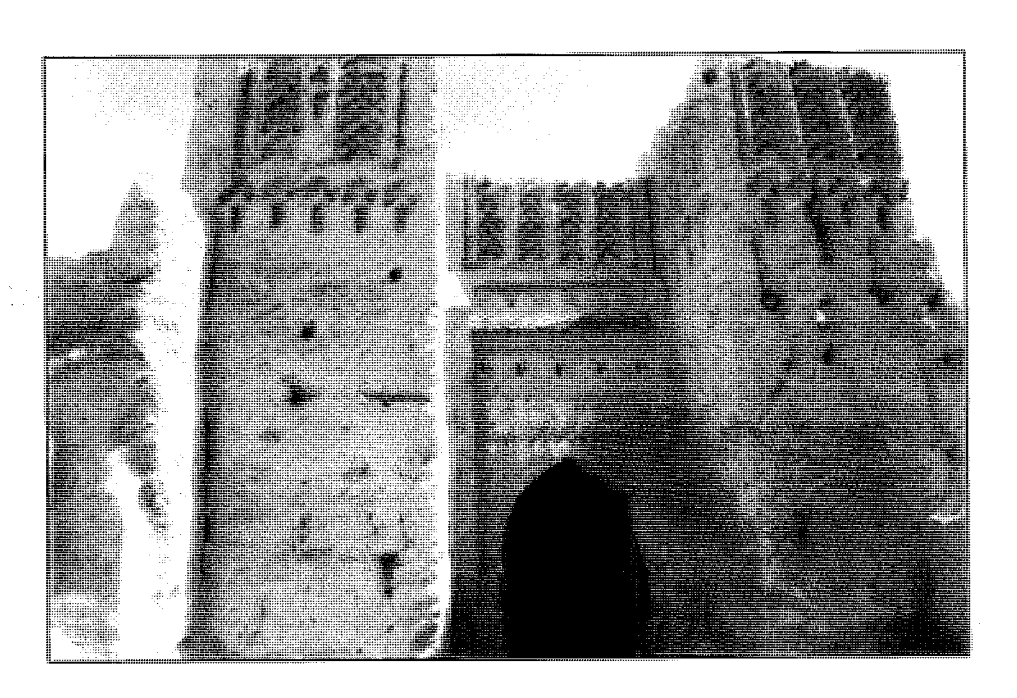
*** المكـونـات :**

يزخر قصر أولاد رحو بعدة نقوش ومآثر أصلية، إذ يتوفر على سور سميك ومرتفع تتخلله تسعة أبراج مربعة الشكل. وينفتح المدخل الرئيسي على رواق مغطى وساحة صغيرة يوجد في جهتها الجنوبية مسجد صغير يتكون

من أربعة أساكب وست بلاطات. ويحافظ المحراب بمعظم نقوشه القديمة والبديعة حيث نقشت حوافه بزخارف زهرية وهندسية تتخللها أفاريز من الكتابة العربية المكونة من عبارات «العافية الباقية». ومقابل المدخل الرئيسي يوجد مدخل ثاني ينفتح على رواق مغطى تتفرع عنه الأزقة والدور السكنية.

صفوة القول إن المنشآت المعمارية الإسماعيلية بتافيلالت، تدل على ما وصلت إليه أيدي الصانع المغربي في ذلك الزمان من مهارة مزجت بإتقان بين مختلف الأشكال الزخرفية في تناسق تام بدون أن يطغى شكل معين على آخر. وبسحرها الفني الأخاذ جذبت إليها أعين الزائرين واستهوت أفئدة القاطنين. وتعبر عن ذلك بوضوح الأبيات الشعرية المنقوشة على الواجهة الداخلية لقبة حمام قصر الفيضة، حيث جاء في مطلعها :

ادخل هنيئا سكني وابشر بما يهوى الفؤاد وتشهى العينان
أنظر بديع صنعتي قد زخرفت كزخرف الأزهار في البستان



الصورة 41 : قصر عمارة : المدخل الرئيسي

2 - أهم المنشآت المعمارية لسيدي محمد بن عبد الله :

إذا كان عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله يعرف بمحاولة الانفتاح على العالم الخارجي وتوطيد دعائم الدولة المغربية الحديثة، فإن هذه الحقبة من تاريخ المغرب المعاصر تميزت أيضا بمنجزات عمرانية كبيرة يصعب حصر مجالها ومرافقها. إذ لا تخلو أي منطقة بالمغرب من آثار هذا السلطان والتي لم تقتصر على بناية دون أخرى، فهناك المدارس والمساجد والحمامات والأبراج والأضرحة... وغيرها. بل إن مدنا جديدة ظهرت إلى الوجود في هذا العهد مثل أنفا والصويرة وفضالة أو المحمدية فضلا عن القصور كقصر دار دبيبغ بفاس ودار المنشية بمراكش وقصر الدار البيضاء والقصبة السجلماسية بتافيلالت. «ولما قويت شوكته وامتد سلطانه ونظمت إدارته، أعاد فتح بعض البلاد التي كان الأجانب قد احتلوها من أطراف المملكة كالبريجة... كما قسم المملكة إلى تسع عشرة عمالة ونشر القضاة في مختلف الجهات... كما أنشأ المدن مثل الصويرة وفضالة عام 1186 هجرية / 1772 ميلادية وجزءا من الرباط وغيرها من أبراج الحراسة المنتشرة في مختلف ربوع المملكة وكثيرا من المدارس والجوامع والقناطر وغير ذلك من آثاره الباقية المعلومة كالبيمارستانات... إلى أخره»[43].

أما بخصوص منطقة تافيلالت فقد حظيت بمكانة هامة لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله حيث زارها مرتين : الأولى ما بين 27 رجب وشهر ذي الحجة عام 1197 هجرية / 1782 ميلادية والزيارة الثانية كانت ما بين 15 جمادى الأولى و15 جمادى الثانية عام 1201 هجرية / 1786 ميلادية. كما أن السلطان اختار كخليفة له بتافيلالت كل من ولده المولى سليمان، وأبي القاسم الزياني من بعده. و«كان خروج المولى سليمان صحبة والده إلى

(43) الزياني (أبو القاسم) : المصدر السابق (ص 17).

سجلماسة سنة 1197 هجرية وسنه 18 سنة، حيث نصب خليفة والده بها وترك أخاه مولاي الطيب وأغدق عليه من العطايا العظيمة والذخائر الثمينة وأعيان الفقهاء والأدباء...»[44]. أما أبو القاسم الزياني فقد عينه سيدي محمد بن عبد الله عاملا على تافيلالت سنة 1202 هجرية / 1787 ميلادية وإلى غاية وفاة السلطان في 24 رجب عام 1204 هجرية / 21 أبريل 1790 ميلادية. وجاء في كتاب تعيينه الذي أرسله السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أهل تافيلالت ما يلي : «هذا كاتبي وصاحبي قد وليته عليكم وعلى أولادي وبني عمي وسائر أهل الصحراء فاسمعوا له وأطيعوه» ولما أظهر الزياني التردد خاطبه السلطان بقوله : «طب نفسا لولا أني أحبك ما وليتك على أولادي وأهل بيتي وإني لا أستغني عنك... وما وليتك عليهم إلا لهذا الغرض فإنهم يهابونك لمحلك مني»[45].

وكان لزيارة هذا السلطان لمنطقة تافيلالت الأثر الكبير في عودة الحياة إلى القصبة السجلماسية، إذ أمر بإصلاح مدارسها ومرافقها. «قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله عند توليه الحكم بفتح المدارس التي كان يدرس بها فضلا عن حفظ القرآن للأطفال، التعليم العالي على نفقة الدولة، كما قام بإصلاح القصبة السجلماسية وبتغيير سقوف المباني والمسجد الجامع»[46]. كما عمل السلطان على بناء عدة قصور لفائدة أبنائه ومنها قصبة الحدب لمولاي عبد السلام، وقصر الدار البيضاء لمولاي سليمان سنة 1102 هجرية / 1787 ميلادية، وقصبة الزياني أو الريصاني، وقصبة مولاي المستعين «ابن المكتفي»، وقصر أولاد بن عبد الله «بدلة» وضريح مولاي علي الشريف،

(44) الفيلالي (عبد الكريم) : **التاريخ المفترى عليه**، الرباط، مطبعة الصومعة 1969، 218 صفحة (ص 117 - 118).

(45) الناصري (أبو العباس خالد أحمد) : المصدر السابق (ص 62 - 63).

(46) Dastugue (Henri) : op-cit (p 371).

فضلا عن الجسور وتنظيم الري بشق القنوات (كقناة الغرفية) وبتشييد السدود (مثل سد المعاضد).

أ) قصبة أبو القاسم الزياني :

*** نبذة تاريخية :**

تسمى هذه القصبة أيضا بقصبة الريصاني أو قصبة بلقاسم النكادي وتوجد في قلب مدينة الريصاني وشيد فوق جزء منها مركز الدراسات والبحوث العلوية. وقد تعددت الروايات حول تاريخ تأسيسها : فمنها من يذهب اعتمادا على معاينة نقوش القصبة إلى القول بأنها ترجع إلى العهد المريني. فحسب الحفريات الأثرية التي أنجزها الباحثان الفرنسيان مونيي Meunié (J) و(D) Jacques-Meunié بقصبة الريصاني سنة 1959 ميلادية، «تم العثور على صحن جميل زينت جوانبه بعدة بقايا من الزخارف المنقوشة على شكل عقود وتشبيكات هندسية مزينة بنخلات ملساء وزهور، مما يرجح انتماء الصحن إلى الفترة المرينية ما بين أواخر القرن 13 الميلادي والسنوات الأولى من القرن 14 الميلادي»[47].

الرواية الشفوية تفيد أن القصبة بنيت من طرف مولاي الشريف بن علي، وهو نفس الرأي الذي يذكره أحد الباحثين بقوله إن قصر مولاي الشريف مؤسس الدولة العلوية (1631 - 1636 ميلادية) كان يقع بالريصاني[48]. ويفسر بعضهم ذلك «بأن هذا القصر ربما وجد أيام مولاي الشريف ثم أعيد بناؤه أو توسيعه على يد مولاي إسماعيل»[49]. ويرى أحدهم أن هذا القصر «بناه المولى إسماعيل لمراقبة القوافل القادمة من الصحراء والسودان»[50]، ويشير

(47) Terrasse (H): «Note sur les ruines de Sijilmassa», op-cit (p 586 et p 588).
(48) Mercier (L) : "Quelques notes sur le Tafilalet", *Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran*. Tome: V; fascicule 25; avril - juin 1885 (p 83).
(49) Jacques-Meunié (D) et Meunié (J) : «Abbar», *Hespéris*, op-cit. (p 56).
(50) بالعربي (الصديق) : **كتاب المغرب**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة 1984 (ص 145).

أحد المستكشفين الفرنسيين إلى أن «مولاي إسماعيل شيد بجوار المسجد الجامع القصر المعروف بالريصاني ما بين 1672 - 1689 ميلادية ليكون مقر حاكم البلد وسكنى معظم أولاده حينما يصلون سن البلوغ، وشيد كذلك قصبة الحدب وقصر كرينفود»[51]. وهناك من اعتمد على اسم القصبة وعلى ما ذكرته بعض المصادر للتأكيد على أن القصبة أسسها السلطان سيدي محمد بن عبد الله لفائدة خليفته وكاتبه أبي القاسم الزياني. وقد عرفت القصبة إصلاحات لاحقة وخاصة على عهد السلطان مولاي سليمان عام 1228 هجرية / 1813 ميلادية.

كانت القصبة تمثل سكنى الخليفة السلطاني على إقليم تافيلالت، استقر بها مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله ثم أبو القاسم الزياني من بعده. منذ هذا العهد وإلى غاية بداية التدخل الفرنسي في المنطقة، لا نعرف الشيء الكثير عن وضعية القصبة، قبل أن يتخذها أبو القاسم النكادي قلعة محصنة يباشر منها عملياته المسلحة ضد قوات الاحتلال الفرنسي. وبعد أن بسطت فرنسا نفوذها على تافيلالت، جعلت من القصبة مركز الإدارة المدنية الفرنسية بالمنطقة «Bureau Arabe». وبعد الاستقلال أصبحت القصبة مقر القيادة المحلية إلى حدود سنة 1987 ميلادية حيث تحول قسم منها بعد ترميمه إلى مركز الدراسات والبحوث العلوية، بينما استغل الجزء الأخر أي الدار الكبيرة كدار للطالب قبل أن تفرغ بدورها وتصبح عرضة للاندثار.

*** المكونات العمرانية :**

– **السور الخارجي** : شيد هذا السور من الطابية على أساس من الحجارة، يبلغ طوله 128 مترا، وعرضه 122 مترا [المساحة الإجمالية حوالي 15616 م^2] ويصل العلو إلى 11,50 مترا. توجد بعض الأجزاء الأصلية المتبقية بالدار

(51) Dastugue (H) : op-cit; (p 370).

الكبيرة والمسجد، بينما تهدمت أجزاء الجهة الجنوبية ـ الغربية وأعيد ترميم الجزء الجنوبي. تتخلل السور تسعة أبراج مربعة الشكل (4,15 x 4,15 أمتار) يتعدى ارتفاعها 13 مترا، وزينت بنقوش هندسية طينية على شكل نقط وحزوز.

يتخذ المدخل الرئيسي شكل قوس منكسر يبلغ علوه 3,80 أمتار، وعرضه 5,35 أمتار وسمكه 0,55 مترا. بني هذا القوس من الآجر على أساس من الحجارة وتم تزيين جزئه العلوي بإطار من الفسيفساء الخضراء نقشت عليها كتابة عربية مستوحاة من قصيدة البردة للبوصيري وتاريخ البناء : «بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا من العناية ركنا غير منهدم / ذي القعدة عام 1228 هجرية (1813 ميلادية)» وتعلو هذا الإطار ستارة من القرميد الأخضر. أما الباب فقد صنع من خشب الصفصاف المقوى يبلغ سمكه 0,12 مترا، وعلوه 4 أمتار وعرضه مترين و40 سم.

– **الساحة العمومية «المشور»** : كانت عبارة عن مشور يخصص لمراسيم الاحتفال والاستقبال، ولكن لم يعد لها وجود اليوم.

– **الأروقة** : لم يبق منها سوى واحد مستطيل الشكل ومغطى بسقف من خشب الأرز وأرضيته مبلطة بالإسمنت، ويتكون من دكانات للجلوس والحراسة تعلوها مسرية كمسكن للحارس. يبلغ طول الرواق 9,15 أمتار، عرضه 5,70 أمتار وعلوه 5,05 أمتار.

– **المسجد** : يقع في الجهة الجنوبية للدار الكبيرة ولا يفصلهما سوى زقاق عرضه 4,60 أمتار. المسجد يتخذ شكلا مستطيلا يبلغ طوله 38 مترا، وعرضه 15 مترا وعلوه 6,50 أمتار ويتم الولوج إليه عبر خمسة أبواب ذات أقواس منكسرة عادية أو منقوشة ويتراوح عرضها ما بين متر و60 سم ومترين وارتفاعها ما بين مترين و30 سم و3,15 أمتار. أما بيت الصلاة فشكلها مستطيل

وقد بنيت بالطابية والحجارة والآجر بينما صنع سقفها بورقة خشب الأرز. تتكون بيت الصلاة من أربعة أساكب وخمس بلاطات، ومن أربعة وعشرين قوس وصحن مكشوف مستطيل الشكل (7,65 x 3,70 أمتار)، ومن محراب على شكل قوس مجوف شيد من الآجر يصل علوه إلى مترين و0,5 سم وعمقه 0,80 مترا وقد زين إطاره بنقوش هندسية وزهرية ومكتوبة. المنبر صنع من خشب الأرز يبلغ طوله مترين وعرضه 0,80 مترا وعلوه متر و90 سم وقد نقشت عليه زخارف هندسية من حزوز ونجمات وزهور والعبارة التالية : «في 3 ربيع النبوي / عام 1341 الله بركة محمد/ جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي على ساق بلا قدم / ومن تكن برسول الله نصرته / إن تلقه الأسد في أجامها تجم».

– **الدار الكبيرة** : تقع في الجهة الشمالية ويوجد مدخلها في الجهة الجنوبية والذي شيد من الآجر المحلي ويتخذ شكل قوس منكسر يبلغ علوه 3,15 أمتار، وسمكه نصف متر وعرضه 4,60 أمتار. وزين المدخل بنقوش هندسية من تشبيكات وتقويسات، وزخارف زهرية من ورود وأغصان. وينفتح هذا المدخل على رواق مغطى مستطيل الشكل يبلغ طوله 13,80 مترا ، وعرضه 4 أمتار وعلوه 4,50 أمتار ويخصص هذا الرواق للحراسة والجلوس. أما السور فقد شيد من الطابية على أساس من الحجارة وتقدر مساحته حوالي 2237 م^2 [37,50 x 60,34 مترا] ويصل علوه إلى 110,30 مترا. وتتكون الدار الكبيرة من عدة مرافق لم بقي منها سوى قاعات الاستقبال التي يبلغ عددها أربعة وهي مستطيلة الشكل لها أربعة أبواب وتحتفظ بثلاثة نوافذ فقط وسقفت هذه القاعات بخشب الأرز من الكَايزة والورقة. يبلغ طول القاعة الأولى 16,57 مترا، وعرضها 6,30 أمتار وعلوها 6,50 أمتار. يصل طول القاعة الثانية إلى 19,50 أمتار، وعرضها إلى 5,70 أمتار وعلوها إلى 6,20 أمتار. يقدر طول القاعة الثالثة بـ 10,90 أمتار، وعرضها بـ 6,95 أمتار وعلوها بـ 6,50 أمتار. القاعة

الأخيرة وهي أكبرها يبلغ طولها 24,60 مترا وعرضها 12,50 مترا وعلوها 6,20 أمتار.

صفوة القول لعبت قصبة أبو القاسم الزياني في عهودها الأولى دورا هاما في تاريخ تافيلالت خاصة وأن موقعها في قلب المنطقة يؤهلها لذلك، إلا أنها اليوم تشتكي حظها التعيس، إذ تعرضت لاهمال ولم يعد لها أي وجود في الذاكرة المحلية. وكان لتشييد مركز الدراسات والبحوث العلوية بأحد جوانبها، أن استرجعت البعض من بريقها بعد أن بث الدفء الثقافي في أوصالها في انتظار الوقت الذي ستحظى بالترميم والتوظيف.

ب) قصر الدار البيضاء :

*** نبذة تاريخية :**

قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بإنشاء عدة قصور بمختلف المدن المغربية قصد إيواء ذريته وأبناء عمومته، وتحمل أغلب هذه القصور اسم الدار البيضاء كما هو الشأن في مكناس، وفي الرباط، وفي أنفا، وفي مراكش وفي تافيلالت. ويعتبر قصر الدار البيضاء بتافيلالت معلمة عمرانية رائعة شيدت على مساحة كبيرة تقدر بـ 2500 مترا مربعا وتتخذ شكلا مربعا [500 مترا في كل جانب]. يقع هذا القصر في الطرف الشرقي لواحة تافيلالت على بعد خمس كيلومترات من مدينة الريصاني، يحده شمالا جبل الدار البيضاء، وجنوبا قصيرة الغرفة، وشرقا قصر هارون وغربا قصري دار مولاي الطالب والفرخ[52].

القصر شيد في نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي [ربما سنة 1199 هجرية / 1784 ميلادية]. يقول الناصري بأن السلطان سيدي

(52) Carte topographique du Maroc : Feuille Erfoud, Echelle : 1 / 100.000. NH - 30 - XX - 2; X = 611,5 ;Y = 78.

محمد بن عبد الله قد «خلد آثارا كثيرة بالمغرب ومن بينها بمنطقة تافيلالت، ضريح المولى علي الشريف وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها ومسجد الريصاني ومدرسته»[53]. وتختلف الروايات حول الهدف من بناء هذا القصر، فمنها من يقول إن الغاية من ذلك التحكم في تحركات القبائل بدليل موقع القصر وتحصيناته المتينة. الرواية الثانية تذكر أن القصر شيد لإيواء مولاي سليمان الذي كان منشغلا بالعلم ومعتكفا على العبادة قبل أن يعين خليفة للسلطان بالمنطقة. أما صاحب الدرر البهية فيشير إلى أن القصر بني لفائدة ابنه مولاي مبارك الذي استقر به إلى أن وفاه الأجل فترك فيه ذريته وعقبه ومنهم مولاي المأمون[54].

ويورد أحد الباحثين اعتمادا على الأرشيف الفرنسي، إيضاحات وإشارات مفادها «أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله شيد قصرا فخما على ضفاف نهر تافيلالت في حدود أراضيه الشرقية، تتكون أعمدته من الرخام ونقلت من أنقاض فرواح [قصر فرعون] بالقرب من ضريح مولاي إدريس الأول بزرهون في الجهة الغربية للأطلس... وهو قصر شاسع لا تحتل المنازل فيه سوى نصف المساحة... وللقصر مدخل يبلغ علوه مترين و30 سم وعرضه ثلاثة أمتار. وقد اشترى القصر السلطان المولى الحسن الأول سنة 1890 ميلادية وبعث أبناءه ليستقروا فيه»[55].

ولعبت هذه القصبة بالدرجة الأولى دورا عسكريا، إذ كانت بمثابة قلعة حصينة قاومت بشجاعة التوغل الاستعماري الفرنسي لتافيلالت، مما جعلها تتعرض لهجمات عنيفة من طرف المدافع والطائرات الفرنسية ما بين 1916

(53) الناصري (أبو العباس خالد) : المصدر السابق (ص 69).

(54) الحسني العلوي (أبو العلاء مولاي إدريس بن أبي العباس أحمد) : **الدرر البهية والجواهر النبوية**، فاس طبعة حجرية، بدون تاريخ، الجزء الأول (ص 169).

(55) Jacques - Meunié (Djine) et Meunié (J) : «Abbar», op-cit (pp 60-61).

و1931 ميلادية. وقد نتجت عن هذه القذائف تخريب وتحطيم عدد كبير من مرافقها، كما أن تحول الثقل الحضاري والسياسي والاجتماعي إلى قصور جديدة وقريبة من المركز مثل قصر الفيضة وقصر أولاد عبد الحليم وقصبة آبار المخزن من ناحية، وتكرار الفيضانات المهولة من ناحية أخرى، أدى إلى تراجع دور هذه القصبة، فتعرضت للاندثار وهجرها معظم سكانها.

*** المكونات المعمارية المتبقية :**

– **السور الخارجي** : ويعتبر الجزء الذي لا يزال يحتفظ بمكوناته بفعل صلابته ومتانة بنائه، فقد شيد من الطابية على أساس من الحجارة. يبلغ طول السور 2000 مترا [500م في كل جهة] وسمكه حوالي مترا و20 سم ويصل ارتفاعه إلى خمسة أمتار وتتخلله تسعة أبراج مربعة الشكل وذات طابق علوي توجد به مخاريط وفتحات للحراسة ولإطلاق النار عند الضرورة. يربط بين الأبراج ممر ضيق على شكل سور داخلي أقل علوا من السور الخارجي.

– **المدخل** : للقصبة مدخلان أحدهما في الجهة الغربية والأخر بالشرق وهما متوازيان كان يصل بينهما في أول الأمر زقاق رئيسي تتفرع عنه باقي الدروب. المدخلان عبارة عن قوس منكسر شيد من الحجارة والآجر وزين بستارة من القرميد ويعلوه برج للحراسة، ويبلغ ارتفاع القوس مترين و30 سم وعرضه حوالي مترين. وللمدخلين بابان صنعا من خشب الصفصاف يغلقان من الداخل بواسطة قفل خشبي وأخر حديدي. وينفتح البابان على رواق مغطى «مسرية» خاصة بالجلوس والاجتماعات والحراسة وتتخللها أقواس منكسرة ودكانات.

– **الساحة العمومية «المشور»** : وهي شاسعة تبلغ مساحتها حوالي 2000م^2 وهي ذات شكل مستطيل وتنفتح عليها معظم المرافق الحيوية بالقصبة مثل

المسجد والدار الكبيرة. وكانت الساحة تقوم بعدة أدوار منها مراسيم الاستقبال والاحتفالات، قبل أن تتخذ وظيفة عسكرية مع بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي.

– **المسجد** : يوجد في الجهة الشرقية من الساحة وهو مسجد بسيط الشكل أعيد بناءه مما أفقده طابعه الأصلي، ويتكون من مدخل ضيق ورواق مغطى ودارا للوضوء، فضلا عن غرفتين لحفظ القرآن وبيت الصلاة. هذه الأخيرة تتكون من خمس بلاطات وأربعة أساكب وهي مغطاة بسقف صنع من خشب النخيل. المحراب عادي جدا ويخلو من كل عناصر الزخرفة، بينما صنع المنبر من خشب الأرز ويبلغ علوه مترين و20 سم وعرضه متر واحد وقد زينت واجهتيه بنقوش عربية مستوحاة من قصيدة البردة للبوصيري، ففي الواجهة الأمامية للمنبر نقشت :

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا   من العناية ركنا غير منهدم

وفي الواجهة الخلفية نجد : (الله) في جمادى الثانية عام 1324 (محمد) [ما يوافق حوالي سنة 1836 ميلادية].

– **الدار الكبيرة** : تقع في الجهة الجنوبية للساحة العمومية وتحتل مساحة كبيرة [حوالي 5000م²] وتتكون من عدة مرافق شيدت تقريبا وفق تصميم موحد. فالأزقة كلها مغطاة بخشب النخيل وهي توصل إلى مختلف المكونات مثل الحريم، والمطبخ وقاعات الضيافة. هذه القاعات عبارة عن أربع قباب مستطيلة الشكل تجاورها أربع خزانات وتنفتح على رواق مغطى وصحن مربع الشكل تعلوه قبة نصف مغطاة ومزينة بالقرميد الأخضر.

يتخلل هذا الصحن في الواجهات الأربع ثلاثة أقواس منكسرة يكون أوسطها أكبر حجما. صنعت أبواب القاعات من خشب الأرز وتخلو من كل

عناصر الزخرفة، أما الأرضية فهي مزينة بالزليج الملون بالأخضر والأبيض والأزرق والبني. إلا أن هذه المرافق فقدت الكثير من جمالها الفني بفعل عوادي الزمن وتدخل الإنسان، إذ اندثرت النقوش ولم يبق منها إلا بعض القطع في الإطار العلوي لبعض الأقواس.

- **الحمام** : يوجد إلى الجنوب من الدار الكبيرة ويتكون من ثلاث غرف وبئر ومسخن وهو حمام لم يعد مستعملا اليوم بسبب ندرة المياه و هشاشة البناء.

- **الرياض** : يقع في غرب الدار الكبيرة وكان يتألف من حدائق غناء تتكون من أشجار متنوعة كالرمان والكرم والياسمين والعنب والقيقلان وغيرها. وكانت تسقى هذه الحدائق بواسطة قنوات مائية تحت أرضية مشيدة بالحجارة والآجر.

- **مرافق أخرى** : أهمها الحصن الذي يطلق عليه محليا الصومعة ويقع خارج السور بالجهة الشرقية و يخصص لحراسة القصبة من الاعتداءات التي قد تأتي من هذه الجهة التي تعتبر بمثابة البوابة الرئيسية للدخول إلى الواحة. وتذكر الرواية الشفوية أن الصومعة كانت جد محصنة ولعبت دورا مهما في رد الهجمات الفرنسية قبل أن تتهدم جزئيا مع الاحتلال الفرنسي سنة 1931 ميلادية وكليا بفعل فيضانات 1953 و1965 ميلادية. كما تجدر الإشارة إلى وجود بعض العرصات في الجهتين الجنوبية والشمالية التي كانت مغروسة بأشجار النخيل والرمان.

خلاصة القول يعتبر قصر الدار البيضاء نموذجا معماريا فريدا بتافيلالت، إذ كان يمثل قلعة محصنة لرد هجمات المعتدين خاصة الأطماع الفرنسية. وبانتهاء هذا الدور مع الاحتلال الفرنسي، فقد القصر دوره الأساسي كما أن تكرار فترات الجفاف والفيضانات أدى إلى هجرة سكانه وخراب مكوناته.

ج) القصبة الجديدة :

وتسمى أيضا قصبة ابن المكتفي أو قصبة مولاي المستعين وتقع على بعد حوالي 400 متر جنوب سوق الريصاني الحالي. وتؤكد لوحة التأسيس الموجودة في أعلى المدخل الرئيسي أن هذه القصبة شيدت من طرف المولى أحمد بن المولى المكتفي عام 1192 هجرية / 1778 ميلادية.

تتكون هذه اللوحة من عقد من الفسيفساء الصفراء ذات جوانب حمراء وخضراء وزين إطار القوس بشبكات زهرية بينما نقشت الكتابة بلون أسود وتتكون من آية الكرسي، اسم المؤسس وتاريخ التأسيس. ومما جاء فيها : «الحمد لله وحده، الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم و لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم. على يد المولى أحمد بن مولانا المكتفي بالله أمر ببناء القصبة الجديدة عام اثنين وتسعين ومائة وألف» [1192 هجرية / 1778 ميلادية].

ويحتفظ المدخل الرئيسي ببعض آثاره الأولى وقد بني بالحجارة والآجر وتم تمليطه بالجبس، ويتكون من قوس منكسر تعلوه لوحة من التقويسات المبرزة وستارة خشبية مغطاة بالقرميد الأخضر. وصنع باب المدخل الرئيسي من خشب الصفصاف المغطى بالحديد وهو ينفتح على الرواق أو المسرية التي شيدت من الحجارة والآجر وتتميز بنقوشها الفريدة وخاصة القوس الموازي للباب حيث تم تجزئة عقده على شكل أقواس صغيرة منكسرة. أما باقي معالم القصبة فقد اندثر معظمها ولم يصمد إلا بعض الأبراج وكان عددها سبعة وبعض أجزاء السور الخارجي. أما الدار الكبيرة فقد فقدت كل معالمها الأصلية، حيث تم إعادة بناءها وتبليطها ولم يبق منها إلا أقواس الصحن الذي تم تقسيمه بين الورثة وتم تغطيته مما أدى إلى تشويهه.

د) قصبة الحدب :

تقع هذه القصبة في الطرف الجنوبي لموقع سجلماسة الأثري على يسار الطريق المؤدية إلى ضريح مولاي الحسن الداخل وعلى بعد كيلومتر واحد جنوب الطريق الوطنية 13. يعود تاريخ تأسيس القصبة حسب الرواية الشفوية وحسب البقايا الأركيولوجية إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي شيدها لصالح ابنه مولاي عبد السلام[56] وذلك خلال زيارته لتافيلالت في أواخر القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي.

وتنقسم قصبة الحدب في صورتها الحالية إلى قصبتين : الأولى غربية ويسكنها الشرفاء العلويون والثانية شرقية وحديثة العهد يقطنها خليط من الأحرار العرب والحراطين. وتوجد أهم الآثار المنتمية لفترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالقصبة الأولى ويمكن تحديد أهم مرافقها كما يلي :

• **السور الخارجي :** وقد شيد من الطابية المتينة والمكونة من تربة حمراء مختلطة بالحصى وعلى أساس من الحجارة وعلى علو متر واحد و80 سم. السور يبلغ سمكه مترا واحدا و28 سم وارتفاعه سبعة أمتار. ويجاور السور الخارجي من الداخل سور أقل علوا على شكل ممر يربط بين الأبراج وقد شيد هو أيضا من الطابية. السور تتخلله ثمانية أبراج مربعة الشكل من 36م^2 و49م^2 [أربعة في الأركان وأربعة ما بين الأركان] وشيدت الأبراج من نفس المواد وهي خاصة بالحراسة حيث توجد بها غرف في الطابق العلوي يدخل إليها عبر سلالم ضيقة وأبواب صغيرة، كما تتوفر هذه الغرف على فتحات للمراقبة وإطلاق البارود.

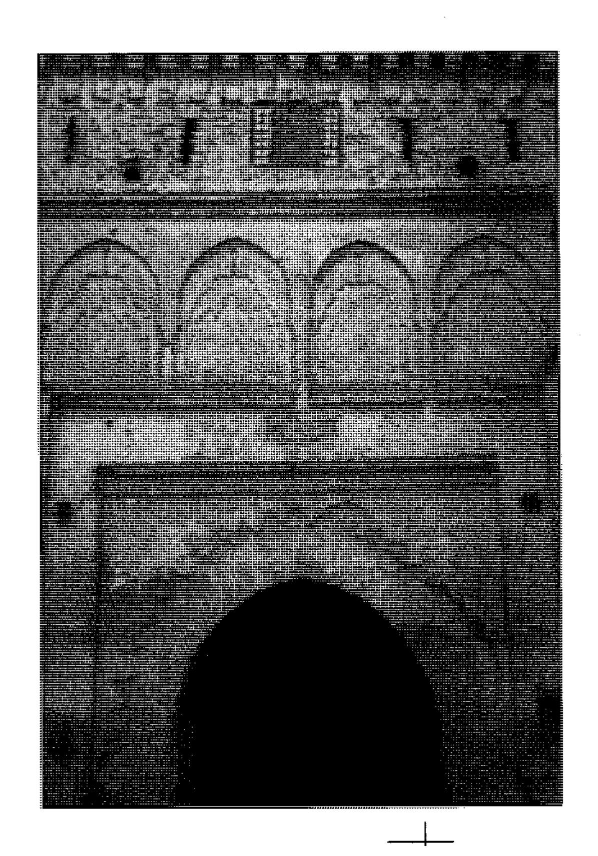
• **المدخل الرئيسي :** يوجد في الجهة الشرقية وقد شيد بإتقان بواسطة الطابية من الخارج وبالآجر والحجارة من الداخل، بينما يتكون سقفه من خشب النخيل. المدخل عبارة عن قوس منكسر زين بعقود صغيرة دائرية

(56) الحسني العلوي (أبو العلاء مولاي إدريس) : المصدر السابق (ص 170 - 171).

الشكل وتعلوها ستارة من القرميد الأخضر، وتوجد بالجانب الأيمن لهذا المدخل بوابة مغلقة خاصة بالحارس وهي مشيدة من الآجر.

ينفتح المدخل الرئيسي على رواق مغطى [الدكانة] ويخصص للحراسة والاجتماعات وهو مشيد من الآجر والحجارة، تتخلله أقواس مغلقة. وتوجد بهذا الرواق حجارتان من الجرانيت لدق البارود المستخرج من الملح ورماد الدفلة والكبريت.

• **الساحة الداخلية** : وهي ساحة مستطيلة الشكل تتفرع عنها الأزقة والدور السكنية، وقد تعرضت لتغييرات كثيرة أفقدتها طابعها الأول، إذ زحف عليها السكن.



الصورة 42 : القصبة الجديدة : المدخل الرئيسي

• **المسجد** : وهو مسجد صغير يقع بالجهة الشرقية للساحة، يحده جنوبا البرج الجنوبي. يتكون المسجد إضافة إلى البهو ودار الوضوء على بيت الصلاة وهي مربعة الشكل [11 x 11 مترا] وتحتوي على الصحن المكشوف والمزين بستارة من القرميد، من ستة عشر قوسا مقسمة إلى أسكوبين وخمس بلاطات. المحراب عادي وهو عبارة عن قوس مجوف تعلوه قبة صغيرة، يبلغ علوه مترين وعمقه متر واحد. المنبر الأصلي للمسجد لم يبق له أثر وتم تعويضه بمنبر صغير وبسيط جدا. سقف المسجد يتكون من صنفين : الأول عادي ومستوي وقد شيد من خشب النخيل ومبلط بالجبس من الداخل. أما الثاني فهو عبارة عن قبة مصنوعة من خشب الأرز على شكل البرشلة مكونة من الكَايزة والورقة. وقد زينت هذه القبة من الداخل بأشكال هندسية وزهرية مصبوغة بالألوان الحمراء والصفراء والخضراء. ويحيط بها من الأسفل إفريز من الجص نقشت عليه عبارات : «العافية الباقية». وكانت هذه القبة في عهدها الأول مغطاة من الأعلى بالقرميد الأخضر وتتوسطها من الداخل ثريا لم يبق منها سوى السلسلة التي تشدها إلى الأعلى.

• **الدار الكبيرة** : توجد إلى الشمال من الواجهة الأمامية للمسجد وتتكون من مدخل على شكل قوس منكسر مزين بعقود مختلفة تعطيه جمالية فنية وتعلو المدخل ستارة من القرميد الأخضر وينفتح على رواق مغطى سقف من خشب النخيل. يتكون هذا الرواق من عقود مغلقة تشكل دكانات للجلوس وهو يؤدي إلى الصحن المكشوف المربع الشكل ويحاط في كل جهة بخمسة أقواس ورواق مغطى. تقابل هذا الصحن من الجهات الأربع قاعات الضيافة التي لم يبق منها اليوم سوى واحدة. هذه الأخيرة تتخذ شكلا مستطيلا [19 x 5 أمتار] وقد شيدت من الطابية والآجر وسقفها عبارة عن قبة مشيدة من الأسفل بخشب الأرز [الأضلاع والورقة] والمصبوغ بألوان زاهية حمراء وصفراء وخضراء ومكونة من أشكال هندسية وزهرية. ويحيط بها من

الأسفل إفريز من الجص نقْشت عليه عبارات «العافية الباقية»، وكانت القبة في الأول مزينة بالقرميد الأخضر. أرضية القبة زينت بزليج ملون بالأخضر والأزرق والأبيض ومدخلها عبارة عن قوس منكسر زين بنقوش زهرية، بينما صنع الباب من خشب الصفصاف وصبغ بالأخضر والأحمر. وتجدر الإشارة إلى أن الدار الكبيرة كما هو الشأن في باقي القصور العلوية بتافيلالت، كانت تضم إلى جانب قاعات الضيافة، أجنحة أخرى مثل الحمام، والمطبخ والحريم، والتي لم يبق منها اليوم سوى الذكريات.

3. قصور مولاي عبد الرحمان بن هشام :

أ) قصر آبار المخزن :

*** الموقــع :**

يقع هذا القصر بالقرب من ضريح مولاي علي الشريف، يحده شمالا الضريح وقصر حمو داود (القصر الأول لشرفاء مدغرة)، وجنوبا قصر منوكة (المشهور في دباغة الجلد الفيلالي)، وغربا قصبة مولاي سليمان بن محمد ابن عبد الرحمان وشرقا قصبة تغمرت المندرسة.

*** معطيات تاريخية :**

شيد قصر آبار من طرف السلطان المولى عبد الرحمان ويسمى باسمه أيضا. و«قصر آبار الحفيل المتسع الأكتاف يشمل على دور أنيقة وكان تأسيسه له أيام سلطنته لأولاده (المولى عبد الله، ولالة رقية بنت مولاي سليمان والمولى الحسين). وجعل به مسجدا جامعا تقام فيه الجمعة»[57]. وقد بني القصر حسب لوحة منقوشة على إطار مدخل الدار الكبيرة في شوال

(57)) ابن زيدان (عبد الرحمان) : **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الدار البيضاء، مطابع إديال، الطبعة الثانية، خمسة أجزاء، 1990، الجزء الخامس، 562 صفحة (ص 238).

من سنة 1248 هجرية ما يوافق سنة 1830 ميلادية. وتؤكد ذلك إحدى الوثائق الملكية المؤرخة ب 16 ذي الحجة عام 1248 هجرية / 1830 ميلادية، وهي عبارة عن رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام إلى الفقيه مولاي عبد الهادي في شأن بناء قصر آبار وأحوال منطقة تافيلالت[58]. وتشير وثيقة ثانية والمؤرخة ب19 شوال عام 1262 هجرية / 1846 ميلادية إلى التوسع العمراني الذي عرفه القصر فيما بعد، إذ طلب السلطان المولى عبد الرحمان من ابنه سيدي محمد الزيادة في عرصة قصر آبار وتعويض صاحب القطعة الأرضية[59]. وتقول بعض الوثائق الأخرى إن القصر شيد على أساس أن يستقر به بعض أفراد عائلة السلطان المولى عبد الرحمان رفقة حرسها وخدمها، وكان بمثابة مقر الخزينة المحلية لتجميع وحفظ المؤن. وفيما يلي الموضوعات التي تناولتها هذه الوثائق :

– الوثيقة رقم 18989 بتاريخ 28 ربيع الأول عام 1263 هجرية / 1847 ميلادية : وهي رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام إلى ابنه سيدي محمد في شأن نفاذ الزروع وتأخر المؤونة عن قصر آبار لمدة ثلاثة أشهر.

– الوثيقة رقم 20066 بتاريخ 24 رمضان عام 1263 هجرية / 1847 ميلادية : وهي رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن وصول الأشراف أهل أخنوس وفي شأن القمح الموجه إلى قصر آبار.

– الوثيقة رقم 17961 بتاريخ 7 شوال عام 1263 هجرية / 1847 ميلادية : وهي رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان إلى ابنه سيدي محمد في شأن بعض المؤن الموجهة إلى قصر آبار على يد الحاج المدني اليوسفي.

(58)) مديرية الوثائق الملكية : الوثيقة رقم .19612.

(59)) مديرية الوثائق الملكية : الوثيقة رقم .19059.

– ابتداء من سنة 1293 هجرية / 1875 ميلادية ظل القصر يحتفظ بنفس الأهمية والمهمة على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان.

– حوالي سنة 1324 هجرية / 1906 ميلادية خلال عهد السلطان المولى الحسن الأول استقر بالقصر الشريف المولى الحسين شقيق السلطان.

– حوالي سنة 1338 هجرية / 1919 ميلادية فقد القصر الكثير من أهميته وتعرضت عدة جوانب منه للهدم بفعل عوادي الزمن وتدخل الإنسان ولم تعد تسكن بداخله سوى اثني عشر عائلة.

– حوالي سنة 1343 هجرية / 1924 ميلادية لم يعد يستقر بالقصر سوى أربع عائلات شريفة وما بين 25 و30 من الخدم(60).

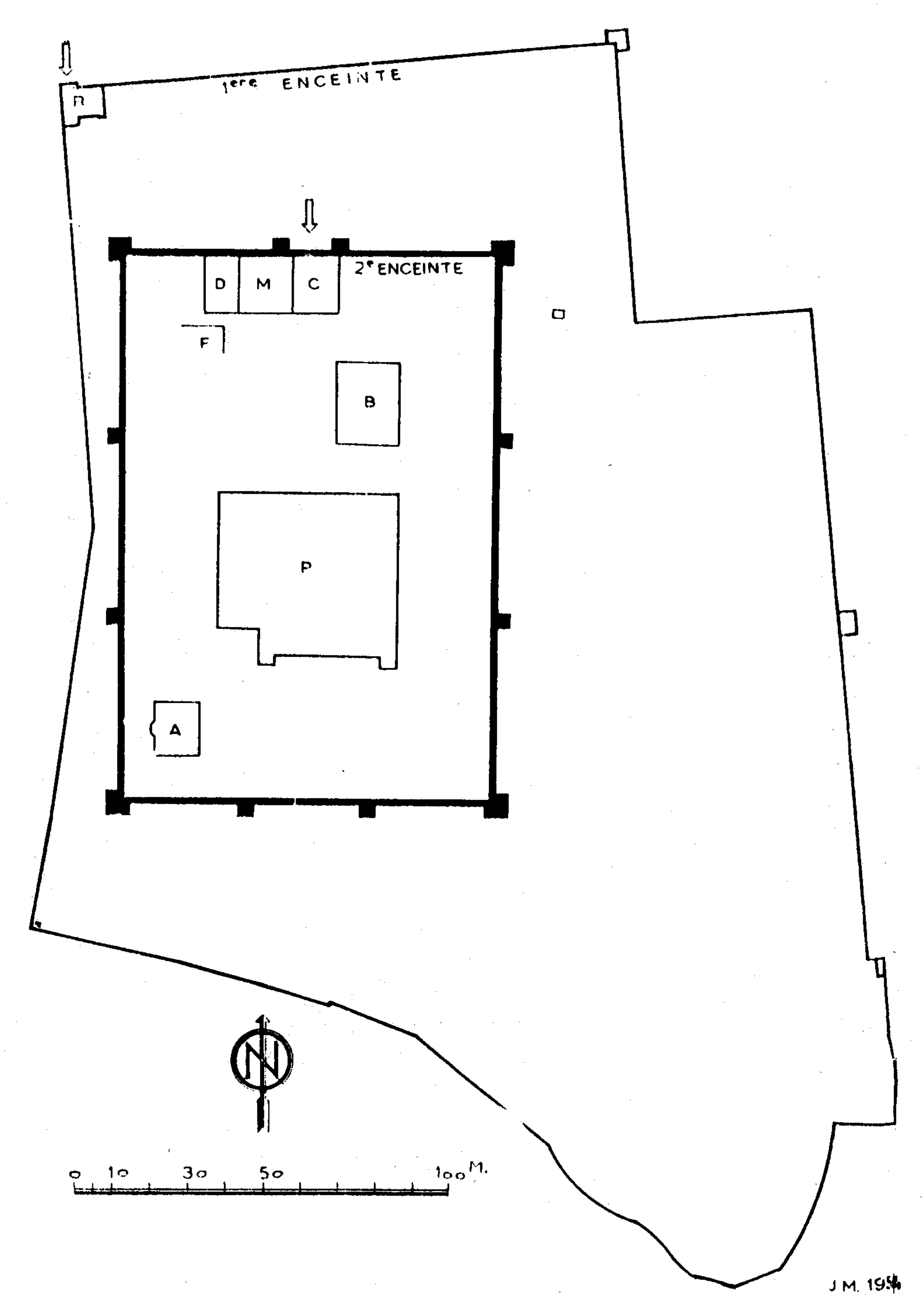
– ما بين سنة 1369 هجرية / 1950 ميلادية وسنة 1384 هجرية / 1965 ميلادية تعرض القصر للتخريب بسبب الفيضانات المهولة التي عرفتها منطقة تافيلالت .

– عام 1412 هجرية / أكتوبر 1992 ميلادية تعرض القصر كباقي القصور الأخرى إلى أضرار بليغة بفعل الهزة الأرضية التي ضربت المنطقة، مما أدى إلى تهدم جزء من الباب الرئيسي وتشقق الباب الثاني كما تصدع السور الخارجي والأبراج وأصيبت معظم المرافق الداخلية بعدة شقوق.

– أسرة شريفة واحدة لازالت تسكن حاليا بالقصر وهي أسرة سيدي محمد بن أحمد بن الحسين بن عبد الرحمان.

---

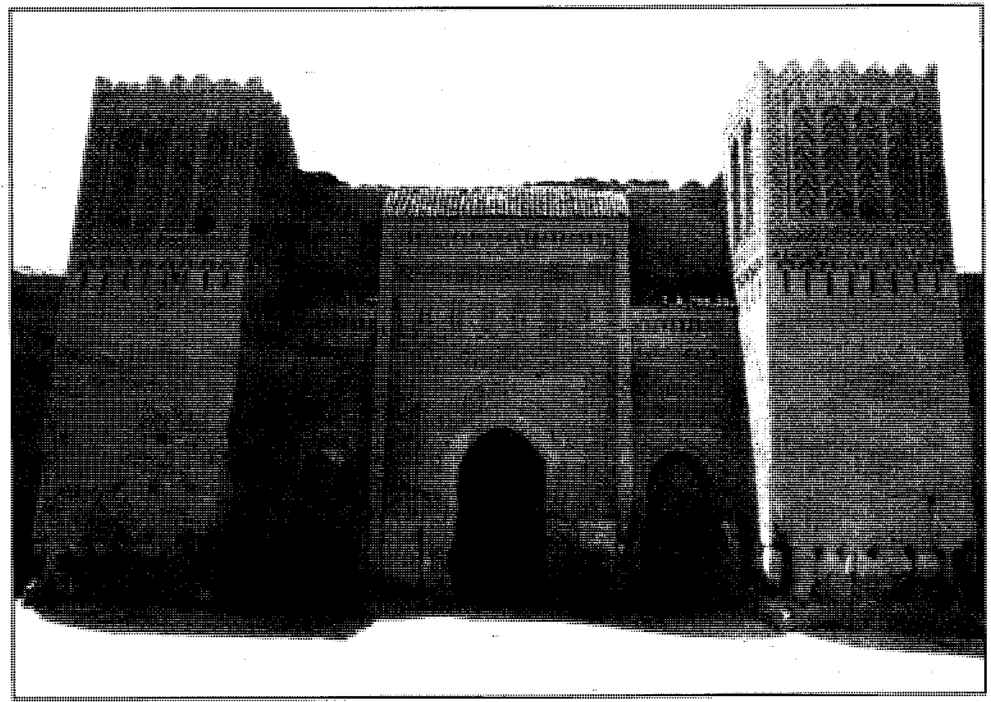
(60) Jacques - Meunié (D) et Meunié (J) : «Abbar» op-cit. (p 13).



التصميم 31 : قصر آبار : تصميم عام

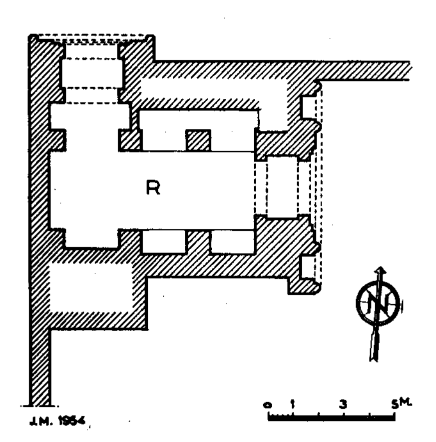
المرجع : Jacques-Meunié (D) et Meunié (J) : «Abbar», *Hespéris*. Tome XLVI ; 1959





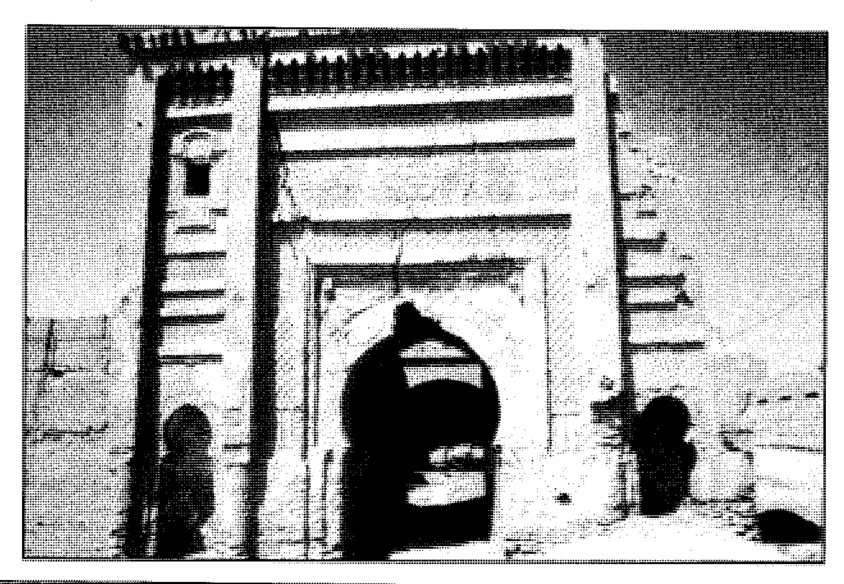
الصورة 43 : قصر آبار : المدخل الأول والمدخل الرئيسي

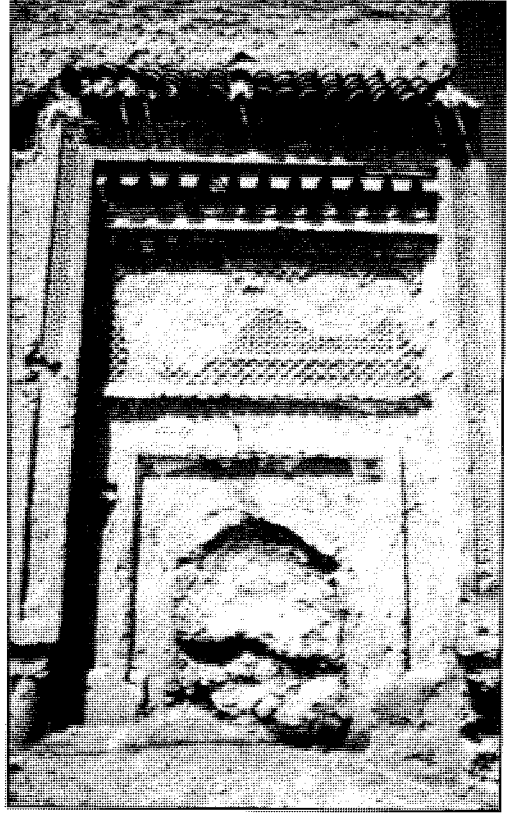
RUINE
PUITS
D
C
0 3 5 10M

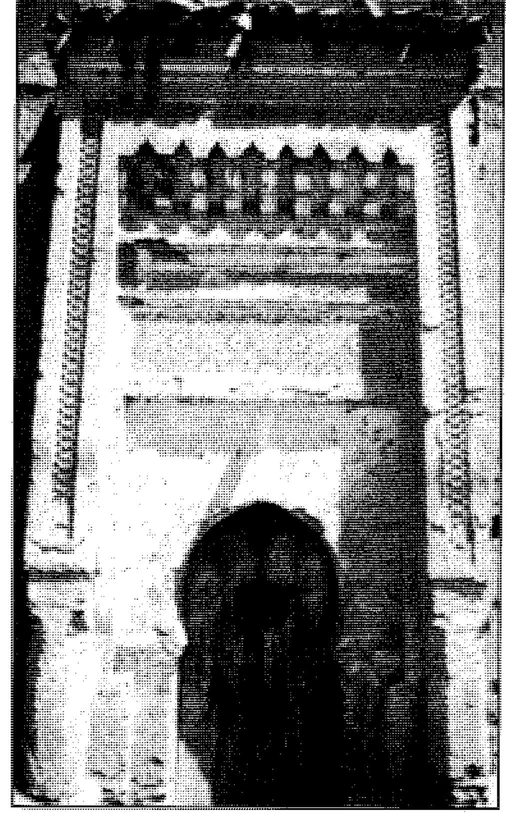


التصميم 32 : قصبة آبار : المدخل الأول والمدخل الرئيسي

المرجع : Jacques-Meunié (D) et Meunié (J) : «Abbar», *Hespéris*. Tome XLVI ; 1959







الصورة 44 : قصبة آبار : التناسق في زخرفة المداخل الأساسية

*** مكونات القصبة :**

– **المشور** : وهو عبارة عن ساحة واسعة يحيط بها سور (لم يعد له أثر)، ويتم الولوج إلى هذه الساحة عبر مدخل في الجهة الشمالية الغربية والمدخل عبارة عن حصن كبير يتوفر على باب يتخذ شكل قوس منكسر تعلوه لوحة جصية عليها كتابات عربية من الصعب فك رموزها. وينفتح الباب على رواق مغطى خاص بالحراسة (الدكانة). ويمثل هذا المدخل تحفة معمارية من حيث نمط البناء ومن حيث عناصر الزخرفة، غير أن حالة هذا المدخل تستدعي ترميما مستعجلا قبل أن يصبح في خبر كان.

– **السور الخارجي** : يحيط بجميع القصر، ويصل علوه إلى تسعة أمتار وتتخلله عدة أبراج مربعة في كل ركن وبين الأركان. وقد شيد السور من الطابية فوق أساس من الحجارة قصد حمايته من الرطوبة والفيضانات. وزينت أبراج السور بعدة نقوش هندسية طينية محززة على شكل مربعات ومثلثات ومعينات متناسقة.

– **المدخل الرئيسي** : يقع وسط الواجهة الشمالية للسور وقد شيد من الآجر فوق أساس من الحجارة. والمدخل عبارة عن قوس كبير منكسر يحيط به قوسان غير نافذين مخصصان للحراسة. وقد زين إطار المدخل بنقوش جصية هندسية ونباتية ذات أشكال متنوعة ومتناسقة. وتعلو هذا الإطار شرفة (ستارة) من خشب الأرز رصفت بالقرميد الأخضر اتقاء للتعرية المطرية. ويحيط بالمدخل برجان مربعان يبلغ علوهما حوالي اثني عشر مترا وقد شيد من الطابية على أساس من الحجارة كذلك، وزين إطارهما العلوي بنقوش هندسية طينية محززة. وينفتح المدخل على الدكانة وتعلوه مسرية خاصة بالبواب والحراسة.

– **المسجد** : يوجد في الجهة اليمنى من المدخل الرئيسي ويتكون من صحن مكشوف زين بشرفة من القرميد، ومن ثلاثة أساكب وخمس بلاطات، ومن محراب جميل زين إطاره بنقوش جصية ذات أشكال هندسية ونباتية تحاط بإفريز كتب عليه زالعافية الباقيةس. كما زينت قبة المحراب بعناصر زخرفية على شكل أعمدة وعقود تلتقي في أعلى القبة. المنبر حديث العهد وذو طابع بسيط. السقف بني بخشب الأرز «الكَايزة والورقة» وهو مزين بأشكال مصبوغة بالأحمر والأخضر والأصفر.

– **الساحة الداخلية والأزقة** : وهي ذات مساحة شاسعة وتقوم بعدة أدوار منها ما يتعلق بالتهوية وتسهيل الربط بين مختلف الأجنحة ومنها ما يخصص لاحتضان مختلف الأنشطة المرتبطة بالحياة اليومية لسكان القصر. وتوجد وسط الساحة الداخلية بعض آثار الحمام، والجدران والفرن وبعض الأقواس.

– **الدار الكبيرة** : توجد في الجهة الجنوبية للساحة الكبيرة وفيها تسكن العائلة الشريفة وتحاط بسور عال (حوالي ثمانية أمتار) شيد من الطابية فوق أساس من الحجارة. مدخل الدار الكبيرة يوجد في الواجهة الجنوبية وهو عبارة عن قوس منكسر شيد من الآجر وزين إطاره العلوي بنقوش جصية هندسية ونباتية يتوسطها شكل إهليلجي كتب عليه تاريخ التأسيس مع بيت شعري يقول :

يا داخل المنزل أبشر هناك أبشر بما تريد الله قد أعطاك

وتعلو الباب ستارة من خشب الأرز رصف فوقها بالقرميد الأخضر وينفتح الباب على رواق مغطى ذي شكل منعرج يؤدي إلى وسط الدار الكبيرة حيث قاعات الضيافة الأربعة التي يتوسطها صحن مكشوف يتميز بشكله المربع ويتكون من عشرين قوسا بمعدل خمسة أقواس لكل جهة، وتعلو هذه الأقواس ستارة من القرميد الأخضر. غرف الضيافة تتخذ شكلا مستطيلا

شيدت من الطابية ومبلطة بالجبس وسقفت بخشب الأرز وزينت أبوابها بإطار نقشت عليه أشكال جصية هندسية ونباتية تحاط بإفريز من النقوش المكتوبة «العافية الباقية». وتتوفر الدار الكبيرة على عدة أجنحة أخرى أقل أهمية بفعل تعرضها للتخريب ولإصلاحات متعددة مما أفقدها طابعها الأصلي، ومن ذلك خاصة الحريم والحمام والرياض.

صفوة القول إن قصر مولاي عبد الرحمان أو ما يعرف بقصر آبار المخزن يعتبر بحق تحفة عمرانية من الصعب أن نجد مثيلا لها في جميع أنحاء منطقة تافيلالت إلا أنها تبكي حالها وتشتكي حظها لما أصابها من إهمال وتشويه.

ب) قصر أولاد عبد الحليم :

*** الموقع :**

يقع قصر أولاد عبد الحليم إلى الجنوب الشرقي من قصر آبار على بعد حوالي كيلومتر واحد، يحده شرقا قصر بني ميمون الأحرار، وغربا قصر أولاد عائشة، وشمالا قصر عمارة وجنوبا قصر أبحار (الذي يعتقد أن السلطان المولى إسماعيل ولد فيه).

*** نبذة تاريخية :**

يعتبر قصر أولاد عبد الحليم من أجمل القصور العلوية بتافيلالت حيث لا يزال يحتفظ بمعظم معالمه العمرانية بالرغم من كونها مهددة بالسقوط والاندثار في كل حين. ويحظى القصر بأهمية بالغة من الناحية التاريخية والأثرية، إذ يعتبر من «الإقامات التي بقيت موروثة عن أخر ملوك سجلماسة من أسرة عبد الحليم المرينية والتي اشتراها في النصف الأول من القرن 19 ولي العهد سيدي محمد بإيعاز من أبيه»[61] قصد إيواء ولده المولى رشيد،

(61) Jacques - Meunié (D): *le Maroc saharien*. op-cit; 2° volume (p 915).

الخليفة السلطاني بتافيلالت (1245 هجرية / 1829 ميلادية 1330 هجرية / 1191 ميلادية). وحسب لوحة التأسيس المنقوشة بالأسود على فسيفساء من الزليج فوق الباب الخلفي لمسجد القصر فقد شيد القصر في 2 جمادى الثانية عام 1263 هجرية / 1847 ميلادية، بينما أورد صاحب كتاب «المعسول»[62] : أن أعمال البناء انتهت بقصر أولاد عبد الحليم على يد الفقيه الحاج محمد الزياني في تاريخ ربيع الثاني عام 1264 هجرية موافق 26 مارس 1848ميلادية[63]. ومنذ تأسيسه أصبح القصر المقر الفعلي لسكنى خليفة السلطان بتافيلالت المولى رشيد بن محمد بن عبد الرحمان. ويظهر من النمط المعماري الحالي للقصر أنه عرف عدة إصلاحات وترميمات وتشير إلى ذلك الوثائق الملكية التالية :

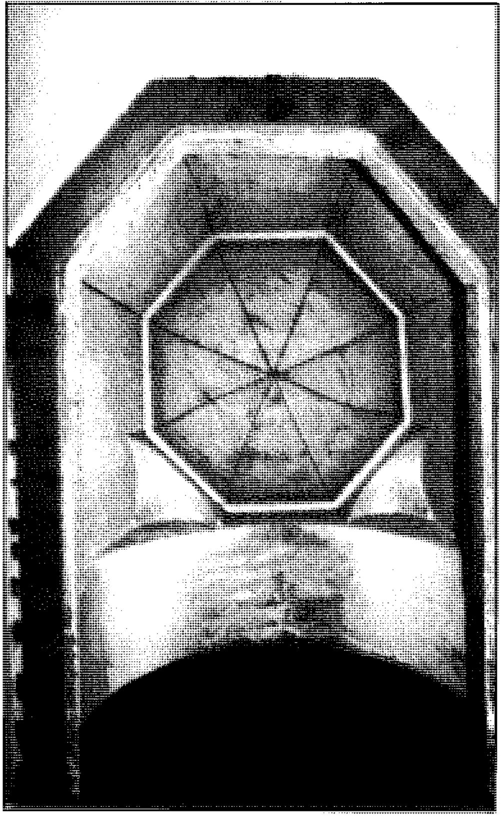
– الوثيقة رقم 24009 بتاريخ 18 شوال عام 1268 هجرية / 1849 ميلادية وهي عبارة عن رسالة من الوصيف مسعود الشباني إلى الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمان في شأن بعض الترميمات والبناء المزمع إنجازها بقصر أولاد عبد الحليم [تبليط المسرية بالجبس والحجارة، وتزليج سواري الدورية الخارجية، والحمام، والجنان والقناطر...].

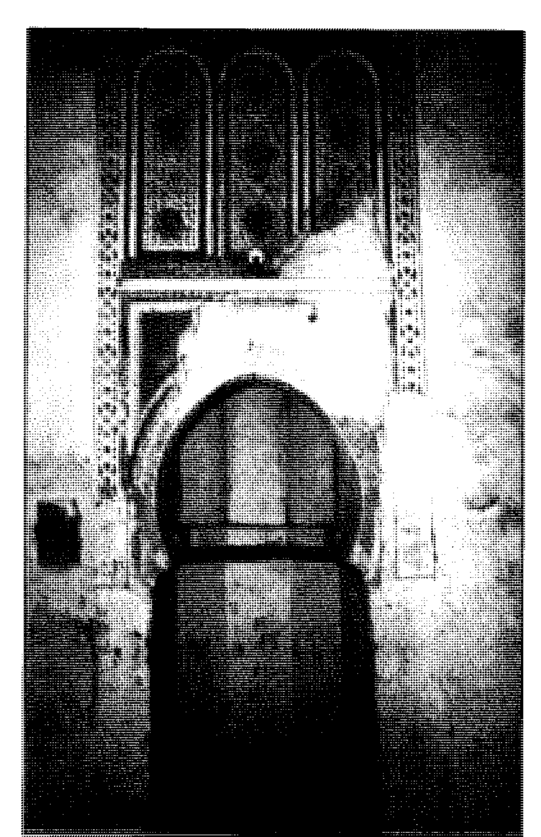
– الوثيقة (بدون رقم) بتاريخ 8 محرم 1305 هجرية / 1887 ميلادية وهي رسالة من الأمير المولى سليمان بن محمد بن عبد الرحمان إلى السلطان المولى الحسن الأول يخبره فيها بقيامه بترميم ضريح مولاي علي الشريف، وقصر أولاد عبد الحليم، وقصر بني ميمون، وقصر تغمرت، وقصبة مولاي سليمان، بعد أن تعرضت هذه المعالم لعدة أضرار نتيجة فيضانات وادي زيز.

---

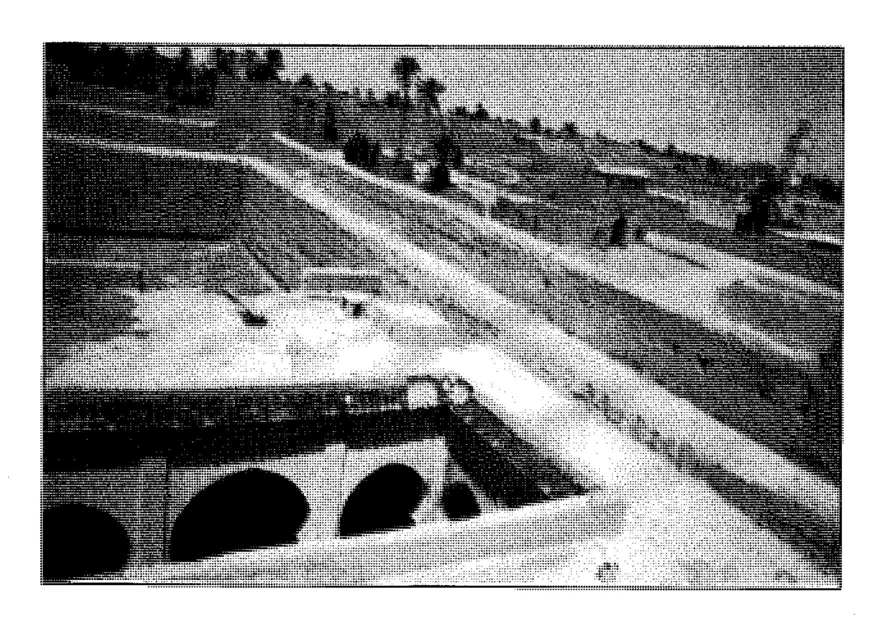
(62) السوسي (محمد المختار) : المعسول المحمدية، مطبعة فضالة، عشرون جزءا .1963 الجزء السادس عشر (ص 348).

(63) ابن زيدان (عبد الرحمان) : المصدر السابق (ص 238).

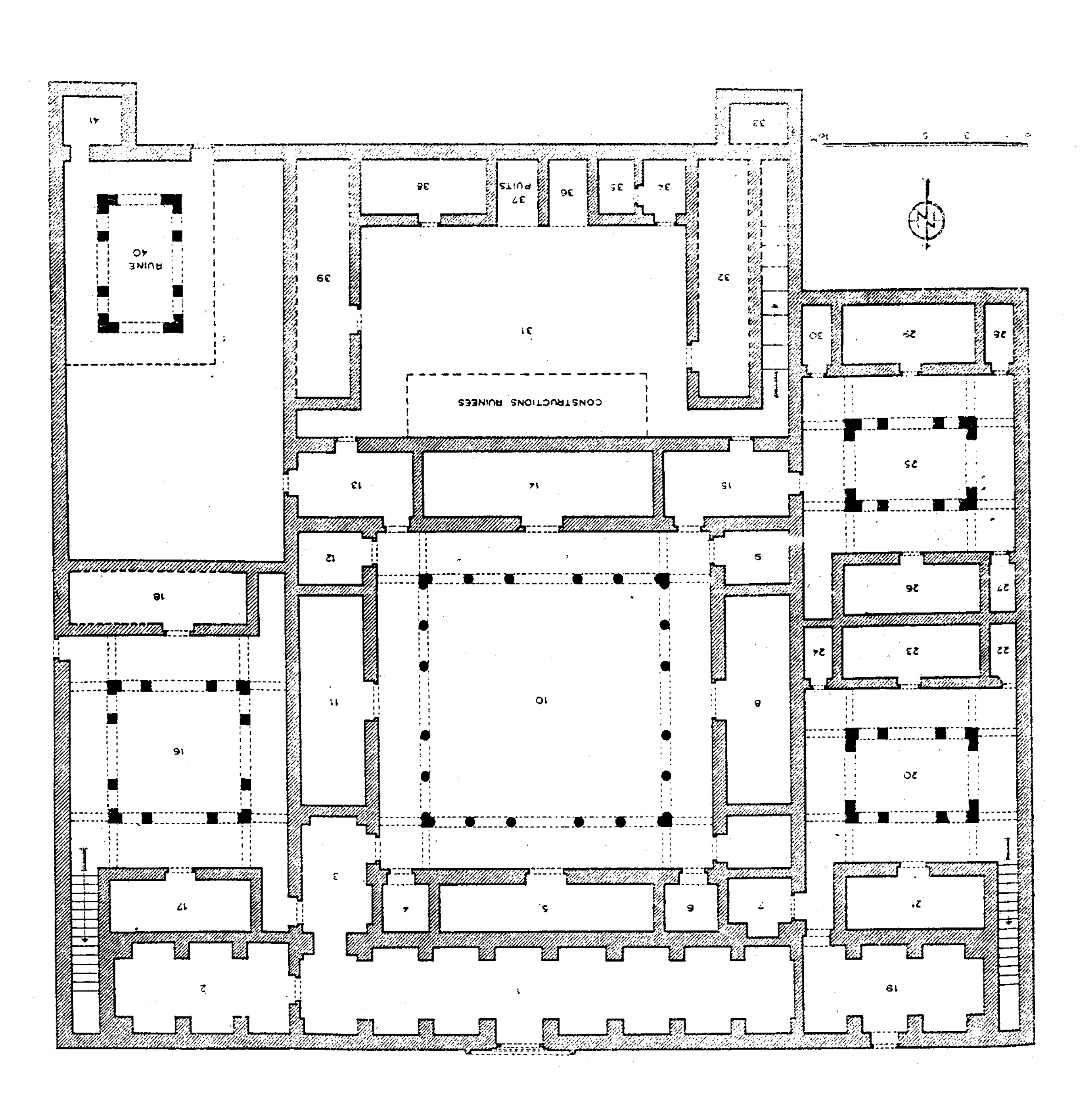




الصورة 45 : قصر آبار المخزن : محراب المسجد الواجهة والقبة الداخلية

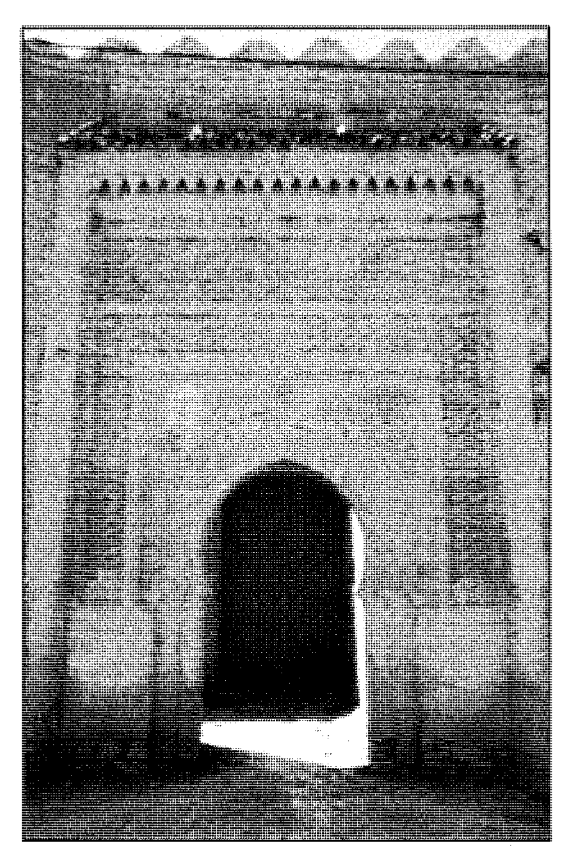


الصورة 46 : قصبة آبار : المسجد



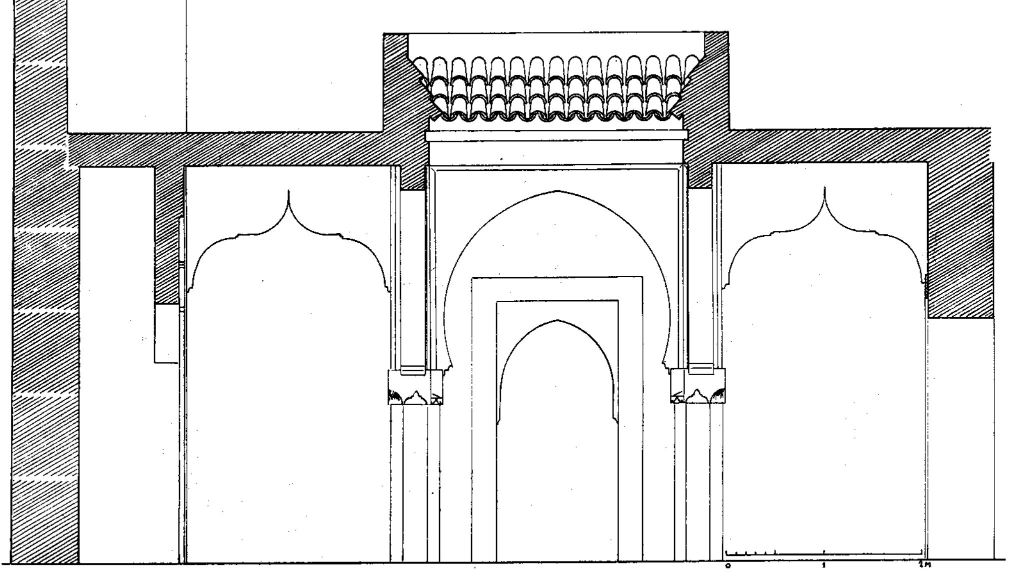
التصميم 33 : قصبة آبار : الدار الكبيرة

المرجع : Jacques-Meunié (D) et Meunié (J) : «Abbar», *Hespéris*. Tome XLVI ; 1959



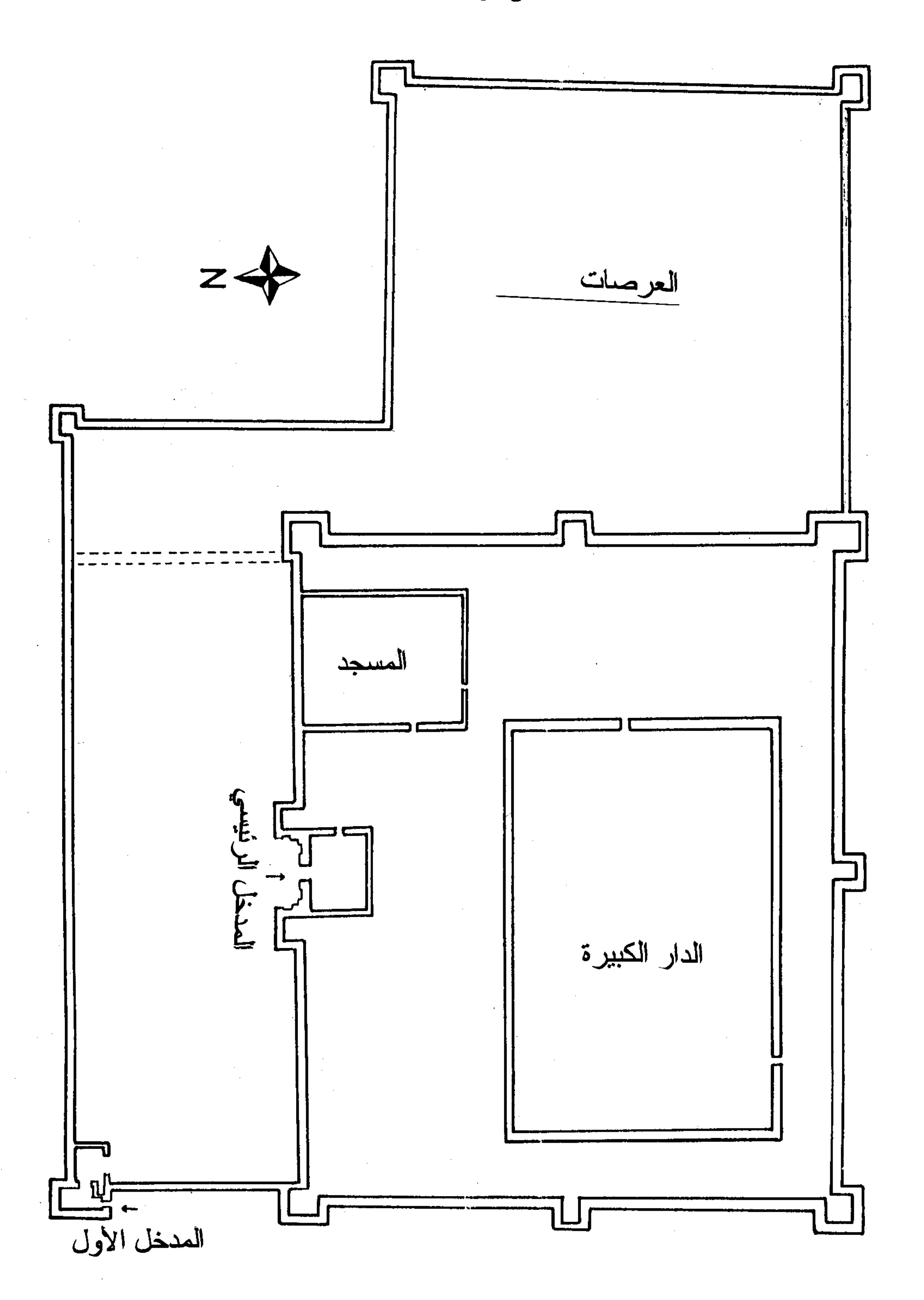


الصورة 47 : قصبة آبار : الدار الكبيرة [المدخل والصحن]



التصميم 34 : قصبة آبار : مقطع واجهة الصحن ومقطع واجهة غرفة النوم

المرجع : Jacques-Meunié (D) et Meunié (J) : «Abbar», *Hespéris*. Tome XLVI ; 1959



التصميم 35 : قصر أولاد عبد الحليم : تصميم عام

وبالرغم من هذه الإصلاحات وغيرها فإن قصر أولاد عبد الحليم، اعتبارا لطبيعة بنائه من الطابية وبفعل ما تعرض له من عمليات التخريب بسبب الصراعات المحلية وبفعل العوامل الطبيعية (فيضانات 1950 و1965 ميلادية، والهزة الأرضية لأكتوبر 1992 ميلادية) أصبح مهددا بالاندثار.

*** مكونات القصر :**

– **المشور** : وهو عبارة عن ساحة شاسعة كانت مخصصة للاستقبالات والاستعراضات وينفذ إليها عبر مدخل أولي يوجد في الركن الشمالي الشرقي ويتكون المدخل من باب مصنوع من خشب الصفصاف تعلوه ستارة مغطاة بالقرميد الأخضر وينفتح الباب على رواق مغطى ومنعرج [دكانة خاصة بالحراسة]. كما تشتمل الساحة على مرابض للخيول في الجهة الشرقية وهي عبارة عن غرف متوسطة الحجم ومغطاة. ويحاط بالمشور سور قليل الارتفاع (أربعة أمتار) شيد من الطابية وتتخلله بعض الأبراج الخاصة بالحراسة.

– **السور الخارجي** : ويحيط بكل مرافق القصر ويتميز بمساحته الواسعة وبعلوه المرتفع (حوالي إحدى عشر مترا) وبسمكه الغليظ (حوالي متر واحد و50 سم) وقد شيد من الطابية على أساس من الحجارة (حوالي متر واحد من الارتفاع) اتقاء للفيضانات والرطوبة. والسور في غالبيته يتكون من جدارين الأول خارجي والثاني داخلي وأقل ارتفاعا يستعمل كممر صغير يؤدي إلى مختلف الأبراج حيث كانت تقام الحراسة. وتتخلل السور عدة أبراج يبلغ عددها اثني عشر برجا. وتتميز هذه الأبراج برشاقتها وبشكلها المربع وبارتفاعها الذي يصل إلى حوالي ثلاثة عشر مترا وقد زين الإطار العلوي للبعض منها، بأشكال زخرفية من الطين تتكون من عقود وأعمدة ومعينات ومربعات ومثلثات متناسقة. وإلى الأسفل من الإطار توجد ثقب ومخارط

صغيرة تستعمل لإطلاق البارود، كما تحتوي هذه الأبراج على بوابة صغيرة من داخل السور.

– **المدخل الرئيسي** : يوجد في وسط الواجهة الشرقية وهو عبارة عن قوس كبير منكسر شيد من الحجارة والآجر وتحيط به أربعة أقواس غير نافذة وقد زين إطاره وجنباته بنقوش جصية ذات أشكال هندسية ونباتية (عقود، ومعينات، وتشبيكات، وزهريات...). وتعلو هذه الأشكال شرفة من الخشب مغطاة بالقرميد اتقاء للتعرية المطرية. ويحاط المدخل ببرجين زين قسمهما العلوي بنقوش طينية جميلة. أما باب المدخل فقد صنع من خشب الصفصاف المغطى بالقصدير وينفتح هذا الباب على رواق مغطى بنيت فوقه مسرية خاصة بالبواب. ويتكون الرواق من عدة أقواس منكسرة فضلا عن السلم المؤدي إلى الجناح العلوي.

– **المسجد** : يقع إلى الجهة اليسرى من المدخل الرئيسي، ويضم بابين : الأول رئيسي في الجهة الشمالية ويؤدي إلى بيت الصلاة والثاني خلفي في الجهة الغربية. يتكون المدخلان من قوس منكسر تعلوه ستارة من القرميد الأخضر وصنع بابه من خشب الصفصاف. ويتميز الباب الغربي بزخرفته المتميزة، إذ زين إطاره بالفسيفساء من الزليج ذي أشكال مختلفة تتوسطها لوحة فنية نقشت فيها كتابة عربية بالخط المغربي الحديث وباللون الأسود وهي :

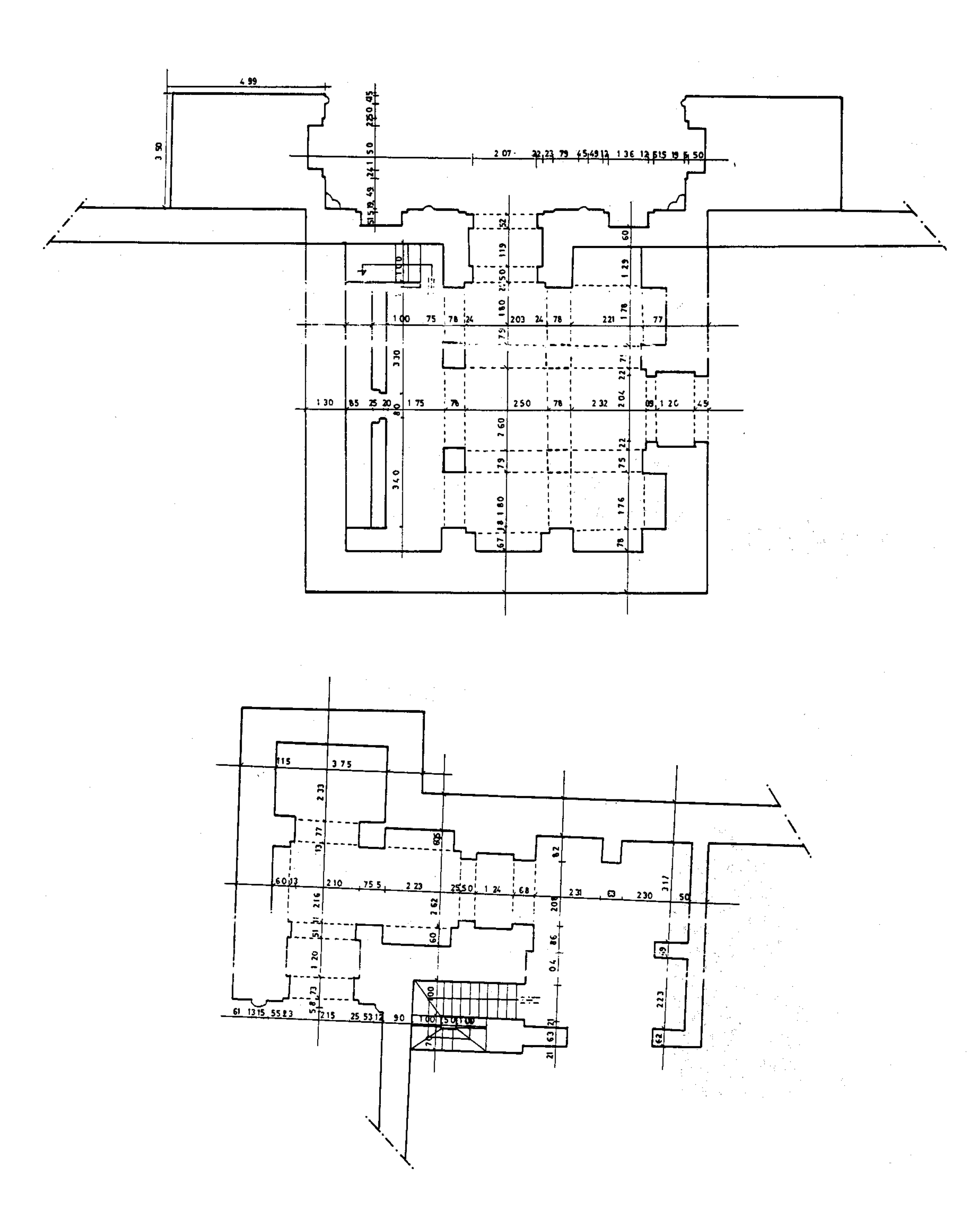
«الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده، أمر مولانا الهمام سيدي محمد نجل الإمام المؤيد مولانا عبد الرحمان بن هشام أبقاه الله رحمة للأنام، ببناء هذا المسجد المؤسس لتقام فيه الصلوات وتدرس العلوم والخطابة بالمواعظ والأذكار وتلاوة القرآن والاستغفار رجاء لما في الحديث لمن بنى لله مسجدا ولو كمفصص قطة بنى الله له بيتا في الجنة، ولمن رأى

حسني الموروث وبرؤيته إليها يتشوق بما تشوقنا إلى الجنان، فزدنا في اجتناب الذنوب والآثام... كمل الله رجاءه وأناله في الدارين مرامه، بمنه وكرمه. تاريخه في 2 من جمادى الثانية عام 1263 والسلام».

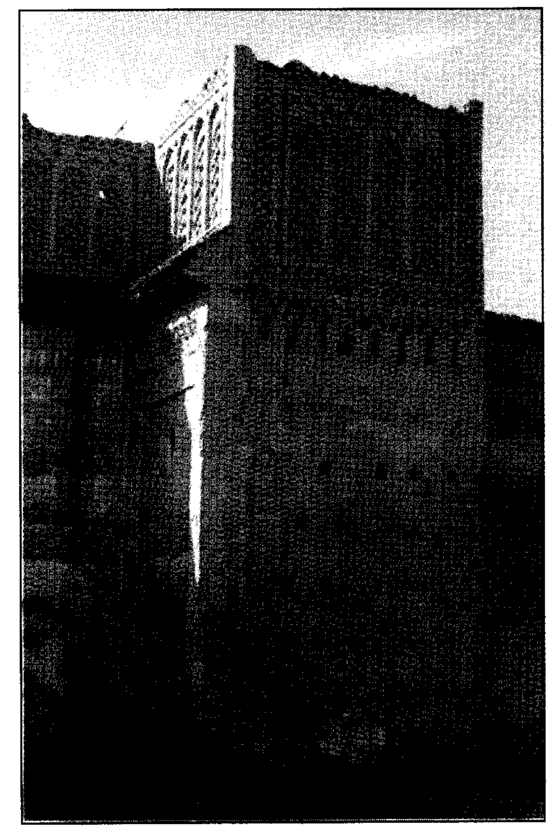
وينفتح هذا المدخل على رواق صغير مغطى بسقف من الأرز المزخرف بألوان صباغية زاهية، ويؤدي هذا الرواق إلى الكتاب القرآني ثم إلى بيت الصلاة التي تتكون من صحن مكشوف زينت جوانبه بشرفة من القرميد الأخضر، ومن ثلاثة أساكب وخمس بلاطات وأربعة عشر عمودا تعلوها أقواس مختلفة الأحجام. أما السقف فاعتمد فيه على خشب الأرز (الكَايزة والورقة) وعلى خشب النخيل (المادة والفرد) وتم تزيينه بأصباغ هندسية متنوعة. أما المحراب فهو عبارة عن قوس صغير زخرف إطاره بنقوش جصية هندسية (تشبيكات، ومعينات، ومقوسات...) وبنقوش نباتية (أزهار وأغصان...) وتتخلل هذه النقوش أفاريز كتب عليها عبارات «العافية الباقية» أو «العز لله». وإلى الأعلى من إطار المحراب توجد نجمة كتب عليها «ومن يتوكل على الله فهو حسبه». أما تجويفة المحراب فقد زينت بشبكة من الخطوط الهندسية المتساوية مشكلة مربعات توجد على جنباتها عقود مزينة بأشكال نباتية وإلى الأسفل منها إفريز نقشت عليه عبارة «العز لله».

أما المنبر فهو حديث العهد ويتوفر فقط على نقوش هندسية مصبوغة الجوانب بينما زينت جوانب مقصورته بالنقوش المكتوبة الآتية :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله / على سيدنا ومولانا محمد الصادق الأمين وعلى آله / الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم / تطهيرا وعلى أصحابه أجمعين أمين / نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين / والله خير حفظا وهو أرحم الراحمين».



التصميم 36 : قصر أولاد عبد الحليم : المدخل الأول والمدخل الرئيسي





الصورة 48 : قصر أولاد عبد الحليم : المدخل الرئيسي ومدخل الدار الكبيرة

نفس النقوش نجدها على أبواب خزانة المصحف الشريف إلى يمين ويسار المحراب. هذه الخزانة التي زين إطارها بنقوش جصية كتب عليها «الملك لله». ومما جاء في النقوش الموجودة على الأبواب :

الباب الأول : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما وأزكى تحية على المصطفى المنجي من الضيق والعسر».

الباب الثاني : «الحمد لله الذي تقدست صفاته وأسماؤه والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنارت الوجود أضواؤه وعلى آله».

أما باب المقصورة فقد زخرف بأشكال نباتية عنكبوتية تحيط بقرص اهليلجي كتب عليه «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب عام 1263» [1847 ميلادية]، بينما زين إطار هذا الباب بإفريز من النقوش الجصية تحمل عبارة «العز لله».

– **الساحة الداخلية** : إلى جوار المسجد توجد ساحة واسعة تتفرع عنها معظم الأزقة المؤدية إلى مختلف مرافق القصر الداخلية وخاصة الزقاق الذي يحيط بالدار الكبيرة من الخارج والذي يوصل إلى بعض الأبواب الخلفية للدار وكذلك بعض الدور السكنية بجانب السور الخارجي.

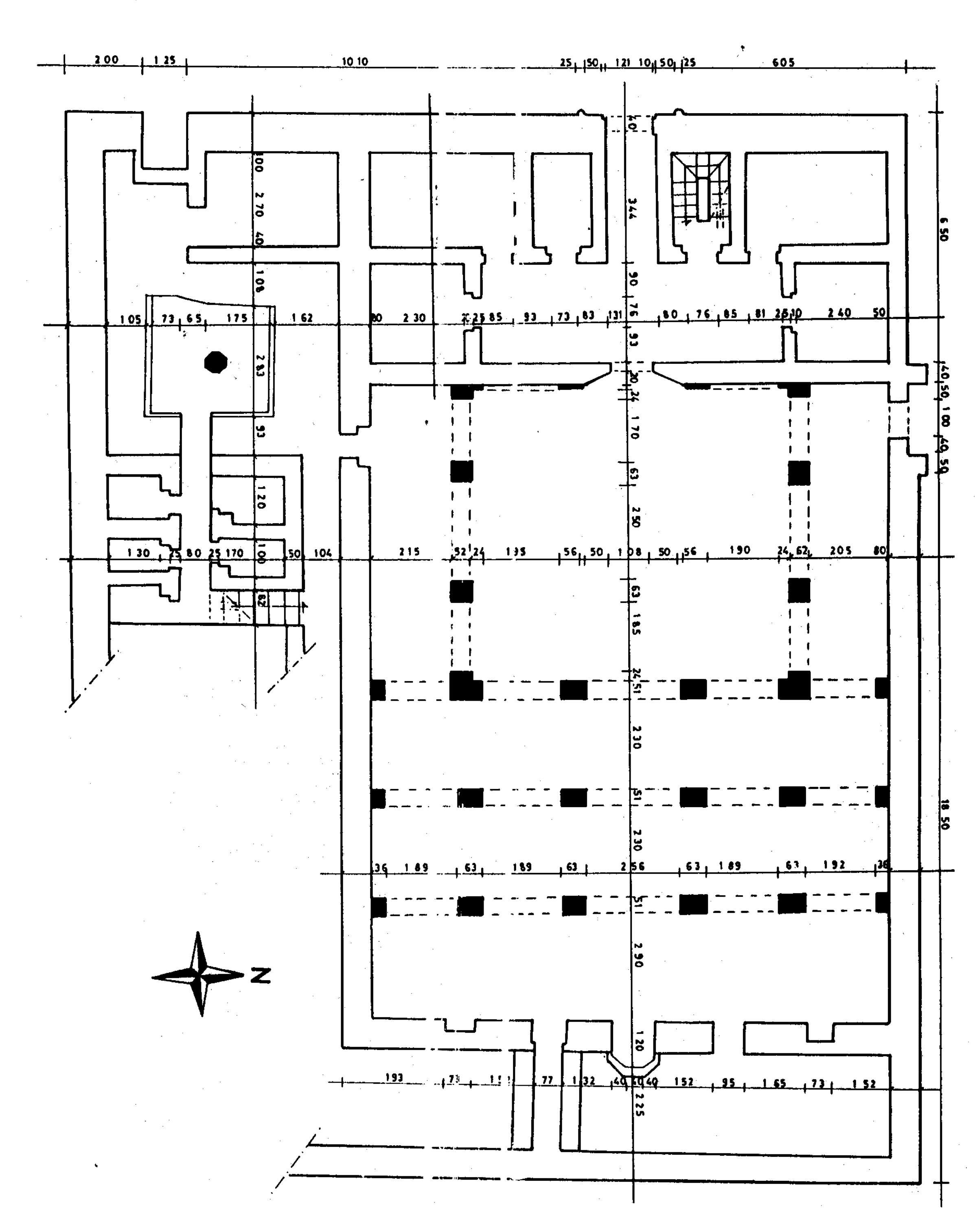
– **الدار الكبيرة** : وتحتل أغلبية المساحة الموجودة بداخل القصر، يقع مدخلها إلى الجنوب وتحاط بسور ضخم وعال يبلغ عرضه متر واحد و20 سم، وعلوها حوالي ثلاثة عشر مترا. المدخل عبارة عن قوس منكسر زين إطاره بنقوش جصية نباتية وهندسية متنوعة على شكل خلايا النحل، وتعلو هذه النقوش شرفة من القرميد الأخضر. باب المدخل مصنوع من خشب الصفصاف وينفتح على رواق مغطى منعرج يؤدي إلى جناحي الحريم وقاعات الضيافة. هذه الأخيرة عبارة عن أربع قاعات مستطيلة الشكل زين

إطار مدخلها بنقوش جصية هندسية ونباتية تتخللها أفاريز كتب عليها «العافية الباقية». ويتوسط هذه الغرف صحن مكشوف مربع الشكل يتكون من عشرين قوسا (خمسة لكل جهة) وتعلو هذه الأقواس ستارة من القرميد وإلى جانب غرف الضيافة توجد عدة غرف صغيرة في الأركان. أما الحريم فهو عبارة عن قباب يتوسطها صحن مكشوف، وقد زينت بأشكال زخرفية متنوعة والتي تشمل الجدران والسقوف وإطارات الأبواب.

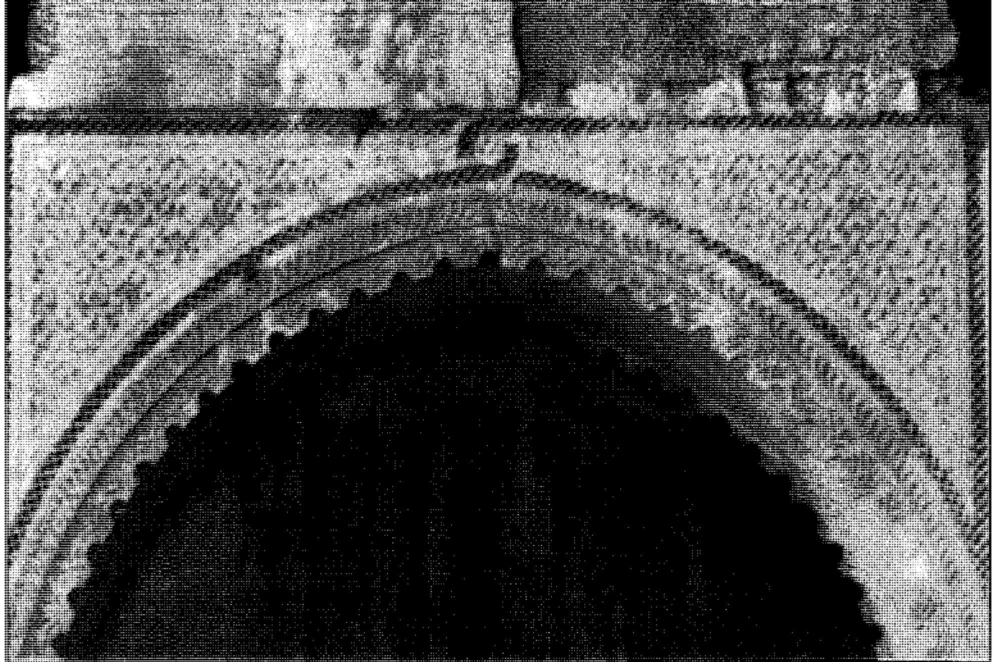
– **الرياض** : وهو عبارة عن بستان مستطيل الشكل تجزئه ممرات إلى أربعة أحواض ويتوسطها صهريج دائري تتفرع عنه القنوات المائية المؤدية إلى الأحواض. وتعلو الصهريج قبة مضلعة الشكل «المامونية» صنعت من خشب الأرز أقيمت على أعمدة مسننة تتوسطها الممرات، وتوجد بالرياض ثلاث مامونيات أكبرها في الوسط. كان البستان مغروسا أول الأمر بعدة أشجار لم يبق منها حاليا سوى شجرة القيقلان «الميموزة» التي تتميز بأزهارها الزكية وبمقاومتها الشديدة للجفاف.

تطل على البستان ثلاثة مرافق أساسية هي غرفتا الاستقبال في الجهة الشرقية والغربية ومنزه في الجهة الجنوبية. وقد أقيم المنزه على أعمدة من الخشب وسقفه من الأرز المزخرف بأشكال هندسية مصبوغة. أما الغرفتان فهما ذات شكل مستطيل، زين إطار مدخليهما بنقوش جصية متنوعة. وعلى يمين ويسار هاتين الغرفتين توجد مكتبات حائطية، بينما زينت واجهتاهما بثلاثة أقواس.

أما جناح الحمام والمطبخ والخدم فيتكون من عدة غرف متنوعة الأحجام والوظيفة وغالبا ما تقترن هذه الغرف بنقوش جصية ومصبوغة متنوعة ذات أشكال هندسية ونباتية تتخللها أفاريز كتب عليها آيات قرآنية أو أشعار معبرة أو عبارات «العافية الباقية» و«الملك لله» و«العز لله».



التصميم 37 : قصر أولاد عبد الحليم : المسجد



الصورة 49 : قصر أولاد عبد الحليم : نماذج من الزخرفة الجصية

صفوة القول يعتبر قصر أولاد عبد الحليم تحفة عمرانية رائعة بتافيلالت وذات مكانة فنية وحضارية، ومشهورة محليا ووطنيا ودوليا، بالرغم مما يشكوه القصر من معاناة الصدوع والشقوق الناتجة عن تدخل الإنسان من جهة وعن التأثيرات المناخية المتقلبة من جهة ثانية إلى جانب الأضرار التي لحقت به نتيجة الهزة الأرضية لشهر أكتوبر 1992 ميلادية.

ج) قصبة الفيضة :

*** الموقـــع :**

شيدت قصبة الفيضة على مساحة شاسعة وسط حقول زراعية، وتقع على بعد حوالي أربع كيلومترات شمال شرق مدينة الريصاني في اتجاه مزكيدة، يحدها شمالا ضريح موسى البرنيشي وقصر مزكيدة، وجنوبا قصبة مولاي الطاهر، وغربا قصر الشقارنة وشرقا الساقية الغرفية وقصيرة أولاد يوسف.

*** نبذة تاريخية :**

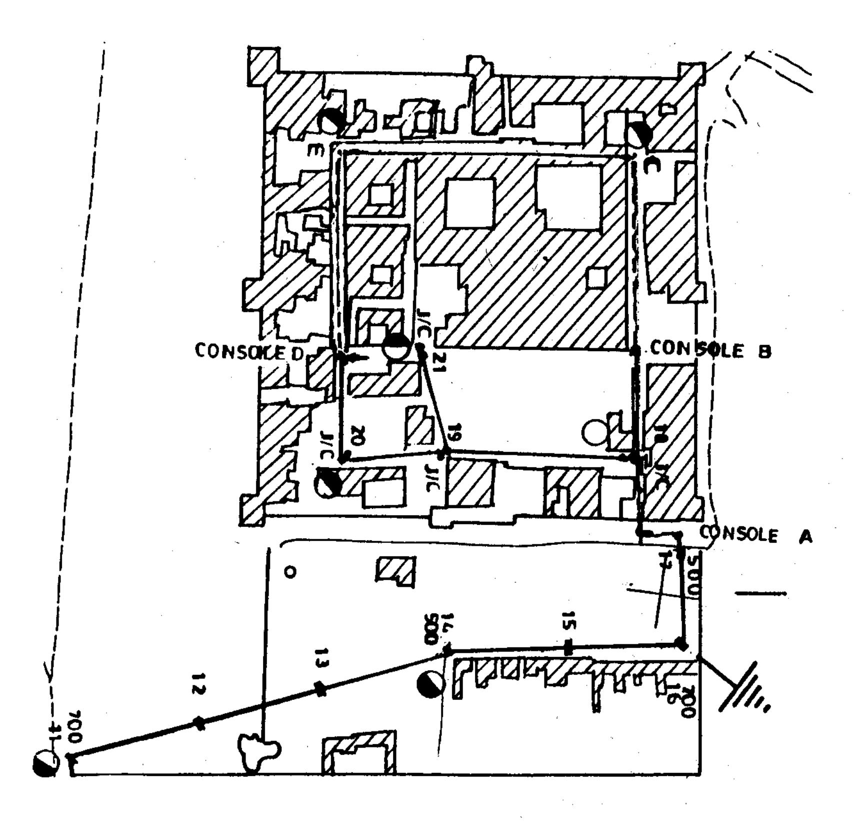
تعد قصبة الفيضة من أهم وأقدم القصور العلوية بتافيلالت، ذلك أن القصبة الأولى التي تحمل نفس الاسم بنيت من طرف السلطان المولى إسماعيل لإيواء ابنه مولاي عبد الله[64]. إلا أن هذه القصبة لم تعمر طويلا حيث تعرضت للتخريب بفعل صراعات الثلاثين سنة التي تلت وفاة السلطان المولى إسماعيل وبفعل الفيضانات المهولة ولم يعد يظهر حاليا من هذه القصبة إلا بعض الأطلال من أسوار وبروج مشيدة من الطابية. وخلال عهد السلطان المولى عبد الرحمان تجدد بناء هذه القصبة لكن ليس في الموضع نفسه، بل على بعد حوالي 800 مترا إلى الجنوب الشرقي من الأولى. وإذا كانت المصادر المكتوبة تلتزم الصمت الكامل إزاء هذه القصبة الثانية، حول

(64) ابن زيدان (عبد الرحمان) : المنزع اللطيف. المصدر السابق (ص 337).

تاريخ بنائها ومؤسسها وما هي الغاية المتوخاة من ذلك البناء، فضلا عن المعنى الحقيقي لكلمة الفيضة، فإن البقايا الأثرية والرواية الشفوية يمكنها تقديم بعض المعلومات عن الخصائص الحضارية لهذه المعلمة.

ودلالة اسم الفيضة يمكن إعطاؤها تفسيرين : الأول يعتقد أنه جاء نتيجة تحريف لكلمة الفداء حيث غالبا ما تنطق في تافيلالت الدال ضاضا. وإذا اعتبرنا الطبيعة المحصنة للقصبة (وجود الأبراج العالية، والسور المزدوج، ومرابض الخيول، والمشور، ومدخل رئيسي واحد...) يمكن استنتاج أن قصبة الفيضة شيدت لأغراض دفاعية وأمنية محضة. المعنى الثاني والأقرب إلى الصواب اعتمد على موقع القصبة بالقرب من القصبة الأولى التي بناها المولى إسماعيل والتي خربت فيما بعد بسبب الفيضانات ولذلك أطلق اسم الفيضة المشتقة من الفيضان أو الفيض على القصبتين معا.

المهم أن هذه القصبة شيدت كما يدل على ذلك التاريخ المنقوش في قبة الحمام أو في إطار أحد أبواب غرف الضيافة خلال شهر ذي القعدة عام 1271 هجرية / أي ما يوافق حوالي سنة 1854 ميلادية. وتذهب الرواية الشفوية إلى أن القصبة قد بنيت من طرف سيدي محمد بن عبد الرحمان بإيعاز من أبيه لفائدة ابنه المولى أبي الغيث والذي لازال قبره موجودا إلى اليوم في الركن الجنوب الغربي لمسجد القصر. ومنذ ذلك التاريخ ظلت هذه القصبة تلعب أدوارا في توجيه المسار السياسي للمنطقة حيث كان في بعض الأحيان مقر سكنى خليفة السلطان أو قائد تافيلالت إلى غاية سنة 1343 هجرية / 1965 ميلادية، إذ أصبحت فارغة وتم ضمها بعد ذلك إلى الأملاك المخزنية. والقصبة بالرغم من عوادي الزمن وتدخل الإنسان، لازالت تحتفظ بكل خصائصها المعمارية، مما جعلها تحظى بعمليات الإصلاح والترميم.



التصميم 38 : قصبة الفيضة : تصميم عام

*** مكونات قصبة الفيضة :**

– **السور الخارجي** : تحاط القصبة بسور عال وسميك على شكل مستطيل وقد شيد من الطابية على أساس من الحجارة. يبلغ ارتفاع السور حوالي ثلاثة عشر مترا وتتخلله تسعة أبراج مربعة الشكل خالية من العناصر الزخرفية ما عدى ثقب ومخارط الحراسة وإطلاق البارود. ويبلغ سمك السور حوالي متر واحد و80 سم وهو ينقسم إلى سورين : أحدهما خارجي مرتفع والثاني داخلي أقل علوا ويستعمل كممر يربط بين مختلف الأبراج.

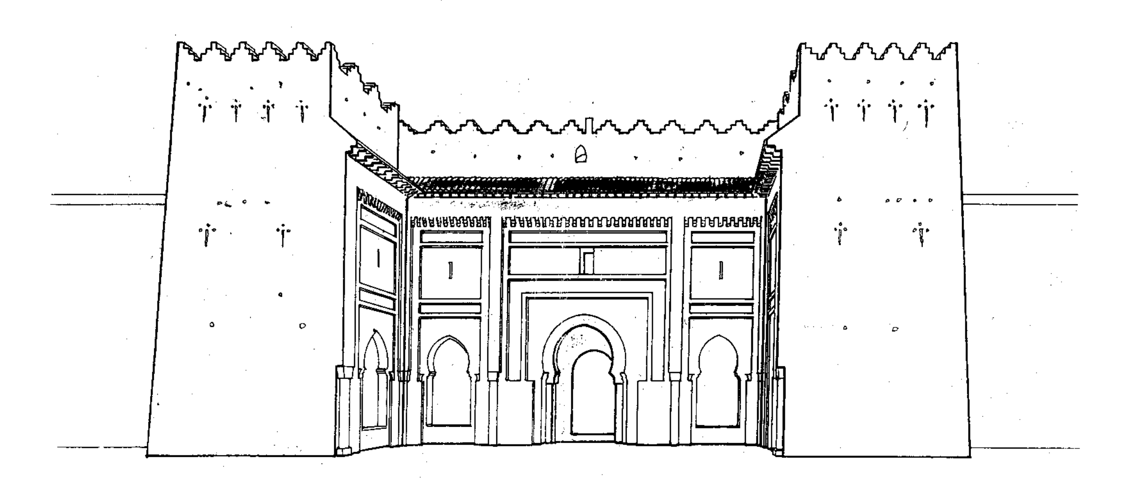
– **المشور** : وهو عبارة عن ساحة واسعة محاطة بسور من الطابية على علو ثلاثة أمتار. ينفذ نحو المشور عبر مدخل في الركن الجنوب الغربي حيث

يوجد باب على شكل قوس مزين بإطار من النقوش الجصية تعلوه ستارة من القرميد الأخضر وينفتح الباب على رواق مغطى منعرج خاص بالحراسة. وفي الجهة الجنوبية للمشور توجد مرابض الخيول.

– **المدخل الرئيسي** : يوجد في الجهة الجنوبية، وهو عبارة عن قوس كبير تحيط به أربعة أقواس غير نافذة فضلا عن البرجين. كان إطاره الخارجي في أول الأمر مزينا بنقوش جصية متنوعة، إلا أن هذه النقوش لم يعد لها أي أثر. وتعلو هذا الإطار شرفة من خشب الأرز رصف فوقها القرميد الأخضر قصد اتقاء التعرية المطرية. أما باب المدخل فهو من خشب الصفصاف المغطى بالقصدير وينفتح هذا الباب على رواق مغطى خاص بالحراسة (الدكانة) وتعلوه مسرية في الطابق العلوي وهي خاصة بالبواب.

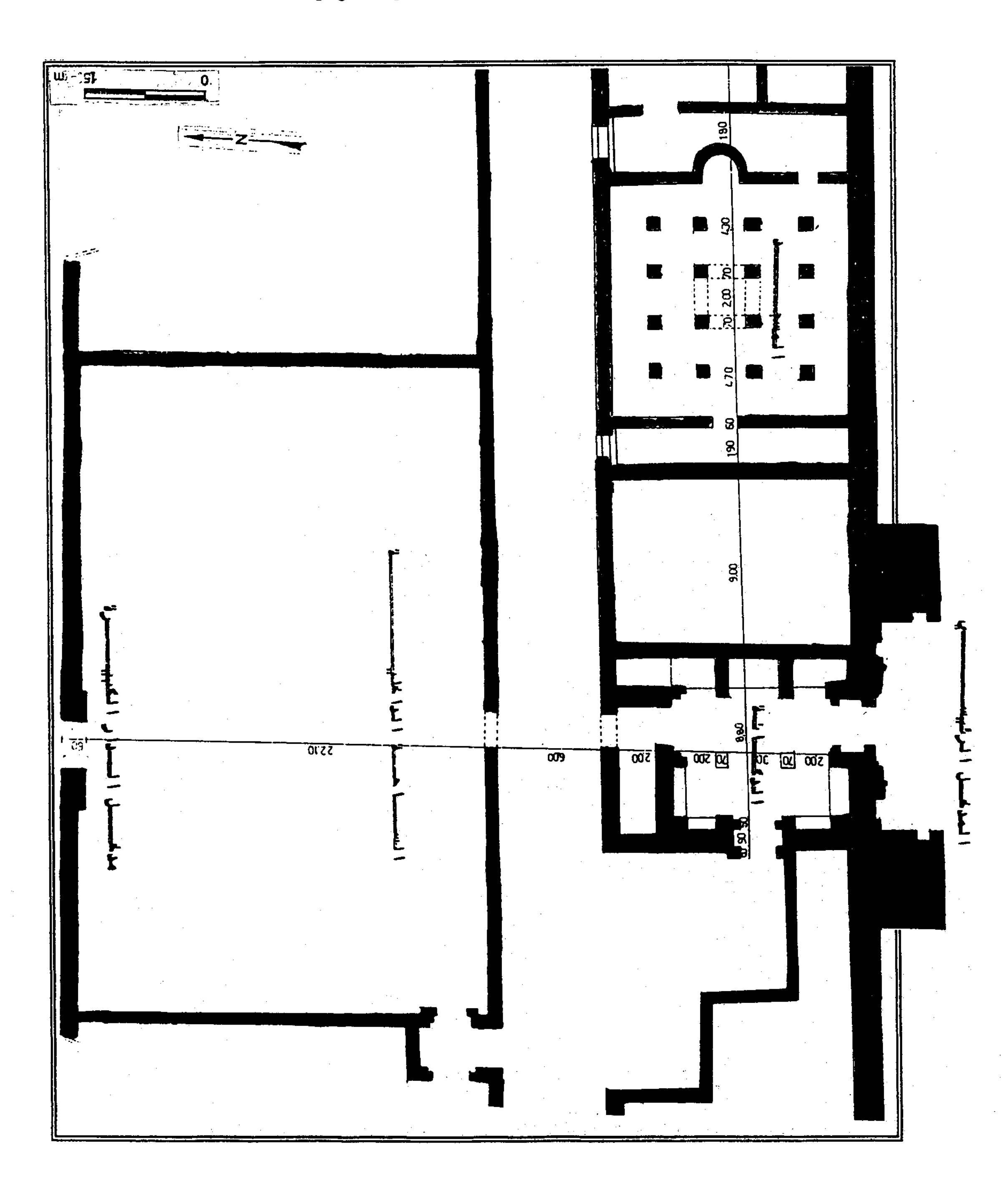
– **الساحة الداخلية والأزقة** : ينفتح المدخل الرئيسي على ساحة شاسعة تؤدي مباشرة إلى الدار الكبيرة وعلى زقاق طويل يحيط بالسور الخارجي من الداخل وبالدار الكبيرة من الخارج ويوصل هذا الزقاق إلى دور الخدم وإلى الأبواب الخلفية.

– **المسجد** : يقع إلى اليمين من المدخل الرئيسي ويتكون من صحن مفتوح مزين بشرفة من القرميد الأخضر، ومن ثلاثة أساكب ومن خمس بلاطات. المحراب يتميز بإطاره الخارجي المزخرف بنقوش جصية هندسية وزهرية [تشبيكات، وورود، وعقود، ومربعات ومعينات] وبنقوش مكتوبة تتكون من العبارة «العافية الباقية»، بينما تخلو تجويفة المحراب من أي عنصر زخرفي. وزين أعلى باب المقصورة بشكل اهليلجي كتبت عليه الآية : «فسيكفيهم الله وهو السميع العليم». ونقش إطار الباب بعبارة «العز لله» كما زين إطار مدخل المنبر بنقوش زهرية من خشب الأرز.



التصميم 39 : قصبة الفيضة : مقطع المدخل الرئيسي

الصورة 50 : قصبة الفيضة : المدخل الرئيسي

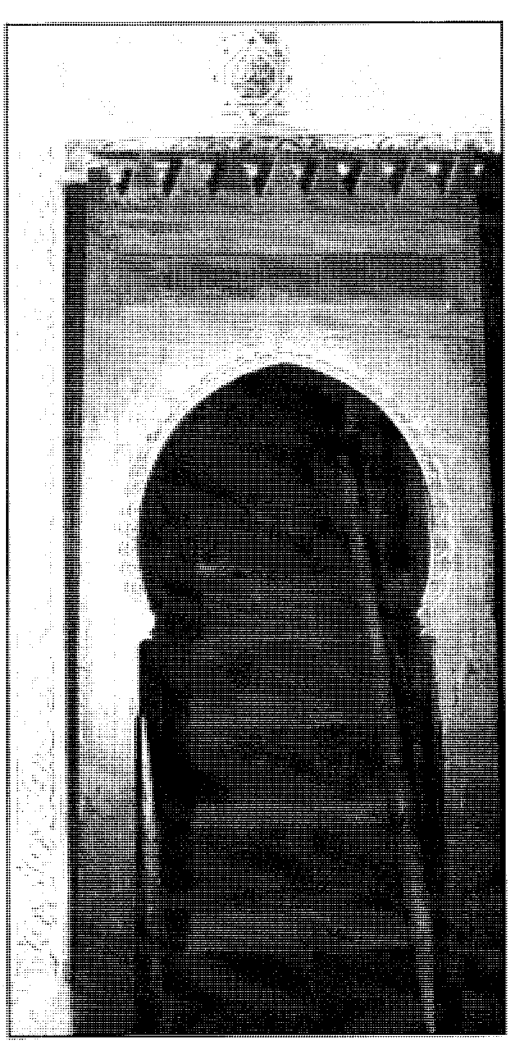


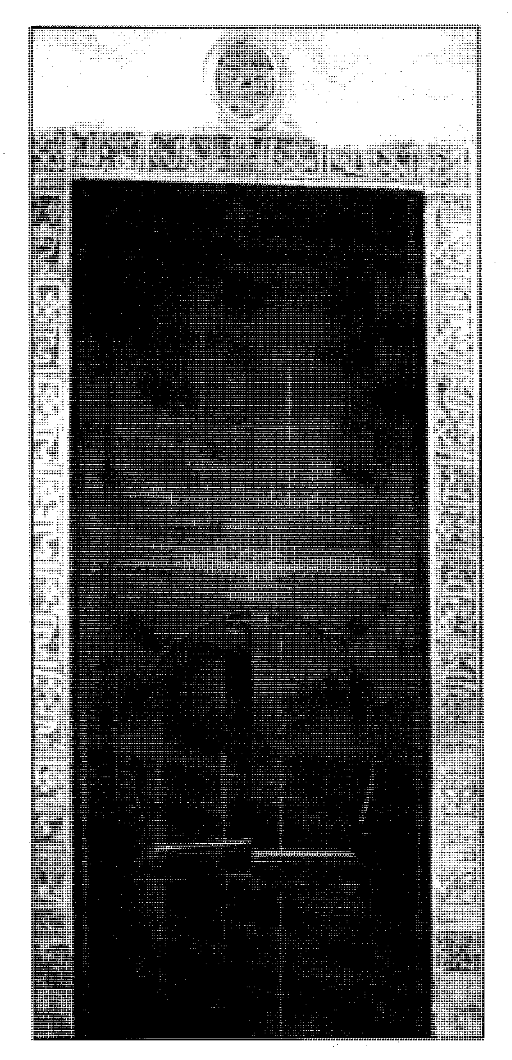
التصميم 40 : قصبة الفيضة : المدخل الرئيسي والمسجد والساحة الداخلية

– **الدار الكبيرة** : تقع في مقابل المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية ويحيط بجهاتها الأربع سور عال يبلغ ارتفاعه حوالي إحدى عشر مترا. المدخل الرئيسي للدار عبارة عن قوس كبير يعلوه إطار من النقوش الجصية الهندسية تتكون من معينات وتشبيكات، وتقوم بوقايتها ستارة خشبية مغطاة بالقرميد الأخضر. أما باب المدخل فقد صنع من خشب الصفصاف ومغطى بالقصدير وينفتح هذا الباب على رواق مغطى بخشب الأرز. يؤدي هذا الرواق إلى مختلف أجنحة الدار كالحريم والرياض والحمام وغرف الضيافة. هذه الأخيرة عبارة عن أربع قاعات مستطيلة الشكل يتوسطها صحن مكشوف مربع الشكل ومزين بعشرين قوسا [خمسة أقواس في كل جهة] وتعلو هذه الأقواس ستارة من القرميد الأخضر.

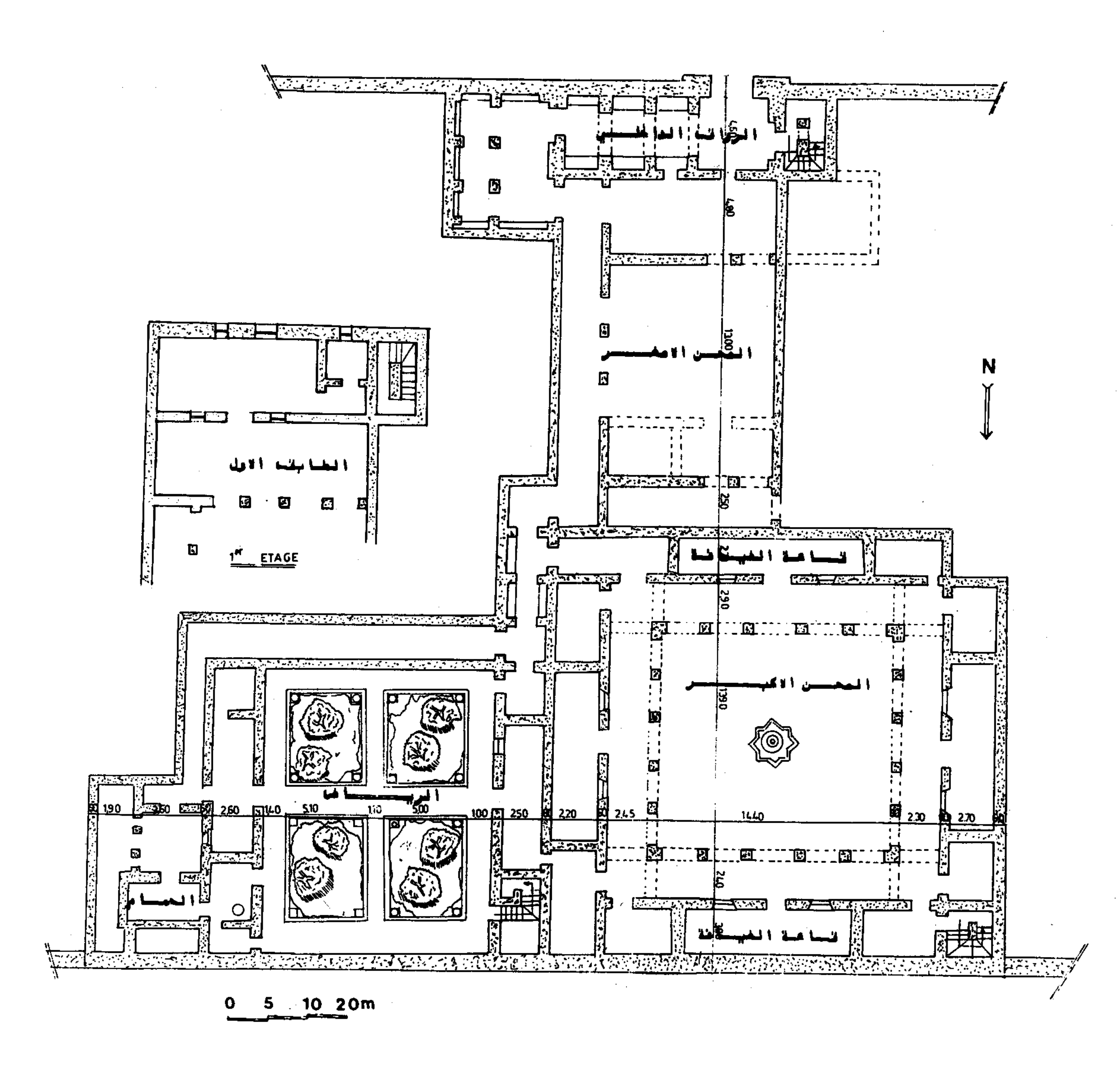
من روائع الزخرفة الهندسية بهذه القصبة أن كل مدخل من مداخل قاعات الضيافة زين إطاره العلوي بنقوش تتميز في مجملها بالتناسق بين مختلف الأشكال الهندسية والنباتية والمكتوبة وبين الألوان المتنوعة : الأزرق، والأبيض، والأصفر والأخضر. وينفرد إطار مدخل الغرفة الشمالية بنقش يحمل تاريخ تأسيس (عام 1271 هجرية) وصنعت الأبواب من خشب الصفصاف. وإلى جانب هذه الغرف الأربع الكبرى توجد غرف صغير كانت تستعمل كمخازن.

أما الرياض فيوجد إلى الشرق من الصحن المكشوف وإلى الغرب من الحمام. وخلافا لرياض قصر أولاد عبد الحليم، فإن رياض قصر الفيضة تعرضت كل مكوناته، من الأشجار والممرات والقنوات المائية والقباب المحيطة به والمنزه المطل عليه، للاندثار. وإلى الشرق من الرياض يوجد البئر الذي يجلب منه الماء قصد سقي الحدائق ومد قنوات الحمام والنافورة بالماء، وشيد البئر من الحجارة ويبلغ عمقه حوالي خمسة عشر مترا.

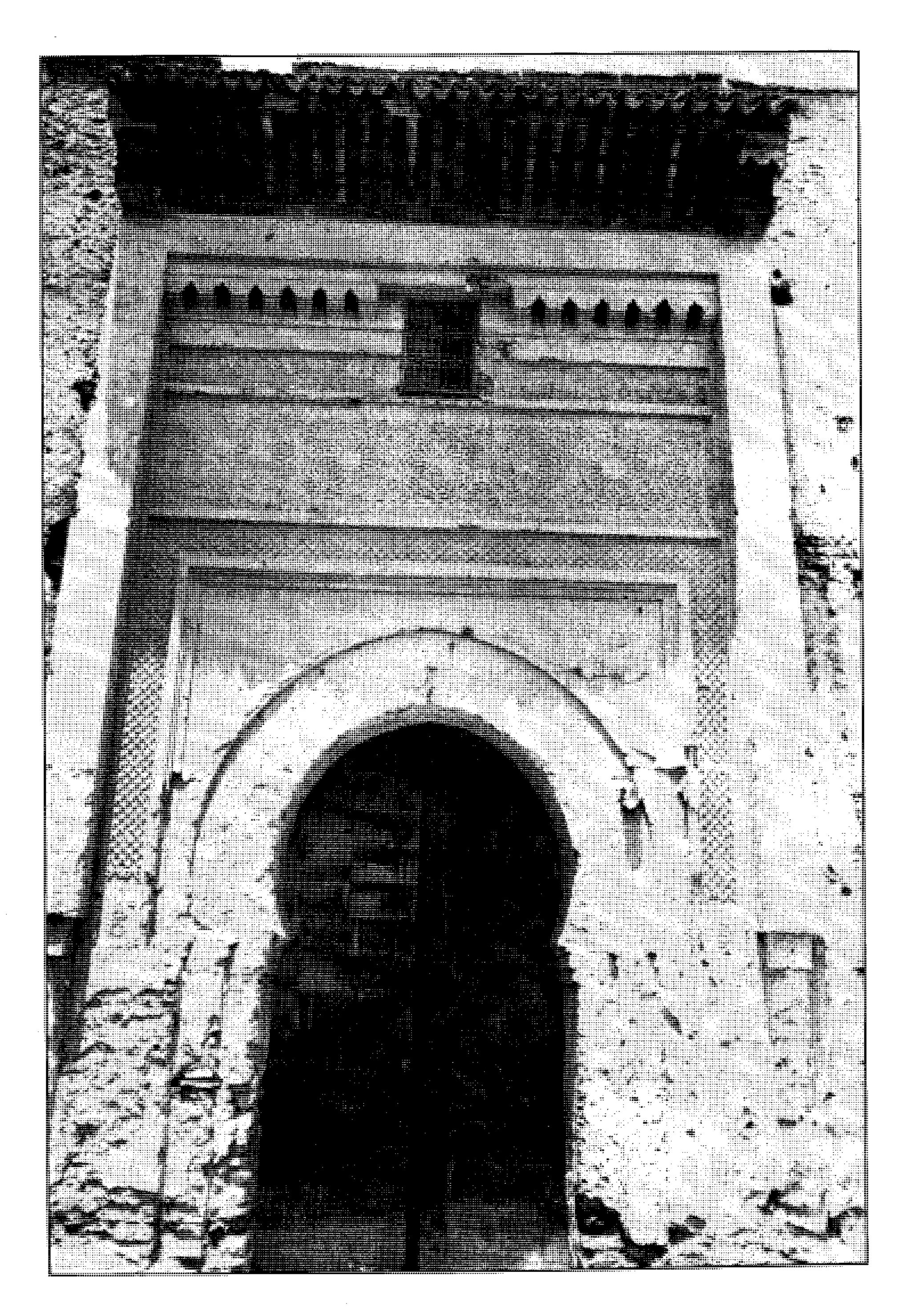




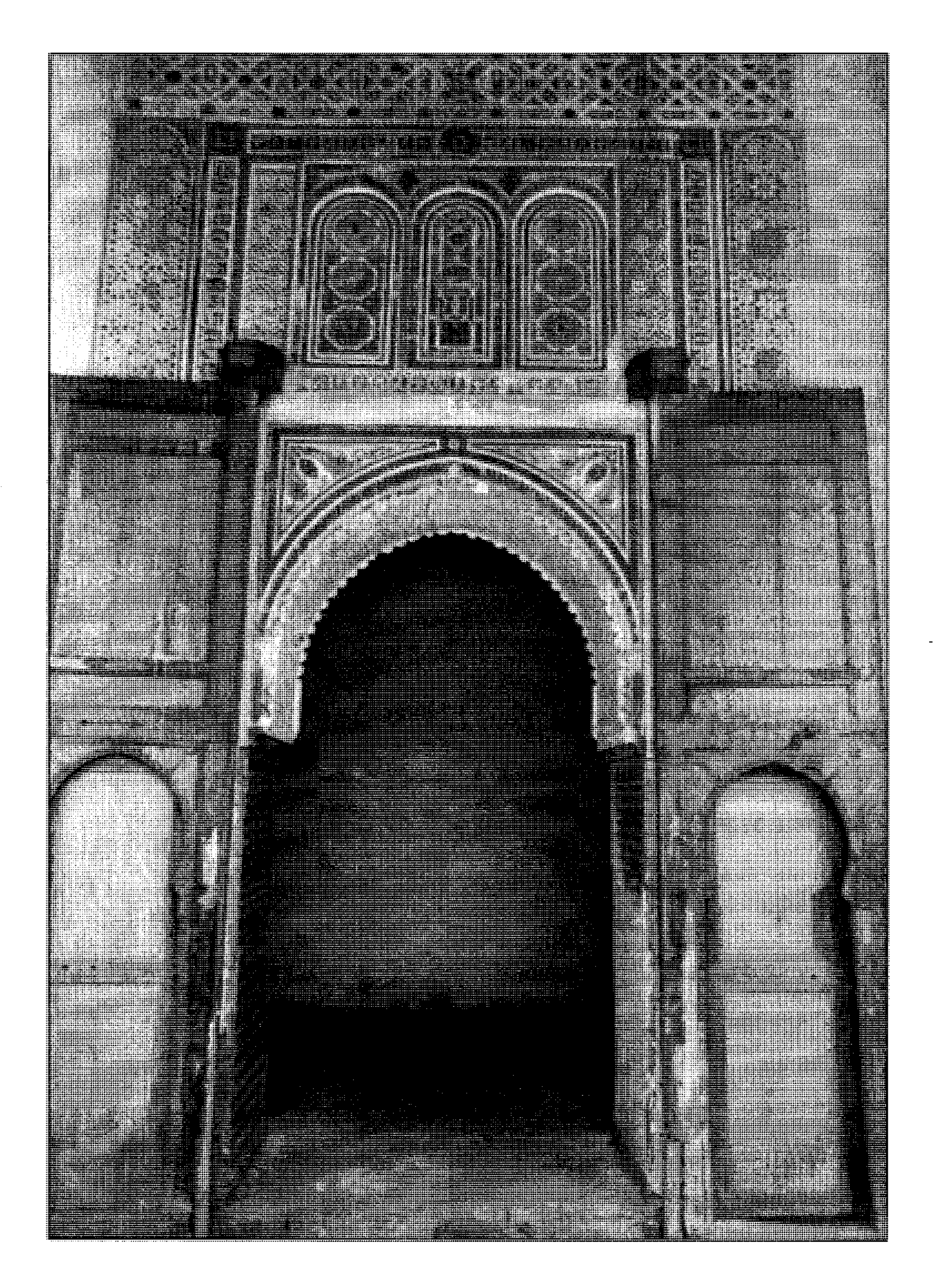
الصورة 51 : قصبة الفيضة : المسجد [المنبر ومدخل المقصورة]



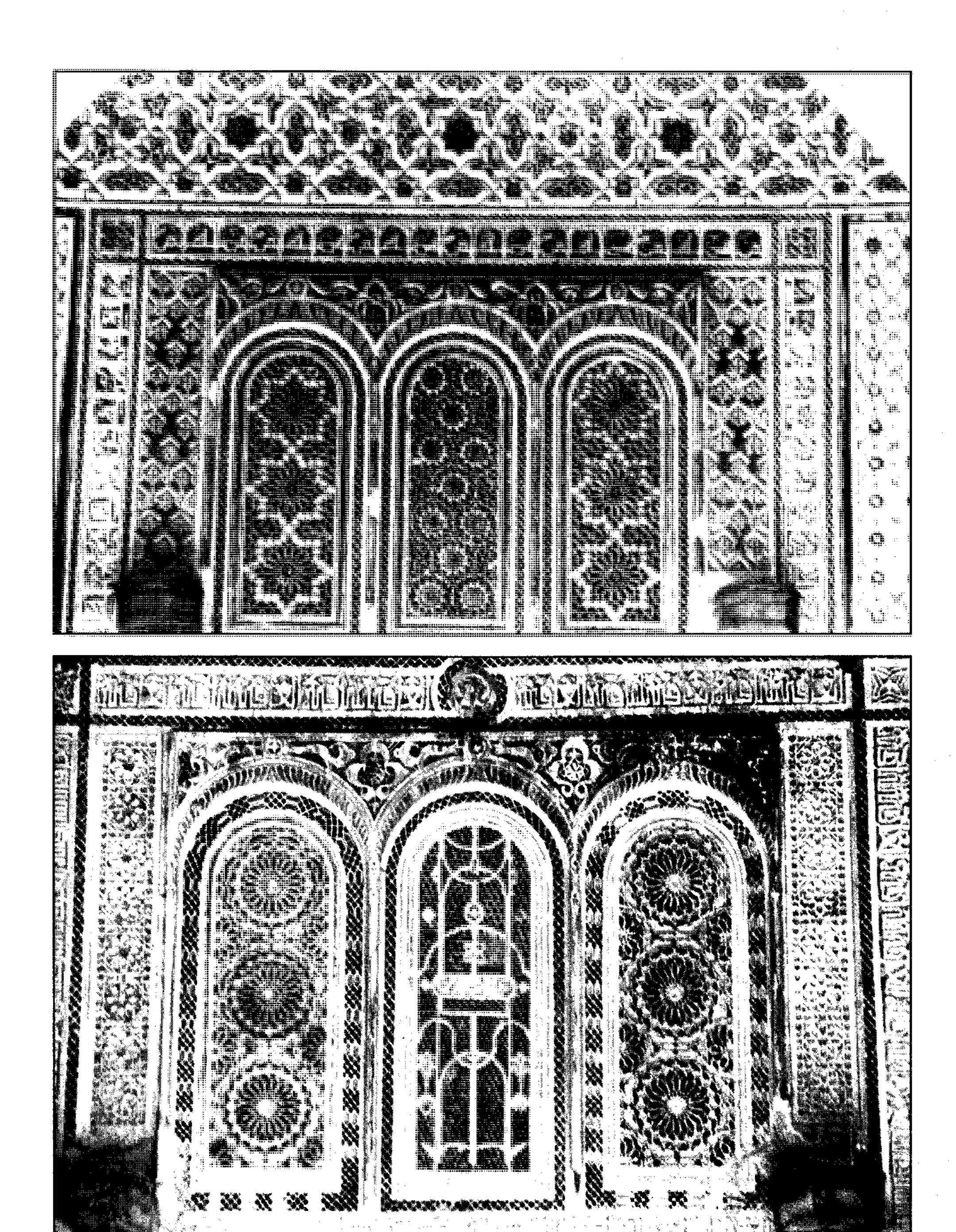
التصميم 41 : قصبة الفيضة : الدار الكبيرة



الصورة 52 : قصبة الفيضة : مدخل الدار الكبيرة قبل الترميم



الصورة 53 : قصبة الفيضة : مدخل لغرف الضيافة



الصورة 54 : قصبة الفيضة : نماذج من الزخرفة الجصية على مداخل غرف الضيافة

أما الحمام فيعتبر تحفة معمارية ويتكون من قبة جميلة شيدت بإتقان من الحجارة والآجر وزينت حوافها بنقوش هندسية على خشب الأرز، بينما زينت واجهاتها الأربع بنقوش جصية على شكل تشبيكات زهرية ومعينات تعلوها عقود ثلاثة كتب عليها بالخط الكوفي «الملك لله». الأركان زخرفت بأشكال زهرية وهندسية متنوعة، وإلى الأسفل من هذه النقوش يوجد إفريز يغطي الواجهات الأربع وقد نقشت عليه بالخط الكوفي أبيات شعرية مستوحاة من قصيدة البردة للبوصيري وتحمل تاريخ البناء وهذه الأبيات هي :

سبحان من قضى وحكم وعلم الإنسان ما لم يعلم
ألا يا داخلا باليمن أبشر وبالإقبال في وقت أن سعيد
المسرة والتهاني وحسن مظهر القصر المشيد
أدخل هنيئا سكني وأبشر بما يهوي الفؤاد وتشتهي العينان
أنظر بديع صنعتي قد زخرفت كزخرف الأزهار في البستان
من يدخل والله أكبر بشرى من فضل تريح مولاك
من يعتصم بك يا خير الورى شرفا فالله حافظه من كل منتقم
بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا من العناية ركنا غير منهدم
وفي شهر الله ذو القعدة عام إحدى وسبعين ومائتين وألف

ويتكون الحمام فضلا عن هذه القبة الجميلة من ثلاث غرف أخرى زينت أرضية إحداها بالزليج الفاسي الملون بالأزرق، والأبيض، والأسود والأخضر، بينما زين سقف الغرفة الأخرى بأشكال مصبوغة [نجمات، معينات...] وقد كتب بداخل النجمات الثمانية والسداسية الأضلاع عبارة «لا قوة إلا بالله / عام إحدى وسبعين ومائتين وألف».

صفوة القول إن قصبة الفيضة تعتبر بحق معلمة عمرانية متميزة بتافيلالت وذات شهرة تخطت المستوى المحلي والوطني إلى الصعيد الدولي. فقد

شهدت القصبة تصوير عدة أفلام عالمية منها : الشاي بالصحراء، وسر الصحراء، وأسد الصحراء وغيرها، كما عرفت احتضان الملتقيين الخامس والسادس لفن الملحون وعرفت عمليات الترميم ومن المنتظر أن تكون مقرا لمتحف تافيلالت.

II ـ المعمار الديني والحرفي :

1 ـ المؤسسات الدينية :

أ) المساجد :

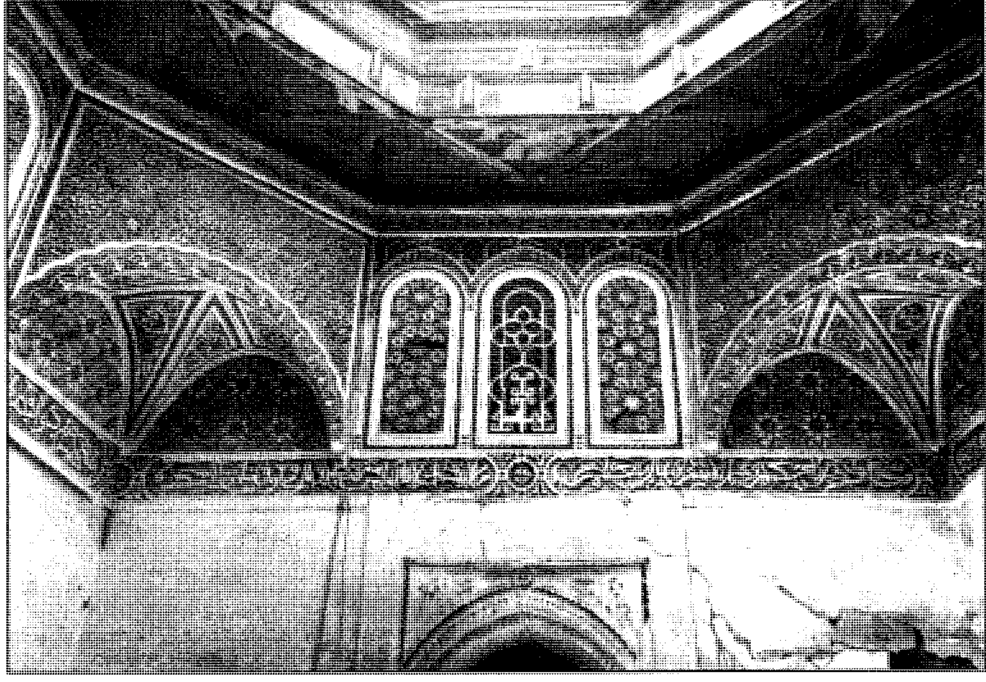
يمثل مسجد قصر أخنوس أحسن نموذج باعتبار أقدميته وما يتوفر عليه من مميزات زخرفية رائعة وأصيلة :

*** الموقع :**

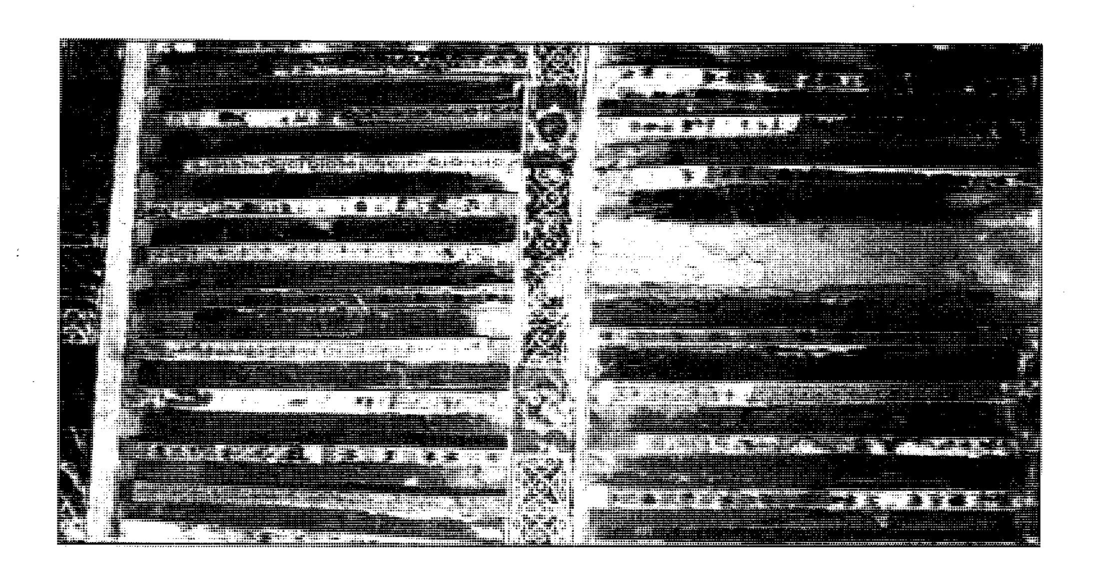
يقع قصر أخنوس على بعد مائة وخمسين مترا غرب ضريح مولاي علي الشريف، ويقال بأنه سمي بهذا الاسم نسبة إلى مملوك مولاي علي الشريف والمسمى «خنوس» ومعناه باللغة الأمازيغية الغلام أو الخدم[65]. وتذكر الرواية الشفوية أن القصر من بناء أبي الجمال مولاي يوسف بن علي الشريف، وقام سيدي أحمد بن يوسف بن علي الشريف بتشييد سور القصر. هذا السور الضخم الذي كان يتكون من خمسة عشر برجا، لم يبق منه حاليا سوى المدخل الرئيسي في الجهة الشرقية وعشرة أبراج مربعة الشكل تزينها شرفات من الطوبية وعناصر زخرفية طينية. أما المسجد فيعود تاريخ بنائه إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل كما يدل على ذلك النقش المزين لإطار المحراب وكذلك الكتابات المنقوشة على واجهة المنبر.

---

(65) المدغري (أحمد بن عبد العزيز) : الأنوار الحسنية. مصدر سابق (ص 59).



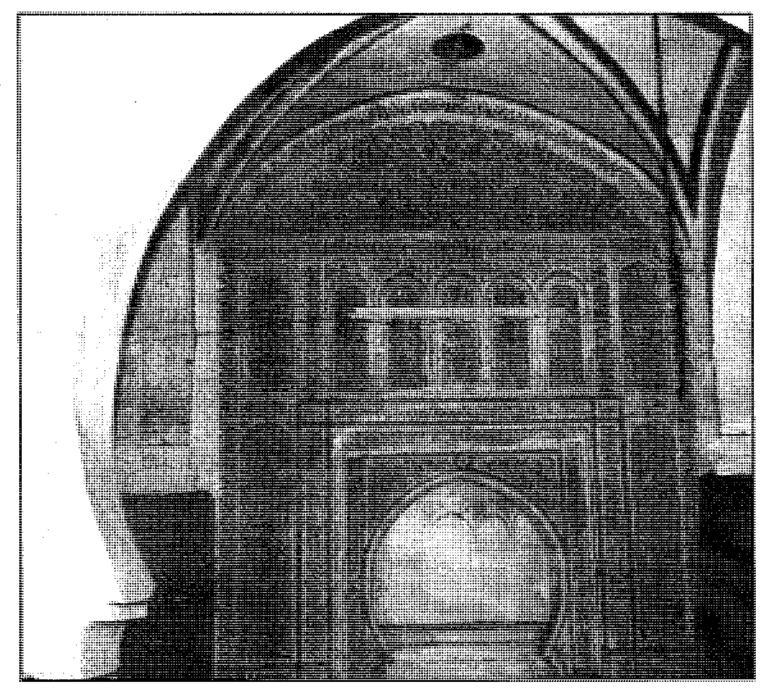
الصورة 55 : قصبة الفيضة : قبة الحمام

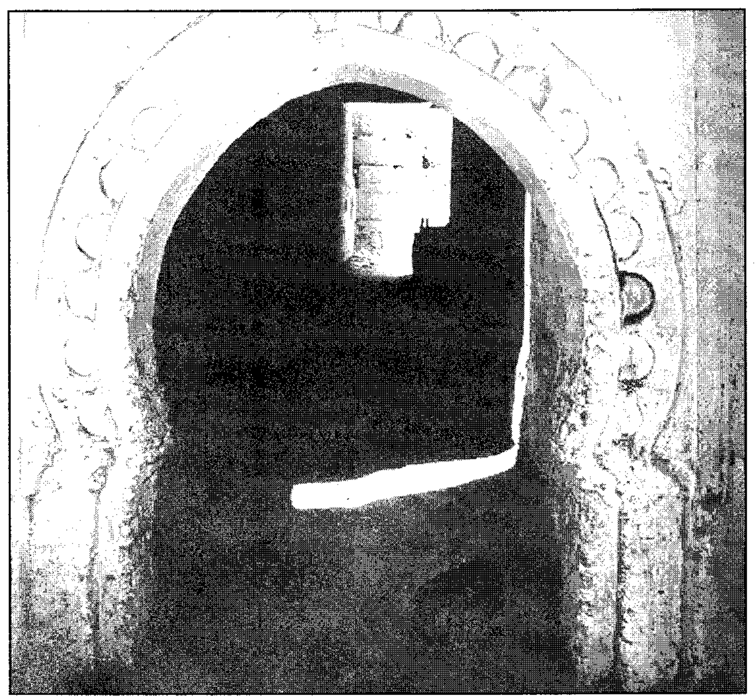


الصورة 56 : قصبة الفيضة : نماذج من النقوش الزخرفية بالحمام

*** مكونات المسجد :**

توجد أهم الآثار المتبقية بقصر أخنوس داخل المسجد الذي يقع وسط القصر. شيدت جدران المسجد من الطابية وتم تبليطها بالطين، بينما بنيت أعمدته من الآجر وصنع السقف من خشب الأرز. يتكون المسجد من بيت الوضوء وبجانبها بئر عميقة شيدت من الحجارة، ومن بيت الصلاة وتحتوي على صحن مكشوف تزين جوانبه ستارة من القرميد الأخضر، وعلى خمس بلاطات وخمسة أساكب «منابح»، وعلى محراب يتخذ شكل قوس منكسر وعلى منبر خشبي عتيق يعود تاريخ صنعه إلى أكثر من قرنين وثمانين عاما.





الصورة 57 : قصر أخنوس : المدخل الرئيسي محراب المسجد

*** النقوش المستعملة :**

زين هذا المسجد بنقوش جصية متنوعة : فأمام المحراب توجد قبة بديعة شيدت بالآجر المبلط بالجبس والتي زينت بزخارف على شكل وردات مستديرة صبغت باللونين الأخضر والأحمر. كما زخرفت واجهة المحراب الداخلية بشبكة من العقود وثلاثة أفاريز كتب في أسفلها عبارة «العز لله». أما إطار المحراب واللوحة التي تعلوه فقد زينا بنقوش هندسية وزهرية تتخللها كتابات عربية هي «العافية الباقية» و«العز لله». وينطبق هذا أيضا على الواجهة العليا للقوس الموازي للمحراب، حيث زين بشبكة من النقوش الزهرية تحيط بها وتقطعها أفقيا كتابة عربية «العافية الباقية».

أما المنبر فقد صنع من خشب الأرز وزين بعدة زخارف هندسية بالألوان الصفراء والحمراء والخضراء على شكل معينات ونجمات متشابكة. وقد زينت واجهته الأمامية بكتابة عربية منقوشة تدل على صانعه وتاريخ صنعه وهذه الكتابة هي : «نشأ هذا المنبر المبارك فاتح 1135 هجرية (1722 ميلادية) على يد والي مولانا إسماعيل أمير المؤمنين أيده الله القائد محمد الصغير خليل مولانا الحاكم».

ب) الأضرحة :

ب1 ـ ضريح مولاي علي الشريف :

• **الموقع** : يقع الضريح على بعد حوالي كيلومترين جنوب شرق مدينة الريصاني، بمشيخة واد إيفلي. يحده شمالا قصبة مولاي عبد الكريم، وجنوبا قصبة آبار المخزن، وشرقا قصر حمو داود وغربا قصر أخنوس.

• **نبذة موجزة عن حياة مولاي علي الشريف** : هو مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد بن الحسن بن القاسم الداخل بن محمد بن أبي القاسم بن

محمد بن الحسين بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر ابن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت الرسول ﷺ. كانت ولادته سنة 762 هجرية / 1360 ميلادية، وخلفه والده مولاي الحسن بمدينة سجلماسة التي اشترى بها دورا قرب الباب المسمى الزعفران ونال بهذه المدينة ثروة عظيمة بفضل التجارة. وكان رجلا صالحا وعالما ومجاهدا استوطن بعض الوقت بحومة جزاء بن عامر من عدوة القرويين بفاس وكذلك بمدينة صفرو وجاهد بالأندلس عدة مرات وقضى بها أزيد من 20 سنة، كما عمل على نشر الإسلام بإفريقيا جنوب الصحراء وتخرج على يده عدة علماء من المغرب والأندلس والمشرق. توفي سنة 847 هجرية / 1446 ميلادية عن عمر يناهز 84 عاما ودفن أول الأمر بزاويته «الخلوة» الواقعة بقصبة تغمرت، قبل أن ينقل جثمانه إلى ضريحه الحالي على عهد سيدي محمد بن عبد الله.

• **التأسيس** : يذكر الناصري أن سيدي محمد بن عبد الله كان «من عظماء الملوك وخلد آثارا كثيرة في مختلف المدن المغربية ومن ذلك ضريح المولى علي الشريف بسجلماسة وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها ومسجد الريصاني ومدرسته»[66] وذلك ما بين 1202 و1204 هجرية / 1783 و1784 ميلادية. وقد شمل هذا البناء بالخصوص القبة الجنائزية والتي أتم بناءها السلطان المولى اليزيد بإثبات النوافذ [الشمسيات] قصد إدخال الضوء والهواء. ولم يقتصر عمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله على البناء فقط، بل أنفق أموالا طائلة على الطلبة والحزابين والمؤذنين والقائمين على الروضة وكان مقدار ما أنفق في ذلك حوالي مائة مثقال أي 1250 فرنكا حسب صاحب الإتحاف[67].

(66) الناصري (أبو العباس خالد أحمد) : المصدر السابق (ص 69).
(67) ابن زيدان (عبد الرحمان) : **الإتحاف**، المصدر السابق (ص 248 - 249).

• **التجديد والإصلاح** : حصلت أول عملية إصلاح على يد السلطان مولاي الحسن الأول وتشير إحدى المراسلات بين السلطان وخليفته بتافيلالت مولاي رشيد والمؤرخة في 8 محرم عام 1305 هجرية / 1887 ميلادية، إلى أن فيضانات وادي زيز قد أتلفت وهدمت جزءا من الضريح والقصور المحيطة به، مما يستوجب الإسراع بترميم ما لابد منه. وعلى ظهر هذه الرسالة كتب المبلغ الذي أنفق على هذا الترميم : «مولاي سليمان ومولاي رشيد أجابوا عما أمروا به من تقويم إصلاح ضريح مولانا علي الشريف بأنهم أوقفوا أرباب المعرفة على ذلك وقوموا جميعه بما لا بد منه 3099 ريال حسني مفصلا طالبين تنفيذ ذلك إعانة وتأمينا لقلوبهم من خوف عود السيل وخيانة الخائنين وهذا الصائر المقدم به ثلاثة آلاف ريال وتسعة وتسعين ريالا ـ والريال بحسب خمسين أوقية»[68].

وعلى إثر المقاومة المستميتة لسكان المنطقة ضد التوغل الاستعماري والتي دامت حوالي ثلاثين سنة، لم يسع المستعمر إلا استعمال كل وسائل الترهيب والدمار والحصار، حيث قصفت القصور الفيلالية بالطائرات ولم تنج من هذا القصف الأضرحة والزوايا. وقد تعرض ضريح مولاي علي الشريف لإحدى القذائف التي هدمت أحد أركان القبة الجنائزية، وتم ترميمها من طرف الملك محمد الخامس أثناء زيارته للمنطقة في مايو سنة 1941 ميلادية. ونتيجة للفيضانات المهولة لسنة 1953 ميلادية تضررت العديد من القصور والأضرحة بتافيلالت ومنها ضريح مولاي علي الشريف الذي عرف إصلاحا أخر اكتمل مع سنة 1958 ميلادية. كما شهد عملية ترميم أخرى في بداية السبعينيات من القرن العشرين تحت إشراف وزارة الأوقاف الإسلامية وقام بإنجازها المعلم إدريس من فاس. ويرجع آخر إصلاح عرفه

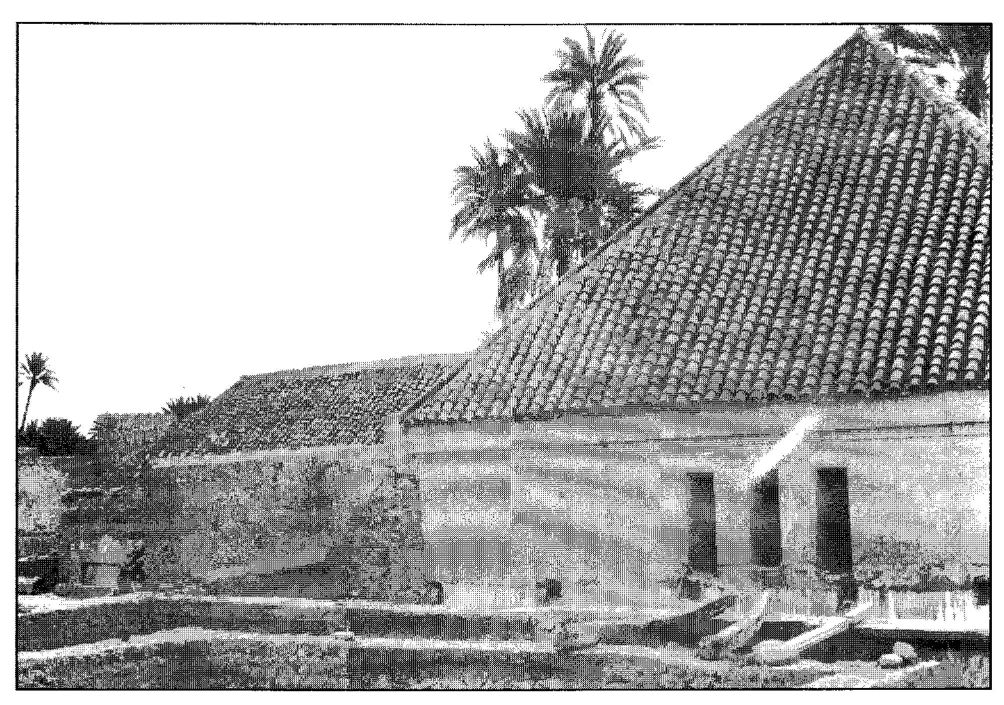
---

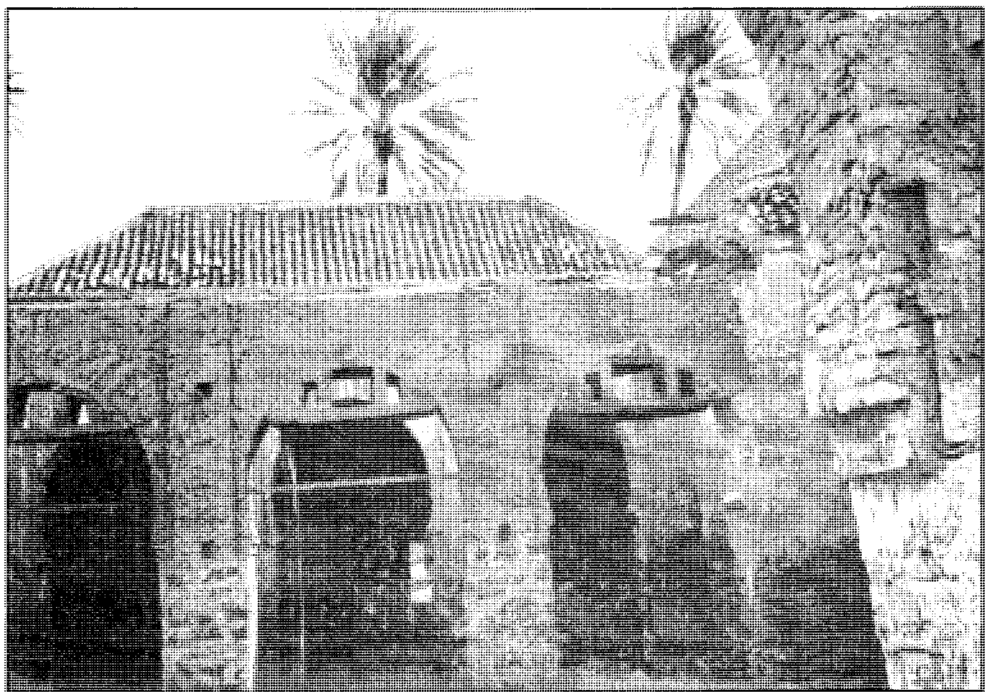
(68) مديرية الوثائق الملكية : الوثيقة رقم 93.

الضريح إلى سنتي 1999 و2000 ميلادية، إذ جدد المسجد والأروقة وأعيد ترصيف الأرضيات، كما بنيت بجانب الضريح مدرسة قرآنية.

• **المكونات** : القبة الجنائزية شيدت من الآجر على أساس من الحجارة بينما سقفت بخشب الأرز المغطى بالقرميد من الأعلى. يبلغ طول القبة إحدى عشر مترا، وعرضها سبعة أمتار وعلوها خمسة عشر مترا، وتتكون من مدخل رئيسي في الجهة الجنوبية ومن شمسيات في الجهتين الشرقية والغربية ومن أربع مكتبات حائطية. و تضم القبة قبور مولاي علي الشريف وابنيه أبي عبد الله محمد وأبي الجمال مولاي يوسف، وقبر سيدي الحبيب بن زين العابدين بن مولاي إسماعيل وقبر مولاي رشيد بن محمد بن عبد الرحمان. جفنة القبة ذات شكل ثماني الأضلاع تشدها أعمدة خشبية شبه أفقية تنطلق من الأركان الأربعة وما بين الأركان لتتوحد في الأعلى مكونة الخاتم الذي زين بثلاث نجمات كبيرة ثمانية الأضلاع، أوسطها مجوفة وعلقت بها الثريا. تحاط بهذه النجمات نجمات صغيرة سداسية وتشبيكات هندسية. الألوان المستعملة في الصباغة هي الأخضر والأصفر والأحمر. كما زينت أركان الجفنة من جهتها، بأشكال هندسية منقوشة تتكون من نصف خاتم ثماني عشر من صنف بلا ربع مطارق. إلى الأسفل من الجفنة يوجد إفريز من الجص يحيط بكل الجهات الأربع مزخرف بنقوش هندسية «معينات» مصحوبة بالعبارة التالية «العافية الباقية» والآية «كل نفس ذائقة الموت» فوق المدخل الرئيسي وفي الواجهة المقابلة العبارة «بركة محمد // بركة محمد».

أما إطارات النوافذ فقد زينت بنقوش جصية من نوع : زوج، وكتف، ودريهم، وقنديل والهلال. الأرضية والجدران رصفت بزليج من نوع «برايا» ملون بالأبيض والأزرق. صنع باب المدخل من خشب الأرز ونقشت عليه

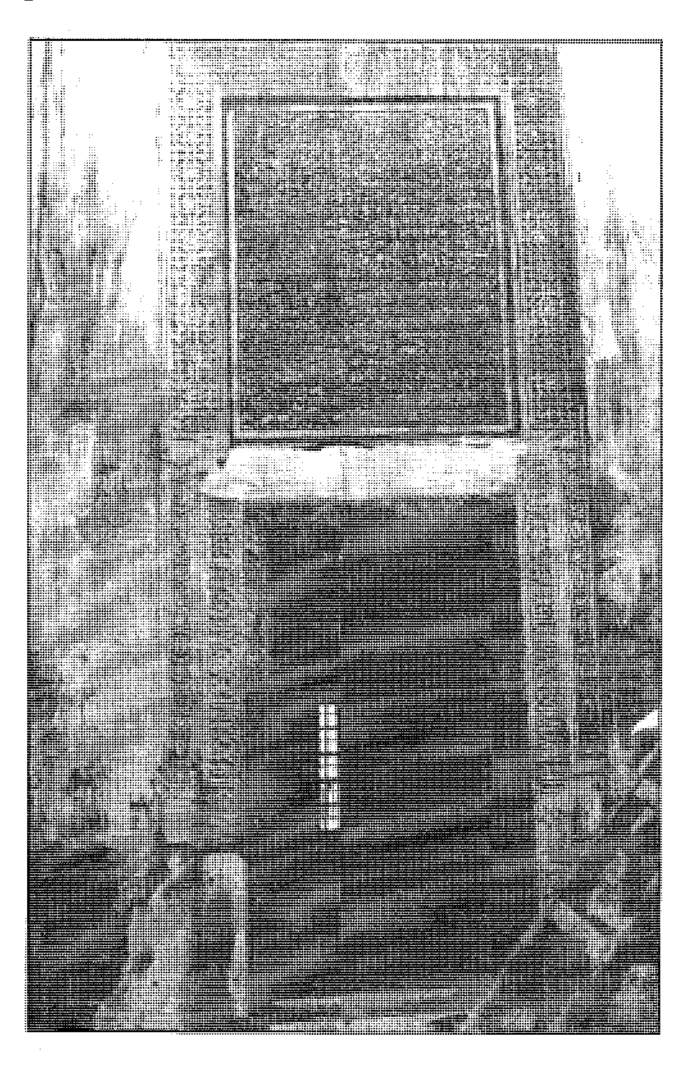




الصورة 58 : ضريح مولاي علي الشريف : عمليات الترميم 1969 - 1971

أشكال هندسية «نجمات ثماني عشرية وتشبيكات» داخل الإطار وأشكال زهرية «أغصان وزهرة الزئبق» في الإطار، واستعملت في صباغة هذه الأشكال الألوان الخضراء والصفراء والحمراء.

صفوة القول إن ضريح مولاي علي الشريف يمثل أروع تحفة عمرانية بتافيلالت يشعر الداخل إليه براحة نفسية وبدوق فني رقيق. تركز الوصف على القبة الجنائزية فقط باعتبارها الأقدم والجزء الأهم بالضريح.



الصورة 59 : ضريح مولاي علي الشريف : بعض النقوش الزخرفية

ب2. ضريح مولاي عبد الله الدقاق :

* **الموقع** : يقع هذا الضريح بداخل قصر مولاي عبد الله الدقاق في الجهة الجنوبية الشرقية، على بعد سبعمائة متر إلى الشمال الغربي من موقع سجلماسة. كان الضريح في أول الأمر عبارة عن قبة جنائزية منعزلة قبل أن يستقر بجوارها سكان قصري بحاير الأنصار (خزفيو القصر حاليا) وبحاير عزوز[69]، طلبا للتبرك والرحمة والأمان، بعد أن تم تخريب قصريهما في أواسط القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، نتيجة القلاقل القبلية بين حلفي آيت عطا وآيت يافلمان ونتيجة سياسة الثائر إبراهيم يسمر اليزدكي الذي قام بترحيل السكان وجمعهم في قصور معينة.

* **نبذة موجزة عن دفين الضريح** : كان مولاي عبد الله الدقاق من العلماء الكبار والفقهاء المشهورين الذين عاصروا السلطان مولاي إسماعيل وتخرج على يده عدة علماء منهم الشيخ ابي مدين دفين تلمسان بالجزائر وعلي بن ناصر الدرعي شيخ زاوية تامكروت وغيرهم كثير. وكان محط تقدير من لدن علماء عصره وأيضا من طرف السلطان مولاي إسماعيل الذي عينه مدرسا بمدرسة القصبة السجلماسية. وقام السلطان، لما سمع بوفاته، بإعطاء أوامره لأخيه وخليفته على تافيلالت مولاي الحران قصد الاعتناء بمقام هذا العالم، فعمل على بناء ضريحه ووضع على قبره دربوسا فريدا من نوعه صنع من الخشب ونقشت جوانبه بآيات قرآنية وشاهدة مقبرية تحمل تاريخ 1082 هجرية / 1670 ميلادية. ويذكر المؤرخ الضعيف الرباطي أن خليفة السلطان «سيدي محمد بن عبد الله بتافيلالت الباشا سعيد بن العياشي قام بتفقد وزيارة ضريح سيدي عبد الله الدقاق»[70].

(69) كلمة بحاير مفردها بحيرة وتعني عرصة أو حقول زراعية صغيرة مخصصة في بعض المنتجات الغذائية.

(70) الضعيف الرباطي (محمد بن عبد السلام) : **تاريخ الدولة السعيدة**، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر والتوزيع، جزءان، 1988، 877 صفحة، الجزء الأول (ص 346).

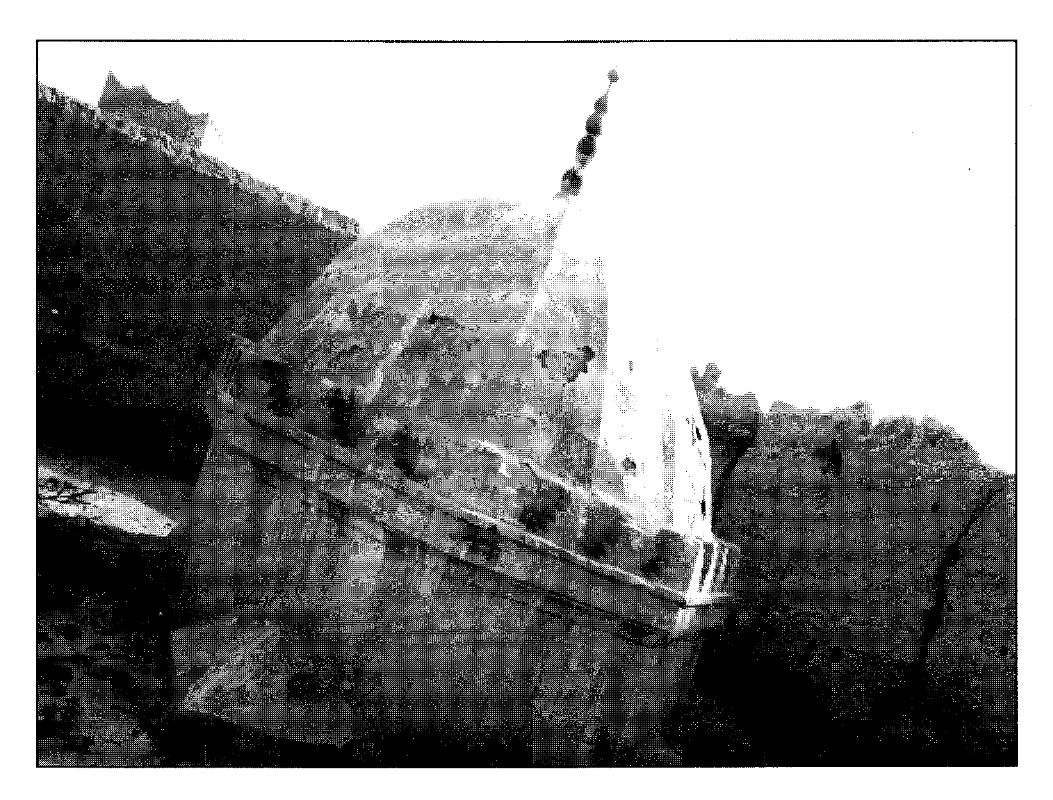
وبالرغم من المكانة العلمية البارزة التي حظي بها هذا العالم الجليل، فإن ما كتب عنه يبقى لحد الآن نادرا أو مجهولا. فلا نجد إلا شذرات قليلة جدا لا تشفي الغليل. ويشير مؤلف كتاب مصابيح البشرية في أبناء خير البرية نقلا عن صاحب كتاب الدرر البهية في الفروع الحسنية والحسينية، إلى أن سجلماسة هي «أول بلاد درس فيها العلم بالمغرب وقد تخرج منها أئمة كثيرون كالدقاق وأبي القطان وأبي القاسم الغازي وشيخه سيدي احمد بن عبد الله»[71]. أما صاحب كتاب التشوف فيقول إن «أبا عبد الله الدقاق توفي بفاس»[72].

* **المكونات** : يتكون ضريح مولاي عبد الله الدقاق الذي يقع حاليا على عمق حوالي متر ونصف من المستوى الحالي للقصر، من غرفة جنائزية رباعية الشكل تتخللها عدة سواري وتعلوها في الوسط قبة ثمانية الأضلاع. هذه القبة شيدت من الآجر وبلطت بالجبس من الداخل والخارج وتنحدر منها زجاجات خضراء على شكل بيض النعام، كما تزينها نقوش هندسية محززة (نجمات ومربعات ودوائر). يتم الدخول إلى الغرفة عبر ممر صغير مغطى، وتضم هذه الغرفة مكتبة حائطية صغيرة بها مصحف مخطوط كامل، كما تضم نوافذ لإدخال الضوء والهواء. أما قبر العلامة مولاي عبد الله الدقاق فقد وضع فوقه دربوس من الخشب زينت جوانبه بنقوش هندسية (حزوز متشابكة) وكتابات عربية أغلبها آيات قرآنية وهذه الكتابات ذات الخط المغربي المبسوط هي كما يلي من الأعلى إلى الأسفل ومن اليمين إلى اليسار[73] :

(71) الشباني الإدريسي (أحمد) : **مصابيح البشرية في أبناء خير البرية**، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1987 (ص 69).

(72) التادلي المعروف بابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى) : مصدر سابق (ص 156).

(73) لقد تعرض التابوت إلى بعض الإصلاحات مما أدى إلى مخالفة بعض الأفاريز المنقوشة مثل الإفريز الثاني والإفريز الثالث من الواجهة الجنوبية مع الإفريز الأول والإفريز الثاني من الواجهة الشمالية..



الصورة 60 : ضريح مولاي عبد الله الدقاق : القبة الجنائزية من الخارج

— الواجهة الجنوبية :

[بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ[74] ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين...][75].

[...لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا][76].

(74) القرآن الكريم : سورة البروج، الآية : 20 - 22.
(75) القرآن الكريم : سورة الأعراف، الآية : 180 هذه الآية لم تكتمل.
(76) القرآن الكريم : سورة الكهف، الآية : 109 هذه الآية هي تتمة للآية الواردة في الإفريز الأول من الواجهة الشمالية.

[...رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم[77] وصلى الله على سيدنا محمد وآله].

[إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور][78].

[إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون][79].

[قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد][80].

[بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد][81].

[كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور][82].

[لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء][83].

[رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبى انه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم][84].

---

(77) القرآن الكريم : سورة التوبة، الآية : 129 هذه الآية هي تكملة للآية الواردة في الإفريز الثاني من الواجهة الشمالية.

(78) القرآن الكريم : سورة فاطر، الآية : 28.

(79) القرآن الكريم : سورة الأنبياء، الآية : 101 - 102.

(80) القرآن الكريم : سورة الإخلاص كاملة.

(81) القرآن الكريم : سورة الفلق كاملة.

(82) القرآن الكريم : سورة آل عمران، الآية : 185.

(83)) القرآن الكريم : سورة الروم، الآية : 4 - 5.

(84)) القرآن الكريم : سورة الشعراء، الآية : 83 - 89.

– **في وسط هذه الواجهة** : نقشت شاهدة القبر وهي كما يلي :

[بسم الله الرحمن الرحيم / وصلى الله على سيدنا محمد / عمل هذا التابوت المبارك / للولي الصالح العالم العلامة / السيد عبد الله الدقاق / نفعنا الله ببركاته على يد / الشريف الحسني مولانا الحران / بن مولانا الشريف أحاطه الله / بلطفه في فاتح اثنين وثمانين / ألف وصلى الله على سيدنا محمد وآله/].

– **الواجهة الغربية :**

[بسم الله الرحمن الرحيم / وصلى الله على مولانا محمد].

[وربك الغفور ذو الرحمة][85].

[رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين][86].

[رب اغفر لي ولوالدي][87].

[رب هب لي من لدنك رحمة][88].

[رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين][89].

– **الواجهة الشمالية :**

[بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا، قل لو كان البحر مدادا...][90].

---

(85) القرآن الكريم : سورة الكهف، الآية : 8.

(86) القرآن الكريم : سورة الشعراء، الآية : 83.

(87) القرآن الكريم : سورة نوح، الآية : 28.

(88) القرآن الكريم : سورة آل عمران، الآية : 8 وقع خطأ في هذه الآية فهي كاملة : «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

(89) القرآن الكريم : سورة الأنبياء، الآية : 89.

(90) القرآن الكريم : سورة الكهف، الآية : 107 - 109.

[لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين][91].

[أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا[92] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه].

[قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون] [انه عليم بذات الصدور] [وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات][93].

[والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير، ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور[94] وصلى الله على سيدنا محمد].

– **في وسط هذه الواجهة** : نقشت اللوحة التالية:

[بسم الله الرحمن الرحيم/ وصلى الله على سيدنا محمد/ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر

---

(91) القرآن الكريم : سورة التوبة، الآية : 128.

(92) القرآن الكريم : سورة الكهف، الآية : 110.

(93) القرآن الكريم : سورة الأنعام، الآية : 162 - 165.

(94) القرآن الكريم : سورة فاطر، الآية : 31 - 34.

الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم وأولئك هم المهتدون][95].

– الواجهة القبلية :

لم ينقش فيها أي شيء ربما لوجود موضع القدمين في هذه الجهة.

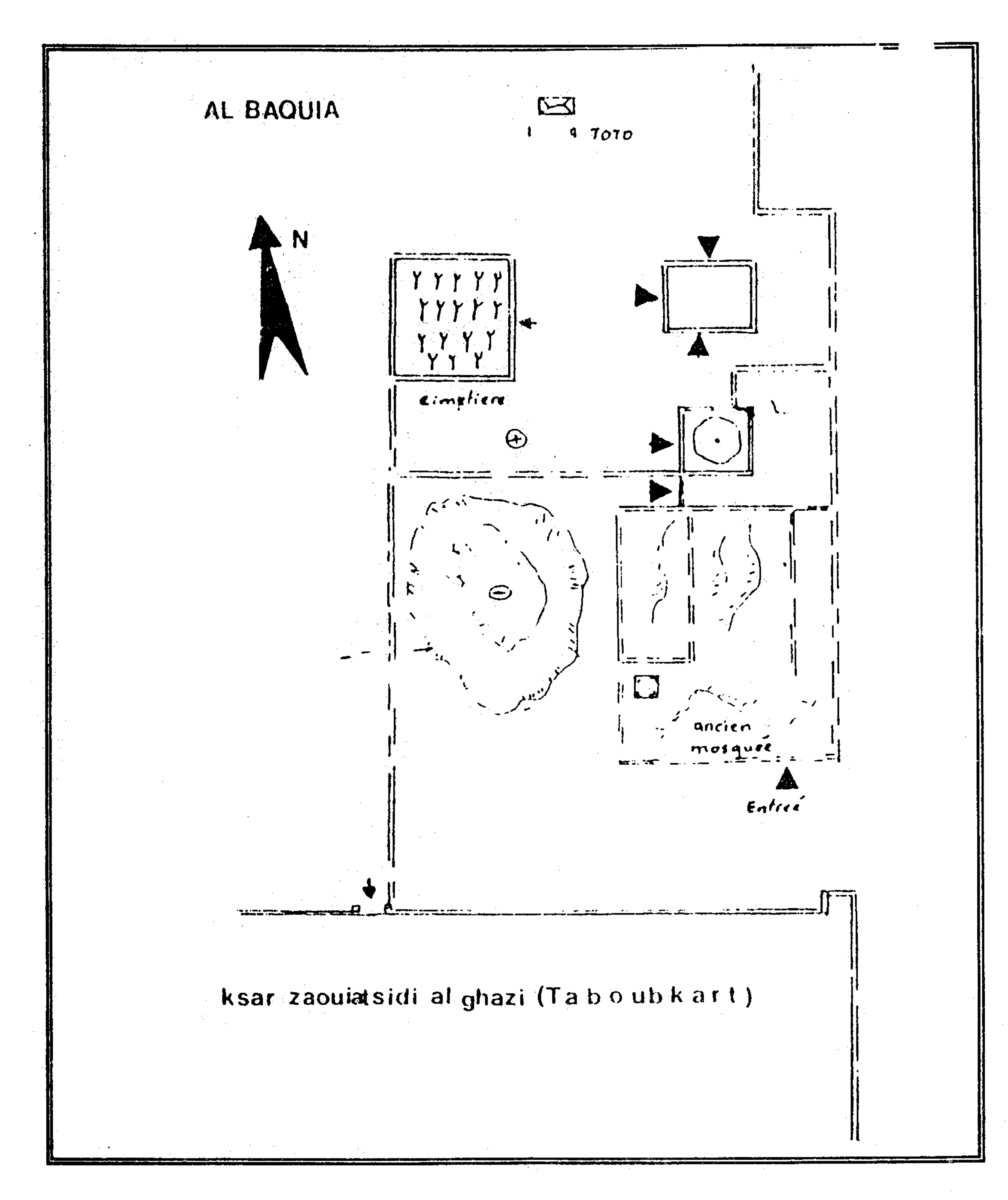
ج) الزوايـــا :

وتعتبر زاوية سيدي الغازي أحسن نموذج يمكن ذكره في هذا الصدد :

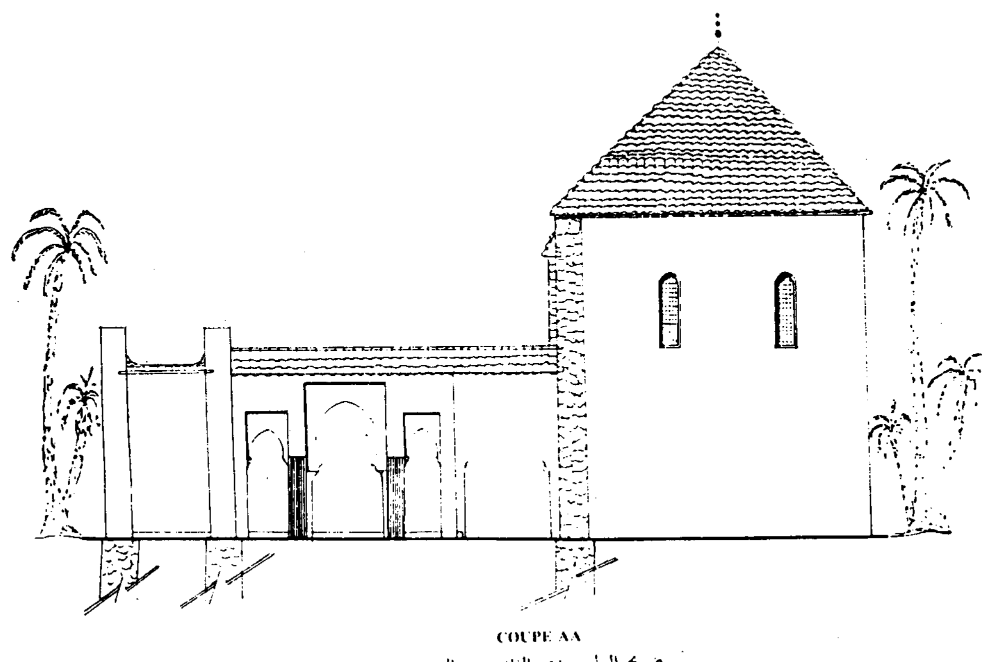
• **الموقع** : تقع هذه الزاوية جنوب واحة تافيلالت بمشيخة السفالات، يحدها جنوبا زاوية الماطي، وشمالا زاوية سيدي قاسم، وغربا زاوية سيدي عبد الرحمان بن علي وشرقا زاوية عمار.

• **نبدة تاريخية** : شيدت الزاوية الغازية أو تابوبكرت أو البوبكرية في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من طرف الشريف الإدريسي العلامة والزاهد الشيخ أبي القاسم الهادي الملقب بسيدي الغازي، السوسي الأصل والذي ازداد سنة 801 هجرية / 1403 ميلادية وتوفي حوالي سنة 878 هجرية / 1483 ميلادية. كان أبو القاسم طالبا متفقها في العلوم الدينية، ثاقب الذهن، سريع البديهة وحفاظا للقرآن. انتقل من سوس إلى تافيلالت في أواسط القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، فاستقر بقصر تبوبكرت وأسس به مسجدا لإقامة الصلاة وتعليم أصول الدين والفقه كما بنى الخلوة للتعبد قبل أن يشيد الزاوية. وتعتبر الزاوية الغازية من أشهر وأغنى الزوايا بتافيلالت باعتبار كثرة أملاكها والعدد الهائل من المريدين والزوار الذين يفدون عليها من كل أنحاء المغرب وخاصة قبائل بني مكيلد بالأطلس المتوسط وبعض سكان درعة والقبائل المحلية.

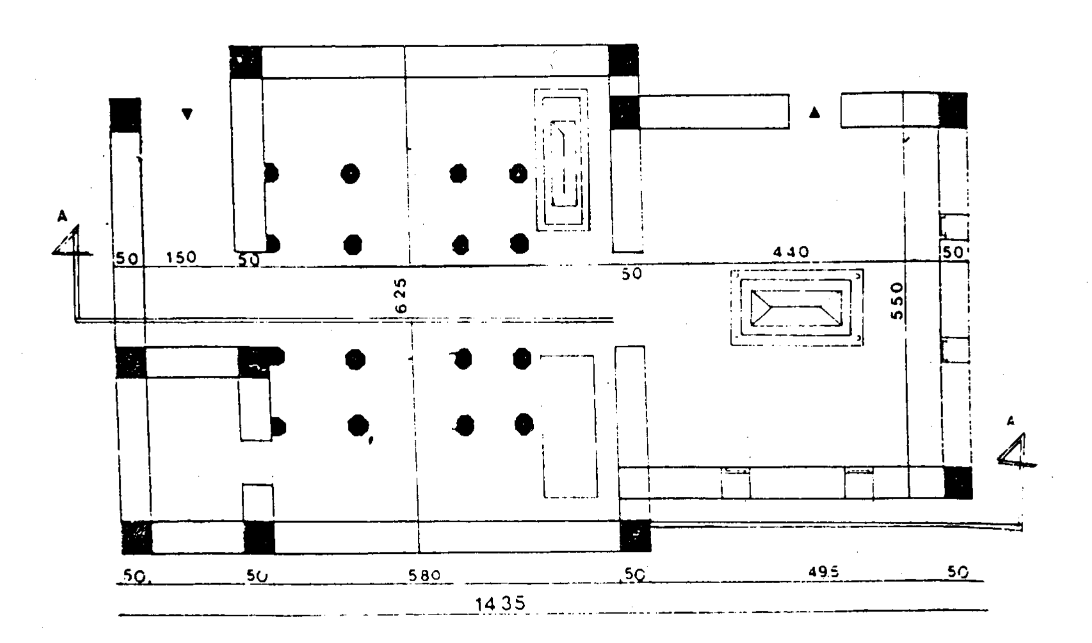
(95)) القرآن الكريم : سورة البقرة، الآية : 155 ـ 157.



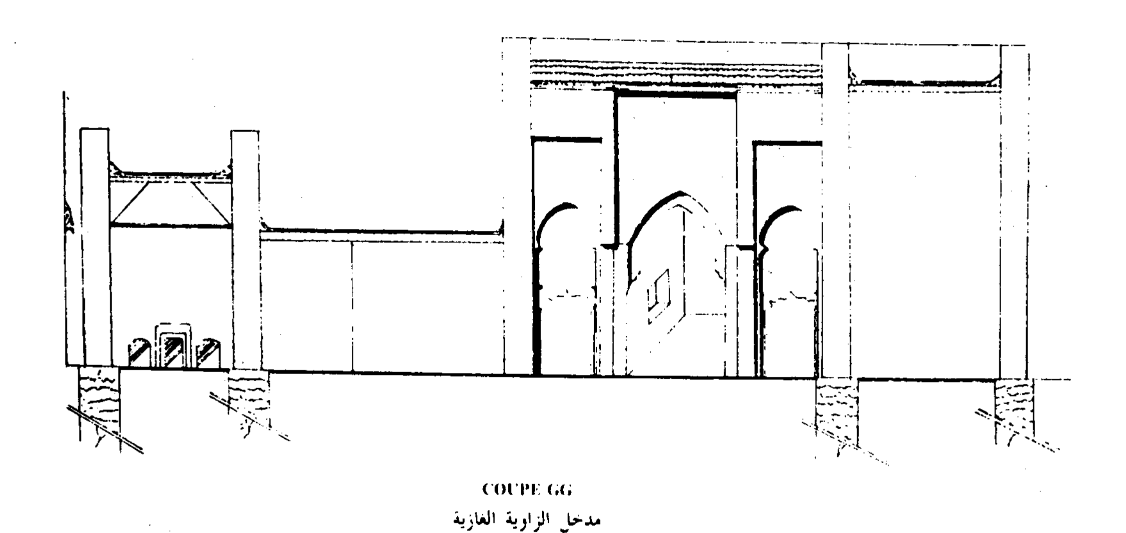
التصميم 42 : زاوية سيدي الغازي : المسجد العتيق والخلوة والبقيع



COUPE AA
ضريح الولي سيدي الغازي بن العربي
الواجهة أ أ



التصميم 43 : زاوية سيدي الغازي : ضريح سيدي الغازي بن العربي



COUPE GG
مدخل الزاوية الغازية
الواجهة ج ج

50 350 220 50 160 210 120 50 180 50 120 270
30 450 300 760 860 1040 50 50 180
470 5 120 290 250 50
1700
G

التصميم 44 : زاوية سيدي الغازي : مقطع وتصميم الدويرية

وتشتهر هذه الزاوية بطابعها الصوفي المتميز والمنبثق عن الطريقة الشادلية، كما أن شيوخها قاموا بنظم كتابات صوفية على شكل قصائد موزونة وذات رنة موسيقية ملحونة. ويعود الفضل في حظوة وتقدم الزاوية الغازية بشكل خاص إلى الشيخ والعلامة سيدي الغازي بن العربي. ويعتبر هذا الأخير المؤسس الحقيقي للزاوية، أخذ العلم عن شيوخ تافيلالت وعن شيوخ الزاوية الناصرية بتمكَروت، ودرس على يديه عدة علماء منهم التهامي المدغري وقام بتأليف عدة مخطوطات منها ذخيرة الكنوز الذهبية، والمجموع، وكتاب الرسائل والفوائد، وشرح منظومة ابن عاشر. توفي في بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ودفن بضريحه الواقع غرب الزاوية.

• **مكونات الزاوية** : تتكون الزاوية من ضريح الشريف سيدي الغازي بن العربي، والدويرية التي كان يسكنها الولي ويستقبل فيها الضيوف وهي مشكلة من قاعة الاستقبال والحريم والحمام وخزانة حائطية والبهو المخصص للنسخ والكتابة. من مرافقها أيضا توجد الدار الكبيرة التي تقام فيها الحضرة وينام بها الزوار، ثم المسجد والبقيع المخصص لدفن أولياء الزاوية وذويهم. الزاوية قام ببنائها المعلم إدريس من فاس، وتتزين بعدة زخارف سواء منها المصبوغة أو المنقوشة إما على خشب الأرز أو على الجص. أغلب هذه النقوش تتشكل من آيات قرآنية، ومن عبارات «العافية الباقية» أو «العز لله» ومن أشعار مستوحاة من قصيدة البردة للبوصيري. ونقشت معظم هذه الزخارف بالدويرية والضريح الذي تزينه كذلك بيض النعام وقبة على شكل البرشلة يغطيها القرميد يتوسطه جامور من النحاس.

وتحتضن الزاوية الغازية خزانة غنية بالمخطوطات والوثائق ذات الطابع الصوفي، منها ما كتبه أشياخ هذه الزاوية وخاصة سيدي الغازي أبي القاسم وسيدي الغازي بن العربي ومنها ما نسخه هؤلاء من جهات أخرى كالزاوية

الناصرية. إلا أن هذه الذخائر قد نهبت بشكل أو بأخر ولم يبق منها إلا النزر اليسير، وفيما يلي البقية الباقية منها :

اسم المخطوط	المؤلف	الموضوع
لباب الحكم ومطلع القمرين	سيدي الغازي أبو القاسم	حكم وسيرة ذاتية
ذخيرة الكنوز الذهبية	سيدي الغازي بن العربي	- حزب الأسرار وحزب الأنوار - قصيدة الهمزية في مدح الرسول ﷺ [أرجوزة الأربعين حديثا، أرجوزة التسول بأسماء الله الحسنى، أرجوزة مراتب الأولياء، أرجوزة في إكرام الضيف].
المجموع	سيدي الغازي بن العربي	قصائد منظومة من كلام الملحون الصوفي في مدح الرسول ﷺ وتضم وصايا وحكم متنوعة
كتاب الرسائل والفوائد	سيدي الغازي بن العربي	فوائد لفقراء الزاوية الغازية
شرح منظومة ابن عاشر	سيدي الغازي بن العربي	تفصيل أحكام الشريعة الإسلامية انطلاقا من منظومة ابن عاشر على المذهب المالكي
مصحف كريم من حجم كبير	غير معروف	قرآن كريم كامل
مصحف كريم من حجم 21 x 5 سم	غير معروف	قرآن كريم كامل
ظهير شريف	الملك محمد الخامس	عين بمقتضاه سيدي محمد بن أحمد الغازي المعروف بسيدي حمو مقدما للزاوية الغازية

2. مراكز إنتاجية :

أ) قصر بحاير الأنصار :

* **الموقع** : يقع على بعد كيلومتر واحد غرب موقع سجلماسة[96].

* **المؤسس وتاريخ البناء** : تقول الرواية الشفوية بأن هذا القصر كان يقطن به بعض الفخارين الذين تم طردهم بعد بناء القصبة السجلماسية في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

* **أهم المرافق المكونة للقصر** :

- السور الخارجي وشيد من الطابية وتتخلله تسعة أبراج مربعة الشكل،
- المدخل الرئيسي ويوجد بالجهة الجنوبية وبني بالآجر على أساس من الحجارة وتعلوه ستارة كانت مغطاة بالقرميد،
- ثلاثة أفران خزفية، واحد بداخل السور واثنان خارجه،
- بقايا معامل الخزف ولقى خزفية كثيرة جدا.

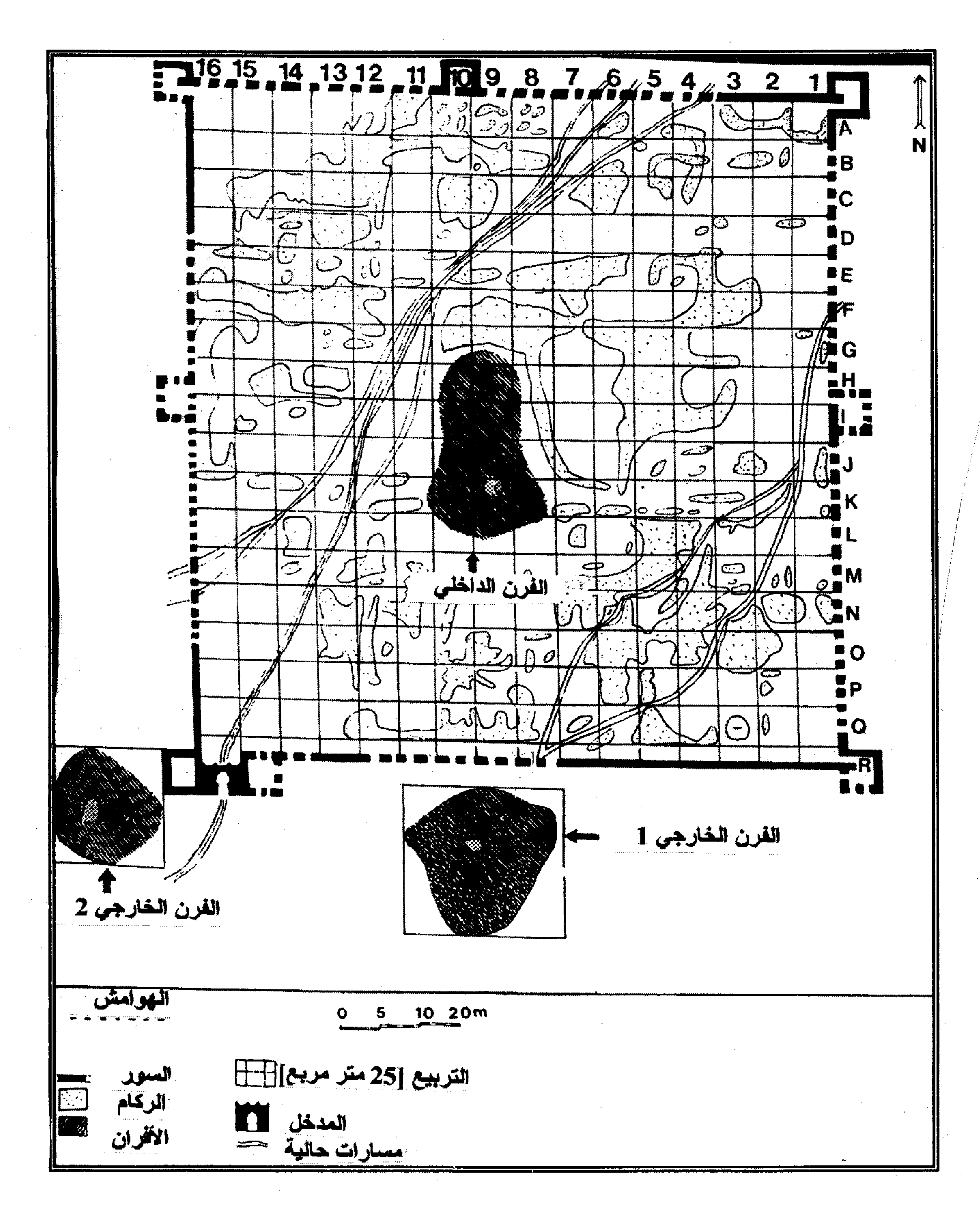
* **أهم الخصائص الزخرفية** : توجد على الباب الرئيسي للقصر :

وهي في أغلبها زخارف هندسية توجد في حالة يرثى لها.

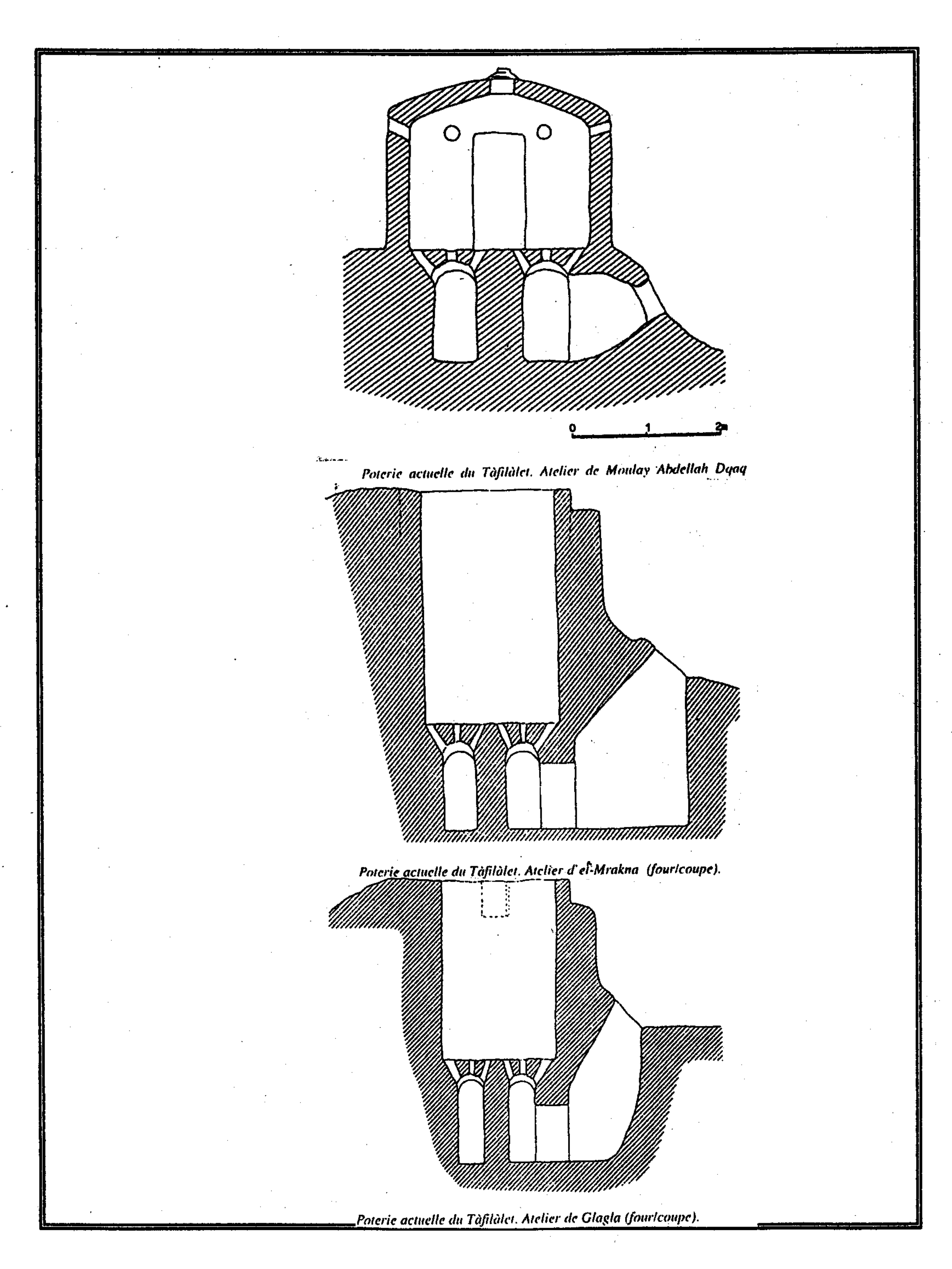
* **السكان وأنشطتهم** : قصر مهجور بعد أن رحل عنه سكانه في أواسط القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، واستقروا بقصر مولاي عبد الله الدقاق الحالي وحيث لا يزالوا يمارسون نفس المهنة.

---

(96) Carte topographique du Maroc, Feuille Erfoud, Echelle 1/100.000. NH-30-XX-2 ; Y = 75,9; X = 605,4.



التصميم 45 : قصر بحاير الأنصار : تصميم عام



Poterie actuelle du Tâfilâlet. Atelier de Moulay Abdellah Dqaq

Poterie actuelle du Tâfilâlet. Atelier d'el-Mrakna (four/coupe).

Poterie actuelle du Tâfilâlet. Atelier de Glagla (four/coupe).

التصميم 46 : الصناعة الخزفية الحالية بتافيلالت : تصميم الأفران

ب) قصر منوكة :

* **الموقع** : يقع بمشيخة واد إيفلي على بعد خمسين مترا جنوب شرق قصر آبار المخزن.

* **المؤسس وتاريخ البناء** : تقول الرواية الشفوية بأن هذا القصر كان يقطن به المولى علي الشريف، كما كان يسكنه الممارسون لحرفة الدباغة.

* **أهم المرافق المكونة للقصر** :

- السور الخارجي وشيد من الطابية وتتخلله ستة أبراج مربعة الشكل،

- المدخل الرئيسي ويوجد بالجهة الشمالية وينفتح على رواق مغطى ومنعرج،

- المسجد يتكون من بيت الصلاة ذات ثلاثة أساكب وسبع بلاطات، ومن بيت الوضوء وكتاب قرآني،

- الدور السكنية تتوزع بانتظام وفق امتداد الأزقة المغطاة.

* **أهم الخصائص الزخرفية** : وتوجد على الباب الرئيسي للقصر :

وهي نقوش هندسية على شكل عقود صغيرة تعلوها ستارة من القرميد الأخضر اللامع.

* **السكان وأنشطتهم** : يقطن القصر خليط من السكان منهم ما يطلق عليهم الأحرار ومنهم الذين يسمون بالحراطين وهم يشتغلون بالزراعة والحرف التقليدية [الدباغة بالخصوص] بلغ عددهم سنة 1982 ميلادية حوالي 482 نسمة موزعين على 59 منزلا.

خـــلاصـــة :

باستقراء لكل الفترات التاريخية التي شهدتها منطقة تافيلالت منذ اندثار مدينة سجلماسة إلى اليوم، يلاحظ أن كل فترة قد انفردت بطابعها المعماري الخاص، بالرغم من صعوبة المقارنة في العمارة المحلية المشيدة أساسا من الطابية. فكل حاكم حاول أن يخلد أعمالا عمرانية مازالت تشهد وتبرهن على ما تحقق من منجزات تتحدى عوادي الزمن وتدخل الإنسان. فإذا كان قصري تابوعصامت وأبو عام قد ورثا الكثير من وظائف سجلماسة الاقتصادية وخاصة التجارية وربما العمرانية، فإن القصور العلوية تعبر بحق عن غنى في العمارة والهندسة استمدتا جذورهما ولا شك من عمران المدينة الأم. فقد شيدت قصبة الريصاني التي اتخذها المولى امحمد قاعدة حكمه في إطار استراتيجيته الرامية إلى توحيد المغرب، كما قام السلطان المولى إسماعيل ببناء مائة وخمسة قصور قصد إيواء بعض أبنائه وأسرهم. وعمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتشييد عدة معالم وبترميم بعضها الآخر، كما أن المولى سليمان ترك بصماته الواضحة وذلك ببناء وإصلاح عدة قصور. أما السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام فقد ظل قلبه، طيلة حكمه، معلقا بتافيلالت، ففيها ولد وفيها ترعرع وتربى وفيها بويع ملكا على المغرب. وكان لحبه لهذه المنطقة أن خصها بعناية كبيرة من خلال الإشادة بعلمائها ورجالاتها، وتعيين ولي عهده سيدي محمد مكلفا بشؤونها والاعتناء بضعفائها وفقرائها ومن خلال كذلك تمكين أبنائه من الاستقرار بها ببناء عدة قصور خاصة بهم. من هؤلاء الأبناء نذكر المولى سليمان بقصبة الريصاني، المولى عبد السلام وشقيقته لالة الباتول والمولى الحسين والمولى عبد الله بآبار، سيدي محمد بأولاد عبد الحليم والمولى أبي الغيث بالفيضة فضلا عن قصر تغمرت الذي كان آية في الإبداع وجاء السيل فجعله في خبر كان، قبل أن يجدده ولده سيدي محمد وكذا حفيده المولى الحسن الأول من بعد.

هذه القصور والقصبات منها من يرجع إلى الفترة السجلماسية ومنها من يعود إلى فترات لاحقة، إلا ما يجمعها ولا شك أنها استمدت معظم مقوماتها المعمارية من مواد البناء الأساسية وربما حتى التصميم، من المدينة الأم «سجلماسة». وهذا ما يعطي أهمية خاصة لهذه المنوغرافية في رصد تطور وتقاليد البنيان بهذه المنطقة وكذلك في سد ثغرة قلة المعلومات المصدرية المتعلقة بعمران سجلماسة.

خاتمة عامة

ظهرت مدينة سجلماسة بجلاء على مسرح الأحداث التاريخية المغربية مع بزوغ الحضارة الإسلامية، وحظيت باهتمام واسع من لدن عدد من الكُتاب القدامى، وجذبت منطقتها أعين المستكشفين الأوربيين منذ القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، وكانت موضوع دراسات جامعية داخل المغرب وخارجه، وخضع موقعها لأبحاث أثرية من طرف بعثات علمية مغربية وأجنبية. وابتداءً من سنة 1986 كان هذا الموقع محط انشغال المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، واستمرت مع ذلك في مواراة الكثير من أسرارها الدفينة وفي استقطاب المزيد من فضول الباحثين. فلا غرو في ذلك لما لعبته مدينة سجلماسة من أدوار مصيرية في تاريخ المغرب بصفة خاصة.

وفي هذا الإطار سعت هذه الدراسة إلى مقاربة ظروف تأسيس المدينة، وتطورها العمراني بناء وزخرفة، وتصميما ومحتوى، وذلك في تقاطع تام مع عدد من التخصصات كالأركيولوجيا، والطبوغرافيا، وعلم دلالة أسماء الأماكن، ومن المصادر المكتوبة ككتب الجغرافيا والرحلات والتراجم والمناقب والمخطوطات والوثائق، إضافة إلى الرواية الشفوية.

لقد سمح المنهج المعتمد باستجلاء العديد من مظاهر عمران هذه المدينة، ومكن أيضا من تصويب العديد من الأحكام حولها، والحسم في بعض الافتراضات، ودعم بعضها، في رحلة جمعت أحيانا بين فك الألغاز، وحل المتناقضات، وفهم الروايات، وربط المتكاملات، والكشف أيضا عن عدد من المعطيات الجديدة.

لقد أثرت الظروف الطبيعية والتركيبة البشرية والمؤهلات والاقتصادية، بشكل مباشر على نمط وتطور عمران مدينة سجلماسة. فهي تقع بين نهرين وبالقرب من موضع يسمى «أجلف» تغذيه عيون كثيرة. وقد أغفلت

الكتابات القديمة والدراسات المعاصرة الإشارة إلى عملية تحويل مياه وادي زيز عن طريق شق قنوات وإقامة سدود تلية للاستغلال الجيد للمياه. ذلك أن صور الأقمار الاصطناعية كشفت عن غنى الطبقات الجيولوجية القريبة من السطح بفرشات مائية مهمة، وسمحت بتحديد موضع العين الرئيسية للماء بسجلماسة على طول الحافة الشمالية لمرتفع الجبيل. غير أن مياهها لم تكن كافية، وهذا ما يفسر لجوء السكان إلى بناء سدود تلية على نهري زيز وغريس لتلبية حاجيات الواحة بشكل أفضل. كما مكنت تلك الصور من الكشف عن تركز الأراضي الصالحة للزراعة وأهم الأنشطة الفلاحية بالجزء الشمالي من الواحة.

كما اشتهرت سجلماسة بإنتاج الحبوب وتربية المواشي خاصة الأغنام والماعز، واحتضنت عدة صنائع مثل الصناعة الخزفية التي حظيت بمكانة خاصة في اقتصادها وفق ما تم الكشف عنه من اللقى في عدة مواقع أثرية مغربية وسودانية. لكن يبقى النشاط التجاري أهم ركائز الاقتصاد السجلماسي وفي مقدمته تجارة القوافل الصحراوية، ويعتبر من أهم العناصر التي أثرت بقوة في التطور العمراني للمدينة. فقد شكل الذهب محور المبادلات التجارية، وأهم الموارد على الإطلاق، ومكن ذلك من إقامة عدة دور لضرب النقود، واستقطاب التجار من مختلف الأصقاع. وبذلت كل التشكيلات السياسية التي حكمت سجلماسة مجهودات متفاوتة، للحفاظ على سلامة المسالك التجارية وتوفير الأمن الداخلي لتأمين تدفق هذا المعدن النفيس.

وهكذا، أثر النشاط الفلاحي على تنظيم المدينة وطبيعة السكن بها، فقد كانت عبارة عن حاضرة مجمعة تمتد على طول وادي زيز، وتنتشر بضاحيتها بنايات متفرقة يستقر بها عدد من الفلاحين. وقد تأرجح اقتصاد المدينة بين

احتكار السلطة الحاكمة التي استهدفت تحقيق الأرباح وإغناء خزينتها والتحكم بشكل أفضل في المدينة. وفي فترات أخرى ساد نوع من الرواج الاقتصادي المتفتح استفاد منها المنتجون والتجار على الخصوص.

ومن الناحية الاجتماعية، استقطبت منطقة سجلماسة عبر تاريخها أعدادا هائلة ومختلفة من العناصر البشرية. فقد استقر بها الإنسان منذ عهود غابرة (العصر الحجري القديم) وعرفت فيما بعد توافد مجموعات إثنية وعرقية متباينة في الأصول واللغة والمعيشة والعادات. وإذا صح اعتقادنا فإن سكان سجلماسة كانوا متجمعين داخل أسوار المدينة كأسر وعائلات لها منازلها الخاصة ولها أيضا حقولها ونشاطها التجاري أو الحرفي، غير أنهم مع اندثار هذه المدينة في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، تفرقوا عبر الواحة فبنوا قصورا محصنة للحماية والاستقرار. وقد اتخذت هذه القصور شكل تجمع سكاني داخل بناية موحدة تحاط بسور ضخم وعال تتخلله عدة أبراج، وله مدخل رئيسي واحد. وبداخل القصر يوجد المسجد، والأروقة المغطاة، والساحة العمومية والدور السكنية الموزعة عبر الأزقة.

كما أن سجلماسة كانت مركز استقطاب لرجالات العلم والمعرفة وكذا لأرباب المال والتجارة. لذلك كانت بفعل ساكنتها المتنوعة وبفعل تفتحها على جميع التيارات الفكرية والمذهبية قبلة لتبادل الرأي ولحرية الاعتقاد وللتسامح الديني حيث تواجدت بها مختلف المعتقدات: الخارجية والسنية والشيعية والصوفية، إضافة إلى أهل الذمة.

كما لا يمكن إنكار أن عمران سجلماسة تأثر سلبا وإيجابيا بالظروف السياسية المتميزة بعدم الاستقرار، والتأرجح بين الاستقلال والتبعية، وأثر ذلك كثيرا في نمط عمرانها سلبا وإيجابيا. فقد شيدت مدينة سجلماسة سنة

140 هجرية / 757 ميلادية من طرف خوارج مكناسة الصفرية بزعامة أبي القاسم سمكو، وكانت في أول الأمر ما بين سنة 140 هجرية / 757 ميلادية وسنة 447 هجرية / 1054 ميلادية عبارة عن إمارة مستقلة تعاقب على حكمها كل من المدراريين والمغراويين. واستطاع أمراء سجلماسة خلال هذه الفترة الحفاظ على استقلالهم، بالرغم من الأطماع الخارجية – الفاطمية بإفريقية والأموية بالأندلس – وبعض النزاعات الداخلية.

وابتداء من سنة 447 هجرية / 1045 ميلادية وإلى غاية نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، دخلت سجلماسة بصفة نهائية تحت سيطرة الحكم المركزي وتحولت بالتالي إلى ولاية من ولايات الدولة المرابطية ثم الموحدية من بعدها وأخيرا المرينية. وأصبحت المدينة الممول الرئيسي لخزينة الدولة المركزية، وقد جعلها ذلك هدفا لكل حركة تطمح في السيطرة على المغرب الأقصى أو الغرب الإسلامي ككل أو على الأقل تهدف إلى التحكم في تجارة القوافل. وشهدت تبعا لذلك توسعا عمرانيا كبيرا، وبالمقابل كانت مسرحا لعدة صراعات، فقدت المدينة على إثرها الكثير من بريقها، بل وأصبحت وضعيتها السياسية غامضة في نهاية الفترة المرينية، انتهت بتخريبها.

وتبقى الفترة التي تلت القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي غير معروفة بدقة، وظل اسم سجلماسة قليل التداول، إلا أنه لم يعد يمثل المدينة وإنما المنطقة ككل.

مع بداية الدولة العلوية (حوالي سنة 1037 هجرية / 1630 ميلادية) استعادت منطقة سجلماسة بعض أهميتها. فكانت محط عناية من لدن معظم السلاطين العلويين، إذ قاموا بزيارتها وحاولوا إحياء بعض أمجادها. وقد عرفت المنطقة تنمية اقتصادية ومنجزات عمرانية كبيرة، لازالت معالمها

بارزة إلى اليوم مثل القصبة السجلماسية، وقصر أولاد عبد الحليم، وقصبة الفيضة، وقصبة آبار وغيرها.

ويستنتج مما سبق أن النمط المعماري السجلماسي ارتبط بشكل أو بأخر بالمتغيرات الاقتصادية، والسياسية والدينية والاجتماعية التي عرفتها المدينة مع تعاقب العصور. وقد تمكنت هذه الدراسة من الوصول إلى معرفة بعض المكونات المعمارية للمدينة والتمييز بينها، وفق انتمائها إلى مجال عمومي أو مجال خاص، وإلى ما هو مؤسسة ذات طابع ديني أو سياسي، وإلى ما هو مرفق سكني أو مركز اقتصادي. كما أن الاعتماد على الصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية الملونة، مكننا من وضع خريطة مدققة عن المجال وما تحت السطح وعن التخطيط المعماري والتوسع العمراني بالمنطقة. هذه التشكيلات البنائية تغيرت بطبيعة الحال وعرفت مراحل من التوسع أو الانكماش من عصر إلى آخر.

من جهتها قدمت الأبحاث الأركيولوجية بموقع سجلماسة عدة نتائج وكشفت عن معطيات معمارية مهمة لم ترد في المؤلفات المكتوبة بتفصيل. من أهمها ذكرا لا حصرا المسجد الجامع والتطورات البنائية التي عرفها منذ فترة المرابطين وإلى غاية العصر العلوي الأول، ثم السور الخارجي من حيث مواد بنائه، ومن حيث امتداده ومكوناته. كما قدمت معلومات عن نمط السكن السجلماسي من حيث التصميم، مواد البناء والمرافق وأيضا عن المنشآت الإنتاجية مثل الصناعة الخزفية من حيث تمركز معاملها وتطورها ومنتجاتها والأدوات المستعملة. كما كشفت التحريات الأثرية أيضا عن بعض التجهيزات المائية كالسدود والقنوات والأحواض والخطارات وغيرها.

وبصفة تفصيلية، يمكن القول إن الحفريات الأثرية بموقع سجلماسة وإن اتخذت طابعا ظرفيا، كانت مبادرة أولية لمعرفة خصوصيات موقع المدينة

«العامرة» أو «المردومة» اعتمادا على انجاز أسبار متعددة في أماكن مختلفة، قصد الحصول على المعطيات الأساسية للبقايا الأركيولوجية بهذا الموقع. وبالرغم من الصعوبات الكثيرة التي يطرحها موقع سجلماسة الأثري، فإن هذه الحفريات تمكنت من تسليط الأضواء على العديد من المكتشفات يمكن إجمالها فيما يلي :

– أظهرت حفريات المسجد الجامع، أن هذا الأخير يعتبر من المعالم العمرانية التي تحظى دائما بعناية الحاكمين والمحكومين على السواء، فكل يعمل حسب إمكانياته حتى يكون المسجد في أحسن حلة. ولعل هذا ما يفسر المستويات الأثرية المتنوعة التي كشفت عنها الحفريات والتي تمثل سجلا تاريخيا لمراحل البناء والإصلاح بالمسجد على مرور مختلف العهود. وكشفت هذه الحفريات النقاب عن أربع مستويات مختلفة على الأقل :

• مستوى ينتمي إلى ما قبل وصول المرابطين أو إلى فترة سيطرتهم النهائية على سجلماسة،

• مستوى توسيع المسجد في عهد الموحدين،

• مستوى التجديد على يد السلطان مولاي إسماعيل

• مستوى إعادة البناء من طرف السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

– محاولة تحديد وظيفة البناية التي تقع وسط وادي زيز والتي يفترض أنها عرفت مرحلتين من الاستغلال: الأولى ربما كحمام عمومي والذي تعبر عنه الطبقات الأثرية السفلى التي يتراوح عمقها بين متر واحد ومترين ونصف أمتار. المرحلة الثانية تمثلها الطبقات العليا وهي عبارة عن حوض وقناة مائية، وهما يشكلان ولا شك أجزاء من الناعورة ترتبط بشبكة مائية كانت

تزود مرافق سجلماسة أو القصبة السجلماسية بما تحتاجه من المياه سواء المستعملة في الشرب أو السقي.

– وقدمت حفريات البعثة المغربية الأمريكية معلومات هامة حول السور الغربي لسجلماسة. فقد كشفت الأسبار المنجزة داخل بعض الأبراج عن مستويين مختلفين في البناء ويقعان فوق مستوى سابق يمكن أن يؤرخ بالقرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أو القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

– وأثبتت الدراسة الطبوغرافية التي قام بها طوني ويلكنسن Tony Wilkinson أن سجلماسة كانت عبارة عن مدينة تمتد على طول وادي زيز وكانت لها أربعة أبواب رئيسية هي : باب الساحل أو الشرق قرب قصر أمسيفي، وباب القبلة أو الجنوب ويقع بين قصري وطارة وكَاوز، والباب الغربي يوجد قرب ضريح مولاي عبد المؤمن وباب فاس بالشمال قرب قصر المنصورية. كما أبانت التحريات أن سجلماسة كانت محاطة من الشمال والجنوب بعدة أرباض ومعامل صنائعية.

– تدقيق المعرفة بموقع سوق ابن عقلة، إذ يلاحظ من خلال الصور الجوية والمسح الأثري أن هذا الموقع يمتد على مساحة تتراوح ما بين كيلومتر واحد وكيلومترين مربعين. كما تم معاينة طريق ضيق ومستقيم يربط بين موقعي سجلماسة وسوق ابن عقلة. وتوصلت الأبحاث إلى اكتشاف بقايا بنايات مستطيلة تحدها المقبرة في الشمال وفي الجنوب من الطريق التي تخترق هذا الموقع. وتوجد في الوسط تشكيلات عمرانية مربعة ومحصنة تمتد على مسافة 90 متر من الشرق إلى الغرب، وعلى 80 متر من الشمال إلى الجنوب. ويظهر من هذه البقايا أنها كانت تمثل فندقا أو قصبة، وأن هذا السوق كان يحيط بالحقول ويمثل امتدادا طبيعيا للمدينة الأم

«سجلماسة» وكان يمثل محطة لقوافل التجارة البعيدة الآتية إلى سجلماسة أو الذاهبة منها.

– الخزف المكتشف خلال هذه الحفريات يمكن تصنيفه إلى ثلاث مجموعات: الأولى توجد في الطبقات العليا وتنتمي إلى الصناعة الخزفية البحايرية والمؤرخة ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي [تاريخ بناء القصبة السجلماسية] وبداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي [تاريخ تخريب القصبة]. يتميز خزف هذه المجموعة بوجود طلاء لامع ذي لون أخضر أو أصفر أو بني وأهم أوانيه هي الأقداح، والجرات والصحون. ويضاف إلى هذا الصنف الخزف المستورد من المناطق والمدن الأخرى وخاصة من مدينة فاس.

المجموعة الثانية ترجع إما إلى المركز الخزفي المشيد على أنقاض مدينة سجلماسة ابتداء من نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أو بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وإلى غاية تشييد القصبة السجلماسية في نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، أو إلى الواردات من مصانع أخرى.

المجموعة الأخيرة وجدت بالطبقات السفلى للأسبار وترجع إلى المعامل السجلماسية الواقعة بغرب وادي غريس وإلى مراكز أخرى قريبة أو بعيدة. وتؤرخ ما بين القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ونهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وتتميز بتقنية إنتاجية عالية وبتكوين صلصالي جيد يتخذ لونا أصفرا أو أبيضا مع سمك رقيق وتمثل أغلب قطعها الأواني ذات الاستعمال المنزلي. وتنتمي القطع الخزفية المجمعة على السطح بموقع سوق ابن عقلة، في أغلبها إلى الصنف الأخير. ويظهر أن الآنية المستوردة كثيرة جدا بهذا الموقع بالمقارنة مع ما يوجد فوق موقع سجلماسة.

– وقامت البعثة الأمريكية ولأول مرة بإنجاز تصميم طبوغرافي وأثري لموقع سجلماسة في جزئه الأوسط. كما أخذت رفوعات لواجهات الطبقات الأثرية وخاصة منها الواقعة بالجهة الشرقية. هذه الرفوعات أكدت أن موقع سجلماسة تعرض لعدة تغييرات ارتبط بعضها بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المدينة خلال معظم فترات تاريخها وبالخصوص في نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وكان من نتائجها أن قام السكان بهدم سور المدينة والارتحال عنها نهائيا للاستقرار بالضواحي. ومنها من له صلة بما تذكره الرواية الشفوية والدراسة الجيومورفولوجية من كون سجلماسة تعرضت لفيضانات مهولة أو إلى زلزال قوي مما أدى إلى تخريبها بالكامل. ويوضح المقطع الاستغرافي للجهة الشرقية والمكتشفات الخزفية، هذا الخلط والاضطراب اللذين عرفهما موقع سجلماسة. فاللقى الخزفية تكون جد مختلطة في معظم الطبقات، مما يجعل من الصعب أحيانا التمييز بين الخزف السجلماسي المنتمي لما قبل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وبين الذي يعود إلى الفترات اللاحقة.

– دراسة البقايا النباتية التي توصلت اعتمادا على النماذج المنتقاة من الطبقات الأثرية إلى تحديد العينات التالية :

* العنب (Vitis Vinifiera) : وجاءت من المنطقة السكنية بالجزء الجنوبي، ومستويات أسفل المسجد. وكلها حسب التحليل بواسطة الكاربون المشع C 14 ترجع إلى فترة المرابطين وربما إلى ما قبل هذه الفترة.

* الذرة (Hordeum) : وكانت تحرث بكثرة بمجال سجلماسة وتؤكل خاصة كخبز.

* الحشائش الطبيعية (Poaceae) : وتستعمل في تغذية الماشية.

* القمح (Triticum) : ويمثل 32 في المائة من كل النماذج وكان من بين المواد الغذائية الأكثر استهلاكا.

* التمر (Dactylifera du Phénix) : بالرغم من أهميته الغذائية حاليا بواحة تافيلالت، فإن النماذج المنتقاة منه ظلت قليلة ويرجع هذا ربما إلى إعادة استعمال نواته في الغرس أو في العلف ومن النادر أن يرمى بها على الأرض.

– وكشفت دراسة بقايا العظام أن تغذية سكان المغرب الأقصى عامة وسجلماسة بصفة خاصة خلال ما يطلق علية بالعصر الوسيط تتشابه إلى حد كبير مع تغذية المغاربة اليوم: إذ أن استهلاك اللحم يرتكز أساسا على الماعز في الأصل، والغنم وبعض الدواجن في الدرجة الثانية. وهو نفس ما أكدته دراسات مشابهة بمواقع مغربية أخرى وخاصة بالقصر الصغير[1] بشمال المغرب.

واعتبارا للدور السياسي البارز الذي لعبته سجلماسة أولا كعاصمة إمارة في عصر بني مدرار وبني مغراوة، ثم كعاصمة أهم إقليم على عهد المرابطين والموحدين والمرينيين، فإنها اشتملت على عدة مرافق عمرانية مهمة مثل المسجد الجامع، ودار الإمارة، والحصن أو العسكر، والأسواق، والمعامل الصناعية، والمنازل، والحمامات، والبساتين، والعرصات... إضافة إلى الشوارع والأزقة المتشعبة. كما أن المدينة كانت محصنة بسور عال ومتين يتوفر على أبواب قوية وأبراج حصينة من أجل الدفاع وصيانة الأمن الداخلي للسكان.

أما التقنية المعتمدة في بناء سجلماسة فيمكن حصرها خصوصا في الطابية التي تعتمد في تشييد الأسوار، والطوب والآجر في بناء الأعمدة والدعائم

(1) (Redman (Charles.L) : "Survey and test excavation of six medieval islamic sites in northern morocco", *Bulletin d'Archéologie Marocaine*. Tome : XV ; 1983 - 1984. 33 figures dans le texte (pp. 311 - 49).

والشرفات، والأحجار في إقامة الأسس السفلى للجدران قصد اتقاء الفيضانات والرطوبة، والخشب في تركيب الأبواب والسقوف والزخرفة، والخزف في تزيين الأرضيات والواجهات، والجبس والجص في التبليط والنقش.

ونظرا لموقعها الهام وما يوفره من إمكانيات طبيعية وموارد اقتصادية، فإن سجلماسة كانت في معظم الفترات التاريخية، محط أطماع داخلية وخارجية مما جعل معالمها العمرانية تتعرض عدة مرات للهدم ولإعادة البناء قبل أن تمحى من الوجود نهائيا في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وبعد هذا التاريخ عرف موقع سجلماسة مرحلتين من الاستغلال تتمثل أولاهما في إقامة مصانع الخزف ما بين القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي والقرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. أما المرحلة الثانية فتهم بناء القصبة السجلماسية أو الإسماعيلية التي بنيت من طرف السلطان مولاي إسماعيل في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي والتي رممها وأعاد بناءها السلطان سيدي محمد بن عبد الله في أواخر القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، قبل أن تخرب نهائيا مع بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. وكانت تضم المسجد الجامع، والمدرسة، والحصن، وبعض المنازل والسور الخارجي.

ويظهر أن معمار سجلماسة كان يتميز بالجمالية، ويدل على ذلك المتبقي منه على شكل قصور وقصبات، وهذا ما يبرز مهارة المعلم –البناء السجلماسي الذي حاول أن يمزج بين مختلف الأشكال الزخرفية في تناسق تام وبدون أن يطغى شكل معين على الآخر. هذه القصور والقصبات منها من يرجع إلى الفترة السجلماسية ومنها من يعود إلى فترات لاحقة، إلا أن ما يجمعها ولا شك كونها استمدت معظم مقوماتها المعمارية من مواد البناء الأساسية وربما

حتى التصميم، من المدينة الأم «سجلماسة». وهذا ما يعطي أهمية خاصة لمنوغرافية المعمار المتبقى حاليا بتافيلالت، في رصد تطور وتقاليد البنيان بهذه المنطقة وكذلك في سد ثغرة قلة المعلومات المصدرية المتعلقة بعمران سجلماسة.

وإذا كانت هناك عوامل شتى قد دفعت إلى بناء هذه القصور الكثيرة بشكل أو بآخر، فإن ثمة أسباب مباشرة تدخلت بقوة في طريقة تزيينها وزخرفتها، خاصة وأن القصر كان عبارة عن مؤسسة تجمع في طياتها بين الطابع الديني والمدني والعسكري. وهي مؤشرات ترتبط قبل كل شيء بواقع الحياة الاجتماعية وبظروف المنطقة وبتراكمات حضارية لأحقاب تاريخية متلاحقة.

وفي جملة واحدة، يمكن التأكيد أن تنوع روافد هذا العمل المتواضع، قد مكن من إضافة لبنة جديدة في دراسة معمار هذه المدينة، وفتح المجال لتساؤلات جديدة، تنتظر المزيد من الجهد للكشف عن غموضها من خلال تفعيل التقاط الصور الجوية، وصور الأقمار الاصطناعية، وتكثيف التنقيبات الأثرية، والبحث عن باقي المصادر الدفينة. وهي تساؤلات وإشكاليات في حاجة إلى أجوبة تراكمية كاملة وإلى خريطة أثرية شاملة بإمكانها أن تسد الخلل وتحد من الافتراضات والخيال حول مدينة تخبئ لنا المزيد من الحقائق والأسرار.

البيبليوغرافيا

اعتمدتُ في إعداد هذه البيبليوغرافيا على منهجية موضوعاتية ووفق تصنيف أبجدي وكرونولوجي. وقد بدأتها بالمخطوطات والوثائق، تلتها المصادر والمراجع العربية، ثم المراجع غير العربية وختمتها بالرسائل والأطروحات الجامعية المرقنة. كما حاولت الفصل في المراجع بين المؤلفات وبين المقالات الواردة في المجلات والدوريات :

I ـ المخطوطات والوثائق :

1 ـ المخطوطات :

- الخزانة الملكية : **المخطوط رقم 1057 د**.
- الخزانة الملكية : **المخطوط رقم 5345 د**.
- الخزانة العامة : **مخطوط الإحياء والانتعاش. رقم 1433 د**.
- الفيلالي المعروف بابن دفين طيبة الشريفة (العربي بن عبد السلام بن أحمد) : **الجوهر الشفاف**، مخطوط يوجد بجامعة أكسفورد بإنجلترا ويرجع تاريخه إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل وتوجد نسخة منه بمركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني.

2 ـ الوثائق :

- مديرية الوثائق الملكية : **مجموعة من الوثائق الخاصة بمنطقة تافيلالت** : وعددها 24 وثيقة عبارة عن رسائل مخزنية ذات مضامين مختلفة وتؤرخ ما بين سنتي 1248 و1268 هجرية/1838-1858 ميلادية.

II ـ التاريخ والجغرافيا :

1 ـ المصادر :

• البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد) : **كتاب المسالك والممالك**. ترجمه وحققه البارون ذي سلان le Barron de Slane تحت عنوان : زالمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" "Description de l'Afrique Septontrionale". 1857 Alger الجزء الخاص بالمغرب والسودان ترجم وطبع بباريس سنة 1968. أخر طبعة من تحقيق أدريان فان ليوقن وأندري فيري. قرطاج، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، جزءان 1992.

• ابن أبي زرع (أبو الحسن علي الفاسي) : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. الرباط، دار المنصور 1973.

• ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) : **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي. الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث. خمس مجلدات 1997.

• ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي) : **صورة الأرض**. ليدن، مطبعة بريل 1872 Brill. بيروت، مكتبة الحياة، الطبعة الأولى 1979، الطبعة الثانية 1992، 432 صفحة. ترجمه إلى الفرنسية :

J.H. Kramers et G. Wiet. Paris, édition G.P. Maisonneuve et Larose 1964 ; 2 volumes, 550 pages, 23 cartes hors texte Collection U.N.E.S.C.O. d'oeuvres représentatives : série arabe.

• ابن خرذادبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) : **المسالك والممالك**. تحقيق دي كوخ ليدن، مطبعة بريل 1889 Brill. القاهرة، المطبعة الحيدرية 1967.

• ابن الخطيب (لسان الذين محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي) : **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**. الدار البيضاء، نشر إبراهيم الكتاني 1964.

• ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي) : **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**. تحقيق ودراسة وترجمة إسبانية للنص العربي للدكتور محمد كمال شبانة. الرباط، مطبعة أكدتا، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي 1977 (164 صفحة).

• ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن) : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، سبعة أجزاء 1981.

• ابن زيدان (عبد الرحمان) : **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**. الدار البيضاء، مطابع إديال، الطبعة الثانية، خمسة أجزاء 1990 (562 صفحة).

• ابن زيدان (عبد الرحمان) : **المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف**. تحقيق عبد الهادي التازي. الدار البيضاء، مطبعة اديال، الطبعة الأولى 1993 (525 صفحة).

• ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي) : **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**. تطوان، معهد مولاي الحسن 1958 وطبع ببيروت تحت عنوان : **كتاب الجغرافيا**. تحقيق إسماعيل العربي 1970.

• ابن عذاري (أبو العباس المراكشي) : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. بيروت، دار الثقافة 1985 [قسم الموحدين].

• ابن القاضي (أحمد) : **المنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور**. الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، جزءان، الطبعة الثانية 1986.

• ابن مرزوق (محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني) : **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان مولانا أبي الحسن**. الجزائر، دراسة وتحقيق م.ج. فيكَيرة M.J Viguera 1981.

• الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسني السبتي) : **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق.** حقق من طرف دوزي ودي كوخ بعنوان : "المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس"، ليدن 1864 وطبع بالقاهرة سنة 1994. ترجمه إلى الفرنسية محمد الحاج صدوق تحت عنوان :

Le Maghreb au VI° siècle (H)/XII° siècle (J.C). Paris, édition Publisud 1983, 187 pages de texte arabe et 219 pages de texte français.

• الإصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي) : **كتاب المسالك والممالك.** تحقيق جابر عبد العالي. القاهرة، دار القلم 1961 نشره كيوك Jo.M. Cuoq تحت عنوان :

"Extrait de la géographie de l'Afrique sub-saharienne", *Recueil des Sources Arabes concernant l'Afrique Occidentales du XIII au XVIème siècle*. Paris, C.N.R.S. 1975 [Sijilmassa : p. 39 et p. 46].

• البيدق (أبو بكر بن علي الصنهاجي) : **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين.** الرباط، دار المنصور 1971.

• الحموي (أبو عبد الله ياقوت شهاب الدين) : **معجم البلدان.** نشره كيوك J. Cuoq في : *Recueil des Sources Arabes (pp. 182-187)*. وطبع ببيروت، دار النشر 1957.

• الحميري (محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم) : **الروض المعطار في خبر الأقطار.** تحقيق إحسان عباس. بيروت، دار القلم 1984.

• الدمشقي (أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي) : **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.** تحقيق إحسان عباس. القاهرة، المطبعة الأميرية 1976.

• دي هنين (خورخي) : **وصف الممالك المغربية (1603-1613) مذكرة خورخي دي هنين.** ترجمة عبد الواحد أكمير. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، نشر معهد الدراسات الإفريقية، الطبعة الأولى، دجنبر 1997 (253 صفحة).

• الزياني (أبو القاسم) : **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**. المحمدية، مطبعة فضالة 1967.

• السوسي (محمد المختار) : **المعسول**. المحمدية، مطبعة فضالة، 20 جزءا [الجزء 16] 1963.

• الضعيف الرباطي (محمد بن عبد السلام) : **تاريخ الدولة السعيدة**. الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر والتوزيع، جزءان 1988 (877 صفحة).

• العمري (ابن فضل الله أحمد بن يحيى) : **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**. تحقيق مصطفى أبو ضيف. الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1988. ترجمه G. Demombynes إلى الفرنسية بعنوان :

L'Afrique moins l'Egypte. Paris, Librairie Orientaliste, édition Paul Geuthner 1927 (LXVIII+284 pages).

• الغرناطي (أبو حامد الأندلسي) : **تحفة الألباب ونخبة الأعقاب**. نص عربي مع ترجمة فرنسية جزئية من طرف G. Fernand في *Revue Africaine*. عدد 206-207 السنة : 1925.

• **القرآن الكريم** : على رواية ورش، بيروت، دار المصحف (بدون تاريخ).

• القزويني (زكرياء بن محمد) : **آثار البلاد وأخبار العباد**. بيروت، دار صادر 1969.

• القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي الفزازي) : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. تحقيق محمد قنديل البقلي. القاهرة، المؤسسة المصرية، الجزء الخامس 1972.

• مارمول (كاريخا) : **إفريقيا**. تعريب محمد حجي، ومحمد زنيبر، ومحمد الأخضر، وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون. الرباط، مكتبة المعارف، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول 1984 (542 صفحة).

• مجهول : **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**. الرباط، دار المنصور 1972.

• مجهول : **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1979.

• مجهول : **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار : وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**. تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1985.

• المراكشي (عبد الواحد التميمي) : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. الدار البيضاء، دار الكتاب، الطبعة السابعة 1978 (568 صفحة).

• المراكشي (محمد) : **الذيل والتكملة**. تحقيق محمد بنشريفة. الرباط، مطبعة المنصور، الجزء الأول 1984.

• المسعودي (علي بن الحسين) : أخبار الزمان. نشره كيوك Cuoq (Jo. M) في : *Recueil des Sources Arabes* [Sijilmassa : pp. 60-61].

• المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر) : **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. دمشق، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1980. وقام Charles Pellat بترجمة جزء منه إلى الفرنسية تحت عنوان :
Description de l'Occident Musulman au IV-X° siècles : Leyde, imprimerie Brill, 2° édition 1967 ; texte arabe et traduction française [Sijilmassa : p. 219 et p. 231].

• الناصري (أبو العباس أحمد خالد) : **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. الدار البيضاء، دار الكتاب. الجزء الثالث 1954 والجزء الرابع 1956.

• الوزان (محمد بن الحسن الفاسي) : **وصف إفريقيا**. تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، جزءان 1982.

• اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وحيد الكاتب) : **كتاب البلدان**. تحقيق دي كوخ، ليدن، مطبعة بريل Brill 1967. القاهرة، المطبعة الحيدرية 1957.

2. المراجع العربية :

أ) المؤلفات :

• أبو ضيف (مصطفى أحمد) : **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين**. الدار البيضاء، دار النشر المغربية، الطبعة الأولى 1986.

• أفا (عمر) : **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822-1906)**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1988.

• بنمنصور (عبد الوهاب) : **قبائل المغرب**. الرباط، المطبعة الملكية، الجزء الأول 1968.

• توفيق الطيبي (أمين) : **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**. طرابلس، الدار العربية للكتاب 1984 (343 صفحة).

• الجمل (إبراهيم محمد حسن) : **الإمام عبد الله بن ياسين، الفقيه المفكر والداعية والقائد المجاهد**. المدينة المنورة، دار الكتاب، بدون تاريخ (162 صفحة).

• جوليان (شارل أندري) : **تاريخ إفريقيا الشمالية**. ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة. تونس، الدار التونسية للنشر، جزءان 1983.

• حافظي علوي (حسن) : **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1997.

• حجي (محمد) : **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**. المحمدية، مطبعة فضالة، الجزء الثاني 1978.

• حركات (إبراهيم) : **المغرب عبر التاريخ**. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الثانية، ثلاثة أجزاء 1984.

• حركات (إبراهيم) : **السياسة والمجتمع في العهد السعدي**. الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1987.

• رجب (محمد عبد الحليم) : **دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى (125-455هـ/743-1063م)** القاهرة، دار التوثيق النموذجية للطباعة 1991.

• روجي إدريس (الهادي) : **الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**. ترجمة حمادي الساحلي. بيروت، دار الغرب الإسلامي، السلسلة الجامعية. الطبعة الأولى، جزءان 1992.

• عبد اللوي علوي (أحمد) : **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان 1996.

• العلوي القاسمي (هاشم) : **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4هـ/منتصف القرن 11م**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان 1995.

• الفيلالي (عبد الكريم) : **التاريخ المفترى عليه**. الرباط، مطبعة الصومعة 1969 (218 صفحة).

• كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق 1/جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء : **دراسات في تاريخ المغرب**. 1990 (351 صفحة).

• كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة محمد الخامس بالرباط : **البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1989 (287 صفحة).

• كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة محمد الخامس بالرباط : **دراسات تاريخية مهداة للفقيد جرمان عياش.** الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1994 (479 صفحة).

• كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة المولى إسماعيل بمكناس : **جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط.** المحمدية، مطبعة فضالة 1991 (131 صفحة).

• كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة المولى إسماعيل بمكناس : **المجال والمجتمع بالواحات المغربية.** مكناس 1993 (282 صفحة).

• ماك كوك (دانييل) : **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة.** تعريب وتعليق محمد الحمداوي. الدار البيضاء، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة 1975 (66 صفحة).

• **مجلة الماء والتنمية.** العدد الثاني، السنة الأولى، يونيو 1986.

• مجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي تحت إشراف محمد القبلي : **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب.** الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1998.

• محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : **الأغالبة [184-296هـ] سياستهم الخارجية.** الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، مكتبة وراقة الجامعة، الطبعة الثانية 1978 (299 صفحة).

• محمود إسماعيل (عبد الرزاق) : **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري.** الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1985 (336 صفحة).

• مديرية التخطيط : **الإحصاء العام للسكان بالمغرب لسنة 1994.**

• مزين (العربي) : **مذكرات من التراث المغربي.** تحت إشراف الأستاذ العربي الصقلي، المجلد الرابع 1985.

• المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة والأشغال الطبوغرافية : **الاسم الجغرافي، تراث وتواصل. ندوة حول الأعلام الوطنية [15-17 أبريل 1992].** المحمدية، مطبعة فضالة 1994.

• المنوني (محمد) : **ورقات عن حضارة المرينيين.** الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة محمد الخامس، رقم 20. 1996.

• ناجي (مصطفى) : **الوثائق السجلماسية لأبي عبد الله محمد المصمودي (القرن 11).** الرباط، مطبعة الثقافة للطباعة والنشر 1988 (30 صفحة).

• نخبة من الأساتذة : **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب.** الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 1998.

ب) المقالات :

• بلكامل (البيضاوية) وبلفايدة (عبد العزيز) : "الجنوب المغربي في عصوره القديمة من خلال المصادر الإغريقية ـ الرومانية"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.** الدورة الأولى [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1989] الرباط، مطابع ميثاق المغرب 1990 (ص 343-368).

• بنمنصور (عبد الوهاب) : "عرض تمهيدي"، **أعمال ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة.** الرباط، مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988.

• بوطالب (إبراهيم) : "مرتبة إقليم تافيلالت في تاريخ المغرب"، **أعمال ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة.** الرباط مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة منشورات وزارة الثقافة 1988.

• تليوا (مصطفى) : "مقاربة انثربولوجية لساكنة تافيلالت خلال فترة ما قبيل التاريخ"، **مجلة واحة تافيلالت**. العدد الثاني 2000.

• حافظي علوي (حسن) : "بنو واسول"، **معلمة المغرب**. المجلد الخامس.

• حافظي علوي (حسن) : "تانيجوت"، **معلمة المغرب**. المجلد السابع.

• حافظي علوي (حسن) : "التجارة"، **معلمة المغرب**. المجلد السابع.

• حافظي علوي (حسن) : "الجمون" **معلمة المغرب**. المجلد التاسع.

• حجي (محمد) : "المنافسة بين سجلماسة وإيليغ والدلاء"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط، مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988 (ص 29-33).

• حركات (إبراهيم) : "آثار الفتح الإسلامي في المغرب"، **دعوة الحق**. العدد 3 السنة 4. 1380هـ/1960م (ص 41-44).

• جلاب (حسن) : "من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش"، **دعوة الحق**. العدد 265 شوال - ذو القعدة 1407هـ/يونيو - يوليوز 1987 (ص 77-85).

• رضوان (مبارك) : "بنو مدرار"، **معلمة المغرب**. المجلد الخامس.

• زنيبر (محمد) : "مساهمة الصحراء في بناء الدولة المغربية"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**. الرباط، العدد 21-22. 1998 (ص 77-95).

• السهلي (العربي) : "المدراريون في سجلماسة"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988.

• العلوي البلغيتي (إدريس) : "اعتناء الموحدين بسجلماسة مهد الشرفاء العلويين في عهد الخليفة المرتضى" **دعوة الحق**. العدد 280 محرم - صفر 1411هـ/غشت - شتنبر 1990م.

• العلوي القاسمي (هاشم) : "المغرب الأقصى في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، دراسة كتاب مجتمع المغرب الأقصى"، **دعوة الحق**. العدد 323. السنة 37. 1996 (ص 49-56).

• العلوي القاسمي (هاشم) : "تافيلالت التاريخ والواقع"، **واحة تافيلالت**. العدد الثاني 2000.

• القبلي (محمد) : "بنو مرين"، **معلمة المغرب**. المجلد الخامس.

• مزين (العربي) : "سجلماسة الاسم"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط، مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988 (ص 9-12).

• مزين (العربي) : "بداية الدولة العلوية بتافيلالت 1631-1664"، **أعمال ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة**. الرباط مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988.

• مقدون (محمد) وواحيدي (علي) : "سويتونيوس باولينوس والحرب الموريطانية الثانية بمنطقة تافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1989] الرباط، مطابع ميثاق المغرب 1990 (ص 369-378).

• ناعمي (مصطفى) : "سجلماسة ونول لمطة من خلال الوثائق التاريخية والحفريات"، **أعمال ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا**. الرباط مطابع الميثاق، منشورات وزارة الثقافة 1988.

3. المراجع غير العربية :

أ) المؤلفات :

• Caillé (Jacques) : *La petite histoire du Maroc*. Casablanca, Librairie Faraire, Rabat, Librairie Céré ; édition de la Société de Librairie et d'Editions Atlantiques 1954. Trois séries, 3° série : de 1850 à 1912 ; illustrations hors Texte (243 pages).

• Caillée (René) : *Voyages à Tombouctou*. Paris, édition la Découverte, Librairie F. Maspero 1979. Deux volumes, une carte hors texte, 401 pages [Tafilalet : 2° volume, pp. 335-357].

• De Castries (Henri) : *Sources Inédites de l'Histoire du Maroc*. 1ère série, dynastie Saâdienne (1530-1560) Portugal III et IV. Paris, édition E. Leroux 1921.

• Deverdun (Gaston) : *Marrakech des origines à 1912*. Rabat, édition Techniques Nord Africaines. Deux volumes, 1° volume : 1959 ; 2° volume : 1966.

• Dramani-Issifou (Zakari) : *L'Afrique noire dans les relations internationales au XVIème siècle, analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhaï*. Paris, édition Karthala 1982 (257 pages).

• Dubois (Félix) : *Timbuctoo, the mysterious*. Newyork, Translated by Diana White 1890.

• Fagnan (Eugène) : *Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire*. Alger 1924.

• Faure (Roger) : *Le Tafilalet, étude d'un secteur traditionnel d'irrigation*. Paris 1969.

• Gautier (Ernest F) : *Le passé de l'Afrique du Nord*. Paris, édition Payot 1964.

• Gsell (Stéphane) : *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. Paris, édition Hachette, huit volumes, volume V, 1929.

• Harris (Walter B.) : *Tafilet, the narative of a journey of exploration in the Atlas Mountains and the Oasis of the North-West Sahara*. London, édition William Black Wood and Sons 1895. Illustrations dans le texte, 1 carte hors texte, 386 pages [le Tafilalet : pp. 213-306].

• Jacques-Meunié (Djinn) : *Le Maroc Saharien des Origines à 1670, avec 55 documents photographiques*. Paris, édition C. Klincksieck 1982. Université Paris Sorbonne, Thèse Doctorat d'Etat en Histoire 16 juin 1975. Deux volumes, cartes et figures dans le texte (991 pages).

• Joly (Fernand) : *Etudes sur le relief du Sud-Est marocain*. Rabat, imprimerie de l'Agdal 1962. Travaux de l'Institut Scientifique Chérifien, série géologie et géographie physique, n° : 10. Université Paris Sorbonne, Thèse Doctorat d'Etat en Géographie 1962. Cartes, tableaux et figures dans le texte dont 4 hors texte, XII planches hors texte et 4 cartes dépliées (578 pages).

• Le Tourneau (Roger) : *Les débuts de la dynastie sa'dienne jusqu'à la mort du sultan M'hamed ech-Cheikh (1557)*. Alger, Institut des Etudes Supérieures Islamiques d'Alger 1954 (64 pages).

• Martin (A.G.P.) : *Quatre siècles d'histoire marocaine, au Sahara de 1504 à 1902, au Maroc de 1894 à 1912 d'après les archives et documentation indigènes*. Paris, édition Ernest Leroux 1923.

• Mauny (Raymond) : *Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen Age d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie*. Dakar, I.F.A.N., n° 61 ; 1961 (587 pages).

• Mezzine (Larbi) : *Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII° et XVIII° siècles*. Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida 1987 (387 pages).

• Henriet (le Lieutenant) : *L'extrême Sud dans l'économie marocaine*. Tanger, Editions Internationales, n° : 195/140 ; 1939. Cartes et tableaux dépliés dans le texte. Publication des Colonies Bibliothèques (176 pages).

• Terrasse (Henri) : *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français*. Casablanca, édition Atlantide 1950. Deux volumes, 17 cartes dans le texte (910 pages).

ب) المقالات :

• Anonyme : "La pacification du sud marocain", *Renseignement Coloniaux et Documents*. N° : 3 ; 1933 (pp. 49-58).

• Bassac : "Sijilmassa d'après les auteurs arabes", *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord*. 1927 (pp. 451-67).

• Bassac : "Notes sur le Tafilalet et sur le Ziz", *Bulletin de la Société de Géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord*. N° : 119 ; 3° trimestre, 34° année 1929 (pp. 403-413).

• Dastugue (Henri, le Lieutenant Colonel) : "Quelques notes au sujet du Tafilet et Sidjilmassa", *Bulletin de la Société de Géographie*. Paris, Tome : XII ; avril 1867 ; 3 cartes hors texte (pp. 337-380).

• De la Chapelle (F) : "Esquisse d'une histoire du Sahara occidentale", *Hespéris*. Tome : XI ; 1930. Actes du VII° Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines (pp. 35-95).

• De la Chapelle (F) : "L'expédition de Suetonius Paulinus dans le Sud-Est du Maroc", *Hespéris*. Tome : XIX ; 1939 (pp. 103-112).

• Delafosse (Maurice) : "Les relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges", *Hespéris*. Tome : IV, 2° trimestre 1924 (pp. 153-174).

• Delbrel (Gabriel) : "Notes sur le Tafilalet", *Bulletin de la Société de Géographie*. Paris, Tome : XV ; 7° série, 3° trimestre 1895 (pp. 199-227).

• De Mazières (M) : "Le Dadès et le Tafilalet", *Revue de Géographie Marocaine*. Casablanca, n° : 3 et 4 ; XIX° année, juillet 1935 ; 2 figures dans le texte (pp. 283-302).

• Devisse (Jean) : "Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la Méditerranée : essai sur le commerce africain médiéval du XIème au XVIème siècle", *Revue de l'Histoire Economique et Sociale*. N° : 1 et 3 ; 1972 (pp. 42-73 et pp. 357-397).

• Doury (le Capitaine) : "le Tafilalet", *Renseignements Coloniaux et Documents*. n° : 11, novembre 1910 (pp. 353-359).

• Gaulis (le Lieutenant) : "Le Tafilalet", *Renseignements Coloniaux et Documents*. N° : 3 ; mars 1928 ; 1 carte (pp. 180-189).

• Lessard (Jean Michel) : "Sijilmassa, la ville et ses relations commerciales au Xème siècle d'après al-Bakri", *Hespéris-Tamuda*. Volume : X, fascicule 1-2 ; 1969 (pp. 5-34).

• Le Tourneau (Roger) : "La naissance du pouvoir sa'dien vue par l'historien Al-Zayyani". *Extrait des mélanges Louis Massignon*. Damas, Institut Français 1957 (75 pages).

• Lewiki (Tadensz) : "Sur le titre libyco-berbère", *Etude maghrébines et soudanaises. Studio nad maghrebem i sudanem*. Varsovie, édition Scientifique de Pologne 1976. Publication de l'Académie Polonaise des Sciences, Comité des Etudes Orientales ; illustrations (93 pages).

• Linares (Fernand, le Docteur) : "Voyage au Tafilalet avec S.M. le sultan Moulay Hassan en 1893", *Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc*. Rabat, publication de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publiques, Tome : III ; juillet-septembre 1932 (pp. 93-116).

• Maazouzi (Mohamed) : "Le Touat comme carrefour d'échanges culturels religieux et économiques entre le Maroc et le Sahara Méridional avant l'occupation française", *Colloque Euro-africain 1985*. (pp. 153-172).

• Mercier (L) : "Quelques notes sur le Tafilalet", *Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran*. Tome : V, fascicule : 25 ; avril-juin 1885 (pp. 67-89).

• Mezzine (Larbi) : "Sijilmassa", *Le Mémorial du Maroc*. Rabat, édition Nord Organisation, 1983. huit volumes ; 2° volume (pp. 25-37).

• Mezzine (Larbi) et Hammam (Mohamed) : "Un document inédit sur l'histoire du Maroc présaharien vers 1630 (J.C) : la "tayssa" de Sidi Abd al Ali (texte et traduction)", *Hespéris-Tamuda*. Volume : XXIII, fascicule unique, 1985 (pp. 25-42).

• Miller (James) : "La viabilité de l'environnement dans les oasis du Tafilalet, de l'ancienne Sijilmassa au Tafilalet d'aujourd'hui", *l'Afrique du Nord face aux menaces écologiques*. Casablanca, Najah El-Jadida 1995. Publication Faculté des Lettres et Sciences Humaines/Université Mohamed V, n° 50 (pp. 3-19).

• Office Régional de la Mise en Valeur Agricole du Tafilalet : "Etude de la salure des sols", *Rapport ORMVAT*. juin 1980.

• Pérès (Henri) : "Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du XII au XIV° siècle", *Extrait des Mélanges E. Gautier*. 1937 (pp. 409-414).

• Redier (le Lieutenant Colonel) : "Le Tafilelt d'après W.B. Harris", *Renseignements Coloniaux et Documents*. 1909 ; n° : 1 (pp. 3-15), n° : 2 (pp. 38-46) et n° : 3 (pp. 56-68).

• Rohlfs (Gerhard) : "Le Tafilelt", *Renseignements Coloniaux et Documents*. n° : 8 ; 1910. 1 carte dans le texte (pp. 243-257).

• Taouchikht (Lahcen) : "Aperçu historique de Sijilmassa pendant la période d'autonomie (757/58-1054)", *Revue de l'Association de l'histoire du Maroc*. Oujda, n° 2 ; 2° Année, juin 1994 (pp. 133-150).

• Temsir Niane (Djibril) : "L'interdépendance des empires soudanais et des états maghrébins aux XI° XIV° siècles", *Colloque Euro-africain 1985*. (pp. 125-130).

• Vanacker (Claudette) : "Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes du IX° au milieu du XII° siècle", *Annales Economies, Sociétés, Civilisations*. Paris, édition C.N.R.S. 2° année, n° : 3 ; mai-juin 1673 19 cartes hors texte (pp. 659-680).

• Vicard (Pierre) : "Le Tafilalet", *Renseignements Coloniaux et Documents*. N° : 7 ; 1921. 1 carte dans le texte (pp. 169-174).

III ـ الآثار والمعمار :

1 ـ المصادر :

• ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد الرعيني القيرواني) : **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**. بيروت، دار المسيرة 1983.

• ابن أبي الربيع (سليمان) : **سلوك المالك في تدبير الممالك**. **تحقيق ناجي التكريني**. بيروت، دار الأندلس 1981.

• ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد الأندلسي) : **بدائع السلك في طبائع الملك**. **تحقيق محمد عبد الكريم**. بيروت، الدار العربية للكتاب، الجزء الثاني 1977.

• ابن خلدون (عبد الرحمن) : **المقدمة**. بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى 1978.

• ابن عبدون (محمد بن أحمد الأموي) : **رسالة في القضاء والحسبة**. القاهرة، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، المجلد الثاني 1955.

• الشيرزي (عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي) : **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**. تحقيق الدكتور الباز العريني. بيروت، دار الثقافة، الطبعة الثانية 1981.

• الماوردي (أبو الحسن علي) : **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**. تحقيق رضوان السيد. بيروت 1987.

2 ـ المراجع العربية :

أ) المؤلفات :

• أعشي (مصطفى) : **نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب**. المحمدية، مطبعة فضالة، بدون تاريخ (50 صفحة).

• بوجبار (نعيمة الخطيب) : **المدن الأثرية القديمة**. المحمدية، مطبعة فضالة الجديدة 1977 (59 صفحة).

• خلاف (عبد الوهاب محمد) : **وثائق في شؤون العمران في الأندلس، المساجد والدور، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهيل الأندلسي**. القاهرة، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى 1983 (176 صفحة).

• السائح (الحسن) : **الحضارة الإسلامية في المغرب**. الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الثانية 1986 (443 صفحة).

• عبد الستار عثمان (محمد) : **الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، دراسة أثرية معمارية**. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1989 (331 صفحة).

• عبد الستار عثمان (محمد) : **المدينة الإسلامية**. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، منشورات أعلام المعرفة غشت 1988 (415 صفحة).

• عثمان إسماعيل (عثمان) : **حفائر شالة الإسلامية، أبحاث تاريخية وكشوف أثرية بالمغرب الأقصى**. الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الأولى 1978 (474 صفحة).

• عثمان إسماعيل (عثمان) : **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**. الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، خمسة أجزاء 1993 (1973 صفحة).

• عكاشة (ثروت) : **القيم الجمالية في العمارة الإسلامية**. بيروت، دار الشروق، الطبعة الأولى 1994 (449 صفحة).

• علي حسن (حسن) : **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين**. القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى 1980 (564 صفحة).

• الفاسي (عبد الرحمان) : **خطة الحسبة**. الدار البيضاء، دار الثقافة 1984.

• كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك 2/جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء : **المدينة في تاريخ المغرب العربي**. سلا، مطابع سلا 1990 (350+16 صفحة).

• كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة عبد المالك السعدي بتطوان : **التراث المغربي والأندلسي التوثيق والقراءة**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1991 (590 صفحة).

• محمود وصفي (محمد) : **دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية**. القاهرة، دار الثقافة 1980 (222 صفحة).

• مصطفى عزب (خالد محمد) : **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**. كتاب الأمة رقم 58. الدار البيضاء، منشورات الفرقان 1997.

• المنيس (وليد) : **التفسير الشرعي للتمدن**. الكويت، جامعة الكويت/كلية الآداب، الجمعية الجغرافية الكويتية، سلسلة رسائل جغرافية رقم 62، 1984.

• وزارة السكنى : **أبنية القصور والقصبات بالأودية المتاخمة للصحراء**. الرباط، نشر وزارة السكنى 1992 (119 صفحة).

ب) المقالات :

• أوستاش (دانييل) : "تاريخ النقود العربية"، **البحث العلمي**. عدد مزدوج 14-15، يناير - دجنبر 1969.

• بن حموش (مصطفى أحمد) : "من معالم العمران الإسلامي، قرابة النسب وقرب المكان"، **مجلة الأحمدية**. العدد 2، جمادى الثانية 1419هـ/غشت 1998م، تصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي (ص 311-336).

• بنعبد الله (عبد العزيز) : "من مظاهر الهندسة المعمارية في المساجد"، دعوة الحق. العدد 232، صفر 1404هـ/نونبر 1983 (ص 17-25).

• بنعبد الله (عبد العزيز) : "القصبات والقلاع الإسماعيلية"، **دعوة الحق.** عدد خاص، مارس 1988، (ص 108-113).

• بودهان (أحمد) : "المسجد ودوره الحضاري في الغرب الإسلامي من عهد الولاة إلى عهد الحسن الثاني"، **دعوة الحق.** العدد 308 مارس 1995 (ص 85-96).

• بوكبوط (يوسف) : "تحريات أثرية في منطقة تافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.** الدورة الأولى دجنبر 1989 الرباط، مطابع ميثاق المغرب 1990 (ص 393-401).

• تاوشيخت (لحسن) : "خزف سجلماسة القروسطوي"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.** الدورة الأولى [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1989] الرباط، مطابع ميثاق المغرب 1990 (ص 295-326).

• تاوشيخت (لحسن) : "المنجزات العمرانية للسلطان مولاي إسماعيل بتافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.** الدورة الثانية [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1990] دار المناهل للطباعة والنشر 1991 (ص 187-190).

• تاوشيخت (لحسن) : "المنجزات العمرانية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله بتافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.** الدورة الثالثة [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1991] الرباط، مطبعة الأمنية 1993 (ص 393-419).

• تاوشيخت (لحسن) : "واحة تافيلالت بين الأمس واليوم"، **ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية.** [كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة مولاي إسماعيل مكناس : أبريل 1992] مكناس، مطبعة كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1993 (ص 7-34).

• تاوشيخت (لحسن) : "خزف تافيلالت خلال نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 "، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.** الدورة الرابعة [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1992] الرباط، مطبعة الأمنية 1994 (ص 264-290).

• تاوشيخت (لحسن) : "الحركة العلمية والثقافية بتافيلالت خلال عهد الدولة العلوية"، **ندوة الحركة العلمية في عهد الدولة العلوية.** [كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة محمد الأول بوجدة، دجنبر1993] الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1995 (ص 22-53).

• تاوشيخت (لحسن) : "المنجزات العمرانية للسلطان المولى عبد الرحمان بن هشام بتافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.** الدورة الخامسة [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1993] الرباط، دار المناهل للطباعة والنشر 1996 (ص 200-224).

• تاوشيخت (لحسن) : "القصبات والقصور الإسماعيلية بتافيلالت"، **ندوة السلطان مولاي إسماعيل.** [كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل مكناس : مارس 1995] المحمدية، مطبعة فضالة، بدون تاريخ (ص 109-141).

• تاوشيخت (لحسن) : "تافيلالت في عهد السلطان مولاي الحسن الأول من خلال رسائل مخزنية ووثائق فرنسية"، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية.

الدورة السابعة، الشطر الأول [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1997] الرباط، دار المناهل للطباعة والنشر 1998 (ص 167-187).

• تاوشيخت (لحسن) : "بعض مظاهر الحركة الثقافية خلال عهد السلطان مولاي الحسن الأول"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة السابعة/الشطر الثاني [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1998] الرباط، دار المناهل 1999 (203-224).

• توري (عبد العزيز) : "باب"، **معلمة المغرب**. المجلد الرابع.

• حافظي علوي (حسن) : "الجانب المعماري بمدينة سجلماسة من خلال المصادر المكتوبة"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الثانية [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1989] الرباط، دار المناهل للطباعة والنشر 1991 (ص 191-202).

• حمام (محمد) : "تقديم لأعمال الندوة الدولية حول المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط"، **المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة. منشورات جامعة محمد الخامس/كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، رقم 80، 1999 (ص 15-16).

• خزام (عهد عفيف) : "تاريخ العمارة الطينية في سوريا، منطقة القلمون نموذجا"، المعمار المبني **بالتراب في حوض البحر المتوسط**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1999 (ص 17-50).

• الخلادي (عبد القادر) : "لمحة تاريخية وأدبية عن الحمامات في المجتمع الإسلامي"، **دعوة الحق**. العدد 9-10، السنة 8، يوليو - غشت 1965 (ص 119-125).

• رابطة الدين : "باب"، **معلمة المغرب**. المجلد الرابع.

• زيادة (نقولا) : "المدينة العربية في العصور الوسطى"، **دعوة الحق**. العدد 9-10، السنة 13، رمضان 1390هـ/نونبر 1970م (ص 63-97).

• عثمان إسماعيل (عثمان) : "فضل المرابطين على الفن المغربي الأندلسي" **دعوة الحق**. العدد 232، صفر 1404هـ/نونبر 1983م.

• لمراني علوي (محمد) : "المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة"، **المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط**. الدار البيضاء 1999 (ص 99-114).

• مصري (عبد الله) : "مفاهيم جديدة للمسح الأثاري وعلاقته بحركة التنقيب"، **حركة التنقيب عن الآثار ومشكلاتها بالوطن العربي**. تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1989.

• مقداد (عبد السلام) : "تاريخ ومصدر البنايات المدفنية بمنطقة تافيلالت"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1989] الرباط، مطابع ميثاق المغرب 1990 (ص 335-342).

• الهجراوي (محمد عبد الجليل) : "تافيلالت خلال فترة ما قبل التاريخ"، **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**. الدورة الأولى [مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دجنبر 1989] الرباط، مطابع ميثاق المغرب 1990 (ص 327-334).

3 - المراجع غير العربية :

أ) المؤلفات :

• Brethes (Joseph Dominique) : *Contribution à l'Histoire du Maroc par les recherches numismatiques*. Casablanca, imprimerie Annales Marocaines 1939. XLIII planches dans le texte (275 pages).

• Camps (Gabriel) : *Aux origines de la Berbérie, monuments et rites funéraires protohistoriques*. Paris, édition AMG 1962. 172 figures et 24 planches (628 pages).

• Camps (Gabriel) : *les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*. Paris, édition Doin 1974 (374 pages).

• Devisse (Jean), Robert (Denise et Serge) : *Tegdaoust, recherche sur Aoudaghost*. Paris, édition Arts et Métiers Graphiques 1978 (159 pages).

• Devisse (Jean), Robert (Denise et Serge) : *Tegdaoust, Campagnes 1960-1965, enquêtes générales*. Paris, édition Recherche sur les Civilisations 1983 (569 pages).

• Eustache (Daniel) : *Etude sur le numismatique et l'histoire monétaire du Maroc. Corpus des dirhams idrissites et contemporains ; collection de la Banque du Maroc et autres collections mondiales publiques et privées*. Rabat 1970-1971. XXXIX planches et textes en arabe (XL+394 pages).

• Fathy (Hassan) : *Construire avec le peuple*. Traduit de l'Anglais par Yana Kormel. Paris, Sindibad, Collection Hommes et Sociétés, 2° édition 1970 (235 pages).

• Golvin (Lucien) : *Recherches à la Qal'a des Bani Hammad*. Paris, G.P. Maisonneuve et Larose 1965. 111 figures, 110 planches et plans hors texte (312 pages).

• Groupe de chercheurs : *La prospection archéologique, paysage et peuplement. Actes de la table ronde du 14 et 15 mai 1982*. Paris, Documents d'Archéologie Française, édition la Maison des Sciences de l'Homme, n° : 3 ; 1986 (178 pages).

• Jacques-Meunié (D) : *Architectures et Habitats du Dadès, Maroc Présaharien*. Paris, Librairie C. Klincksieck 1962 (320 pages).

• Jehel (Georges) et Racinet (Philippe) : *La ville médiévale de l'Occident chrétien à l'Orient musulman, V°-XV° siècle*. Paris, édition Armant Colin 1996 (495 pages).

• Lacaze (jean - Paul) : *la ville et l'urbanisme*. Paris, Dominos/ Flammarion 1995 (127 pages).

• Marçais (Georges) : *L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*. Paris, édition Arts et Métiers Graphiques 1954. 108 planches et 286 figures (541 pages).

• Marçais (Georges) : *l'art musulman*. Paris, P.U.F. 2° édition 1981. Illustrations et planches dans le texte (148 pages).

• Meunié (Jacques), Terrasse (Henri) et Deverdun (Gaston) : *Recherches archéologiques à Marrakech*. Paris, édition Arts et Métiers Graphiques 1952. 72

planches et 3 plans hors texte ; 12 figures. Publication de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Tome : LIV (96 pages).

• Meunié (Jacques), Terrasse (Henri) et Deverdun (Gaston) : *Nouvelles recherches archéologiques à Marrakech.* Paris, édition Arts et Métiers Graphiques 1957. 113 planches hors texte et 39 figures dans texte. Publication de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Tome : LXII (131 pages).

• Paccard (André) : *Le Maroc et l'artisanat traditionnel islamique dans l'architecture.* Paris, édition Ateliers 1974. 1° volume (285 pages).

• Revault (Jacques), Golvin (Lucien) et Amahan (Ali) : *Palais et demeures de Fès I : époques mérinide et saadienne (XIV-XVIIème siècle).* Paris, édition C.N.R.S. 1985. 4 planches en couleur, LXXIII illustrations, cartes, dessins et 95 figures hors texte. Publication de Groupe de Recherches et d'Etudes sur le Proche Orient/Université de Provence, France (240 pages).

• Terrasse (Henri) : *Kasbas berbères de l'Atlas et des oasis : les grandes architectures du sud marocain.* Paris, édition Horizons de France, sans date. Illustrations et figures dans le texte (136 pages).

ب) المقالات :

• Bazzana (André), Cressier (Patrice), Erbati (Larbi), Montmessin (Yves) et Touri (Abdelaziz) : "Première prospection d'archéologie médiévale et islamique dans le Nord du Maroc (Chefchaouen, Oued Leou, Bou Ahmad)", *Bulletin d'Archéologie Marocaine.* Tome : XV ; 1983-84 ; 40 figures dans le texte ; 1 tableau et annexes hors texte (pp. 367-450).

• Bazzana (André) : "L'architecture de terre au moyen-âge, considérations générales et exemples andalous", *Colloque International sur l'architecture de terre en Méditerranée : Histoire et perspectives Rabat, 27-29 novembre 1996.* Casablanca, Imprimerie Najah El Jadida 1999. Publication Faculté des Lettres et Sciences Humaines/Université Mohamed V ; n° 80 (pp. 169-202).

• Belouin (le Colonel) : "Notes sur la grotte de Tazougert", *Bulletin du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques.* 1925 (pp. CCXLIII-CCXLIV).

• Devisse (Jean) : "Sijilmassa : les sources écrites, l'archéologie et le contrôle des espaces", *Colloque Euro-africain, Erfoud 20-25 octobre 1985.* Bergamo (l'Italie), Gruppo Walk Over, 1986. Paris, Publication de l'Institut International d'Anthropologie et Centre International de Recherches Sahariennes et Sahéliennes 1986 (pp. 18-25).

• Erbati (Larbi) : "L'architecture de terre dans le Maroc saharien, description des géographes et apport de l'archéologie", *Colloque International sur l'architecture de terre en Méditerranée 1996.* (pp. 111-119).

• Hammam (Mohamed) : "Les rites de construction dans la vallée du Dadès (versant sud du Haut-Atlas central)", *Colloque International sur l'Architecture de terre en Méditerranée 1996.* (pp. 311-318).

• Hassar-Benslimane (Joudia) et Touri (Abdelaziz) : "La recherche archéologique au Maroc, état présent et perspectives d'avenir", *l'UNIVERSO. Actes du 2° Colloque Euro-africain: "le passé du Sahara et les des zones limitrophes des Caramutes au Moyen Age".* Tome: LXIV ; n° : 5 ; septembre-octobre 1984 (pp. 178-184).

• Hassar-Benslimane (Joudia) : "Sijilmassa du mythe à la réalité archéologique", *Actes du IV° Colloque Euro-africain 1985.* (pp. 26-31).

• Hensens (J) : "Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar : problèmes de rénovation", *Bulletin Economique et Social du Maroc.* N° 114 ; Juillet-septembre 1969 (pp. 83-104).

• Hraiki (Rahma EL), Picon (Maurice) et Robert (Denise) : "Atelier producteurs et commerce transsaharien à l'époque médiévale", *Colloque International de la Céramique Médiévale en Méditerranée Occidentale, Sienne 8-12 octobre/Faenza 13 octobre 1984.* Firenze, edizioni All 'Insegna del Giglio 1986 (pp. 47-58).

• Jacques-Meunié (Djinn) et Meunié (Jacques) : "Abbar, cité royale du Tafilalet", *Hespéris.* Tome : XLVI, 1° et 2° trimestre 1959. 12 figures ; VIII planches hors texte (pp. 7-72).

• Jacques-Meunié (D) : "Sur l'architecture du Tafilalet et Sijilmassa (Maroc Saharien)", *Comptes Rendues de l'Académie des Inscriptions des Belles Lettres avril-décembre 1962.* Paris, Librairie C. Klincksieck, décembre 1963. 5 figures dans le texte (pp. 132-146).

• Laoust (Ernest) : "L'habitation chez les transhumants du Maroc central : 1, la tente et le douar", *Hespéris.* Tome : X, fascicule II ; 1930. 51 figures, 16 planches hors texte (pp. 151-253).

• Laoust (Ernest) : "L'habitation chez les transhumants du Maroc central (suite), la maison", *Hespéris.* Tome : XIV, 3° trimestre, fascicule II, 1932"; 37 figures, 15 planches hors texte (pp. 151-215).

• Marçais (Georges) et Dessus (Lamare) : "Recherches d'archéologie musulmane Tihert-Taqdemt", *Revue Africaine.* Volume : LXIII ; n° : 310 ; 1962 (pp. 22-38).

• Margat (Jean) : "Note sur la morphologie du site de Sijilmassa", *Hespéris.* Tome : XLVII, 3° et 4° trimestre 1959. 3 figures dans le texte et une carte du Tafilalet hors texte (pp. 254-260).

• Margat (Jean) : "Données sur l'habitat au Tafilalet", Notes Marocaines. N° : 11-12 ; 1959. figures dans le texte (pp. 44-53).

• Margat (Jean) et Camus (Albert) : "La nécropole de Bouïa au Tafilalet", *Bulletin d'Archéologie Marocaine.* Tome : III, 1958-1959 (pp. 63-74).

• Messier (Ronald A) : "The grand mosque of Sijilmasa : the evolution of a structure from the mosque of Ibn Abd Allah to the restoration of Sidi Mohammed ben Abd Allah", *Colloque International sur l'Architecture de Terre en Méditerranée 1996.* (pp. 287-296).

• Meunié (Jacques) et Allain (Charles) : "Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême sud-est marocain", *Hespéris.* Tome : XLIII, 1956 (pp. 51-86).

• Miller (James) et Lightfoot (Dale) : "Sijilmassa, the rise and fall of a walled oasis in medieval Morocco", *Annals of the Association of American Geographers.* 86/1 ; 1996 (pp. 78-101).

• Rachewiltz (Boris de) : "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", *Quaderni delle Rivista "Africa".* Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20. Illustrations dans texte et 10 figures hors texte (pp. 519-568).

• Redman (Charles.L), Boone (J.L) et Myers (Joseph Emlen) : "4° saison de fouilles à Qsar es-Seghir", *Bulletin d'Archéologie Marocaine.* Rabat, Tome : XII ; 1979-1980 (pp. 285-290).

• Redman (Charles.L) : "Survey and test excavation of six medieval islamic sites in northern morocco", *Bulletin d'Archéologie Marocaine.* Tome : XV ; 1983-1984. 33 figures dans le texte (pp. 311-49).

• Robert-Chaleix (Denise) : "Lampes à huile importées découvertes à Tegdaoust, 1er essai de classification", *Journal des Africanistes.* Paris, Tome : 53 ; 1983 (pp. 256-263).

• Robert (Denise) et Picon (Maurice) : "Classification des lampes importées sur le site de Tegdaoust (Mauritanie)", *Revue d'Archéométrie.* N° : 7 1983. 2 planches hors texte, diagramme dans le texte (pp. 59-69).

• Ruhlmann (Armand) : "Les recherches de préhistoire dans l'extrême sud marocain (Les tumuli)", *Publications du Service des Antiquités du Maroc.* fascicule n° V, 1939 (pp. 42-51).

• Saidi (Idriss) : "Etude architecturale des ksour du Tafilalet, dossier d'analyse et de diagnostic", *Oasis Tafilalet.* N° 1 ; 1999 (pp. 3-34).

• Serra (Luigi) : "Les routes du Sahara, petites notes pour une étude d'ethno-toponymie", *Colloque d'Erfoud 1985.* (pp. 37-45).

• Souville (G) : "Los monumentos funerarios preislamicos de Marruecos", *Ampurias.* Tome : XXX, 1968 (pp. 98-112).

• Taouchikht (Lahcen) : "La céramique médiévale de Sijilmassa, approche générale", *V^ème^ Congrès Internationale sur la Céramique Médiévale en Méditerranée.* Rabat, Dar al-Manahil 1995 (pp. 227-234).

• Taouchikht (Lahcen) : "Aspect monumental de Sijilmassa", *Colloque International sur l'Architecture de Terre en Méditerranée 1996.* (pp. 237-261).

• Taouchikht (Lahcen) : "La poterie de Sijilmassa, approche ethnographique", *VI^ème^ Congrès de l'Association Internationale des Etudes de la Céramique Médiévale en Méditerranée (AIECM2).* Aix-en-Provence, Narration éditions 1997 (pp. 579-584).

• Terrasse (Henri) : "Notes sur les ruines de Sijilmassa", *II^ème^ Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes, Tlemcen 14-17 avril 1936.* Alger, Publication de la Société Historique Algérienne 1936. VIII planches hors texte (pp. 581-589).

• Thilmans (G), Ravisse (A) et Robert (D) : "Découverte d'un fragment de poterie à Sintiou-Bara (fleuve de Sénégal)", *Notes Africaines.* N° 159 ; 1978 (pp. 59-61).

• Touri (Abdelaziz) : "Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien", *Actes du IV° Colloque Euro-africain 1985.* (pp. 32-35).

• Van Staëval (Jean-Pierre) : "Réflexions à propos de la nomenclature médiévale de l'architecture de terre en Occident Musulman : l'exemple du tabiya", *Colloque International sur l'architecture de terre en Méditerranée.* Casablanca, 1999 (pp. 95-109).

• Wilkinson (Tony J.) : "Sijilmassa : quelques notes préliminaires sur la région", *Rapport préliminaire.* Chicago, l'Institut Oriental 28/12/1994.

IV- الآداب والتراجم :

1- المصادر :

• ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي) : **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي.** تحقيق أحمد التوفيق. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة محمد الخامس "نصوص ووثائق 1" 1984.

• ابن صاحب الصلاة (أبو مروان عبد الملك الباجي) : **تاريخ المن بالإمامة. تحقيق عبد الهادي التازي.** تطوان، مطبعة دار الأندلس 1964.

• الحسني الفضيلي العلوي (أبو العلاء مولاي إدريس بن أبي العباس أحمد) : **الدرر البهية والجواهر النبوية.** فاس، طبعة حجرية، الجزء الأول 1314 هـ.

• المدغري (أحمد بن عبد العزيز بن الحسن) : **الأنوار الحسنية. تحقيق عبد الكريم الفيلالي.** الرباط، مطبعة المنصور 1966.

• النويري (أحمد بن عبد الوهاب التميمي) : **نهاية الأرب في فنون الأدب.** تحقيق مصطفى أحمد أبو ضيف تحت عنوان : "تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط". الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1985.

• اليوسي (أبو علي الحسن) : **المحاضرات في الأدب.** الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول 1976.

2- المراجع بالعربية :

• الشباني الإدريسي (أحمد) : **مصابيح البشرية في أبناء خير البرية.** الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1987.

• شفيق (محمد) : **المعجم العربي الأمازيغي.** الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المجلد الأول 1990.

V ـ الموسوعات والمنوغرافيات والخرائط :

1 ـ الموسوعات :

• مجموعة من المؤلفين : **دائرة المعارف الإسلامية**. القاهرة، الطبعة الأولى، الجزء 11 (بدون تاريخ).

• *Encyclopédie de l'Islam*. Paris, édition C. Klincksieck, Tome : IV ; 1934 [Colin (Georges S.) : "Sigilmassa" (pp. 419-421) ; "Tafilalt" (p. 633)].

2 ـ المنوغرافيات :

• بالعربي (الصديق) : **كتاب المغرب**. بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة 1984 (167 صفحة).

3 ـ الخرائط :

• *Carte topographique du Maroc* Feuille Erfoud, Echelle 1/100.000, NH-30-XX-2 ; X = 611,5Å; Y = 78.

• *Carte topographique du Maroc* feuille Erfoud, Echelle 1/100.000, NH-30-XX-2; X = 605,4 ; Y = 75,9.

• *Carte topographique du Maroc* Feuille Erfoud, Echelle 1/100.000, X = 612,2 ; Y = 87,3 ; Z = 849.

• *Carte topographique du Maroc* Feuille Erfoud, Echelle 1/100.000, X = 596,8 ; Y = 86,6 ; Z = 976.

• *Carte topographique du Maroc* Feuille Erfoud, Echelle 1/400.000, X = 616,8 ; Y = 88,5 ; Z = 822.

• *Carte topographique du Maroc* Feuille Erfoud, Echelle 1/400.000, X = 600,6 ; Y = 96,2.

• *Carte topographique du Maroc* Feuille Hassi Beraber, Echelle 1/100.000. X = 664 ; Y = 89.

• *Carte topographique du Maroc* feuille Taouz-Ouest, Echelle 1/100.000. X = 633 ; Y = 436.

VI ـ الرسائل والأطروحات الجامعية المرقنة :

1 ـ بالعربية :

• البوزيدي (أحمد) : **التاريخ الاجتماعي لدرعة من مطلع القرن 17 إلى مطلع القرن 20م، دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال الوثائق المحلية**. الرباط، جامعة محمد الخامس/كلية الآداب والعلوم الإنسانية. دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث، جزءان 1988.

• حافظي (علوي حسن) : **سجلماسة وإقليمها خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، مساهمة في دراسة مجتمع الواحات في العصر الوسيط**. فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله/ظهر المهراز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ 1988.

2 ـ بالفرنسية :

• Alaoui (Abdelaziz El) : *Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XI° - milieu du XIV° S.) : contribution à l'histoire économique, sociale et politique du Maroc Médiéval.* Bordeaux, Université Bordeaux III, Thèse du 3° cycle en Etudes Arabes et Islamiques 1983. 8 cartes dans le texte, 443 feuilles dactylographiées.

• Bokbot (Youssef) : *Habitats et monuments funéraires du Maroc protohistorique.* Aix-en-Provence, Université de Provence, Aix-Marseille I, Thèse du Doctorat en Archéologie Protohistorique, Janvier 1991. Cartes et figures dans le texte, 561 feuilles dactylographiées.

• Louhichi (Adnène) : *La céramique musulmane d'époque médiévale importée à Tegdaoust, étude archéologique, étude de laboratoire.* Université Paris I, Thèse du 3° cycle en Art et Archéologie 1984 (309 feuilles dactylographiées).

• Mellouki (Mohamed El) : *Contribution à l'étude de l'histoire des villes médiévales marocaines : Sigilmassa des origines à 668 (H)/1269 (J.C).* Aix-en-Provence, Université de Provence, Aix-Marseille I ; Thèse du 3° cycle en Etudes et Civilisation Islamiques 1985. Figures et cartes dans le texte, X + 511 feuilles dactylographiées.

• Mezzine (Larbi) : *Contribution à l'histoire du Tafilalet : aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au XVIIème et XVIIIème siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits*. Université Paris I, Thèse de 3° cycle en Histoire. 1977 Trois volumes ; tableaux, 2 photos et 3 cartes dépliées hors texte, X+736+69 pages dactylographiées.

• Renimel (Serge) : *L'artisanat céramique du Saintonge du XIII° S. à nos jours : essai de reconnaissance documentaire et archéologique d'un espace rural*. Université Paris I, Thèse du 3° cycle en Archéologie 1987 (364 feuilles dactylographiées).

• Taouchikht (Lahcen) : *Etude ethnoarchéologique de la céramique du Tafilalet (Sijilmassa) : état des questions*. Aix-en-Provence, Université de Provence Aix-Marseille I ; Thèse de Doctorat en Archéologie Médiévale 1989. Deux volumes ; 1° volume : texte (459 feuilles dactylographiées) et 2° volume : planches et illustrations.

فهـرس الأعـلام



1 ـ الأعلام الجغرافية والأثرية

حرف الألف :

حرف الباء :

حرف التاء :

حرف الجيم :

حرف الحاء :

حرف الخاء :

حرف الدال :

حرف الراء :

حرف الزاي :

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الصاد :

حرف الطاء :

حرف الظاء :

حرف العين :

حرف الغين :

حرف الفاء :

حرف القاف :

حرف الكاف :

حرف اللام :

حرف الميم :

حرف النون :

حرف الهاء :

حرف الواو :

حرف الياء :

2 ـ الأعلام البشرية

حرف الألف :

حرف الباء :

حرف التاء :

حرف الجيم :

حرف الحاء :

حرف الخاء :

حرف الدال :

حرف الذال :

حرف الراء :

حرف الزاي :

حرف الصاد :

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الطاء :

حرف العين :

حرف الفاء :

الحرف القاف :

حرف الكاف

حرف اللام :

حرف الميم :

حرف النون :

حرف الهاء :

حرف الواو :

حرف الياء :



فهرس الخرائط والتصاميم والرسوم والصور

فهرس الخرائط والتصاميم والرسوم والصور

1 ـ الخرائط :

2 ـ التصاميم :

3. الرسوم :

4. الصـــور :

لائحة بأهم قصور تافيلالت الخالية والعامرة

الاسم	الموقع	عدد السكان	والأسر[78]	تاريخ التأسيس	دلالة الاسم
مزكيدة	جماعة أو	1437	217	القرن 17م	كلمة تعني المسجد
سيدي بوبكر	مشيخة	608	104	القرن 5م	نسبة إلى أبي بكر عمر اللمتوني
مقطع الصفا	الريصاني	195	28	(؟)	كلمة تعني مكان طاهر ونقي
سيدي أحمد بلمدني	[آيت خباش	86	10	القرن 19م	اسم لأحد الأولياء
بومعيز	آيت بورك]	74	9	(؟)	اسم منطقة جبلية رعوية للماعز
وطارة	"	179	23	(؟)	اسم لقبيلة صنهاجية
هارون		707	99	القرن 19م	قصر كان يقطنه اليهود .
الزاوية الحفيانية	جماعة أو	1026	106	القرن 17م	نسبة إلى مؤسسها علي الحفيان
كيغلان	مشيخة	1600	180	(؟)	قصر كان يسكنه اليهود
شرفت باحاج	السفالات	1630	190	(؟)	قصر يصنع فيه الخزف والخشب
أبو عام	[الثلث	2150	264	القرن 14م	تم ذكره سابقا
كرينفود	الفوقاني،	390	40	القرن 17م	تم ذكره سابقا
الحدب	والثلث	450	42	القرن 18م	تم ذكره سابقا
مولاي عبد الله الدقاق	الوسطاني	846	96	القرن 17م	تم ذكره سابقا
زاوية سيدي قاسم	والثلث	130	16	القرن 13م	نسبة إلى الحسن الداخل أبو القاسم
جراوة	التحتاني،	550	77	(؟)	اسم لقبيلة صنهاجية
أولاد سيدي إبراهيم	والزوايا]	960	140	(؟)	اسم لشيخ من بني هلال
تغنجاوت	"	750	74	(؟)	اسم أمازيغي يعني ملعقة
أولاد بوعلي	"	586	57	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
أولاد جامع	"	802	90	(؟)	قصر يقطنه بني امحمد
أوشان	"	194	27	القرن 20م	كلمة أمازيغية تعني الذئاب
تابوعصامت	"	2540	240	القرن 14م	تم ذكره سابقا
تنغراس	"	1600	200	(؟)	كلمة أمازيغية تعني مكان للغراسة
هوارة	"	1260	130	(؟)	اسم لقبيلة صنهاجية
أولاد يحيى	"	900	106	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
تزكزوت	"	805	85	القرن 18م	كلمة أمازيغية تعني الخضرة
إيرارة	"	1606	216	(؟)	نسبة إلى نوع من التمر
أولاد ويلال	"	1390	155	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
أبادو	"	540	71	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
لمطاهرة	"	210	50	(؟)	قصر يسكنه عرب السفالات
كاوز	"	1100	120	(؟)	قصر يسكنه عرب السفالات
بوزملة	"	650	55	(؟)	قصر يسكنه عرب السفالات
الماطي	"	787	76	القرن 18م	تم ذكره سابقا
سيدي الغازي	"	298	31	القرن 18م	تم ذكره سابقا
تبوبكرت	"	151	12	القرن 19م	كلمة أمازيغية نسبة إلى أبي بكر
زاوية القاضي	"	207	24	القرن 18م	إحدى زوايا تافيلالت
زاوية عمار	"	220	19	القرن 18م	تم ذكره سابقا
زاوية من لا يخاف	"	207	24	القرن 18م	تم ذكره سابقا
زاوية سيدي علي	"	654	81	القرن 18م	تم ذكره سابقا

(78) حسب الإحصاء العام للسكان لعام 1994 .

الاسم	الموقع	عدد السكان	والأسر	تاريخ التأسيس	دلالة الاسم
زاوية بو إبراهيم	جماعة أو	307	25	القرن 17م	إحدى زوايا تافيلالت
جيواز	مشيخة	375	32	(؟)	قصر يسكنه عرب السفالات
أولاد مسلم	الريصاني	72	10	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
زاوية بن بوزينة	[آيت خباش	146	20	القرن 18م	تم ذكره سابقا
زاوية الرمل	آيت بورك]	200	25	القرن 19 م	إحدى زوايا تافيلالت المندرسة
الحاج هارون	واد إيفلي	105	20	(؟)	قصر يسكنه شرفاء علويون
سيدي بوزكري		24	5	القرن 17م	قصر دفن فيه الشريف بن علي
كوحيك		73	9	(؟)	قصر كان يصنع الحايك الفيلالي
أولاد محمد الشرفاء		264	46	(؟)	قصر يسكنه شرفاء علويون
مولاي عبد الكريم		132	20	القرن 18م	قصبة شمال ضريح م. ع. الشريف
أخنوس		494	51	القرن 14م	تم ذكره سابقا
صوصو		505	56	(؟)	قصر يسكنه شرفاء علويون
سيدي ملوك		415	59	القرن 17م	قصر يسكنه شرفاء علويون
أولاد رحو		364	35	"	قصر يسكنه شرفاء علويون
قدارة		90	13	(؟)	قصر يسكنه الفخارة
مولاي امبارك		191	29	القرن 17م	تم ذكره سابقا
أولاد عائشة		199	20	القرن 17م	تم ذكره سابقا
جنان القاضي		88	8	القرن 17م	قصر ولد فيه ابن أبي محلي
مولاي الشريف		375	39	"	قصابي يسكنها شرفاء علويون
أولاد المودن		164	23	(؟)	قصر يسكنه شرفاء علويون
حمودة		112	12	(؟)	اسم لعلم مذكر مجهول
أحيحير		20	3	(؟)	اسم أمازيغي يعني حائر
أولاد عدو		103	10	(؟)	قصر يسكنه شرفاء علويون
تعرمت		309	44	القرن 17م	كلمة أمازيغية تعني ألمت به
الدار البيضاء		294	54	القرن 18م	تم ذكره سابقا
الفرخ		411	53	(؟)	نسبة إلى صغير الحمام
دار مولاي الطالب		198	18	(؟)	نسبة إلى أحد الشرفاء
مولاي المستعين		354	47	القرن 17م	تم ذكره سابقا
مولاي سليمان		36	6	القرن 19م	نسبة إلى م.سليمان بن محمد الرابع
لمراني		120	16	القرن 18م	قصر يسكنه شرفاء علويون
ضريح م. علي الشريف		56	10	القرن 18م	تم ذكر الضريح فيما قبل
آبار المهدي		183	27	(؟)	قصر مخزني حديث العهد
آبار المخزن		105	14	القرن 19م	تم ذكره سابقا
حمو داود		440	57	القرن 17م	القصر الأصلي لشرفاء مدغرة
منوكة		482	59	(؟)	تم ذكره سابقا
بني ميمون الشرفاء		214	24	(؟)	قصر يسكنه شرفاء علويون
عمارة		92	10	القرن 17م	تم ذكره سابقا
أولاد عبد الحليم		258	35	القرن 14م	تم ذكره سابقا
أبحار		137	10	القرن 17م	قصر ولد فيه مولاي إسماعيل
بني ميمون الحرار		302	28	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
لبطرني		732	91	القرن 17م	قصر يسكنه شرفاء علويون
تيوجديت		270	19	(؟)	كلمة أمازيغية تعني الجديدة

الاسم	الموقع	عدد السكان	والأسر	تاريخ التأسيس	دلالة الاسم
إيحياتن	واد إيفلي	351	41	(؟)	قصر كان يسكنه اليهود
الريصاني		567	92	القرن 17م	تم ذكره سابقا
الملاح		421	74	القرن 20م	قصر كان يسكنه اليهود
أولاد عبد الرحمان	الغرفة	450	53	القرن 19م	قصر يسكنه بني امحمد
أمسيفي		1304	260	(؟)	فم الوادي أو أم ساكن من السيفة
أسرغين		1970	262	(؟)	نسبة إلى عرب المعقل السراغنة
الجديد		1405	256	(؟)	كان محطة لإيواء المسافرين
أولاد بدلة		302	42	(؟)	اسم زاوية بالغرفة
الحاج الهاشمي		290	35	(؟)	اسم علم مذكر من عرب المعقل
تاوراغت		36	3	(؟)	اسم أمازيغي يعني الصفراء
حدب الجحام		454	36	(؟)	اسم لقصر يسكنه عرب دوي منيع
أولاد يوسف	بني امحمد	2103	272	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
المنصورية		248	14	القرن 14 أو 17 م	تم ذكره سابقا
الشقارنة		515	67	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
الشبيلي		635	82	القرن 17م	قصر يسكنه بني امحمد
الفيضة		202	24	القرن 15م	تم ذكره سابقا
الفوقاني		1327	149	القرن 17م	الأعلى وهو ربما قصر تانجيوت اسم
مولاي أحمد الذهبي		653	73	(؟)	أحد أبناء مولاي إسماعيل
تاغكة		396	45	(؟)	اسم لحقل زراعي أو ساقية
مولاي الطاهر		210	30	(؟)	اسم لأحد أولياء تافيلالت
مرزوقة		94	11	(؟)	قصر ينعم في الرزق والخيرات
أولاد ليمان		757	87	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
الجير		950	108	(؟)	قصر يصنع فيه الجير
تاحسنونت		580	60	(؟)	نسبة إلى أبي حسون السملالي
سيدي عمر		400	36	(؟)	اسم أحد أولياء تافيلالت
تامسكنت		220	18	(؟)	اسم أمازيغي يعني ذات السكينة
أولاد سعيدان		880	170	القرن 15م	قصر يسكنه بني امحمد
الجبيل		700	80	(؟)	اسم جغرافي يعني جبل صغير
أولاد القايد		200	23	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
بني فرح		300	50	(؟)	قصر يسكنه بني امحمد
لوجارشة		546	77	(؟)	قصر تصنع فيه الخوابي والآجر

فهرس الجزء الأول

الباب الأول

عمران سجلماسة، المحددات والمؤثرات

الباب الثاني

سجلماسة من الأسطورة إلى الحقيقة الأثرية

فهرس الجزء الثاني

الباب الثالث

عمران سجلماسة من المدينة إلى القصور


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء